



موجز

تطور الحضارات الإنسانية

د. محمد صادق صبور



تمهيد

فى تطور الكائنات الحية - نباتات كانت أم حيوانات - يحدث التغير فى اتجاه واحد، لمدة طويلة، وقد حدث التغير فى دماغ بعض القردة وأدى إلى تطورها. بتغير خصائصها أمكنه أن يحكم تطور مجموعة كبيرة من المخلوقات، وشملت أسلاف الإنسان. تطلب تسيد الدماغ تغيرات جذرية فى السلوك الجنىسى والاجتماعى، حددت بدورها خصائص المجتمعات البشرية وأدت إلى انتهاء العصر الباليويثى.

كان الكشف عن الزراعة فى الشرق قديما تحولا ملحوظا فى حياة الإنسانية، فقد أصبح الزارع يفكر فى المستقبل وصار يتدبر فى إعداد محاصيله وحيواناته، وأصبح يتفكر فى حياته: فى شخصه ومسكنه ومجتمعه. أضحى هناك معنى للزمان والمكان، والمجتمع والدين. تطور الإنسان بسرعة أكبر، وتفرق فى أماكن أوسع: أراض زرعها ومراع ربى فيها غنمه ومواشيه، واستقر وارتحل، وتسليح بمهارات يدوية وقدرات عقلية. انتشر الإنسان الأول من نقطة مركزية على سطح الأرض، بخطى مختلفة السرعة إلى جميع أنحاء العالم. سكن الوديان الخصيبة، واختلط بأفراد مختلفين، وتعلم كيف يعيش مع باقى البشر: يساعد الواحد منهم الآخر، ويحميه ويدافع عنه، ويفتصب ويخضع للآخرين. مع الاحتفاظ بكيانه واستقلاليته. اخترع البشر الطبقات المختلفة فى المجتمع، ثم بدؤوا فى تكوين المدن ثم فى خلق الأمم.

ابتدأ الزراع فى الانتشار فى أراض جديدة ثم تبعتهم أمم من مستخرجى المعادن صانعى الأدوات والآلات المعدنية، ثم طبقات من التجار ورجال الدين والملاحين والمحاربين الذين غزوا العالم القديم. كل حين وآخر، يختلط الناس قليلا بالأمم المجاورة لهم وينتج عن ذلك خلق أمم جديدة - انتشرت اللغات الآرية واللغات السامية، ثم تم الكشف عن الكتابة فدونوا التاريخ، حتى غير الإنسان التاريخ.

وحدت اللغة والدين أسلافنا من الأمم المختلفة وتزاوجوا وتكاثروا وصارت لهم قومية واحدة. تبع هذا ظهور الرجال المسلحين بأسلحة من الحديد، الذين يركبون الخيل، وصحبه تطور الكتابة والتقنية وظهور العملات المعدنية، والسيطرة على أراض شاسعة. ظهر قوروش العظيم فى بلاد الفرس كما

ظهر الإسكندر الأكبر في مقدونيا وسيطروا على تلك البلاد عسكريا وسياسيا، وتغير المجتمع بعد أن صار خاضعا لنفوذ حاكم أوحده، ثم تكونت الأسرات الحاكمة، ولكن مشاكل الاحتفاظ بالسلطة لمدة طويلة هزمت الأسرات الحاكمة وأنتهت. وجاءت الإمبراطورية الرومانية التي تمكن فيها نفر قليل من الحاكمين، طوروا أنفسهم تباعا وجددوا في أسلوب حكمهم، من البقاء في السلطة لمدة طويلة وبدوا البنية الاجتماعية لكل الحضارات الغربية.

فتح اتساع الامبراطورية الرومانية الطريق لهجرة الشعوب الشرقية إلى أوروبا، تلك الشعوب التي بدعت الفن والفكر الحضاري، بدأت هذه الشعوب في التخصر في أزمنة سابقة في الأناضول، وبلاد ما بين النهرين، وفي سوريا، وفي مصر، صار هؤلاء الأتوم الآن يتحدثون باللغة الإغريقية ثم باللاتينية. ثم بدؤوا بإدخال ديانات جديدة. دخلت اليهودية كأول دين يؤمن بالتوحيد مقابل الشرك بالله، وكان هؤلاء الأتوم السبب في تحول مواطني الامبراطورية الرومانية المتعلمين ومن بعدهم ملكوهم المتبريرين - إلى الألبان الجديدة التي تحترم الحياة الإنسانية، وتبشر بالمساواة والوحدة بين بنى البشر وترفض عبودية الإنسان لأخيه الإنسان. تعدلت الأفكار اليهودية ودخلها كثير من التحريف والحذف والإضافة فجاءت المسيحية، ثم الإسلام لتصويبها. في نفس الوقت ظهر في الهند المعتقد بأن الناس ينقسمون - بحكم ولائهم - إلى طبقات يعلو بعضها بعضا، وصار هذا المعتقد هو أساس ديانتهم.

أعقب انهيار الامبراطورية الرومانية دويلات اتحدت وأقامت نفسها المدافعة عن الحضارة الغربية وحامية حمى المسيحية، ولكن هزمتها جيوش المسلمين، والفرسان الآسيويين من المغول والترك، كما أغار عليها المحاريون البحريون الفايكنج من الشعوب الشمالية. دمر كل مغير شيئا واكتسب شيئا، واندمج في المجتمع الأوروبي تدريجيا حتى صار منه. حدث تباعا نزاع بين الكنيسة والنبله الحكام والملوك، واتجهت الهجرة غير المقيدة من البلدان المتقدمة إلى الأراضى المتخلفة، حدثت نويات من الاضطهاد والتحولت الدينية، وتفرقت الأقليات بين البلاد، وخاصة اليهود.

ثم نشأ المجتمع الأوروبي الحديث بعد تقلبات حادة في الفكر والنشاط: الإصلاح الديني، عصر النهضة الأوروبية، والثورات العلمية والصناعية. أدت هذه العوامل جميعها إلى خلاقات اجتماعية وثورات سياسية من عمل أفراد معدودين نشأوا في طبقات اجتماعية مخصوصة تطورت على مدى أجيال طويلة وخضعت لمعتقدات دينية ربطت بينهم. علمت هذه التجارب الثورية الثوار التاليين كيف يحسنوا أساليبهم للقيام بالثورات ثم كيف يتجنبوا وقوع هذه الثورات.

اتسعت الثورات الزراعية التي بدأت في غرب آسيا خارج مصر وأوروبا والهند حتى شملت الصين وبعدها إندونيسيا وأفريقيا الإستوائية. تم للإنسان أيضا الكشف عن الزراعة في أمريكا. في كل هذه الأماكن تطور الإنسان مستقلا عن تطوره في الأماكن الأخرى. كان الزواج يتم بين أقواد من نفس الطبقة، وانقسم المجتمع أيضا إلى طبقة الحكام ورجال الدين والتجار والعمال المهرة والفلاحين الزراعيين للأرض. وكان ارتفاع طبقة على طبقة أو انتصار شعب على شعب يصحبه الاستعباد والرق، كما يصحبه التزاوج المختلط بين الطبقات والشعوب لحد ضئيل. وتأثر كل عالم منفصل عن بقية العوالم باختلاف طباع البشر الأصليين من المهاجرين الجدد، واختلاف المحاصيل والحيوانات التي استغلوها واختلاف التعرض للأمراض والأوبئة حسب الجو الذي عاشوا فيه.

هذا الكتاب يعبر عن رأي صاحبه، والرأي الحر هو الذي ينتقل عبر البلاد بلا جواز سفر. الهدف هو إعادة كتابة التاريخ على أسس تاريخية وأسس بيولوجية (وقد سبقنى في هذه المحاولة الأستاذ محمد كامل حسين في كتابه «التحليل البيولوجي للتاريخ»)، ولو أن حقائق التاريخ مازالت غامضة عنا ودقائق البيولوجيا مازالت تستحدث كل يوم. في كلا المجالين كثرت التنبؤات والتحقيقات والارتباطات لدرجة أوحى إلى بكتابة هذا الكتاب. في هذه المحاولة يبدو أن هناك خطأ واحدا مستمرا في تطور الإنسان ومجمعه، خطأ يوجد بين البشر في أي مكان، رأيت أن أعرضه أمام القارئ العادي لعله يثير فكره ويبدأ في تأمل حقائق الحياة.

تاريخ الانسان والمجتمع

مقدمة

ربما كانت المقدمة فى عام ١٦٩٩ عندما شرّح إيوارد تايسون شمبانزى جُلب إلى لندن من أفريقيا وتبين الشبه الكبير مع الإنسان، ولو أن الأقارعة والعرب اتضح لهم هذا التشابه منذ أمد طويل. أما بداية معرفة الأوروبيين لنشوء الإنسان وتطوره فترجع إلى تشارلز داروين الذى قدم قرائن عديدة وانتهى إلى العقيدة التى خطها فى كتابه «أصل الأنواع». مازالت الطرق التى اتبعها داروين هى نفس طرقنا اليوم ولكن الأصناف التى تمكن العلماء من براسبتها حتى وقتنا هذا والوسائل التى استخدموها فى تلك الدراسات تفوق كثيرا وتعمق إلى أغوار بعيدة عما استخدمه داروين فى دراساته، فقد وجد علماء اليوم أن هيموجلوبين الإنسان مثلا يختلف عن هيموجلوبين الغوريلا فى ثلاثة مواضع فحسب (وهذه قرينة على القرابة)، ووجدوا أن عدد الصبغيات (الكروموزومات) فى الخلايا البشرية هو نفس عددها فى خلايا القرد وأخذوا هذه قرينة على الأصل الواحد. ولكن مثار اهتمامنا الآن هو كيف حدث هذا التطور من القرد إلى الإنسان فى ضوء ما نشاهده وما نستطيع إخضاعه للتجربة، مستثمرين علمين جديدين لم يكونا معروفين على عهد داروين: علمى الوراثة والحفريات.

أشار لوجروكلارك وغيره إلى المجال الواسع لتركيب القرد، فقد تبين وجود تتابع للأنواع المختلفة تشير إلى تطور مطرد - توقف فى نقاط عدة. وجدوا نقصا مستمرا فى طول الأنوف مع نقص فى القدرة على الشم فى القرد المتتالية، كما وجدوا تطورا متتابعا فى قدرة الأيدى والأقدام على الاستمساك بالأشياء، والمقدرة التدريجية على الوقوف، والمشى واقفا، وفى تسطيع المخالب والأسنان الأمامية، وفى كبر حجم الدماغ الأمامى، وفى زيادة تعقيد تركيب النصفين الكرويين للمخ مع إطالة تدريجية للأعمار وانخفاض فى الإخصاب. حدثت هذه التغيرات فى نسانيس العالم القديم ونسانيس العالم الجديد التى انفصلت تماما عن بعضها بعد نشأتها فى عصر الإيوسين. تدل هذه القرائن على أن التطور قد سار فى اتجاه متوازن، على مدى طويل جدا، بطريقة محتمة، فى اتجاه واحد.

قد يكون انفصال أسلاف الإنسان عن أسلاف القرود قد حدث في عصر الميوسين منذ حوالي ٢٠ مليون سنة في مكان ما من قارات العالم القديم، ولكن معظم البقايا التي وجدت عشر عليها في عصر أحدث من هذا كثيرا، ووجدت في شرق أفريقيا (في زمن يتراوح منذ ٢ مليون إلى نصف مليون سنة). لهؤلاء الرجال القردة مظاهر محددة واضحة:

* صنعوا الآلات من القرون والعظام (وفيما بعد من الحجر).

* ضمرت أنيابهم ووصلت إلى حجم أسنان الإنسان.

* اتخذوا الوضع القائم أكثر من أي نوع من القروء.

* استمر حجم التجويف الدماغي كحجم تجويف أدمغة القرود (من ٤٥٠ - ٥٥٠ سم^٣) ولكن اختلفت التفاصيل الأخرى في العينات التي وصفها مختلف العلماء، والظاهر أنها تمثل أنواعا مختلفة من الكائنات وليس نوعا واحدا، ولا يمكنها التزاوج، وقد تكون أنواع مختلفة من الكائنات وجدت معا في نفس العصور وكان التنافس بينها قائما، تعيش جنبا إلى جنب في بلاد مفتوحة، واستمر تطورها بطريقة متوازنة، عبر عصور طويلة، بعضها استمر في التطور، بينما بعضها الآخر (النباتيون) توقف تطوره ثم اندثر.

هكذا يكون الإنسان الأول قد ترك الغابة، وكان أكله الحيوانات بالإضافة للنباتات، وكان يمشى ولا يتسلق الأشجار، وكان يستطيع الدفاع عن نفسه بالآلوات التي صنعها بيديه. مكنته الأيدي المتحررة (من المشى عليها) أن يستخدمها في الصناعة وأن يقطع بها الطعام (ولم يعد في حاجة لأن يمزقه بأسنانه)، وفتحت له الطريق لنمط جديد من الحياة. بهذا بدأ الدماغ الأدمى يتضخم وتحسن وظائفه ليتقن المشى على رجلين ويتقن استخدام يديه. وما زال هذا سائر حتى عصرنا الحالي - خلال نصف مليون سنة (أو ٢٠ ألف جيل من أجيال الإنسان). تكيف الإنسان - خلال هذه السنين - مع عادات جديدة وظروف معيشة متباينة، خاض خلالها عصور جفاف شديدة مع عصور جليد متتالية. انتشر الإنسان في جميع أنحاء العالم القابلة للسكنى، وانتشر من أفريقيا إلى جنوب أوروبا وجنوب آسيا، متنقلا حسب عصور الجليد المختلفة. تكونت في هذه الرحلات أجناس مختلفة تتكيف مع مناخ مختلف، وهكذا نشأ الإنسان الباليوليثي الوسيط، الذي وجدت بقاياه في جزيرة جاوة.

تطور هذا الإنسان - في هذه المساحة الشاسعة من الأرض - بينما ظلت القرود على حالها. إزداد حجم الدماغ تدريجيا، واستثمرها في مزيد من الإتقان في صناعة الآلوات التي يستخدمها. استخدم النار - التي حافظ على اشتعالها لأنه لم يتمكن بعد من بدئها - في طهو الحبوب وجنور

النباتات ثم اللحوم. ثم بدأت عضلات اللسان فى الاندماج فى عظام الفك وقد ساعد هذا التطور فى النطق والكلام، وزاد عدد الأسنان اللبنية (كما ظهر فى النوع الذى وجد بالقرب من بكين) كقرينة لزيادة طول المدة التى تحتضن فيها الأم وليدها. كلما كبر حجم الدماغ (والجمجمة) كما اتسع حوض المرأة لحد معين لايسمح باستمرار مدة الحمل أكثر من ٤٠ أسبوعا وفى نفس الوقت طالت مدة حضانة الوالدين لأطفالهما وبلغت من ١١-٢٠ سنة ولهذا استطالت مدة معيشة الفرد لتصل إلى ثلاثة أمثال مدة اعتماد الأبناء على آبائهم أو مايزيد.

السؤالان اللذان يطرحان نفسيهما هما:

* كيف حدث التغير فى حجم الدماغ وفى وظائفه؟

* ماذا كان مصير هؤلاء الأناث الذين ظهروا منذ نصف مليون عام؟

لقد ظهرت بقايا لهم فى شرق أفريقيا وفى جزيرة جاوة وبالقرب من بكين وفى أنحاء قليلة من غرب أوروبا. هل هم طليعة الإنسان الحديث! لقد كان تطور الدماغ مفيدا للإنسان، فقد مكّنه من حسن استخدام يديه فى صنع الآلات وفى استخدامها وفى ابتكار استعمالات جديدة لها (وإلى الآن لم يصل الإنسان إلى الحد الأمثل لهذه الوظائف). من المؤكد أن اختراعا قاد إلى الاختراع الأخر، وأن ارتباط البصر وحركة اليد مع الدماغ فتحت آفاقا أخرى للنشاط، وأصبح ذكاء الإنسان أشد فاعلية من قوة أسنانه وسطوة مخالبه فى الدفاع عن نفسه وفى تطوره وتقدمه. كل تحسن فى الدماغ قاد إلى أفكار جديدة وابتكارات، تضاعفت وتوسعت ثم تشابكت وتغلغلت فى التكوين الجينى وأحدثت تحسنا متتاليا فى قدرات الإنسان وأدت فى النهاية إلى تكوين إنسان آخر يفوق أسلافه فى قدراته ومداركه حتى وصلنا إلى الإنسان الذى نشاهده اليوم. وبهذا صار الدماغ هو العضو السائد فى علاقة الفرد ببيئته، وهكذا تطورت الأجناس تطورا متوازيا أدى إلى نشوء أصناف مختلفة منها فى الأماكن الجغرافية المختلفة عبر نصف مليون سنة حتى مقدم عصر الجليد الأخير.

المليون سنة الأخيرة تعرف جيولوجيا باسم «البليستوسين»، وقد تخللتها خمسة عصور متتالية - تعرف بعصور الجليد، بينها أربعة عصور دافئة. العصر الحرج منها للإنسان هو عصر الجليد الأخير، الذى استمر نحو مائة ألف عام، تخللته ثلاثة قمم حدثت منذ حوالى ١١٥ و ٧٢ و ٢٤ ألف سنة. حبست فترة التجمد الأخيرة كميات مهولة من الماء فى القارة المتجمدة الجنوبية وفى شمال أمريكا وجرينلاند وسكندينايفيا وسيبيريا والتبت، وأدت إلى انخفاض مستوى الماء فى المحيطات والبحار حوالى ٢٠٠ متر. نتج عن هذا أن الجزر - كاليابان وبريطانيا - صارت متصلة بالقارات، ومجموعة الجزر بين آسيا وأستراليا صارت معبرا متصلا بينهما، وصارت آسيا وأمريكا متصلتين.

صار انتقال الإنسان والحيوانات ممكنا بين القارات، وانتقل الإنسان من الشمال المتجمد إلى مناطق الدفء في العالم وشاهد هذا الزمان هجرات اضطرارية للإنسان نتج عنه تغير في توزيع الأجناس العظمى. هاجرت فروع متتالية من الجنس المونجولى عبر مضائق بيرنج خلال ٨٠٠٠ سنة إلى كافة أنحاء أمريكا، وكان آخرهم الإسكيمو الذين قطنوا ألاسكا منذ حوالي ٢٠٠٠ عام ووصلوا إلى جرينلاند حوالي سنة ١٣٠٠ بعد الميلاد. عبر آخرون إلى الجنوب وانتقل أبناء من جنس الأسترالويد عبر غينيا الجديدة (ومعهم كلبهم المستأنس) ووصلوا إلى استراليا. كذلك وصل البوش مان من شمال أفريقيا إلى جنوبها، ووصل الجنس القوقازى - الذى نشأ فى جنوب غرب آسيا - إلى أوروبا وكردستان وشبه جزيرة العرب حتى فلسطين، حافظت الأجناس المختلفة على نقاوتها إلى حد كبير بالنيكاح فيما بين أفرادها، ولكن مما لاشك فيه أن التهجين بينها قد حدث، وانتقلت الجينات من مجموعة إلى مجموعة، مما تسبب فى اختلاف الأفراد المهجنين عن صفات المجموعات الأصلية.

ظهر النجاح الكبير لهذا الإنسان البدائى فى أنواته وفنه وقدرته على القنص والصيد، ووصل النجاح إلى قمته بين الأفراد المهجنين فى أواسط القارات. لاحظ علماء الأنثروبولوجى فروقا بين قدرات الأجناس المختلفة. فقد تبينوا أن البوش مان (وغيره من الأجناس التى اتبعت الصيد والقنص) أكثر نكاه: فالقنص عرف خصائص الحيوانات وطرق تربيتها وبدأ فى استئناسها وتعلم كيف يجتذبها - مما دل على معرفته الواسعة والدقيقة بأنواع النباتات فى بيئته وخصائصها الغذائية، والتطبيبية والسمية، (وعرف أيضا كيفية استخلاص السموم منها). لاحظ العلماء أن جامعى الطعام كانوا أقل نكاه ممن اعتمدوا على الصيد والقنص وصائدى الأسماك، وصائدى الطيور وناصبى الفخاخ، وأن أكثرهم نكاه كانوا مع اعتمدوا على الصيد والقنص وجمع الطعام معا، وهذه الميزة الجينية تفوق أى ميزة يمكن اكتسابها بالتدريب. ولكنه كان متخلفا فى بعض النواحي: كان متخلفا فى العد، سواء كان الأشخاص أو الحبوب أو الأيام، وكان يرى العمل اليدوى الرتيب المتكرر مثيرا للملل، وهكذا كان لايتحمل زراعة الأرض. كان الصياد القديم - مثل عجر أوروبا اليوم - دائم التجوال، ويقاوم الاستقرار فى مكان واحد ولم تتغير صفاته سوى بالتهجين. (وتظهر صفاته الأصلية فى بعض أنواع الرياضة الحديثة فى بعض طبقات المجتمع مثل صيد الثعالب والحيوانات المفترسة، ومثل تفاهته، ومثل شغفه بالترحال). أما جامع الطعام فهو أقل كراهية لزراعة الأرض من الصياد، ومتى أتقن الزراعة اتخذها وسيلة لإنتاج الطعام وبدأ فى التكاثر السريع (لأن الزراعة تحتاج لقليل من الجهد وقليل من العناية). بدأ الإنسان فى المقايضة بمنتجاته مع جيرانه. ثم بدأ يتخذ التجارة وسيلة لكسب العيش، ثم بدأ فى استخراج المعادن من باطن الأرض، ثم فى صناعة السلاح وبيعه. وعند بدء الأسواق انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمعات الإنسانية.

قال جلال الدين الرومي (كبير صوفية الإسلام الأعظم) مثل مقولة داروين قبله بعثات السنين:

خُلقت جمادا فلما مِتْ بعثت نباتا
خُلقت نباتا فلما مِتْ بعثت حيوانا
خُلقت حيوانا فلما مِتْ بعثت إنسانا
فلم أخاف الموت ! هل عمري بعثت أقل مما كنت

التاريخ الأول الأصل والانساس

كُون الإنسان قد تطور من أسلاف أقل رقيا يبدو حقيقة واقعة، ولكن ما هي نوافع هذا التطور وأسبابه؟ وما هي آثار التطور خاصة في مراحلها الأخيرة؟ يبدو أن من أول أسباب التطور هي القدرات الإضافية التي يضيفها التطور إلى الإنسان الجديد في صنع آلاته وفي إتقانه لفنه وفي تحسن كلامه وفي تكون أنواع من البشر المختلفين، وكلما تطور الإنسان كلما لزداد تعقيدا عن باقي الحيوانات.

ترحال الإنسان الجديد من آسيا إلى نهاية العالم ترجع إلى اختراعه لأدوات جديدة مكنته من السيطرة على البيئة ومن تغييرها، ومن تبديل حياته. كل هذه المنجزات حدثت في ٢٠ ألف سنة الأخيرة. أول هذه الاختراعات هي تحسن صناعة الأدوات من الحجارة، وهذا التحسن يرجع إلى زيادة المهارة ومزيد من الرؤية المسبقة للأحداث المقبلة، فصنع آلات تمكنه من صنع الأدوات، وكشف عن معادن واستغلها، صنع أزميل من الفلنت مكنه من العمل بدقة أكثر على قرون الحيوانات وعلى العاج والعظام والخشب. نسج هذا الإنسان أردية من لحاء الشجر وصنع سلالا لخنن الحبوب. صنع الإبر لخياطة جلود الحيوانات وعمل الملابس، واستخرج من النباتات عقاقير للاستشفاء وسموما للصيد. وهكذا استثمر الإنسان الحيوانات والنباتات والمعادن لمنفعته، وعرف أين يجدها ويتعرف عليها ويسميتها بأسماء وضعها لها ثم يستفيد بها. أهم هذه الاختراعات هي تلك التي زادت قدرته على الصيد والقنص وعلى صيد الأسماك وعلى جمع الحبوب والنباتات وعلى السفر والترحال. صنع الحراب وشكل القذائف ليتقن الصيد، وصنع السهم والقوس في أواسط آسيا منذ ١٥٠٠٠ سنة، ومنها انتشر غربا إلى أوروبا وأفريقيا وشرقا إلى أمريكا. ومن أهم مخترعات إنسان ذلك العصر هو صنعه للقوارب التي مكنته من الوصول إلى جزر المحيطات: الهادي والأطلنطي والهندي (وما زالت هذه القوارب البدائية تستخدم حتى عصرنا الحاضر).

انزاح الجليد عن العالم تدريجيا حوالي سنة ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، وبدأ الإنسان يكشف لنا عن خواصه الآدمية منذ ذلك التاريخ. بدأ الإنسان في دفن موته وفي التفكير في الماضي والتدبر في المستقبل، وبدأ يدرى بموقعه من الطبيعة. ثم بدأت التماثيل ثم الرسوم تخرج من يدي هذا الإنسان،

وترتبط بالأساطير والسحر ثم بالدين، ثم بدأت الحضارات فى الظهور: حضارة مصر (وفنها)، وحضارة شاتال هويوك فى الأناضول (واستمرت صنوف الفن والمعتقدات الدينية مع الإنسان حتى الآن).

وفى نفس الوقت بدأ الكلام للإنسان كاختراع عظيم، وتحولت أعضاء القضم والمضغ والبلع والتنفس تدريجيا إلى أعضاء للتعبير، وتطورت الحنجرة وسقف الحلق واللسان والأسنان والشفقتين فى تركيبها لتلائم وظيفتها الجديدة، وتحول الدماغ واتصالاته العصبية بعضلات تلك الأعضاء ليناسب هذه الوظيفة الجديدة. وتعتبر عملية اختراع اللغات - أى استخدام الكلام للتعبير عن النفس والاتصال بالآخرين - من أهم منجزات الإنسان، وبدأت منذ عهد سحيق فى القدم، وربما تكون قد استغرقت أكثر من ألف جيل، وكان لاختراع اللغات أثر بالغ الأهمية فى أجناس الإنسان العظمى. أسس اللغات واحدة وأصولها واحدة ولكنها نحت منح متعددة وتطورت متوازية فى أجناس العالم الكبرى، وصارت حاليا أكثر من عشرة آلاف لغة مختلفة، لا يفهم السامعون المختلفون معانيها، ومهما حاول العلماء تصنيفها لم يتمكنوا من خفض عددها أقل من مائة عائلة لغوية. تطوّر الكلام قديم ويطيء بينما تطوّر اللغات حديث وسريع، لأن العقل يتطور أسرع كثيرا من تطور اللحم والعظام. كلما تطورت اللغات وتقدمت كلما تطور الإنسان وتقدم، وتوسع فى هذه الحياة الدنيا، فالمتطورون هم الذين ينتشرون فى الأرض. وهم الذين يمتلكون القدرات الزائدة عن غيرهم ولديهم الأفكار التى يستطيعون التعبير عنها بالكلام ويفهمونها بالعقل أى هم الأذكىاء.

اختلفت خصائص الأرقام المختلفين الذين قطنوا مختلف مناطق الأرض. اختلفت خصائص الناس الذين انتشروا فى الأمكنة الفسيحة عن أولئك الذين قصرت إقامتهم على مناطق صغيرة. اختلفوا فى مظهرهم الخارجى كما اختلفوا فى سلوكهم. لاحظ داروين هذه الفروق وأرجعها إلى الانتخاب الطبيعى، وترجع الاختلافات أساسا إلى اختلاف البيئة والمناخ. اختلف الناس - عند بدء تشتتهم منذ عشرة آلاف سنة فى بعض الصفات الوراثية: كلون الشعر، لون الجلد، شكل الأنف والفم والحوابج، تركيب سقف الحلق والأسنان، وكثير جدا من الصفات التى كيفتهم على الحياة فى المناطق المختلفة. فى عام ١٩٠٠ تم الكشف عن فصائل الدم ووجد أن بلازما البشر تحتوى على بروتينات تضبطها جينات وراثية محددة. يرث الفرد نوعا من فصائل الدم من أبيه ونوعا من أمه، ولذا فأصناف الفصائل العظمى هى AA, AB, AO, BB, BO, OO فى العصر الحالى عرف ملايين الناس فصائل دمهم وسجلت هذه البيانات فى بطاقتهم الشخصية (كما سجلت كثير من صفاتهم الشخصية)، وتبين من دراسة هذه الصفات الحقائق التالية:

- * جميع البشر، وحتى مستوى عائلاتهم هجن، وحدث خلط كبير بينهم فى جيناتهم.
- * كل جين موروث وثابت، وكثير من هذه الجينات مرتبط بجينات متماثلة فى القرود والنسانيس.
- * هذا الخلط بين الجينات فى كل مجموعة محافظ عليها للميزة التى يكسبها الهجين (مثل فصيلة AB) للشخص عن الجين النقى (مثل AA أو BB).
- * تختلف نسب هذه الجينات بين الأشخاص فى الأماكن الجغرافية المختلفة (وتحكى هذه الاختلافات قصة ترحال الأدميين من مكان لآخر).
- * بعض هذه الجينات مميزة لأجناس معينة (مثل فصائل الدم ABO، ريسيس، MN، لها توزيع خاصة فى الزنوج الأفارقة، يختلف عن توزيعها فى الأوروبيين، وقد يكون هذا التوزيع مستمداً من أسلافهم البوش مان).

هكذا تزودنا فصائل الدم ومورثاتها (وجيناتها) بشجرة النسب الوراثية وتساعدنا فى دراسة تحركات الإنسان، كما تساعدنا مجموعة أخرى من الجينات المسؤولة عن تركيب الهيموجلوبين فى الكريات الحمر فى تتبع حركة الإنسان على الكرة الأرضية. وفى دم النوع الغالب من أسلافنا الهيموجلوبين الموجود هو من نوع A (وفى الجنين من النوع F)، ولكن ظهرت أنواع أخرى فى بعض الأجناس التى نشأت فى أماكن مختلفة من العالم القديم، كل نوع يرجع إلى تحول مفاجئ فى الجين. معظمها يسبب فقر دم شديد قد يؤدي إلى الموت فى الصنف النقى، أما فى الهجن فينشأ الوليد وفى دمه هيموجلوبين مختلط من النوعين فيكون فقر الدم بسيطاً وغير مميت. هذه الجينات المتحولة قاصرة على المناطق الاستوائية من العالم القديم، حيث ظهرت الملاريا الخبيثة منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة عندما انتقلت من القرود للإنسان فى غرب إفريقيا أو فى جنوب شرق آسيا وبدأت فى الانتشار فى القادمين الجدد. تمكن الأفراد الهجن نوى الدم الذى يحتوى على صنفى الهيموجلوبين من مقاومة هذا النوع من الملاريا (لأن طفيلي الملاريا لايمكنه هضم الهيموجلوبين المختلف) ولايمكن من البقاء، وهكذا انتشرت الجينات المتحولة انتقائياً لأن من يحملونها ظلوا أحياء فى المناطق المزدهمة بالسكان والمبوءة بالملاريا الخبيثة لأنهم اكتسبوا مناعة ضد الإصابة بها. وفى البداية كانت هذه الأنواع المختلفة من الهيموجلوبين مميزة لبعض الأجناس (وظلت هكذا لعهد طويل). مثلاً هيموجلوبين S المسئول عن فقر الدم المنجلي - لبعض فصائل الدم - كان مميزاً للزنوج الأفارقة، وأخنوا معهم هذه الصفة الوراثية بعد عبورهم المحيط الأطلنطى وانتقالهم إلى أمريكا. أما فى جنوب شرق آسيا فإن هيموجلوبين E (المسئول عن نوع من فقر الدم أقل شدة من

فقر الدم المنجلي) قد حل تدريجيا محل هييموجلوبين S وأزاحه (وانتشر على مدى واسع من أسبانيا إلى الصين). هكذا تطور الهييموجلوبين الأدمى وصارت هناك أنواع كثيرة من البشر (نظرا لاتساع رقعة الأرض التى تواجد فيها الإنسان ولازدحام الدنيا بالبشر وتعرضهم للأوبئة وللأمراض المختلفة).

كلما انتشر الإنسان على ظهر البسيطة كلما قابل أعداء جدد ففى الأماكن المختلفة حشرات: كالقمل والقراة وديدان ومثقيات، وميكروبات جديدة: بكتريا وفيروسات، أو كل هذه معا. البعوض نقل للإنسان طفيلي الملاريا، والجرذ نقل البرغوث الذى نقل بدوره عصويات الطاعون. زادت مصادر الأمراض كلما إزداد الزحام وزاد نجاح الإنسان وراثته، كلما زاد تشتت البشر وكذلك زاد تشتت الأمراض واختلفت. كما استجابت أنواع الهييموجلوبين وفصائل الدم للطفيليات بطرق مختلفة، جاء الكشف عن أمريكا وانتقال الإنسان إليها من العالم القديم (بميكروباته) كاختبار جديد لنظرية تطور الأمراض. تطورت الأجناس والأمراض فى العالمين القديم والجديد بطرق مختلفة عن بعضها البعض كلية. أثبتت هذه التجربة الفريدة أن الطفيليات الكبيرة كانت أقل إيذاء للإنسان الجديد الذى وفد إليه عن الإنسان القديم الذى كان يعيش فى تلك البلاد، أما الكائنات الدقيقة: كالطفيليات وحيدة الخلية، والبكتيريا والفيروسات فكانت أشد إيذاء له وأعظم خطرا. فتكت الحصبة والجدري بسكان أمريكا الأصليين بينما حطم الزهرى الوافدين الجدد من العالم القديم.

خلال سنوات الانتشار الطويلة فى العالم تميزت مجموعات البشر إلى مجتمعات مختلفة: إلى الصيادين وصائدى الأسماك وجامعى الطعام، وتكيف الإنسان مع بيئته سواء كانت غابات أم صحارى، جبال أو شواطئ بحار. تميز سكان البلاد الباردة بالبنية الضخمة بينما امتاز سكان المناطق الحارة بضعف البنية الجسم. ظهر الأقزام الصيادون فى أماكن متفرقة من البلدان الحارة، ومعظمهم كانوا يقطنون الغابات: جزر الهند الشرقية، الملايو، غابات أفريقيا الاستوائية وبعضهم كانوا من قاطنى الجزر وبعضهم من قاطنى الصحارى. قاطنو قمم الجبال: الأنديز والهمالايا صاروا ضخام القلوب واكتسبت دماؤهم كميات من الهييموجلوبين فوق المستوى المعتاد، وهكذا تمكنوا من العمل والحياة فى الأجواء مخلخلة الأكسجين. سكان البلاد شديدة البرودة كالإسكيموسكان صحارى أستراليا الباردة (الذين ينامون عرايا فى الطل فى الليل البارد) سريان الدم ضئيل للغاية فى أطرافهم ليحتفظوا بالدفء فى أحشائهم الداخلية. هذا نوع من التكيف البيئى الذى فرضته عليهم الحياة، مثله مثل الفرد - من قبائل الدنكا والواتوتس أطول وأحف آدمى العالم قاطبة الذين تكيفوا مع ارتفاع الحرارة الشديدة فى بيئتهم - مع كفاية الغذاء - بزيادة مساحة أجسامهم، أما فى حالة

البوش مان فعليه التكيف لتحمل درجات قصوى ودرجات دنيا من الحرارة ودرجات شديدة من الفقر والعوز. سبق للبوش مان اكتساب بنية صغيرة فى تكيف مع معيشة الصحراء التى هرب إليها ممن تتبعوه من ضخام الأجسام، تكيفه حدث مع تجاعيد الجلد المبكرة التى تجعل شكله مختلفا أشد الاختلاف عن قرم الغابات «البيجى» و«قير الغذاء»، واكتسبت امرأته تكيفها من زيادة الشحوم فى أردافها (كما يفعل الجمل بسنامه). تتضح هذه الفروق بشدة فى الاختلاف الشديد فى البنية بين الجيران الذى فرقته المرتفعات العالية مثل أهالى سكيم والبنغاليين، وأهالى إيران والعراق، والسودانيين والأحباش، وبين من يقطنون أعالي جبال الألب وسكان شمال إيطاليا فى السهول والوديان. هناك فرق بين كل هذه الأقوام فى البنية وفى الطبع، وفروق ترجع إلى اختلاف نباتات وحيوانات البيئة وتؤكد التكيف مع الطبيعة.

تعاقب عصور الجليد مع عصور الدفء على سطح الكرة كان له العواقب التى دفعت الإنسان للانتقال إلى قمم الجبال وإلى قاع الوديان، ورحيلهم إلى الشمال وإلى الجنوب، مما كان له أكبر الأثر فى سنوات التاريخ التكويني للإنسان. بعض الأجناس، فى أمكنة معينة كانوا دائمي الترحال، بينما رسخ بعضهم فى بيئتهم ولم يغيروها كالجذر الثابتة فى عالم من البحار. يختلف الناس الحاليون فى لون بشرتهم التى تتراوح من الأبيض للأسود. تلون الجلد يخفّض إنتاج فيتامين «د» فيه، وهذا الفيتامين ذو أهمية كبرى فى الأماكن المرتفعة، ولكنه فى المناطق الاستوائية يقلل من حرارة الجسم ويقى الجلد من الدمار الذى تحدثه أشعة الشمس. سرطان الجلد - مثلا - أكثر شيوعا فى نوى البشرة الفاتحة الذين يقطنون فى الأماكن المشمسة (خاصة النوع المسمى بالقرحة القارضة). ربما كان اللون الأصلى للإنسان هو اللون البنى الفاتح، وحدث تحول فى مورثات اللون فصار أبيضاً فى أوروبا (الجنس القوقازى) وأصبح بنياً قاتماً فى جنوب آسيا (الجنس الأوستراويد) وصار أسوداً فى أفريقيا (الزنوج). حدث هذا التحول الجينى (وتبعه تغير اللون) على مدى نصف مليون سنة، واكتسب الزنوج والأوستراويد ألوانهم متفرقين (كما حدث فى تحولات الهيموجلوبين لديهم)، مثال آخر لتكيف الإنسان مع الطقس هو انطواء الجفن لدى المتجولين فى شرق آسيا. هذه الصفة هى تكيف للجو شديد البرودة وتناسب تماما الإسكيمو وتقل أو تفقد فى هنود أمريكا الحمر.

من المناسب أن نتساءل الآن عن أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين تطور الإنسان وتطور بقية الحيوانات. حدثت اختلافات تبعا للتزاوج ثم حدث انتقاء للذرية قائم على أساس أن البقاء للأصلح. إلا أنه فى حالة الإنسان فقد كان له قول فى التزاوج وفى الانتقاء الطبيعى، وأدى هذا إلى التسارع فى عملية تطور الإنسان. سمح اختلاف المورثات فى لون البشرة للإنسان أن يمتد من مكان محدد فى البداية إلى أن يغطى سطح الأرض فى خطوات ثلاثة على مدى نصف مليون سنة.

للإنسان ٢٣ زوجا من الكروموزومات (لكل من الغوريلا والشمبانزى ٢٤ زوجا، ولنسانس الجيبون ٢٢ زوجا من الكروموزومات، ويتراوح عدد الكروموزومات فى باقى أنواع النسانيس بين ١٨ زوجا و٢٠ زوجا). ظل هذا العدد ثابتا فى الإنسان والقروء على مدى ٢٠ مليون سنة، ولكن محتوى الكروموزومات وتركيبها هو الذى تغير عبر هذه السنين. يتحدد جنس الكائن بكروموزومين يديعان X و Y، فالنساء لهن XX والرجال لديهن XY. وتتحدد أعداد النساء والرجال بأعداد الحيوانات المنوية التى تحتوى على X. وفى الغوريلا وفى الشمبانزى يحدث التزاوج فقط فى الأوقات المحددة القصيرة التى تكون فيها الأنثى راغبة (وتحدث عند التبويض) مرة كل شهر، أما فى نسانيس الجيبون فلدَى الأنثى الاستعداد فى التزاوج فى أى وقت. هناك اختلاف جذرى فى أسلوب معيشة الغوريلا والشمبانزى من جهة وأسلوب حياة الجيبون من جهة أخرى. الأولان يعيشان فى مجموعات من الإناث مع أبنائهن ويسودهن ذكر واحد، يظل متحكما فيهن ومستمتعا بهن جميعا حتى تضعف قواه ويحل محله منافس آخر من الذكور الأكثر شبابا، أما الجيبون فتعيش فى أسرات تتكون من أب واحد وأم واحدة مع أطفالهما. وهكذا يتضح أن أسلوب معيشة الإنسان قد تطور من أمد سحيق ليشابه أسلوب معيشة الجيبون، واكتسب الإنسان الحديث أسلوب الحياة الجنسية المستمرة مع تمكنه من التزاوج فى أى وقت يشاء، واشترك الأب فى رعاية أطفاله، خاصة فى تلك الأقسام الذين يعيشون على الصيد والقنص ويتنقلون باستمرار إلى مسافات طويلة. فى القروء (وفى غالبية الثدييات) تقتصر رغبة الإناث فى التزاوج على يوم أو يومين كل شهر، ويكفى لقاء واحد أو اثنين لحثوث الحمل. ويكفى لقاء واحد لإنتاج مجموعة كبيرة من الأبناء، أما فى الإنسان فقد يتم الحمل بعد عشرة لقاءات أو مائة لقاء، لإنتاج طفل واحد (وفى بعض الأحيان النادرة قد لا يكفى لقاء مستمر بين الزوجين على مدى مدة الإخصاب فى عمرها على إنتاج طفل وحيد). لدى الإنسان ينتج الرجل حوالى مائة ضعف عدد الحيوانات المنوية ويمارس التزاوج أكثر من مائة ضعف مرات تزاوج الحيوانات لاستمرار النوع. وفى الإنسان تطور الجماع من كونه وسيلة للإنجاب واستمرار النوع فحسب إلى غاية لذاتها، مع حفظه للنوع والمجتمع. اختلف أسلوب الحياة العائلية للإنسان اختلافا كبيرا بين فرد وفرد. كان استعداد الإنسان لمزاولة الجنس فى أى وقت سببا فى اتخاذه حياة الأسرة والزواج من واحدة كالأسلوب الأظ. ولكن استمر الزواج المتعدد فى بعض المجتمعات، بينما مارس كثير من الأفراد تعدد الزوجات أو تعدد الأزواج (كما يمارس شباب القروء) ومارس شباب الأدمين وشباب القردة (لفترة فى مرحلة بلوغهم الجنىسى) اللواط أو السحاق. وتعتبر الممارسة الجنسية المستمرة للإنسان أول تجديد عظيم فى نظام التكاثر، تبعثها أزمة ثم لحقتها تجديدات أخرى،

درس علماء الانثروبولوجى سلوك الإنسان الجنسى فى مبدأ نشأته (منذ حوالى ٣٠ ألف سنة) من سلوك الأدميين الجنسى ممن يعيشون بيننا حاليا من الأقوام شديدة التخلف والذين تقارب تصرفاتهم تصرفات آدمى العصر الحجري (مثل الأبتوريجيني الأسترالى، وتجریتوس جزر أندمان، وپجى غابات الكونجو، وپوش مان صحارى كالاهارى، وأهالى تسمانيا الأصليين «قبل القضاء عليهم»، وكثير من المجموعات التى يكاد لايعرفها أحد من أهالى غينيا الجديدة وأمريكا الجنوبية) يعيش هؤلاء الناس فى قبائل تضم بضع مئات العائلات (كما عاش أسلافهم من الحيوانات)، ثم تنتقل القبيلة تدريجيا حتى تختفى أو تتسع تدريجيا حتى تنقسم. أهم ما يميز أفراد هذه القبائل هو تساويهم فى القدرات والمهن والعادات والمعتقدات، كل ما يفرق الأفراد هو اختلاف الجنس والسن. فى أول الأمر لم يكن للقبيلة رئيس، صحيح أن كبار السن من الرجال كانوا ناصحى القبيلة، بدون أن يكون لهم السلطة أو السيطرة ولم يكن لهم إصدار الأوامر لأفراد القبيلة. كان نوع العمل هو الذى يفرق الصغار من الكبار، كما كان يفرق الأفراد أماكن معيشتهم. ما الذى كان يجمع أفراد القبيلة سويا ويوحد بينهم؟ كان هناك نظام واحد يتبع عند الزواج وارتباط الانثى بالرجل. أولا: كان لابد أن يكون الارتباط من داخل القبيلة ولكن من خارج الأسرة. هكذا كان الجميع من أصل واحد يوحد بينهم نفس العادات والتقاليد ويصبحون متماسكين يساند الواحد منهم الآخر (مع قبول الجماعة لتبنى الأعراب). يمكن للفرد أن يتزوج ابنة عمه أو ابنة خالته، ولكن يمتنع عليه أن يتزوج والدته أو أخواته أو بناته. (وامتد هذه المنع من غشيان المحارم إلى تحريم تناول الغذاء معا للأجيال المتعاقبة). عملت كل المجتمعات الأدمية على تحريم غشيان المحارم، وشجعت الزواج من خارج الأسرة المباشرة. فى زمن لاحق - فى تطور المجتمعات البشرية - عندما اعتُرف بالتملك، صار النسب عن طريق الأم هو أساس الميراث، وصار أبناء الأخت هم الوارثون للأب (رغم أن له أولادا)، وكان الآباء يرفعون شأن أبناء أخواتهم البنات وليس شأن أبناءهم وكان الآباء يعيشون مع أمهاتهم فى البيت الكبير وليس فى بيت الأب. عندما يسود نظام اجتماعى يكون للامهات فيه حق توريث النسب والممتلكات والإدارة، يرتفع فيه قدر النساء ويكون نفوذهن عظيما (كما فى ملابار)، فى حين أن المجتمعات التى يتسيد فيها الرجال (كما فى بلاد العرب) تكون سطوة النساء فى الحضيض. لما كان دور الرجل فى التكاثر أقل وضوحا من دور المرأة، ظهرت المجتمعات التى تتسيد فيها النساء قبل المجتمعات التى يتسيد فيها الرجال وسبقتها فى التطور، حتى فهم مريو الماشية والأغنام دور الذكور فى الإنجاب.

تحريم غشيان المحارم كان أساسا ثابتا فى عملية التناسل فى الإنسان منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض منذ حوالى نصف مليون سنة (وقبل هذا لابد أن الإنسان كان يزاول الجنس مع عشيرته

الأقربين كما تفعل القردة أو الكلاب وجميع أنواع الحيوانات الأخرى). لماذا ابتدع الإنسان هذا السلوك حتى صار مقدسا وصار قانونا أخلاقيا واستمر هكذا حتى عصرنا الحاضر طوال تاريخ الإنسان؟ كل كائن حي - نباتا كان أم حيوانا - يمكنه أن يتوالد داخليا، مع أفراد تجمعها قرابة وثيقة ويستمتع بنجاح دائم وينشأ بذلك مجتمع ثابت. النتيجة هي إنتاج نوع واحد متماثل من الأفراد وجنس مناسب تماما للبيئة التي يعيش فيها (وقد تمكن الإنسان بهذه الوسيلة من إنتاج حيوانات متميزة للسباق).

ولكن في عالم متغير يؤدي إنتاج الجنس المتماثل من الأفراد إلى مصيبة، لأنه لا يستطيع الصمود أمام أى تغير يحدث في البيئة أو في الظروف ويحل محله سريعا أى جنس آخر أو نوع آخر له القدرة على التكيف مع الظروف الجديدة. ماذا حدث للإنسان - مخالفا لأسلافه - لَمَا اكتسب تدريجيا: حياة الأسرة، ونفاذ البصيرة، واتسعت مدراكه الحسية، تعمقت ذاكرته، وابتدأ يتعرف على أسرته، فأطلق أسماء على أمه وولده، وبدأ يتذكر الأشخاص ويذكرهم تبعا لعواطفه الشخصية نحوهم! قد تكون الفريضة قادتة إلى غشيان المحارم أو أبعدهت عن هذا السلوك. وتمخضت المجتمعات التي بعدت عن إتيان الأتارب المقربين - بعد مئات الأجيال - إلى ميزة أكيدة عن المجتمعات التي حضت أو وافقت على غشيانهم. المجتمعات الأولى صارت أكثر اختلافا وأكثر تكيفا، يفعلون أشياء جديدة، ويفكرون بطرق جديدة، ويلتزمون تحديات المستقبل أكثر من غيرهم، ويحلون تدريجيا محل غيرهم من منافسيهم ويملؤون العالم من أصنافهم. وهكذا نشأت أجناس متعددة من بنى البشر وسرعان ما تكيفوا مع الأماكن المختلفة من العالم واختلفوا اختلافا كبيرا عن بعضهم البعض. نشأت قبائل بدأت تهتم اهتماما بالغا بأسلافها ونوى القرى منها، وبدأت تعزز تصرفاتها الغريزية وعاداتها إلى عوامل عقلانية مشرفة، وبدأت تطور مجتمعاتها إلى أنماط مختلفة من المجتمعات التي ترفض كلها غشيان الأتارب المقربين وتمنع الإتيان بهذا العمل. مثل هذا النظام المتطور الذي يسمح بتبادل الجينات بين البشر هو الذى أنقذ البشرية من محنة الغناء. كلما كانت الجينات متقلبة بين البشر وتؤدي إلى الامتزاج المستمر وتبعد عن الركود - كلما ساد الأمان المجتمع وتفتحت له كل آفاق المستقبل، أما إذا ركبت الجينات وتجمدت في مواضعها فإن المجتمع يصير في خطر - ويصبح مستقبه مظلما ومحدودا.

في نفس الوقت الذى رفض الإنسان رفضا ياتا غشيان الأتارب المقربين ابتدع الجماع راقدا (وليس واقفا كالحيوانات)، والذكر والانثى متواجهين وليسوا متخالفين (مؤخرة الحيوان الأمامى فى بطن الحيوان الخلفى) - أخذ الإنسان الوضع الأدنى للجماع (الوجه مقابل الوجه، حقيقة أن بعض الأدميين يمارسون الجماع أحيانا واقفين، ويمارسونه أحيانا الوجه - للظهر، ولكن الغالبية العظمى

من البشر، في معظم الأحيان يمارسون الجماع والوجه للوجه). ظهر شعر العانة في الجتسين (متخلفا عن كل أنواع الحيوان الأخرى)، وأصبح لازما لتفادي الضرر الناتج من الاحتكاك أثناء عملية الجماع، كما نشأ شعر الإبط (الذي لم تعرف حكمة نشوئه حتى الآن). نشأت أشياء أخرى مع الجماع والوجه للوجه. نشأت هزة الجماع لدى الإناث، ونشأت زيادة احتمال اغتصابهن، ونشأت زيادة أهمية الانتقاء للجنس. زاد التركيز على الوجه، وعلى أثداء النساء بعد تغير وضع العياشرة الجنسية، وصارت الجميلات في عيون الرجال ليست ذات العجز الشحمي السمين بل التي تشبه فينوس.

أول من نادى بأهمية الانتقاء الجنسي هو داروين في كتابه «نزول الإنسان» وتقول نظريته أن أفراد كلا الجنسين يختلفون عن بعضهم لزيادة الجاذبية والفتنة للجنس الآخر، وأولئك الذين يمتنعون بجاذبية أكثر، والأشد عدوانية هم الذين يكون نسلهم وفيرا، وعلى هذا يحاول كل جنس أن يكون أكثر جمالا وجاذبية للجنس الآخر. في التطور الأدمى هناك أمثلة عديدة تؤيد نظرية الانتقاء الجنسي (مثل اللحية للرجال ومثل نعومة بشرة المرأة وظلها من الشعر)، أما أن الرجال عادة أطول من النساء وأشد قوة منهن فيرجع إلى - النظريتين معا (البقاء للأصلح مع الانتقاء الجنسي). ابتدأ الرقص من النسائيس والقرود، وابتدأت المداعبة والعشق والضحك والغناء مع الإنسان، وكلها عملية مستعزة في إطار زيادة الجاذبية الجنسية.

في وجود أعداد ضئيلة من السكان - في العصر الباليويثي الوسيط أيام الصيد والقنص وجمع الطعام - كان حجم الجماعة مناسبا لضمان استمرار الحياة، وكانت الجماعة أيضا هي وحدة التوالد، وكان الأليف من داخل الجماعة، ولكن لما زاد عدد السكان في العصر الباليويثي المتأخر بدأت الوحدات - أو القبائل في مواجهة البعض وبدأت في التناحر والعراك، امتد التوالد بين الأفراد المختلفين في القبيلة الواحدة ولكنه ظل قاصرا داخل القبيلة. في عالم الحيوان يتم التناسل في أغلب الأحيان بين أفراد الفصيلة الواحدة، ولكنه قد يحدث بين أفراد الفصيلة الواحدة إلى فروق وراثية بين مختلف الأفراد من الفصائل المختلفة (مثل الرائحة المميزة لكل فصيلة والتي تثير اشمزلق باقي الفصائل وتمنع التهجين على نطاق واسع، بين الصينيين والأوروبيين أو بين الزوج والبيجي على سبيل المثال) تبلغ هذه الفروق الوراثية المبنية على الرائحة أشدها في الثدييات وفي الحشرات، أما في الإنسان - (مع تلاشي النورة النزوية واضمحلال قوة الشم) - فإن عوامل أخرى هي التي تؤثر غالبا في إقلال التناسل بين أفراد الأجناس المختلفة (مثل العادات والتقاليد الاجتماعية، والاحتياجات الضرورية للفرد، وقوانين الجماعة)، هي التي تقوم حائلا بين تزواج الأفراد من الجماعات أو القبائل

المختلفة. تشاهد هذه الظاهرة بوضوح بين الجماعات البدائية والمتخلفة فى عصرنا الحاضر. فالرجال - مثل الطيور - لهم شعائر تقليدية يزاوونها فى مناسبات تجمعهم، فى هذه الاجتماعات تمارس طقوس ابتدعوها تحت تأثير الانتخاب الطبيعى، كجزء من نظام التناسل الذى وضعوه واحترموه. بهذا النظام تتألف العشائر المختلفة من القبيلة الواحدة - بعيدا عن القبائل الأخرى - وتوضع القواعد لما هو مسموح به من الناحية الجنسية. (فى هذه الاحتفالات تقام حفلات الطهارة ويتم تشريط الوجه والوشم وتصفيف الشعر بالطرق التقليدية وتقب اللسان والخد والأنف وغيرها من التقاليد المميزة لكل قبيلة) - بهذه الاجراءات يتم تثبيت وحدة القبيلة. من أبرز معالم توحيد أفراد القبيلة الواحدة هى وحدة لغة الكلام. كل مجموعة إنسانية تختلف عن المجموعات البشرية الأخرى فى لغتها - ولهجاتها - وإن توحدت اللغة. واختلاف اللغات بين الأفراد المختلفين من أهم عوامل التفرقة (كما تفرق أناشيد الغرام والتزواج بين الطيور المختلفة). فى الشعوب المتقدمة فإن القيم التى يؤمن بها الشعب، والأخلاق التى يتمسك بها الناس بالاضافة إلى كيفية اللبس، مع المخاوف والرغبات التى تسود الأمة، كلها تساعد على الوحدة بين أفراد الشعب الواحد وتُفرِّقُه من أفراد الشعوب الأخرى، مع تجيل الأسلاف من الأدميين واحترام التقاليد ووحدة الأعياد والمناسبات والالتزام بالأصول المرعية، التى تجمع بينهم. نفس هذه العوامل هى التى تجعلهم مختلفين عن غيرهم (وتجعلهم مختلفين عن أسلافهم من الحيوانات). من أهم عوامل وحدة القبيلة هو الارتباط بالأرض، كما فى كثير من الحيوانات، والتضحية فى سبيله بكل غال ومرتخص. كل هذه العوامل فعالة كحواجز بين القبائل فى الأحوال الثابتة، ولكنها تصير غير ذات فاعلية إذا قتل الرجال وسبيت النساء وتغيرت الأحوال، عندما تنقل القبائل أو تمتد أو تتلاحم لتتشأ القبائل المزبوجة. نشأ تنظيم القبائل لضمان استمرار الازدهار، ولكن عندما تحل المحن فإن هذا التنظيم ينبغى أن يعاد بناؤه، والاستقرار يؤدى إلى التقدم ويبدأ المجتمع بداية جديدة.

نشأت فكرة الانتخاب الطبيعى من مصدرين يوحى كليهما باستبعاد غير الجدير بالبقاء (داروين وماثوس)، ولكن أضافت العلوم الحديثة عوامل جديدة. من قديم الزمن حرص الإنسان على تحديد النسل وضبطه بوسائل مختلفة: الاجهاض، قتل الأطفال، تحديد أوقات الجماع، ثم حديثا باستعمال الطرق المختلفة لتحديد النسل بغرض تقليل عدد المواليد، للوصول إلى العدد الأمثل لكثافة السكان بدلا من زيادة عددهم بلا ضابط أو رابط. وقد تكون الوسيلة التى يبتدعها المجتمع هو تأخير سن الزواج (وقد يدفعهم هذا إلى ممارسة الشنوذ الجنسي)، أو ترك المسنين لحتقهم أو أكل الأطفال (فى أوقات المحن الشديدة). نحت القبائل والمجتمعات مناح مختلفة فى وسيلتها لضبط النسل لضمان الازدهار والتكاثر السلمى لأعدادها (قبل الهجرة إلى أراضى جديدة واستعمار بلدان شاغرة أو

مأهولة - بعد استبعاد أهلها أو القضاء عليهم). أثبتت الأبحاث الحديثة فى الكائنات الحية الأخرى - أن الازدحام الشديد عامل هام فى ضبط التكاثر (مع توفر الطعام)، بتأثيره على إفراز الهرمونات الجنسية، ويلعب التوازن البيئى دورا هاما فى هذا المضمار، آكلات العشب يتبغى عليها أن تحافظ على مراعيها، والحيوانات الضارية يجب ألا تفترس جميع ما يؤكل من الحيوانات وتقضى عليها، وإلا هلكت جميعا. (وقد أدرك الإنسان هذا المبدأ بعد أن تم القضاء على كثير من أنواع الحيوانات والطيور وأصدر القوانين بتحريم صيدها). والآن لنسأل أنفسنا هذا السؤال: ماذا يحدث عند التقاء جنسين من البشر، الأول وضع ضوابط قوية لتحديد نسله والآخر ترك التكاثر يحدث فى أبنائه بدون قيود! الإجابة واضحة سيكسب الجنس الثانى إن عاجلا أو آجلا (إلا إذا قضى الجنس الأول تماما على كل أبنائه). من الواضح أن الجنس البشرى أصبح قادرا على احتمال كثرة السكان والازدحام أكثر من أى مخلوق آخر على وجه الأرض، ولعل هذا ما يفسر التكاثر الرهيب الذى حدث للنوع الإنسانى الذى تكاثر ٢٠ ألف مرة خلال المليون سنة الأخيرة، وانتشر فى كل أنحاء العالم وكون أجناسا عديدة ولم يصب بالعقم أبدا. لماذا! أولا لأن الهجين المسخ يتخلص منه تباعا بالإجهاض وأن وُلد فهو عقيم، ثانيا يقل تماما أو يندعم مولد الأصناف النقية لتحريم الإنسان على نفسه غشيان المحارم، وثالثا قدرة الإنسان العجيبة على التكيف باستمرار وتخطى كافة العقبات. ولعل أهم هذه العوامل هو تحريم إتيان المحارم الذى حافظ قديما على القبائل وحافظ دائما على النوع الإنسانى بأسره.

الباب الثاني العالم القديم

قسم العلماء تاريخ الإنسان إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد، وسمى العصر الأول العصر الباليوليثي وسمى الثاني العصر النيوليثي. يمثل هذا العصران خطوتين في تطور الإنسان على سطح الأرض وأهم ما يفرقهما هو بداية كشف الإنسان للزراعة (التي كشفها في عهود مختلفة في مختلف الأماكن في هذا العالم) ومنذ اتخذها الإنسان وسيلة لإنتاج حاجياته من الطعام والشراب والكساء.

سمى العلماء هذا الحدث بالثورة النيوليثية. أثبتت حفريات رجال الآثار، المدعمة بإثبات التواريخ بالدراسات الإشعاعية وبالفحص المجهرى لبقايا النباتات والحيوانات، بتواريخ حدوث هذا الحدث ومكانه، كما تبين لنا أول النباتات التي زرعها الإنسان وأول الحيوانات التي استأنسها. أثبتت الحفريات أن أول نشاط قام به الإنسان بعد مغادته الكهوف كان زراعة الأرض، وحدث هذا أولاً في منطقتين من العالم. الأولى هي منطقة الهلال الخصيب وهي حوضى نهري دجلة والفرات وأراضى سوريا وفلسطين وكردستان ولورستان. والمنطقة الثانية تقع بين نيومكسيكو وجواتيمالا والإكوادور. الاحتمال الأكبر أن الإنسان استقر في هاتين المنطقتين مع كسفه للزراعة. أول المحصولات التي زرعها الإنسان كانت القمح والشعير ثم البسلة والعدس والكتان فى آسيا، وكان الفول والقرع فى أمريكا، وكان تاريخ أقدم ما عثر عليه حوالى سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد (وقد يكون استقرار الإنسان فى هذه المناطق قد حدث حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل هذا التاريخ). بدأت الزراعة أول ما بدأت على سفوح التلال غزيرة المياه (وليس فى قاع الأودية). فى هذا العصر حسن الإنسان كثيراً من أدواته ومصنوعاته الحجرية والخشبية وصنع فؤوساً لحفر الأرض ومناجل من الفلذت لحش المحصول ورحيات من الحجر لطحن الحبوب. وسرعان ما انتشر الإنسان إلى بلاد الفرس وإلى البلقان، ثم نشأت مجتمعات إنسانية فى قرى تعتمد فى حياتها على الزراعة حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد، ثم نشأ فن صناعة الأواني الفخارية والخشبية لتحل محل السلال لتخزين الحبوب (وقد وصل الإنسان لهذه المخترعات متأخراً فى نيومكسيكو «حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد» وفى بيرو «حوالى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد»).

لماذا توصل الإنسان إلى هذه المخترعات فى العالم القديم والعالم الجديد فى نفس الوقت تقريبا - مع عدم وجود اتصال بينهما؟ فى هذا الوقت كان الإنسان قد وصل إلى أقصى درجة من التطور العقلى والجسدى، وإلى التنظيم القبلى، وإلى درجة كبيرة من الاختلاف الجينى والثقافى فى ظل الحياة القائمة على جمع الطعام والصيد والقنص. استنفذ الإنسان كل إمكانية الاستفادة مما جمعه من المعادن والطعام والحيوانات، وكل إمكانية صنع الأدوات والأسلحة والملابس والقوارب وأوانى حفظ الطعام. عرف الإنسان فى هذه المرحلة الأولية معظم أنواع السموم والعقاقير الهامة التى مازلنا نستخدمها حاليا، وعرف كيف يحصل عليها ويستخرجها ويستخدمها. كشف أيضا عن أسرار النسيج (ولو أنه لم يعرف بعد أسرار الغزل)، وصنع النسيج (ولكن لم يتوصل بعد إلى صنع البيرة والتقطير). طحن الحبوب وصنع الخبز، واستخرج الذهب والنحاس من المناجم وعرف كثيرا من الأحجار الكريمة. وضع هذا الإنسان الأول مبادئ فن الرسم والتلوين والموسيقى. كل هذه الإنجازات كانت متفرقة بين القبائل المختلفة ولم تعرف القبيلة ماتوصلت إليه باقى القبائل، ولكن الزمن علم الجميع مايدعته كل قبيلة. تغير جو الدنيا فى نهاية عصر الجليد الأخير - ما بين ١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد أحدث هذا التغير أكبر أثر مر بالإنسان فى التاريخ. توقف انتقال الإنسان إلى كل أنحاء الأرض، ولم يعد ممكنا تناسل كل بنى البشر من بعضهم البعض وإمكانية إنتاج هذه الوفرة من أنواع الإنسان المختلفة. ظهر الأثر الأكبر فى جنوب غرب آسيا - فى الهلال الخصيب وفى وسط الأمريكتين. صار الإنسان الآن قادرا - ليس على مجرد الحفر لاستخراج الجنور - ولكن صار قادرا على زراعتها، وليس مكتفيا بجمع البنور ولكن صار يخزنها ليزرعها والبقاء فى انتظار المحصول، ثم الاحتفاظ بالبنور مرة أخرى وزراعتها وهكذا بواليك. تعلم الإنسان هذا الدرس بذكاء فى منطقتين مختلفتين، وكانت المحاصيل تكفيه لمعظم متطلبات الحياة وتغنيه عن نشاطاته السابقة فى الصيد والقنص وجمع الطعام. كانت المحاصيل أكثر تنوعا فى جنوب غرب آسيا عنها فى وسط أمريكا، وكذلك كان الناس. كان اختلاف الخصائص الجغرافية ووسائل الاتصال واختلاف المناخ بين الجبال والوديان والصحارى والبحار القريبة، سببا فى تنوع المحاصيل فى العالم القديم وفى اختلاف نوعية البشر، الذين زاد تنوعهم وكثر ترحالهم وغزومهم لمناطق جديدة. فى هذه المناطق التى بدأ فيها استقرار الإنسان تعددت أنواع الحيوانات التى استأنسها الإنسان ليأكل لحمها ويستفيد من عظامها وجلودها. بدأ باستئناس الماعز والغنم والخنزير والماشية، وبدأت هذه الحيوانات تظهر فى مناطق الاستقرار الزراعية، ومعها الكلاب التى كثرت فى تلك الأماكن، كفت المحاصيل المنتجة غذاء البشر والحيوانات المستأنسة فى العالم القديم، أما فى العالم الجديد - فى

أمريكا - فقد زرع الإنسان الأرض ولكنه لم يستأنس الحيوانات (ماعدا غنم بيرو المعروف باسم «ألباكا»)، ولهذا كان تطور الإنسان في العالم القديم أسرع خلال الثمانية آلاف سنة التي مرت حتى هاجر إنسان العالم القديم وتعرف على العالم الجديد.

أول المحاصيل التي بذرها الإنسان ثم حصدها كانت أنواع القمح المختلفة وأنواع الشعير المتباينة (مازالت أسلاف هذه الأنواع تنمو في الأناضول تلقائيا، وفي الوديان بين الصحارى والتلال في كردستان وفلسطين) تغيرت خصائص هذه النباتات تدريجيا بزراعتها. في الأنواع البرية تتناثر الحبوب الناضجة من السنابل تلقائيا وهي مازالت محتفظة بقشرها، ولها أشواك حادة طويلة، تعطى للسنابل شكل لحيه الإنسان وتشتبك بفراوى الحيوانات المارة بينها (مثل الحشائش البرية التي تحمي فيها الأشواك الحبوب)، ثم تنثرها الحيوانات في الأرض بعيدا عن النبات الأم، ثم تخترق الأرض وتنمو من جديد بعد أن تثبت. تغيرت هذه الخصائص في الأنواع التي زرعت، فقد حملت السنبل ستة صفوف من الحبوب بدلا من صفين اثنين فقط، ونشأ نوع جديد من القمح في الأناضول وبلاد فارس وصار يصنع منه الخبز. في هذا النوع الجديد - قمح الخبز - تحمل الخلايا ٢١ زوجا من الكروموزومات - بدلا من سبعة أزواج أو من ١٤ زوجا كما في الأنواع البرية - وهذا النوع الجديد هو هجين جديد يعطى غلة وافرة عند زراعته. عندما بدأ الإنسان يحرق الزرع ثم يبذر البنور، بدأت الأشواك التي كانت متواجدة في السنابل الأصلية في الضمور. بعض سلالات الحشائش الجديدة سببت نقص المحصول إذ كانت الحبوب تنتشر في الأرض ويجد الفلاح صعوبة في التقاطها، وبعضها الآخر يقتضى بذل جهد أكثر في الدرس، وهكذا أخذ الفلاح ينتقى السلالات المناسبة حتى توصل إلى الأنواع الحديثة «حنطة الخبز»، وبالتدريج انقرضت الأصناف القديمة لأن الفلاح أخذ يزرع ويكثر من «حنطة الخبز»، بنفس هذه الطريقة أخذت أنواع الحبوب الأخرى تتطور، وانقرضت الأصناف البرية وبقيت الأصناف الصالحة للزراعة والتي لها عائد اقتصادي وفير: الشعير والشوفان والشيلم والدخن والأرز والذرة. حدث هذا التطور في نباتات أخرى بعيدة كل البعد عن الحنطة مثل الحنطة السوداء (التي تقدم علفا للحيوانات)، والقنب، والخشخاش التي تختلف في أشكالها وتركيبها، ولكن ظل المبدأ واحدا. بدأ التطور في النباتات بالانتقاء الطبيعي ثم بالانتقاء غير الواعي (الذى أحدثته طرق بذر البنور وحرارة الأرض وجمع المحصول)، ثم بالانتقاء الإنساني الواعي الذى يفعله إنسان العصر الحديث. بعد القمح حدث انتقاء لنباتات مثل القرع والطماطم التي نعت في أكوام الروث من بقايا حبوب ما أكله الإنسان، وحدث الانتقاء أخيرا لمحاصيل لوثت المحاصيل الأولى التي انتقاها الإنسان وكانت تنمو وسطها في الحقول، ومن أهم هذه المحاصيل نبات الدخن، الذى تعددت أصنافه ولكن اشتهر منها:

زرعه الفلاح حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد فى حوض نهر الأنديس	الدخن الهندى:
زرعه الفلاحون فى التركستان والصين سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد	الدخن الصينى:
زرعه الفلاح فى الحبشة سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد	الدخن الإصبعى:
وقد زرع فى أواسط أفريقيا سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ثم انتقل إلى الهند حوالي سنة ٩٠٠ قبل الميلاد، ومن ثم انتقل شرقا للصين وغربا إلى بابل ووصل إلى مصر فى زمن البيزنطيين.	الدخن العظيم:

ووصلت باقى أنواع الدخن إلى حوض البحر الأبيض المتوسط فى العصر الرومانى ثم انتشرت فى كافة البلاد الاستوائية.

أحدث الانتقاء غير الواعى تغيرات عميقة فى النباتات وأنتج محاصيل جديدة تبعا لتغير نوع التربة والمناخ والنباتات المشاركة لها فى النمو. لما نزل الزارعون من أعلى التلال إلى أحواض الأنهار حيث الأرض الأكثر خصوبة نمت النباتات أشد قوة وأوفر محصولا وبدأت تتزعرع. مثلا كما نزل الإنسان من سفوح التلال إلى أعماق الوديان وزرعوا نبات الكتان، أنتج - بالإضافة إلى ألياف الكتان - حبوبا كبيرة غزيرة الزيت، عصرها الإنسان وحصل على زيتها بالإضافة إلى أليافها. نفس هذا حدث مع نبات القنب، ووجد له استخداما آخر عندما شم الدخان الذى ينبعث منه عندما طالته نيران المعسكر ووجد له تأثيرا مخدرا (ومازال يستعمل للآن بهذه الوسيلة فى التركستان). بهذه الطريقة تمكن الإنسان من معرفة الاستعمالات المختلفة للنباتات المختلفة واختار منها مايناسب حاجياته، وهكذا توسع الاقتصاد وتنوع فى عالم المزارعين، انقرضت الأصناف البرية لكثير من نباتاتنا الحالية بعد الكشف عن الزراعة (لأن الإنسان زرع أصنافا بديلة محلها)، وتغيرت خصائص كثير منها عندما استنبطت أصنافا جديدة لتحل محلها (كما حدث بعد إنتاج حنطة الخبز) وإنتاج الذرة الحالية (التي نتجت أصلا من نبات برى فى المكسيك). تبدلت أسلاف معظم النباتات حاليا وصار من الصعب عليها أن تنمو برى بعد أن تعهدا الإنسان، وصارت معتمدة على الزراع (كما أصبح الزراع معتمدين عليها).

أول ما استأنس الإنسان من الحيوانات - قبل سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد - كانت الغنم والماعز من تلال بلاد الفرس والأناضول. ثم استأنس الإنسان الماشية من وديان بلاد ما بين النهرين ثم الخنزير من غابات جبال زاغروس وتاوروس. كانت هذه الحيوانات من البداية من عديد من الفصائل

والأجناس ثم تهجنت عند الاستئناس: كانت البقرة المستأنسة تزوج من الثور البرى (كما تزوج الكلبة القوية من الذئب) - وأخيرا تم استئناس الحصان فى أواسط آسيا والجمال فى شبه الجزيرة العربية. تم استئناس الحيوانات بنفس طريقة استئناس النباتات وزراعتها، بعد أن تبين الإنسان منافعتها - عندما كانت تحل عليه فى أماكن سكنه أيام الجفاف والمجاعات وضمها إلى زرائبه، ثم تبين أن الإنسان صار حاميا لها من المخاطر وطاعما لها من الجوع ثم يقوم بذبحها عند الأوان. يوضح الجبول رقم (١) استئناس الحيوانات فى العالم القديم. ثم وجدت الحيوانات التى استأنسها الإنسان أنه بدأ يرببها، وهكذا إنتقل إلى مرحلة الانتقاء الواعى، وصار يستبقى أجيالها للتكاثر ويذبح أرواها، وهكذا تحسنت أصناف هذه الحيوانات جيلا بعد جيل. صارت النعاج والأبقار تدر عليه لبنها، وعملت حيوانات أخرى للفلاح: تجر عرباته ومحارثته وتدرس قمحه وتدير سواقيه، ولم يتخل عليه بأصوافها وشعورها. استمتع الفلاح بتكاثر أولاده وتكاثر ماشيته عن جيرانه، واكتسب ثروة وافرة من هذا التكاثر، طالما كان ناصحا واعيا هو وأولاده بميزات العمل الجاد النؤوب وبإستثمار كل الرزق الذى يأتبه ويستقله أحسن استغلال. زاد العمل فى المراعى من ذكاء الإنسان عن العمل الرتيب فى المزارع: وازداد ثراء الرعاة وعائلاتهم وقبائلهم عن سواهم من الناس.

مع وفرة محاصيل الفلاحين الجدد وحيواناتهم، تكاثروا وتفرقوا وزادت معرفتهم باستخدامات جديدة لمنتجاتهم، وكما حدث لنباتهم وحيواناتهم، حدث انتقاء لهم أنفسهم. تقلب الأجواء وصعوبات الأماكن الجديدة التى رحلوا إليها والمشاكل التى صادفتهم مع جيرانهم الجدد كانت اختبار لجلدهم وجدارتهم وذكايمهم. نشأ من هذا الاختبار صنفين من البشر: صنف يعيش فى أماكن مستقرة يزرع ويقلع ويحصد ولكنه أيضا يربى الحيوانات - كما يفعل الأكراد حتى عصرنا هذا، وصنف آخر من الرعاة الرحل الذين يعتمدون اعتمادا كليا على حيوانات المرعى، وينتقلون معهم من مكان لآخر حسب تواجد المراعى - تبعا لفصول السنة، حيث يصعدون إلى قمم الجبال فى الصيف حيث تتوفر الرطوبة والمناخ البارد. بدأ هاذان الصنفان من البشر يظهران صفات اختلاف عن بعضهما البعض، نفس معالم الاختلاف التى حكها الكتب السماوية فى الفرق بين قبائل - زارع الأرض، وهابيل - راعى الغنم. كلا الرجلين كانا مختلفين عن انكيو الذى جاء ذكره فى ملحمة «جيلجاميش» الصياد، الذى اختفى من المسرح فى الكتابات العبرية اللاحقة. تعلم الزراع الصبر والمثابرة التى لم يعرفها الصياد، اكتسب الحصافة والتدبير فى عواقب الأمور، وتوقع الأحداث قبل حدوثها، وبعض الجشع. تعلم أن يعرف أرضه ويحب ما يعرفه. كان يتحرك قليلا ويكون مجتمعا صغيرا يتكون من بضع مئات من البشر. وكان الصيادون كثيرو التنقل، يحضرون الصخور البركانية من الجبال التى تبعد مئات الأميال شمالا، والقواقع من الخليج البعيد جنوبا، مما دل على أنهم كانوا يزاولون التجارة. تزواج الصنفان ونشأ من هذا التزاوج أبناء نقلوا الإنسان من العصر الباليوليثى.

جدول رقم (1)
استئناس الحيوانات في العالم القديم

الاسم الحيوان	أماكن تواجده	مكان وتاريخ استئناسه	أماكن توسعه	فائدته	التهجين
١ الكلب	هو والنذب في شمال أوروبا	في كثير من الأماكن حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م.	لجميع أنحاء العالم	١- الصيد ٢- جر العربات ٣- رعى الأغنام ٤- الحراسة	مازال يهجن مع الذئب (لكل منهما نفس عدد الكروموزومات)
٢٠ الماعز	أواسط آسيا وجنوب شرق أوروبا	بلاد الفرس والأناضول سنة ٧٠٠٠ ق.م.	جميع الأراضي الزراعية وجميع المراعى أزاحتها الأغنام	١- اللحم ٢- اللبن ٣- الجلد ٤- الشعر	جميع الأصناف البرية هجنت
٣ الأغنام	أواسط آسيا وجنوب شرق أوروبا	حول بحر قزوين سنة ٦٥٠٠ ق.م.	جميع المراعى في العالم القديم	١- اللحم ٢- اللبن ٣- الصوف	جميع الأصناف البرية هجنت
٤ الماشية	فارس - جنوب أوروبا - شرق الهند	١- الأناضول سنة ٦٠٠٠ ق.م. ٢- وادى نهر الانديس سنة ٢٥٠٠ ق.م. (مستقلين)	جميع الأراضي الزراعية وجميع المراعى	١- اللحم (الا في الهند) ٢- اللبن (الا في الصين) ٣- جر العربات ٤- درس القمح	الهجين الأوديسى الهندى استعمر أفريقيا وجنوب شرق آسيا
٥ الجاموس	الهند جنوب الصين	١- وادى نهر الانديس سنة ٢٠٠٠ ق.م. ٢- الصين سنة ١٠٠٠ ق.م.	إندونيسيا أوروبا - وادى النيل - البرازيل (مع الزراعة)	١- اللبن ٢- اللحم ٣- جر العربات ٤- درس القمح	يهجن مع الأبقار والهجين عقيم فى الجنسين

تكملة جدول رقم (١)
استثناس الحيوانات في العالم القديم

٣	اسم الحيوان	أماكن تواجد	مكان وتاريخ استثناسه	أماكن توسعه	فائدته	التهجين
٦	الخنزير	الخنزير البري يمتد من أوروبا إلى الصين	١- الأناضول سنة ٦٠٠٠ ق.م. ٢- الصين سنة ٢٠٠٠ ق.م. (مستقلين)	إلى جميع الغابات ثم في جميع أنحاء العالم مع الزراعة	١- اللحم ٢- الجلد	تم تهجين جميع الأصناف
٧	الحمار	شمال أفريقيا	مصر سنة ٤٠٠٠ ق.م.	انتشر مع المراعى ووصل بابل سنة ٢٠٠٠ ق.م.	١- حمل الأثقال ٢- الركوب ٣- اللبن	مع الحصان ينتج البغل حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م.
٨	الحصان	أوروبا وآسيا	حول بحر قزوين حوالي سنة ٢٢٥٠ ق.م.	انتشر مع المراعى ووصل إلى مصر سنة ١٦٠٠ ق.م. وإلى الصين سنة ١٥٠٠ ق.م.	١- اللحم ٢- جر العربات ٣- الركوب بخاصة في الحروب ٤- اللبن	تم تهجين أصناف كثيرة للانتقاء
٩	الجمل	نو السنام الواحد في شبه جزيرة العرب نو السنامين في وسط آسيا	سنة ١٢٠٠ ق.م. سنة ٥٠٠ ق.م.	شمال أفريقيا وجنوب الهند الأناضول وشمال مونجوليا	١- جر العربات ٢- الركوب ٣- اللبن ٤- اللحم	تنتج جمال عقيمة من تهجين الصنفين في الأناضول
١٠	الفيل	الهندي سوريا، الهند، الصين الأفريقي شمال أفريقيا	في وادي الانديس سنة ٢٥٠٠ ق.م. في مصر سنة ٢٨٠ ق.م.	جنوب آسيا وإيطاليا (جلبه القائد هانيبال)	١- جر العربات في الأحراش ٢- المعارك	يتم صيده عادة ولا يربى في الأسر

بدأ المزارعون الجدد يعتادون على المحاصيل الجديدة كما بدأت المحاصيل تعتناد على الرجال الجدد، وكون الجميع نظاما جديدا التحموا فيه معا فى تطور واحد وصار الواحد مكتفيا مع الآخر. حدثت فى هذا المجتمع البدائى للمزارعين الأول علاقات جديدة بين النساء والرجال. فى شاتال هيوك فى البداية نشأ مجتمع كانت السيادة فيه للنساء (وكانت أسرتهن أكبر حجما من أسرة الرجال). ثم تم اختراع المحراث الخشبي الذى يجره الثور وتديره يد تتحكم فيه حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م.، انقلبت الآلية وصار الرجل هو السيد، كما صار بين الرعاة، وصارت القوة وليست الخصوبة هى معيار التفوق.

اختلف الصياد القديم عن الراعى الحديث. كان الصياد يمر بنويات من النشاط التائر يعقبها كسل واستكانة وانغماس فى الملذات، أما الراعى فإن يقضى شبابه وكهولته فى العناية بغنمه ومواشيه، يمضى نهاره وظهيرته وأمسياته فى عمل مستمر دؤوب للعناية بحيواناته، وفى هذا اختلفت رعاية الحيوانات عن العناية بالمزروعات، وهكذا تطور المزارعون إلى مربى أغنام وماشية لأن تربية الحيوانات تستلزم جهدا يفوق بكثير زراعة الأرض. كان المزارعون بطبعهم كسالى ولا ينجحون فى القيام بالأعمال الشاقة المجهدة، بعكس الرعاة الذين من الممكن أن يعهد إليهم بالمسئولية، ويرتبط الرعاة ارتباطا وثيقا بحيواناتهم، ويتقن كل فريق من الرعاة العناية بنوع معين من الحيوانات: أهالى لابلاند بغزال الرنة، البنو بجمالهم، زتوج الماساى بالماشية (ليس للحمها ولكن للبنها ودمائها)، السكيتانيون والمغول بخيولهم، ويكتسب كل أولئك البشر طبا ع خاصة مرتبطة بحيواناتهم. اختلفت الرعاة تدريجيا عن بعضهم البعض وعن المزارعين (الذين لجأوا لاستخدام الحيوانات فى الزراعة لحرث الأرض وجر العربات فى تاريخ لاحق) واكتسبوا نكاه وطباعا تؤهلهم للنجاح فى العمل الذى تعتمد حياتهم عليه. بعد استئناس الحيوانات بدأ رحيل الرعاة وهجرتهم عبر آسيا وأوروبا وخلال رحلاتهم تزوجت الحيوانات والبشر مع الحيوانات البرية والأجناس البدائية غير المتحضرة، ولكن فى أفريقيا ظل التهجين بسيطا. هاجر الجنس الحامى إلى جنوب القارة وغربها ولم يحدث التزاوج إلا فى وقت لاحق عندما دخلت الماشية ذات السنام ورعيانها الآتين من الهند إلى اليمن والحبشة. كان استئباط أجناس جديدة من الحيوانات للتهجين بين الأنواع البرية والمستأنسة مشابها لما حدث فى عالم النبات، ولكن لم يحدث إزاحة نوع بتوع آخر كما حدث فى النبات. كانت الحيوانات الهجينة تستأنس مباشرة بواسطة الإنسان (كما حدث للخيول والجمال بأيدي الرعاة)، ولكن المزارعون هم الذين أحلوا حيوانات أخرى محل حيواناتهم التى فقدوها واستأنسوا ماشية الهند وبورما والجاموس على وجه الخصوص.

حدث اتساع شديد فى الرقعة المسكونة بالبشر من مكان ظهور الإنسان الحديث فى جنوب غرب آسيا ابتداء من سنة ٦٠٠٠ ق.م. فى جميع الجهات. أهّل الجو المعتدل والأرض الخصبة والنباتات المناسبة للحياة للإنسان أن يسكن فى وديان الأنهار وفى مناطق الاستبس وفى الغابات، وفرضت عليه محاصيل جديدة. بدأ جيران الإنسان الحديث من البشر الذين ينتمون إلى العصر الباليوليثى والحيوانات البرية فى التطور بعد أن واجه الإنسان أخطارا جديدة واختيارات جديدة، وحدثت تغيرات عظمى فى طرق الزراعة مازالت آثارها معنا حتى الآن. نشأ من جراء هذه التغيرات - التى حدثت فى الإنسان والحيوان والنبات - خمسة أصناف من المجتمعات:

- ١- المجتمع الزراعى البدائى حيث يزرع الفلاح الحبوب ولايربى الحيوانات. فى هذا المجتمع يستهلك الفلاح الأرض فتتخفّف خصوبتها تدريجيا حتى تبور، ثم ينتقل الفلاحون إلى مكان آخر.
- ٢- المجتمع الزراعى الذى يزرع فيه الفلاح الحبوب ويربى الحيوانات. تتغذى الحيوانات على ما يزرعه الفلاح، وتعاونه فى الزراعة.
- يختلف هاذان المجتمعان اختلافا كبيرا عن بعضهما. الفلاحون من الصنف الثانى يحتفظون بالمياه التى تزيد عن حاجة المزروعات ويعاودون رى الأرض ويحافظون على التربة ويستقرون فيها، الفلاحون من الصنف الثانى بعيدو النظر ويزداد بعد نظرهم تدريجيا جيلا بعد جيل.
- ٣- مجتمع الرعاة الذين يعيشون على رعى الحيوانات ولايزرعون. بعضهم يتخصص فى تربية نوع واحد من الحيوانات وبعضهم يربى كل ما يصادفه من حيوان.
- ٤- استمرت هذه المجتمعات الثلاثة، وتزاوج بعضها من بعض وتناسلوا وخرج من نسلهم هجائن مختلفة استطاعت بعد مدة طويلة من الزمن (أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة) من التطور المستمر والانتقاء. خرجت نوعيات أخرى من البشر انتشرت فى جنوب غرب آسيا أيضا، زرعوا أنواعا مختلفة من المحاصيل وربوا أنواعا متباينة من الحيوانات وعاشوا على الجبال وفى الوديان وعلى مشارف الغابات وفى الصحراء. تاجر هؤلاء الأقوام فى المعادن وفى بقية منتجات القبائل المختلفة المتخصصة وحصلوا من التجارة على الربح الوفير.
- ٥- ثم ظهر الإنسان المخترع الذى دفعته الحاجة إلى الابتكار. أول ما اخترعه الإنسان كان صنع الخبز. كان هناك أنواع عدة منه أهمها:
 - أ- الخبز المصنوع من القمح: وكان الإنسان مضطرا لطحنه ثم خبزه مع استخدام الحجر الساخن أولا ثم ابتدع الإنسان الأفران، وكان يحتاج فى هذه الصناعة إلى الخميرة لتخمير العجين.

ب- الخبز المصنوع من الشعير: وكان الإنسان يخمره فى الماء وينتج عن تخميره البيرة ثم خميرة البيرة اللازمة لصناعة الخبز.

ج- خبز الشوفان والأرز والدخن: وكلها تحتاج فى صناعتها إلى الغليان، مما اقتضى اختراع الأوانى الفخارية التى تطلب ابتكارها استخدام الأفران.

د- زراعة الفاكهة ثم تخميرها بالخميرة وصنع النبيذ، الذى تتطلب استخدام القرع وليس الأوانى الفخارية.

نشاهد بقايا الأوانى الفخارية أولا فى شمالى منطقة الهلال الخصيب حيث كان يزرع حنطة القمح. وانتشرت من هذه المنطقة الأوانى الفخارية إلى باقى الأنحاء متقدمة عن زراعة القمح نفسها. استغرقت تلك الفترة الخاملة عدة آلاف من السنين قبل أن ينتقل هذا الإنسان المتحضر ليستقر فى مصر وشمال الهند وأوروبا حوالى سنة ٥٠٠٠ ق.م. وصل الإنسان إلى وادى نهر الانديس وإلى جبال الحبشة وإلى الجزر البريطانية قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. بدأت باستقرار الفلاحين والرعاة فى بداية تقدم الإنسان النيوليثى، ويتأقلم البشر على الجو الجديد بالتناسل مع السكان الأصليين من جامعى الطعام والصيادين الذين قابلهم البشر الجدد بالصدقة والعلاقات الاجتماعية والجنسية قبل استعمار بلادهم والتوطن فيها. ولعل هذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى قابلت فيها قبائل أو أجناس من البشر أناسا آخرين وتعايشوا معهم وصار الجميع متعاونين مع بعضهم البعض. نشأ من هذا الاختلاط نوعية أخرى من الناس فى الصفوف الأولى من القبائل القادمة. عمد بعضهم على حرق الغابات وإحلال المزروعات محلها (مما أدى إلى تدهور التربة)، وعاش آخرون - مع قطعانهم من الماشية - على المراعى التى يتنقلون بينها حسب فصول السنة. وكان اختطاف النساء من بين القبائل القادمة وانتقالهن إلى القبائل التى تنتمى للعصر الباليوليثى يعنى نقل المعرفة والمهارات إلى هذه الشعوب المتخلفة، وإلى نسل أبناء تعلموا من كلتا القبيلتين. هياتهم المهارات والذكاء والقيود التى ورثها أولئك الأبناء من الجهتين إلى عالمهم الجديد. هذا النسل الجديد الذى ينتمى إلى إنسان عصرى الباليوليثى والنيوليثى كان عاملا هاما فى التطور والتحضر وفى انتقال المعارف والمهارات والأفكار والقدرات الذى قد يكون راجعا إلى انتقال الموروثات (الجينات). كانت الأحوال البيئية التى لاقها المتقدمون الأول أبعد ماتكون عن الترحيب بهم، وقد قابلوها بابتداع وسائل معيشية مبتكرة (مثل السكنى فى البحيرات التى انتشرت فى وسط أوروبا). المعتقد أن سكان الجزر البريطانية الأصليين أتوا إليها من شمال أفريقيا عبر فرنسا (وكان هؤلاء قد اتقنوا سابقا مهارة البناء ومهارة الملاحة وقيادة السفن فى البحار الواسعة) ولم يأتوا إليها من حوض نهر الدانوب (مثل أهالى وسط

أوروبا) الذين لم يكونوا قد تعلموا بعد هاتين المهارتين (من القرائن التي تشير إلى اختلاف الأصل أن أهالي وسط أوروبا تغلب عليهم فصيلة الدم B في حين أن أهالي أطراف أوروبا تغلب عليهم فصيلة الدم O).

مع مقدم الزراعة احتاج الفلاح الأول إلى قطع أشجار الغابات التي كانت تحيط بأرضه ليتمكن من امتداد رقعة الأرض التي يزرعها، ولكنه احتفظ بعينات من الأشجار التي أدرك فائدتها مثل أشجار الزيتون والتين والجوز واللوز والكريز وأشجار العنب كما حدث في الأناضول، ولكن في بعض الأحيان كان قليل البصيرة وانتزع كافة أشجار الغابة أو حرقها (وما زال بعض المزارعين حتى الآن يزيلون الغابات أو يحرقونها مع ما في هذا من ضرر أكيد بالبيئة). كان الفلاحون يقطعون أشجار الغابات عندما يحتاجون لخشب لبناء مساكنهم أو سفنهم أو يحتاجون لوقود للتدفئة أو الطهو أو حرق الفخار أو صهر المعادن. وهكذا تقلصت غابات البحر المتوسط خلال ستة آلاف عام من حوالي مليون ميل مربع إلى عشر هذا القدر، وبذلك تقلص تدريجياً - وإلى الأبد - العامل الذي كان يمنع تغير الجو. كان أثر نزع الغابات عظيماً. أصبحت البلاد الحارة والجافة صحارى، وضاعت تربة البلدان التي تتميز بالتلال وجرفتها الأنهار، وغرقت البلاد الباردة كثيرة المطر لانعدام صرف المياه. أما منطقة الهلال الخصيب وما حولها من بلدان فقد استمرت في التحضر والتقدم: هلك الأغبياء الذين غيروا في البيئة من حولهم بنون حساب للدمار الذي سيعقب أفعالهم وتقدم الأنكباء الذين أزالوا العشب والحشائش من أرضهم ثم حرثوها وزرعوها. هؤلاء الفلاحون كانوا يسبون الأرض ثم يقيمون فيها المصاطب (التي كانت تحتاج لحجارة لتسندها)، ثم يحفرون فيها المساقى لتحمل الماء إلى الزرع (كما مازال الفلاحون يصنعونه في بلاد الشرق إلى الآن). كانت إقامة المصاطب على سفوح الجبال تحتفظ بالتربة من أن تجرفها المياه وتقلل من سرعة فقد الماء. زرعت الأجناس السامية الأولى الكروم في تلك المصاطب حوالي ستة آلاف عام ق.م. وسبقوا المزارعين الذين زرعو قاع الوديان. انتشر الزرع بطريقة المصاطب كلما حاول المزارعون زرع سفوح التلال (كما يشاهد حتى الآن في سفوح التلال حول نهر الراين)، مع حفر القنوات والتحكم في جريان الماء. بدأت نظم الري أول ما بدأت في بلاد ما بين النهرين وفي مصر، وفيما بعد (مع الكشف عن الأرز) في دلتا نهر الجانج، ومنها امتدت نظم ري الحياض في جنوب شرق آسيا وفي الفلبين. بدأ بناء مصاطب حجرية على نطاق واسع ابتداءً من سنة ٧٠٠ ق.م. ومكنت هذه الحوائط الحجرية من اختزان المياه حتى ارتفاع ١٨ قدماً، مع جلب الطين من الوديان المنخفضة في السلال. بدأ بناء سدود من الحجارة في هولندا حوالي هذا التاريخ وتم تدريجياً استقطاع الأراضي الواطئة من بحر الشمال. مكنت طريقة ري الحياض الأهالي من حماية أنفسهم من الغزاة في مصر القديمة وفي جنوب شرق آسيا عندما

بدأ فيها الري بهذه الوسيلة لزراعة الأرز، أما في بلاد ما بين النهرين كثيرا ما دمر الغزاة قنوات الري وأعاد الأهالي المتأثرون بناعها وصيانتها. ترسب الطمي في الأرض، ومع تبخر المياه إزدادت ملوحة الأرض (مما لم يدركه الفلاحون الأوائل مما قلل من خصوبة الأرض ثم بورها).

هكذا كان تأثير الزراعة على الأرض مختلفا، كان في أحيان نافعا ومفيدا وفي أحيان أخرى ضارا ومدمرا حسب المناخ السائد والمحصول الذي تمت زراعته ونوع التربة ونوعية الأهالي وتفاعلتهم المتشابكة. أما الريان فقد توسعوا في أراضيهم وزادت معها حريتهم وازدادت سرعتهم عن زملائهم المزارعين. احتلوا أحيانا الأراضي التي أفسدتها الزراعة وأحيانا أخرى دمرها بأنفسهم. كانوا يتنقلون بين الصحارى والأراضي المبنورة، وكانت عززاتهم، وفيما بعد جمالهم، تقضى على أي مزروعات في الأرض وتمهد لزحف الصحراء الرملية عليها توسع الصحراء الكبرى خلال الأربعة آلاف سنة السابقة يرجع في معظمه إلى التآكل بالاحتكاك وما زال مستمرا في الجنوب والشرق وفي شمال إفريقيا. ولم يكتف الرعاة بترك حيواناتهم تدمر كلاً المراعى بل حرقوا الغابات (في ايطاليا) ليتمكنوا عززاتهم من أكل جنور الأشجار.

في هذه المرحلة من تطور الإنسان دخلت قوى جديدة - عقلانية ومنطقية - لتتحكم في حياته بدلا من ترك الأمور على علاتها لعملية الانتقاء الطبيعي. بدأ الفلاح والراعى يخطط مسبقا لعام كامل، وظهر أفراد يستطيعون التخطيط لأعوام طويلة في المستقبل (مثل ما حدث في قصة يوسف التي وردت في الكتب السماوية والذي خطط لسبع سنوات قادمة)، واستطاع الإنسان أن يتنبأ بالدورة القمرية لثمانية عشر عاما. استمرت الحقبة التي توسعت فيها الزراعة توسعا هائلا وغطى النشاط الزراعى على الحياة حوالى ٩٠٠٠ سنة، وكانت في بدايتها مرحلة شاقة استبدل فيها الإنسان العمليات الغريزية بالعمليات العقلانية، عمليات جرت على مدى مليون سنة، ولكنها تسارعت إلى حد ملحوظ في مرحلة نمو الزراعة وكادت تؤدي إلى الهلاك عندما تعارض القرار العقلانى مع الغريزة.

حوالى سبعة آلاف عام ق.م. انتشر المزارعون مع حنطتهم وسائر حيويهم في جميع الاتجاهات (سوى اتجاه الشمال). انتشروا إلى الغرب حتى مقدونيا وعبروا البحر إلى جزيرة قبرص، وانتشروا إلى الجنوب إلى سوريا والأردن حتى واحة الفيوم في مصر، وانتشروا شرقا حتى هضبة بلاد الفرس، وبدوا ينشئون مستوطنات في تلك الأماكن. دلت فؤسهم ومناجلهم ومجارشهم اليدوية وحفر خزينهم التي تم العثور عليها أنهم كانوا متفوقين في الزراعة، كما دلت عظام الماعز والغنم والماشية التي عثر عليها أنهم مستأنسو هذه الحيوانات لطعامهم. بدأت الحضارات الإنسانية الأولى تظهر في هذه الأماكن (من سنة ٦٥٠٠ إلى سنة ٥٠٠٠ ق.م.).

بدع الإنسان غزل الخيوط، أولاً من الصوف ثم من الكتان فى الأناضول، ثم تبع الغزل النسيج (الذى كان معروفاً من قبل فى عمل السلال للإنسان البابليوثى). ثم ابتكر الإنسان صناعة الفخار (فى جنوب الأناضول)، ثم تشكيل الحجر وحرق الطوب وبناء المساكن. انتشرت هذه الصناعات فى العالم الزراعى - ببطء - على مدى ألف عام (انتشر الفخار لمسافة ١٠٠٠ ميل على مدى مايزيد عن الألف عام). بدأ الإنسان يتعلم صهر النحاس (فى جبال الأناضول) حوالى ٦٠٠٠ سنة ق.م. وانتشر هذا النشاط بسرعة إلى جزيرة قبرص (ومازال قبرص تشتهر بالمصنوعات النحاسية حتى الآن)، وكشف الإنسان عن تلوين الأوانى الفخارية وانتشر التلوين إلى جميع المناطق فى بضع مئات من السنين، وقد تطور القائم بالتلوين فيما بعد وصار الكاتب بعد بدع رموز الكتابة التى نقلت الإنسان نقلة كبرى من سحر الماضى إلى ثقافة المستقبل.

دلت هذه التحركات السريعة على أن القبائل البابليوثية التى كانت تعيش على التجارة فى المصنوعات من حجر الصوان والزجاج البركاني الأسود بدأت الآن فى إتقان مهارات جديدة متخصصة، وضع هؤلاء الأفراد الرحل خدمتهم فى متناول المجتمعات النيوليثية المستقرة التى تنوعت أجناسها واستقلت مجتمعاتها ولكن مازال اقتصادها مترابطاً. استقرت المجتمعات الجديدة فى جارمو (كرديستان) حوالى سنة ٧٠٠٠ ق.م.، وفى شاتال هويوك (فى كبا دوشيا بالأناضول) حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م.، وفى أريحا (فلسطين) حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م.، وفى قبرص (حوالى ٥٥٠٠ ق.م.)، وفى أور (سوماريا) حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وفى جرجام (سوريا) حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. وأخيراً فى نينوى وبابل (الأشوريون والبابليون) حوالى سنة ٦٠٠ ق.م. بدأ هؤلاء الأقوام - يعد حين من استقرارهم - فى بناء التحصينات حول مستوطناتهم (فى أريحا وفى مرسن بالأناضول) مما يعنى بأن القتال والحروب بدأت تنشب بينهم (ويعد كل معركة يختلط الأقوام وتختلط الأنساب). لم يبدأ استيطان الإنسان فى الأراضى الخصبة، فى أودية الأنهار، إلا بعد أن تمكن من ضبط مياهها وتوجيهها للرى، ثم بناء مصاطب للزراعة وبناء خزانات لحفظ المياه للرى وهكذا أمكن الإنسان القديم من الحفاظ على التربة والماء، عاون الإنسان فى جهده هذا استئناس الثور لحرث الأرض ومن بعدها لحمل التربة، عمل السبائك من البرونز وتم صناعة الآلات من هذا المعدن الجديد، تم كشف الكتابة. انتشرت هذه المكتشفات الجديدة وتعرضت للانتقاء الطبيعى، كما تعرض الأناس الجدد للانتقاء تبعاً لمقدرتهم العقلية. احتلت كل هذه التطورات، الألف سنة الخامسة والرابعة قبل الميلاد. لأول مرة فى التاريخ عاش الإنسان فى مجتمعات كبيرة، ووضع هذا الازدحام قيوداً على الخصوبة وزيادة التعرض للمرض. اكتسب الفلاحون المستقرون عادات جديدة مثل النظافة (والفلاحون أنظف عادة من الرعاة) وحرصوا على عدم تلويث الماء، وجاءت التعليمات الدينية فيما بعد لتحض على النظافة وعى الحرص

على نقاء الماء، وكان يعلم الوالدان أبناعهما على اتباع تلك العادات. اكتسب البشر الجدد تدريجيا المناعة الموروثة نحو الطفيليات الجديدة والأمراض الجديدة وكان الانتقاء الطبيعي يظهر أثره في هذه المحن. نزل أهالي التلال تدريجيا إلى وادي نهري دجلة والفرات حتى وصلوا إلى دلتا النهرين واحتلوا مساحات أكبر فأكبر من هاذين الواديين كلما حسنت وسائلهم الهندسية زادت محاصيلهم الزراعية وكثرت حيواناتهم خلال الألف سنة الخامسة ق.م. حوالي منتصف الألف سنة الرابعة ق.م. بدأ بناء المدن في أرض المستنقعات المعروفة باسم سومر. وجد السكان الجدد قنوات طبيعية عديدة متشابكة وحقولا شاسعة تم حرثها بواسطة الثيران، وكمية هائلة من البوص الذي استخدموه في البناء، وثروة غزيرة من الأسماك ومقدارا لحد له من أشجار النخيل الذي استخدموا ثمره كغذاء وغرسوه في الأراضي الجديدة الجافة. حدث مع هذه الإنجازات الحياتية خلق مجتمع جديد تم تقسيمه إلى طبقات.

حضارات أرض الجزيرة (بلاد ما بين النهرين):

احتلت مدن سومر الاثنتى عشرة أماكن مختلفة في دلتا نهري الفرات ودجلة قبل أن يصبها في الخليج الفارسي، وكبر حجمها وتعاضم شأنها وازداد ثراؤها خلال الألف سنة الرابعة ق.م. لمهارة أهلها وكفاحتهم في حرث الأرض وربها. أول ما ظهر من هذه المدن مدينة «عبيد» التي بقي من آثارها أدوات مصنوعة من حجر الصوان وأواني فخارية يدوية، ثاني هذه المدن مدينة «أوروك» (مدينة «أريك» في العهد القديم ومدينة «ورقة» الحالية) وأهم منجزاتها اختراع العجلة التي تهيبء لصانع الفخار الدوران السريع، وعمل سبائك البرونز. أتى سكان هاتين المدينتين من الجبال، وسلكوا طرقا متعددة، ثم التحموا سويا وكونوا شعبا واحد تحكمه حكومة واحدة يحكمها الكهنة، تكلم هؤلاء الأقوام اللغة السومرية، لغة لم يكن لها سلف ولم ينشأ بعدها خلف، وهي اللغة الأولى التي تمت كتابتها في العالم. الاستقرار الثالث الذي حدث في تلك المنطقة كان من الرعاة المحاربين الذين هزموا أهل البلاد المستقرين واستعمروهم. تحكى الأساطير أن هؤلاء الأقوام جاوا من الجنوب وتنسج حولهم أنهم أول من بدع الفنون. عند طرد هؤلاء الغزاة في الألف سنة الثالثة ق.م. كانت البلاد قد تغيرت تغيرا عظيما. بدلا من حكمة الكهنة صار الملوك المقاتلون هم الحكام وكان بيدهم السلطة والثراء وشاركوا الآلهة ثم أزاحوهم. استقرت الكتابة في هذا العهد وبدأ كتابة التاريخ. كثر بناء المعابد في مدن سوماريا، وكانت المعابد تبنى في المدن الجديدة في نفس مكان بناء المعابد في المدن القديمة (وهو تقليد طالما اتبعه رجال الدين). بدأت الصور تظهر في الكتابات، كما عرفت الأرقام (التي كانت تمثل بصورة الآلهة) حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م. ثم ظهرت التماثيل الكبيرة والصغيرة على هيئة الآلهة

والكهنة، والملوك، والجنود، والأسرى، والحيوانات البرية والمستأنسة. كانت الرسوم تمثل الاحتفالات الدينية والحربية والمدنية، وكانت تقام في الهواء الطلق بصحبة العربات التي تجرها أو تقام الاحتفالات في المعابد أو المساكن. بدأت المباني تقام أولاً من الطوب الطيني ثم تطورت إلى الطوب المحروق، وخلال ألف عام زوبوا المساكن تدريجياً بأقصر الأثاث. تدل كل هذه المنجزات المجهود الضخم الذي بذل في تنظيم المدن الجديدة، ويتضح هذا من حجمها الضخم وبقائها لمدد طويلة. كان الجهد الأكبر يبذل في التنظيم الإداري في الحكومة وفي التعليم وفي الشؤون الدينية، وكان الكهنة هم قادة المجتمع، وهم الذين يتم تعلمهم بواسطة الطبقة المثقفة والذكية. لأول مرة ترىنا الوثائق أن المجتمع كان مقسماً إلى طبقات قبل هذا العصر بحوالي ألفين من السنين (يدون أن يكتب في وثائق وصلت إلينا). اعترف الكهنة بالسلطة العليا في البلاد في سومر ولكنهم أقاموا لهم سلطة دينية عليا في مدينة نيبور المقدسة. كان الدين يجمع حوله كافة مدن البلاد (رغم قيام الحروب بينها ثم تفككها في النهاية)، بسبب الحروب التي كانت تنشب بين حكام المدن العسكريين المختلفين. كان رجال الدين والكهنة يساندون فريقاً من المتحاربين وينصرونه على باقي الفرقاء (وهذا ما جعل من مدينة سومر عاصمة البلاد)، ولا بد أن الكهنة قد تراضوا مع المجاريين كما تراضت الآلهة مع الملوك. وقد تكرر هذا الموقف مرة ومرارا على طول التاريخ الإنساني لأن الجميع يودون خطب ود السلطة الدينية والسلطة العسكرية. مع نمو الحروب «والرجال العظام» الذين قادوا الجيوش في تلك الحروب تغيرت مظاهر حياة المدن. بدأت تظهر التحصينات وبدأت تشاهد علامات نشاط الجنود في النصر والهزيمة. بدأنا نلاحظ مشاهد الأسرى وهم يساقون إلى الملك، وما كان يحدث لهم. في البداية كان يتم ذبحهم ثم تبين لبعضهم أن الشعب المهزوم قد يكون ذا فائدة للمنتصر فتم إبقائهم على قيد الحياة بدلا من قتلهم، ونشأت طبقة اجتماعية جديدة - طبقة العبيد. وزاد تعداد هذه الطائفة عندما بدأت عمليات خطف الرجال والنساء من الرعاة في الجبال. وقد بينت الكتابات التي تم العثور عليها أن تجارة الرقيق ازدهرت بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. بنشأة طبقة العبيد حدثت تطورات هامة في شكل المجتمع. في البداية انتعشت تلك الأنشطة بوجود الزراعة ثم بنشأة مجتمعات المدن فيما بعد واتساع نطاق الأعمال فيها. من أبرز الأعمال التي احتاجت لخدمات العبيد كانت بنائ المعابد وشق الترع وحفر القنوات ثم تلى ذلك استخراج المعادن وشق الطرق. يتضح من كتابات الكهنة السومريين نوعية الأعمال المختلفة التي كان يقوم بها الناس: قطع الأخشاب والأعمال الخشبية المختلفة، استخراج المعادن وجلبها في نهر الفرات الهاديء من الأناضول (الذي سمي «نهر النحاس») في مقايضة مع الحنطة. ظهر في المدن التي نشأت على نهر الفرات بالقرب من البحر الأبيض المتوسط مهارة الحرفين السومريين. انتشرت صناعة بناء المدن من سومر أولاً إلى أعالي الفرات، ثم انتشرت

فى بلاد فارس. كان انتشار البناء عملية بطيئة لم تنتشر بسرعة انتشار الزراعة والصناعات الفخارية، وشابهت فى انتشارها انتشار الفنون الجميلة بين الطبقات الراقية: صار السكان يختلفون حسب طبقتهم الاجتماعية، فالفلاحون مستقرون فى أماكنهم وسكان المدن يتحركون. انتشار السكان فى عصر السومريين هو مثال لانتشار السكان فى العصور اللاحقة (والعصور السابقة). كان عدد المهاجرين أولا قليلا جدا ولكن تبعتهم أعداد غفيرة. هاجر أولا الفلاحون ومعهم رؤسهم من سومر إلى غرب الأناضول (إلى طروادة) ومهدوا الطريق إلى هجرة كبيرة بعد مئات السنين إلى حوض نهر الدانوب، كما مهدوا الطريق إلى قطع الأشجار وبناء السفن التى شوهدت بعد قليل فى المياه المصرية ومياه جزيرة كريت وفى الخليج الفارسى وفى نهر الانديس العظيم. أول من درس علم الفلك كان السومريون، وأول من وضع التقويم كان السومريون (ومنهم أخذها كهنة المصريين القدامى والتجار الفينيقيون). أول من وضع تصورات الكتابة كان السوميريون - وكان عدد الصور ٢٠٠٠ صورة سنة ٣٢٠٠ ق.م. -، تم إنقاص عددها إلى ٥٠٠ صورة ذات نطق معين سنة ٢٩٠٠ ق.م. (وكانت خطوطا مسمارية على الطوب النى). الكتابة الهيروغليفية فى لوحة الملك نارمر سنة ٣١٠٠ ق.م. كانت تعتبر مقدسة، ثم تكيفت وتغيرت واختلقت وانتقلت من سومر بواسطة مجموعة من الكهنة كذلك انتقلت العجلة السريعة لصناعة الفخار إلى الهند شرقا وإلى مصر غربا ومن ثم انتقلت إلى بلاد الإغريق، ثم صنعت باقى العجلات الأكبر حجما من هذا النموذج البدائى. لم يكن هذا الانتشار نتيجة نصر عسكري وتأسيس امبراطورية شاسعة ولكنه كان نتيجة انتشار الصناع المهرة والكتبة وعلماء الرياضيات والحساب فى زمن كان هؤلاء يلتصقون بالكهنة ويعاونونهم فى بناء المعابد، وجاء من نسل هؤلاء الفنانين والحرفيين والمثقفون الذين غزوا العالم بعد ذلك بعلمهم وفنونهم وصناعاتهم.

هكذا تدلنا الحفريات أن سومر كانت مهد الحضارة فى العالم ويمثل الكاهن جيلجامش - الذى تولى الملك - أسطورة مازالت تتردد بعد آلاف السنين فى الأدب السومرى ومن بعده فى الأدب البابلى، ومازالت تعيش إلى الآن. تحكى لنا تلك الأسطورة عن الخلاف الذى نشأ بين سكان المدن (المتحضرين) وسكان الجبال والصحراء (المتوحشين)، كما تقص علينا الخلاف الذى نشأ بين الإنسان والآلهة (آلهة بلاد ما بين النهرين)، وبين الإنسان وقوى الطبيعة، خاصة الفيضان، الذى كانت الآلهة تحذر أتباعها المخلصين منه فيتقوا شره. كانت هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير تشابه الحكايات التى ورثناها من اليهود والإغريق والتى كانت تحتوى على مصائب مؤقتة وحوادث مؤلمة كما تحتوى على مبادئ أخلاقية وتحتوى على الثواب والعقاب، وتمثل كلها كيف انتقلت الحياة من البدائية المتوحشة إلى الحياة المدنية المستقرة الهادئة. يلاحظ فى قصة الطوفان العظيم فى كتابات السومريين (قصة نوح) كيف أن نوح عند السومريين وضع من ضمن من وضع فى سفينته -

العمال المهرة (الذين كانوا لازمين للحياة المدنية) بعكس نوح في الكتابات العبرانية الذي لم يذكر هذه الفئة فيمن وضعهم في سفينته. ومن ضمن ما عثر عليه من حفريات السومريين هذه العبارة. «كان هذا أيضا من أعمال جيلجامش، الملك، الذي كان يعرف كل بلاد العالم. كان حكيما، يعرف الأسرار ويدري بالمُخبأ. قص علينا قصص ما قبل الطوفان.. ذهب في رحلة طويلة وكان متعبا، متطلعا، صابرا ومجاهدا، وعقب عودته نقش على الحجر القصة بأكملها».

تحركت الحضارة التي نشأت في أرض سومر إلى الشمال، ثم تحولت لغة السومريين إلى اللغات السامية التي كان يتحدث بها أهل الصحراء وأهل الأدغال، ثم توحدت المدن الكبرى في امبراطوريات عظمى حكمها حكام عسكريون متعاقبون. استقرت المعتقدات وتأكدت المهارات وتهدبت اللغات ثم وضع نظام متين للمجتمع - اتبع فيما بعد في آسيا وفي أوروبا. يعد حوالي ١٠٠٠ سنة من رى أراضي سومر، بدأت تعاني من زيادة الملحوحة في الأرض. بدأت ملاقات هذه المصيبة أولا باستبدال زراعة الشعير (المحصول الفقير الضعيف) محل زراعة القمح (المحصول الثمين القوي)، ثم اضطر الفلاحون للهجرة نحو الشمال وصارت أراضي بابل القوية الجديدة هي مصدر الثروة. في نفس الوقت تم الكشف عن الثروة المعدنية في الأناضول وأرمينيا وبلاد الفرس وبدأ استخدام المعادن في صناعة الأسلحة وأنوات الحرب، وأدى هذا إلى زيادة قوة سكان التلال الشمالية (في آشور) ثم في الام (وعاصمتها صوصة العاصمة الأولى لامبراطورية الفرس). الكشف الأعظم بعد صناعة الفخار كان استخدام الأفران لاستخلاص المعادن: البداية كانت للنحاس ثم البرونز ثم الحديد ثم تصنيع الصلب من الحديد بإضافة الكربون. كل هذا كان من بدع الإنسان الذي وجد خامات المعادن في جبال أرمينيا وجبال فارس، ووصلت منجزاتهم إلى بلاد ما بين النهرين تباعا في أعوام ٣٠٠٠ ، ٢٦٠٠ ، ١٣٠٠ ق.م.، في نفس الوقت بدأت صناعة الزجاج حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م. ثم انتقلت إلى مصر بعد حوالي ١٠٠٠ سنة أيام المملكة الحديثة من ممالك قداماء المصريين. ونظرا لندرة الحديد في بلاد ما بين النهرين بلغت قيمته بالنسبة للمعادن الأخرى عام ١٧٦٠ ق.م.

الرمصاص = ١ الفضة = ١٥

الذهب = ٦٠ الحديد = ١٢٠

أعطى تصنيع المعادن لشعوب الشمال ميزة على سائر الشعوب، وكان الصلب الذي بدعوه من الحديد هو الذي أعطى للأشوريين بعد نحو ألف سنة القوة والغلبة لكتائبها ووضع أساس امبراطوريتها، ومكن نفس الصلب تحسين نوعية المحارث وصار الفلاحون قادرين على حرث الأرض الأشد صلابة على التلال ومكنهم من زراعتها. التحسن الذي طرأ على أنوات القنص مكن الرعاة

أيضا من جز صوف الغنم. أمكن صناعة آلات قطع ذات كفاءة من حجر الصوان وبدأ الإنسان يخصي حملان الأغنام (لتزداد سمنة) ثم طبق نفس هذا الفعل على الغلمان والرجال الأسرى والذين تحولوا إلى العبودية (وقد كان لخصي الرجال أثارا بعيدة على تطور المجتمعات الإنسانية مازلنا نشاهدها حتى عصرنا الحاضر). فضل بلاد ما بين النهرين هو تحسين وتطوير وتطبيق إبداعات كثيرة ابتدعها البشر في مختلف الأماكن، وخلال تطور أرض الجزيرة كان إبداع المهارات وإتقانها من أشرف المهن التي يحترمها المجتمع ويقدرها أحسن تقدير. كان الكهنة والملوك قريبيين من مشاكل الزراعة وتقنياتها، كما كانوا قريبين من متطلبات الحروب والمهارات اللازمة لها حتى نهاية الإمبراطورية البابلية وكان سناشريب ملك آشور يفخر بمنجزاته في تطوير التعدين والصناعات المعدنية وطرق الري وكان آخر الملوك القدامى الذي افتخر بالإبداعات العلمية. وهكذا كان بُعد جنوب بلاد ما بين النهرين عن مصادر المعادن وتدهور تربتها الزراعية سببا في انتقال الثروة والسلطة من الجنوب إلى الشمال وسببا في هجرة أهالي الجنوب إلى الشمال، وزادت خصوبة أرض أهل الشمال بينما انخفضت الخصوبة في الجنوب. أول من هاجر كان الكهنة وأرياب الحرف ثم الإداريون والحكام. العباقرة هم أول من يهاجر من البلاد الفقيرة إلى حيث توجد الثروة، ومعهم تنتقل الحضارة التي بدأها السومريون (مازالت تنتقل إلى عصرنا الحاضر).

هاجمت قبائل من الرعاة المدن السومرية مع هجرة حيواناتهم من مراعى الصيف إلى مراعى الشتاء (كما استمر شأنهم إلى الآن). وأكلت حيواناتهم الكلاء والعشب وحولتها إلى مايقرب صحراء العرب. كانت أهالي هذه القبائل هم المتكلمون الأوائل للغات السامية وسموا بلاد ما بين النهرين «العراق» أو عند حافة الصحراء. كان سلاحهم القوس والسهم المزود بالحجارة وكان عددهم ثابتا وثروتهم ثابتة من جراء الحروب الكثيرة التي تنشب بينهم. ومن الإغارة المتكررة على حيوانات القبائل الأخرى. عندما حاربت القبائل أهالي المدن المستقرة نهبوا الطعام والبضائع والثروات، وعند انتصار أهالي المدن كانوا يستعبدون الأسرى من رجال القبائل (وتحول هؤلاء العبيد أحيانا إلى سادة). وهكذا كان مجتمع المدن يتجدد باستمرار بدم جديد، نو مواهب جديدة، خاصة في القتال. وبالتدريج تحول الغزاة الجدد (عند الحنود الشمالية) والدخلاء الجدد، واللغات الجديدة وخاصة الحكام الجدد إلى سادة للبلاد واستولوا على حكمها. كان الحاكم يدعى شاروم - كن أو كما نسميه «سارجون العظيم». حول هذا الحاكم الجديد عاصمة ملكه إلى «أكاد» بالقرب من بابل، شمال سومر، وكانت ثورة سارجون في عام ٢٣٧١ ق.م. وهي بداية الإمبراطورية الأكادية. هاجم ملك أكاد الجديد - بتحريض من التجار - الأناضول في الشمال واستولى على سومر في الجنوب واستولى على جميع الأراضي من البحر المتوسط شمالا إلى الخليج الفارسي جنوبا، وهكذا تُحكّم بلاد شاسعة - لأول

مرة في تاريخ البشرية - بواسطة حاكم واحد من عاصمته - من مدينة واحدة. نشأت طبقة جديدة من الحكام - رجال محاربون يتكلمون لغة الرعاة السامية التي فرضوها على كل بلاد ما بين النهرين. استمر حكم عائلة ساراجون ١٣٠ سنة ثم سقطت من هجمات البرابرة الرعاة الآخرين، الذين عرفوا باسم «الأموريين» الذين استولوا على بلاد الأكاديين وأعادوا انتعاش مدن السومريين. نشأت دولة جديدة من مقاتلين جدد يتكلمون لغة سامية، يتنقلون ويتوسعون ويتعاونون ويديرون شؤون الحكم وقامت على أنقاض دولة الأكاديين وأنشئوا لهم عاصمة جديدة، «بابل» ومعناها «ساحة اجتماع الآلهة». استمر حكم الدولة البابلية الأولى ٣٠٠ سنة وأشهر ملوكها الملك «حامورابي» (جدول رقم ٢).

جدول رقم (٢)

تتابع نظم الحكم في بلاد ما بين النهرين

السنة	أشهر الحكام	نظام الحكم
٤٠٠٠ ق.م.		بدء ظهور المدن من نينوى إلى أورد
٢٩٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م.		الدولة السومرية
٢٣٧١ - ١٩٠٠ ق.م.	ساراجون الأول	الدولة الأكادية
١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م.	حامورابي	الدولة البابلية الأولى
١٥٩٥ - ١١٠٠ ق.م.		الدولة البابلية الثانية
٨٥٠ - ٦١٢ ق.م.	شالما نصر سنشريب اسارهاون	الدولة الآشورية
٦١٢ - ٥٣٩ ق.م.	نيوختا نصر	الدولة البابلية الثالثة
٥٢٥ - ٣٣١ ق.م.	قوروش العظيم	الحكم الفارسي

كان حامورابي ملكا عظيما - ليس بسبب اتساع رقعة مملكته في عهده، والتي لم تتعد جزءا من أجزاء مملكة ساراجون، ولكن بسبب حسن إدارته للملكة الذي تمخض عن ثراء بالغ لها. سقطت الإمبراطورية البابلية الأولى تحت هجمات غزاة من الجبال، مزودين بأسلحة جديدة ويركبون الخيل

والعربات الحربية وأسلحتهم من الحديد. من التحام الغزاة الجدد مع السكان الأصليين نشأت الدولة الآشورية ووصلت إلى قمته في القرن التاسع ق.م. واحتلت جميع بلاد ما بين النهرين بالإضافة إلى سوريا وفلسطين وأغارت على حدود مصر. كان الآشوريون يتكلمون لغة سامية ولكنهم أتوا من الشمال وزحفوا نحو الجنوب بعرباتهم الحربية وأسلحتهم وكانوا آخر الامبراطوريات التي حكمت بلاد ما بين النهرين قبل انهيارها أمام الفرس. اعتمدت نولة الآشوريين على مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة في بلاد ما بين النهرين ذات طرق مواصلات ميسرة بواسطة البغال والخيول مع نظام حكم إداري كفاء. كان يتولى الدفاع عن الدولة جيش متعدد الأجناس، يكثر فيه الجنود المرتزقة والمهندسون وتتميز فيه وسائل النقل والاتصال، وتؤازر الدولة طبقة مخلصه من رجال الدين أخلصت لخدمة الملك.

الكاهن والكاتب

كان إنسان العصر البابليويثي يفسر المشاكل الكونية، كالخلق والولادة والوفاة والخصوبة، كما يفسر الأحداث العارضة كالمرض والوقاية منه، وطرد الأرواح الشريرة التي أعتبرها مسئولة عن الأمراض، والتنبؤ بأحداث المستقبل، بالتفاعل الذي يحدث بين الآلهة وأرواح الشر، وكانت وسيلته في الاهتمام بهذه الأمور وتتبعها تأتي عن طريق الكهنة السحرة والأطباء المشعوذين. كان هؤلاء الناس يستخدمون علمهم بالطبيعة وأحداثها - الذي يفوق علم عامة الناس - في توجيههم إلى أو صرفهم عما يريدون لهؤلاء أن يفعلوه، وهكذا نشأت تدريجيا مهنة الكهانة في المجتمعات. كانت الأرباب متعددة ولها أسماء كثيرة، ووظائف شتى، في القبائل المختلفة. عندما نشأت المدن الجديدة في أرض الجزيرة من اندماج أناس مختلفين في كيان واحد حدث إما اللقاء أو تنافر بين معتقداتهم المختلفة، وكانت المدينة تستمر في الازدهار عندما تلتقى المعتقدات وتتحد. بدأت مهنة الكهانة في المدن الجديدة من تراث السحر والقوة التي تميز بها السحرة السابقون. اندمجت الأساطير وتصالحت آلهة القبائل السابقة وتكونت منها عائلة مقدسة جديدة ذات أسلاف وأبناء، لكل منها وظيفة معينة ومهنة بذاتها يؤديها الإله الجديد في المجتمع الجديد المتشابه. تعقدت الطقوس ولائمت الطبقات الجديدة الناشئة، ارتباط طبقة الكهنة الجدد المزودين بعلم السحر واستعانتهم بالتعاون، ومراقبة النجوم أعطى لهم قدسية في أعين العامة. زاد رصد الكهنة للنجوم وابتدأ علم الفلك في الظهور، وكانت دراستهم للماضي تهيؤهم لتوقع أحداث المستقبل ومكنت هذه الخدمات إلى ظهور طبقة من الكهنة ورجال الدين واستعانوا بخبرة المهنيين، مما احتاج إليه المجتمع الجديد. كان لابد أن يوضع تقويم دقيق يضع في حسبانته الأحد عشر يوما التي تزيد فيها السنة الشمسية عن الاثنى عشر شهرا

القمرية السابق العمل بها، ثم جاء الأسبوع ذو الأيام السبعة. كان لابد من وجود أناس يمسحون الأرض ويصممون حفر الآبار ويحددون مواقع القنوات التي تشق، ويصممون مواقع التصحينات، كان لابد لأحد أن يعد السكان ويقدر حجم المنتجات ويحدد الاحتياجات ويصنع التوقعات ويسجل كل هذه كإنجازات للملوك.

قابلت المدن - من أريحا إلى بابل - كل هذه الاحتياجات الجديدة المتغيرة إلى انتقاء أشخاص بعينهم مؤهلين للقيام بتلك الأعمال من مجموع البشر المختلفين الذين اجتمعوا سويًا في المدن الجديدة، والذين ظلوا محتفظين بأصولهم ولم يتم اندماجهم سويًا بعد الاختلاط. ظهرت فئات ثلاثة من الناس: الكهنة الذين ظلوا مرتبطين بمعابدهم، والمحاريون والإداريون الذين التصقوا بالقصر أو قلعة البلد، والتجار والحرفيون والصناع المهرة والفنانون الذين ظلوا ينتقلون بين المدن المختلفة وظلوا دائمًا غرباء عن المجتمع. كان هؤلاء يتجمعون في الطرقات حسب نوع تجارتهم أو صنعتهم (كما هو الحال في معظم المدن الحالية). كان أفراد كل قبيلة يتجمعون في مكان واحد بالقرب من أفراد القبائل الأخرى لتتم المقايضة بينهم، كان أفراد كل طائفة يتزوجون من ذرية طائفتهم وهكذا يتبع أبناهم نفس مهنة أو تجارة الآباء، كان هذا أوضح ما يكون بين صفوف الكهنة ورجال الدين، الذين كانوا يؤكفون مرارا ودائما على وجوب أن يتزوج أبناؤهم من بعضهم البعض ليحافظوا على قدسية وسرية تعليماتهم.

بعد حين بدأ الناس يتعلمون الكتابة في المدن السومرية. تم إنشاء المدارس حيث كان الدارسون يتعلمون جميع الفنون والعلوم مع تعلم الكتابة والكلام، وهكذا نشأت طبقة مثقفة وقسم المجتمع إلى المثقفين والجهلة. كان التعليم من حظ الملوك والطبقة الحاكمة والكهنة ورجال الدين والإداريين والمهندسين والمحاريين والكتبة (الذين يكتبون للتجار وغيرهم)، ونال هؤلاء جميعا قسطا يسيرا أو فيرا من التعليم. كان كل الغزاة في - مبدأ أمرهم من الجهال ولكن اكتسبت ذريتهم - بعد بضعة أجيال - صفة المثقفين من تعلمهم ومن زواجهم من بنات المتعلمين، وبدؤا يتخون صفات المتحضرين. كان اختراع الكتابة مصدر قوة للكُتَّاب. التصق الكتاب ببعضهم البعض، وبجميع المتعلمين، وزادهم هذا التجمع قوة فوق قوتهم، ونشأت طبقة الكتاب، وظهر لهم إله هو الإله «نابو» بعد أن أزاح إياه الإله «ماربوك» وجعله الإله الأكبر للسموات. صار الإله «نابو» هو إله ملوك الأشوريين الذين سرعان ما تعلموا القراءة والكتابة، والذي أنشأ مليكهم «أشور بانينال» مكتبة نينوى، المصدر الرئيسي الحالي لدراسة تاريخ الأشوريين وأحوالهم. كان الكهنة هم أول من تعلم الكتابة وأول من استفاد منهم، وكان تفوقهم في الكتابة وفي تطبيقها هو الذي مكن لهم تلك المكانة الرفيعة في التاريخ السومري، وكان تيسيرهم لقواعدها هو الذي أزال الحائل بينهم وبين باقي أفراد المجتمع

- بعكس ما حدث في مصر - فقد اقتصر الكهنة وحدهم على معرفة الكتابة ولم يزيلوا الثقافية بينهم وبين سائر الطبقات والأفراد.

عندما استولى الأكاديون على المدن السومرية بدأت اللغة السامية للحكام الجدد تنتشر أنحاء الامبراطورية وتصير اللغة الرسمية، ولكنها كانت لغة حديث ولم تكن تكتب بعد. كان ا ملكا لطبقة الكهنة ومن أسرارهم هم والكتاب السومريون، كانت الكتابة لغة الدين والتجارة الأكاديون على حكم البلاد ولكن استولى الكهنة السومريون على حضارة الدولة الأكادية و الحضارات التالية في أرض الجزيرة باحتكارهم لفن الكتابة. استمرت اللغة السومرية الم التي يكتب بها دين الأكاديون واستمرت الحروف السومرية هي حروف الكتابة: تطورت حرو من أشكال الصور إلى حروف منطوقة في الحروف المسمارية (واستمرت هذه العملية، ملاء الكتابة القديمة وتكيفها مع اللغة الجديدة عملية متكررة حتى عهدنا الحالي)، ثم وضع الأبجدية - والتي اقتضت تقليص عدد الحروف إلى درجة كبيرة - وضعها التجار الفينيقيون التطور يحدث في حروف الكتابة حتى وصلنا في العصر الحديث إلى حروف الكتابة الحاء الكلمات السومرية تسربت إلى لغاتنا الحالية مثل كلما أو كس «ثور»، أكس «فأس»، كوبر تسربت إلى اللغة الانجليزية، ومثل كلمة نجار التي تسربت إلى اللغة العربية).

تدل مدينة بابل - بمعناها العظيم - إلى قوة طبقة الكهنة وسطوتهم. كان بمدينة باب كبيران بالإضافة إلى ٤٠٠ منبج وحوالي ١٠٠٠ مقام مقدس. كان مخصصا للإنفاق علم متلكات شاسعة من الأراضي الزراعية يعمل بها خدامها من العبيد. كان الكهنة يكونون - دائما - دولة داخل الدولة، أفرادها يتولون مناصبهم بالوراثة (شأن طبقة العسكريين وطبة ويتمتعون بالسطوة والسيطرة على هؤلاء. كان الحكام يتغيرون، وتتلو أسرة حاكمة غازية أسرة حاكمة مكسورة ومنهزمة، ولكن الكهنة كانوا دائما ثابتين في مواضعهم يسيطرون - الحكام معتمدين على قدسيتهم في أعين الشعب وعلى تحكمهم في مصادر الرزق وفي إنتاج لحسن تعلمهم وجودة إدارتهم وإتقانهم لفنون الهندسة. برزت سلطتهم في عهد السومريون نيبور وفي العهد البابيلوني في مدينة بابل نفسها، المدينة التي بناها الكهنة وجعلوها م الإمبراطورية بأسرها، وعندما هزم الآشوريون البابليين استمروا يعظمون مدينة بابل ويقدر قدرها. وبعد فتوحات الاسكندر الأكبر الشاسعة قرر أن تكون مدينة بابل هي عاصمة امب الواسعة (وهي نفس المدينة التي توفي فيها الإسكندر الأكبر).

كانت هناك معالم أخرى لهذه الطائفة من الكهنة، فقد كانت لهم - في أعين عامة قدسية، لمظاهر القوة التي أحاطوا بها أنفسهم، فقد أحاطوا أنفسهم بقدسية الآلهة ذات

الشارحين للمعتقدات الدينية والمفسرين لها طوال الثلاثة آلاف عام التي استغرقتها حضارة بلاد ما بين النهرين. كانوا يشرحون لخدامهم ويفسرون لتابعيهم ما استعصى عليهم فهمه من أسرار الدين، وكان أتباعهم هم الفنانون ونوى الحرف (الذين بقيت منجزاتهم الفنية المبهرة على مر الزمن حتى وصلت إلينا). بينت هذه الأعمال الفنية أهوال الحروب والتسامح في أيام السلم، واتساع رقعة المجتمع بدخول أجناس جديدة إليه واندماجهم فيه في عصور الامبراطوريات العظيمة وكان من آثار الكهنة قبول المجتمع المنتصر على استيعاب الشعوب المهزومة واندماجها في المجتمع. استوعبت الشعوب المنتصرة آلهة الشعوب المهزومة وضممتها إلى أسرة الالهة المقدسة - التي حوت في عصر حامورابي (على سبيل المثال) عشرين إلهًا: آلهة البابليين والعموريين والأشوريين بالإضافة إلى آلهة السومريين، وكان يلقب نفسه باسم «حامى حمى الدين» (نفس هذا الاتجاه أخذته فيما بعد قوروش العظيم ملك الامبراطورية الفارسية والاسكندر الأكبر مؤسس الامبراطورية الاغريقية عن ديانات أرض الجزيرة). وهكذا كان الدين تابعًا للسياسة وغير متمسك بمعتقدات خاصة، إذا أراد الحاكم المنتصر التصالح مع الشعب المهزوم فلا حرج على الكهنة أن يضموا آلهة المهزومين إلى آلهتهم، ويتعاون الجميع. وبهذا حدث التعاون بين الجميع ودخلت المنجزات العقلية والمكتشفات العلمية إلى الحضارة الجديدة، سواء كانت فلكية أو وراثية، صحية أو طبية، ولكن اضطر الكهنة إلى قبول التفسيرات السومرية لكسوف الشمس وخسوف القمر حتى مع الكشف عن قرائن لأسبابها الطبيعية ومعرفة هذه الأسباب. اضطر الكهنة للتظاهر بأنهم مدعون (حتى ولو لم يكونوا) لإرضاء السلطة الحاكمة، كان الثراء الذي تمتع به الكهنة - خاصة في الألف الثالثة ق.م. - والقوة التي اكتسبها دافعًا للكهنة بأن يظلوا رجعيين لا يريدون تغيير الأحوال (هذا التغيير الذي بدأ في المجتمعات الصغيرة البدائية الفقيرة، وتعاضم مع زيادة العلم والمعرفة وأدى إلى الصراع بين التفسيرات العلمية والتفسيرات السحرية وأدى ظهور المنهج التجريبي في الحياة).

دستور حامورابي

كتب حامورابي، على عمود من حجر الديوريت، في آخر أيام حكمه، عام ١٧٥١ ق.م.، لائحة من ٢٨٢ بندًا، في مدينة بابل، ظلت شامخة لمدة ٨٠٠ سنة كاملة، قبل أن يسرقها ملك إلام وينقلها إلى عاصمة ملكه في صوصة، وحدث بها بعض التشوهات. كان هدف حامورابي أن تظل قوانينه التي وضعها سارية إلى الأبد. كانت هذه القوانين تُفصّل القواعد الجنائية والمدنية التي كانت سائدة في بابل طوال فترة بقاء الدولة البابلية وتعتبر من أهم منجزات تلك الدولة، وعادت بالفخار على ملوكها وكهنتها في التاريخ. ادعى هذا الدستور أنه حصل على تأييد جميع آلهة البلاد، ولكنه لم يكن من عمل

مجموعة الكهنة. هذا الدستور هو تنقيح لما سبقه من قوانين وبذل جهد فائق في تحضيره، وكان - فى الأرجح - من عمل ملك البلاد العظيم، ويوضح الجدول رقم (٣) أهم محتويات دستور حامورابى.

جدول رقم (٣)
أهم محتويات دستور حامورابى

عدد الفصول	المسائل
٦٨	١- العلاقات الأسرية والجنسية : ويحوى قوانين الزواج والميراث والخيانة والطلاق والهجر والتبني
٥٠	٢- الأراضي: ويحوى قوانين الإدارة والرى والإيجار
٣٨	٣- التجارة والمقايضة والفوائد والدين
٢٧	٤- المواشى والزراعة والحدائق
٢٦	٥- الاستئجار والإيجار والأجور والمرتببات
٤٠	٦- السرقة والعنوان: الادعاءات والعقوبات
٣٦	٧- واجبات العبيد وتملكهم: الدائم (٣٢) والمؤقت (٤)
١٩	٨- الجنود من الأعداء: العاملون والأسرى
٧	٩- الكاهنات الزواج والوراثة
١٠	١٠- الأطباء والجراحون الحقوق والعقوبات
٥	١١- إجراءات التقاضى والشهادة

أول ما نلاحظه فى دستور حامورابى أن اهتمامه الأول لم يكن بالممتلكات ولكن بالإنسان وعلاقاته الاجتماعية والجنسية. يشجب إتيان المحارم ويحمى الطفولة يعاقب على الإيذاء على أساس أن العين بالعين، وهكذا نرى أنه يدخل إلى ساحة الأخلاقيات والسلوك. ترك الكهنة البابليون هذه

الأمر للسلطة المدنية ولم يفرضوا قواعد دينية لها، وهذه الأمور نفسها هي التي اهتم بها أحيار اليهود وضمونها في كتبهم الدينية بعد ذلك بألف عام. من الواضح أن البابليين لم يشجّبوا كافة العلاقات الجنسية (سوى إتيان المحارم)، وكان المؤلف أن يتخذ الشخص زوجة واحدة (كان التعدد يحدث في العشيقات، خاصة مع الجوارى). كان البغاء مسموحا به، بين النساء والرجال (من الخصيان)، كما كان هناك البغاء المقدس، ولم يكن الشنوذ الجنسي محرما أو ممنوعا. كانت الحياة الإنسانية غالية وكانت تقدر حسب العمر وحسب الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها الشخص. كان الإجهاض وقتل الأطفال الرضع والشنوذ الجنسي مباحا، وكانت هذه هي الوسائل المتبعة للحد من التكاثر غير المنضبط، كما ورثوها من العصر البابليويثي. بعد التفصيل في هذه الأمور وإسهاب في قوانينها تأتي المحاكمة بالتعذيب عند محاكمة المشعوذين عندما تقتصر القرائن عن إثبات الصحة، ثم يلي ذلك القوانين التي تعمل على ثبات الحالة الاقتصادية في الزراعة وفي الحياة المدنية. كانت الأسعار محددة في الإيجار كما كانت الأجور ثابتة، والغرامات ثابتة عند التعرض للإصابة أو للسرقه، وكانت الغرامات تختلف بحسب الوضع الاجتماعي للمصاب وشدة الإصابة، وكانت إصابة العبيد تقدر كأنها إصابة لمالك العبد. هذه القوانين المفصلة تم الاستعانة بها ونقلها في القوانين العبرانية. كان العبيد - الذين كانوا يعاملون كالسلع المنقولة - عادة من الأغراب، وكانوا أو كان أسلافهم عادة من أسرى الحروب. كانت القوات المتحاربة تخسر لأعدائها جموعا غفيرة من الأسرى، الذين كانوا عادة لا يستبدلون ولا يعاونون إلى أهاليهم وأوطانهم. كان مجتمع العبيد الذي يتكاثر بالتناسل المستمر، من أثنى ما تملكه طبقات المجتمع المختلفة، وكان مصير العبد يتحدد بسلوكه وأخلاقه، وكانت تختلف معاملاتهم من أسيادهم. كان يسمح لبعض الرجال من تملك الممتلكات، وكان يتم تحرير بعض النساء والرجال. وكان يسمح بزواجهم من الأحرار ويكون نسلهم حرا. وهكذا كان العبد ليس له حقوق ولكن قد تسنح أمامه فرصا كثيرة للتحرر، وكانت هذه الفرص من أكثر فرص الاختلاط بين الأجناس المختلفة والإنسال بين شعوب العالم القديم. يمكن للرجل الحر أن يحكم عليه بالعبودية إثر ارتكابه جريمة، ويمكن له أن يبيع زوجته وأولاده سدادا للدين، أو في نهاية الأمر يمكنه أن يبيع نفسه، ولكن في كل هذه الأحوال فإن الرق لا يديم على المواطن من أهل البلد، وبإمكانه أن يتحرر متى سدد لسيدته ثمنه، استمر هذا الفرق في مجتمع الرقيق بين الأرقاء الأغراب وبين الأرقاء من مواطني البلد في جميع أنحاء العالم طوال سنوات التاريخ، كان مواطن البلد يخدم فترة من الزمن - لاتنوم - ولا تقلل من مركزه الاجتماعي، أما الرق للأجانب فكان قيادا دائما ويحط من قدره. ولعل أعقد مواد قانون حامورابي كانت المبالغ التي تدفع عند الزواج أو السلاق أو الميراث، مبالغ تقدر

بأوزان من فضة تختلف من مجتمع لمجتمع، المجتمعات الزراعية ومجتمعات المراعى ومجتمعات المدن، المجتمعات الثلاثة الذى أدى اندماجها إلى نشأة الدولة البابلية ذاتها.

انقسم الناس فى الدولتين البابلية والأشورية إلى ثلاث طبقات: الطبقة العسكرية وطبقة رجال الدين أو الكهنة وطبقة المدنيين والتي تشمل الفلاحين والعمال والموظفين والتجار وغيرهم. كان هذا التقسيم يسمح بالزواج المتبادل بين أفراد كل طبقة. شملت طبقة العسكريين العائلات المالكة، التى تزوجت فى أول الأمر مع طبقة الكهنة، ثم مع الملكيات الخارجية، وشملت طبقة رجال الدين الكهنة وخدام المعابد وحرفيها وفنانيها. وشملت طبقة المدنيين حكام المدن وإداريها وعمامة الناس ممن يمتلكون العبيد والفنانين والحرفيين المتنقلين الذين لا يمتلكون خدما أو عبيدا أو مساعدين. كان التنقل من طبقة إلى طبقة ممكنا متى زاد ثراء الشخص وملك للرقيق أو افترق وتنازل عن العبيد. وكانت الطبقة الرابعة هى طبقة العبيد، وكانوا ينتقلون بين العائلات بالبيع أو من المعابد إلى التجار الأثرياء. كان حكام المدن يتم انتخابهم بواسطة الأهالى ثم يعرض اسم من اختاره الناس إلى الملك ليصدق على تعيينه، وكان التفاوض والموازنات تجرى للحصول على هذه التصديقات. هذه الإجراءات التى كانت تتم فى بابل القديمة تشابه إلى حد كبير ما كانت تفعله المجتمعات الجديدة إلى وقت قريب (ومازال متبعا فى بعضها الآخر إلى وقتنا هذا). كان الغريباء دائما مواطنين من الدرجة الثانية لأهالى البلاد الأصليين إلا عندما يكونون محاربين، فقد كانت لهم العزة وكانوا كثيرا ما يقبلون نظم الحكم ويستولوا عليها وينشئون أسرا حاكمة جديدة.

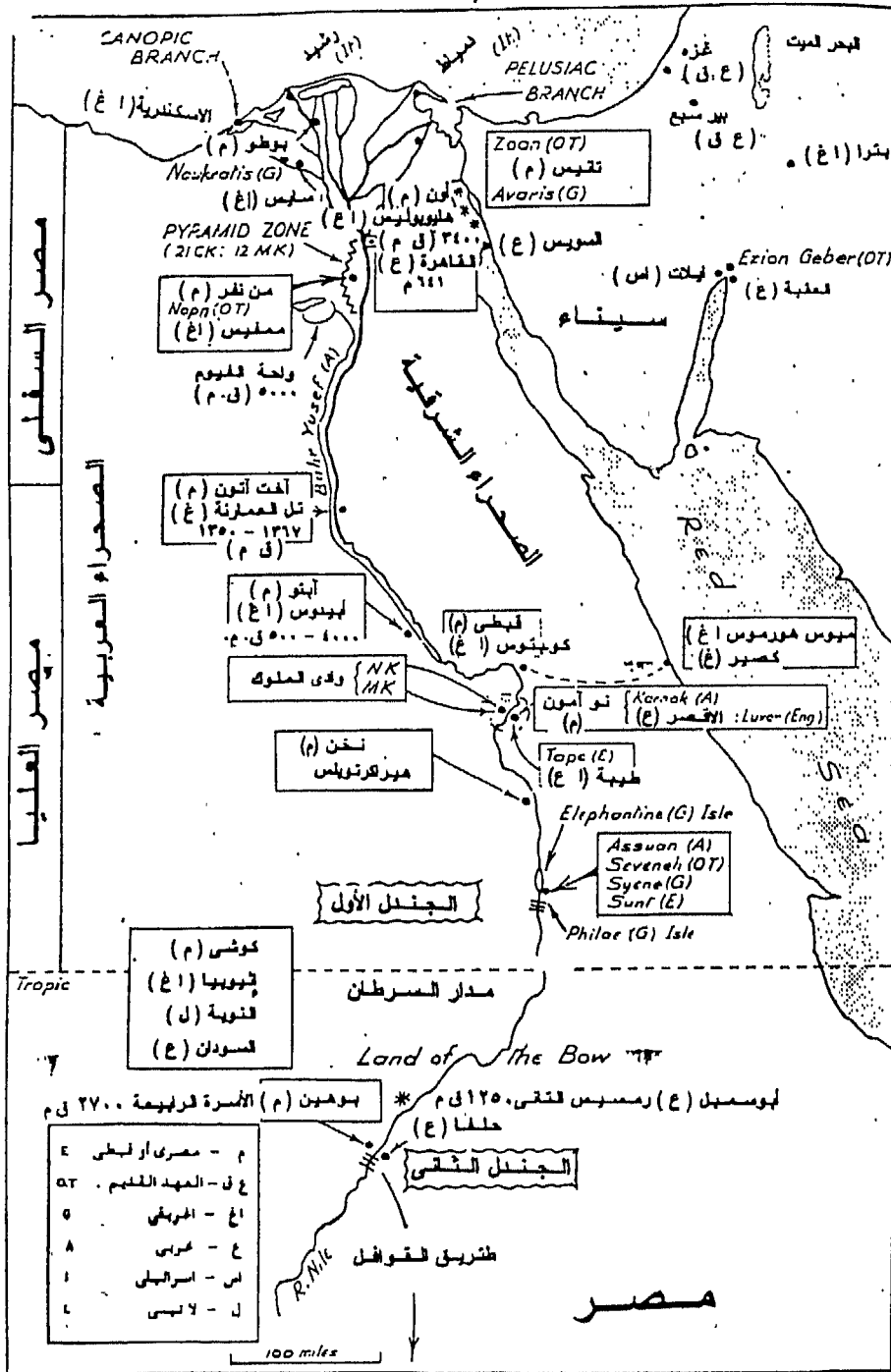
عند استعراض حضارات أرض الجزيرة القديمة يتضح أن الأراضى الجديدة أشد خصوبة من القديمة، والمدن الجديدة أحسن موقعا من المدن التى بادت، والتقنيات الجديدة أفضل من السالفة، وأن قوس الصحراء هو الذى يتغلب على رمح المدنية والعربات الحربية التى تجرها الخيول هى التى يكتب لها النصر على حساب الجيوش الراجلة. ولكن كل هذه الميزات ليس لها إلا تأثير وقتى وأن النصر الباقى فى النهاية هو للمهارة فى إدارة الحكم والحكمة فى تدبير الأمور. كان الحاكم الحكيم هو الذى يستفيد من المهارات الثقافية لمواطنيه والذى يستخدم الأذكىاء من مواطنى الشعوب التى انتصر عليها. عندما انتصر ساراجون أدمج فن السومريين فى الدولة البابلية، وعندما وضع حامورابى دستوره فقد استغل الدين فى خدمة القانون وخفف الوطأ عن الرقيق. ثالث هذه الأمثلة نراه فى مبدأ النفى. ابتدع الحكماء من حكام بلاد ما بين النهرين الأقدمين فكرة النفى. تبين المنتصرون الجدد المهارات الكامنة فى الشعب المهزوم: كان منهم الكتبة، وكان منهم الموسيقيون وكثير من الحرفيين المهرة فى شتى الأعمال وكان هؤلاء المهزومين يتقنون أعمالا لا يجيدها أبناء

المنتصرين، بنقل هؤلاء المبدعين إلى بلادهم فقد عملوا - القادة المنتصرون - بضربة واحدة ما تعلمه قوانين الوراثة البيولوجية بعد مضي أجيال كثيرة، كانوا يريدون أن يروا هذه المهارات تترعرع في عواصمهم ويتعلمها مواطنوهم (وهو مازال يجرى في عصرنا الحاضر من تشجيع هجرة العقول من البلاد الفقيرة إلى المجتمعات الغنية)، يظل المهاجرون الجدد، إلى وقت طويل محتفظين بكيانتهم وتقاليدهم ودينهم مادامت هذه العوامل تعود بميزة اقتصادية لهم، قبل أن يذويوا تدريجيا في المجتمعات الجديدة، في الدولة الآشورية كان النفي يتخذ طابع سيطرة الدولة على التنقل بين مواطنيها والتحكم في تركيب المجتمع. كان الملوك حريصين على توافر العمالة بكفاءة كما كانوا حريصين على تشتيت الجماعات المنشقة عليهم والمشاكسة لهم وتفتيت حركات المقاومة. عندما دخل الملك الآشوري إسارهدون مصر في عام ٦٧١ ق.م. نقل العبيد الزوج (نوى الأصل الحبشي) منها إلى نينوى وفي نفس الوقت نقل السوريين المهرة (الذين يتكلمون اللغة الآرامية) إلى مصر حيث عملوا فيها مديرين للإدارات المختلفة. وبعد مائة سنة نقل نبوختنصر الثاني اليهود المنقذين إلى بابل من بيت المقدس، لإتمام إخضاع تلك المدينة تحت سيطرته وكذلك لتزويد مواطنيه في عاصمته بالمهارات والتقنيات والثقافات التي كان يمتلكها اليهود (وعندما اقترح جيرميا خطط التوطين الاجتماعي لهم في بلادهم الجديدة، رفض أغلبيتهم العودة من مفاهيم بعد أن سئحت لهم الفرصة بذلك وبعد استقرارهم في مجتمعهم الجديد). وصلت الدولة البابلية بعد حين إلى الصدارة في العالم الجديد، وكان التشابك بين أفرادها واضحا: التشابك الجيني، والتقني والثقافي. كان الاندماج الكلي لأجزائها المختلفة هو سبيلها لبلوغ قمة الحضارة في ذلك العصر. بعد حين انفرط العقد وزالت الدولة ولكن مازالت أجزاؤها المختلفة حية، تم احتلالها بواسطة الفرس ثم بواسطة الإغريق، ورفض المنتصرون الجدد الخضوع لسيطرة كهنة بابل وأتباع دينها. أحضر هؤلاء الغزاة معهم كهنتهم وألهتهم ومعتقداتهم، ولكن ظلت الثقافة البابلية والتقنية البابلية هي القوة الخلاقة في كلتا الامبراطوريتين. تبعثر الكيان وتحطم، وتفرق البشر وتناثرت عناصر اللغة، ولكن سرعان ما تجمعت الأجزاء المبعثرة على الجانبين الشرقي والغربي وظلت العناصر الثمينة من تلك الحضارة باقية.

الحضارة المصرية القديمة

الخريطة رقم (١)

دفن طمى دلتا النيل تحته آثار تلك اللحظة الخالدة فى تاريخ البشرية التى تحضر فيها الإنسان التى جاءت حوالى سنة ٦٠٠٠ ق.م. عندما نخل مصر أناس قدموا من فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط. كان هؤلاء البشر من الجنس الحامى وكانوا رعيان وزراعى أرض، يتحدثون بلغات اندثرت كما اندثرت اللغة السومرية. وجد القادمون نهر النيل يجرى خلال أحراش السافانا التى تحوى حياة حيوانية غنية. كانت المستنقعات تحيط بجانى النهر، وكانت الغابات تملأ الواحات فى الأراضى حول النهر (التي تدهورت أحوالها عبر الزمن وأن بقيت فيها بعض المزروعات الثمينة). انشغل هؤلاء القادمون الجدد بالصيد والقنص واستثناس الماشية والحمر البرية ووجئوا سباعا وعجول بحر ونعام، وانتشروا فى الأرض وانقسموا إلى مجموعتين، بعضهم رحل غربا واستوطن فى شمال إفريقيا على ساحل البحر المتوسط، وهؤلاء كانوا الرعيان وهم أسلاف البربر، والبعض الآخر إتجه إلى الجنوب وهم أسلاف الهوتنتوت وغيرهم وهم أيضا من الرعيان، واستقر آخرون فى الصحراء الشرقية وهم البيجيون الحاليون. أول الآثار التى عُثر عليها فى مصر ترجع إلى ٥٠٠٠ سنة ق.م. (منذ حوالى ٧٠٠٠ سنة) فى أجزاء متفرقة على طول نهر النيل وتشمل أوان غير ملونة ثم أوان ملونة (بعد أن جاءت اليهم هذه التقنية من الأناضول حوالى سنة ٣٦٠٠ ق.م)، ثم تهذبت المصنوعات ورقى النوق تدريجيا. تشمل الآثار التى عثر عليها أيضا بقايا القمح والشعير (كقرينة على الخبيز)، وآلات لحش الحشيش ومناجل لقطع أعواد القمح والشعير وبقايا للغنم والماعز والخنازير ومعدن النحاس. استقر الوافنون حول نهر النيل (ولكنهم لم يقتصرُوا على هذا المكان). علمهم فيضان نهر النيل الذى يقد فى شهر سبتمبر من كل عام، أن يستفيدوا منه فى زراعاتهم. انتشرت قبائل الزراع فى الدلتا وعلى ضفاف النهر حتى الجندل الأول جنوبى أسوان على بعد ١٠٠٠ كم جنوبا. كان المواصلات طوال هذه المسافة متعسرة فى مبدأ الأمر، وكان نهر النيل - بالمستنقعات المحيطة به - فاصلا بين الشرق والغرب، ولكن أمكن استغلال القوارب فى الرحلة مع التيار من الجنوب إلى الشمال وأمكن استغلال الرياح الشمالية - التى تهب على مصر فى فصل الشتاء - فى الإبحار ضد التيار من الشمال إلى الجنوب. سرعان ما توحدت مصر: الشمال مع الجنوب والشرق



مع الغرب. فى فترة التاريخ غير المسجل، كان الزراع يقودهم الكهنة ويوجهونهم، وكان الكهنة يتمركزون فى مدينة أون، فى معبد الشمس، أو كما سماها الإغريق هليوبوليس (وتقع حاليا فى منطقة عرب الحصن بالقرب من المطرية، إحدى ضواحي القاهرة). فسر الكهنة فيضان النيل أنه من عمل الأرواح السماوية، وغيروا تدريجيا التقويم القمري بالتقويم الشمسى وأصبحوا بذلك المرشدين الناصحين للمزارعين، الذين صاروا لا يستفتون عنهم وعن خدماتهم، واعتنقوا المعتقدات التى جاء بها هؤلاء. نشأ الاحترام المتبادل بين هاتين الطائفتين وأتبعه التعاون الوثيق بينهما لبناء المجتمع وارتقائه. يتزامن هذا العصر مع بداية دخول الزراع فى وادى نهر الفرات أو قد يكون متأخرا قليلا عنه. فى النصف الأخير من الألف سنة الرابع قبل الميلاد تظهر شواهد أن هذا البلد المسالم قد تعرض لموجات متتالية من الغزو، من محاربين مسلحين. بعض هذه القرائن مكتوب وبعضها يتضح من المخلقات التى تركها الغزاة والتى تدلنا على أصلهم ومن أين أتوا، كما تدلنا على طباعهم وسلوكهم ومنجزاتهم. حدث الغزو فى موجات متتالية ومن طرق عدة. بعض الغزاة جاؤا من الطريق الساحلى من الشمال الشرقى، وبعضهم حملتهم القوارب من البحر الأحمر ونزلوا فى خليج العقبة وساروا فى طريق التجارة عبر وادى الحمامات (الذى كانت تفرقه المياه فى ذلك العهد). وصل هؤلاء الغزاة إلى قرية «كوبتوس» على النيل (مدينة قنا المعتقد أنها مهد أقباط مصر أو المصريين). تشكلت حكومتان من الغزاة، حكومة فى الدلتا فى بوتو (قريبة من مدينة دسوق)، وحكومة فى الصعيد فى هيراكونبوليس، (الاسم الإغريقى، قريبة من مدينة إدفو). أظهرت بقايا العظام التى عُثر عليها أن الحكام الجدد كانوا أكبر حجما من السكان الأصليين وكانوا من جنس مختلف عنهم، واستمروا منفصلين عن سكان البلاد الأصليين لاختلافهم فى الطبع وفى السلوك وفى اللغة لعدة أجيال. أدخل هؤلاء الغزاة الجدد العناصر السامية إلى لغة المصريين وتولد عنها اللغة الهيروغليفية، التى ظلت سائدة فى البلاد حوالى ٣٠٠٠ سنة حتى احتل الاسكندر الأكبر مصر ودخلت إلى لغة المصريين بعض الألفاظ الإغريقية. حكم البلاد أسرات مالكة حفظت الأمن وجلبت الثراء إلى البلاد وتحول المجتمع إلى مجتمع إقطاعى مع وجود قوة عاملة قومية كبيرة. شغل الفلاحون - أيام فترات الكسل والخمول - بأعمال أخرى نتج عنها الأعمال الكبرى التى أدت إلى التحكم فى مياه النهر لمقابلة موسم الفيضان، وأعقب ذلك شغل الفلاحين فى بناء المقابر العظمى الخالدة لملوكهم التى سجل فيها تاريخ مصر العظيم والتى حفظته من الضياع. هؤلاء المصريون العظماء الذين بنوا الأهرام الشاهقة، وحفروا وزينوا المقابر العظيمة فى باطن الأرض، هم أسلاف من حفروا قناة السويس فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد. أهل الشمال وأهل الجنوب الذين حكمهم أصحاب التيجان الحمراء والبيضاء توحوا فى مملكة واحدة حوالى سنة ٢٢٠٠ ق.م. على يد ملك الجنوب، الملك نارمر، الذى

احتل مملكة الشمال ووحدها مع مملكة الجنوب تحت حكمه (وما زالت مصر دولة واحدة على مر التاريخ منذ ذلك العهد). ربما يكون الملك نارمر - الذي جاء ذكره فى لوحة نارمر الشهيرة - هو نفس الشخص الذى اعتبر الفرعون الأول والذي وصفه المؤرخ مانيتو فى عصر البطالمة تحت اسم الملك مينا. دعم الملك نارمر حكمه بالزواج من الأميرة نيثرتب، من الأسرة المالكة لإقليم الشمال (كما دأب الحكام على فعله طوال عصور التاريخ). ولكن لم يستقر الأمر للحكام الجدد طوال ٤٠٠ عام حتى نهاية الأسرة الثانية، عندما تزوج آخر ملوكها من أميرة من البيت المالك الشمالى وانتهى تماما الخلاف والصراع بين ملوك الشمال وملوك الجنوب، وتدعم هذا الاندماج بإبتداع تاج الوجهين الأحمر والأبيض ودمجها فى تاج واحد، وكان هذا مقدمة للاندماج الشامل بين الشعبين. تمخضت هذه الوحدة الشاملة بإقامة عاصمة جديدة بين المملكتين (وإن كانت أكثر قربا لمملكة الشمال) مدينة ممفيس، التى صارت العاصمة الموحدة لكل المصريين طوال ٢٠٠٠ عام. دب نزاع أكثر خطورة من نزاع الحكام بين الملوك والرعية فى منتصف الأسرة الثانية. اعتبر الملوك أنفسهم من أتباع «حورس» بينما عبد الشعب الإله «ست»، ولكن انتهى هذا النزاع عندما اتخذ الملك شعارا جمع فيه شعار الصقر (المعبر عن حورس) مع اسم «ست». ما حدث تحت حكم الأسرتين الأولى والثانية هو أحد أهم أحداث التاريخ القديم، نشأ مجتمع جديد من اندماج جماعتين من البشر، مختلفتين فى الأصل ومتباينتين فى الجنس: الجماعة الأولى زراع محليون والمجموعة الثانية غزاة وافدون، ربما من سومر أو من سوريا أو من جنوبي الأناضول. جاء بناعون وحرفيون وفنانون من سومر بين سنوات ٢٤٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. وقد تسلل هؤلاء إلى مصر وأعادوا بطولاتهم فى التماسك والصراع مع الأسود، وجر السفن، والإمساك بأعناق الحيوانات وجدل شعرها، وأدخلوا إلى مصر الأختام التى تحمل التصميمات السومرية. وجدت هذه المخلفات التى تحمل أثارا سومرية فى كل أماكن الحفريات من ممفيس إلى هيراكوبوليس، ولكن بعد عدة أجيال انقرضت واختفت عن الوجود ولم تبق إلا الحفريات التى تحمل طابعا مصرية خالصا والتى بقيت على مر الزمان. لم يحدث أبدا عبر التاريخ أن حدثت هجرة عكسية - من مصر إلى سومر - لأن تعداد شعب مصر لم يتزايد عن إمكاناتها. لم يهاجر المصريون ولم يستقروا فى أو يستعمروا بلادا أخرى، لم يغادر المصريون بلادهم إلا مطرودين أو منفيين، حتى فى أمور التجارة، التى تركوها فى أيدي الفينيقيين ومن بعدهم الإغريق، لأن بلادهم كانت فى أعينهم - كما استمرت فى أعين خلفائهم - هى أم الدنيا وليس لها مثيل فى كافة بلاد العالم. أظهر المصريون مقدرتهم وعلمهم وفنهم فى آلاف المقابر التى خلفوها، والتى أظهرت نقوشها طريقة حياة المصريين واعتناقهم وشدة تمسكهم بمعتقدهم بعودة الحياة بعد الممات. قد يكونوا قد ورثوا أسلوبهم فى التعبير وتقنياتهم فى التنفيذ من سومر، واكتسبوا مقدرتهم الإدارية

من جيرانهم الآسيويين، وقد يكون مدينين بجلدهم وصبرهم على العمل إلى المزارعين الوافدين إليهم من آسيا في مبدأ الأمر، ولكن الحقيقة أن كل منجزاتهم التالية طوال ما يزيد عن ألفى عام هي من صنع أيديهم، ومعالمها مصرية خالصة، توحى بالبهجة والتعاطف، على خلاف بقية آثار العالم القديم. هذه البهجة التي ورثتها الحضارة المينوية، ومن بعدها الحضارة الإغريقية، والتي تعطى طابع البساطة والسذاجة والعزلة والخصوصية لساكنى القبور للاستعداد لعودة الحياة إليهم عند انتقالهم للعالم الآخر، كما توحى النقوش بأنها من عمل الفنانين الذين اجتذبهم ثراء ملوك مصر وحكامها من جبال الأطلس حتى صحراء كالهارى، كما اجتذبتهم حصافتهم وحسن تمييزهم في المعاملة. هكذا اجتمع في مصر القديمة أجناس شتى، سرعان ما اندمجوا في مجتمع واحد وتعايشوا وتناسلوا في مصر بلد النيل وأزهروا حضارة المملكة القديمة تحت لواء الأسرتين الثالثة والرابعة التي أنجبت بناء الأهرام العظام الخالون.

بدأت الأسرة الثالثة في مصر حوالي سنة ٢٨٠٠ ق.م. (بعد ١٢ جيلا من توحيد مصر على يد نارمر)، وأحدثت هذه الأسرة التغيير الثانى العظيم فى التاريخ المصرى. أهم معالم هذه الأسرة هو التبشير بدين جديد، أو بالأحرى، انتقاء أحد الديانات المتعددة للمصريين وإحيائها ونشرها والتمسك بها - بدلا من المذهب القديم الذى قتل فيه الإله «ست» الإله «أوزوريس» ونشأ ابنه «حورس» مكانه. بشر الدين الجديد بإله الشمس «رع» وسيده على جميع الآلهة. كان الإله «رع» هو إله كهنة «أون»، ثم اصطفاه الملك، وعبده الفرعون نفسه، ثم تبعته الطبقة الحاكمة فى البلاد. أدخل كهنة «رع» تقليد حفظ جثمان المتوفى وتحنيطه ثم دفنه فى مقبرة تحفظه وتحميه، خاصة جثمان الملك، ومن ثم بدأ عصر بناء الأهرام. استقل كهنة «رع» معرفتهم بالشمس وحركتها وقسموا العام وبدعوا التقويم الشمسى وتنبأوا بفيضان النيل، وأنه سيقع فى شهر سبتمبر من كل عام، وبدعوا فى ضبط مياه الفيضان لرى الأراضى الزراعية، وكان الدين الجديد الذى أتوا به ما هو إلا استغلال معلوماتهم الرياضية والفلكية والهندسية لأغراضهم السياسية واكتساب السلطة، وتطورت مع تغير الظروف فى الألف سنة القادمة. كانت الفكرة الأساسية أن الفرعون التالى، الذى استمر فى عبادة إله الشمس «رع»، إله أبائه وأسرته وطبقته، كان يُعبد هو شخصيا من قبل الشعب، لأنه تجسيد للإله، أولا «كحورس» ثم فيما بعد «كأوزوريس». من الواضح أن هذا الدين الجديد كان من عمل وتعاون أسرة واحدة (أو مجموعة من الحكام العسكريين) من مجموعة أخرى من أسرة أخرى (أو مجموعة من الكهنة)، مع أتباعهم من المثقفين والتقنيين، ومازال هذا التعاون واضحا خلال مسيرة التاريخ المصرى القديم بأسره (كما نلاحظ استمرار هذا التعاون - بوسيلة أو أخرى، مستترا أو ظاهرا ومبالغا فيه - خلال التاريخ الإنسانى بأكمله). أول ثمرات هذا التعاون كان بناء الأهرامات. انتشرت الأهرام على امتداد مائة كيلو متر فى غربى نهر النيل من عهد الأسرة الثالثة حتى الأسرة الثانية

عشرة (وكان بعض هذه الأهرامات - مثل أهرامات الأسرة الحادية عشرة - يمتد جنوبا حتى بالقرب من طيبة). كانت هذه الأهرام تعبیر عن العظمة (للملوك) والطاعة (للمحكومين)، كما دلت على معان أخرى. هؤلاء الناس ضابطوا مياه النهر وهذبوه في عصر المملكة القديمة واستصلحوا أراضي الفيوم وزرعوها في عهد الأسرة الثانية عشر، أرادوا اظهار تمكنهم من علوم الهندسة والتشييد، وقوة حكومتهم وسيطرتها وعظمتها لتابعيهم وخلفائهم، وقد نجحوا في هذا المقصد. الرجل الذي صمم ودبر بناء هرم سقارة المدرج للملك زوسر (الأسرة الثالثة) هو إحتب، والذي يعتبر أبا لعلم الفلك وأبو الطب، والرجل الذي بنى هرم خفرع (الأسرة الرابعة) بعد قرن من الزمان هو هيمن ابن عم الفرعون، ولكل منهما تماثيل باقية إلى الآن. هكذا نرى - للمرة الأولى في التاريخ - نعرف أسماء شخصيات - بجوار الملوك والحكام - يطورون الحياة ويبدعون الحضارة ويوجهون اهتماماتهم إلى مصالح الشعب وشنونه. نعرف أسماءهم ونرى وجوههم ونلم بمنجزاتهم وتبلغ شهرتهم أفاقا بعيدة حتى تصل إلينا. هؤلاء الرجال كانوا أناسا منتقین من الطبقة الحاكمة، رجال لهم إحساس بالتاريخ كما أن لديهم إدراك بموقعهم فيه، رجال كان اعتقادهم في الخلود دافعا لهم للإنجاز، وكان عظماء المصريين هؤلاء يركزون أعينهم على خلفائهم وليس على أسلافهم، وعلى حضارة المستقبل وليس على بقايا الماضي.

يأتى تقسيمنا للأسر المالكة في مصر القديمة من الكاهن مانيتو الذي اتبع الفكرة الإغريقية، ويوضح الجول رقم (٤) هذه الأسرات تبعا لتقسيمات مانيتو. كثيرا ما كانت تبتدأ الأسرات الجديدة بزواج الملك الذي أنشأ الأسرة الجديدة من ابنة آخر ملوك الأسرة السابقة، وبعض هذه الأسرات منفصلة تماما عن الأسرات التالية لها. بعد غزو الهكسوس، انتقل الحكم إلى أسرة حاكم طيبة الذي طردهم من البلاد، بعض الأسرات الأخيرة كانت من غزاة من ليبيا أو أثيوبيا (وقد تزوج هؤلاء من أميرات من البيت المالك المصري وثبتوا حكمهم بهذا الزواج). وهكذا يتضح لنا أنه لا يوجد ارتباط مستمر بين فرعون الأسرة الأولى وآخر الفراعين، ولكن نظرا للزواج المستمر بين أفراد الأسر الحاكمة (وبينهم وبين الأسر الحاكمة في ليبيا والنوبة) وبينهم وبين كبراء الكهان فإن استمرارية الحكم في طبقة واحدة عليا كان هو العالوف. تاريخ الأسرة الثامنة عشر على وجه الخصوص جدير بالذكر. هذه الأسرة من أعظم أسرات التاريخ المصري القديم (إن لم تكن أعظمها)، وفي تاريخها حادثان في غاية الأهمية. أولهما هو تولى الملكة حتشبسوت عرش مصر - وبهذا تعتبر أول امرأة في التاريخ تتولى حكم امبراطورية شاسعة - هذه المرأة الحديدية، شديدة المراس، العاقر، هي المرأة الوحيدة التي تتولى عرش فرعون، وتظل فيه لمدة طويلة، كانت تلبس ملابس الرجال وجعلت لها لحية (صناعية): ويعد موتها دفنت في وادي الملوك مع أسلافها من الرجال. كانت تحكم مع أبيها ثم مع زوجها ثم بعده مع ابن زوجها، وخلال فترة حياتها كانت هي الحاكمة الفعلية للبلاد. أرسلت بعثة

جمعت النباتات والحيوانات من بلاد بُنت (الصومال) وأزاحت ابن زوجها عن السلطة الحقيقية طوال عشرين عاماً، التي لم يتسلمها فعلاً إلا عقب وفاتها، وبعد ذلك في السنوات التالية، أخضع النوبة وفلسطين وسوريا تحت حكمه وأنشأ أول امبراطورية في التاريخ. الحدث الثاني العظيم هو حركة الإصلاح الديني التي أتى بها أمينوفيس الرابع. بدأت أفكار هذا الملك غير التقليدية بتقليد لأبيه، بزواجه من امرأة أجنبية من خلال العائلة المالكة، فقد تزوج نفرتيتي (التي يقال أنها تنتمي للعائلة الحاكمة في النوبة). حركة الإصلاح التي قادها أمينوفيس الرابع سببت تدمير المركز الديني والسلطة السياسية لكهنة آمون في طيبة. كان يهدف إلى استبدال عبادة آمون بعبادة قرص الشمس أتون، الذي يشع على الناس أجمعين ولا يختص كهنة آمون وحدهم بالنور والإشعاع.

جدول رقم (٤)

الأسرات الحاكمة في مصر القديمة تبعاً لتقسيم مانيتو

رقم الأسرة	زمن الحكم	متوسط فترة حكم الأسرة ^(١)	أهم الأحداث
٢، ١	٢٢٠٠ - ٢٨٠٠ ق.م.	٢٠٠ سنة	توحيد البلاد
٦، ٥، ٤، ٣	٢٨٠٠ - ٢٣٠٠ ق.م.	١٢٥ سنة	بناء الأهرامات
١٠، ٩، ٨، ٧	٢٣٠٠ - ٢١٠٠ ق.م.	٥٠ سنة	الحروب الداخلية والفوضى.
١٣، ١٢، ١١	٢١٠٠ - ١٧٠٠ ق.م.	١٣٠ سنة	ازدهار البلاد
١٧، ١٦، ١٥، ١٤	١٧٠٠ - ١٥٥٠ ق.م.	٤٠ سنة	غزو الهكسوس
٢١، ٢٠، ١٩، ١٨	١٥٥٠ - ٧١٢ ق.م.	١٢٠ سنة	الامبراطورية المصرية
٢٤، ٢٣، ٢٢			
٢٦، ٢٥ ^(٢)	٧١٢ - ٥٢٥ ق.م.	٩٥ سنة	تدهور البلاد
٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧	٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م.	٥٠ سنة	
٣١	٣٣٢ - ٣٠ ق.م.	٣٠٠ سنة	

ملحوظات: ١- يلاحظ أن مانيتو قصر في مند الممالك القديمة والوسطى والحديثة وأطال أي مدة حكم أسرة البطالمة.

٢- في الزمن المتأخر غزا الآشوريون مصر مرتين، غزاها أسارهاون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م.)، وغزاها آشور

بانيبال (٦٦٨ - ٦٣٠ ق.م.) ونهب مدينة طيبة.

٣- كان الحكم للفرس والإدارة للآراميين.

بنى عاصمة جديدة له وسماها «أخت أتون»، وغير اسمه إلى إخناتون وكذا غير أسماء أبنائه لتعظيم إلهه، إله الشمس. يعتبر هذا الحدث أعظم أحداث التاريخ المصرى القديم، وكان بداية لخلاف طويل فى كافة عصور التاريخ: الفصل أو الوصل بين السلطة الدينية والنظام السياسى والاجتماعى للامة. فى هذه الجولة انهزم الملك وسقط الرأى الذى كان ينادى به، الرأى التقدمى فى المعترك السياسى. وخلفه ابنه الطفل الذى غير اسمه ثانية من توت عنخ أتون «إلى توت عنخ آمون» تبعاً لتحكم كهنة آمون ثانية على البلاد وسيطرتهم على مقاليدها، وتمت إزالة أعمال إخناتون وإنجازاته وتم حذف اسمه - كلما أمكن ذلك - من سجلات التاريخ. ربما كان من أسباب فشل دعوة إخناتون هو أن من كان يعيش من ذريته من البنات فقط، أما الأبناء فكانوا يموتون الواحد تلو الآخر وهم مازالوا صغاراً، فتشجع القائد العسكرى «حورمحب» وقفز إلى الحكم وأنهى حكم الأسرة الثامنة عشرة وأعاد السلطة إلى كهنة آمون. كانت وسوسة إخناتون - السياسية والجنسية - هى السبب فى القضاء على الأسرة الثامنة عشر. يبين لنا تاريخ هذه الأسرة صفات معينة علينا أن نلاحظها فى تاريخ جميع الأسرات الملكية والأسرات الحاكمة على مدى التاريخ. تواجه جميع الأسرات الحاكمة ضغوطاً سياسية كما ترفل فى مزايا الحكم مما يجعلها تزدري بأصول التربية المتفق عليها وبهذا تنتج هذه الأسرات أحياناً أفراداً أفذاذاً عظماء - بكل ما تعنى هذه الكلمة - وتنتج أحياناً مصائب فى ذريتها، وتوضع نتائج هذا الإنجاب الأنوار التى يعليها الأفراد فى تاريخ الأمم والشعوب. ظلت العظمة والتقدم التى جاءت بها الأسرة الثامنة عشر هى الشعاع الذى يمتد على كل المنطقة من مضيق البوسفور إلى وادى نهر الأنديس لمدة ٦٠٠ عام حتى تمكنت الأجناس القادمة من الشمال والمزودة بالحديد الصلب، والتى اتقنت ترويض الخيول وركوبها من السيطرة على العالم القديم. يوضح تاريخ إخناتون صفة واضحة امتدت عبر التاريخ وامتدت عبر البحار. بعد سقوط إخناتون وانتهاء ملكه، هاجر من بقى من أتباعه من مصر إلى اليونان، حاملين معهم تقاليدهم وأساطيرهم، وبنوا المدن (ومنها مدينة طيبة الإغريقية التى تحمل نفس اسم طيبة المصرية)، وهكذا يتضح التأثير المصرى القديم على الحضارات التالية، ومنها حضارة الإغريق التى تعتبر أساس جميع الحضارات الغربية.

قمة التقدم التقنى فى الحضارة المصرية القديمة يتضح فى بناء الأهرام، وقمة السيطرة السياسية على المنطقة وبناء الإمبراطورية حدث فى الأسرة الثامنة عشر، وقمة التقدم الفنى يمتد على طول عشرين أسرة حاكمة، ولكن قمة التفكير والعقلانية والذكاء حدث فى الأسرة الأولى، فثارت التساؤلات عن أصل الكون (كما لاتزال تثار من علمائنا المعاصرين). جاء المجتمع المصرى نتيجة اختلاط الأجناس المختلفة، فى البداية كانت هناك سيولة شديدة فى الحركة وكانت الفرص متاحة

للجميع وكانت الإثارة والتطلع مباحة لكافة الأفراد. وفى النهاية - نهاية التاريخ المصرى القديم - حل الجمود الشديد فى تركيب المجتمع وفى سلوكه ومعتقداته. انقسم المجتمع إلى عدة طبقات، تعلق إحداها الأخرى (خمس طبقات تبعا لأفلاطون، وست طبقات تبعا لديوبورس، وسبع طبقات تبعا لهيرودوت «استخدم هيرودوت لفظ أنواع وهى لفظة أكثر دلالة عن انفصال تلك الطبقات تماما عن بعضها البعض»). هذه الطبقات كانت طبقة الكهنة، المحاريين، المحاريين المرتزقة (الذين كان يمنح كل واحد منهم ١٢ فدانا ولايسمح لهم بامتهان المهن)، رعاة الماشية والخنازير، الحرفيون والفنانون، ملاحو القوارب. بالإضافة إلى تلك الطبقات كان هناك رقيق المعابد (الذين تكاثروا حتى وصلوا إلى ١٠٧ ألفا فى عهد الأسرة العشرين. بالإضافة إلى هذه الطبقات كانت هناك طبقة الفلاحين، الذين كانوا ملك صاحب الأرض والذين ينتقلون مع أراضيهم من مالك إلى الذى يليه. كذلك كان هناك الخصيان الأحباش (الذين لايتكاثرون) والذين كان يجلبهم تجار الرقيق من بلاد النوبة سنويا. وأخيرا كانت هناك مستعمرات أجنبية من التجار الإغريق والمرتزقة اليهود وعمال مناجم النحاس من الأناضول.

تحول المجتمع من السيولة والإنسانية إلى الجمود والتصلب، نمط مالوف فى جميع الحضارات على مر التاريخ. كانت البداية حرية الشخص فى اختيار العمل الذى يناسبه، ثم تغيرت - بالزواج المنقضى - إلى تكوين طبقات بعينها تورث فيها الأعمال والمهن (فى غياب الاضطرابات وفقدان التجديد التقنى والانقلابات السياسية). هذا النظام يؤدي إلى الاستقرار السياسى والإدارى الذى يحافظ بدوره على النظام. كانت مصر تشجع على الاستقرار. كانت الجماهير تكره الأجانب وتحول دون دخولهم واستقرارهم فى البلاد. سنت القوانين فى أيام حكم المملكة الوسطى لتمنع هجرة الزوج من النوبة (والم يكن يسمح بدخولهم إلى مصر إلا كعبيد)، وربما كان الحماس الذى أبداه أحد الفراعين التاليين دافعا لاستئثار جموع الشعوب لطرد الغزاة الهكسوس وكانت الكراهية الشعبية للأجانب دافعا لاحترامهم من المصريين (كان المصريون يتناولون غذائهم بعيدين عن اليهود).

اختلفت حياة العائلات المالكة والنبلاء عن حياة جماهير الشعب. فى عهد المملكة الحديثة. كثر زواج هؤلاء من زوجات أجنبيات من أميرات البيوت المالكة المجاورة، وهكذا تكونت طبقة من الأمراء والأميرات الدوليين يتم الزواج المتبادل من بينهم. علاوة على ذلك، عندما تزوج أمينوفيس الثالث من أميرة ميتانية، واتخذها زوجة رابعة، أحضرت معها ٣١٧ فتاة لم يسبق لهن الزواج (وتم زواجهن تباعا فى مصر)، وهكذا تمكن نظام الحكم المستقر فى مصر من تزويد نسله بدم أجنبى قوى من أجناس أخرى. كلما تقدمت الأمم تتبين حاجتها ليتعاون أهلها مع أفراد من بلاد أخرى مزودين بالكفاءات والمهارات التى تنقصها، وإذا ازدهر حالهم سرعان ما يجتذبون آخرين. هكذا كان الحال

فى مصر، إذ حالما ما استقدمت جنودا من ليبيا وسردينيا وفلسطين، واجتذبت بناء السفن والملاحين من فينيقيا، واستقطبت عمال المناجم من الكنعانيين ومن بلدان الشمال التى تم الكشف فيها عن المعادن فى أول الأمر. وأخيرا قصد إليها التجار الإغريق، وفى أثرهم جاء هيرنوت وأفلاطون. فى هذا الشأن لم تختلف مصر عما حدث فى بلاد ما بين النهرين أو بلاد القرس أو الأناضول. البلاد الأخرى امتصت الأجانب وتمثلتهم أما مصر فقد ظلت مبعدة عن إدماج الأجانب فيها نظرا لارتفاع شأن حصارها وتفرد أهلها وانعزالهم واستمرت لعهود طويلة رافضة لإدماج كافة الجنسيات فيها، لم تقبل آلهتهم ولم تساويهم بالهة المصريين حتى سقطت فى النهاية فى برائن تلك الامبراطوريات.

كان الكهنة ومجتمعات المعابد يعيشون حياة معقدة. كان المعبد الأكبر فى المركز يرأسه الكاهن الأعظم، وصار يورث منصبه لأسلافه. تنقسم مجتمعات المعابد إلى عدة طبقات، فيتولى الذكور مهام القراءة والكتابة وأعمال التطهير والتضحية، ويتولى الإناث مهام العزف والموسيقى والغناء ويصرن بغيات الإله، ويتعاون الجميع مع الحكومة القائمة (ولكن المجتمع الكهنوتى كان يتنافس مع الحكومة عل اقتسام السلطة). كان الملك يستخدم الكهنة لحسابه الخاص، وكان الكهنة يستخدمون الحكومة لتنفيذ مآربهم (كما يحدث دائما فى نظم الحكم). كثيرا ما لجأ الحاكم لاستغلال كهنة آمون ضد كهنة رع (أو بالعكس)، وكثيرا ما نقل عاصمته من مكان لآخر كى يهرب من الوقوع فى برائن الكهنة - أوضح مثال لهذا ما فعله إخناتون عندما نقل عاصمة ملكه من طيبة إلى آتون، عندما ازداد ثراء كهنة آمون وصار من المستحيل على الملك أن يتحمل سطوتهم وتدخلهم المستمر فى شئون الحكم (لما كانوا يشيعونه بين الناس من النبوءات المقدسة)، وكان الصراع المستمر بين الملوك والكهنة كثيرا ما ينتهى بقيام الثورات. كان الارتباط بالزواج كثيرا ما يتم بين طبقة الكهنة والعائلة المالكة، وكان زواج كاهن من ابنة الملك تؤدي فى بعض الأحيان إلى اعتلائه العرش (كما حدث مع أى). كان هبوط قوة الملوك وسطوتهم - بعد انتهاء حكم رمسيس الثانى فى أواخر الأسرة التاسعة عشر - مع ازدياد سطوة كهنة آمون - بعد أن صار منصب الكاهن الأعظم يورث للابن من أبيه - وصار زواج الكهنة من أميرات البيت المالك شيئا مألوفًا ومتبعًا (وكانت تسمى الزوجات العشيقات الرئيسيات «ملك الآلهة») ولما استولى الأمراء المحاربون الليبيون على الحكم فى الشمال واتخذوا عاصمة لهم فى تانيس، كالأسرة الحادية والعشرين، انفرد كهنة آمون بحكم الجنوب كوزراء وقواد عسكريين وكانوا الحكام الحقيقيين للبلاد.

كان الحرقيون المصريون طبقة بذاتها فى الحضارة المصرية القديمة. كانوا - كالفلاحين - طبقة منعزلة ومحمية، لا يختلطون ببقية أفراد الشعب ولا بالأجانب. كانوا يؤمنون بعظمة مصر وتفوقها

على سائر البلدان في جنسها وفي ثقافتها وحضارتها، وفي جوها وراثتها، وفي دينها. استمرت تقاليد الحرفيين على مدى أجيال طويلة. كان الحرفى يتمتع بمزايا عديدة: الحرية والأمان، وحرية الحركة والتنقل من مكان لمكان، وكان حرا طليقا لاتقع عليه أية ضغوط من الحكام، حتى جاء الحكم الفارسى، كانت مصر على النوام بلدا آمنا، تحميها صحاريها من الجانبين ويوجد نهر النيل والملاحة الحرة فيه بين أجزائها. وتعاقب على حكمها حكومات سلمية نادرا ما احتاجت لتحصين مدنها ضد الثورات الداخلية أو العدوان الخارجى. منذ الأسرة الأولى كان هناك طابع خاص لكل إناء أو أداة أو ختم من ممفيس إلى أبيدوس. كانت حرية الحركة المتاحة في مصر القديمة هي التي أعطت الطابع الموحد للثقافة، كما أدت إلى تماسك البلاد وقوة حكومتها، لأنها كانت تعنى أن هناك اختلاطا مستمرا في الأنساب للسكان التي تعيش في البلاد وتديرها وتحكمها. هذه الوحدة كانت قوة لمصر على امتداد ألفى عام. اهتز النظام بعنف بغزو الهكسوس الذين دخلوا البلاد بخيلهم وعرباتهم الحربية التي تجرها الخيول وأسلحتهم المصنوعة من البرونز حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م. وبعد طرد الهكسوس من البلاد تركوا الخيل والعربات الحربية والبرونز خلفهم، ولكنهم تركوا أيضا الرجال الذين يربون الخيول ويعتنون بها، والصناع الذين يصنعون العربات والعمال الذى يسكبون البرونز. فى أيام المملكة القديمة كانت الخزائير وافرة فى البلاد وكانت توجد فى الدلتا وفى معايد أوزيريس، ولكن فى المملكة الحديثة، بعد خروج الهكسوس من مصر كان أكل لحم الخنزير محرما (خاصة على الخاصة وعليه القوم)، مما يدل على حدوث اختلاط وتزواج بين الهكسوس الغازين وبين أهل البلاد الأصليين، وهكذا ترك الهكسوس بضعاً من دمهم فى عروق المصريين. استمر الاستقرار فى ربوع وادى النيل، الذى كان يفتقد إلى خام الحديد ولم تنشأ فيه الصناعات الحديدية، حتى وفد إليه غزاة جدد امتلكوا ناصية الصلب والصناعات والأسلحة المصنوعة منه. سقطت مصر تحت هجوم الأشوريين والفرس والإغريق، وظلت مصر خاضعة من يومها للغزاة الأجانب الذين تتابعوا عليها. عاشت مصر تحت حكم حكام أجانب يتكلمون الأرامية والإغريقية واللاتينية والعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية، ولكن ظلت لغتها - بعد احتلال العرب لها - هي اللغة العربية. ذابت هذه الشعوب كلها فى المصريين ونشأ منهم جميعا شعب جديد وإن كان قد اختفظ ببقايا من لغته ودينه وفنه.

كان امتهان مهنة الكتابة حاسما فى بقاء المجتمع المصرى واستمراره. لم يسبق لمجتمع قبل المجتمع المصرى أن اعتمد على الكتابة اعتماد المصريين عليها. تطورت الكتابة المصرية بإبتداع رموز تعبر عن المعلومات وإبتكار مواد تحمل هذه الرموز. مخترعو هذه الإبداعات حصلوا على مراكز ممتازة فى المجتمع المصرى، اتبعوه بامتهانهم مهنة التعليم، وكان أول من علمه هؤلاء المعلمون

الأوائل هم أبناؤهم، الذى كانوا يرثون المركز الرفيع الذى كان لأبائهم. كانت الكتابة الأولى - كما كانت لدى السومريين - صورا ونقوشا على الأوانى الفخارية. ثم أضيفت إليها علامات لتدل على مقاطع الكلمات، وعلاقة الكلمات ببعضها البعض. ثم تطور كل النظام إلي ما نعرفه اليوم بالكتابة الهيروغليفية، والتي تطورت وتحسنت وتيسرت من جيل إلى جيل (حتى صارت الكتابات القديمة غير مفهومة للكتاب المحدثين) وبهذا ضاعت كثيرا من أحداث التاريخ (حيث أن عين المصريين كانت دائمة متوجهة للمستقبل وليس إلى الماضى). كانت أعواد الغاب تستعمل كطعام يُؤكل، وينسج كملايس تُرتدى، ويصنع منها القوارب والسفن. ولكن المصريين كشفوا عن استعمال آخر لها - منذ عهد الأسرة الأولى، فصنعوا الورق من أعواد البردى، واستمر الورق المصنوع من نبات البردى يستخدم للكتابة على مدى ثلاثة آلاف عام، يحتفظ لنا بتاريخ المصريين واليهود والإغريق (حتى تم استنزاف نبات البردى تماما من مصر إلى أن أعيد ثانية بقدر محدود للغاية فى السنوات الأخيرة). كان رخص ثمن نبات البردى، وسهولة استعماله كمادة للكتابة (أسهل كثيرا من النقش على الحجر) هو الذى دفع المصريين لتدوين معظم كتاباتهم عليه، فى جميع شئون الحياة. كان مبتدعو الكتابة هم المصريون ومبتدعون الورق هم المصريون وأول من امتحن مهنة الكتابة فى التاريخ هم المصريون. طور المصريين الكتابة الهيروغليفية إلى الكتابة الهيراطية (المستمدة من الهيروغليفية) بداية من الأسرة الأولى وكتبوا بها على ورق البردى وظلوا يكتبون بها طوال ألف عام. بعد غزو الهكسوس بدأت تظهر كتابات أخرى، خاصة بعد دخول أجناس أخرى إلي مصر خاصة بدخول أهالى بعلبك وجرش إلى مصر (الذين ولدت على أيديهم الحروف الأبجدية). لم تطور المصريون أنفسهم أى أبجدية للغتهم. كل ما فعلوه أن طوروا الكلمات حسب طريقة نطقها وأبتدعوا الكتابة الديموطية فى الأسرة الثانية والعشرين (وورثوها للإغريق). هذه الكتابة كانت تستخدم فى الشئون اليومية والمعاملات التجارية، وسرعان ما اختفت تحت حكم البطالمة وحلت محلها العبرية والإغريقية، حتى فى كتابة الشئون المصرية. حافظ دين مصر وكهنتها على الكتابة حتى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد، وهذا الاستقرار للكتابة المصرية القديمة كان عاملا فى استقرار التفكير المصرى. هذا الاستقرار فى الكتابة يرجع إلى ثبات المواد المستخدمة فى الكتابة من ثبات طبع المصريين. وظيفة الكاتب المصرى صارت وظيفه يورثها الآباء للأبناء، وترجع الكتابات المصرية القديمة الثلاثة: الهيروغليفية والهيراطية والديموطيقية إلى أصناف ثلاثة من الكتب، الذين استخدمهم الكهنة ومدبرو الإدارات والتجار. ويعكس هذا روح المحافظة الى انعكست على المصريين فى طول تاريخهم.

اختلف المصريون من سكان الريف عن المصريين من ساكنى المدن. اعتنق الفلاحون الإسلام سريعا وتكلموا اللغة العربية بعيد دخول العرب مصر فى القرن السابع الميلادى - ولكن ظل بعض

الفلاحين متمسكين بالمسيحية - ومازال جميع المصريين - مسيحيين ومسلمين - يحتفلون بوفاء النيل في سبتمبر من كل عام - وهو عيد أوزيريس من عهد قدماء المصريين. ومازال أهالي الأقصر يحتفلون بأعياد آمون بموكب القوارب ثلاثة مرات في السنة، وإن اتخذ الإحتفال طابعا إسلاميا كإحتفال بمولد الشيخ أبو الحجاج. استمر الفلاح المصري محتفظا بميزاتة التي جعلت منه فلاحا ماهرا منذ عهد قدماء المصريين، ومازال الفلاحون المصريون محتفظين بسحتهم وأشكالهم المميزة منذ عهد الفراعنة. دخل أسلاف الفلاحين المصريين البلاد منذ سبعة آلاف عام كرجال أحرار وسادة، وتسيديوا بعد قليل العالم القديم. ولكن منذ خمسة آلاف عام وهم في قاع المجتمع، عبيد من يملك مصر. أما ساكنو المدن فهم جنس آخر واختلطوا بغيرهم من الأجناس. احتفظ أقباط مصر بلغتهم القبطية - وهي مشتقة من لغة قدماء المصريين - وتزاوجوا مع الإغريق ومع اليهود طوال العشرة قرون التي سبقت دخول الإسلام إلى مصر. وتزاوج من أسلم منهم من العرب بعد احتلال مصر، وهكذا اختلف سكان المدن في أصولهم العرقية عن سكان الريف. تفرق سكان مصر الأوائل: حكامها وكهنتها وفنانوها وصناعها المهرة إلى مراكز جديدة تحت حكم الامبراطورية الفارسية والإغريقية والرومانية. أما اليهود فكانت هجرتهم من مصر أول عهد الشتات لهم حيث تفرقوا في جميع أنحاء الدنيا.

والآن أن لنا أن نتساءل عما شعه المصريون خارج بلادهم. أول ما نلاحظه أن المصريين لم يستعمروا أى بلد لمدة طويلة من الزمن وهكذا تكون الدول التابعة لهم والسائرة في فلهم لم تخضع لاستعمار عسكري أو لهجرة واسعة من أبناء مصر إلى تلك الدول. شكل المصريون أسرات حاكمة في النوبة وفي ليبيا على شاكلتهم وتركوا آثارا باقية فيهما، كما تركوا آثارهم في فلسطين وفي سوريا. تاجر الفينيقيون مع مصر وسخروا أسطولهم لخدمة المصريين طوال ألفى عام، وباعوا الخشب والسفن للمصريين ولكنهم اكتسبوا منهم مبادئ الكتابة الأولية فحسب. لم ينشر المصريون لغتهم في بلاد أخرى. لم تظهر في مصر طبقة عسكرية داهمة تسعى للتوسع وفرض السيطرة على جيرانها، كان المصريون يستقدمون إلى بلادهم الرعاة من الصحارى المجاورة لهم ثم بدؤوا يستقدمون مربي الماشية من النوبة ابتداء من الأسرة الساسة. ثم بدأنا نرى حرسا من الكوشيين ومن أهالي سردينيا في عهد رمسيس الثانى، ثم وفد النوبيون وأهالي آسيا الصغرى واليونان وأهالي من جزر البحر الأيونى، حتى استولى قادة هؤلاء الوافدين على مقاليد الحكم: الليبيون في القرن العاشر ق.م.، والنوبيون في القرن الثامن ق.م. جذبت مصر إليها كل أولئك الخلق واستقروا فيها - كما استقر فيها أهلها - بسبب ثرائها وغلاتها الزراعية الوافرة من القمح ومعادنها من ذهب النوبة. كان امتداد تأثير مصر وانتشاره فيما حولها من ممالك يعود إلى فنانيتها وصناعها المهرة، فقد افتخر

داريوس الفارسي بما فعله الحرفيون المصريون لتزيين عاصمته (ولو أن إنجازاتهم لم يتم تسجيلها في التاريخ لأنهم رحلوا منفردين بدون الكتاب المصريين الذين كانوا يسجلون كل ما فعلوه في مصر). هجرة الحرفيين كانت منفردة، كانت هجرة أفراد أو عائلات ولم تكن هجرة جماعية. هاجر أبناء الطبقة الراقية وقواد الجيش المنفيين إلى جزر بحر إيجه بعد انتصار الأجانب عليهم، وهاجر كهنة مصر وفنانوها إلى جزيرة كريت ثم إلى أراضى اليونان نفسها وإلى ايطاليا، وهاجر عمال المعادن، أولا النحاس ثم البرونز وأخيرا الحديد (الذي جلبه الآشوريون) جنوبا على امتداد نهر النيل وفي طريق القوافل القديم إلى مروي ببلاد النوبة، ومن ثم انتشرت الصناعات المعدنية في كافة أنحاء أفريقيا. انتشرت المقابر الضخمة والمعابد العظيمة في أوروبا وشمال أفريقيا (حيثما انتشر اسطول الفينيقيين الذي حمل معه أحفاد بناء الأهرام) إلى ميسيني وإلى مالطة وإلى شواطئ أوروبا الغربية وإلى الهند، وهكذا عم إشعاع نور مصر وضيائها على العوالم الخارجية حالكة الظلام.

الباب الثاني

انتشار البشر على سطح الأرض

بعد انتشار الزراعة إلى أراض جديدة قابلة للزراعة، تبعهم عمال المناجم والعمالون في الصناعات المعدنية والتجار ورجال الدين والملاحون والمحاربون، إلى عمق بلاد العالم، ونشأت عنهم أجناس جديدة بالتزاوج، انتشرت اللغات الآرية واللغات السامية إلى تلك البلدان الجديدة التي استوطن فيها البشر، وكان من أبرز من حقق الإنجازات طائفتي اليهود والإغريق، الذين كتبوا التاريخ وغيروا مساره.

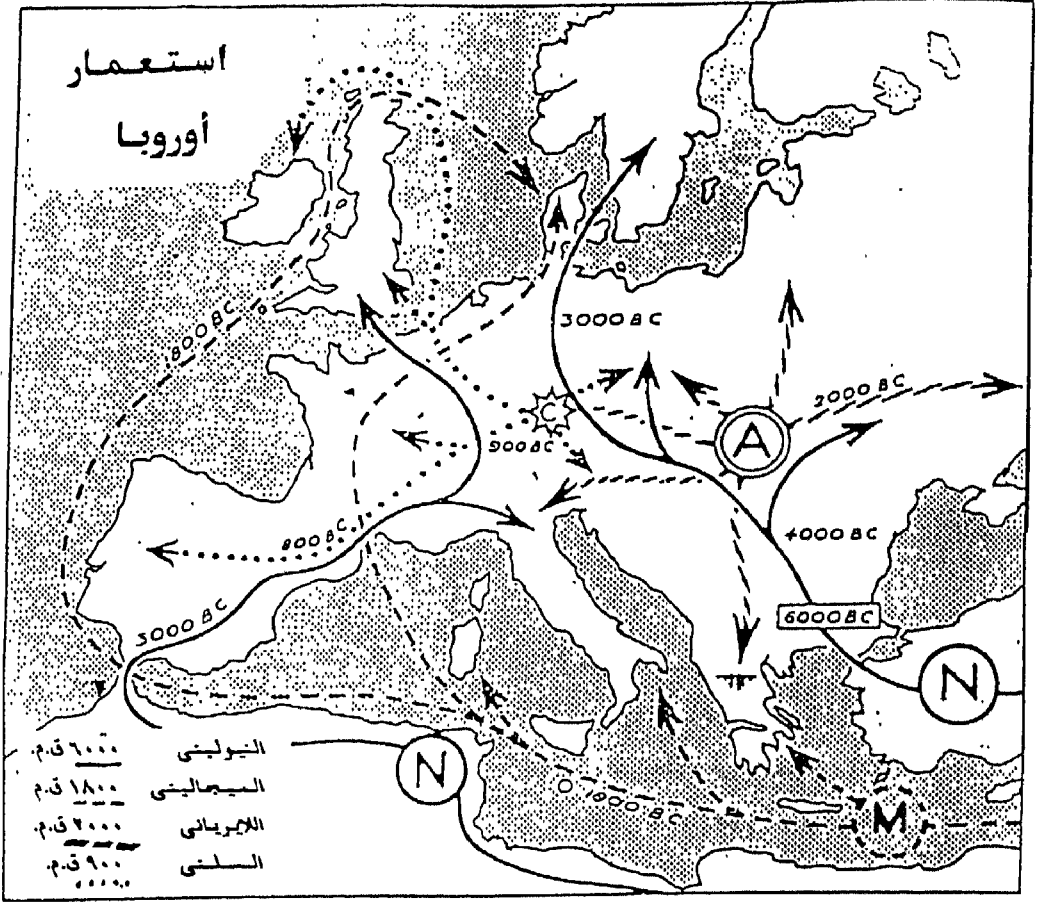
بداية أوروبا

في الوقت الذي ازدهرت فيه الحضارات القديمة العظيمة، في بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل، وغطت بعظمتها على التقدم الحثيث الذي كان يحدث فيما حولهما من البلدان، بدأت الحضارة بداية متواضعة في أوروبا. بدأت بالزراعة في وديان الأنهار حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م. وأثرت ببطء على حياة الناس الذين كانوا يعيشون في آسيا وأفريقيا وأوروبا بالقرب من تلك الحضارات المزدهرة. زاد الطلب على الأحجار الصلدة، كحجر الصوان والزجاج البركاني الأسود، وعلى الأحجار الكريمة، وأدى هذا إلى تزايد النشاط في المناطق الجبلية التي كانت تتواجد فيها هذه المواد. بدأت صناعة الفؤوس ووجدت لها سوقاً عالمية، ولكن حدث الازدهار السريع حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م. عندما دخل هذه البلاد مهاجرون جدد، حملوا معهم منجزات حضارية كالمصاييح والسلالم (من الخشب أو الحبال أو الحجارة أو المعدن) والمعاول من قرون الوعل التي مكنتهم من حفر مهادى المناجم إلى عمق ثلاثين قدماً. حدث التقدم أساساً من نشاط من حفروا المناجم وفهموا أنواع الصخور وكيف يستفيدون منها: النحاس الفطري، ورواسب الذهب، والحديد النيزكي. كشفوا عن هذه المعادن وتعلموا كيف يُصنَعونها، يصهرونها ويدقونها ويسكبونها ويستخدمونها كحلى. بدأت طرق التجارة تجد سبيلها لنقل هذه المنتجات إلى أماكن طلبها البعيدة ولحمل المصنوعات من تلك الأمكنة بدلا

منها. فى نفس الوقت أدت الحاجة المتزايدة إلى خبز الطحين فى المستعمرات الزراعية المتقدمة إلى استبدال المواقد المفتوحة بأفران الفحم ثم إلى حرق الفخار فى التنور. تم الكشف أن رفع درجات الحرارة يؤدي إلى ازدياد صلابة الفخار، وأن النحاس يمكن استخراجه من الملاكيت، وأن الرصاص والفضة من الغالينة، والقصدير من حجر القصدير. وتبين أن اشتعال الفحم يمكنهم من تحويل الخامات إلى معادن، ثم كشفوا أن طرق النحاس يزيد من صلابته، وأن بإمكانهم عمل السبائك منه (مع القصدير، المعتقد أن كشف البرونز حدث فى أوروبا أولا فى بوهيميا حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.، وفى آسيا الغربية وفى مصر قبل ذلك بحوالى خمسمائة عام). تم الكشف عن تنقية المعادن بالصهر ثم عن سقى الفولاذ حوالى ١٥٠٠ سنة ق.م. بواسطة قبائل من صناع الحديد فى جبال طوروس بالأناضول. وهكذا جاء الكشف عن البرونز وعن الحديد الصلب كتتويج لسلسلة متعاقبة من الاكتشاف العلمية، كلا منها كان جديدا فى زمانه ومبتكرا فى بدايته وأدى إلى تطور فى الفكر ومهارة فى الأداء لعمال المناجم وصناع المعادن وتمخض عن بحث وتعليم وتطبيق لآلاف سنة. كان برنامجا طويلا ومتكاملا ومرتبطا بعضه ببعضه الأخر. فى جميع المجتمعات البدائية التى بدأت فيها صناعة المعادن ابتدأت فى قبائل منفصلة أو فى مجتمعات بعينها أو فى طبقات بذاتها كانوا يتواجون بجوار الحرفيين ولكن لم يكونوا يتزاجون منهم. وعندما بدأوا رحلتهم حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م. فى وسط أوروبا كانوا يعيشون متفصلين عن الهمج فى تلك البلاد (وكانت مدافنهم منفصلة). وعلى العموم كان صناع المعادن يتكونون من مجموعات متنقلة تباع مصنوعاتا أثناء تجوالها (ومازالت بقاياهم فى أوروبا متمثلة فى السمكرية والفجر المتجولين). يتميز الحدادون القدماء بصفتين، أولاهما الذكاء والمهارة اليدوية والثانية هو السحر المتوارث وهذا يعكس التفرقة بين أولئك الذين فهموا «سر الصناعة وأولئك الذين خدعوا بها، وأولئك الداخلين فيها والخارجين عنها، بين أهل البلاد الأصليين وبين الأعراب والعبيد» ويلاحظ أن هذا التفرقة مازالت تمارس على مر العهود (بين الماسونيين وغيرهم، بين رجال الدين وعامة الناس). بقيت هذه المكتشفات التى طورت استخراج المعادن وتصنيعها سرا مغلقا على أسر بعينها، لقيمتها العظيمة، ولأن العائلات احتفظت بأسرارها واقتصرت تعليم هذه الأسرار على أبنائها. لم ينتشر صناع المعادن بل بقوا فى أماكنهم: ظل صناع الحديد فى الأناضول، وكانوا يصهرونه فى شهور الشتاء وكان ملك الحيثيين يحافظ على أسرارهم فى نظير تزويدهم له بالحديد. ولكن بعد سقوط نوبة الحيثيين حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. تفرق صناع الحديد من موطنهم الأصلي إلى بلاد الدنيا كافة. زودوا الآشوريين بالفولاذ، الذى حقق انتصاراتهم لعدة قصيرة من الزمن، ثم تسرب صناع الحديد من الأناضول إلى وسط أوروبا، وهناك، فى كارينثيا، حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. كشفوا عن خامات أخرى بالإمكان صناعة الفولاذ منها مباشرة، وهكذا قامت

انسس بناء الدولة الأتروية (بلاد قديمة فى غرب ايطاليا) والامبراطورية الرومانية. كما قامت فئة منهم بالهجرة شرقا وأقاموا صناعات الحديد فى الصين، كما قام الأشوريين بنقل هذه الصناعة جنوبا إلى مصر حتى وصلت إلى النوبة. فى القرن الخامس ق.م. كانت النوبة تابعة لمصر، تستغلها مصر لتزويدها بالذهب، ثم استقطبت عددا كافيا من المحاريين الأشداء، كبلاد تصنع الحديد، وكونت نولة مستقلة، عاصمتها مروى، لمدة ٨٠٠ سنة. وأخيرا بعد سقوط مروى، تفرق صناعات الحديد جنوبا وجليبوا عصر الحديد إلى أفريقيا (التي لم تشهد عصر البرونز إطلاقا).

أطلق كريستيان تومسن سنة ١٨٣٦ تعبيرات العصر الحجري، عصر البرونز وعصر الحديد على مختلف العصور - تعبيرا عن أهمية صناعة الآلات - فى التطور الحضارى، ولكن كل عصر يحمل صفات أخرى بخلاف صناعة الآلات والمختلفة. أول ما حدث فى تطور الشعوب هو إحلال النحاس محل الحجر، ثم استبدال النحاس بمعادن أكثر صلابة، والتي انتشرت من أمكنة اختراعها ببطء إلى باقى أنحاء العالم، ومعها التحسينات المتتالية التي تطورت إليها الصناعة. كثير من الصناعات الجديدة لم تصل إلى أطراف العالم الذى يسكنه الجنس البشرى. أعاققت البحار والجبال والصحارى والأوبئة انتشار الانسان على سطح الأرض ولم تستوعب المجتمعات المختلفة كافة التقدمات التي أدخلت فى الصناعات المختلفة ولم تدخلها الحرف المتباينة. أدخلت المجتمعات الحديد والبرونز فى صناعة السيوف وفى صناعة المحاريث وتخلت عن النحاس (الأقل صلابة) لأعمال النساء (استمر النحاس يستعمل فى أواني وأنوات الطهو حتى عهد قريب جدا، ومازال النحاس يستخدم فى الأسواق الشعبية والبازارات القديمة من مشهد إلى مراكش). كل اختراع جديد له تأثير مفاجئ بالغ الأثر. عندما دخلت المعادن الجديدة فى صناعة الأسلحة صارت لها تجارة واشتد الطلب عليها فى كل أسواق العالم. عندما اشتد الطلب على الخشب للوقود بدأ الإنسان يقطع أشجار الغابات ومن ثم زاد الطلب على صناعة الفؤوس والمحاريث (لزراعة الأراضى التي خلت بقطع الأشجار). مع استخدام المعادن فى الحياة تغير شكل الإنسان وتطور إلى إنسان جديد. تغير الإنسان إلى قبائل جديدة ثم ارتفع إلى طبقات جديدة ثم تكونت أجناس جديدة من هذا الإنسان المتطور. هؤلاء البشر الجدد، الذين كشفوا عن معادن جديدة وآلات جديدة وأسلحة جديدة خلقوا مناخا يسمح بظهور إنسان جديد، ومهدوا الفرص ليقوم هذا الإنسان الجديد باستخدام الأسلحة الجديدة والآلات الجديدة للسيطرة على مجتمعات أشد ثراء من مجتمعه وأشد ذكاء منه. صاروا جميعا محاريين أشداء وصلوا إلى السلطة فى عصر البرونز ثم فى عصر الحديد، واعتبروا أنفسهم أبطالاً، وأعتقد آخرون أنهم آلهة. اخترقوا أولا الشرق القديم واختلط هؤلاء الهمج بشعوب غاية فى



التوسع المتتابع لى أوروبا بين الأعوام ٦٠٠٠ ق.م. الى ٨٠٠ ق.م.

- N** النيوليثي من ٦٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م.
- M** الميجاليتي حولى ١٨٠٠ ق.م. عن طريق البحر أساما
- A** الارياتى الأولى من عام ٢٠٠٠ ق.م.
- C** الارياتى الثانوى (السلتي - عصر الحديد)
عن طريق البحر جزئيا من ٩٠٠ ق.م.

التقدم وقضوا معهم ألفى سنة واتحدوا مع تلك الأجناس القديمة واستوعبوا حضاراتهم حتى صار لهم شأن في تطور الحضارة.

بدأت المستعمرات الزراعية تنشأ في أوروبا، على شواطئ بحر إيجه حوالى سنة ٧٠٠٠ ق.م.، وظلت حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل اختراق المزارعين إلى أعماق أوروبا في البلدان الشديدة البرودة، الغزيرة الأمطار في الشمال. قد يكون الانتظار الطويل لتلطف الجو قليلا، وكان عاملا أكيدا في تحسن الخبرات التقنية التي بدعها الإنسان خاصة في أعمال الخشب والخزف وفي ابتداء محاصيل جديدة واستئناس الحيوانات التي تتحمل صقيع وسط أوروبا في أيام الشتاء، وكان استخدام الثيران في حراثة الأرض أحد المنجزات الهامة في ذلك العهد. اختلط القادمون الجدد من فلاحين وصائدين للحيوانات مع جيرانهم، وأنتج هذا الاختلاط نوعية جديدة من البشر. اختطف القادمون الجدد النساء أو تبادلوهن بالمقايضة مع ما كانوا يحملون من تجارة، خاصة أيام المجاعات التي كثيرا ما كانت تحدث في تلك الأزمنة. تغلغل القادمون الجدد ونشروا الحضارة في حوض نهر الدانوب وعلى سواحل البحر الأسود وفي وديان الأنهار التي تصب فيه، ووصل الإنسان المتحضر - الزارع للأرض - حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م. - إلى بحر الشمال وبحر البلطيق. في نفس الوقت وصل المزارعون عن طريق شمال أفريقيا ثم أسبانيا وفرنسا إلى وسط أوروبا، وعبروا بحر المانش إلى الجزر البريطانية، وحدث مثل هذا التوسع الحضارى في أفريقيا وفي آسيا. في البداية، تفرق المزارعون القادمون كما تقدموا في البلاد، وخفت زراعتهم. عند تقدمهم إلى الشمال فقدوا مهارة زراعة الكتان (وبالتالى نسجه) وتحولوا إلى ارتداء جلود الحيوانات وفراؤها (وهكذا كان التقدم الجغرافى مصحوبا بتأخر حضارى)، ولكن اكتسب الإنسان مهارات جديدة (كالمهارات التي اكتسبها سكان البحيرات الذين أنشأوا القرى في حوالى ٢٠٠ موضعا في وسط أوروبا واحتفظوا بهذه المهارات لأنفسهم من سنة ٣٠٠٠ ق.م. إلى سنة ١٥٠٠ ق.م.). أهم ما بدعه المزارعون المتقدمون هو تحول بعضهم إلى رعيان للماشية والغنم وبذا صاروا أحرارا في التقدم في ربوع البلاد حتى وصلوا سريعا إلى شمال أوروبا، قبل اخوانهم المزارعين الذين استقروا في الأراضي التي فلحوها. تعلم سكان أوروبا من البشر الجدد بعض صناعاتهم، كتربية الماشية وصنع الأواني الفخارية (مثل ما فعله سكان الدانمرك) بدون أن يتعلموا الزراعة.

حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. حدثت موجة أخرى من الهجرة في أوروبا الغربية. ابتدأ البشر ينتشرون في جزر غربي البحر المتوسط، وتركوا آثارهم في جزيرة مالطا وفي صقلية. بنى السكان القلاع في سردينيا على مدى ١٥٠٠ سنة (بين سنة ٢٥٠٠ ق.م. إلى ١٠٠٠ ق.م.) ثم رحلوا غربا ساكنين عدة طرق. وصلوا إلى أيرلندا وسكوتلاندا وجزر الأوركن والدانمرك عن طريق جنوب أسبانيا والبرتغال.

وعن طريق بريتاني وصلوا إلى غرب إنجلترا، وعن طريق فرنسا وصلوا إلى بحر الشمال ثم إلى حنوب السريد. تكيف الأقوام مع طرق المعيشة المحلية ولم يسهموا بأى ثراء للشعوب التي وفدوا إليها. قدموا لهم نظاما جديدا للحكومة وللعلاقات التي تربط الفرد بالمجتمع. من أين جاءت هذه الأقوام «الميجاليثية»؟ لم ينتمى هؤلاء البشر إلى قبيلة واحدة ولا إلى جنس واحد ولا لأمة واحدة. كانوا بعثات تتكون من عديد من الأقوام. جاء أولا الكهنة الذين سعوا لنشر معتقداتهم وتدريبها. لاداء طقوسهم وتمكينهم من السيطرة على باقى الخلق. ثم جاء الحرفيون، البنائون والمهندسون، ثم جاء بناء السفن والملاحون. جاء هؤلاء جميعا من الشرق القديم، ومعهم أفكارهم وتقنياتهم التي أبدعتها بلادهم. أتى الكهنة والبنائون والمهندسون من مصر أو من مكان قريب من مصر (حيث أقام المصريون الهرم الأول سنة ٢٧٥٠ ق.م.) فى وقت قريب من بدء الهجرة. جاء بناء السفن من فينيقيا ومن بحر إيجه. عرفت مصر الملاحين، وربما التقى الجميع: الكهنة والبنائون ورجال البحر فى بعلبك. نقل «الميجاليثيون» دياناتهم إلى أوروبا، ومع انتشار تلك الديانات نلاحظ أنه لم تحدث هجرة جماعية، ولا اختراق لهم لاحدى الطبقات، بل تغلغل تدريجى منظم سبق التخطيط له. ومازلنا - حتى عصرنا الحاضر - نلاحظ إرسال بعثات تبشيرية تمارس هذا النوع من النشاط. يرجع تنظيم هذه البعثات إلى النشاط الفردى للأشخاص. لم يكن هؤلاء المبشرون الأوائل من الكتبة (إذ لم يتركوا مخطوطات أو برديات تدل عليهم)، فالكتبة كانوا من أرقى طبقات الأمة، وكانوا متيسرى الحال ومن المستبعد أن يكونوا قد هاجروا فى مغامرات محفوفة بالمخاطر (إلا إذا كانت بعثات يمولها الفرعون مع وعود بالترقى فى المناصب) كما حدث بعد ذلك بالفى عام حين بعث الفرعون نيخو بملاحيه الفينيقيين وداروا حول أفريقيا وسجلوا رحلتهم هذه بالكتابة). عندما وصل هؤلاء المبشرون إلى القبائل البدائية لشواطئ بلاد الغرب، جلبوا إليها ديانتهم وصاروا المعلمين والسحرة، ولكن عندما تغلغلوا فيما بعد فى حوض نهر السين وجنوا أقواما خاضوا الحروب وحققوا انتصارا عقب انتصار، وتولى أمورهم القواد العسكريون الذين صاروا أصحاب السلطة والنفوذ ووجدوا طبقة راقية ثرية، وصار الكهنة فى وسط هذه الطبقة الغنية وتمتعوا بشتى الامتيازات. هذا التشابك الجديد كان ناجحا غاية النجاح وامتد فى كافة الاتجاهات. كانت أفكار الكهنة ذات أربعة عمد: اجتماعية وتقنية ودينية وسحرية، وانتشرت تلك الأفكار بين أفراد بدائيين. تعلموا زراعة القمح وبناء السفن وسبك البرونز (ولكن اقتصر تعلم هذه التقنية واقتصر اكتساب تلك المهارات على طبقة بعينها من الفنين، الذين توارثوها أبا عن جد)، لعدة أجيال طويلة فى حكم الزمن.

بعد حوالى ألف سنة من تعليم الكهنة لهؤلاء الأقوام البدائية بدأت المباني العظيمة تظهر فى تلك البلدان المستعمرة، فى فرنسا وفى بريطانيا. من أوضح الدلائل على هذا هو بناء معبد الكرنك من

الحجر (الذى بلغ ارتفاعه ٦٠ قدما ووزنه ٢٥٠ طنا وهو إنجاز لم يسبق له مثيل من قبل)، ونقل ٨٠ حجرا من الأحجار الزرقاء - وزن كل حجر منها أربعة أطنان - بطريق البحر من جبال بريسل في ممبروك إلى ولتشاير. قد يكون لهذه المجتمعات صلة بديانة المصريين القدامى، ولكن من المؤكد أن البنائين والتقنيين والمهندسين الذى بنوها، أو أشرفوا على بنائها، كانوا من المصريين (بعض تلك الحجارة التى استخدمت فى بناء المعابد أخذت شكل المسلات المصرية القديمة) وعند استكمال المبنى ثم حفر خنجر ليدلنا على أن البناء جاء من بلاد المايسين. يرجع الفضل إلى اتكينسون فى الكشف عن خبايا ما دار بين عامى ١٩٠٠ - ١٤٠٠ ق.م.، وهى الأعوام الحاسمة فى تكوين الأمم الأوروبية التى تجمع بين مفهومي الاستمرارية والاندماج. وجدت آثار تدل على مهارة فى الفلك وفى الرياضيات مما يدل دلالة قاطعة على أنها جاءت من بلاد الشرق القديمة، وغالبا من مصر، وقد زودتهم تلك المعلومات بسلطة طبيعية وفوقية على المزارعين الذين خدموهم وحكموهم. كانت السلطة نتاج توحد العلم مع الدين، وظلت سائدة لألف عام حتى بددها الإغريق الذين عاشوا فى أيونيا بعد نحو ألف عام. المعابد الضخمة هى ماثرة عصر البرونز التى نقلتها الحضارة السائدة إلى العالم الخارجى الهمجى والجاهل. ولكن هناك معالم أخرى نقلها الملاحون المغامرون إلى تلك البلاد. النقش على الحجارة من السويد إلى جزر الكناريا، وتبين تلك التصاویر السفن. السفن ومجاديفها التى استخدموها فى رحلاتهم العظيمة وكانت وسيلتهم للكشف والفتح (والتي سلكتها ذرايرهم من الفايكنج). توضح هذه النقوش أصل بناء السفن من أهل الشمال وكثير من مخترعاتهم ومغامراتهم. استقر هؤلاء الفاتحون فى بلاد الشمال، وبعد استقرارهم توالدوا وتكاثر جنسهم (ويمكن الاستدلال عليهم من نسب فصائل الدم لديهم). استقر أهالى البحر المتوسط على ساحل المحيط الأطلنطى فى أوروبا واختلفت حياتهم فى هذه الأماكن عنها فى بلادهم الأصلية المتوسطية. اختلفت طريقة بنائهم للمباني. وتغيرت عاداتهم فى الترحال، وتغيرت تركيبتهم الاجتماعية. ولكن استمر امتهانهم للتجارة والاتصالات. استمر الفينيقيون الذين كانوا يزورون الجزر البريطانية بعد ألفى سنة من إقامة مستعمراتهم فيها، يزاولون التجارة بعد تدهور الحضارة التى نقلوها إليهم. تدهورت الحضارة لارتفاع شأن الحديد وتدهور القصدير، وتدهورت الحضارة لقوة الامبراطوريات الجديدة الناشئة وتماسكها. لم تظل سلامة عصر البرونز أمدا طويلا. بدأ البحث عن المعادن التى تستخدم فى سبك البرونز، وعن السفن التى تحملها من أماكن تواجدها والتى تنقل المنقبون عنها إلى تلك الأماكن. كانت الأراضى شاسعة، والخلاء عظيما يدعو الى استعمار تلك الأراضى الخالية من السكان. كان الحماس الدينى غالبا، مما دفع المستعمرون للتقدم لتحقيق رسالتهم ونشر دعوتهم بين الأنام الذين استقروا فيها مما أنتج أفرادا عظاما من ذرايرهم.

حوالى ألفين سنة قبل الميلاد حدثت هجرات متعددة فى كثير من بلدان أوروبا ونشأ اهتمام جديد بالكشف عن خامات النحاس والقصدير. استخدمت الأنهار (مثل نهر الإلب) وممرات الجبال (مثل ممر برينز) كطرق للتجارة، تحمل العنبر والذهب وتصل بين المستعمرات الزراعية المختلفة. ثم ظهرت طائفة من صناع البرونز والمعادن فى جنوبى أسبانيا حيث يوجد النحاس والقصدير بوفرة ثم تفرقوا من جنوب اسبانيا بمصنوعاتهم من البرونز إلى غرب أوروبا، وتحركوا ضد تيار قدوم الحرفيين، شرقا، حتى وصلوا إلى جزيرة صقلية. صنعوا الأكواب من المعدن (وخمروا البيرة فى تلك الأكواب). كانت الأكواب المعدنية صناعة غالية الثمن وتباع للأثرياء، ولكنهم صنعوا أيضا رؤوس لأسهم وغيرها من المصنوعات المعدنية، وهكذا ربط صانعو الأكواب المعدنية أجزاء أوروبا ببعضها البعض ونقلوا الحضارة إلى أطرافها النائية، وظلوا مبتعدين عن الزواج مع بقية السكان. كما ربط صانعو الأكواب المعدنية بلدان أوروبا عن طريق التجارة، ارتبطت هذه البلدان ببعضها أيضا عن طريق الحرب. كانت أسلحتهم من الفؤوس ذات الرؤوس المصنوعة من الحجر المصقول الذى صنع على شكل قرن الوعل تقليدا لفؤوس الصيادين الباليوليثيين، ولكن فى تفاصيلها كانت مشابهة للفؤوس النحاسية التى يصنعها حرفيو الأناضول المعاصرين. كانت تلك الأقوام من الرعاة (كما كان الحال دائما مع المحاريين المنتصرين) عندما وصلوا إلى جنوب روسيا حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. كانوا يعتمدون على العاشية، ثم استخدموا الخيول تقليدا لجيرانهم فى الشرق وعن طريقهم انتقل استخدام الحصان فى جر العربات إلى وسط أوروبا، وبهذه الوسيلة أيضا تفرقوا فى الأناضول وفى بلاد الفرس وعرفوا فى التاريخ باسم الحيثيين والميتانيين: كانت لغتهم تنتمى إلى ما يعرف باللغات الأرية. (الهكسوس الذين أعقبوا يوسف يظن أنهم من الساميين، ولكن استخدامهم للعربات 'خربية التى تجرها الخيول عام ١٨٠٠ ق.م. عندما دخلوا مصر يؤكد أن قادتهم على الأقل كانوا من الجنس الأرى).

كان الناس يتحدثون فى أوروبا حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م. لغات عديدة (كما هو الحال الآن)، ولكنها كانت أكثر اختلافا فى الايتومولوجية وفى قواعدها اللغوية وفى طريقة نطقها عما هو الحال الآن. ما هى اللغات المختلفة التى كان يتكلمها أهل أوروبا؟ بعض تلك اللغات مازال يتحدث بها أهل اللابلاند، وبعضها الآخر يتحدث بها أهل القوقاز. بعض هذه اللغات - كلفة الباسك - يتقلص انتشارها تدريجيا على مر السنين، فقد وصلت لذروتها فى الألف الثالثة قبل الميلاد، حيث انتشرت من ليجوريا إلى لشبونة، وتقتصر الآن على سكان الجبال فى شمال إسبانيا بالقرب من فرنسا.

كما سبق أن لاحظنا مع انتشار أهالى الصحراء اختلطت اللغات الحامية مع اللغات السامية وحلت محل اللغات السابقة فى أرض الجزيرة وفى وادى النيل ومن ثم انتشرت فى أفريقيا. لم تنتشر

هذه اللغات بسبب القضاء على الأهالي الأصليين. ولكنها حلت محلها بسبب التزاوج الذى حدث بين القادمين الجدد وأهالي البلاد الأصليين وبسبب تغير شكل المجتمع وحلول طبقات جديدة فيه. أحيانا وجدت الأمم المهزومة نفسها فى قاع المجتمع ومعها اللغات السالفة البائدة. وفى أحيان أخرى - كما حدث مع الكهنة السومريين - وجدوا أنفسهم على مقربة من قمة المجتمع، وهكذا تمكنوا من العيش والنفوذ إلى أعمال البلاد الجديدة فى العصور التالية.

لغة الهنود - السانسكريت - تشابه إلى حد بعيد اللاتينية والإغريقية واللغات الحديثة فى أوروبا. تسمى هذه اللغات - فى مجموعها - اللغات الآرية، وترجع إلى أصل واحد، نشأت فى المنطقة الواقعة بين نهري الدانوب والدون (بجنوب غرب روسيا) فى وقت ما قبل نهاية الألف الثالثة ق.م. تمكنت الشعوب المتحدثة باللغة الآرية من غزو أراضى تقطن فيها مجتمعات أكثر تعليما وأعمق حضارة وأشد ثقافة منها. ظهر الحيثيون بالأناضول حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م. بين جبال كاريانيا (برومانيا) وجبال القوقاز (بجنوب روسيا) وبعد قليل دخل الميتانيون والهوريون إلى إيران، وغزت قبائل أخرى من الآريين حوض نهر الأنديس (بشمال الهند). فى منتصف الألف الثانية ق.م. دخل الأغريق إلى ميسنى حوالى سنة ١٧٠٠ ق.م. ووصلوا إلى جزيرة كريت حوالى سنة ١٥٠٠ ق.م.، ووصل اللاتين إلى ايطاليا بعد ذلك بعدة قرون (وهذا هو أثر الإريان المثقفين المتحضرين على أوروبا). نشأ الكلت فى ألمانيا فى القرن الثامن ق.م.، وعُرف التيتونيون والصقالبة بعد ذلك الحين. سببت هذه التحركات للبشر انتشار اللغات الآرية. لم تكن تحركات هذه الأقوام على شكل امتداد مستمر بل كانت على شكل انطلاقات تنقل مراكز النشاط والانتشار، خلق كل منها مراكز جديدة لمزيد من الانطلاق ومزيد من الانتشار. ما سبب هذه الانطلاقات؟ ماذا كان تأثير هذا الانتشار وأثر هذه التحركات على الأقوام وعلى لغاتهم؟ فى البداية كان اختراع بلطة الحرب له بعض الأثر. قبيلة الرعيان ذات المقدرة الحربية العالية، التى تتحدث باللغة الآرية الأم ظلت هى الحاكمة لعدة أجيال، وأنشأت طبقة عليا من أبنائها، وتكاثرت وأمتدت لمساحات واسعة. عند بداية نشأة الآريين صادفوا واستوعبوا الأفراد المنهمرين عليهم من أراضى الجزيرة والذين جلبوا معهم بعض الفنون وأنوات الحضارة. أحضر أهل الجزيرة الماشية معهم وجلبوا البرونز. وبعد عدة أجيال قابلت هذه الأقوام الآرية الأناس القادمين من الشرق ومعهم خيلهم، كما قابلوا أقوام جاءت إليهم من الغرب حاملة لهم الدين والفن والتقنية. فى أى مكان حدث هذا اللقاء بين تلك الأقوام؟ بعد تمام اللقيا وحدث التزاوج بين الأقوام المختلفة نشأ جيل جديد يحمل تقنيات جديدة وأفكارا جديدة، وبدأ هذا الجيل فى التوسع والانتشار فى أنحاء المعمورة. لاندرى أين حدث اللقاء الذى تمخض عنه ولادة الجنس الآرى، ولكن

الذى نعلمه أن الأقاليم الأريون الجدد تحركوا وهزموا وغزوا كل ما صادفهم من بشر وفتحوا كل ما قابلهم من بلدان، من غرب أوروبا حتى الهند خلال الألفية سنة ق.م. كانوا يتكونون من أسر حاكمة صغيرة، سريعة الحركة، كثيرة التنقل من مكان لمكان، يستخدمون الخيل، كان تحركهم شرقا خلال الاستبس أيسر من تحركهم غربا خلال الغابات. حكموا أقواما من المزارعين المستقرين فى أراضيهم الذين استمروا فى تمسكهم بالأرض ولم ينتقلوا معهم. رغم حدوث بعض من التزاوج المختلط، ظلت الأسر الحاكمة تحمل سمات مشتركة واحتفظت بهذه السمات لألف سنة أو ما يزيد. نذكر من بين ما نذكر أبطال هوميروس من الإغريق، والملوك الأبطال من أيرلندا أو الهند، أو شرفاء الرومان. يظهر هؤلاء جميعها كذكور محاربين أقوياء، آلهة، فرضوا بسالتهم الحربية وحكموا بحكومات من شرفاء القوم ونبلائهم.

الحيثيون

هم أقوام جاؤا من قبائل غزت وسط الأناضول الجبلى، وأنشأوا اتحادا ثم امبراطورية على الحدود الشمالية للدولة البابلية، وحكمت لألف سنة. نشأت فى هذه الإمبراطورية أقدم مستوطنات زراعية فى العالم، وتغلغل فيها الحرفيون القادمون من بلاد ما بين النهرين وتجار أرض الجزيرة وسرعان ما نشأ مجتمع جديد يحمل كل خصائص هذه الأقاليم، فى أسفل السلم الاجتماعى، فى الأساس كان هناك المزارعون (كما كانوا فى أرض الجزيرة وفى مصر)، كانوا عبيد الأرض يعملون فى خدمة أسيادهم، وملتصقون بالأرض. وكانت هناك فوقهم طبقة من العبيد المحميين - تبعاً لقانون هامورابى - بالقانون وبالملك. فوق أولئك توجد طبقة من سكان المدن من التجار ومن الحرفيين القادمين دائما من الخارج - خاصة من بلاد ما بين النهرين، لأن التجار البابليين والأشوريين كانوا يتاجرون دائما مع الحيثيين. وهكذا نشأت الطبقات فى المجتمع تبعاً للوظيفة التى يؤديها الفرد وتبعاً لجنسه. بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك الأفراد القادمون من الشرق جالبيين معهم الخيل، يربونها ويعتنون بها ويديرونها للحرب، وعلى القمة كان الملك يحيط به أهل البلاد الأصليين الذين يعملون فى المناجم، الذين يستخرجون المعادن ويصهرونها وينقونها ويصنعونها، والذين كانوا ينتجون الأسلحة من الحديد للقوات الحربية. اجتمع هؤلاء الأقاليم كلهم تحت راية الانتصارات العسكرية التى حققها تلاحم الرجال الأشداء مع الأسلحة. إلى جانب هؤلاء وجد الكهنة، وهى طبقة تراكيبية (يعلو بعضها فوق بعض)، اختلفوا من حيث منطقتهم الجغرافية، واختلفوا بلغاتهم المختلفة وبأجناسهم المتباينة، يقصدون آلاف الآلهة، الذين يكونون اتحادا لا يبد منه لتوحيد الأمة (كما حدث فى بابل). من منات

اللغات التي كان يتحدث بها الناس، بقيت تسع لغات، جميعها لغات وافدة قضت على بقية اللغات (وهي نفسها اندثرت باللغات الوافدة الجديدة). تفرقت القبائل الآرية المختلفة (التي تتحدث بلغات مختلفة) في الأناضول وصاروا حكاما في الأراضى التي غزوها. سرعان ما تسيدت قبيلة الحثيين على ما عداها من قبائل الأريين وفرضت لغتها على الجميع. تمكنت قبيلة أخرى من فرض إلامها على الجميع وصار أفرادها هم الكهنة. سيطرت ثلاثة قبائل أخرى على مناطق مختلفة من البلاد، وتمكنت إحدى هذه القبائل - الطاباليك - من استعارة لغة الأقبام التي سيطرت عليهم واختلطت بهم وتناسلت معهم واتخذت كتابتهم الهيروغليفية مع شعار محرات الثور - ونشرت الكتابة التي سميت بالكتابة البوستروفيدونية. اللغة التي غلبت على قبائل الحثيين كلها هي اللغة الحيثية - لغة الكهنة - المقاربة للغة المحلية في أرض الجزيرة، اللغة الجورانية (وكلاهما يختلف عن عائلة اللغات السامية وعائلة اللغات الآرية). اللغة الأكادية (وهي من اللغات السامية) هي اللغة الشائعة في أرض الجزيرة. اللغة الأكادية هي اللغة الرسمية للدولة وتستعمل في الاتصالات الدبلوماسية مع البلدان المجاورة، وهي لغة التجارة أما اللغة السومرية وكانت لغة المثقفين والكتبة (الذين صاروا يكتبونها بالحروف المسمارية مثل اللغة الأكادية). أدمجت اللغة الآريانية - داخل بوتقة الصهر هذه - جنود اللغات المحلية وغيرت من أصواتها لتناسب ألسنة الأم التي كونتها اسم «تابرانز»، هو لقب جميع ملوكهم الذي اشتقوه من اسم ملكهم الأول «لابرانز»، هذا الملك نفسه كان على رأس الطبقة الحاكمة التي تكونت من اتحاد رؤساء الدول الخمسة. كانت العائلة الكبرى مكونة من أفراد العائلات المالكة لهذه الدول، وكان هؤلاء يشغلون المناصب العليا في المملكة بأسرها ويتزاوجون فيما بينهم، في زمن الأسرة المصرية الثامنة عشر. وهكذا تكونت طبقة من الأسر المالكة في ذلك العصر. وصلت إلينا أحداث هذه الحضارة العظيمة لأن رؤسائها الأوائل، الذين غزوا الأناضول، قابلوا رجالا مهرة في قطع الأحجار ويبنون مبانيهم منها. بنى هؤلاء الرجال القلاع التي مازلنا نشاهدها في عاصمة الحثيين «هاتوساس» أو «بوغازكوي»، كما بنى الإغريق فيما بعد قلعة في ماى سيني ومعبدًا في أثينا. كرر الآريون هذا النمط فيما بعد، كلما وصلوا إلى حدود توسعاتهم (نشاهد هذا المثال فيما حدث بينهم من منازعات فيما بعد مثل قلعة دبلن والقلعة التي أقيمت في الكرملين في موسكو). كلما تمثل الآريون بالشعوب التي أخضعوها لسيطرتهم، اختلفت طباعهم وتغير لغاتهم وأنشأوا هم أنفسهم أمما جديدة سعت نحو السيطرة. كانت القلعة الحربية التي ينشئونها هي المركز المتكرر التي يتمثل فيها الغزاة الشعوب الخاضعة لسيطرتهم، بدءا بالمحاربين والإداريين، ومن حولهم أصحاب الحرف والمهن، ثم التجار والمسافرين، وأخيرا المزارعين في الريف المحيط بالقلعة، الذين ضمنوا لهم

الاحتفاظ بأراضيهم التي عشقوها نظير القيام بالخدمات للحاكمين وتزودهم بالمنتجات مقابل التعهد بحمايتهم. من القلعة انتشرت لغة الأريين فيما حولها (سواء أكانت اللغة الحيثية أو اللغة الإغريقية) إلى الشعب الخاضع لسيطرتهم والمعتمد عليهم، والذي تحول تدريجيا إلى أمة جديدة ذات لغة واحد، وديانة واحدة.

الكلت

تعطينا الامبراطورية الحيثية مثلا لجمع مجتمع تكون من مختلف الأجناس، في أمة واحدة، ذات أثر ناجح ومستمر أدى إلى توسع الشعوب الأرية وامتدادها. من الواضح أن الزمان والمكان والنشاط المتسبب في هذا الجمع كانت له أسبابه كما كانت له آثاره، وكان له طابع خاص لكل من المجموعات التي توسعت وانتشرت في الأرض. قابلت القبائل التي غزت الهند مجموعة من البشر يختلفون عرقيا تماما عن الغزاة، ووجدت القبائل التي رحلت شمالا تجاه بحر البلطيق نفسها في أراضي تكاد أن تكون خالية من البشر، سكانها من العهد الباليوليثي، يرفضون التناسل معهم كما يرفضون التطور، مما أدى إلى نقاء الجنس الأري الذي غزا هذه الأماكن وأدى إلى استقرار لغتهم (وعدم تغييرها بالعوامل الدخيلة). أما الصقالبة (الذين نتجوا فيما بعد) فقد تغيرت لغاتهم إلى حد ما قبل رحيلهم إلى الشمال والشرق. كانت الأراضي التي غزوها أراضي منبسطة، ذات مواصلات متيسرة وطرق إتصال سهلة، فاحتفظوا أيضا بوحدة لغاتهم التي غطت مساحة شاسعة من الأراضي (خلافا لبقية الأمم الأرية).

كانت هجرة الكلت (من الشعوب الأرية) أوسع هذه الهجرات وكان انتصارهم أكبر الانتصارات. رحلوا إلى غرب أوروبا بأسرها وتسيبونها، وهاجروا أيضا إلى الشرق وتركوا أسماءهم على أنهار الدانوب والدي والدون (من روسيا إلى إنجلترا)، وعلى إقليم الغال، غالاثيا، غاليشيا (من بولندا إلى أسبانيا)، وعلى جبال أبينين (في إيطاليا)، وجبال ويلز. وتركوا آثارا من مقابرهم في وسط أوروبا (ألف مقبرة في هالستات، يرجع عهدها إلى ١٠٠٠ سنة ق.م.)، بالقرب من مصادر الحديد والملح (التي تسمت مدن سالزبورج وهالستات بأسمائها)، وبالقرب من طرق المواصلات التي توصل إلى حوض نهر الدانوب. نشأت في هذه المنطقة مجتمعات غنية كانت تستورد الحلى - البرونز - وتلك التي من صنع الفنانيين، وقوية بسطت نفوذها على مناطق شاسعة لأن أسلحتها التي كانت مصنوعة من الحديد سهلت عليها التقدم إلى بلاد الشمال. هؤلاء هم الكلت الذي بدعوا الفن الذي عرف باسم التين، والذي نشره في بلاد كثيرة، والذين نشروا لغتهم أيضا في معظم أنحاء أوروبا. جاء هؤلاء الكلت أصلا من الأناضول إلى أعلى نهر الدانوب كتجار وحرفيين وعمال مناجم ثم إلى وسط أوروبا،

حيث وجدوا خام الحديد. اجتمع العمال الذين استخرجوا الحديد من خاماته وصنعوا منه الأسلحة مع المحاربين. وفي القرن الخامس ق.م، توصلوا إلى صنع حدة الحصان وتبينوا آثارها وأثبتوا قدراتهم الحربية وتوسعوا إلى حين في الأراضي المجاورة. احتلوا روما سنة ٢٨٧ ق.م، وانتصروا على ملك مقدونيا بعد مائة سنة واستقروا في الأناضول في منطقة جالاتيا ولكن الكلت ظلوا مشهورين بالإنجازات التي حققوها في الغرب، بنشاطاتهم الزراعية والعسكرية والدينية والفنية. نشأت هذه النشاطات فيما بعد من التحام الطبقات والقبائل نوات الأصل المختلف الذين خضعوا لقيادة واحدة. كون الكلت مجتمعات عدة انتشرت في غرب أوروبا وكانت لهم لغات واحدة وصفات واحدة ومعتقدات وديانات واحدة. احتل الحدادون المراكز المرموقة في هذه المجتمعات، لأن أعمالهم كانت أساس الانتصارات. تغيرت الأقوام الآرية كلما امتدت وكان تغيرها كبيرا كلما اتسعت حركتها. جاوا بعصر الحديد إلى الغرب، وصلوا إلى أقصى الغرب متأخرين (وقد عاشت لغاتهم حتى الآن في أقصى الغرب).

أدى رحيل الأقوام إلى اختلاط الأفكار والأنساب، وإلى امتزاج الثقافات والجينات، وإلى سرعة تقسيم المجتمعات إلى طبقات تحيط حكامها من الآريين. أدى هذا الترحال أيضا إلى تعدد اللغات واختلافها لتتناسب التطور الذي لحق بالأقوام التي تتحدث بها. يعتبر الآريون هم أول من جلب الحضارة إلى أوروبا من آسيا ومن أفريقيا.

اختلفت اللغات التي تتحدث بها المجتمعات الآرية المختلفة اختلافا يعوق اختلاف تواريخ تلك المجتمعات، وصاحبها رغبة فائقة باندماج كل لغة من مجتمعاتها. كانت المجتمعات الباليوليثية - في أول الأمر - مجتمعات بدائية، لا طبقية، تماثل أفرادها، ومستقرة. لم يكن هناك انقسامات ولا فوارق بين أبنائها، وكانت غير مختلطة بغيرها من المجتمعات، والتوالد فيها مقتصر على بنيتها، بدأت لغاتها مستقرة، يستطيع كل فرد أن يتحدث بها بإتقان. ولكن بتقسيم المجتمع إلى طبقات - كما حدث مع الحيثيين - كانت كل طبقة في مبدأ الأمر تتكلم بلغة مختلفة عن لغات بقية الطبقات، ثم تعلم الجميع تدريجيا الحديث بلغة واحدة. صارت اللغة الجديدة تحت ضغوط متباينة وتحركت نحو توحيد طريقة النطق وتوحيد قواعد اللغة للأمة بأسرها. ولكن استمرت الفروق الطبقية والفروق تبعاً لأجناس الأفراد المختلفين داخل نفس الأمة واضحة في سلوك الأفراد وفي طريقة نطقهم للكلمات وفي أسلوب حديثهم، وهكذا تكونت اللهجات المختلفة لكل جماعة من الناس في نفس المجتمع. حدث اندماج بطيء لطبقات المجتمع داخل الأمة الجديدة، وهكذا نشأت لغة حوت جذورا جديدة، وبدأت في حذف أو تبسيط قواعد اللغة، ولكن الشيء الملحوظ كان اختلاف النطق ليناسب أسنان وأسنة الأفراد من

مختلف الأجناس. فُقدت بعض الأصوات، وقل عدد التحويرات التي أصابت الكلمات فى اللغات الآرية الحديثة (كما يتبين من الدراسة العميقة لخريطة أوروبا، حيث تتطابق حدود الهجرة الأخذة فى الاتساع مع حدود فصائل الدم فى البلدان المختلفة). ثبتت لغات الشعوب المتقدمة من التغيير نتيجة دخول الأجانِب إليها، ولكن التطور المستمر للغات الأريين واختلافها من منطقة لأخرى فى أوروبا يعكس عدم إستقرار هذه المجتمعات لمدة طويلة.

علمنا مما سبق أن الزراعة بدأت فى جنوب غرب آسيا، وبعد خمسة آلاف سنة كانت التحركات والهجرات فى أوروبا. حدثت هذه التحركات نظرا لثراء الغابات بخامات المعادن، ولكونها مختلفة الأراضى الزراعية، خالية من الأمراض الخطيرة التى تصيب الإنسان، وصارت بعد تراجع الثلوج - صالحة - للوصول إليها عن طريق البحر والأنهار، وأصبح استعمارها ممكنا عن طريق مراكز الحضارة القريبة منها. كان أثر الشعوب المتقدمة واضحا على شعوب أوروبا المتخلفة، الذى حدث عن طريق الهجرة والاختلاط والتزواج، وبالتالي خلق أجناس جديدة، التى تولد عنها مجتمعات جديدة ولغات جديدة، وكان بوسع هؤلاء البشر الجدد الإتيان بتقنيات فى العالم الهمجى الذين كانوا يعيشون فيه. ما حدث حتى الآن كان الأثر الأولى للعالم المتحضر على العالم الهمجى، ولكن أعقبه ثانيا إغارات الهمج المتوحشين على الدول المتحضرة التى أتت لهم بالحضارة إلى ربوع أوروبا. استمرت أوروبا لمدة ثلاثة آلاف عام عرضة لغارات من الغزو المتكرر، وقد تسببت هذه الاعتداءات المتتالية إلى استمرار حدوث التقدم والتطور فى أوروبا - الشيء الذى لم يحدث فى بقية القارات؛ وهكذا توقف التطور الحضارى لها على ما هو عليه.

الإغريق

وصل المزارعون الأوائل إلى بلاد اليونان واستقروا فى سهول تسالى فى الألف السابعة ق.م.، ولايعرف إن كانوا قد التفوا حول شواطئ تركيا من الأناضول أو عبروا بحر إيجه بالقوارب. ظهر المستعمرون الأوائل أول ما ظهروا فى شرقى جزيرة كريت ثم توغلوا فى الداخل إلى كنوسوس حيث بدؤوا بناء منازلهم من اللبن مرارا وتكرارا لآلاف السنين (وعملت بقايا هذه المساكن تلا من الطمى يبلغ عمقه ثلاثون قدما تحت أساس أول قصور مينوس الذى يرجع إلى ٢٠٠٠ سنة ق.م.). السكان الذين استعمروا جزيرة كريت للمرة الأولى لهم ارتباطات بالأناضول، وكانوا يشترون المحاصيل منها ويستوردون الحيوانات، كما استوردوا إلهاتهم منها. كما كانت لهم ارتباطات بفلسطين وتعلموا من أهاليها صناعة الفخار، وكان اتصالهم بأرض اليونان قليلا ومتقطعا. بعد تحسن صناعة السفن، وبدء

بنايتها بواسطة الفينيقيين بعد مجيء البرونز، صارت السفن الجيدة تبني بوفرة خاصة في مدينة أوجاريت - على الساحل اللبناي. جلبت هذه السفن أعدادا متزايدة من البشر إلى شواطئ جزيرة كريت، أول من حضر كان بناءو السفن الذين اجتذبهم الغابات في الجزيرة (أشجار السرو والأرز التي غطت الجبال) وكان ثانی الوافدين هم الملاحون الذين اجتذبهم أمن الموانئ الشمالية والجنوبية بالجزيرة. مكن هؤلاء المستعمرون الجدد من تزايد الروابط بين كريت وبين موانئ أوروبا وأسيا وأفريقيا. بعد قليل تحولت كنوسوس إلى زهرة مدائن البحر المتوسط. ارتبطت كريت بمصر خاصة، وتبادلت معها التجارة، وتتضح آثار هذا بالارتباط في الحفريات التي كشفها سير آرثر إيفانز والتي تدل على أن الآثار المينوية القديمة والمتوسطة والحديثة تقابل المملكة القديمة والمتوسطة والحديثة في مصر. تركت جميع الغارات التي ارتبطت بكريت، وجميع البلدان التي اتصلت بها آثارها على الحياة والثقافة والحضارة وعلى السكان بكريت. عمل الكاريانيون (من جزر بحر إيجة) كملاحين على السفن الكريتية، وأرسل أهالي بعلبك النجارون والكتبة إليها، وزودهم أهالي ليبيا بالرجال الأشداء كمحاربين (كما فعلوا مع مصر). نستطيع أن نشاهد التأثير الأفريقي الذي حدث في النساء عاريات الصدور وفي أعماد الأسلحة الليبية كما نستطيع أن نشاهد في الفن، بروحه المرحة، التي لم تشهدها أوروبا ثانية إلا في عصر الباروك. جلبت الحضارات العظيمة المجاورة لكريت حكامها وكهننتها. أولى هذه الحضارات كانت من اللاجثيين المصريين، الذين فروا من مصر بعد الحرب الأهلية إبان عهد إخناتون. إتى هؤلاء اللاجثيون بأسماء آلهة المصريين (الذين استقروا بعد ذلك في اليونان) وطقوس العبادات وأساليبها التي سادت العصور الكلاسيكية في العالم بعد ذلك. الأسر الحاكمة التي أعقبت ذلك لها ارتباطات بالفينيقيين وبأهل الأناضول. في قاع المجتمع قبع الفلاحون والرعاة، أول من استعمر جزيرة كريت (الاتيوكريتائز في الأودية والبيريوكوي كما سماهم أرسطو في السياسة). اختلفت اللغات التي يتحدث بها أهالي كريت لمدة طويلة حسب الطبقة التي ينتمي إليها أفراد كل طبقة (كما حدث في امبراطورية الحيثيين). كان لإنجازات الحضارة المينوية في بداية الألف سنة الثانية ق.م. أثرا في تطور جزيرة كريت وفي تطور باقي دول حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى المحيط الأطلنطي حتى جزر الكناريا في الجنوب وحتى الجزر البريطانية في الشمال. تحول البحر الذي كان عائقا للاتصالات إلى وسيلة للاتصالات، وصار البحر أسهل طريقا لتتقل البشر. لم يعد البحر حاميا من الغزو، بل صار ينقل الغزاة إلى ضحاياهم.

لعبت أشجار الزيتون دورا فعالا في تطور البحر الأبيض المتوسط. شجرة الزيتون البرية هي شجيرة صغيرة ذات أشواك، كانت تنمو على شواطئ سوريا والأناضول في الألف سنة السادسة ق.م. لاحظها في أول الأمر المزارعون النيوليثيون، ثم تبين بعضهم - ممن يجمعون ثمارها - أن هذه

الثمار غنية بالزيت، وأنه يمكن الإكثار منها بغرس العقل من فروعها. بدأت القبيلة التي كشفت عن هذه الظواهر في زرع أعداد كبيرة من أشجار الزيتون الضخمة ذات الثمار الكبيرة. ثم غرس هذه الأشجار بصورة جماعية وبدوا بنشر زراعتها على نطاق واسع، وحصلوا بالتدريج على الأشجار الباسقة، الخالية من الأشواك ثم تنوعت أصناف أشجار الزيتون إلى مئات الأصناف التي يجري زرعها حاليا في البلدان المختلفة في حوض البحر الأبيض المتوسط. حوالي الألف سنة الرابعة ق.م. حمل أهالي بعلبك هذه الشجرة - مصدر الرزق الوفير والتقدم الحضارى الممتد - إلى جزيرة كريت، التي تناسب أراضيها الكلسية وهوأها المالح ازدهار زراعتها، وساعدت تجارة كريت الواسعة على انتشار زراعتها وتحسين سلالتها (وتشهد أوانى قصرى كنوسوس وفايستوس على انتشارها في الألف سنة الثانية ق.م.) تم قطع أشجار غابات البحر المتوسط وتحولت أراضي الوديان الخصبة إلى أراضي زراعية، ولكن أشجار الزيتون غرست على سفوح الجبال (وما زالت حتى عصرنا الحالى مفروسة في تلك الأراضي التي لاتصلح لزراعة المحاصيل الزراعية). كان زارعو تلك الأشجار فرحين لعدم احتياجها إلا لأقل القليل من المياه، وهكذا كان شجر الزيتون يعتبر هدية من الآلهة للبشر. لمدة ألف عام، من ٢٥٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. كانت الحضارة مزدهرة في كريت. كانت جزيرة ثرية، مستقرة (إلا من حدوث بعض الزلازل بها)، تصدر الأخشاب وزيت الزيتون إلى مصر: بقطع أشجار الغابات وإحلال غرس أشجار الزيتون محلها. صارت جزيرة كريت أهلة بالسكان، في الألف سنة الثانية ق.م.، وكانت تعتمد على أرباح التجارة في العبيد الأفارقة، والنحاس من قبرص والذهب من النوبة، وصارت تستورد الطعام عبر البحار الأمنة لكفاية سكانها. انتقلت الحضارة تدريجيا، متتبعة خطوات الفأس ثم المحراث ثم الزيتون نحو الغرب ووصلت أولا إلى بلاد اليونان.

في نهاية أيامها خلت جزيرة كريت من الأخشاب المحلية، وعندما أتى الغزاة إليها، أخضعوها أولا لحكمهم ثم نهبوا ثروتها قبل تحطيمها، ولم تقم لها قائمة بعدها في التاريخ. هرب الأمراء وحل محلهم القرصان. بقى الأهالى الأتيوكريتائز، منتظرين قدوم الغزاة الجدد. وهكذا صار مركز الحضارة في العالم القديم ليس له محل في زمن الحروب التالية. صار مركزا فقيرا لاجل له ولاطول، فر المثقفون - كما سبق أن فروا من سومر وفر الكهنة والفنانون والملاحون إلى أماكن أخرى فيها متسع من العيش لهم وإلى حيث يجنون المئوي. وإلى الآن تجد أحفاد أهالى كريت العظماء في أمكنة كثيرة من العالم يتحدثون باللغة اليونانية أو التركية أو العربية أو غيرها من اللغات.

بعض القبائل الإبريانية تحركت نحو الجنوب في بداية الألف سنة الثانية ق.م. ودخلت للأناضول وكونت ممالك الحيثيين واللاويين وغيرها من الممالك. بعض اللاويين تركوا الأناضول واخترقوا سهول تسالى إلى وسط الأراضي اليونانية وتركوا لنا بعض الأسماء الشهيرة مثل كورينث وبارناسوس

(بارنا فى لغة الحيثيين تعنى بيتًا). استقرت بعض القبائل الأخرى فى مناطق محددة مثل أتيكا وأيونيا وشبه جزيرة المورة وأركاديا وأيوليا، وخلال الألف سنة التالية كون المستعمرون دولا مختلفة وشعوباً مختلفة فى الأماكن التى استقروا بها، وكونوا طبقات مختلفة، واندمجوا بطريقة أو أخرى مع الفلاحين المحليين ومع المهاجرين الجدد الذين أتوا إليهم من الشرق والجنوب. وقد نشأ الخلاف بين أثينا وإسبرطه - فيما بعد - من تأثير هؤلاء الوافدين. وصل الغزاة الجدد إلى اليونان بالبحر من الشرق. وصلت جماعة بقيادة كادموس وأسست مدينة طيبة (المكان الذى ارتبطت به أسطورة أوديب). دخلت جماعة أخرى من الفينيقيين وأحضرت معها أسماء فينيقية - أسماء آلهتها وأبطالها - وقطنت مدينة كورينث التى تم تأسيسها منذ ألف سنة من الزمان. ربما تكون أول الجماعات التى وصلت إلى بلاد اليونان هى التى دخلت إلى خليج نوبليا وأسست أول مدن اليونان، والتى عرفت باسم أرجوس لدى اليونانيين. هنا تم بناء قلعتى مايسينى وتايرينثوس فيما بعد لتشرفا على الوادى وتضمن خضوع اليونان لملوكتها. يدعى مستعمرو أرجوس أنهم مصريون (وقد يكونوا من اللاجئين من الهكسوس بعد طردهم من مصر حوالى سنة ١٥٧٠ ق.م. عندما طردهم أحمس وحرر دلتا النيل وأسس الأسرة الثامنة عشر المصرية). قد يفسر هذا سرعة نمو الحضارة الحقيقية فى منطقة أرجوس فى حوالى ١٦٠٠ ق.م. دخلت نظم الإدارة، وبدأت الكتابة، وانتعش التجار والبناعون فى أرض اليونان الرئيسية فى المنطقة التى ترسو فيها السفن الآتية من الموانئ المصرية. كانت هذه المنطقة قد سبق سكانها بالمزارعين والمحاربين القادمين من الشمال (بتأمل الأسوار العالية لقلعة أجاممنون ويتأمل مبانى القبر يتضح كيف كان البناعون متقنين لصنعتهم). بعد نحو قرن أو قرنين من الزمان هدد الغزاة الآتون من هذه الممالك الميسينية حكام كريت وجزر بحر إيجه المينيويين الذين أدخلوا لغة الإغريق الأرية للجزيرة، تلك اللغة التى كانت تتحدث بها الطبقة المالكة فى قصور كنوسوس فى كريت، وفى بيلوس فى شبه جزيرة المورة وفى طيبة وفى بيوتيا والتى كتبت بحروف جديدة. هذا التوحد الذى انتشر فيما بعد وأكدته هوميروس. نمو الحضارة الميسينية الذى حدث فى أراضى اليونان وفى جزيرة كريت يعاصر الحضارة التى ظهرت فى لبنان (ووجدت آثارها فى أوجاريت، تلك الميناء الخالدة على شاطئ الشام)، وهكذا نلاحظ للمرة بعد المرة أن الحضارات تنشأ من تزاوج مهارات مختلف الشعوب. نشأت الحضارة الإغريقية هذه المرة من تفاعل إنجازات التجار المينيويين، مع الكتبة الميسينيين، والبنائين والحرفيين والفنانين المصريين، والملاحين من جزر بحر إيجه، وبناء السفن والكهنة الفينيقيين. أسهمت كل جماعة فى أصول تلك الحضارة الناشئة (وان احتفظت لوقت ما بنقائهما الجينى وبتقاليدها). تعلمت مختلف الجماعات من بعضها البعض (وان احتفظت لوقت ما

بلسانها السامى والذي كان يعتمد عليه المجتمع فى اكتساب الثقافة والمعرفة). حكمت طبقة مسينية - أراضي اليونان نفسها، وكانت ذات أصل متفرع من الجذور العرقية، وإن كان أقل تفرعا من المينويين الذين أزاحوهم وحلوا محلهم. تغفل الأشراف، والتجار، والحرفيون من الشرق القديم بلاد اليونان واختلطوا بالفلاحين اليونانيين (الذين جاؤا أصلا من الشرق القديم). الفرق الوحيد هو أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا من المحاربين من الجنس الأرى (بينما كان الأقدمون من المزارعين)، ولبثت الحضارة الإغريقية القديمة فى أرض اليونان لتسعة قرون فى الألف سنة الثانية ق.م.

الغزو الدوريانى

حدثت الغزوة الثانية الكبرى للجنس الأرى على مدى جيلين ابتداء من عام ١٢٥٠ ق.م.، وتوجّهوا غزو مصر عام ١١٩١ ق.م. اندفع الأريون الجدد بعنف لغزو الشرق القديم. أتى الغزاة الجدد من شمالى البلقان واندفعوا إلى البحر الأبيض المتوسط. اخترقوا الأناضول ودمروا دولة الحيثيين وكونوا دولتهم التى نعرفها باسم فريجيا ثم غزوا أواسط وجنوب بلاد اليونان وهاجموا مصر ودمروهم المصريون، ثم غزوا ساحل الشام الجنوبي واستقروا فى فلسطين (وأعطوها هذا الاسم)، ثم أنشأوا مستعمرات فى جزيرة كريت وفى ليبيا وصقلية وإيطاليا. كان هؤلاء الإريان، من بقايا أهالى الأناضول وأهالى جنوب البلقان الذين سبق وهزمهم الغزاة الأريون، ممن لهم معرفة بالبحر، وهكذا أمكنهم تحقيق هذه الإنجازات البحرية. شردمة أخرى منهم - فى تاريخ لاحق - أسسوا حضارة تتكون من اتحاد لولايات فى شمالى إيطاليا، تعرف باسم «الإتروسكان». يتضح مظهر هذه التحركات فى البر والبحر عند دراستنا للأقوام التى غزت اليونان. يطلق اسم «الدوريان» على المحاربين الذين استقروا فى شبه جزيرة المورة واحتلوا كورينث وأسسوا إسبرطة. دمروا مايسينيا ثم عبروا البحار وهزموا جزر كريت ورودىس. استمرت هذه الأحداث العظيمة على مدى قرنين. هرب معظم المهزومين إلى أتیکا أولا ثم إلى خارج البلاد، ولكن تبنى بعض هؤلاء المحاربين بعضا من ذرايهم الذين كانوا من أصل ميسينى أو مينوى، والذين ترجع أصولهم البعيدة إلى الفينيقيين، كذلك تبنى المحاربون الغزاة كهنة أبولو فى دلفى كمرشدين لهم وناصحين. وهكذا تغير تركيب الغزاة الفاتحين من الدوريان بواسطة الشعوب التى انتصروا عليها، ويرجع تقدمهم فيما بعد إلى تلك التغيرات التى أحدثها فيهم من تبنيهم ومن استمعوا لنصائحهم وإرشاداتهم. يرجع تقدمهم أولا إلى تفوق أسلحتهم وحسن تدريبهم لخوض الحروب، ولكن يعود استمرار تقدمهم فيما بعد إلى التهجين مع من غزؤهم وإلى التعليم الذى تلقوه على أيدي الكهنة الذين - ترجع أصولهم إلى أقدم حضارات التاريخ. انقسم

مجتمع الدوريان إلى طبقة عبيد الأرض الذين أخضعوهم لسيادتهم فى سهول لاكونيا الخصيبة (والذين قسموهم إلى أرقاء الأرض وأرقاء الأسر)، وإلى طبقة الرعاة الذين كانوا يعيشون فى التلال، وإلى طبقة الأغراب الذين يقطنون المدن، إلى جانب الأرقاء الخصوصيين. وفوق هؤلاء جميعا الأمراء ومنهم كان يُختار الملوك.

أدى الغزو الدوريانى إلى احتلال معظم أراضى اليونان، وإلى هروب بعض المهزومين، بعضهم لجأ إلى الجبال وبعضهم هاجر إلى خارج البلاد. بعض الزعماء الميسينيين لجأوا إلى الصلح مع الغزاة الدوريان. بعضهم تولى الحكم فى اسبرطة (الهرقليون)، وبعضهم فر مع قومه إلى أتিকা (كودروس) ثم تحالف من الأثينيين لطرد الغزاة. بعض النبلاء أخذ على عاتقه تنظيم الهجرة عبر بحر إيجه. أول المهاجرون جاؤا من الأراضى التى تم احتلالها فى أول الأمر (جنوب شالى)، الأليان. بدعوا رحلتهم سنة ١١٣٠ ق.م. إلى وجهة مجهولة، وبعد تجوال بين الجزر الشمالية للبحر حطوا فى شاطئ طراودة، ثانى المهاجرون جاؤا من أثينا - بعد أن هزم الأثينيون بقيادة كودروس الغزاة، الأيونيون. شيد هؤلاء اثنا عشرة مدينة أشهرها إيفيس، ميليتس، وفوكيا. ثالث المهاجرون كانوا الدوريان أنفسهم الذين استقروا فى كريت ورووس وكوس. ولكن الدوريان لم يكونوا ملاحين، ولم يكن لديهم سفن، وقد تكون مستعمراتهم الجديدة نتيجة جهد مشترك وحدثت بعد انتصارهم على اليونان ببضعة أجيال، بعد أن بدأوا يتعاونون مع البحارة من أهل البلاد الأصليين التى استعمروها، وهكذا عكست هذه الهجرات الثلاثة اتجاه الهجرة عبر بحر إيجه الذى حدث خلال الثلاثة آلاف سنة المنصرمة. حدثت موجات الهجرة هذه بعد تفسخ القوى العسكرية السابقة وتحطم دولتى الحيثيين والميسينيين. أخذت هذه الهجرات شكل غزو ثم احتلال الجزر ومن بعدها الشواطئ الساحلية، التى كان يسكنها الإغريق ومن قبلهم من الأقوام: الميسينيون والفينيقيون والكاريانيون والليديون. كان على الغزاة الجدد التعاون مع النبلاء الميسينيين وعلى أسلحتهم الحديدية والجيدة والفعالة: السيف الحديدى وشفرة المحراث الحديدية. نشأت حوالى عشرين مدينة جديدة بعضها نتيجة الصراع وبعضها ثمرة التعاون. نشأ كل مجتمع جديد من اندماج أجناس مختلفة، يتحدثون باللسنة متغايرة ويتعبدون لآلهة متباينة. كان لكل مدينة منشؤها، الذى توارث أبناؤه وذريته الحكم من بعده واتخذوا لأنفسهم ألقاب الملوك أو الكهنة، واستمرت هذه العائلات تتمتع بمرآكزها ونفوذها لعشرين أو ثلاثين جيلا توحدت فيها تلك المدن تحت حكمهم. لم يأت الأيونيون بنساء معهم من أثينا، ولكنهم - بعد احتلالهم للبلاد وسيطرتهم على شئونها - تزوجوا من بنات الكاريانيين، الذين سبق لهم قتل آبائهم، ومن نسلهم جاء الملوك الجدد الذين تولوا حكم البلاد، صارت المستعمرات الجديدة التى انتشرت

على ساحل الأناضول هي أول مستعمرات إغريقية خارج أراضي اليونان. شملت تلك المستعمرات الثغور الفينيقية والميسينية السابقة التي كانت تستخدم كمراكز تجارية ذات الأسواق الزراعية الداخلية، التي جعلت تلك المستعمرات تكفي احتياجاتها ذاتيا. كانت كل مستعمرة تأخذ في النماء المطرد حتى تكون لنفسها مستعمرة أخرى بعد جيلين أو أكثر وهكذا. ازدادت الهجرة تباعا وازداد استعمار الأراضي الزراعية المجاورة لتلك المستعمرات، ولكن استمر المزارعون متشبثين بالأرض ولا يغادرونها.

في منتصف القرن الثامن ق.م. توقفت الحروب بين المدن اليونانية المختلفة في أرض اليونان نفسها، وعلى أثر هذا عم الرخاء أرض اليونان والجزر اليونانية والمستعمرات اليونانية على الشواطئ الشرقية لبحر إيجه. ولكن قطع الأشجار على سفوح التلال كان له نفس الآثار التي حدثت في جزيرة كريت فيما قبل. لم تقل الاستثمارات ولكن حدثت زيادة في عدد السكان بعد التوقف عن الحروب وازدادت الهجرة للخارج، طواعية أو كرها. إزدادت القرصنة في البحار، خاصة بين أهالي جزيرة كريت. تشير هذه الحقبة من التاريخ إلى انتعاش التجار (وهكذا انتشرت الأسواق الكبيرة في الموانئ خاصة في الأناضول وفينيقيا وفيما بعد في مصر) ونشأت في تلك الموانئ الأحياء الإغريقية، التي ارتبطت ببعضها البعض. اختلط الفنانون والحرفيون الإغريق - في هذه الأسواق - مع نظرائهم من الفنانين والحرفيين المصريين والفينيقيين والبابليين والفرس. تبادل الجميع الأفكار والمهارات وتزاوجوا - لحد ما - مع بعضهم البعض. بدأ الفنانون والحرفيون من الشرق القديم في الهجرة إلى بلاد الإغريق في الغرب، وهكذا كان المد مستمرا في كلا الاتجاهين. صار الإغريق «يستشرقون»، كما صار أهالي الشرق «يستقرون» بدءا بطبقات الحرفيين. كان ما يستقبله الإغريق من حضارات الشرق القديم، يصدرونه إلى بلاد الغرب البعيدة. رحل الإغريق إلى جميع موانئ البحر المتوسط واستقروا في سواحل البلدان المتخلفة في غربي البحر الأبيض المتوسط. كان الرحل من الإغريق رجالا متقدمين متحضرين بوسعهم نقل جميع أسس الحضارة ومكوناتها إلى مجتمعاتهم الجديدة. كانوا يختارون الأماكن التي سبق لأسلافهم من الميسينيين أو من الفينيقيين استطلاعها والاستقرار بها، كما ذهبوا إلى أماكن قليلة السكان لا ينافسونهم فيها أحد. كان كاهن مدينة دلفي هو الذي يختار لهم تلك الأماكن، وكان المستعمرون ذاتهم يتم انتقاؤهم نتيجة النصح والمشورة. كان يقدمهم النبلاء من المعاصرين مع حاشيتهم من المحاربين التي كانت تشمل البحارة والملاحون والتجار والفلاحون والحرفيون بنسب تحدد حسب المكان الذي سيتوجهون إليه. بعد استقرارهم ونجاحهم في المستعمرات الجديدة، كان يتبعهم المديرون والمحامون والفنانون. كانت الهجرة تشتد إلى تلك المستعمرات الجديدة كلما صادفهم النجاح أو كلما حدثت مصيبة بأرض اليونان، كما حدث في

القرن السادس ق.م. عندما وصل الفارسيون إلى بحر إيجه. كان مستقبل كل مستعمرة يعتمد على نمط التوالد بين المستعمرين الإغريق وأهالي البلاد الأصليين، وكان هذا يتوقف على صفات الإغريق وصفات أهل البلاد. كانت بعض المستعمرات خالصة من جنس واحد (مثل اسبرطة التي كانت خالصة للمحاربين النوريان) بلا مزارعين ولا رعاة معهم. ولكن في برقة اختلط الليبيون مع الإغريق وفي صقلية اختلط معهم الفلاحون.

يوضح احتلال برقة مثالا حيا لكيفية نشأة المستعمرات الإغريقية. بدأت أولا بهجرة الإغريق من إحدى الجزر التي ازدهرت بالسكان - جزيرة ثيرا التي كان يقطنها النوريان، ثم تبعها غزو قاده ملك ميسيني بنصيحة من كاهن دلفي، مفادها أن الكهنة علمت أن المزارعين الإغريق سوف يلاقون نجاحا في هذه المستعمرات الجديدة، وقد تحققت تلك النبوءة. كان الامتداد العمراني قد حمل طرق الزراعة الحديثة إلى هذا المكان من شمال إفريقيا وامتد غربا، حيث اقتلع البربر الغابات من الجبال واستنفوا مصادر المياه الشحيحة في ليبيا، التي تحولت إلى أرض لرعى الغنم والماعز. عندما حضر الإغريق إلى ليبيا رحب بهم الليبيون، حيث أنهم قدموا للبلاد بلا غنم ولا ماعز معهم. أتى الإغريق إلى ليبيا بمهارات هندسية لآخزن المياه وضبطها، نشأ عنها تحسن المحاصيل الزراعية، وأحضروا معهم الزيتون. تزوج المستعمرون الجدد في أول الأمر زوجات ليبيا وتنتج عن هذا الزواج جنس مختلط تأقلم مع الحياة في تلك البلاد. وبعد قليل بدأ النوريان يعاملون أهل البلاد كطبقة أقل منهم (كما يعاملون الرعاة في بلاد اليونان نفسها). بعد حين تزوجت أميرة من البيت المالكي في ليبيا من الفرعون المصري أمازيس، من الأسرة السادسة والعشرين. وبعد وقت طويل انتصر الفرس على هذه المستعمرة الإغريقية، التي انتعشت وزاد ازدهارها عام ٥١٥ ق.م. كثير من المدن اليونانية القديمة في برقة ماتزال معنا حتى الآن، رغم فقر البلاد الحالي وتبني مستوى مصادرها الاقتصادية. تم إنشاء مئات من المدن الإغريقية على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط وعلى سواحل البحر الأسود ومازالت باقية حتى اليوم، ومنها مدينة نابولي والقسطنطينية (استامبول) التي ما فتئت مكتظة بالسكان الآن كما كانت سابقا. بعضها كان مدنا صغيرة (مثل مدينة كيرازون التي اشتق من اسمها الكرذ)، وبعضها نما وترعرع وبلغ شأوا عظيما مثل ماساليا (التي تعرف الآن باسم مارسيليا) في أقصى الغرب من الساحل الشمالي للبحر المتوسط والتي تم إنشاؤها عام ٦٠٠ ق.م. كانت أول هذه المدن هي مدينة فوكيا (وهي مستعمرة أوليانية على الشاطئ الشمالي لسмирنا) (والتي أدى تدميرها على يد الفرس عام ٥٣١ ق.م. إلى وقف حركة إنشاء المستعمرات الإغريقية) صارت مساليا بعد قليل مركز إشعاع لكثير من المستعمرات اليونانية التي أنشأت حولها، كما توغل التأثير الإغريقي عميقا داخل الأراضي الفرنسية ونشأت حضارة عميقة لم يتم الكشف عن أسرارها

حتى اليوم، حضارة نتج عنها اندماج فنون هالستات وفنون لاتين الهمجية مع فنون العالم المتحضر، وكانت النقلة الثانية من النقلات الخمسة الكبرى التي انتجت الشعب الفرنسي. فى كل هذه المستعمرات حدث تزاوج مشترك بين اليونانيين الوافدين وبين أهالى البلاد الأصليين. تزوج أفراد كل طبقة من أفراد الطبقة المعاكسة لها. احتظفت تلك المستعمرات بنمطها وكيانها الإغريقى، ولكن - نتيجة لهذا التزاوج - امتد التأثير الإغريقى إلى سائر الأقوام ومازال الدم اليونانى يجرى فى عروق أفراد الشعوب حتى الآن، فى منبها، وفى بلادها، خاصة فى الموانى الممتدة على سواحل البحر الأبيض المتوسط التى تعتبر امتدادا لتلك المستعمرات الإغريقية القديمة. وهكذا وحد البحر بسفنه بين أعراق وثقافة تلك المجتمعات.

عندما يتلاقى مجتمعان، مقسمان إلى طبقات اجتماعية، نتيجة الاتصال التجارى أو النصر فى الحرب، تتفاعل طبقات المجتمع المختلفة، بطرق مختلفة مع الأحوال التى جدت ومع الظروف الحديثة التى نشأت من هذه اللقيا. تتنافس - فى التور واللحظة - مختلف الطبقات، ويؤدى هذا التنافس إلى غاية واحدة. يبلغ هذا التنافس أقصاه فى قمة المجتمع، لأن عليه يعتمد الموت أو الحياة أو الزواج والاندماج. فى المعتاد يتم قتل الرجال من الطبقة العليا من المجتمع أو يتم طردهم خارج البلاد (فهؤلاء لا يمكن أن يستعبدوا ويصيروا رقيقا). مثال ذلك بعل، ملك صور، الذى طرده الآشوريون بعد انتصارهم، فأبحر غريا مع ابنتيه ديدو وأنا عام ٦٦٦ ق.م. ليصل إلى مدينة قرطاجنة (أو لينشأها) ثم يصير حاكما لها. هكذا يتم طرد نساء هذه الطبقة أحيانا، ولكنهن غالبا ما يتخذن كزوجات للمنتصرين (أو كجوارى رقيق للمنتصرين ويصرن عشيقات لهم كما حدث مع نساء طراودة). تتكون الطبقة الثانية من المجتمع من الكهنة، حاملى الأسرار المقدسة وحافظى تلك الأسرار. بعد قليل يتزاوج أفراد هذه الطبقة مع أفراد العائلة المالكة ومع النبلاء الذين تشابكت مصالحهم معهم (كانت الدماء مختلطة تماما بين هاتين الطبقتين فى أصول الإغريق)، لأن الكهنة - مثلهم فى هذا مثل الملوك والنبلاء - كانوا يرجعون فى أصولهم إلى الدم الإريانى المختلط بالدماء الشرقية، وعندما عاون كاهن دلفى على دخول الدوريان - كما سنرى فيما بعد - كان هذا ضمن عملية الاندماج. الطبقة الثالثة من المجتمع كانت طبقة الكتبة، التى تسجل ما يعمله البشر عندما التقى الغزاة الشماليون الطبقة المثقفة من الشرقيين حدث صراع بينهما على المصالح. كان هناك الكهنة المسيبيين الذين، احتما بالملوك الأريين وصاروا من أتباعهم، بينما الطبقة المثقفة من كريت من الكتاب والحرفيين المهرة صاروا فى حماية كبار الموظفين الآتين من المشرق. لم يحدث صراع بين هاتين المجموعتين فى أول الأمر، ولكن فى نهاية تلك العصور المظلمة عندما ظهر شعراء مجيدون بين الشماليين، بدأوا فى كتابة أشعارهم على أوراق البردى التى يصنعها الجنوبيون (وهكذا وصلت

إلينا تلك الأشعار)، واختفت تدريجياً الأبجدية الفينيقية (أول من اخترع حروف الكتابة)، وازداد عدد الحروف المتحركة وظهرت حروف الكتابة الإغريقية التي مازلتنا نعرفها حتى اليوم. كذلك عندما تفرق سايكو الحديد، بعد سقوط الحيثيين، استقبلتهم بالترحاب الأمم التي لم يكن لديها صناعة برونزية متقدمة، وصنعوا لهم أسلحة من الحديد، التي وضعت في أيدي المحاربين الهمج غير المتحضرين، الغزاة القادمون من الجبال - من الآشوريين والفرس - هم الذين اجتاحوا البابليين الذين كانوا يحاربون بأسلحتهم القديمة. كذلك استطاع الدوريان القادمون من الشمال بسيفهم الحديدية اجتياح الحضارة الميسينية بثرائها وثقافتها، وتركوا لنا تاريخ هذا الاجتياح في بيلوس وكنوسوس، مكتوباً بيد الكتبة المثقفين، لاييد الشعراء الهمجين. الطبقة الرابعة من المجتمع هي طبقة الفنانين، المسئولين عن التصميمات، والحرفيين المسئولين عن تقنيات الصناعات. تلك الطبقة كانت هي الناقلة للأفكار من بلد إلى بلد، خاصة من مصر إلى فينيقيا وكريت وميسينيا. لم يلاقى أفراد هذه الطبقة أى مقاومة في البلاد التي رحلوا إليها. ولكنهم اضطروا إلى اتخاذ سادة جدد في تلك البلاد، وصاروا لا يظهرون إلا الآراء والأفكار التي يرضى عنها أولئك السادة، الذين يقلون عنهم في الثقافة وينخفسون عنهم في مستوى الحضارة والمدنية. وهكذا كانت هجرة الفنانين تؤدي عادة إلى تدهور في مستوى الفنون. كان تفكك المجتمع بعد الغزوات الكبيرة التي تعرضت لها البلاد يؤدي إلى تحرر الطبقة العاملة وهجرتها إلى كافة الأماكن التي نشأت فيها مجتمعات إغريقية، حيث كونوا «الأنلجنسيا»، أو الطبقة المفكرة التي قادت تلك المجتمعات، وبعثرت الحضارة الميسينية في بلاد العالم المختلفة. حدثت حركات من حرية التعبير في القرنين الثامن والسابع ق.م.، ونشأت عشرات من المدن الإغريقية، لكل منها نظامها الخاص، وجرى الحكم فيها بالمناقشة الحرة وليس بتوارث العروش ابناً عن أب عن جد. كان المجتمع يحكم بواسطة ملك يحيط به الناصحون والمستشارون من النبلاء ويوافقهم (أو يعترض عليهم) عامة الناس، وكانوا في هذا يختلفون عن كل نظم الحكم التي عرفها البشر في البلاد السابقة أو المجاورة. ولكن أثبتت الحرية والاختلاف أنهما نظامان لا يمكن لهما أن يدوما. فقد دفع التنافس الداخلي بين المدن المختلفة، وأدت الضغوط الخارجية إلى اهتزاز النظامين، السياسي والدستوري. تقدمت الكتابة وتناقضت الهجرة (وبالتالي الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة) مما أدى إلى جمود السياسات والأوضاع الاجتماعية، والأفكار الدينية، والتطور العقلي. حدث كل هذا في نفس الوقت وأدى إلى اختلاف سرعة التطور وتباين النتائج في كل من إسبرطة وأثينا.

نشأت دولة إسبرطة حوالي سنة ٨٢٠ ق.م.، وخاضت حروباً طويلة في شبه جزيرة المورة حتى عام ٤٠٤ ق.م.، عندما تحقق لها النصر في النهاية وتسيدت على كافة بلاد اليونان. وضع دستور للبلاد، بواسطة ليكارجاس، رجل القانون، وشرحه ارسطاطاليس في كتابه السياسة. من المعتقد أن

أهل إسبرطة نسجوا قانونهم هذا على المبادئ التي وضعها المينيون في كريت، ومن الواضح أن الدوران قد أدمجوا أفكار الأمم التي غزوها في ثقافتهم خلال سنوات الاحتلال التي بلغت مئتين من السنين، النظام الذي بدعوه قضى على الحروب التي لاتنتهى في العهود السابقة، بنى النظام على السلطة المطلقة لطبقة المحاربين، لم يقم النظام على سلطات الأسرات المختلفة بل انتظم فى سلطة الدولة التي توغلت إلى كل طبقات المجتمع. كان المحاربون - وزوجاتهم - يتم انتقاؤهم منذ ولادتهم - بناء على قدراتهم الجسدية ثم على خلقهم الاجتماعى، وكان يتم مراقبتهم وتقويمهم من الناحية السياسية ويعاد انتقاؤهم سنويا. كان يحكم إسبرطة نظامان ملكيان: المحاربون والكهنة، ويدبرون حكمهم عن طريق مجلس من ٢٧ رئيسا للعائلات الكبيرة فى أول الأمر، ثم صار هذا المجلس ينتخب من المسنين والحكماء من الرجال بعد ذلك، ويقوم بالانتخاب جميع المواطنين كاملى الأهلية. كان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا سن الثلاثين وأتموا خدمتهم العسكرية الذين يستطيعون الاحتفاظ بمنزل، ويرتبطون بالزواج. كان هناك خضوع كامل وطاعة عمياء من المحاربين للدولة فى إسبرطة. يعزى إلى أهل إسبرطة أنهم أول من كشف عن أسس النجاح فى القرنين التاسع والثامن ق.م. فى عصر الحديد، وطبقوا تلك الأسس فى حكمهم للبلاد (وقد حذا حنوهم فيما يلى من القرون الأشوريون والرومان). بناء على نصيحة حكيمهم - ليكارجاس - ويتوجيه من كاهن دلفى، قرر أهالى إسبرطة توحيد القبائل الخمسة، التى كانت تعيش فى قرى خمسة، فى القرن التاسع ق.م. لتتسأ من توحيدها دولة واحدة. اكتسبت تلك الدولة قوة عظمت بعد توحيدها وأمكنها فرض القانون والنظام ومنعت الفوضى التى ضربت أطنابها فى باقى مجتمعات اليونان، وكانت تلك القوة هى التى تسببت فى فقد ذلك المجتمع لحريته فى نهاية الأمر. امتد الخضوع للنظام العسكرى إلى سائر النواحي المدنية، الانتاج الزراعى والحياة المعيشية. كان السؤال المفروض دائما هو كيف تتوزع السلطة بين الطبقة العسكرية، وانتهى الأمر إلى وضع كافة السلطات فى يد الملك فى أوقات الحرب، ووضعها فى يد مجلس منتخب فى أيام السلم. فى البداية كانت الطبقة العليا فى إسبرطة قابلة للتفاهم. وفى القرن السابع ق.م. اكتسبت جميع الدول النورانية قدرا من الثراء وتمكنت من اتقان فنون السلم والحرب. ولكن تفاعلت عدة عوامل، مع بعضها البعض لتتشديد القوانين.. أولها كان النجاح الذى أحرزه العسكريون على جيرانهم، وثانيها كان إخماد كل من ينتقد الحكام واستئصالهم من المجتمع، أيا كان موقع المنتقد، سواء كان من الشعب أو من الطبقة العليا الحاكمة، وثالثها كان رفض النشاط التجارى بكافة صورته والاستعاضة عنه بالمساواة الجماعية الشعبية، وهكذا تم تثبيط النشاط الفنى أو التجارى ورفض الارتقاء بالمجيديين من رجال الأعمال أو الفنانين إلى الطبقة العليا، وهكذا تمت هجرة هؤلاء المبدعين إلى باقى الدويلات النورانية، إلى كورينث وميجارا ورودىس. وكانت هذه

الهجرات (أو كما نسميها حالياً هجرة العقول) سببا في افتقار إسبرطة إلى الأذكى والمبدعين الذين يقيمون الحضارات ويتمهونها بالارتقاء. وهكذا تحولت الطبقة الأرستقراطية في إسبرطة إلى «جنس نقي» لا تدخله دماء جديدة، وتراجع هذا الجنس النقي المتماثل إلى ما كانت عليه القبائل المنعزلة في العالم. عندما كان المجتمع في إسبرطة في قوة مجده، كان يتكون من قبيلة كبرى، بها ٥٠٠٠ مقاتل و٤٠٠٠ من الأتباع (عندما انتصر على جيش زرزس في عام ٧٩ ق.م.)، ولكن بعد أربعة أجيال فقط، بعد الحرب مع أثينا، تقلص عدد هذا المجتمع إلى أقل من الربع (وتحول بهذا العدد الضئيل إلى جنس نقي بكل أعراض الأجناس النقية وصعوبتها المدمرة في آخر الأمر).

خلال سنوات الغزو الدوريانى، كان الملوك الميسينيون وملوك الغزاة هم قادة الجيوش في الحروب، وكان الملوك الهرقليون والبتليديون والكوريديون يقعون رجلا مختلفى الأجناس بين أفراد جيوشهم، وعند استقرار المدن الجديدة ورسم الحدود التي تفصل المستعمرات الجديدة تدهورت - مراكز الملوك. ورث الهيراقليون الحكم في إسبرطة من نظام الميسينيين، وتولى الحاكم الميسينى منصب رجل القضاء في زمن السلم. وهكذا صار الحال أيضا في أثينا وفي كورينث. وفي أفيثوس وفي ميلينس تدنى الملك الميسينى إلى درجة الكاهن. سرعان من ارتبطت الطبقة العليا في جميع هذه الدويلات الإغريقية في شبكة متصلة. كان هؤلاء الأرستقراط هم ملاك الأراضي وهم الخيالة وتعاونوا مع بعضهم البعض إلا في كورينث، المدينة التجارية، التي غلبت فيها أسرة الهرقليين سائر الأسرات. كان الحل هو محو الدويلات التي تعتمد على مدينة واحدة، وقد منع هذا نشوء طبقة مالكة واحدة في كافة البلاد اليونانية. كان النظام الأرستقراطى نظاما مهترزا، فباستثناء إسبرطة - ذات النظام الشيوعى في توزيع الثروات - اختلف مستوى الثراء بين دويلة وأخرى واندثرت الأسرات الحاكمة تباعا، وبعد عدة أجيال تقلص النظام إلى أقلية حاكمة، أى صار الحكم في يد أسرة واحدة، يمثلها طاغية أوجد. تحت حكم الطغيان عادة ما تنتعش التجارة ويزداد الثراء، ويحلو النظام في أعين الغرباء ليحاول طاغية آخر من جارة الدويلة اغتصابها، وفي أحيان أخرى يؤدي فرط الطغيان إلى قدر من التحرر وفي أحيان أخرى إلى مزيد من الطغيان. وهكذا يؤدي حكم الفرد أحيانا إلى الانتعاش ويؤدي في غالب الأحيان إلى المصائب. في قليل من الأحيان تتكاثر طبقات التجار وتزداد قوتها للحصول على المزيد من السلطات داخل الدويلة، فتشجع المخترعين وتدعم المبدعين وترعى الفنون وتحتضن أصحاب الحرف الراقية.

يرجع نجاح إسبرطة العسكرية في القرن الثامن ق.م. إلى ملائمة نظامها وثباته واستقراره لدعم السلطة العسكرية. كان هذا ما يؤمن به أهل إسبرطة (وقد تحقق هذا الإيمان بانتصاراتهم العسكرية المتوالية). ويرجع نجاح أثينا في الأمور التجارية والاقتصادية إلى ضعف نظامها السياسى وإلى

فشل نظامها الاجتماعي الذي تعرض مرارا إلى التفكك والانهيار، ولكن ازدهار أثينا وراثتها يرجع إلى عمل جماعة جديدة تتكون من أجناس مختلفة. بدأت المدينة حياتها بالترحيب باللاجئين الذين فروا أمام الغزو الدورياني، واستمرت بعد ذلك لعهود طويلة مأوى للغرباء حتى جاء الغزو الفارسي الأول، فاعتصم أهل أثينا داخل أسوار مدينتهم. انتعشت التجارة، بداية في الصناعات الفخارية الواردة من كورينث، ثم في الفضة التي استخرجت من لاوريام، ثم في منتجات الصيد البحري. بدأت كل هذه النشاطات من مهارة الفنيين والحرفيين الذين اجتذبهم أثينا من حضارات العالم القديم ومن بقية أنحاء اليونان. لم يكن لديهم حماية لأشخاصهم ولا لممتلكاتهم، ولم يكن لهم الحق في الحصول على وظائف الحكومة ولم يكن لهم الحق في التصويت في الانتخابات، وبالرغم من هذا كان مستقبل الأمة متعلقا بأيديهم. نشأ صراع بين فئتين من طبقة الأرستقراط: أولئك الذين كان كل همهم ينصب على الاحتفاظ بكل السلطات لمصلحة طبقتهم وأولئك الذين كان يشغل بالهم مستقبل الأمة ككل. خاض المجتمع تباعا تجربتين متعارضتين، أولاهما الإصلاحات القانونية التي جاء بها أحد هؤلاء الأرستقراط، سولون بين أعوام 594 - 591 ق.م. ثم جاء الحكم المطلق على يد عائلة أرستقراطية أخرى، ثروتها من استغلال المناجم، أسرة بيزيستراتوس، بين أعوام 546 - 510 ق.م. في هذه الفترة من الحكم التسلطي توقفت كل قوانين سولون. في هذه الفترة أيضا وضعت قوانين للأغراب اللاجئين إلى أثينا، تختلف عن القوانين المطبقة على المواطنين الأصليين. (وهكذا جعلت من أثينا العاصمة الطبيعية لكل بلاد اليونان). ثم جاءت الحقبة الثالثة من الإصلاحات القانونية، على يد فرد آخر من الأرستقراط، كليستينس، عام 510 ق.م. ضمنت فترتي الحكم القانوني حقوق دافعي الضرائب الأساسية. صار للحرفيين والفنانين حق التصويت في الانتخابات وحق الجلوس في مقاعد المحلفين في المحاكمات، ولو أن النظام استمر بميل ناحية الأثرياء وأبناء النوات - كما استمر يحدث في جميع الديموقراطيات التالية، الذين يملكون الوقت الذي - يقضونه في الشؤون السياسية وفي حضور اجتماعات الجمعية العمومية وفي التلاعب باليات الحكم في نظر الفلاح الذي يعيش في آتيكا وفي نظر أهل مدينة أثينا نفسها، لم يكن الصراع الدائر بين القبائل ولم يكن النزاع القائم بين الطبقات في القرن السابع ق.م. سوى صراعا على حقوقهم. صاحب هذا الصراع بين الآلهة والأبطال والمقدسات، لم يصل هذا الصراع إلى الطبقة الأرستقراطية ولا إلى طبقة الكهنة، لأنهم أصحاب مصلحة متوازنة في البقاء على قمة السلطة. ولذا كان من العجب العجاب تلك الإصلاحات التي قام بها كل من سولون وكليستينس التي أضفت الحماية على الحرفيين ومنحتهم الفرص، ومن ثم ازداد الجذب إلى أثينا من قبل الصناع والحرفيين والتجار من كافة أنحاء اليونان ومن خارج بلاد الإغريق. حدث تيار من هجرة العقول ومن نوى الإبداع المنتقى إلى المجتمع الأثيني بتحرير أعداد كبيرة من العبيد في المجتمع. توحد الفلاحون والصناع، نوى الأصل الأجنبي أو الذين جاؤوا من تحرر العبيد

فى صعيد واحد، سرعان ما تغلب على أصحاب العائلات القديمة وأدى إلى انتهاء عهدهم. بقى الآلهة محتفظين بوضعهم ولكن تغيرت أعمالهم إلى ما فيه خير المدينة والمجتمع. ظل النظام الأثينى الجديد غير مستقر الوضع وتخلت دكتاتوريات وفوضى (من الجماهير التى مازال لديها الشك). ولكن التحول الأساسى الذى أحدثته الإصلاحات أنتج بعد جيلين أو ثلاثة، المجتمع الجديد الذى تمكن من هزيمة الفرس.

وحدة الإغريق

توحد الإغريق من استخدامهم لغة واحدة. كانت لغة الإغريق ذات عدة لهجات ولكنها كانت مفهومة لدى كل أهل اليونان نظرا لأن شعراء اليونان العظام كتبوا أشعارهم بهذه اللغة. أنف الشعراء أن يكتبوا أسماهم على شعرهم وخلصهم التاريخ. جمع أولئك الشعراء الملحميون أغاني الشعب التى ردها فى تحية ملوكهم وزينوها، هؤلاء الأبطال الذين مازلنا نعرفهم إلى اليوم عن طريق الكلمات التى بدعواها. الأمراء منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة، كانوا يحتقرون الكتابة (لأنهم نشأوا فى عهد لم تكن الكتابة معروفة فيه فى بلد لم يكن يقرأ ولا يكتب) وكانوا يحفظون ما يقولونه ويردونه تباعا (ككل الأمم السابقة). كانت مزىة الحفظ مركزة فى بعض الأفراد، الذين يشكلون مجموعة الشعراء والمغنين والمؤرخين والكهنة. ظلت المعلومات محفوظة فى ذكراتهم حتى جاء زمن الكتابة التى بدأت تتسلل إلى هذا العالم الأسطورى. كان شعراء الأريين يستقبلون بالترحاب فى بلاط ملوك الساميين (وقد يكونوا قد أسهموا ببعض ما جاء بالكتابات العبرية). ما تردد فى ذاكرة هؤلاء الشعراء، وما حفظوه من تاريخ تلك الأمم يختلف اختلافا كبيرا عن الطريقة التى نونت بها حضارات أرض الجزيرة وحضارة المصريين القدماء الذين اعتمدوا على كتابة أحداثهم على جدران المقابر والمعابد وفى البرديات وحفظوها من الضياع. هكذا لم تتم كتابة كتب الهنوس الدينية «الفيدا» بالسانسكريتية، ولا شعر هوميروس بالإغريقية ولا القصص الأيسلندية القديمة الزاخرة بالأعمال البطولية «الساغة»، فى حينها، ولم يتم تسجيلها بالكتابة إلا بعد انتهاء العصر الذى نشأت فيه. لم يكن المؤسسون لتلك الحضارات لا يقرؤون ولا يكتبون فحسب، بل كانوا ضد الكتابة نفسها. لم يتم حل هذا التناقض فى الحضارات القديمة إلا بعد احتلال البابليين المثقفين لإسرائيل، وفى العالم الإغريقى إلا بعد مقدم الحضارة والتعليم من أيونيا إلى أثينا. فى الوقت الذى كانت روائع هوميوس الشعرية غير مكتوبة، وكان يردونها حفظا الهمجيون، كانت سجلات المطابخ تكتب فى بيلوس وفى كنوسوس، يكتبها الكتبة المثقفون بو الأصل الفينيقي. حدثت حروب طروادة فى منتصف القرن الثالث عشر ق.م.، ووصلت إلينا وقائع تلك الأحداث فى الإلياذة والأوديسة. تصف لنا الأحداث البطولية فى العالم الميسينى، والتى ضخمها الوارثون لتلك الحضارة من الدوريان فى القرون التالية. ليس السؤال المطروح هو من

هو هوميروس! هل هو رجل واحد أو عدة رجال! هل ينتمى إلى أسرة واحدة أم إلى عديد من الأسرات! هل يعود إلى عصر واحد أم عدة عصور متتابعة! قد تكون الإجابة الصحيحة أن من كتب تلك الأشعار هي أسرة رحالة ممتدة ومتفرقة بين جزر بحر إيجه على مدى عدة عصور امتدت بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٧٠٠ ق.م.، فالأشعار متلاحمة، مدمجة، متماسكة، وقد كتبت باللهاجات الأيونية والأتينية والأبولثية، وهناك اختلافات واضحة بين القصيدتين الطويلتين. وهكذا كانت اللفظة الواحدة هي العامل الأول في وحدة الشعوب الإغريقية، كما يظهر من أشعار هوميروس، وحدت بينهم أعمال عظيمة، صيغت بكلمات مبهرة وغناها الشعب بأسره، الذي وحد بينهم الشعراء الرحل بين الشعب المستقر في مكانه، وأعطاهم نظرة واحدة نحو الطبيعة كما فهموها ونحو الآلهة كما عبدوهم.

عرف الإغريق آلهتهم من مصادر عدة: من حضارات الشرق القديمة، ومن العرافين، ومن الكهنة «الموحى إليهم»، وغير الموحى إليهم. جاء الآلهة مع الحكام القادمين إلى بلاد الإغريق من كريت ومن أنشأوا مختلف المدن الإغريقية. جاء هؤلاء الآلهة ومعهم تاريخهم وأساطيرهم التي جاؤا بها من بلادهم القديمة (من مصر كما بين هيرودوت، ومن إسرائيل). في الزمن الغابر، شديد القدم، بدأت تعرف الآلهة بالناس وبالكهنة، وبدأ تعرفهم بالعلاقات بين القبائل المختلفة، وطبقات المجتمع، وبالعلاقات التي تربط المدن بعضها ببعض، ومن خلال هذا التعاون بدأ تكيف الإغريق مع حياتهم العائلية والقبلية وتحددت هذه العلاقات. جاءت الأفكار التي حددت هذا التكيف من الأناضول ومن فينيقيا ومن كريت ومن مصر. كان مركز تطور الديانات الإغريقية هو معبد أبوللو في مدينة دلفي، حيث بدأت في تلك المدينة قيادة كهنوتية على الطراز المصري. من مدينة دلفي أتت النظم التي عملت على توحيد المجتمع الإغريقي. تقع هذه المدينة على سفوح التلال شمالي مضيق كورينيث وسط أشجار الغابات، حيث تتبعث أبخرة البراكين كل حين. قبل تقدم الإغريق سكن في هذا المكان أقوام من أهل الجبال يدعون «برناسوس» وجعلوه موطنًا لآلهتهم. في هذا المكان تصالح بوسيدون (إله البحر) مع الحية (إلهة الأرض) كما اصطالح مع أثينا وأتين. بمرور الزمن قدم إلى هذا المكان مجموعة من الكهنة من جزيرة كريت يحملون صورة أبوللو (في شكل الدرفيل) ولجأوا إلى هذا المكان، وتبعهم المسيينيون. وبعد صراع، لم يدم طويلا، تصالحت المجموعتان من رجال الدين، ثم بنوا معبداً للإله أبوللو وصار المكان يعرف باسم دلفي. بعد الغزو النورمانى جاءت مجموعة ثالثة من الكهنة، يحملون معهم إلههم هرقل واجتمعوا بدلفي طالبيين البركة. تم قبولهم (والههم) في هذا المكان الذي دخل عصره الذهبي. أتى بعدهم كهنة اثنتا عشر قبيلة ووجدوا من المصلحة أن يضموا صفوفهم ويتوحدوا في معبد دلفي ويقتسموا المغانم مع كهنة هذا المكان ثم تكون - من مختلف الكهنة - مجلس يشترك في تصريف شئون المعبد، على أن يرأس إدارة المعبد كاهن كل شهر تباعا. بناء على نصيحة كهنة المعبد ثم تنظيم الألعاب البيئية، مرة كل ثمان سنوات حتى عام ٥٩٠ ق.م.

عندما صارت تقام مرة كل أربعة أعوام. تمخضت هذه الألعاب عن المباريات الرياضية والاحتفالات الموسيقية فى أولمبيا (وفيما بعد فى ديلوس). وهكذا توحد الإغريق برباط متين من الصلوات الدينية والاجتماعية. كان عمل الكهنة هو إسداء النصيح لكل من جاء من بعيد أو قريب (إن كان قادرا على دفع أجر النصيحة). أسدوا النصيح إلى سولون عندما كان حاكما لمدينة أثينا (ووجهوا بذلك السبيل إلى الإصلاح الإدارى والتنظيم الداخلى للبلاد)، كما أسلوا النصيحة إلى ميداس حاكم فريجيا وأمازيس ملك مصر، وهكذا وجهوا إلى حد ما السياسات الخارجية. كانوا يوجهون السياسات الخارجية لكثير من المدن اليونانية والدويلات الإغريقية، وكلما علا شأن دلفى وكلما إزداد صيتها كلما كان تأثيرها عظيما على شئون الدين وأمور الأدب والسياسة والتجارة. وكانت وسيلة دلفى فى الحصول على المعلومات السرية وفى التجسس مشابهة لنفس الطرق المتبعة فى التاريخ الحديث، وكان يخشاها جميع من حكم البلاد فى ذلك الزمان بدءا من الامبراطورية الفارسية فى الشرق إلى الجمهورية الرومانية الوليدة فى الغرب. تعود هذه القوة الفائقة للإغريق إلى توحد الجنس واللغة والثقافة، واستخدمت القوة إلى التغلب على الفرقة وإلى زيادة دعم الوحدة بين الإغريق، ولكنها لم تستع التغلب تماما على الفروق والاختلافات.

تعلم الإغريق من أسلافهم سكان بحر إيجه ومن الكاريانيين والمينيون والفينيقيين حبهم للبحر ولشجر الزيتون ودراباتهم العميقة بالسفن، ولهذا كانوا يقطنون على سواحل البلاد التى استعمروها ولم يتوغلوا إلى الداخل. بلادهم تفصلها البحار والجبال ولكن وحدها الملوك المينيونيين ثم الميسينيين، الذين لموا شمل السكان القليلين من المزارعين والرعاة فى مجتمع اقطاع يخضع لسلطاتهم. بعد حين رفض سكان المدن والتجار سلطة الملوك وفضلوا أن يقوموا بحكم أنفسهم بأنفسهم، وقد زاد هذا من اختلاف الأودية والجزر وإزداد هذا من تباين الطباع بين المجتمعات المختلفة. نشأ لكل من هذه الأقسام طريقته فى حكم نفسه واتخذت كل جماعة دستورها الخاص بها الذى زاد تدريجيا من سلطات الأهالى وقلل تباعا من سلطات الملوك وأصحاب الأراضى. نشأ لكل مجتمع تجارته الخاصة به وقنونه المميزة له. أصبح كل مجتمع متحمسا لمقدساته وقيم الاحتفالات لأعياده، وقيم التقويم الخاص به (رغم محاولة كهان دلفى لتوحيد التقويم). اقتصر حق المواطن فى هذه المدن على أبناء المقيمين فيها وعلى المهاجرين الذين سمح لهم بالهجرة لها. (لم يسمح لهيروبول المولود فى هاليكارناساس بحمل مواطنة مدينة أثينا، وكان يعامل كالأغرب فيها)، ولم يكن يسمح للأغرب بالزواج من أهالى المدينة (وهكذا كان المجتمع يتحول تدريجيا إلى التماثل الجينى). كان يدفع الإغريق للتفوق شعورهم الشديد بالتفرد. أوضح هوميروس فى أشعاره هذه الفرقة المدمرة وهذا الاعتزاز الشديد بالنفس، الذى عانى منه الإغريق (وكان حائلا لتوحدهم فيما بعد). فقد كان

غرور أخيليس سببا في الهزيمة عندما تلاقى الإغريق مع الفرس مثالا، وكان الدمار الذي حل بالبلاد من جراء حروب أثينا مع إسبرطة مثالا آخر.

كانت مستعمرات الإغريق الجديدة على بحر إيجه أبرز تلك المستعمرات في مآثرها العقلية على كافة البلدان التي تتحدث باللغة اليونانية. أدخل هؤلاء أفكار الشرق القديم إلى كافة أنحاء أوروبا ووضعوا الأسس العلمية والفلسفية في تلك الأفكار، ولكن مما يدعو إلى العجب أن الإغريق التاليين - خاصة أهل أثينا - رفضوا معظم تلك الأفكار. ويوضح الجدول التالي (جدول رقم ٥) منشأ الفلاسفة الإغريق الأولين. يقال أن رخص ووفرة الرقيق في العالم القديم هو السبب في عدم تطور العلوم الحديثة، وكان لاختراع الميكروسكوب والتلسكوب والبوصلة والكرنومتر الأثر البالغ في نمو العلوم وتطورها فيما بعد (مع أن هذه الأدوات لم تخفف من أعباء العمل اليدوي). ما كان ينقص الأقدمون هو الحرية، خاصة حرية الحركة والانتقال والاختلاط بكافة الناس، من مختلف الطبقات، وتبادل الخبرات والأفكار، والمخزون من المعلومات التي يسرها فيما بعد اختراع الورق ثم الطباعة. في بلاد اليونان القديمة كان الخلاف في الرأي والحروب شيء لاغنى عنه. اتحدت الأقوام الإغريقية - لفترة ما - في مواجهة الفرس، ولكن لم تدم هذه الوحدة، وسرعان ما تحطمت إلى مدن متفرقة قامت بينها الحروب، خاص بين أثينا وإسبرطة، وصاروا قوما ينتظرون من يحكمهم.

جدول رقم (٥)

الفلاسفة اليونانيون الأقدمون

التاريخ	مسقط رأسه	الاسم
٦٤٠-٥٤٦ ق.م. سافر إلى مصر وإلى بابل.	ميليتاس	ثاليس
٦١٠-٥٤٧ ق.م.	ميليتاس	أناكسيماندر
حوالي ٥٤٥ ق.م.	ميليتاس	أناكسيميناس
حوالي ٥٢٢ ق.م. هاجر إلى إيطاليا	ساموس	بيتاغورس
حوالي ٥٠١ ق.م.	إيفيسوس	هيراكليتاس
حوالي ٤٧٠ ق.م.	إيليا (من مستعمرات فوكيا)	بارمينيديس
حوالي ٤٤٠ ق.م.	أكرجاس (من مستعمرات رودس)	أمبيدوكليس
٥٠٠-٤٢٨ ق.م. أول فيلسوف قطن في أثينا.	كلازوميني	أناكساغوراس
حوالي ٤٥٠ ق.م.	ميليتاس	ليسيباس
حوالي ٤٢٠ ق.م.	ابدير (من مستعمرات كلازوميني)	ديموقريتاس

الجنس السامي واليهود

خلال الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، عندما كان المزارعون يستعمرون وادي الفرات، كان الرعاة، الذين اعتمدوا أولاً على الغنم والماعز ينشرون في أراضي الاستبس - الأكثر جفافاً - في الجنوب، هاجرت إحدى هذه الجماعات - التي كانت تتكلم بلغة حامية عتيقة - إلى أفريقيا، وانتشرت هذه الجماعة وذريتها في طول وعرض القارة الإفريقية خلال الثلاثة آلاف سنة التالية. انتشرت جماعة أخرى - تتحدث بلغة سامية سلفية - خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد في شبه الجزيرة العربية وبدأت تتوغل داخل الأراضي المنزرعة على حدودها. غزا هؤلاء الأقوام أهالي سومر وابل إلى الشرق منهم وأخضعوهم واحتلوا مدنهم الغنية. وإلى الغرب هاجموا الأقوام والمدن في سوريا وفلسطين واتجهوا إلى الجنوب. في الألف سنة الثانية قبل الميلاد وصل إليهم أصحاب الحضارات من سكان سوريا ومصر واخترقوا طرق المواصلات في الحجاز حتى وصلوا إلى مملكة سبأ واليمن وحضرموت. تعتبر هذه التحركات أول توسعات الساميين، وقد نتج عنها تغير عميق في تلك القبائل الرعوية. قابلوا لأول مرة صناعات المعادن، صناعات البرونز وغيرهم في الألف سنة الثالثة قبل الميلاد، واستقروا في بئر سبع حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م، التي سكنها حرفيو المعادن مع الرعاة، جنباً إلى جنب، كانوا يسكنون في أحياء متجاورة ولكن لم يتم التزاوج بينهم. ثم عرف هؤلاء الأقوام الخيل من وسط آسيا (حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م)، ثم كشفوا عن مزايا الإبل واستأنسوها (في شبه الجزيرة العربية حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م) وظلوا لأمد طويل محتفظين بنقائهم الجنسي. ولكن بعد حين، نتيجة لاستعباد الأسرى في الحروب بينهم، حدث اختلاط بين مختلف القبائل. ثم انتخبوا الشيوخ لوائستهم (وتحول هؤلاء إلى ما يشبه الملوك مع توارث الرياسات)، واختلطت الفئة الحاكمة من مخلف القبائل. ثم ظهرت مجموعات من الحرفيين والموسيقيين والكهان بينهم. حدث هذا التطور في جميع القبائل السامية، حدث في العبريين الذين ظلوا كقبائل رحل وفي قوم مؤاب، وزمون وأدوم الذين اتلعمجوا مع المزارعين وكونوا أمما يحكمها ملوك وفيها النبلاء وعليه القوم والأحرار والكهنة والأغراب. عاش بعض الساميين في مدن في بابل وفي أرض كنعان، وغلبت اللغات السامية، التي كانت أصلاً لغة للأقوام الرعاة، على سائر اللغات في البلدان التي عاش فيها الجنس السامي سواء كانت أصلاً بلاداً زراعية أو كانت مدناً.

يأتى الارتباك فى المعلومات عندما نتحدث عن الهكسوس أو الملوك الرعاة. لم يكن هؤلاء القوم من العبرانيين، ربما كانوا قوما أتوا بالخييل من منطقة بحر قزوين أو من أرمينيا واستعملوا العجلات الحربية واكتسحوا الجيوش أمامهم حتى وصلوا إلى سوريا، ثم بعد ثلاثة أو أربعة أجيال من اختراقهم للبلدان استقروا فى أرض كنعان وصاروا ملوكا للكنعانيين والعبرانيين، واستخدموا هؤلاء الأتقوام فى غزو مصر. يعتبر غزوهم لمصر أوضح مثال لإخضاع الرعاة للفلاحين وسكان المدن وأقدمها فى التاريخ، وكان مقدمة لكثير من الغزوات التى تلت هذا الحدث، (وما زالت تحدث فى قارة أفريقيا إلى عصرنا الحاضر). حرية الحركة التى كان يتمتع بها الرعاة، بالإضافة إلى خشونتهم وروح المغامرة لديهم ويعد نظريهم هياهم لاستخدام كافة الطرق المعروفة لأعمال السلم فى الشؤون الحربية، الوسائل التى ابتدعها جيرانهم الذين كانوا مستقرين وأمنين فى أراضيهم. كان الغزاة من الملوك الرعاة ينتصرون أولا. لم يستقر حكمهم ولم يدم، وذلك لأنهم لم يحافظوا على تفوقهم. كذلك كانت هذه المنطقة من البعد بمكان يجعل احتلالها عسيرا والسيطرة الدائمة عليها صعبة، وسرعان ما تتفتت إلى مجموعات صغيرة منعزلة عن بعضها البعض. كان تأثير مصر وبابل ينصب على هذا الطريق ويتركز عليه، ولكن لم تستطع كلتا القوتان السيطرة الدائمة عليه. يتكون هذا الجزء من العالم من إقليمين: إقليم فينيقيا (تبعاً للتسمية الهوميرية) وإقليم إسرائيل (تبعاً للتسمية العبرية).

الفينيقيون

كان الشريط الساحلى الضيق القابل للزراعة بين ساحل البحر المتوسط وبين جبال لبنان هو من سكنه أولا أقوام سماوا بالفينيقيين، ولكن كانت العوامل التى أضفت على هذه المنطقة أهمية بالغة فى تاريخ الحضارات هى:

١- موقع تلك المنطقة بين حضارتين عريقتين: حضارة أرض الجزيرة من جهة وحضارة مصر من الجهة الأخرى.

٢- امتلاك تلك المنطقة لعدة مرفئ طبيعية.

٣- ثروة المنطقة بالأخشاب التى تفتقدتها الحضارتين المجاورتين.

كان احتلال المرفئ الهامة وتطويرها يتم تباعا من الشمال إلى الجنوب بدءا من طرابلس، أودا، بيبولوس، بيروت، صيدا وصور. كانت المرفئ الفينيقية تغور على ساحل البحر، وكانت تقع على جزر طبيعية أو روس من الأرض محصنة طبيعيا ضد أى غزو قد يأتى من الداخل. هكذا كان الفينيقيون (مثل الميناويون) محميين من أى هجمات عليهم من جيرانهم المحاربين، وكان نجاحهم فى

إنشاء الميناء الأولى حافظا لهم للبحث عن أماكن أخرى تصلح لاستخدامها مرافئ، وهكذا نما مجتمع أهل البحار. كان الأساس الثاني لتوقيقهم هو وجود جبال عالية خلف تلك الموانئ، التي حمت ظهورهم وأمدتهم بمواد لانهاية لها للتجارة، بنيت السفن من أخشابها، وحملت تلك السفن مزيدا من الأخشاب لجارتهم الغنية - مصر - التي تفتقد تماما للخشب، وكانت أشجار الأرز من لبنان (التي قاربت على النفاد حاليا) تمد قراعة مصر ثم سليمان ثم سارجون ثم دارا ما يحتاجونه من الخشب.

هكذا نشأت الحضارة في فينيقيا وتضاعف سكانها وتزايد ثراؤها ببطء في أول الأمر ثم بسرعة بعد ذلك عندما تجمعت براعة صناعها ومهارة أهلها ممن غزلوا الغزل ونسجوا النسيج وصنعوا الأقمشة ويرعوا في التجارة والكتابة وإدارة الأعمال. نشأت المدن وازداد حجمها وبلغت حضارة فينيقيا أوجها بسقوط الإمبراطوريتين المينوية والميسينية اللتين كانت الروابط بينهما وبين الفينيقيين شديدة والصلات دائمة والتجارة رائحة غادية. (ولابد أن اللاجئين من المنفيين المينويين وفدوا إلى فينيقيا ووجدوا فيها ملجأ وملادا بعد سقوط دولتهم). بعد ارتفاع شأن صور، بدأت تلك الميناء في زرع مستعمرات في جميع سواحل البحر المتوسط: أتিকা، وقرطاجنة في تونس، موتيا في صقلية، فاليتا في مالطا، قادس في أسبانيا، موجانور في المغرب. كانت تلك الموانئ مدن شيدت على نفس طراز المدينة الأم وظلت على اتصال بها، وبالعالم الفينيقي بالرغم من وجود بحار شاسعة تبلغ ألفي ميل بينها. صارت المرافئ الفينيقية ومستعمراتها على البحر المتوسط - بأساطيلها - هي عصب الملاحة والتجارة في العالم. عندما حاول الفرعون المصرى نخاو الالتفاف حول أفريقيا عام ٦٠٠ ق.م. (كما روى هيروdot)، كلف أسطولا فينيقيا للقيام بتلك المهمة وعندما احتل الإسكندر الأكبر فينيقيا بعد هذا التاريخ بثلاثمائة عام وسيطر على صور، تعلم من الفينيقيين بناء الأسوار حول المدن، وصناعة بناء السفن وتكوين الأساطيل وفنون الملاحة وأسرار قيادة السفن في البحار، ومكنته فينيقيا من السيطرة على البحر المتوسط، ظلت فينيقيا على صلة مستمرة بمستعمراتها على البحر المتوسط طالما بقيت حرة مستقلة، ولكن بعد استيلاء الأشوريين على أراضيها ثم سيطرة الفرس عليها، انتقلت السيادة على الموانئ الفينيقية إلى قرطاجنة واستمرت تلك الثغور مرتبطة ببعضها (على عكس ما حدث في المستعمرات الإغريقية)، واستمر تبادل التجارة بينها وفاقت أهمية هذا النشاط سائر الأنشطة. لعل مصدر هذا النشاط يعود جزئيا إلى تنوع السكان (في طرابلس خاصة). لم يحدث في أي مدينة أخرى في ذلك الزمان تنوع السكان وتنوع اللغات المختلفة التي يتحدث بها الناس كما حدث في طرابلس. إزداد النشاط التجارى تباعا وبقي - ستة منه - مدونة على شطف من الفخار حتى عهدنا هذا. ومما يدل على تنوع التجارة واتساع مداها ما ذكر في الكتب المقدسة:

حملت سفنهم ألواح الخشب من خشب التنوب من سنير،

والصواري من أرز لبنان،

والمجاديف من شجر البلوط من باشان،

والقلوع من كتان مصر، والنوتيون من صيدا وأراد والمهاميز من جبيل

(بيبلوس)، ومرشدي السفن من صور والمعادن باختلاف أصنافها من

تاركيش (باسبانيا)،

القمح والعسل والزيت والبلسان من إسرائيل،

والنبيذ والصوف من دمشق، والجنود المحاربين من بلاد الفرس ومن ليبيا،

والحديد والقرفة والوجّ (نبات عطّر الجنور) من دان وجاوة،

التوابل والذهب والأحجار الكريمة من سبأ (اليمن)،

الغنم والماعز من شبه جزير العرب ومن كيدار.

أدى هذا إلى اختلاط مختلف أنواع البشر، ونتج عن اكتساب مختلف أنواع المهارات في المجتمع الفينيقي النجاح العظيم للممالك الفينيقية. كان المجتمع الفينيقي مختلف اللغات ومتعدد الألسنة وأدى هذا إلى وجوب توحيد الحروف الهجائية وإلى إيجاد السبيل إلى ذلك الاختراع. تم الكشف عن أول حروف هجائية على تابوت من الحجر للملك أميرام، ملك بيبيلوس، وتبعه اختراعات تقنية متتالية.

كانت فينيقيا موطن جذب لمختلف البشر، لثرائها وتعدد فرص الكسب فيها. جذبت فينيقيا الملاحين وجذبت التجار الذين كانوا يطمحون لمزيد من الكسب. لم تكن أفكارهم مبتكرة ولم يكن فنهم رائعا. كان يجذبهم الربح وليس القيمة وكان يشدهم السعر وليس الفكر. لم يتبق شيء من آدابهم (لأنه لم يكن يستحق الحفظ)، ولم يحرص أحد على الحفاظ عليه. أما في الدين فقد اختلفوا اختلافا بينا عن جيرانهم اليهود. عبدوا نفس الآلهة التي كان يعبدها أهل بابل وكان كهنتهم هم نفس كهنة بابل. كانوا ينفقون تقودهم على المومسات: مومسات المعبد، وعلى الغلمان. شرعوا قتل الأطفال كأحد الطقوس الدينية (كان قتل الأطفال مشروعا في كل الديانات القديمة إلا عند المصريين). اتخذ قتل الأطفال في فينيقيا شكل حرق الأطفال - أحياء - كتضحية للأرباب.

هكذا كان الفينيقيون، ناجحون بحريا وتجاريا، وأدى نجاحهم هذا إلى تعدد جنسيات الأماهى بينهم. تم انتقال مواهب الشرق القديم وأفكاره إلى الغرب عبرهم حملته مراكبهم خلال البحر المتوسط إلى اليونان وإلى إيطاليا. وكان اختراعهم لحروف الأبجدية هو أبرز آثارهم الثقافية، وقد نقلها كتابهم إلى الإغريق وإلى الأتروسكانيين. نقش حرفيهم وصناعاتهم قبور الأتروسكان وزينوها، وحمل بحارتهم وصياغهم صورة شمشون وهو يصارع الأسد إلى أليسيديا فى وادى تاجوس فى إسبانيا. كشفوا عن الثروات المعدنية فى جنوب إسبانيا، بنقلهم عمال المناجم وحرفيها من الأناضول، كما أوصلوا هذه الصناعة إلى مناجم كورنويل فى جنوب بريطانيا، ونشر أحفادهم استغلال المناجم فى باقى أنحاء أوروبا. كان الفينيقيون رجالا عظاما، كثيرو الحركة والتنقل، نقلوا تراث الشرق إلى الغرب. كانوا نوى صبغة عالمية، كثيرو الترحال وكثيرو الخروج والتنازل. لم يكونوا يؤمنون بقومية متفردة ولا ديانة مختلفة لمختلف البشر، بل كانوا يؤمنون بعالمية الإنسان. من بعدهم حدث الخلاف بين إسرائيل وكنعان وبين قرطاجنة وروما، وما زالت الخلافات والصراعات تحدث بين مختلف الأمم والشعوب إلى عصرنا هذا.

اليهود

نعرف من تاريخ اليهود أكثر مما نعرف عن أى أمة سامية أخرى، ومن مصادر متعددة، ومن أصول مختلفة. ارتبط اليهود منذ أول أمرهم بطبقة الكهنة واستخدم هؤلاء التاريخ لمنفعتهم ولتحقيق أغراضهم، وكان هذا عاملا للحفاظ عنّ جنسهم ولاستمرار ذرائعهم من قبائلهم المختلفة. كان الدين هو الأساس الأول لبقائهم وكان سبيل وحدتهم وتوحيدهم وكان مخططهم هو استخدام تاريخ هؤلاء الأقوام فى هذا الشأن. حوى الكتاب المقدس بكتبه الستة عشر، العهد القديم والعهد الجديد، تاريخ اليهود الأولين. ينبغى مطابقة ما ورد فى هذا التاريخ مع ما تم الكشف عنه من برديات وأثار وكلام ماثور يتوارثه الناس جيلا بعد جيل من أبناء الشعوب التى جاورت اليهود ومن ماثورات كلام بنى إسرائيل، وينبغى تأويل هذه المعارف مع الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية التى عاصرتها تلك الأحداث. هناك اتفاق عريض بين مختلف تلك المصادر (ولو أن هناك خلافات جذرية فى بعض التفاصيل). كان أهالى إسرائيل الذين قطنوا فلسطين فى ذروة عظمتهم - أيام داوود وسليمان - من أصول شتى شديدة الاختلاف. أحد هذه الأصول كان من رعاة رُحُل ينتمون إلى قبائل تجوب شمال الجزيرة العربية (وقد سكنوا فى إيوم ومؤاب). قبيلة أخرى سكنت فى مصر وتنتمى إلى يوسف. (قد تكون هذه القبيلة قد وفدت إلى مصر أيام الهكسوس، وسمح لها بالبقاء بعد ذلك نظير دفع جزية أيام الأسرة الثامنة عشر، ولكنهم سرعات ما اختلفوا مع فرعون البلاد واضطروهم لترك البلاد تحت قيادة موسى). خلال رحلتهم عبرصحارى سيناء تقابلوا مع أولاد عمومتهم من إيوم ومؤاب وابتدؤا فى غزو

المدن واحتلالها وسيطروا على جزء من أرض كنعان. وَعَدَهُمْ كَهَنَتَهُمْ بِأَرْض تَفِيضُ لَبْنَا وَعَسَلًا، وَالْخَبْزُ فِيهَا وَفَيْرٌ، وَأَسْلَحَتَهُمْ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ نَحَاسٍ (بدلاً من الحجارة). بعد موسى قادهم القائد العسكري يوشع إلى أرض فلسطين وجعلها لهم مستقراً ومقاماً. وجدوا في فلسطين مدن الكنعانيين، يتخللها أراضى العبرانيين الزراعية وبعض القرى المهجورة. اقتلعوا الأشجار وزادوا من مساحة الأراضى الزراعية (حتى تم تجريد أرض فلسطين تماماً من الأشجار). كانت قبائل أخرى من الرعاة تتغلغل في فلسطين. كانت سطوة اليهود الذين دخلوا أراضى فلسطين بشعة وكان تدميرهم لها بالغا:

- جميع مدن الحيثيين والأموريين والكنعانيين تم تدميرها عن بكرة أبيها.
- جميع المدن المتطرفة خير أهلها بين الاستعباد الكامل
- وإن رفضوا، يقتل كل رجل منهم وتستثنى النساء والأطفال والماشية

تم هذا التدمير على عدة أجيال. كانت من تُتخذُ زوجة من النساء يتم تحريرها ثم تندمج في المجتمع. وبقي الكهنة والمحاربون من بنى إسرائيل هم الطبقة الحاكمة. تعددت حرف اليهود، وكانت تتوارث في العائلات. عمل بنونيامين في إحدى القرى في أعمال الخشب والمعادن، وازدهرت صناعة النسيج وصياغته في قرية أخرى. وفي أورشليم كان هناك شارع للخبازين وفناء لمقصرى النسيج الصوفى، وحى للصباغة، وهكذا نشأت تجمعات مختلفة للمهن: كان لكل حرفة أو تجارة طائفة أو ما يشبه النقابة التي تجمع أهلها، وكان لهم كبير يرأسهم، ثم أنشأت مختلف الحرف فيما بعد مقابرها الخاصة. كان التجار في مبدأ الأمر من الأعراب - من الفينيقيين عادة - ثم اندمج التجار فيما بعد في الجنس اليهودى. بدأ هؤلاء التجار من رجال القوافل التي كانت تقطن خارج أورشليم وحدث الاندماج بعد امتصاص التجار في بابل وفي مصر الهيلينستية - عندما صارت التجارة عملاً مشروعاً في المجتمع. كان لهذه الأمة الجديدة توجهات مختلفة وكان إخلاصها لقوى عدة، اعتمدت في بقائها على وحدتها التي حققتها التعاليم الواحدة والطقوس الواحدة لدين واحد، الذي كان يعنى إلهاً واحداً ومعبداً واحداً، أقيم في أول الأمر في خيمة في شيلوح. أول مقدساتهم كان صندوقاً من الخشب سمي «بالتابوت»، ثم تحول ليعنى إلهاً واحداً، الإله الأوجد، الفرد الصمد، ثم كان لهم دستورهم وقوانينهم التي تطبق على الجميع، ثم صار لهم تاريخهم الواحد. صدرت إليهم كل هذه التعليمات من المتحدث باسم الله - يهوه - أى من كبراء كهنتهم الذين ادعوا أنهم ينتمون في أصلهم إلى كبيرهم موسى.

اسم موسى، اسم مصرى، ينتمى إلى عائلة فرعون. بعد زواجه من امرأة حبشية، تزوج موسى من زيبورا، إحدى بنات جترو السبعة، كاهن مدين، وقد شرح له كيف علم بنى إسرائيل وكيف صار

قائدا لهم. مدين تقع على طريق القوافل العربية التي تحمل التوابل والاعطور. وكان أهل مدين هم أول من جلب الجمل إلى الإسرائيليين. كان بعض أهل مدين من الحدادين الذين تولوا صنع السيوف وياقى الأسلحة للمحاربين العرب وكانوا يرحلون معهم في تجوالهم. ينتمى كهنة بنى إسرائيل إلى أخيه هارون ويدعون أنهم من أبناء ليفى أحد أولاد يعقوب (اللاويين) ولكن كثير من أسماء أولئك الكهنة أسماء مصرية (مثل اسم هوفنى واسم فينجاس من أحفاد إيلى)، مما يعنى أن كهنة اليهود كانوا على اتصال بكهنة الشعوب المجاورة، وتأثروا بهم (وإن حرصوا على إخفاء هذه الحقيقة). عمد كهنة بنى إسرائيل على نسج الأساطير وسكبتها لتخدم أهدافا اجتماعية ودينية وسياسية.

خلال سبعة أو ثمانية أجيال بعد استقرار اليهود في فلسطين طوّر الكهنة اليهود، من ذرية ليفى، أفكار قومهم، في غيبة ملكية تجمعهم، لتزيد من تماسك اليهود وتؤكد وحدتهم، وضعوا فى أذهانهم أنهم جميعا من ذرية يعقوب - إسرائيل - ولذا كلهم بنى إسرائيل، إسرائيل الذى أخذ عهدا من الله، وانتقل ذلك العهد من هذا الشيخ الجليل إلى ذريته من بعده وإلى جميع خدامهم المهتمين حديثا (داخل أسوار مدينهم). هؤلاء هم القوم الذين سموا «اليهود».

كان عدد قبائل إسرائيل اثنتا عشر (نفس عدد شهور السنة) وكانت كل قبيلة تتولى رعاية التابوت شهرا من شهور السنة، وتنتمى كل قبيلة إلى ابن من أبناء يعقوب. فقدت قبيلة روبين - وهى قبيلة من الرعاة - أثناء تجوالها فى الصحراء ولم يتم العثور عليها، وانضم جزء من قبيلة ليفى وقبيلة سيمون إلى باقى القبائل وصاروا جزءا منها. أطلق بنوا إسرائيل لقب كوهين على كهنتهم من الكنعانيين (ومازال هذا اللقب معنا إلى الآن). وهكذا سارت القصص وصدقها الناس فى الأجيال اللاحقة. كانت المهمة التالية للكهنة هى تصنيف القوانين وتنسيقها وجمع التعليمات وعادات القبائل المختلفة وتقاليدها ووضع أسلوب السلوك الذى يقوى الجماعة ويحافظ عليها، ويقال أن هذه القوانين مما أوحى إلى موسى. ومن المؤكد أن تلك التعليمات تناقلها الناس شفويا خلال أجيال متعددة قبل أن تتم كتابتها فى «الكتاب المقدس»، فى الكتب الخمسة الأولى منه. اهتمت تلك الأجيال بدراسة السلوك الاجتماعى للبشر وتحليل أسسه البيولوجية وأثاره على الناس.

نمت الأفكار الأولية لكهنة اليهود خلال ستة قرون قبل تدوينها بالشكل الذى نراها عليه الآن فى سفر تثنية الاشتراع. فى هذه الأثناء تطور الكهنوت بإدماج عناصر جديدة فى المجتمع الإسرائيلى وبالانتقاء المتتالى لكبراء جدد. حلت أسرة هارون محل ذرية موسى، ومسح زانوك داوود بالزيت لتكريسه وإحلاله بالقوة محل صغار اللاويين بعد استئصال شأقتهم. بعد احتلال داوود لأورشليم صار كهنتها الأعلون على باقى كهنة البلاد، وعند بقاء قبائل يهوذا وحدهم فى الأسر بعد هلاك بقية القبائل صاروا وحدهم المتكلمين باسم اليهود بدلا من العبرانيين أو بنى إسرائيل الذين جاؤا منهم.

كان تحول مسار كهنة اليهود يتبع أفكار موسى الأصلية وتعليمات أتباعه. كانت هذه الأفكار تحولا عن عادات الأقدمين وممارستهم وكانت انفصالا عن الماضي. كانت ديانات الشعوب الأخرى كلها، ذات أرباب متعددة ومصورة، وكان الكهنة يقدمون طقوسهم فى المعبد الذى يحوى صور الأرباب وتمثيلهم أمام جماهير المتعبدين. أما لدى اليهود فكان هناك إله واحد، غير مرئى ولا منظور، يطيعه الجميع ويقدهه الناس جميعا، وكهنتهم، بدون أن يراه أحد. نمت كتابة هذه الطقوس الدينية وتم تدوين تلك الشعائر الموسوية بعد فترة الأسر والعبودية، فى نفس توقيت تدوين تاريخ العبرانيين الموجود فى العهد القديم. يظهر هذا التاريخ أن اليهود يتحولون ليصبحوا بشرا غير سائر البشر. من الواضح أن هذه القوانين قد استتبطت من القوانين السابقة فى بابل وفى مصر بأسلاف هؤلاء الكهنة الذين حملوها إلى ذلك المجتمع البدائى. قوانين الزواج والطلاق وتعدد الزوجات والبغاء والعبودية جاءت كلها فى تلك القوانين، ولكن الجديد هو المساواة بين الفقراء والأغنياء فى ظل القانون. هناك حماية الغريب والرقيق. هناك السماح بدخول أى فرد للمجتمع اليهودى طالما كان مطيعا للقوانين ومرور عدة أجيال على قبوله فى المجتمع. التحول الثالث الذى أتى به الاسرائيليون - ويعتبر تحولا عن الماضى - هو رفض كل ممارسة للسحر. كل الاحتفالات الخرافية المقصود بها تغيير أحداث الطبيعة (إلا من خلال الكهنة) كانت ممنوعة. السحرة، والمشعوذون، والعرافون، ومستحضرو الأرواح، وطاردو الأرواح الشريرة بالرقى والتعاويذ، والبصارون، والمتنبئون، والمنجمون، والمتكهنون، ومفسرو الأحلام، وقارئو الطالع، والمُدَّعون بالشفاء أو إلحاق الأذى بهذه الوسائل، الذين يفتنون الناس، كانوا ممنوعين بتاتا من ممارسة هذه الأفعال وإلا عوقبوا عقابا أليما أو حكم عليهم بالموت. كانت ممارسة السحر الأسود وادعاء المقدرة على الإتيان بالمستحيل مرفوضة تماما فى الشريعة اليهودية، حيث كان الإله الأوجد، هو الإله الأعظم، صاحب كل القوى، ولم يكن له شريك فى الملك. وكان يتولى تنفيذ القانون الكاهن الأعظم. غيرت هذه المبادئ ما كان متبعيا فى الأمم السابقة والمعاصرة وهيأت للاستقامة الأخلاقية والفكرية فى مقابل الخرافات والنضوج الواعى بديلا عن الأفكار البدائية الطفولية. هكذا كان القانون الموسوى الذى كان شديدا وصارما على الخرافات والمجتمعات البدائية، ولذا قاومه الناس ورفضوه. بالرغم من هذا استخدم شاوؤل الساحرة لاستحضار روح صمويل، وحصل يوسف على مركزه وثروته من تأويل الأحلام. ما أحدثه القانون الموسوى كان بدء برنامج إصلاحى طموح، لم يتم تحقيقه بعد، رغم انقضاء ثلاثة آلاف عام.

أخضع القانون الأخلاقى للديانة اليهود غرائز الإنسان الفردية لمصلحة المجتمع ككل، المجتمع الذى تحول تدريجيا إلى مزيد من التعقيد، وحقق القانون العدالة بين مختلف البشر وساوى بينهم، حاول القانون تلطيف الألم وتخفيف الرعب الذى أصاب العالم بعد اختراع الأسلحة الحديدية، وحاول الإبقاء على مختلف المجتمعات التى ورثت العالم.

صاحب البرنامج الأخلاقي مجموعة من الطقوس ليس لها ارتباط مقبول بالمبادئ الأخلاقية السالفة. أول تلك الطقوس هو طهارة الأولاد. قد يكون مبدأ الطهارة لدى الأجناس السامية قد نشأ بديلا عن التضحية بالابن عندما أمر أبوه بذبحه. أو قد يكون لإحداث علامة مميزة بين الطبقات عند حكام مصر. وقد يكون لأحداث فروق بين القبائل المختلفة أو الطبقات المختلفة لمنع التزاوج بينها، ويكون هذا تطورا متقدما عن إحداث علامات مميزة في الوجه كما يحدث بين القبائل الإفريقية: صارت عملية طهارة الأولاد - لدى اليهود - علامة لوحدهم بدلا من فرقتهم، إذ كانت متبعة بين كافة القبائل اليهودية مهما اختلف أصلها، كما جاء في الكتاب المقدس «إن الله أمر إبراهيم بطهارة كل طفل نكر يولد في بيت إبراهيم أو يشتري بالمال» ويمنع زواج كل من لم تتم طهارته» وهكذا صارت الطهارة التي بدأت كأحدى علامات القبيلة، أحد تعليمات الديانة، وبدلا من صنع تمثال ليبر عن الرب، صار المعبود يسوم طاعة للرب، منعت تعاليم اليهود هذا الجنس من القرب من الآخرين، في إسبرطة - مثلا - سمح لليهود بالاختلاط بالآخرين، والعمل معهم ولكن لم يسمح لهم بالتزاوج معهم. إلههم كان مختلفا عن باقي الآلهة ولم يسمح لإله اليهود أن ينضم في مجتمع الآلهة إلى باقي الأرباب، حافظ القانون اليهودي على صحة الإنسان واهتم بلباسه وطعامه، وطرق إعداد الحيوانات للطعام. طبقت تلك القوانين - في مبدئها - بين معتقدات الأقدمين وتقاليدهم: العبرانيين والكنعانيين وأهل مدين وغيرهم. تناول الطعام بعيدا عن الآخرين معناه المعيشة بعيدا عنهم ومن ثم التزاوج بعيدا عنهم وعدم الاختلاط بهم، الذي تنشأ عنه العزلة الجينية. رفض المصريون صحبة الرعاة من اليهود - كما عمدت باقي الأمم - وساعد هذا على توحيد جينات اليهود وانفصالها عن بقية البشر. العامل الثالث في القانون اليهودي عمل على النشر المنتقى لتلك الأثام، أي على بذرة إبراهيم وبنى إسرائيل، بزيادة الخصوبة والحفاظ على الذرية، وفي هذا الشأن يتغلب العلم على الخرافة. منع القانون اليهودي - ما كان متبعا في المجتمعات الإنسانية السابقة - من حرمان غشيان المحارم. ثم تدرج في هذا الشأن من أنصاف الأخوات: عندما اغتصب أمنون ابن داوود اخته نصف الشقيقة تamar، انتقم شقيقها لها ولم ينتظر عقاب الكاهن. يشجع القانون الموسوي على الإنجاب بكافة الطرق والوسائل - على عكس ما كان متبعا في كافة الأمم السابقة في الشرق القديم فيحرم اللواط (مضاجعة الذكور) والعلاقات الجنسية الشاذة بين الإنسان والحيوان، والإنماء الذاتي (العادة السرية) ويشجب قتل الأطفال، والبقاء للنساء لليهوديات، والتشبه بالجنس الآخر، ويرفض تماما وبكل قوة الإتيان بهذه المحرمات في أماكن العبادة، منع كل هذه الأشياء يشجع على النسل، كما يشجع عليه مبادئ النظافة التي تحض عليها التعليمات اليهودية. يعفى القانون المتزوج حديثا من الخدمة العسكرية لمدة عام لضمان أن تحمل زوجته ويحكم بأشد العقوبات والتشويه على المرأة التي تقتلع خصى الرجل الذي يشتبك مع

نذجها (بقصد مساعدة ذلك الزوج فى معركة). يحتتم القانون اعتزال الأزواج لنسائهم عند الحد
(لاتقاء الامراض التناسلية)، ويحبذ للرجل أن يتزوج من أرمله أخيه بعد وفاته ليحفظ ميراثه د
العائلة.

باختصار يحبذ القانون الموسوى كل من يطيعه، وتدعم الفقرات الجنسية من هذه التعليم
تكاثر الأفراد وتحض على نمو الجنس اليهودى وإزدياد أعداده (ولا تفعل ذلك بالنسبة للأجذ
الأخرى التى تعبد أربابا مختلفين عن رب اليهود). تتلقى تلك التعليمات الكهنة فى المقام الأول
من يتبعون أوامرهم ويتجنبون نواهيهم فى المقام الثانى، وهكذا ضمنت هذه التعليمات بقاء الج
اليهودى على مر العصور: بقوا فى عهد الأسر وفى عصور الشتات وفى أزمنة الاضطهاد.
ولكن اليهود - دائما - لم يكونوا جنسا واحدا متماثلا، بل ضم أجناسا مختلفة وتتطور دا
ويوضح الجدول رقم (٦) تطور اليهود فى العصور القديمة وأهم الأحداث التى مرت بهم.

جدول رقم (٦)

تطور اليهود منذ عام ١٧٢٠ ق.م.

الأعوام	الحادث
١٧٢٠ - ١٥٥٠ ق.م.	الهكسوس فى مصر
حوالى ١٦٠٠ ق.م.	الغزوة العبرية (يوسف)
١٣٠٠ ق.م.	خروج العبريين من مصر (موسى)
١٢٥٠ ق.م.	احتلال الإسرائيليين لفلسطين (يوشع)
١١٠٠ - ١٠٠٥ ق.م.	نشأة الملكية (صمويل وشاول)
١٠٠٥ ق.م.	مملكة داود وسليمان
٩٢٥ ق.م.	أورشليم تصير بيت المقدس - ظهور الكتابات المقدسة الأولى
٩٢٥ - ٧٢٢ ق.م.	مملكة إسرائيل ويهوذا (أنبياء بنى إسرائيل) - التهديد الآشورى.
٧٢٢ ق.م.	سقوط ساماريا (نفى إسرائيل إلى نينوى)
٥٨٦ ق.م.	سقوط بيت المقدس (نفى يهوذا إلى بابل - نبوختنصر)
٥٨٦ - ٤٥٢ ق.م.	الأسر البابلى
٥٢٩ ق.م.	قورش يفرق أسر اليهود ويبدأ العودة إلى بيت المقدس وإعادة بناء المعبد.
٤٥٠ ق.م.	انتشار المستعمرات الإسرائيلية فى أنحاء الإمبراطورية الفارسية
حوالى ٢٣٠ ق.م.	بناء مدينة الإسكندرية مع ضمان الامتيازات اليهودية
٢٨٠ ق.م.	ترجمة كتب موسى إلى الإغريقية (أسفار موسى الخمسة الأولى من العهد القديم).

هناك أربعة أحداث هامة مرت بفلسطين في العصر القديم، أولها انشاء مملكة موحدية عاصمتها اورشليم بواسطة الملك داوود. ثانيها تقسيم تلك المملكة إلى مملكتين، اختصت قبيلتان بمملكة يهوذا واختصت القبائل العشرة الأخرى بمملكة اسرائيل واتخذت لها عاصمة في سماريا. الحدث الثالث هو ترحيل أهالي إسرائيل إلى نينوى وأهالي يهوذا إلى بابل، ورابع هذه الأحداث كان عودة اليهود من بابل بعد فك أسرهم والإفراج عنهم. في منقاهم، بدأ الملك داوود كقائد للمرتزقة الفلسطينيين (الذي جاءوا للبلاد عن طريق البحر وكانوا يتقنون صناعة السيوف والرماح من الحديد واحتفظوا بسر الصناعة لأنفسهم ولم يعلموها لليهود). لا يعرف بدقة أصل داوود ولا منشؤه، ولكنه حاز على التأييد الحريى للقبائل وعلى مباركة اللاويين لتنفيذ خطة متكاملة، عسكرية وسياسية. انقلب على زعماء الفلسطينيين وطردهم ثم استولى على المقام المقدس في اورشليم ثم عين طائفة أخرى من الكهنة (من بيت زانوك) في عاصمته الجديدة. عزز داوود مركزه بالزواج من بنات عدد كبير من صفار الملوك، ومن ثم وحد أراضي فلسطين كلها تحت حكمه. وسع ابنه سليمان من بعده مملكته وجعلها امبراطورية تمتد من نهر أروونتس إلى خليج العقبة وشملت مناجم النحاس الشهيرة. عقد سليمان المعاهدات مع عظماء الملوك وتزوج بناتهم ووسع التجارة في جميع أنحاء فلسطين بشكل لم يعهد من قبل. تحققت هذه الانتصارات من جمع القوة العسكرية والأسلحة المتقدمة للفلسطينيين مع الكثرة العددية لليهود، والحكمة السياسية التي تمتع بها. كانت النتائج تفوق مقدرة الأهالي على استيعابها وتتعدى تقاليدهم الدينية. لم يكن الزواج السياسي مع الأجانب مقبولا لديهم ولم يكن استيراد آلهة أغراب عن إلههم الواحد شيئا يمكن السكوت عليه. كان استخدام جنود مرتزقة من الأجانب يحمل أثارا مدمرة على كيانها وعلى قوانينهم التي حرصوا على تطبيقها بكل دقة. فقد نقاء معتقداتهم وضاعت هيبة كهانهم، ونشأ الخلاف بين الملوك والأخبار. قلل الكهنة من شأن المكاسب المادية الدنيوية وأثاروا الجماهير لتغلغل الأجانب في مجتمعهم. ظهر داوود في التاريخ كبطل مقدم له سلوك مشين وسطع سليمان لحكمته وحسن إدارته للأمور، وعزى ثراؤه الشديد لتصريفه الحكيم لشئون المملكة، تنسب بعض عيون الأدب اليهودى لكل منهما، ويعاب عليهما الاستهانة بتعاليم كهنة اليهود (وينسب لكل منهما أنه أطلق على أحد أبنائه الاسم البغيض «بعل» وهو اسم لأحد آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين). من الطبيعي أن يتمخض هذا الصراع بين الدين والدولة عن انحلال الإمبراطورية، وتقسيمها إلى مملكتين. احتفظت المملكة الجنوبية بالمقام المقدس في عاصمتها، الذي تم وضعه في معبد بناه الفنانون الكنعانيون طبقا لتصميم مصرى. أما المملكة الشمالية فقد دب فيها الفساد لصلاتها المشبوهة بملكات فينيقيا وكهنة بعل، وسقطت تباعا تحت النهب المتتالى للغزاة الشماليين.

استمر الصراع بين التعليمات الدينية وبين الغزاة من الأجانب مستمرا في كلتا المملكتين لعدة أجيال، حتى انتهى بسقوط الجميع ووقوعهم في الأسر ونفيهم من أرض كنعان.

قبض نبوختنصر على معظم أفراد العائلة المالكة في اورشليم، وعلى خلاصة المحاربين والحرفيين، وعين محلهم ملوك خونة اشتركوا في حكومات دموية، ولم يتبق هناك سوى أفقر الخلق. فر بعضهم إلى مصر (وإلى غيرها من البلاد) وبعد العودة من المنفى وُجد قلائل من نبلاء يهوذا لاستلام الحكم. اختفت قبائل إسرائيل كما ضاع ٢٧٢٩٠ أسيرا من ساماريا (بعد أن فقدوا دينهم) وتم امتصاصهم مع باقى الأفراد فى الديانات الأخرى فى الامبراطورية الآشورية. لم يتبق سوى حكام يهوذا (وكهنتها)، ولم يحتفظ غيرهم بالديانة اليهودية. وهكذا بقوا على مر الزمن كمجتمع وكجنس. بعد العودة من المنفى انقسم اليهود لأقسام عدة: بعضهم ظل في بابل وبعضهم عاد إلى اورشليم وبعضهم تشتت في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية، مكونين مستعمرات من التجار (الذين ظلوا تجارا)، أو صاروا جنودا (فى إلفنتين بمصر، ثم اختفوا) أو أقاموا بالأسكندرية ورحبوا بمقدم الاسكندر الأكبر عند بدايه العهد الجديد. اليهود الذين أقاموا فى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الفارسية هم وحدهم الذين ظلوا على قيد الحياة وأمكن تتبعهم منذ فجر التاريخ. كان دينهم في أيديهم (أو فى أيدي معلمهم)، وظل محفوظا وغير قابل للتدمير. كان لهم وضع فريد فى المجتمعات التى أقاموا بينها. لم يكونوا أمة، ولم يكونوا طبقة، بل كانوا جماعة تميزت بالمهارة اليدوية والعقلية الذكية، اختلفت عن باقى الجماعات فى نقطتين. أولهما أنهم انعزلوا عن التزاوج مع كل ماونهم من الجماعات، وثانيهما أنهم تحرروا تماما من سيطرة أقرانهم من الحكام العسكريين. كان مفكرو اليهود أحرارا تماما، وسخروا هذه الحرية لخدمة أبناء جنسهم. أعادوا كتابة تاريخهم واستخدموه لتطوير قوانينهم. أعادوا تنظيم أيام الأسبوع السبعة (وكان هذا من عمل الكاتب عزرا حوالى سنة ٤٤٥ ق.م.)، وكان هذا العمل من أكثر إنجازات اليهود خلودا. استعار عزرا من البابليين اسم «شاباتو»، يوم القمر البدر، يوم الفرحة والبهجة وجعله اليوم العبرى «الشبت»، وجعله يوما للراحة والعبادة يحل كل أسبوع بغض النظر عن كونه يوما مقمرا أو معتما، ثم أكمل عمله واستخرج من سفر التكوين قصة الخليقة، ومن سفر الخروج الوصايا العشر لموسى ووضع ناموسا لايمكن الرجوع عنه (الآن بعد مرور ١٢٠ ألف أسبوع ومن الصعب التفوق عليه حتى نهاية العالم). فى نفس الوقت، فى البلاط الفارسى، تم انتقاء المفكرين اليهود فى الحال، ولعبوا دورا هاما فى التاريخ، دورا قدره الملوك وحسدهم عليه بقية الخلق. لكى يتمكن اليهود من بلوغ هذه الدرجة من النجاح كان عليهم أن

يغيروا من اتجاهاتهم. كان عليهم الحفاظ على دينهم ورفض كل الأديان الأخرى للبقاء، ولكنهم قبلوا الغريباء وتعايشوا معهم. وتوضع كتابات أنبياء اليهود كيف وصلوا إلى هذا التكيف، خاصة كتابات النبي حزقيل.

عمل اللاويون على حفظ مقدسات اليهود وكتابة قوانينهم وحفظها في السجلات. بعد نشأة الملكية صار لهم المركز الرفيع وكانوا صنيعة الملك ومن الموالين له، وهكذا صار الكهنة مؤسسة من مؤسسات الدولة، ولذا عندما تولى جيروباوم اضطر لتبديل الكهنة في مملكته، واتخذ هؤلاء مقدسات جديدة لليهود، وتغيرت معها خصائص الشعب اليهودي، وبدأ الاحتجاج في جميع طبقات المجتمع على أخطاء الحكم وعلى خيانة تراث الشعب اليهودي. ظهرت الأصولية اليهودية كأشد ماتكون: ظهرت جماعة - تعود في أصلها إلى الرعيان - ترفض المعيشة في المنازل وفلاحة الحقول وشرب الخمر. وكان الداعون لهذه المبادئ هم من أطلق الناس عليهم اسم «أنبياء بنى إسرائيل» وكانوا مقدمة لأخرين من المعلمين الذين ظهروا بينهم. جاء هؤلاء - الأنبياء - من جميع فصائل المجتمع. كان بعضهم من الفلاحين الأثرياء (مثل إيشا) وبعضهم من الفلاحين الفقراء (مثل مكياج)، وبعضهم من الفلاحين وبعضهم من الرعاة (مثل أموس). جيرمياح وحزقيل كانوا من اللاويين، وكان أسياح من سكان مدينة أورشليم. كان كل من هؤلاء يؤمن برسالة ويدعو لفكرة ويحاول إقناع الناس باتباعها. ما فعله هؤلاء الناس كان فريدا في هذا الزمن القديم. كان الأنبياء يتحدثون بحديث ويكتبون أفكارا مخالفة للمؤسسة الحاكمة، وقد بقيت كتاباتهم على مر الزمن. حفظها أتباعهم لأنها كانت شعرا رقيقا، يحوى أفكارا اجتماعية عميقة ذا مغزى تاريخي عظيم. أحدث هؤلاء الدعاة انقسامًا عميقًا بين الحكام والمحكومين، وكان أساس الهوية هو الصراع بين القوة السياسية والوحدة الدينية. قطع إليا التحالف مع فينيقيا (وفقدت الدولتان استقلالهما)، وتم وضع جبر مياه في السجن لأنه تنبأ بالمصيبة القادمة، وتم قتل عدد كبير من هؤلاء الأنبياء. إزداد شأن الأنبياء واليهود في الأسر، بعد أن تحرروا من جبروت السلطة الحاكمة: اتسعت أفقهم - كما يظهر في كتابات حزقيل وأسياح الثاني - وظهر العمق في أفكارهم، وظهر للعيان ما كان مستترا من منجزاتهم. أهم ما جاء به أنبياء بنى إسرائيل هو رفض الآثار العاجلة للسياسيين في سبيل المصلحة الدائمة والأجلة للشعب، مع شجب كل صنوف الفساد. ما أكده أولئك الفلاسفة في المنفى هو أن الحفاظ على الدين والطقوس والقوانين والتعليمات هو السبيل للحفاظ على الشعب اليهودي بأكثر مما تستطيع قوة الدولة البابلية، الحفاظ على عظمة الامبراطورية. كانت هذه دعوة للعمل بالإضافة إلى أبعادها الروحية، وقد تجحت وثبتت صحتها فقد سقطت الدولة البابلية وبقي اليهود. حافظ أنبياء بنى إسرائيل على الأمة اليهودية، وحافظت الأمة اليهودية على أنبياء بنى إسرائيل.

تزعم الأساطير اليهودية أن اليهود ينتمون مباشرة إلى آدم، ويختصرون سبعة آلاف عام إلى نصف هذه المدة ليثبتوا الصلة المباشرة بآدم. يحيل اليهود كل التاريخ إلى صراعات ثنائية: بين قابيل وهايل، بين إبراهيم ولوط، بين إسحاق وإسماعيل، بين التوأم يعقوب وأساو، وأخيرا بين يوسف وأخواته. كذلك فهناك أنتقاء بين أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافت، ومازالت أسماء أبناء سام: آشور، إلام، وأرام تستخدم حتى يومنا هذا (وتعبر عن الاضطهاد أو العبودية). تعبر هذه التقسيمات عن تصنيفات عرقية بين إخوة، وبين القبائل التي نشأت منهم وبينها فروق في طريقة الحياة وفي العادات والتقاليد مع استقرار الناس أو تفرقهم، بين الحياة المستقرة في الزراعة والحياة المتنقلة في الرعي. يحمل تاريخ اليهود كله انتقاء ثم تكاثر في أحد الفروع. ضمرت ذرية موسى واختفت بينما ازدهرت ذرية هارون وتولت القيادة الدينية لليهود، ثم أحل حزيقل نفسه فرع زادوك محل اللاويين العاديين وهكذا. كان أسياخ الأول، ومن بعده حزيقل هو الذي نادى بمبدأ «البقاء للبقايا» (وفي هذا يشابه المبدأ البيولوجي الذي يقرر أن «البقاء للأصلح»). وأثبتت الأحداث التاريخية المتتالية صحة هذا المبدأ (مثل بقاء مملكة يهوذا بعد فناء مملكة إسرائيل). أكدت طريقة معيشة اليهود في الأسر قاعدة «الغربة» لإلقاء ما يسقط في الطريق والحفاظ على ما يستحق البقاء، الحفاظ على القوانين اليهودية والتمسك بها بكل قوة وحزم، كما وضعها الأحبار - حافظت على جماعة من اليهود داخل الممالك المختلفة ومنعتها من الذويان فيها وابتلاعها حتى عهدنا الحاضر (كما يلاحظ الزائرون لقبر عزرا في حمدان). تآتى هذه القواعد - كما وضعها جيرميا - هو محاولة المعيشة في سلام في المدن التي يتشتتون فيها، أى يتعودون على الحياة في المجتمعات التي يغلب عليها غير اليهود ويتكيفون معها ويتعلمون الإسهام تدريجيا في رخاء تلك المجتمعات التي يتعاقب على حكمها الغرباء. يعنى هذا إحرار النجاح لطائفة من الأمة فضلت التعاون بدلا من التصادم والعودة إلى أورشليم. هذه القاعدة كانت «غربة»، بطريق ما انتقت اليهود الذين يريدون العودة من اليهود الذين يفضلون البقاء في الغربة. استمر اليهود - هكذا - في حالة تغير مستمرة، يفقدون بعض عناصرهم القديمة ويكتسبون عناصر أخرى جديدة. نشأت طبقة جديدة من الكهنة - تحت الحكم الفارسي - وتولوا القيادة في أورشليم، ثم نشأت فئة من المفكرين تحت تأثير الفلاسفة الإغريق، وحل الأحبار الفاريز بين محل الكهنة البدائيين الذين اختفوا بعد تحطيم الرومان لمعبيهم سنة ٧٠ ب.م.

كان انتصار الشعب اليهود في أثناء الأسر البابلي والفارسي نتيجة للتطور الجيني الذي يمكن ملاحظته وتتبعه. إذا طالعنا تقريرا عن غزو يوشع للأرض الموعودة لانجده مختلفا عما يفعله أى جبار عند انتصاراته من قتل الأعداء وتدميرهم واستبعادهم، أما إذا قرأنا الدستور الذي جاء به سفرتشية الاشتراع وطالعنا قواعد معاملة العبيد لرأينا المبادئ الرحيمة البابلية القديمة قد عاودت

الظهور، وشاهدنا التحسينات التي دخلت على قوانين هامورابي. بالإمكان اتخاذ الأمة الأجتبية عشيقية، ولكن ذريتها تقبل في المجتمع اليهودي، وهكذا تتسع الحلقة اليهودية ويحدث التهجين الذي يعقبه التطور. التطور الذي يخضع للتقاليد (أو بالرجوع إلى أصول التوراه)، وللقانون وللتنوير (كما أفاد عزرا). اختفت قبائل اليهود العشرة التي لم تخضع للأصول، من التاريخ، ولكن جدت أمور أخرى وقامت الثورات. نشأ عن محنة الأسر ازدياد تمسك اليهود بتعاليمهم الدينية وظهرت الأهمية التطبيقية لهذه التعليمات. عندما أعاد عزرا الكتب إلى أورشليم في منتصف القرن الخامس ق.م.، تمت قراءتها في معابد أقيمت خصيصا لهذا الغرض، وارتفع مستوى التدريس، وزادت الثقافة وحل التنوير، وظهر اتجاه عقلاني جديد للدين. استبدلت الطقوس التي تمارس في المعابد، وحل محل الكهنة التقليديين المدرسون العالمون الذين بإمكانهم تبادل الحوار مع جمهور المصلين، وتحول الناس - لأول مرة - إلى دارسين للتاريخ والدين ومكارم الأخلاق. نتيجة لهذه الممارسات، وللرجال الذين قاموا بهذا التعليم بأنفسهم، تمت الخطوة التالية في خلق الأمة اليهودية، وبدأ الإسرائيليون يشكلون تاريخهم ويدفعونه للأمام دفعا. تتضح ذروة هذا الاندفاع في كتاب أيوب (الذي كتب بعد انتصارات الاسكندر الأكبر)، ثم في بعثة عيسى وفي كتابات بولس. هكذا تمت كتابة الكتاب المقدس، الذي يعتبر تحفة أدبية رائعة وقمة من قمم الإنسانية. حوى الكتاب المقدس كل صنوف الأدب (باستثناء الكوميديا التي غطتها الآداب الإغريقية المعاصرة لكتاب أيوب).

الباب الرابع

نشأة الامبراطوريات

الامبراطورية الفارسية

نشأت في الهضبة الكبرى شمال وشرق أرض الرافدين أقدم المستعمرات الزراعية. خلال الألف سنة الرابعة قبل الميلاد، تبادل سكانها مع أثرياء أرض الجزيرة مصنوعاتهم وتجارتهم، وعلمهم الكتاب القادمون من سومر مبادئ الكتابة في الألف سنة الثالثة ق.م.، ثم بدأت الحروف التصويرية تستبدل بالحروف المسماة، وربما تكون عجلة الفخارنى وفرنه لحرق الفخار قد بدأت فى إيلام. أتت الألف الثانية ق.م. بالأسلحة البرونزية بديلا عن التجارة كوسيلة لاختلاط الناس وتبادل الأفكار والأنساب. بدأت الحرب أولا بين بابل وإيلام ثم انتشرت شمالا وتبادلت الأسر الحاكمة بين المرتفعات والسهول الانتصارات في الحروب ثم التزاوج لإقرار السلام. فى هذا الوقت بدأت التحركات الكبرى للجنس الأرى من شرقى بحر قزوين نحو الجنوب، التحركات التى أعطت اسم إيران للمنطقة بأسرها. استمرت هذه الهجرات على مدى ألف عام واشتركت عدة قبائل فيها. شكلت القبائل الشرقية الهند وتسللت أعداد كبيرة إلى إيران. كان الغزاة الأولون سلميين فى تغلغلهم، ثم كثرت أعدادهم وصاروا محاربين - مثل جماعات الميديين والفارسيين خلال القرن الثامن ق.م. توغلت قوات خفيفة وسريعة من الكيئين والكيمييين حتى وصلت إلى مصر. يعزى النجاح العظيم الذى حققته تلك القوات السالفة إلى خيلهم القوية وإلى رماتهم البارعين. كانت هذه القوات هى أول من بدع سلاح الفرسان، ومن بعدهم قلدتهم الأشوريون وحذا حنوهم الإغريق ثم الرومان، وثبت أن الجنود الراكبين على ظهور الخيل هم العامل الحاسم فى الحروب، يحول أولئك الغزاة قرى المزارعين القديمة إلى معسكرات حصينة يحكمها طبقة من العسكريين الإريانيين تولوا إخضاع البلاد والدفاع عنها. نتج عن التهجين الذى حدث بين الإريان الغزاة الفاتحين وبين أهل البلاد الأصليين من المزارعين ومن زاولوا الصيد والقنص آثار بعيدة المدى، وحيوية فائقة، على المستويين الاقتصادى والعسكرى، وكذلك على مستوى الحرف والفنون، فقد ظهرت فى القرن الثامن ق.م. مصنوعات من البرونز تبيّن مهارة الحرفيين من الأشوريين الذين عملوا تحت توجيه الرؤساء السكيثانيين. كان انتصار سارجون الأشورى على

مملكة الميديين هو النجاح الأخير الذى أحرزته حضارة بلاد الرافدين ضد القوى المتعاضمة للوافدين الجدد. بعد قرن من الزمان كان ما تعلمه الميديون من الآشوريين، وما اكتسبوه ممن تغلبوا عليهم - ومنهم كثير من النساء - كافيا ليقلبوا عليهم المائدة. فى عام ٦١٢ ق.م. تحالف الميديون مع البابليين. تغلبوا على نينوى، وسرعان ما ضموا إليها الأجزاء المجاورة من أرمينيا ومن بلاد فارس واخضعوها لحكمهم، وجعلوا عاصمتهم فى إكيتانا (مدينة حمدان اليوم) حيث كان موضع قصر اجتماعات الميديين، على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، الذى حصنوه ليقاوم أى عنوان من الآشوريين فى المستقبل، وكان بعيدا عن خط مرور القوافل التجارية وتحركات القوات العسكرية. كانت مملكة الميديين هى العمل التمهيدى ومقدمة للإمبراطورية الفارسية والتي تبعت تلك المملكة بعد ستين عاما.

حوالى سنة ٧٠٠ ق.م.، نشأ حاكم قبيلة فى واد بعيد معروف لديهم باسم «بارسوماش» (ويعرف الآن باسم لوريستان) وأطلق على قومه اسم «الفرس». وكان اسمه «أخامينين» (كما نقله لنا الإغريق). كان حفيد هذا الرجل يدعى «أريارامنس»، وهو أول من ترك لنا أول ما خطه إنسان باللغة الفارسية من ملك الفرس، وكان وصفه لبلاده «بلاد بها خيل جميلة وبشر أفاضل طبيون»، وسرعان ما تاكدت هذه العبارة. كتبت هذه العبارات بالأبجدية الفارسية، بالخط المسماى، الذى كان جديدا على بلاد فارس. من الواضح أن حاكما فارسيا قد التقى أحد الكتبة البابليين وفى الحال اتخذ القرار بكتابة لغته، واستخدام أحدث الخطوط فى كتابتها، وهكذا كان حسمه السريع فى هذا القرار مؤشرا لنجاح أسرته فى بلوغ شأنا عظيما بعد أجيال قليلة. بعد أربعة أجيال تزوج ابن أخ أريارامنس، قمييز الأول، من ابنة ملك الميديين، وهكذا توحدت الأسرتان المليكتان، ونشأ عن هذه الوحدة آثار بالغة الأثر (حسب قول هيرودوت). أنتجت الوحدة حيوية فائقة فى الأسرة المالكة مع ضمان الملك والحفاظ عليه مستقرا. بعد ستة أعوام من اعتلاء عرش الإمارة، كون قورش، الأمير الجديد، اتحادا يضم سبعة أقاليم ثم ثار على جده واستولى على العرش. لم يدمر قورش مدينة اكبثانا ولم يقتل سكانها، بل عاملهم كأصدقاء واستخدمهم كمعاونين، وجعل من المدينة عاصمة لمملكته وصار ملكا لشعبين متساويين، الميديين والفارسين. أعقب هذا النجاح الأولى سلسلة متتالية من الانتصارات. هزم وقبض على كروسس، ملك ليديا، ثم حرره، ثم استولى على الإمبراطورية البابلية، واتخذ من بابل عاصمة لبلاده. لحماية حدوده الشرقية أخضع بارثيا وتغلغل حتى سمرقند. ثم أضاف عاصمة ثالثة لمملكته، مدينة سوسة، عاصمة إيلام القديمة التى تقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب غرب مدينة ديزفول الحالية، حيث تلتقى الجبال مع السهول وحيث تجرى أربعة أنهار لتصب فى الخليج الفارسى. صار المكان - الذى ظل طوال ثلاثة آلاف عام - السوق التى تشتري منها الجيوش احتياجاتها، وتدخل منه الأفكار إلى بلاد الفرس، صار هذا المكان مركز التقاء اتحاد عظيم من البشر اتحدوا تحت قيادة

حاكم واحد. يرجع نجاح قوروش إلى مهارته الحربية ودبلوماسيته الحكيمة، لم يجاربه في حذقه محاربو ليديا ولافرسان الإغريق، ولم تتفوق الجيوش المختلفة على ركبته سريعة التحرك ولا على فرق جماله الحربية. كلما صادف المنتصر نجاحا عدل من خطه لاستغلال إمكاناته الجديدة التي صارت في حوزته. سقطت المستعمرات الإغريقية في الأناضول واحدة تلو الأخرى في معارك حربية أو نتيجة الرشوة والفساد (خاصة الذي أصاب كهنة دلفي) أو من المعلومات السرية التي جمعها التجار وبلغوها لقائد فارس (التي صارت أكبر سوق حرة في العالم). مات قوروش وهو يحارب على الحدود الشرقية لامبراطوريته، تاركا ملكا عظيما وامبراطورية شاسعة لخلفائه. احتل خليفته قبيز الثاني (الذي بدأ حكمه باغتيال أخيه) مصر، ثم تزوج أخته. بعد وفاة قبيز ووفاء شقيقه، انتقل الحكم إلى ابن عمه (الحفيد الأكبر لأريارمنس)، دارا العظيم.

أثبت دارا أنه حاكم بارع وعظيم مثل قوروش العظيم مؤسس الأسرة الحاكمة الفارسية. كان حازما في إدارته لشئون الحكم وفي حسن تصريفه للأمور. نعرف تاريخ هذا الملك أساسا من النقش المكتوب بلغات ثلاثة في بيسيتون، التي تقع في منتصف المسافة على الطريق الرئيسية لكباتانا وبابل (أو في منتصف المسافة بين الصين وساحل البحر المتوسط)، يعلن هذا النقش: ليكن معلوما لجميع أهالي بابل وإيلاميت وفارس منجزات ملك الملوك، وكيف أنقذ مملكته من التفكك وكيف أعاد الضبط والربط إليها وصارت ثانية خاضعة لملكه بعد أن هزم ثمانية ملوك في ستة عشر معركة. وقد أكدت هذه الوقائع جمع القرائن الأخرى. ما جعل دارا ملكا عظيما هو أنه عرف إمكانات الآخرين وكان لديه الاستعداد الكامل لاستخدامهم، كل في موقعه وكل حسب مؤهلاته. استغل مهارة الآخرين واستفاد من إبداع كل شخص في مملكته وجعله هذا باكورة لعهد جديد، وإعادة بناء الإمبراطورية التي أنشأها جده العظيم قوروش. حكم رجل واحد إمبراطورية مترامية الأطراف. كانت مشكلة دارا الأولى هي كيف يسيطر على دولة يبلغ اتساعها ألفي ميل من عواصم تبعد عن مراكزها الاستراتيجية والتجارية. الحلول التي بدعها - والتي تبعها من بعده حكام الامبراطوريات الشاسعة - تلخصت في ثلاثة مبادئ: اللامركزية، وسهولة المواصلات ويسر الاتصالات، وقبول الآراء المختلفة وتحملها. كانت لديه من أول الأمر ثلاثة عواصم، ثم أضيفت لها عاصمة رابعة - تخت جمشيد - لتقام فيها الاحتفالات العظيمة. قسم دارا امبراطوريته إلى عشرين مقاطعة، وعين لها حكاما عسكريين فارسيين مع وضع ضباط فارسيين في كل مدينة من مدن الإمبراطورية. أدار هؤلاء الحكام العسكريون إدارتهم بمعاونة المديرين السابقين الذين خدموا الممالك السابقة. استطاع هؤلاء الاستعانة بالأبجدية الفينيقية، واللغات الآرامية والإغريقية والقوانين البابلية وعملات ليديا والجنود المرتزقة من الإغريق، وكل ما هو متاح في الساحة من التقنيات المتقدمة والتقنين لخدمة الإمبراطورية الفارسية.

لقد كان حسن تنسيقهم للاستفادة، من هؤلاء الأفراد المختلفين والطرق المتباينة والأفكار المتعددة هو الذى مكن الفرس - كما حكى هيرودوت - من بلوغ النجاح الباهر. وضع دارا - داخل ولا حكمه - عددا كبيرا من المديرين المساعدين. كان هناك الولايات المدنية والمجتمعات القروية والأبعديات الشخصية، ومناطق النفوذ الملكية (وتشكل منتزهات الصيد والقنصر). ثم كانت محافظات المدن، وتقع كلها فى غرب البلاد (أما الشرق فلم يحوى سوى القرى). لم تكن تلك الولاة تحكم على نمط حكم المدن اليونانية فى أيام غلبة الديمقراطية، بل كانت تحكم بطغاة كانوا على دة وثيقة بأحوالها وكان يتم تعيينهم للالتزام بتطبيق سياسة الدولة ورغبات ملك الملوك. يسجل لنا فى نقوش - بفخر شديد - قائمة بالأعمال التى أنجزها والعمال الذين استخدمهم للقيام بتلك الأعمال. فيذكر:

١ - الأعمال الخشبية:

كان خشب الأرز يستورد من لبنان - فى فينيقيا - ويصنع بواسطة الآشوريين والكنعانيين والأيونيين. خشب الياك كان يجلب من جنذرة ومن كارمانيا وكان يقوم بشكيله وصناعته المصريين

٢- الأعمال الحجرية:

الاعمدة من إيلام والقاطعات من أيونيا وسارديا.

٣- الطوب:

كان يحرق فى بابل وكانت الحوائط تجمل بواسطة الميدين والمصريين.

٤- الذهب:

كان يجلب من سارديا ومن بكتريا وكان صناع الذهب من الميدين والمصريين.

٥- الأحجار الكريمة:

كانت تجلب من سوجديانا ومن خوارزم.

٦- العاج:

من إثيوبيا ومن السند.

كان الملك مؤمنا بأن عظمته وقوته تتعكس فى كثرة الأمم التى تخضع له وتطيعه بنفس الذى تخدمه وتصنع له مصنوعاته الباهرة. مما لاشك فيه أن تنوع الحرفيين قد أدى إلى اختلا

ولو أن كل جنس كان يحاول أن يحافظ على نقاته العرقى ما أمكنه ذلك، وساعدهم على ذلك الاختلاف ألسنتهم واختلاف مناطق سكنهم وممارستهم لمهنتهم، فقد كانت التعليمات الملكية أن يخصص شارع لكل صناعة (ومازال هذا متبعا لدرجة ما حتى عصرنا الحالى).

اختلف الفارسيون عن سبقهم من الأمم فى اكتساب الحرف والصناعات من غيرهم. للحيثيون - على سبيل المثال - أخذوا أفكارهم فى النحت من البابليين والمصريين، ولكنهم لم يستوردوا نحاتين إذ كانوا يعتقدون أن بإمكانهم القيام بهذا العمل بأنفسهم، ولذا لم يبلغ فن النحت عندهم شأوا عظيما. أما الفارسيون فلم يكرروا هذا الخطأ، واستقدموا خيرة الحرفيين من بلادهم الأصلية وكفؤهم بالقيام بالحرف التى يتقونها، وهكذا حصلنا على الروائع التى نشاهدها فى تخت جمشيد وفى صوصة.

أهم إنجازات ملوك الفرس كانت التسامح الذى ساد نظام حكمهم. بدلا من قطع رقاب الملوك الذين انتصروا عليهم (كما فعل الآشوريون قبلهم وفعل الرومان من بعدهم)، قاموا بحمايتهم، وبعد العفو عنهم قاموا باستخدامهم. فعلوا نفس هذا الشيء مع آلهة أعدائهم: عفوا عنهم ثم استخدموهم. كان هناك عدد لا يحصى من الأجناس المختلفة والديانات المتباينة فى الإمبراطورية الفارسية، كل دين ينتمى إلى جنسية مختلفة. لم يكن الفرس أنفسهم من عبدة الأصنام بل كانوا من عبدة الشمس والقمر والأرض والنار والماء. ولكن قورش، ومن بعده دارا، أعطوا الحرية للأجناس المختلفة الخاضعة لحكمهم فى الاستقلال بعبادتهم. سُمح لليهود - الذين كان لهم وضع خاص يتسم بالعطف والتأييد فى مملكة الفرس - بالعودة إلى أورشليم لإعادة بناء معبدهم. وسمح كذلك بإعادة بناء مدرسة الطب بمعبد سايس فى مصر. السبب فى هذه الحرية الثقافية التى سادت المجتمع هو قلة أعداد الطبقة الحاكمة العسكرية، الذين كانت لهم السلطة الكاملة بلا منازع. استطاعت النولة الفارسية أن تحقق - خلال قرنين من الزمان - ثورة فى التفكير الدينى وفى التركيب الاجتماعى وصهرت كافة المواطنين فى بوتقة واحدة.

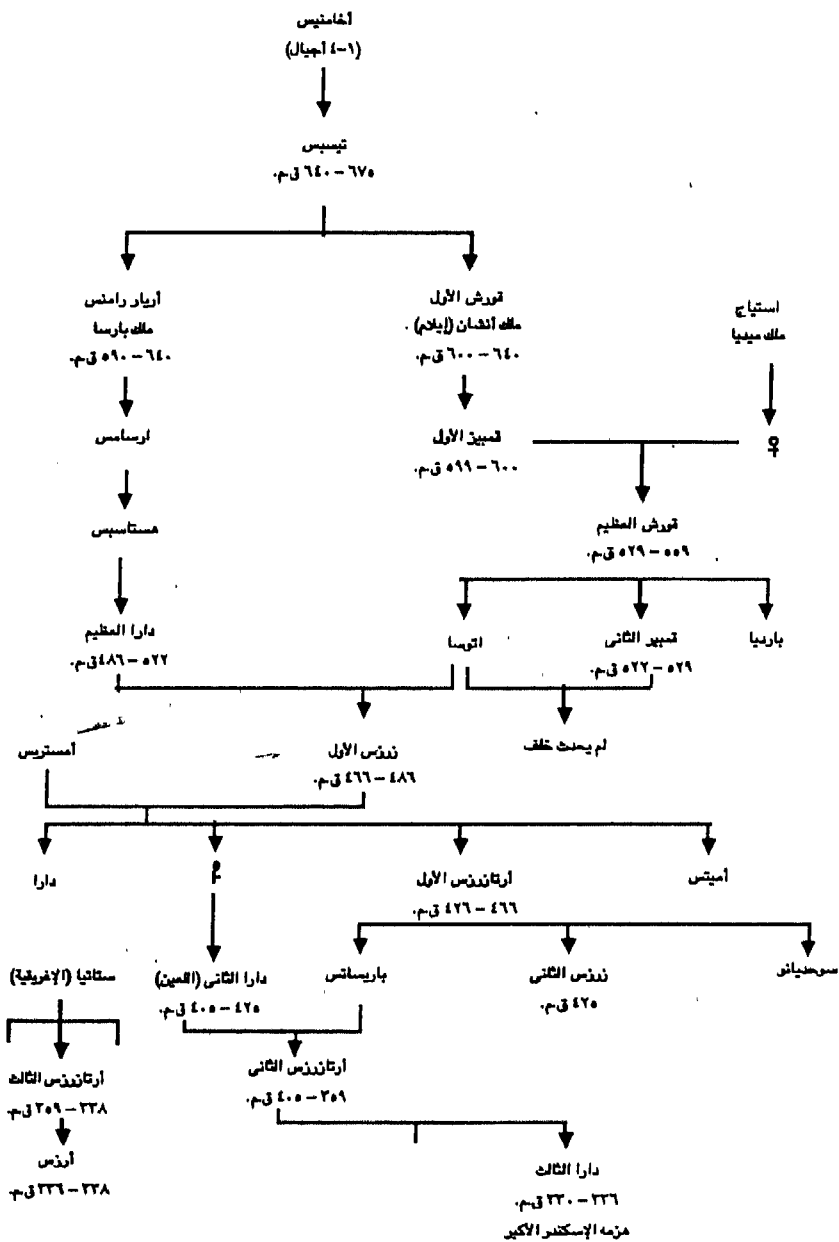
مشاكل خلافة العرش بعد قورش ودارا تركت بلا حل وكانت غاية فى التشابك، واستتعت جهود كبار العاملين فى النولة الذين اكتسبوا سلطة ونفوذاً ومركزاً رفيعاً. للخوف من طمع الطامعين حرص دارا وخلفاؤه على التزاوج من العائلة المالكة حتى لا يخرج العرش منهم. وكما حدث فى أبناء الأسرة الثامنة عشر فى مصر، نشأ عن هذا التزاوج الأسرى، الذى لم يختلط بدم مغاير، ضعف متزايد فى النسل وإلى شنوءة فى الأخلاف مما جعل الحكام التالين يختلفون كلية عن أسلافهم العظام. كان الملكان العظيمان قورش ودارا نتاجا للتزاوج بين عانات ملكية مختلفة. غير قورش نفسه من هذا

النظام وتزوج ابنة عمه التي ولدت له قمييز، الذي قتل أخيه، وتزوج شقيقته أتوسا ثم انتحر تاركا العرش بلا وريث وهكذا اندثر هذا الفرع من العائلة. تزوجت شقيقته وأرملته من ابن عم ثالث لها دارا (أو داريوش). حُرِّم أولاد دارا من زيجات سابقة من توارث عرش أبيهم (لأن أمهاتهم كن من خارج العائلة المالكة)، وهكذا ظل التوارث داخل العائلة في نرية أخامينس. انتقل العرش بعد دارا العظيم إلى زرزس الأول نتاج زواج أولاد العمومة (مثل قمييز). نظرا لقيام الثورات بين أتباعه من الإغريق الأيونيين أعلن الحرب على بقية الإغريق الذين يعيشون في شبه جزيرة المورة. أخطأ في إعلان الحرب عليهم التي استمرت عشرة سنوات من هزيمة أبيه - دارا في معركة ماراثون البرية سنة ٤٩٠ ق.م. - فقد هزم شر هزيمة في معرك سلاميس البحرية عام ٤٨٠ ق.م. فشل زرزس أيضا في سياساته الداخلية - كما فشل في مغامراته الحربية. اضطر زرزس للتضحية بسلام العالم في سبيل الاعتداء على زوجة وعلى ابنة شقيقه المخلص الذي قتله، ثم قُتل هو نفسه بواسطة وزيره الأول الذي وضع خليفة على العرش مكانه. يروي المؤرخ الإغريقي هيروdotus تفاصيل تلك الأحداث، كما تذكر في كتاب إستتر (من العهد القديم)، ولكن لم يأت لها ذكر في كتاب دانيال. يقال أن خليفة زرزس قتل أخواته وتزوج من أخته له. اغتال ثلاثة من أبنائه أسلافهم ولكن من بقي منهم - دارا الثاني، الملقب بدارا اللعين أنجب من زوجته - وهي أخته - ابنين. كان أرتاكزرس الثاني وريثه في العرش ووريث هذا الأخير ارتكزرس الثالث (الذي قتل حفنة كبيرة من إخوته وأخواته). ضعفت المملكة ضعفا كبيرا من جراء القتل والاغتيال والمؤمرات حتى سقطت أخيرا في عهد دارا الثالث على يد الاسكندر الأكبر (جدول رقم ٧).

هكذا نشهد صعود امبراطورية عظيمة من الأخمينيين وامتلاكها لمعظم العالم القديم ونشهد حسن إدارتها للأمر وجودة حكمها في أول الأمر، ثم نشهد هبوطا سريعا لتلك الامبراطورية ودمارها على يد أبنائها، الذين استمرؤا الزواج من بعضهم البعض ولم يدخلوا دما أجنبيا عنهم يزيدهم قوة وصلابة ويكسبهم حكمة وعقلا. خدعتهم أنهم صاروا أكبر قوة في التاريخ، قوة لم يسبقها مثيل، وأعتقدوا أن سفاح القربى والاستيلاء الداخلي وقصر الزواج بينهم في أضيق الحدود، سيحفظ الملك لهم، في نطاق العائلة المالكة واعتقدوا أن اغتيال أقرب أقربائهم سيحفظ الملك للملك، وأن استخداماتهم للخصيان سيحفظ الاخلاص لأشخاصهم والتفاني غير المصحوب بالطموحات في خدمتهم، وأنه سيكون عاصما لهم، ولكن خاب أملهم في كل ما سعوا إليه. أثبتت تسعة أجيال متتالية أن الانتقاء عن طريق الاغتيالات كان مدمرا لتلك الأسرة المالكة في حين أن الانتقاء من بين نسل وافر هو السبيل إلى الاحتفاظ بالحكم. ثبت أن الخصيان دائما يسعون إلى تملك السلطة وتجذبهم شهوة الحكم (كما ثبت مرارا وتكرارا في سجلات التاريخ)، وأن مآزق الملوك والملكات قد تؤدي إلى نفس العواقب السيئة التي تؤدي إليها هجرة الملايين من مواطنيهم، وأن أخطاء الحكام قد تؤدي إلى هلاك الشعوب.

جدول رقم (٧)

شجرة عائلة الأخاميين وسنوات حكم الملوك



لو سلك الفرس مسلك ملوكهم خلال قرنين من الزمان لتراجعت الإنسانية ثانية إلى الظلام وانتهت الحضارة التي بدأها الإنسان في بلاد الرافدين وفي وادي النيل لأمد بعيد. معظم الناس عاشوا في سلام واستمر تقدمهم حثيثا، كأسلافهم، بل وزانوا عليه. كان التركيب السياسي للدولة يتحطم ولكن الحياة الثقافية والاقتصادية للعالم القديم كانت مستمرة في التقدم والازدهار، وساعد على هذا حرية الانتقال من مكان لآخر، خاصة في حرية انتقال النساء. نقل دارا العظيم الدجاج والطاووس وقصب السكر إلى البحر الأبيض المتوسط من الهند، وانتقلت الحروف الأبجدية (الارامية) بالعكس إلى شبه القارة الهندية. بناء على تعليمات دارا نفسه نقل الفرس السمس إلى مصر والأرز إلى أرض الجزيرة، وانتقلت الزراعة على نطاق واسع إلى أوروبا وإلى الهند والصين (واستمرت هذه النقلات الحضارية تتم في خطوات حاسمة حتى عصرنا الحاضر)، وفي كل خطوة يتوسع المحصول وتثرى موارد مختلف المناطق الطبيعية في العالم. كان لانتقال الحيوانات أثر سريع وحاسم. أدخل الفرس خيل الركوب القوية، المحسنة من الميدين إلى جميع أرجاء الامبراطورية الفارسية، وإلى ماعداها، إلى أوروبا في الغرب وإلى الهند والصين في الشرق. بعد قليل أدخلوا زراعة البرسيم ليكون طعاما للخيل. أدخل استخدام الخيل في الحروب قوة عسكرية رهيبية إلى قمم جبال لم يصل إليها الإنسان من قبل ولم يفرض سلطانه عليها. (بدخول هذا السلاح الجديد في الحروب إلى مقبونيا أكسبوا قوة ومكنوها من الانتصار على الفرس أنفسهم فيما بعد). أكسب الحصان قوة لمن تمكن من السيطرة عليه واكتسبت الطبقة التي تمكنت من الاحتفاظ بالخيل سلطانا فوق سلطانها. انقسم الجيش إلى الخيالة، الراكبة، الثرية وإلى الجنود المشاة الفقراء وكانت هذه هي الخطوة الأولى لتقوية مركز الطبقات الحاكمة وتعزيزها ومد سلطانها على بقية الناس، الطبقات التي نشأت - منذ عصر البرونز - من قبائل الرعاة من الساميين والإريانيين. في البداية أدهش قورش العظيم الجميع بهزيمته لخيالة كورسس (وتمكن من هذا باستخدامه للجمال نوات السنامين في المعركة). ثم تمكن قمييز من بعده من استخدام الجمل العربي (الذي قد تم استئناسه منذ ستة قرون وكان يستخدم لنقل التجارة من اليمن إلى مدين في طريق التوابل) وكان أهالي مدين هم الذين يقومون بقيادة الجمال. ثم تكاثرت الجمال وتكاثر مربيها في شمال أفريقيا حتى بلاد البربر (وهناك لقبهم الإغريق وأطلقوا عليهم اسم «اللبو» الهائمون على وجوههم في البلاد). ومن شمال أفريقيا عبرت الجمال ومعها اللبوا الصحراء الكبرى إلى أفريقيا وبدأت تجارة الرقيق من الزنوج، ونشأ جنس جديد من الناس «الطوارق» الملتصقون. انتشرت الجمال أيضا من شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة وإلى الصومال، وأينما ذهب الجمال تبعها الخيل والماعز. نتج عن انتشار الماعز (على وجه الخصوص) في الأرض قليلة المرعى الواقعة على حافة الصحاري كشط كل نباتات تلك المناطق (حيث أنها الحيوانات الوحيدة التي

يمكنها الرعى فى هذه الأماكن مهما قلت نباتاتها)، واتسعت الصحارى وتجردت الأراضى خلال الألفية عام التالية مما يعود بالمصائب على البشر من سكان تلك الأماكن.

كان التحرر الدينى أحد العلامات البارزة فى الحضارة الفارسية القديمة. كان على الكهنة، فى جميع مدن الإمبراطورية الفارسية، أن يواجهوا الجماهير وأن يعرضوا عليهم معتقداتهم وبعدها يقرر الناس أى دين يتبعون وأى مذهب يعتنقون وأى من هؤلاء الكهنة يؤيدون. وقد لعبت اللغات المختلفة دورا هاما فى اجتذاب المؤيدين للدين. لعب الكهنة دورا حاسما فى اجتذاب جماهير المؤيدين لدينهم، وصار التحول من دين لدين أحد ألعيب السياسة. صارت لعبة السياسة لعبة جديدة فى مجتمع جديد وأثرت فى تركيب المجتمع ذاته. تقلصت لحد ما الارتباطات القبلية وأدى اختلاط الأجناس المختلفة لفترة ما إلى تقبل مختلف الأديان. ولكن لعب عاملان هاما فى استمرار تغلب دين على دين. عمل العامل الأول على ربط أفراد الدين بعضهم ببعض وبأسلافهم، وحفظ الصحة وتنظيم الغذاء وشئون الزواج والعلاقات الجنسية بين أفرادهم وزيادة النسل بين أتباعه مع تقبل التسامح الدينى والتعاون الاجتماعى. وعمل العامل الثانى على كسب مزيد من الأفراد لهذا الدين وإظهاره فى صورة جذابة لمتبعيه، وجذب المتحولين من أديان أخرى إليه، أتباع كثيرى العدد، عظيمو الشأن، نوب سلطة ونفوذ ومركز اجتماعى مرموق. ظل التفاعل بين هذين العاملين هو المؤثر الأول فى المجتمعات الغربية وفى تطورها منذ عهد قورش وداريوش. حدثت تطورات حاسمة فى الحكومة الفارسية مع التسامح الدينى. لمت الإمبراطورية الجديدة عددا كبيرا من مختلف الأمم فى مجتمع واحد: الأرمن والإغريق والفينيقيين والمصريين واليهود. عاش الجميع معيشتهم الخاصة بهم واتبعوا التعليمات المفروضة عليهم وتناسلوا مع بنى جنسهم مع الاستفادة البالغة من الوحدة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ككل والتعاون المثمر مع بعضهم البعض. هذا هو شأن الإمبراطوريات العظمى فى جميع عصور التاريخ حتى عهدنا هذا. كان هذا التسامح الدينى عاملا على نشأة مذاهب جديدة فى المجتمع الفارسى. تزايد أتباع هذه المذاهب الجديدة سريعا - خاصة بالتحول من دين إلى دين - خصوصا بين أفراد الإدارة - المدنية والعسكرية - على السواء. من أهم تلك الأديان الناشئة كان دين زرادشت. الدين الزرادشتى - مثل الدين البوذى فى الهند - لم ينشأ من الغزاة الإريانيين، ولكن من الطوائف المحلية فى البلد. كلا الدينين يرفضان إراقة الدماء - كقربان، ويدعون إلى أخوة كافة البشر. نشأت تعاليم زرادشت فى أرض الميديين عندما هاجمها الآشوريون واحتلوها. طُرد زرادشت نفسه من موطنه وهاجر إلى الشرق، وحمى الحكام الأخيميون هذا الدين الجديد منذ بدايته وظل مزدهرا فى بداية حكمهم، ولكن بعد خمسة أجيال - مع انحلال الحكام الفرس وتدهورهم - بدأوا وبدأ كهنتهم يتجهون إلى عبادة الأصنام. ما حدث هو انقسام فى مذهب زرادشت بين مجموعتين،

اتجهت الأولى إلى النقاء بينما اهتمت الثانية بالانتشار. اعتنقت الأقلية - من المهنيين والمفكرين واللاجئين من خارج البلاد - حركة النقاء الديني (مثل حركة البارسي في الهند). وتبنت قبيلة «ماجي» حركة الانتشار وتزعمها الكهان الذين ابتدعوا عبادة الأصنام. أشهر أولئك الأصنام كان «ميترا» الذي ظهر إبان حكم أرتازرذس الثاني، والذي كان يعتبر رسول الإله ثم تطور ليصير الإله نفسه (وهذا التطور في المسيحية ذاتها). أثرت إحدى أفكار زرادشت تأثيرا كبيرا على كافة الأديان تحت حكم الدولة الفارسية (ولو أن تأثيرها كان ضعيفا للغاية على الأسرة المالكة)، فكرة الصراع بين الخير والشر. ابتدأت الفكرة في فارس، ثم امتدت غربا وشملت كل الدولة الفارسية. هذا الصراع، هذا التناقض، الكامل وتلك الثنائية، امتد إلى الإيمان بالعالم الآخر. انقسم الآلهة (وانقسم البشر) إلى أولئك الطيبين وأولئك الخبيثين، وتخيل الناس مجموعات من الملائكة ترتفع فوق بعضها البعض حتى تصل في نهايتها إلى الذات العلية، ومجموعات من الأشرار تنحدر تباعا حتى تصل إلى الشيطان. يتبع هذا التصور الإيمان بقطبية الحياة في العالم الآخر حيث تكون الجنة هي مثوى الأبرار، وعلى قمتهم الله، وتكون الجحيم هي مستقر الأشرار وفي قاعها الشيطان، وتكون الجنة هي جائزة الأبرار والجحيم هي عقوبة الأشرار. منذ ظهور هذا الفكر في الديانة الفارسية، وهو باق في الديانات التالية: في اليهودية ثم المسيحية وأخيرا في الإسلام. ومازال هذا الفكر سائدا في دين اليزيديين، الذين مازالوا يتعاضون معنا إلى الآن، وهم أحد مذاهب الزرادشتيين، الذين استقر فكرهم على عبادة الشيطان، الذي مثله بالطاوس، ومازالوا يعيشون في أعالي كردستان، ويمارسون طقوسهم في سرية وصرامة. الفروق بين فكر الزرادشتيين واليهود والمسيحيين والمسلمين، فروق طفيفة. عبر عمر الخيام عن تلك الفروق الطفيفة بعدة تسع وستين طائفة تتفق في المبادئ العامة وتختلف في التفصيلات اختلافا يجعلها كأنها قوات متحاربة. تختلف تلك الطوائف في الأسماء التي تطلقها على الإله وعلى الشيطان وعلى المهن التي تمتنها وعلى الأعمال التي تقوم بها في المجتمع الفارسي الذي صار مجتمعا متكاملا بتعدد تلك الأعمال. هذا المجتمع الذي ظل حيا، تحت مختلف الديانات والأجناس العرقية على مدى ٢٥٠٠ عام، حيث عاشت مختلف الطوائف، تغذى المجتمع الأكبر بمهامها المتخصصة ومهاراتها المتباينة. من ضمن الطوائف التي كان لها شأن كبير في المجتمع الفارسي طائفة اليهود، التي حافظت على نفسها نظرا لتشدد قوانين اليهود فيما يتعلق بالصحة والتناسل، ولانضباط معلمها الدينيين، ولحرص أفراد هذه الطائفة لفهم التعليمات وإطاعتها. تكاثرت هذه الطائفة ليس في فلسطين وحدها ولكن في سائر أنحاء الإمبراطورية الفارسية، وتزايد أعداد الطائفة بين زمن حكم قوروش إلى عهد المسيح من مائة ألف نسمة إلى حوالي ٥٠ مثل هذا العدد. (يقدر عدد اليهود في عهد المسيح بأربعة ملايين ونصف المليون). في ذات الوقت تزايد أعداد

الإغريق، الذين يتحدثون بلسان واحد ويمتلكون تراثاً أدبياً واحداً، ويتعلمون بنفس الوسيلة ويتميزون
بذكاء وافتخار شديد بجنسهم (بنفس درجة افتخار اليهود والفرس). انتشر الإغريق في كافة أنحاء
المعمورة طالما ساد السلام الذي كفله الفرس لهم. اندفع الفنانون الإغريق إلى تحت جمشيد كما
تدفقت المومسات الإغريقيات وتدفق العبيد. حارب الجنود المرتزقة من الإغريق في مصر تحت قيادة
قمبيز (كما حاربوا ضده، وكان المرتزقة الإغريق يحاربون على الجانبين في كل الحروب الفارسية)
وتغلغل التجار الإغريق إلى أعماق بلاد فارس، ومعهم المستكشفون، حتى وصلوا إلى الهند.

وهكذا فتحت الإمبراطورية الفارسية الطريق لشعوب أخرى بينما كانت هي نفسها تنهار.
السبب الأساسي في دمار الإمبراطورية الفارسية كان هو تسامحها. أبقوا على ديانتهم الآرية وهو
عبادة أهورامازدا، الإله الأوحد، وكان هذا دين طبقة الحكام والعسكريين، ولكنهم احترموا حرية
العقيدة وكفلوا الحماية لكافة الأديان واستفادوا من جميع رجال الدين. لم ينصروا ديناً على دين (كما
فعل خلفاءهم الساسانيون في انتصارهم لدين قبيلة ماجي) ولم يربطوا العقيدة الزرادشتية
بحكمهم، بل ساعدوا على ظهور مختلف النحل فيها، وقد أدى هذا التفرق - فيما بعد - إلى سقوط
الدولة الفارسية. من عوامل سقوط الدولة الفارسية هو أنهم لم يتمكنوا من توحيد لغات شعوبها
المختلفة - إذ كان كل شعب يتحدث بلسان خاص به. ففي الغرب استخدم البابليون حروفهم
الآرامية، في الولايات الإغريقية استخدمت الحروف الإغريقية، وفي فارس نفسها، ربما كان المثقفون
الفرس يكتبون لغتهم الفارسية بحروف آرامية. في خضم اختلاف الأديان واللغات والآداب، عكست
الإمبراطورية طبيعتها في انعدام طبقة وسطى تجمع بينها، طبقة المهنيين والتقنيين والحرفيين
والفنانين المبدعين. تكونت الإمبراطورية من طبقة عليا، من عباقرة عسكريين فتحوا البلاد وضموها
إلى ملكهم، ولكن لم يتم توحيد الشعوب التي حكموها. استطاع الحكام، من الملوك العظام، فتح
البلاد وحكمها، ولكن لم يبدعوا تقاليد أخلاقية يتبعها الجميع ولا فكر خلاق يربط الجميع برباط متين،
ولا في لغة واحدة يتحدث بها الجميع في مجتمع كبير. كان حجم الإنجازات الفارسية التي جمع
جميع شعوب الإمبراطورية هو نفسه العامل الذي أدى إلى تفرق تلك الشعوب وساعد على تدمير
الإمبراطورية العظيمة، ولكنه علم الفرس تجنب تلك العوامل المفرقة في الإمبراطورية الفارسية التالية
من حضارات العالم القديم.

الإمبراطورية المقدونية

كان الرد على الغزوات الفارسية هو التوسع السريع لكافة المدن الإغريقية، وعلى رأسها أثينا. بسرعة تبوأ أثينا مكان الصدارة في مجموعة من المدن الإغريقية البحرية، التي سرعان ما توحدت في إمبراطورية. كانت هذه أثينا في عصرها الذهبي الذي استغرق نصف قرن من الزمان، تبنت فيها البارثينون، ورحبت بقبول الإغريق من المستعمرات الإغريقية ومن الشرق الأدنى، لجأ إليها الإغريق وغيرهم من سائر البلاد التي هاجمتها الحروب وسرعان ما توحد الجميع في المجتمع الإغريقي في أثينا. هذه هي اليونان التي صفقت لمسرحيات اسكيليس وسفوكليس ويوريبيديس، والتي تجرأ أسطولها على مهاجمة الفرس في ممفيس وكاد أن يطردهم من مصر. ولكن بعد نصف قرن وقعت الكارثة حين حدث الصراع مع إسبرطة، وجاءت حرب شبه جزيرة المورة بالدمار على كلتا الولايتين.

في القرن السادس قبل الميلاد حدث انشقاق بين الولايتين، واستمر هذا الشق في الاتساع. في البداية قام الشقاق على أساس عرقى، بسبب الاختلاف العرقى بين الفئات الحاكمة. إحدى الولايتين كانت منعزلة في أراضيها، منغلقة على نفسها، بينما كانت الأخرى مفتوحة على البحار، تتاجر مع الأجانب وتستقبل المهاجرين من الشرق الأدنى، وهكذا زاد الشق اتساعاً. كان جيش إسبرطة أكثر تنظيماً وكان العسكريون في إسبرطة أكثر حنكة ومهارة بينما كانت السفن في أثينا أكثر حركة، وسمحت حرية الحركة بدخول الأجانب إلى أثينا وتصلت إلى حد كبير الفروق بين الطبقات في أثينا. ولكن حدث في أثينا صراع بين المحافظين والمجددين، وعندما انتصر المجددون لجأ المحافظون من أثينا إلى إسبرطة التي رحبت بمقدمهم، وعندما كان ينهرم المجددون كانوا يلجأون إلى الإمبراطورية الفارسية وإلى مقدونيا وإلى إيطاليا.

كان تحرر أثينا بطيئاً ومنقوصاً، وتراجع هذا التحرر في نهاية الأمر. جعل الشك المتبادل بين الفئات الاجتماعية المختلفة تلك الفئات لتفضيل قوة بوليسية مشكلة من العبيد على قوة شرطة من بنى جلدتهم من الفقراء، وكانت الهجرة المتتالية للإغريق الفقراء إلى أثينا تزيد من أعداد المطحونين الذين كانوا في وضع المواطنين من الدرجة الثانية. ثيميستوكليس، القائد المغوار الذي قاد الأثينيين إلى النصر في سلاميس كاد أن يطرد من حلبة السياسة لأن والدته لم تكن إغريقية، والمؤرخ العظيم

هيرودوت - رغم السماح له بدخول أثينا - لم يمنح حق أن يكون من مواطنيها، الحق الذي كان يمنح للأثرياء الذين كانوا يمنحون حق المواطنة إذا ما جهزوا سفينة حربية وأهدوها للدولة. حدث انقراض فظيع على قوانين كليستينيس الإصلاحية بعد ثلاثين عاما فحسب، ففي عام ٤٥١ ق.م. صدرت القوانين التي تحتم أن يكون آباء وأمهات الأفراد من مواطني أثينا لكي يمنحوا الجنسية، بدلا من العبارة السابقة «من مواطني أثينا وحلفائها»، أولئك الحلفاء الذين كانوا يهدون إليها السفن والأموال. استمر هذا التنافر في الحقوق المدنية طالما بقيت أثينا. حتى أفلاطون - ذلك الأرسقراطي الأعزب - كان يدعو إلى التفرقة بين المهاجرين والمواطنين الأصليين في حقوقهم، وكان يشجب العبيد الذين يتناولون على سادتهم ويسبون استخدام الحقوق التي منحها إياهم هؤلاء السادة، كما يشجب الشبان الذين يجادلون المسنين. لكل تلك الأسباب لم يحدث تزواج بين الطبقات الحاكمة في أثينا وإسبرطة. وكان اختلاف الجنس والثقافة والاهتمامات بين المدينتين باقيا على حاله ولايتلاشى، وتعلم الفرس أن يستغلوا هذا الخلاف بين الإغريق ليجعلوا فريقا يحارب الفريق الآخر ولا يتحدون ضدهم. تصاعد هذا الخلاف ووصل إلى أوجه في حرب المورة الطويلة التي فرقت الإغريق بين مؤيد لأثينا ومناصر لإسبرطة، وكان تعادل القوتين سببا في طول فترة القتال بينهما الذي استغرق سنوات طويلة. بدأ القتال عام ٤٣١ ق.م. واستمر لمدة سبع وعشرين سنة. وصف القائد الأثيني توكيديدس الأحداث المؤسفة التي صاحبت النزاع. قابل الأثينيون المرة تلو المرة مشاكل لم يعهدها في حربهم ضد الفرس. كان حصار الأثينيين لإسبرطة وأقيا لها من دخول مرض الطاعون الذي هاجم أثينا لسنوات ثلاث من اللاجئين القادمين من مصر. هرب ٢٠ ألف من العبيد من عمال المناجم بجبل لوريون إلى إسبرطة وانقطع مورد الفضة التي كان الأثينيون يصكون بها عملاتهم. استطاعت جيوش إسبرطة، بمعاونة الفرس والسفن التي زودتها بهم جزيرة صقلية، من كسر احتكار البحار الذي كانت تتمتع به أثينا، وتحطمت جيوش وسفن أثينا التي توجهت لغزو جزيرة صقلية في سيراكوز. وهكذا تدهور حال أثينا تدريجيا حتى انتهت الحروب. لم تحدث مذابح كثيرة في تلك الحروب ولكن الدمار كان كثيرا. عندما استولى الإسبرطيون على أسطول أثينا وأسروا ٤٠٠٠ من رجالها تم ذبحهم جميعا بأمر الجنرال الإسبرطي ليساندر، وكانت هذه اللحظة هي الوقت التي وصلت فيه الحرب إلى قمة شرستها. انتهت الحرب عام ٤٠٤ ق.م. عندما استسلمت أثينا، ولكن لم يحقق هذا النصر لإسبرطة النصر للإغريق. لم يتم توحيد مختلف المجتمعات ولم يتم التوصل إلى الحلول الوسط في أي مكان من الأرض الصخرية التي تتكون منها شبه الجزيرة وحكم بالموث على القيلسوف سقراط بعد انتهاء الحرب بخمس سنوات بتهمة سب الدين (بأغلبية ٢٨١ صوتا ضد ٢٢٠)، وكان الهجوم على الآلهة يعتبر هجوما على الطبقة الحاكمة.

استمرت إسبرطة في عاداتها العدوانية على جيرانها بعد انتهاء الحرب مع أثينا، واستمرت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة تتناسل مع بعضها البعض ولا تسمح بدخول دم غريب إليها، مما أدى إلى تزايد ضعفها ثم إلى زوالها وزوال حلفائها الذين ظلوا يؤيدون الحكام ويحاربون معهم طوال عشرين جيلاً..

سقوط إسبرطة في النهاية يرجع في المقام الأولى إلى النقود الفارسية التي أنفقت ببذخ وإلى جيوش المرتزقة التي حاربت نظير أجر معلوم، والتي نتج عنها مقتل العديد من رجال الطبقة الحاكمة، التي لم يسمح لها بالتزواج من الأعراب، كما لم يسمح بقبول المهاجرين إلى إسبرطة حتى تدنت قوتهم في نهاية الأمر إلى ١٢٠٠ مقاتل فحسب، وعندما فقدت إسبرطة منهم ٤٠٠ مقاتلاً في معركة لوكترا في عام ٢٧١ ق.م. سقطت إسبرطة إلى الأبد. ترجع الهزيمة في لوكترا إلى التكتيكات الجديدة التي بدعها ايبامينونداس - القائد الآتي من طيبة، وبعد تسع سنوات هزمت قوة جديدة جاءت أيضاً من طيبة ما بقي من جيش إسبرطة في معركة مانتينيا. كان من أثر الحروب المتتالية إهمال الزراعة وتسارع قطع الأشجار وإزالة ما تبقى من الغابات وانعدام الصرف، مما أدى إلى تفاقم الأمراض وانتشار الأوبئة، خاصة وباء الملاريا التي استقر لمدة الألف عام التالية في الأراضي الواطئة في حوض البحر المتوسط، وباء الطاعون الذي هاجم المدن. لم تندثر حضارة الإغريق بفضل مستعمراتها. لجأ إليها المنفيون من المدن الإغريقية المنهزمة، وكان لهذه المستعمرات الفضل في نشر ثقافة الإغريق والحفاظ على حضارتها وزيادتها. وهكذا أدرك اللاجئون أن حضارة الإغريق لم تعد باقية في مدنها في شبه الجزيرة بل سيكون في الأراضي الجديدة التي تحيط بها.

ما هي عواقب العدوان؟ الغزاة الذي أصبحوا الطبقة الحاكمة من الجنس الآري في بلاد الفرس وفي اليونان، ومن الجنس السامي في الإمبراطورية البابلية ومن جنس مختلط بين الساميين والآريين في الإمبراطورية الآشورية، إزاداد ثراؤهم وتكاثروا بدرجة تفوق انتصاراتهم العسكرية، وبدرجة لم تحد من رغبتهم في زيادة العدوان. في البداية كان النصر حليف من يهاجم أولاً ويشتد في القتل. كان هؤلاء يخلفون ذرية كثيرة، ولكن دارت الدائرة عليهم في نهاية الأمر. لماذا حدث الإنهيار النهائي وما هي عوامل الدمار؟ تبدأ الأسر الحاكمة، في كل من الإمبراطورية الفارسية ولدى الإغريق بشخص أو وحدة حاكمة، سرعان ما يتسرب إليها الخونة والطفافة ثم يستولون على الحكم، مع اختلاف بين بين الفرس والإغريق. في فارس ظهر الصراع على العرش. كذلك تم إخصاء عدد كبير من الرجال حتى لا ينجبوا ذرية ترث العرش من بعدهم. كان الخصى باجواس حاكماً أشد حنكة في أمور الحكم عن كلا

الملكين اللذين سممهما ومن الملك الثالث الذى سممه. كان الشك الفظيع بين أفراد الأسرة الحاكمة وكان طغيانهم الذى فاق كل الحدود السبب فى ارتفاع أسرة الأخيمين فى بادئ الأمر ثم أدى إلى انهيارهم وزوال ملكهم. نفس هذا السلوك أدى إلى ارتفاع شأن المدن الإغريقية فى بادئ الأمر: العدوان مع الطفيان، ثم أدى إلى أن تحارب المدن بعضها البعض حتى تنهار جميعا. كان الشك يعود إلى مجتمع كل مدينة بذاتها، ويسبب فى البداية اتساعها وعلو شأنها، بعدوانها على جاراتها من المدن. دمرت أثينا الميتيليين: المخلصين لها والثائرين عليها، وحدث نفس هذا السلوك مع مدينة طيبة، وكان انتصار العدوان يبلغ أشده عند تحطيم المدن وهزيمتها. انتهى الأمر بالولة الفارسية إلى دمار الأسرة الحاكمة وانهيارها، وانتهى الأمر فى المدن الإغريقية إلى إنبهار النظام السياسى برمته الذى قام على حكم المدن وتصارعها. كان الشعب يتمتع بالحرية فى المدن الإغريقية بينما كان عرضة للتسلط تحت الحكم الفارسى، ولكن كان الشعب حرا فى الانتقال من مكان إلى مكان، وحرا فى الارتفاع من طبقة التى نشأ فيها متى ظهرت على الفرد علامات النبوغ والتفوق، ولكن حرية الانتقال من مكان لمكان ومن طبقة لطبقة لم يكن متاحا فى المدن الإغريقية. هكذا كانت هناك حريات متاحة وحرية مقيدة فى كلا النظامين، وهكذا كان الصدام محتما بين نظامين يختلفان اختلافا جذريا عن بعضهما.

فى شمال بلاد الإغريق كانت توجد بلاد أشد فقرا وأكثر بردا وأشد تخلفا وأقل ارتباطا ببعضها البعض عن المدن الإغريقية. كان هناك مجتمعات سكان فى إبيرس وإيريا ومقدونيا وبيونيا وثريس. غزا المزارعون القادمون من الأناضول تلك البلاد فى الألف سنة السابعة والسادسة قبل الميلاد عند دخولهم إلى أوروبا. بعد ثلاثة آلاف سنة قدمت لهذه البلاد الموجات المتتالية عن الغزاة الأريون الذين اتجهوا جنوبا. كانت القبائل التى استقرت فى الشمال تتحدث باللغات الإغريقية والإيليرية (التي تعتبر أصلا للغات المقدونية والألبانية الحالية). ولكن فى الألف سنة ق.م. حدثت هجرة عكسية، من الجنوب إلى الشمال، مما أدى إلى ازدياد الاختلاط بين مختلف الأجناس والطبقات. كان المهاجرون إلى الشمال من الإغريق الذين كونوا المستعمرات على سواحل بحر إيجه، مع مجموعات أخرى من البشر الذين تسللوا إلى تلك المستعمرات بدون أن يكونوا من المستعمرين لها ولا من الغزاة، حاملين معهم فنهم وحرفهم وطريقة معيشتهم المتحضرة إلى ربوع تلك الأماكن التى كان يسكنها الهمجيون. بدأت هذه الهجرات الحاضرة إلى تلك البلدان التى استمرت طوال ثلاثة آلاف عام. كان تغلغل البشر إلى تلك الأماكن منتقى واعتمد على اختيار أفضل العناصر التى تمتلك الموهبة والمقدرة والذكاء والاستعداد الفطرى. أبرز الهجرات التى رحلت للشمال كانت تلك التى حدثت فى القرن الثامن والسابع ق.م. وجاءت من المدن الأيونية وغيرها، ولكن الهجرات توالى من جميع شواطئ وجزر بحر

إيجة وأنت إلى المناطق الخلفية قليلة السكان. كان معظم المهاجرين من تجار الخشب والمعادن ولكنهم كانوا أيضا من المغامرين وعمال المناجم والإداريين. جاء المهاجرون من كل مكان في حوض البحر المتوسط حيثما وقع اضطراب سياسي أو ديني وأعقبه لجوء المجاميع الغفيرة إلى المنفى حيث يستقر أبناء الحكومات التي تمت قلبها أو ينشئ هؤلاء لهم مستعمرة. تزواج هؤلاء القادمون الجدد مع أبناء البلاد الأصلية التي استقروا فيها أو عينوا أنفسهم ملوكا على السكان الهمجيين على الحدود. نشأت من ذرايهم الكثيرين طبقة من النبلاء على حدود ايبيرس ومقدونيا وثرس وكونوا ممالك في تلك البلاد على نمط الممالك التي أتوا منها وكانوا يتحدثون باللغة الإغريقية - التي تختلف عن لسان أهل البلاد الأصليين - وكانوا يحفظون أشعار هوميروس ويعرفون تاريخهم وينتسبون إلى ملوك أرجوسس وميسيني وهرقل وأهيليس. ينتسب هؤلاء الملوك إلى الملوك الإغريق والمينويين والفينيقيين والمصريين ومن أبرزهم الاسكندر الأول - حاكم مقدونيا - الذي زوج أخته - كما يروي المؤرخ هيرودوت - إلى أحد حكام الولايات الفارسية القديمة. يروي هيرودوت أيضا أن حكام مقدونيا - في عصر دارا ملك الفرس العظيم كانوا في شدة الفقر بحيث لم يملكوا العبيد وبحيث أن الملكة كانت تطهو طعامها بنفسها. كانت جيوشهم من فلاحهم، فلم يكن لديهم المقدرة لتجنيد جيوش من المرتزقة، وكان قادة هذه الجيوش من نبلائهم وأصدقائهم وحلفائهم. كان حكام تلك البلاد يتزايد ثراؤهم عاما بعد عام من أعمال التجارة واستخراج الثروات من المناجم ومن استقبال المهاجرين من اليونان - الذين كانت تجتذبهم تلك الثروات. كانوا يشجعون استخراج الذهب والفضة من المناجم وكانوا يصكون عملتهم، ويشقون الطرق ويصدرون الخشب ويشجعون على قنوم الموهوبين. ازدادت قوتهم بالزواج من بنات العائلات القوية والعنوانية من جيرانهم في أوروبا وآسيا وكانوا يبيعون ولاهم ومساعدتهم لملوك الفرس الغازين لأثينا أو لجمهورية أثينا في حروبها مع إسبرطة، وهكذا تعاضمت قوتهم وإزداد نفوذهم. أثناء الصراعات المريرة والدامية التي اجتاحت شبه جزيرة المورة في القرن الخامس ق.م. خسر الإغريق المال والبنون وضعفت قوتهم وزال ملكهم، وبارت أراضيههم ولم يعد من الممكن إصلاحها. صات السفن الأثينية تبني من أخشاب مقدونية، وظلت مقدونيا قوية، غنية، تزدد قوة وثراء جيلا بعد جيل. كانت مقدونيا نولة جديدة لم تمتد إليها يد الفساد. كان نظامها السياسي وعلاقات أهلها الاجتماعية متقدمة، اكتسبت كثيرا من جيرانها المتحضرين، وكان تقدم الجيوش الفارسية الغازية لليونان تحمل أخطارا بالغة على المدن الإغريقية الثرية، المقاومة للغزو ولكنها كانت تحمل منافع للولاية الناشئة الفقيرة المتعاونة مع تلك الجيوش.

جاءت اللحظة الحاسمة في عام ٢٥٩ ق.م. بعد سنوات من الاضطراب، عندما تولى فيليب، ابن أمينتاس، عرش مقدونيا، كان عرش مقدونيا يختار حاكمه بالانتخاب، من بين ذرية نبلاء البلاد،

بشروط أن تكون أم الحاكم الجديد من العائلة المالكة. كان حسن السمعة والأقدمية من العوامل التي تحترم عند الاختيار، وقد يصاحبها بعض العنف. كان الملوك كثيرى الزواج من فتيات من أسر مالكة ومن فتيات من عامة الشعوب، وكان لهم زوجات إغريقيات وغير إغريقيات، وكان لهم عديد من الخلائل. وهكذا كان يحيط بالملك الشاب عشرات من أنصاف الإخوة وأولاد العمومة والخثولة وأنصاف الأعمام والأخوال وزوجات الأب، ويحاول الجميع التدخل فى شئون الحكم بالنصائح المساعدة أو المعيقة لحسن الإدارة وجودة الحكم. كان تميز الأمير فيليب فى شئون الحكم والإدارة هو العامل الأكبر فى اختياره لمنصب الملك بدون معارضة من أحد وبدون استخدام القوة. كان هذا النظام - اختيار الحاكم من مجموعة من الناس بواسطة النبلاء والأعوان - له ميزات كثيرة فى اختيار الأصلح لشئون الحكم. كان الانتخاب يعنى اختيار الأصلح (كما فى قوانين البيولوجيا)، وكان لهذه الوسيلة الأثر الأكبر فى نشأة الإمبراطورية المقدونية (بعكس ما حدث فى انيهار الإمبراطورية الفارسية). تلقى فيليب فى بداية حياته تدريباً حسناً، وقد استثمر بحذق وكفاءة. ففى عام ٣٧٦ ق.م، وهو صبى يناهز عمره الخمسة عشر ربيعاً وضعه زوج أخته رهينة فى يد إيبامينونداس القائد الطبيعى، ومكث فى طيبة ثلاث سنوات، ففرغ نفسه لدراسة فنون الحرب، متلقياً دروسه من إيبامينونداس شخصياً كان الفائدة الطبيعى يطبق أفكاراً جديدة فى المعارك التى كانت قد أخذت طابعاً واحداً منذ النجاحات التى حققها الاسبرطيون والاثينيون فى حروبهم الطويلة. تبين القائد الطبيعى أن بإمكانه استخدام فيصل صغير من مشاته للهجوم من الجانب بدلاً من تصادم القوات كلها بالرأس قبال بعضها. وتبين إيبامينونداس كيف يستخدم قوات الفرسان مع قوات المشاة معا وينسق بين حركة الجميع وكيف يستغل تلك القوات لتقابل الفرص المتاحة فى الوقت المناسب. ونظراً للنجاح المتتالى لهذا القائد الحربى العظيم فى المعارك التى قاد فيها جيوش طيبة، تربعت تلك المدينة - للمرة الأولى فى تاريخ الإغريق - على قمة المدن الإغريقية. كان ما فعله هذا القائد لتطوير حركة الجيش فى ميادين الحرب دافعاً لفيليب لإعادة تركيب الجيش وتدريبه فى وقت السلم. وعندما تولى حكم مقدونيا بدأ بالإعداد لتنظيم قوته العسكرية لتمثيل تنظيم المجتمع والدولة التى يحكمها. كان يريد إعداد جيش محترف مع تصاعد الرئاسات وتتابع القيادات تبعاً لهيكلية المجتمع. أسقط فى نولته الفروق بين المقدونيين والإغريق بين التراسين والإليريان، وقد اكتسب من الفرس هذا الإتجاه الجديد. فى جيشه الجديد تمكنت الخيول الثقيلة من ثريس ومن ثسالى من حمل الرجال المسلحين بأسلحة ثقيلة بدلاً من الخيول الخفيفة التى جاءت إليهم من آسيا. تسلح مشاته أيضاً بأسلحة ثقيلة وكان فرسانه يجيدون ركوب الخيل والصيد والقنص. استقطب الجميع للخدمة فى جيشه وصار ولاؤهم لهذا الجيش بدلاً من الولاء لقبائلهم المختلفة ووحداً، مهاراتهم الحربية المختلفة فى جيش

واحد حسن التنظيم، جيد التدريب، وسرعان ما أثبت هذا الجيش كفاءته. كان النجاح الذي حققه جيش فيليب عظيما وساحقا (وما زالت التجديدات التي بدعها فيليب سارية إلى عصرنا الحالي). توتى الحروب بإنجازاتها سريعا وتحقق أهدافها في التقدم والرقى أسرع كثيرا من الإنجاز البطيء الذي يتم في زمن السلم. اجتمع البشر من مختلف الأجناس وكافة الطبقات ومن متعددي الأصول العرقية والجينية حول هدف واحد تعاونوا جميعا في تحقيقه وتنافسوا في إنجازه. كان لهذا التعاون المثمر والتنافس الشريف، الذي أدركه الحكام العظام من قديم الأزل، أكبر الأثر في زيادة قوة الأمم وسرعة تقدمها. منذ عهد فيليب، وخاصة منذ عهد خلفائه، خاصة في البلدان المتخلفة أو في عصور الاضطراب، قدمت الجيوش التركيب الاجتماعي المنظم والنظام والكفاء الذي يستحوذ على قبول كافة طبقات المجتمع لتكوين حكومة مستقرة أو نظام حكم ثابت. في نفس الوقت كانت الجيوش تشكل تهديدا للحكومات المدنية وتكون بدلا لاستمرار الحكومات عندما تفشل الإدارات المدنية في حكم البلاد.

منذ عهد إبيمينونداس وفيليب دب التجديد في العسكرية اليونانية وبخلت المبادرات في الشؤون الحربية (بعد نحو قرن من الزمان من تبشير الشعراء والفلاسفة والسياسيين الإغريق بوجوب دخولها)، ولكن بعد دخول تلك التجديدات والمبادرات استطاع الفرد الإغريقي أن يضم إليها ثقافة الإغريق الأقدمين وحضارتهم ويستفيد منها جميعا في بسط نفوذه ونشر حضارته على العالم أجمع، وكان هذا - بالضبط - ماسعى فيليب لتحقيقه. كانت للخبرات التي اكتسبها في طيبة أكبر الأثر على فكره، لم يتعلم من القائد الحربي إبيامينونداس فحسب، الذي راقبه عن كثب وتعلم منه الكثير، ولكنه تعلم أيضا من اللاجئين الإبرطيين والكتاب والفلاسفة الأثينيين والسفراء من فارس والسياسيين المحليين، وكل من قابلهم في تلك الفترة. وضع في ذهن فيليب ضرورة توحيد الإغريق جميعا وتبين في فكره أسلوب هذا التوحيد، بعد ما وضع له من الدمار الذي يمكن أن يحيق بالإغريق جميعا من فرقتهم. كان توحيد الإغريق يستلزم حسن الإدارة في الداخل وحسن السياسة الخارجية والمهارة في الحرب. واستغل فيليب هذه الوسائل جميعا. وضع له أيضا أهمية استخدام التراجميديا الإغريقية، كما كتبها كتاب أثينا، وتبين له أهمية إزالة الشكوك من أذهان السياسيين، وكانت جائزته الكبرى نجاحه في إزالة تلك الشكوك. وأخيرا، وليس أخرا اتضح له أهمية وحدة الهدف الذي يسعى إليه الجميع لتتم وحدتهم وجند الإغريق جميعا في سبيل هدف إلحاق الهزيمة بالإمبراطورية الفارسية. استغرق فيليب طوال اثنتين وعشرين سنة من الحروب والدبلوماسية حتى تم توحيد مملكته، وحتى أخضع جاراتها من الشعوب الهمجية، وحتى ملك السيطرة على جميع المدن الإغريقية تحت قيادته. نلّب فيليب على الأثينيين وحلفائهم عام ٣٣٨ ق.م. بالقرب من طيبة، ثم تم انتخابه ملكا عاما على

مجمع الولايات الإغريقية، وفي الحال أعلن فيليب الحرب على الإمبراطورية الفارسية. فى العام التالى مباشرة تقدمت طليعة من القوات الإغريقية عددها عشرة آلاف مقاتل وعبرت البحار إلى آسيا، فى هذه اللحظة حدث انقلاب داخلى فى بلاده. كان أبوه، وله زوجتان، قد أنجبا ستة أبناء، بينما فيليب وله ست زوجات قد أنجب ورثتين شرعيين له من زوجته الملكة أوليمبياس. أحد هذين الوليين كان يعانى من الصرع، أما الآخر، الإسكندر، فكان الوحيد الصالح لوراثة عرش أبيه، قبل أن يبدأ فيليب معركته الكبرى مع الفرس أغرى بالزواج من زوجة سابعة حتى يضمن إنجاب خليفة له فى العرش إذا تعرض الإسكندر للخطر. نتج عن هذه النصيحة خلاف مرير بينه وبين زوجته الملكة أوليمبياس، والدة الإسكندر، وتم تسوية هذا الخلاف بزواج ابنته من أوليمبياس وشقيقها ملك أيراس، وتم قتل فيليب بطعنة غادرة أثناء حفل الزواج (ظهرت نظريات كثيرة عن كنة القاتل، يقال أنه صنعية مؤامرة تمت بين الأثينيين والفرس، ويقال أن المؤامرة دبرتها الملكة أوليمبياس وابنها الإسكندر الذى أراد أن يكون النصر على جيوش تحت قيادته ولا يشترك أبوه فى هذا الفخار). لم يحدث اضطراب بعد مقتل أقوى شخصية فى بلاد الإغريق بسبب قوة شخصية ابنه، الحازم، ورثه الإسكندر. كان هذا الشاب يبلغ العشرين من عمره عندما ورث ملك أبيه، ولكنه كان واثقا من نفسه، قادرا على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيوش، وفى الحال تولى زمام الأمور وأشاع الضبط والنظام، وسرعان ما أبعد ثلاثة من الطامعين فى عرش فيليب وظهر بنفسه البديل الكامل للملك العظيم فيليب. على مدى عامين كان قد سيطر على البلقان جميعا، من الدانوب حتى برزخ كورينث. كان أبرز الأحداث التى وقعت فى تلك المدة هو العصيان الذى حدث فى طيبة وفى أثينا. قضى الإسكندر إلى التمرد الذى حدث فى طيبة وسوى مبانيها بالأرض وقضى ببيع الرجال والنساء والأطفال جميعا فى سوق العبيد (ولم يغفر له أعداؤه أبدا تلك الفعلة، إذ كانوا معتادين على الحكم بالقتل على من يتمرد على نظام الحكم ولم يعهدوا أبدا على بيع الأحرار فى سوق الرقيق). كلفته هذه الفعلة الكراهية الدائمة من شعبه رغم أن الملك كان إغريقيا، تعهد بتحرير الإغريق من ريقة الغازى الأجنبى. لذا، عندما خرج الإسكندر لحرب الفرس، اضطر أن يترك نصف قواته المقدونية فى اليونان للحفاظ على الأمن الداخلى من تمرد الإغريق عامة وأهالى أثينا خاصة.

بعد عامين من تولى الحكم، سيطر الإسكندر على البلاد وبدأ يعد للهجوم على الإمبراطورية الفارسية، وأعد جيشا قوامه ٤٠ ألف مقاتل وستة آلاف فرس. كانت قواته المقدونية هى أساس هذا الجيش وكان قوات الفرسان من ثراسيا وثيراسيا وكان الرماة من بيونيا ومن كريت من القوات المعاونة ذات الشأن العظيم، وكان إسهام الولايات الإغريقية ضئيلا للغاية. كانت قواته من أجناس مختلفة، ذات تدريب متفاوت ولها عادات متباينة. ولكن كان يوحد تلك القوات أنها تتكلم بلسان واحد

(اللغة الإغريقية)، وكان يجمعها دين واحد، وتزاول نفس الرياضات (الألعاب الإغريقية)، وتجمع شملها الدراما الإغريقية، وهكذا كانت تلك القوات تمثل جيشا قوميا فى قبال جيش الفرس المختلف تماما. كانت وحدة الدين ووحدة الأصل العرقى سلاحا استفله الإسكندر - كما استثمره أبوه - لزيادة قوة ذلك الجيش. فى البداية كان للإسكندر أهداف أخرى غير مجرد الانتصار فى المعارك وكان الفضل فى تلك الأهداف لتعليم أرسطاطاليس - معلم الإسكندر - فى التاريخ والدين والعلوم. كان يرافقه فى معيته طائفة من أهل الفكر والعلم وكتاب التاريخ وعلماء النبات وعلماء الجغرافيا، وكان يضع تحت وسادته عند نومه - بجوار خنجره، نسخة من الإلياذة بشرح معلمه أرسطو. بعد عبوره للمضيق تحول غربا إلى مكان طراودة وهناك أهدى روحه وسلاحه لآلهة الإغريق، ثم بدأ حملته: كان يستحوذ حينئذ على طعام يكفى جيشه لمدة شهر وعلى قليل من النقود المقترضة، وسرعان ما هاجم عبوه على بعد خمسين ميلا إلى الشرق من نهر حرانيكلس. كان جيشه مساويا فى العدد لجيش أعدائه ولكن كان الفرسان من الفرس، وبعد معركة عنيفة تمكن الفرسان من الهروب، أما المشاة الذين كانوا يحاربون مع الجيش الفارسى فكانوا من الجنود الإغريق المرتزقة الذين كانوا يحاربون فى صفوف الفرس. وقد اعتبرهم الإسكندر من الخونه وتم قتلهم جميعا بلا شفقة ولا رحمة (وكانوا يبلغون عشرين ألف مقاتل). احتل الاسكندر بعد ذلك ساردس (النهاية الغربية للطريق إلى صوصة)، ثم حرر إيفيسوس وميليتاس، هاليكارناساس وبقية المستعمرات الإغريقية فى أيوليا وأيونيا ودوريا، التى خضعت للفرس طوال مائة وخمسين عاما. كان التحرير يعنى تغير أوضاع السلطة والثراء والنفوذ والطبقات بين السكان. بدلا من معيشة الإغريق فى الأحياء الإغريقية (الفقيرة) فى المدن الأناضولية، صاروا يعيشون فى الأحياء الراقية، المنتعشة، وصار الإغريق هم التجار الأثرياء والحرفيون المبدعون، وأصبح الإغريق هم رجال الجيش وهم يتولون السلطات الإدارية. ولكن أدخل الاسكندر مبدأ تحريم الانتقام، وأدخل فكرة التعايش السلمى بدلا من التناحر، وصار هذا مبدأ امبراطوريته. لم يتعلم الإسكندر هذا المبدأ من معلمه أرسطو ولم يتعلمه من الإغريق، ولم يتعلمه من آلهة الإغريق ولكن تعلمه من أعدائه الفرس. طبق الفرس هذا المبدأ على مدار ستة أجيال منذ عصر قورش العظيم. وتعلم الإسكندر هذا المبدأ أيضا من أبيه الذى مارس تلك السياسة طوال حياته فى صراعه مع السياسيين والخطباء من أثينا. استغرق الإسكندر عاما كاملا ليدعم سلطته فى الأناضول، وعندما حل فصل الشتاء تحرك إلى الجنوب، غير أنه لجيش الفرس إلى جانبه، شق الاسكندر طريقه إلى فينيقيا فقطع دارا خطوط إمداده (فى المكان الذى أنشئت فيه مدينة الإسكندرونه تخليدا لهذا الحدث)، فتحول الإسكندر قافلا حيث دارت معركة عنيفة. كانت قوات الفرس هائلة ولكنها حوصرت فى سهل ساحلى ضيق ولم تستطع الحركة بحرية. هاجم الإسكندر أولا،

وكانت قوة الفرس الغالبة من الجنود المرتزقة الإغريق، المدعمة بالأسلحة الثقيلة. للمرة الثانية، هرب الفرس قبل أن تتم هزيمتهم في المعركة وكان الملك على رأس الهاربين، وهرب معه الجنود المرتزقة الإغريق - قبل أن يتم نهبهم كما حدث مع زملائهم في المعركة السابقة. هرب دارا ولكنه ترك في يد الإسكندر المنتصر، زوجته والدة أبنائه ووالدته وأطفاله. اتجه الإسكندر نحو الجنوب . وبعد حصار ميري سقطت صور. دمر الإسكندر المدينة وياع ٣٠ ألف من أهلها كركيق. بهذا الانتصار صار الإسكندر سيد البحر الأبيض المتوسط، لأن أسطول الفرس كان يتكون من بحارة فينيقيين وسفن فينيقية. الآن، تملك الإسكندر هؤلاء الملاحين وتلك السفن وصار سيد البحار. تلقى الإسكندر عرضا من دارا أثناء حصاره لصور يعرض فيه عليه السلام مع الإمبراطورية الفارسية في مقابل زواج الإسكندر من ابنته وتنازل دارا عن حكم الأناضول وسوريا ومصر للإسكندر. كان العرض مغريا وفي منتهى السخاء وقد أشار قواد الإسكندر عليه بالمسارعة بقبول هذا العرض (قواده الأسن منه والذين تركوا زوجاتهم وأطفالهم في اليونان) لأنه يعطى الإسكندر حكم نصف العالم، ولكن الإسكندر، الشاب، الأعزب، الذي لم يكتف بنصف العالم بل كان حلمه بالاستيلاء على كل العالم، رفض هذا العرض، وكان هذا القرار من أكبر القرارات الحاسمة في التاريخ.

بعد شهور قليلة نزل الإسكندر مصر، كمرح لها من الاستعمار الفارسي. رحب به المصريون ورفعوه إلى عرش فرعون. زار الاسكندر المزارات الدينية، وزار كاهن آمون في واحة سيوه وزعم أنه ابن آمون، وهكذا ثبت عرشه بادعائه أنه الإله الأكبر، (وهكذا اكتسب الاسكندر رضا جميع الشعوب بادعائه أنه الاله ملكارات في صور، وأمون في مصر (ملكارات في فينيقيا سمي هرقل، آمون في مصر سمي زيوس وماردوك في بابل كان عليه الدور ليسمى باسم أحد آله الإغريق، ولم يزر الاسكندر بيت المقدس وإلا لكان من المحتمل أن يسمى إله اليهود، ياهوه، باسم أحد آله الإغريق). عاد الإسكندر في صيف العام التالي إلى آسيا واخترق آشور بهدف احتلال أرض الجزيرة، وعبر نهر بجلة مع أسراه الملكين. كان دارا يعد له جيشا عظيما قوامه ربع مليون مقاتل أو مايزيد في أربيل، ولم يكن معه سوى ما تبقى من الجنود المرتزقة الإغريق (ستة آلاف)، ولكن كان لديه الفرسان المزودين بالرماح الطويلة، والفخاخ، والعربات الحربية الحديثة وكثير من مخترعات الحرب المستحدثه. وفي صباح أول أكتوبر عام ٣٣١ ق.م. بدأ الإسكندر الهجوم، وحدثت واقعة أربيل الحاسمة التي تعتبر من أشهر معارك التاريخ، والتي كان لها أبعد الآثار. تعتبر هذه المعركة قمة التطور الذي وصل إليه الجيش المقدوني بقيادة الإسكندر. استطاع الإسكندر في تلك المعركة أن يهزم جيشا يبلغ تعداده ستة أمثال جيشه على الأقل، على أرضه التي استعد فيها للقتال، مما يدل على مقدرة الجيش المقدوني وحسن تدريبه وعبقريته قيادته. يرجع هذا النصر إلى حنكة الإسكندر،

مع حسن الضبط والربط في الجيش، وإلى شجاعة القائد والجنود ومهارتهما. كما هو المعتاد أدرك دارا وقوع المصيبة بعد وقت قليل من بدء المعركة، فقد أعصابه وقفز إلى عربته الحربية وفر هاربا. تخلخل الجيش بعد هروب قائده. لم يتعقب الإسكندر قائد الفرس الهارب وتركه ينتعد إلى أقصى مدى وتحول إلى الجنوب ليتم البرنامج الذي وضعه لنفسه واحتل مدينة بابل والإمبراطورية البابلية القديمة، ثم استدار ليحتل صوصة ويستولى على كنوز دارا في إكبتانا، وحرقت في طريقة تخت جمشيد (كما فعل زرتس في أثينا منذ مائة وخمسين عاما). وفي أغسطس التالي وصل الإسكندر إلى الري (طهران الحالية) واخترق جبال ألبرز حيث وجد دارا - آخر الملوك الأخيمين مقتولا بين رفاقه.

مكث الإسكندر الثلاث سنوات التالية مع جيشه لبناء الحكومة في بلاد فارس وفي باكتريا، وتعقب فلول المحاربين على حدود الإمبراطورية، وظهرت عظمة انتصاراته في مكاتب الحكومة في القصور العظيمة (في سمرقند على سبيل المثال)، عندما وضع السياسات لنظام حكمه. راح الإسكندر إلى أبعد من المصالحة والاتفاق مع أعدائه وبدأ يكتسب طباعهم وأخلاقياتهم وطرق لبسهم. واستخدم نبلاهم ليكونوا حرسا له، وليكون منهم جيشا إضافيا لجيشه، وطلب من رفاقه أن يبجلوه - لاكما يبجلون حاكما مقنونيا - بل كما يحترمون ويوقرون ملكا فارسيا. تحول القائد - الذي كان يصفح رفاقه باليد قبل معركة إيسوس - إلى ملك عظيم له الهيبة والجلال والاحترام بعد فتح صوصة. صار ملكا عنيفا، جمع بين سوء طباع والدته وإدمان أبيه للخمر، مما أثار معاونه عليه وبدأت المؤامرات حوله. حكم على صديقه المخلص بارمينيو وعلى ولده بالقتل، وقتل رفيقه كليتس في عراق وهو تحت تأثير الخمر، وبدأ بذلك في القضاء على الرجال الذين أخلصوا له والذين قاتلوا جيشه من نصر إلى نصر وسبق لهم إنقاذ حياته. تغير الإسكندر تماما في السنوات الثلاث التي قضاها في فارس بعد موت دارا وبعد النصر الساحق الذي حاله. كتب المؤرخ الخالد هيرودوت قبل مائة عام إن الحاكم الذي يحوز على السلطة المطلقة يتحول إلى الفساد المطلق (فيما كتب عن قمبيز)، وكان التاريخ يعيد نفسه في ما حدث للإسكندر. وقد حدث تماما ما توقعه الإسكندر حينما أخبر دارا أنه سيصير الملك الأوحده على آسيا، وأن مملكته ستصير العالم كله، وسيصير المحيط هو حدها.

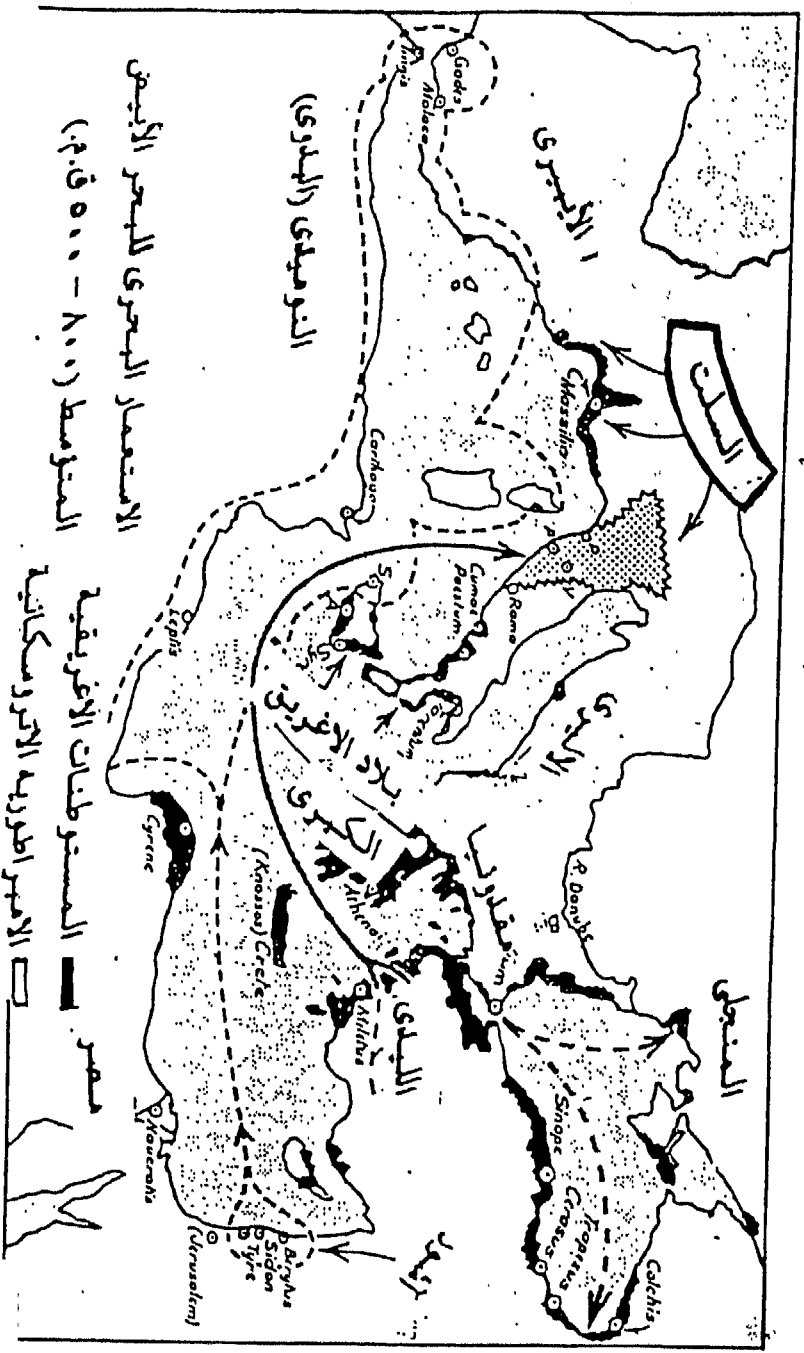
استمر الإسكندر في حملته وكان فتح الهند هو هدفه التالي. قابل ملك الهند على ضفاف نهر يولم، وهناك قابل أعند أعدائه. كان الجيش الهندي يستخدم الأفيال والجنود المرتزقة الأشداء. انتصر الإسكندر بصعوبة بالغة على هذا الجيش، وبعد رفض المقدونيون التقدم إلى أبعد مما وصلوا إليه. كان مصب نهر الجانج قاب قوسين أو أدنى من الإسكندر، ولكن كان هذا المكان أشد البعد في نظر المحاربين. كان فخر الجيش المقدوني وشجاعته تتمثل في استقلاليته حتى أمام قائد عظيم.

أطاع الجيش أوامر قائده بتخاذل واستمروا فى طريقهم إلى مصب نهر الإندس، وأنشئوا مدينة فى هذا المكان. حول الاسكندر فريقا من جيشه إلى قوات بحرية وعهد بقيادة الأسطول إلى أمير البحر الكريتى نيرخاس الذى عاد بهذا الفريق من الجيش إلى الخليج الفارسى، بينما قاد الاسكندر نفسه غالبية الجيش عائدا إلى إكباتانا، مع هرب أعداد كبيرة من الجيش فى رحلة العودة. فى العام التالى، عام ٣٢٤ ق.م. عاد هو وجيشه إلى صوصة حيث أقام حفل زواج عظيم. شمل حفل الزواج هذا الإسكندر نفسه مع ثمانين من قادة الجيش، تم زواجهن مع أميرات من البيت المالك الفارسى. تزوج الإسكندر ورفيقه هيفاستيون من ابنتى الملك دارا (يرى لنا التاريخ أن عشرة آلاف مقاتل مقدونى من جيش الإسكندر تزوجوا، أثناء الحروب من نسوة من البلاد التى فتحوها، وكان القائد يبارك تلك الزيجات بهبات مالية مع تسجيل هذا الزواج)، وقد أقيم جناح عظيم فى تلك المناسبة للاحتفال بهذا الزواج الجماعى. بهذا العمل العبقرى حقق الإسكندر توحيدا دائما للمجتمع الجديد، بتوحيد الأجناس وتوحيد الطبقات، فقد وحد بين الإغريق والمقدونيين والفرس فى إمبراطوريته الجديدة، وهكذا تم تهجين الأجناس المختلفة فى مجتمعه الجديد. عاد الإسكندر بعد ذلك إلى بابل وبدأ يخطط لإحكام السيطرة على الأنهار العظمى فى إمبراطوريته الشاسعة، ولبناء أسطول عظيم، ورسم خرائط لسواحل البلدان العربية، والاستعداد للهجوم على قرطاجنة فى أقصى الغرب، وكان ينوى أن يجعل بابل عاصمة ملكه، ولكنه سقط صريع حمى هاجمته لمدة أسبوع واحد، قضى نحبه بعدها فى ٢٨ يونيو عام ٣٢٣ ق.م. بالغا من العمر ثلاثة وثلاثين ربيعا.

وتركت كل تلك الطموحات لخلفائه من بعده لمحاولة تحقيقها. فى حياته اتفق كهنة زيوس (الإله الأكبر للإغريق)، وأمون (كبير آلهة المصريين) واهورا مازدا (إله الفرس)، وكهنة آلهة بابل المختلفين، اتفقوا جميعا على تأليه الإسكندر. وفى عصر الإمبراطورية الرومانية أصدر أغسطس قيصر مرسوما بأن الإسكندر هو الإله الثالث عشر على قمة جبل أوليمبوس. عبده الآسيويون والمصريون بمجرد وفاته وانتشرت الأساطير والخرافات فى جميع الأماكن التى وطئها. يقال أن بطليموس قد أخرج جثمانه من بابل - حيث توفى - ونقله إلى الإسكندرية (ومازال المغامرون يبحثون كل حين وآخر عن هذا الجثمان الذى لاتقدر قيمته التاريخية بمال إن وجد). حياة الاسكندر تعتبر العامل الحاسم فى نقطة ارتكاز التاريخ الإنسانى. يعتبر الإسكندر فى المنتصف الهندسى للتطور الإنسانى، والحياة الإنسانية بعده تختلف اختلافا بينا عن الحياة الإنسانية قبله، فكأنه يقع فى منتصف رحلة الإنسانية (كما أن مجال نشاطه يقع فى قلب العالم، كما تخيله). إذا نظرنا إلى خريطة العالم فإننا ننتبين للوهلة الأولى المسافات الشاسعة التى اخترقها بجيشه (كما فعل من قبله قورش العظيم ودارا العظيم). ثم ننتبين الهدف الذى أخذ نفسه بتحقيقه ومقدار من تحقق من هذا الهدف. لم

يكن هدفه تحقيق الفتوحات فحسب، بل كان من أهدافه استكشاف المناطق تم استعمارها والاستقرار فيها، وحقق هذه الأهداف وتشابك الغزو العسكرى مع السياسة السلمية والفن والتجارة والتقدم التقنى والعلمى، وفى هذا الشأن فاق الاسكندر كل من سبقوه. فاقهم بالاستفادة الكاملة مما تركوه له ومما ورثه عن الحضارة الإغريقية. لم يرتفع الإسكندر إلى مرتبة الآلهة - كما حلى لعاشقيه من المؤرخين أن يصوروه، بل كان إنسانا فيه كل فضائل الإنسان ونقائصه. هو رجل قتل أصدقاءه عندما غاب عقله بفعل الخمر، كما كان يقتل أعداءه بالآلاف وهو فى كامل عقله. سواء اشترك فى مؤامرة لقتل والده أم لم يشترك فى تلك المؤامرة لايفير شيئا من حكمنا عليه. كان يتأسف كثيرا على جرائمه ويندم على أفعاله الخاطئة ولكنه لم يغير من طباعه ولم يقومها. كان شديد التدين ولكنه لم يمتنع أن يُنصب إلهاء، كان بانى ملك عظيم ولكنه لم يتزوج لينجب وريثا للعرش إلا فى آخر الأمر. رغم كل هذه التناقضات فى حياته، فإن حياته كانت ذات معنى عظيم. ورث نبوغه من أبيه وحدة طبيعه من أمه. تعلم من أبيه كيف يبني ملكا عظيما وكيف ينتصر فى المعارك ويقود الجيوش من نصر إلى نصر. درس هوميروس وتعلم على يد أرسطاطاليس ولكنه كان أحكم من هومر وأرسطو، فقد علم نفسه كيف يصفح عند المقدرة وكيف يوحد محكوميه وينشر الحب المتبادل بينهم. بدأ أبوه بهذه السياسة واستثمرها ولده إلى نهايتها. يعتبر فيليب نتاج عدة أجيال تم تهجينها حتى تولد عنها بالانتقاء - الرجل العظيم الذى قاد بلاده إلى النصر، ويعتبر الإسكندر المكمل لأبيه فى طريق النصر الطويل وطريق السياسة والحكم.

توضح الخريطة رقم (٢) أستعمار البحر المتوسط بالفينيقيين والإغريق والأنطروسان.



البحر المتوسط (البحري)

الاستعمار البحري للبحر الأبيض

المتوسط (٨٠٠ - ٥٠٠ ق.م.)

المستوطنات الأخرى في الإمبراطورية الترسكانية

استعمار البحر المتوسط

بالفينيقيين والأفريقيين والأتروسكان

خلفاء الاسكندر الاكبر

كان عشق الاسكندر لرفيقه هيفناستيون السبب في تأخير زواجه، وعندما تحقق هذا الزواج في آخر الأمر من الأميرة روكسانا، لم تنجب له أولادا حتى وفاته بعد أربع سنوات. عند وفاته قتلت روكسانا زوجة الاسكندر الثانية، ابنة دارا، ثم أنجبت طفلها، ابن الاسكندر، وسرعان ما قتلها كاسندر أحد خلفائه. وهكذا انتهى ملك أسرتى قورش والإسكندر فى نفس الوقت. بعد ذلك حكم الجنرالات (وزوجاتهم) تلك البلاد الشاسعة. تصارع الجنرالات صراعا مريرا، يذكرنا بصراع المدن الإغريقية، مع الفارق. كانت الجيوش المتصارعة جلها من المرتزقة، وكانت أقلية فى التعداد بالنسبة لكثرة الشعوب. لم تدمر المدن ولم يسبى أهلها - كلما كان الحال فى حروب المدن الإغريقية. كان الدمار يحيق بالقيادات والرؤوس ولم تكن الجماهير تعاني من تلك الحروب. كان الزواج والقتل هى الأسلحة الرئيسة التى يستخدمها القواد المتحاربون. بعد صراع مرير تمكن ثلاثة جنرالات من قواد جيش الاسكندر الأكبر تقسيم إمبراطوريته العظيمة:

١- أنتيجونس الأعور الذى وضع أسرته على رأس القسم الأوروبى من الإمبراطورية، مقدونيا وبلاد الإغريق، لقرن ونصف من الزمان.

٢- بطليموس سوتر الذى حكم وأسرته مصر لقرنين ونصف.

٣- سلبوسس نيكاتور الذى وضع أسرته على رأس الجزء الآسيوى من الإمبراطورية، التى عانت من التقلص المتتابع، لقرنين من الزمان.

سرعان ما أزاح القواد الذين حكموا الجزء الأوروبى والذين حكموا مصر زوجاتهم الفارسيات من الحكم، الذى استمر المقونيون والإغريق هم المتحكمون فيه فى شئون الحكم، أما فى منطقة حكم القائد الثالث سلبوسس فكان الحال مغايرا لهذا الأسلوب.

السليوسيون

درب سلبوسس النبلاء الفرس لقيادة الجيش الجديد المهجن الذى كونه الإسكندر الأكبر، واستبقى هو شخصيا زوجته الأميرة الأخيمية التى صارت الملكة الأم للأسرة التى كونها. تزوجت

ابنة سليوسس شاندراجويتا مؤسس الأسرة الموريوية، وبهذا الزواج توحدت الأسر المالكة المقدونية والفارسية والهندية، ونشأت طبقة جديدة من الأمراء العالميين الذين يمتد أصلهم عبر القارات وعبر الأجناس. وقد لعبت هذه الزيجات، وهذا الخلف المتشايك الأصول، دورا هاما في ثبات علاقات الحكومات المختلفة وتحاب الشعوب المختلفة منذ عهد الاسكندر الأكبر. أنجب الجيل الثانى من هذا الزواج المختلط الأمير أسوكا، الذى صار إمبراطورا هنديا عظيما والذى كون أعظم الإمبراطوريات الهندية قاطبة، وتعاون مع الكهنة البوذيين لكسر تقسيم المجتمع الهندى إلى طبقات، الذى أنشأه الكهنة البراهيميون (ليظلوا على قمة المجتمع). بالرغم من فشل ثورة أسوكا (كما فشلت من قبل ثورة إخناتون الدينية المتحررة فى مصر)، إلا أنها تركت أثارا عميقة فى العالم. بسبب فشل هذه الدعوة انتقلت البوذية من الهند إلى الصين واليابان وجزيرة سيلان وجنوب شرق آسيا ومازالت حية، وتؤثر على النظام الطبقي الهندى للآن.

كان غزو الإسكندر للهند هو الغزو الأول لشبه القارة الهندية فى التاريخ (وظل الغزو الوحيد لها حتى العصر الحديث)، ولم تستطع الكلمة المكتوبة للإغريق من أن تمحو التعليمات البراهيمية الشفهية، ولكن امتد الأثر العرقى والاجتماعى لهذا الغزو بعيدا.

البطالمة

أهم خلفاء الاسكندر وأكثرهم أثرا فى التاريخ كان رفيقه المثقف بطليموس ابن لاجوس الذى كانت مذكراته عن الإسكندر هى أول مذكرات فى التاريخ عن حياته وأعماله. احتفظ بطليموس لنفسه - بذكاء ومكر شديد - أغنى مقاطعات الإمبراطورية، مصر. كانت مصر مقاطعة صغيرة يسهل حكمها ويتيسر الدفاع عنها ويمكن الاستقلال بحكمها. كان بعيد النظر وقرر الاحتفاظ بجثمان الإسكندر ليدفن فى المدينة التى بناها الإسكندر - الإسكندرية - التى جعلها عاصمة لمملكته، ولكن بعد نظره بلغ قمته فى فهمه للثقافة الإغريقية وحفظه لها وتنميته لأصولها وفروعها.

قرر بطليموس الحفاظ على علماء الإغريق ومفكرها، وعلى الكتابات الإغريقية وآدابها، وارتفع شأنه وولد نكره فى التاريخ بهذا العمل الحضارى، وصار علماء الإغريق ومفكرها هم الثمرة الخالدة والأساسية لأسرة بطليموس فى تاريخ العالم.

صارت الإسكندرية حاضرة بلد يحكمه حاكم مقدونى وجيشه، يساعدهم مصريون محليون يديرون البلاد، وكهنة مصريون اتقنوا اللغة الإغريقية وتمثلوا الأفكار الإغريقية، والتجارة والهندسة والتقنية الإغريقية. تحولت الإسكندرية إلى جنة للسلام والحضارة فى عالم مزقته الحروب وشغلت

انتباهه. أنشأ بطليموس وخلفاؤه مكتبة ومتحفا في الإسكندرية، جذبت المثقفين والمفكرين من جميع أنحاء الدنيا، وصارت الإسكندرية مهبط كتاب المسرح والفلاسفة من جميع أنحاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر، وخاصة من أثينا. أصبحت الإسكندرية عاصمة النور والثقافة في العالم وحاضرة الدنيا بلا منازع، وظلت هكذا، تتمتع بهذه الشهرة طوال خمسة أجيال من حكم أسرة مستنيرة، ثرية، تحكم بلادا مستقرة لاتقوم فيها الثورات ولا الصراعات. استمرت أسرة بطليموس الحاكمة في اتباع نفس أساليب العصر، التي كان تتبعها الأسر المالكة في اليونان وبلاد فارس وفي مصر من قبلهما وهي: غشيان المحارم، والاتصالات الجنسية غير الشرعية، وتعدد الزوجات (والأزواج)، واللواط. ولكن وضع نظام لحماية الأسرة من هذه الأفعال المدمرة بتنظيم من الخصيان، في الحريم وفي القصر، عليه مراقبة من يتولى الملك من الأسرة.

كانت الأجيال الخمسة الأولى من أسرة البطالمة من زيجات ملكية بين الأسر المالكة الإغريقية - المقدونية، أجيالا عظيمة، أنتجت ملوكا عظاما واحتفظت للإسكندرية بحق الصدارة في العالم لمدة منتهى عام، ونقلت الحضارة الإغريقية - بعد أن زادت عليها وتوسعت فيها إلى العالم. وينبغي علينا أن نقارن ما حدث للحضارة الإغريقية في الإسكندرية - التي حافظت عليها ونمتها، وبين ما حدث للحضارة الإغريقية في فارس وفي الهند، التي فتر تأثيرها حتى ضاع تدرجيا ولم يحتفظ التاريخ الإنساني بها.

الثورة الهيلينية

كان من مخطط الإسكندر الأكبر للسيطرة على العالم كله هو إثرائه وتنويره وربطه ببعض ببناء المدن (كان في ذهنه بلاشك المستعمرات الإغريقية السابقة في حوض البحر الأبيض المتوسط). صار التخطيط الجديد لبناء هذه المدن أبعد كثيرا من المستعمرات الإغريقية الأصلية. بنيت تلك المدن لتحتوي أناسا من أجناس مختلفة، يصممها الفرس ولكن ينفذها الإغريق بما يملكوه من المهارات الحديثة. تبنى تلك المدن في بلاد الشرق القديم، التي عاش فيها الإغريق كتابعين لمدد طويلة، ولكن صاروا الآن سادتها. الهدف من إنشاء تلك المدن هو أن تكون مكان لقاء للحضارات وتجمع للشعوب والثقافات. لم يكن القصد منها أن تكون مجرد لقاء بين الريف والحضر، ولا تجمع لنوى الحرف، ولا اجتماع لمختلف البشر الذي يعجبون آلهة مختلفة ويتكلمون لغة واحدة (كأثينا على سبيل المثال). الهدف أن تكون مكان استقرار دائم لمختلف أنواع التجارة وصنوف الصناعة وأرباب الحرف الذين جاؤا من بلاد عدة ويتكلمون بالأسنة مختلفة وينتمون لجنسيات متفرقة. عندما يأتي

هؤلاء الناس لتلك المدن للاستقرار الدائم، يعاملون نفس المعاملة ولا يتميز واحد عن الآخر بجنسه أو عرقه أو دينه. وهكذا تتقدم الحضارة إلى مستوى جديد أكثر تشابكا وأشد تعقيدا، وتصير تلك المدن منظمات للإنتاج الوفير والتعليم الرفيع والثقافة العالية والمجتمع الجديد.

تم بناء نحو مائة مدينة جديدة بواسطة الإسكندر وخلفائه، فى مواضع استراتيجية على طريق القوافل، فى الطرق الداخلية (مثل كاندهار وكابول) أو الطرق الساحلية (مثل كراتشى). اختفى عدد كبير منها، ولكن ما تبقى مثل (انطاكية)، صار مراكز عظمى للتطوير والحضارة، وصار مركز جذب للسكان. لعل أعظم هذه المدن وأبقاها على مر التاريخ هى مدينة الإسكندرية. خطط الإسكندر بنفسه مدينة الإسكندرية، وانتقى موقعها فى شتاء عام ٣٣٢-٣٣٢ ق.م. بالقرب من أبى قير غرب مصب نهر النيل، مواجهة لليونان، وتعتبر مدينة الإسكندرية هى باكورة التخطيط لبناء المدن على الطراز الغربى. خططت المدينة لتحتوى:

أولا : على الحى الإغريقى أو الملكى ليحوى قصور الحكام والمعابد ومساكن رجال الدين والمباني الحكومية، وميدان السوق، الذى بنى على الطراز الإغريقى، ليقم حوله السكان من الإغريق والتجار وعبيدهم (الذين كان يزداد عددهم بعد كل معركة ينتصر فيها الجيش وبعد كل مدينة يتم تدميرها). فى هذا الحى أيضا كانت توجد مكتبة الإسكندرية العظيمة، التى جمع فيها البطالمة نصف مليون مخطوط، وتعتبر التراث الخالد للثقافة الإغريقية. (تم تدمير هذه المكتبة أثناء حصار يوليوس قيصر لمدينة الإسكندرية عام ٤٨ ق.م.، وزودت ثانية واستكملت جزئيا بواسطة أنطونيوس عام ٢٥ ق.م. ثم نهىها المسيحيون فى عهد حكم ثيودوسيوس، «ولم يبق أى دليل مادى على صحة هذه الحكايات كلها»). ولكن مما لاشك فيه أن هذه المكتبة، وما تبعها من مكتبات التى جمعها الملوك فى العصر الهلنستى فى برجامون وفى مقونيا، كانت هى الأساس فى زرع الثقافة والأدب فى العالم القديم، ثم فى نمو العلم والمعرفة فى المسيحية والإسلام.

ثانيا : كان هناك الحى اليهودى فى المدينة. رحب اليهود بمقدم الإسكندر، فكافأهم بمخاء، ويقال إنه سمح لهم بتلقيب أنفسهم كمقدونيين فى تلك الأحياء، حافظ اليهود على عاداتهم وتقاليدهم واحتفظوا بمجتمعاتهم سالمة. تكوّن فى الاسكندرية، لهذا السبب، أكبر تجمع لليهود فى العالم، يهود يتحدثون ويقرأون ويكتبون بلغة الإغريق.

ثالثا : كان هناك حى المصريين، وهو أفقر الأحياء الثلاثة ثراء وثقافة، رغم أن المصريين أعمق تلك الجنسيات حضارة، ساعدت الممارسات الخفية للطبقة الحاكمة المصرية مع قصر التعليمات والمعلومات الدينية على فئة قليلة نون غيرها على انتقال معظم المبادرات الثقافية - حتى قبل عهد

الاسكندر - إلى طائفة اليهود. وقد ساعد هذا على تحول فئة كبيرة من المغامرين المصريين إلى اليهودية، وقد أبعدهم هذا أيضا عن المستعمرة الإغريقية الحاكمة. ولكنه لم يقطع الصلة تماما بمجريات الأمور، فقد قاموا بالثورة ضد الأسرة الحاكمة عندما عانت تلك الأسرة تحت حكم بطليموس «فيسيكون» كذلك ظلوا أقوياء وغير مستسلمين وحافظوا على لغتهم حية حتى نهاية البطالمة (ويقال أن الملكة كليوباترة آخر ملوك البطالمة كانت تتحدث باللغة المصرية)، وفي النهاية تحول الوثنيون المصريون، ومعهم كثير من اليهود، إلى المسيحية وحافظوا على المجتمع المصرى القديم وعلى لغته كالأقباط واللغة القبطية.

يعتبر انتشار الثقافة الإغريقية، بعد انتصارات الإسكندر الأكبر، من أوضح الأمثلة فى التاريخ. هنا نرى اجتماع عدد من البشر، حققوا إنجازات حاسمة فى اللغة والأدب والفن والعلم والتاريخ والفلسفة والدين وفى الإدارة الحكومية وفى الحرب، كمنجزين. لم يقتصروا على فرد واحد ولا طبقة واحدة ولا مجموعة عرقية أو جغرافية واحدة، بل كانوا متفرقين، منتشرين، هل حدث تشجيع لهم أو إحباط لعقولهم فى الجَيْشَان الذى أعقب انتصارات الإسكندر؟ قد يبدو للوهلة الأولى أن الاضطراب العظيم الذى أصاب العالم الهيلينى - الذى كان مركز الحضارة بعد الإسكندر - قد أصبح مُربكا للأذهان ومحيرا للعقول بلا أمل - صار التعاقب السريع للحرب والسلام، والتغير المستمر فى السياسة، والهجرة المتتالية للبشر، والانتقال السريع للفكر، وتغير الدين واللغة، وثورات الطبقات والأجناس، يجلب عن الوصف ويستعصى على الفهم. ولكن إذا ربطنا بين جميع العناصر القابلة للربط صارت تلك الروابط ذات مغزى يسهل فهمه ويتيسر إدراكه. فقد وضع الإسكندر تنظيما لإدارة إمبراطورية يعتمد على أن يحتل المقدونيين والإغريق القمة، كما نرى من تشكيل الأسر الحاكمة التى خلفته. كانت تلك الأسر إغريقية بالكامل فى غرب الإمبراطورية وفى مصر لعدة أجيال، وقد ساعدت تلك الأسر الإغريقية على استمرار الثقافة الإغريقية وعلى صيانتها، ونشرت الأفكار الإغريقية والتقنية الإغريقية وأصول الإدارة والحكم والقانون وطرق الاستعمار ووسائل التجارة، كما بدعها الإغريق وطوروها. حافظوا على كل تلك المنجزات حتى جاء الوقت الذى أورثوها فيه إلى خلفائهم، أى إلى المجتمعات الأخرى التى أعقبتهن. تحت انتشار الحكام والفلاسفة والفنانين الإغريق فى أنحاء الإمبراطورية، حدث انتشار أوسع مدى لسكان المدن الإغريقية. كان جذب الأراضى اليونانية عامل طرد منذ قديم الأزل لليونانيين للهجرة إلى خارج بلاء اليونان. اتجهوا غربا كمعلمين وسادة، واتجهوا شرقا كتلاميذ وخدم. والآن حدثت طفرة قوية من الهجرة للشرق، بأراضية الخصيبة مع تبدل المواقع. صار الإغريق هم المعلمون والسادة، وأهل البلاد الأصليين هم التابعين. كان الانتصار الساحق السريع الذى حققه الاسكندر الأكبر والمعاملة الحسنة التى أبداها لتلك الشعوب عاملا لها لعدم

معارضته، وكان تعظيمه لدياناتها عنصرا أساسيا للترحيب به. وفي نفس الوقت اكتسب الإغريق مكانة وسلطة فى تلك المجتمعات الجديدة. بدأت الأسماء الإغريقية تنتشر بين الشعب، كما انتشر اللسان الإغريقى ثم الفن الإغريقى. حدث هذا سريعا فى الجزء الغربى من الإمبراطورية وسارع سكان المدن فى غرب إمبراطورية الاسكندر إلى التشبه بالإغريق - أى تحولوا إلى الهيلينية. ويشابه هذا التبدل السريع لما حدث فى العصور التالية من التحول السريع من دين إلى دين، فى أسبابه وآثاره. السبب فى هذا التغير السريع كان رغبة الناس الشديدة للتطور الاجتماعى والتقدم الثقافى، وكان من آثاره الزواج والمختلط بين الشعوب، خاصة بين أبناء الطبقات المحظوظة. تزوج الإغريق من غير الإغريق، ونشأ شعب جديد جمع بين التراث الثقافى والعرقى لكلا الجنسين، بين الإغريق المحدثين وبين الشعوب ذات الحضارات العريقة من بابل وأشور ومصر.

ظلت شبه جزيرة المورة، لسبعة قرون، مهدا لتجمع الجنس الأرى، حيث تناسلوا مع المهاجرين من بلاد الشرق ذات الحضارات القديمة، ونتج عن هذا الزواج جنس فريد فى نوعه، فريد فى ثقافته. الآن تفرق هذا الجنس الجديد، نو الصفات الفريدة، حاملا معه ثقافته إلى عالم فسيح مستعد لاستقبال الفاتحين المحملين بالثقافة والحضارة، لينشرها ويزيد عليها. فى خلال ذلك الانتشار، انتشر الرقيق الجدد، من الحرفيين والمفكرين، المملوكين للسادة الإغريق إلى كافة المدن الإغريقية الجديدة التى تم إنشاؤها. بعد كل معركة انتصر فيها الغزاة، وبعد سقوط كل مدينة فى يد الفاتحين، تم أسر عدد كبير من العبيد الذين بيعوا فى أسواق المدن الجديدة، فى الأماكن التى كانت الحاجة إليهم أشد ما تكون. بعد سقوط صور وقع ٣٠ ألف من أهله فى الأسر، وتم بيعهم فى موانئ البحار، خاصة فى الحى الإغريقى من الاسكندرية. كون هؤلاء الناس أساس الأسطول البحرى العظيم للدولة الجديدة التى صارت الإسكندرية عاصمتها ونظرا لمهارة هؤلاء الملاحين وكفائتهم، تم تحريرهم تباعا وصاروا مواطنين يتحدثون بالإغريقية ويقرأون الأدب الإغريقى وصاروا نواة «للإغريق الجدد». تزوج هؤلاء تباعا من الإغريق القدامى ونشأ منهم شعب هجين، هو الشعب السكندرى الذى حقق العجائب فى العلم، مثل ما حدث من قبل فى صقلية وجنوب ايطاليا. مثال هذا حدث أيضا فى أنطاكية وطرسوس، وفى قبرص وفى سوريا وفلسطين. بين جبال زاغروس من الشرق وساحل البحر المتوسط من الغرب، تحدث المثقفون بلسان واحد، هو اللغة الإغريقية، وهكذا أضيف إلى التجار الإغريق القدامى والحرفيين الإغريق الذين سبق قديمهم إلى تلك البلاد من تبقى من القوات المحاربة من المقتونيين ومن الإغريق، ومن سلك فى خدمتهم وتعاون معهم وتعلم على أيديهم من الإغريق الجدد. صار الجميع يوبون التحدث بالإغريقية، ويتخذ لنفسه اسما إغريقيا، ولو كان من اليهود. وصار الجميع يعبدون آلهة إغريقية (أو ذات أسماء إغريقية)، ماعدا اليهود. تعرض اليهود فى هذا

العالم الجديد المختلط إلى ضغوط عدة على عاداتهم التقليدية ومعتقداتهم الموروثة. تحول بعضهم إلى شيعة تتحدث بالإغريقية بعد أن فقدت اللسان العبرى. فى الإسكندرية، لم يتعلم هؤلاء اللغة الآرامية، واضطروا ليرجموا كتبهم القديمة إلى اللغة الإغريقية. وهكذا كتب المثقفون اليهود (وعددهم ٧٢ عالما)، نتاج فكرهم بالإغريقية، وكتاباتهم الدينية بالإغريقية، وهكذا ظهر أمام بطليموس الثانى، المنقب العميق عن الثقافة والفكر، ثم توالى معرفة الإغريق بهم. بهذا العمل - الذى استغرق ثلاثة قرون - ساعدوا على نشر العقيدة اليهودية، وخليفتها المسيحية، بين الناس. وسرعان ما حدث العكس، وبدأت الألفاظ الإغريقية تظهر فى الكتابات اليهودية الصرفة، كالتلمود العبرى. وهكذا حدث الاتصال ثم التواصل بين الإغريق واليهود واستمرت كفيضان غزير طوال ثلاثة قرون. ولعل هذا هو أهم إنجازات العصر الهيلينستى. الهيلينستية هى أثر من آثار الهجرة الإغريقية إلى المدن، خارج أرض اليونان ذاتها. كانت تلك الهجرة أشد ماتكون فى شبه جزيرة الأناضول حيث اختفت اللغات المحلية ولم يوجد لها أثر فى السجلات المكتوبة لثلاثة قرون. ولكن مما لاشك فيه، أن الفلاحين والرعاة ظلوا محتفظين بنقاء جنسهم وكان تزواجهم مع الإغريق نادرا للغاية وكان تأثرهم بالأفكار الجديدة يكاد يكون متعدما، وكان أثر الإغريق واليهود (وفيما بعد المسيحيين) أقل ما يكون فى الريف، ويعكس الحال فى المدن، الذى نتج فيها أرقى شعوب العالم قاطبة.

تطورت اللغة الإغريقية تباعا باستخدامها المتوالى على مدى ثلاثين جيلا، وباستخدامها فى الاستعمالات الحضارية والثقافية، وهكذا كانت مداد الهيلينستية، ودافعا لنموها فى الوقت ذاته. كانت فى مقدرتها على التعبير المجرد تختلف جذريا عن اللغات السامية، وقد ساعد هذا على نمو الأفكار المجردة وفى نقل تلك الأفكار إلى كل من يتعلم اللغة الإغريقية. وقد أسهمت الألفاظ والتعبيرات الإغريقية - بعد دخولها إلى الآداب العبرية ومن ثم إلى الكتاب المقدس للمسيحيين، فى إضفاء القوة والوضوح والسمة الشاعرية إليه. لأول مرة فى التاريخ يقترب بشر يتحدثون باللسنة مختلفة، ويتكلمون بلغات قد تطورت حتى اكتملت، من بعضهم لهذه الدرجة. اللغة هى ابتكار المجتمع لذاته، من نتاج أناس نوى أصل مشترك، وقربى، ولهم تطلعات مشتركة وأهداف واحدة. ليست اللغة هى أداة لنقل الصوت والفكر فحسب، بل هى جزء أساسى من الفكر والثقافة. اللغة هى نتاج نشاط البشر فى عالم تكيف فيه الإنسان مع التطور. اللغة الأجنبية هى نتاج جنس مغاير من البشر، يعيشون حياة مختلفة وينطقون لغتهم بطريقة مختلفة، ولهم أجرومية مختلفة وأسلوب مختلف فى تكوين الجمل وفى التفكير. يبدو أن استخدام اللغة الإغريقية بواسطة شعوب أجنبية كان من عوامل تقدم الحضارة فى العالم الهيلينستى (كما كان لاستخدام اللغة العبرية من أثر فى الأزمان التالية). أضيف هذا العامل على

عوامل التهجين، وإعادة توحيد الشعوب، والهجرة المنتقاة، فى تكوين الشعوب الجديدة، وفى تطورها وتقدمها.

أول مظاهر التوسع الإغريقى كان خلق مجموعة من المفكرين من نتاج التزواج المختلط القادرين على فهم ثقافات العالم القديم وعلى استيعاب الثقافات التى جدت. وثانى هذه المظاهر كان إنتاجهم لأفكار جديدة وحضارة جديدة من إبداعهم. حوى الفكر الجديد كثيرا من الإنجازات العلمية العقلية التى أضيفت إلى حصيلة الفكر الإنسانى، كما تضمنت إبداعات فنية فريدة، يفخر بها الإنسان. أهم تلك الإنجازات حدثت فى مجالات الفلسفة والدين، وكانت البذرة التى أثمرت قيما بعد تغيرات هائلة فى المجتمع. قبل الاسكندر الأكبر كانت أثينا هى مركز جذب المفكرين من الإغريق وكان أرسطاطاليس هو المفكر الأعظم فى العالم. جاء أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م.) من ستاجيرا، على حدود مقدونيا، وعاد إلى عاصمة الملك فيليب ليصير معلما لابنه الإسكندر (٣٤٢ - ٣٢٥ ق.م.)، إلا أن أثينا كانت موطن إنجازاته العلمية والفلسفية. حضر إلى أثينا فى شبابه ليتلمذ على أفلاطون، كما جاء إليها ديوجينيس الكلبى (من فلاسفة اليونان الذين آمنوا بأن الفضيلة هى الخير الأوجد وبأن جوهرها ضبط النفس ٤١٣ - ٣٢٣ ق.م.) من سينوب، حيث تبادل الحديث مع الإسكندر. جاء إلى أثينا أيضا ايبىكيوراس (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م.) من ساموس الأيونية ومعه مادية ديموقريطس وأحضر معه أيضا النظرية الذرية للوراثة (التي يعتبر إعادة الكشف عنها أحد مقومات تطور الإنسانية كما يبدو فى صفحات هذا الكتاب). بعد عهد الإسكندر استمرت أثينا هى مركز استقطاب العلماء لعدة أجيال. أتى زينون إلى أثينا (٣٥٠ - ٢٦٤ ق.م.) وعلم فيها رؤية للحياة، ظلت هى الرؤية السائدة فى العالم القديم لعدة قرون وهى المعروفة باسم «الرواقية» (وهى المذهب الفلسفى الذى قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تدمر لحكم الضرورة القاهرة). زينون هذا كان من أصل فينيقى وثلاثة من تابعيه كانوا من طرسوس. هنا نرى رجال من مبدعى الأفكار الإغريقية، باللغة الإغريقية، ولكنهم يبنون هذه الأفكار على تراث الشرق القديم. ونرى رجال يرحلون إلى مراكز النور لينشروا أفكارهم وثمرات عقولهم. حيث السوق المفتوحة، كانت أثينا هى منارة الفلسفة، التى بدعها سقراط وزاد عليها كل من أفلاطون وأرسطو. أما منارة العلم فكانت الإسكندرية، التى تعهدا البطالمة وأقاموا فيها المتحف والمكتبة. هناك تناقض واضح بين الاتجاه الأخلاقى والفلسفى الذى ساد أثينا التقليدية والمحافظة، وبين العمل التجريبي والعلمى الذى صار ميسرا للإغريق فى الإسكندرية، من أمثلة هذه المقولة ما حدث لأريستاكس الآتى من ساموس. عالم الفلك هذا كان من أصل أيونى وكان أول من اقترح أن الأرض

تدور في فلك حول الشمس الثابتة. فقدت كتابات هذه العالم ولكن عرفنا به لأنه شجّب لعقوبته من كبير الرواقيين في أثينا، ودفنت نظريته هذه لألفى عام حتى أعيد الكشف عنها في العصر الحديث وثبتت صحتها. كانت حركة هؤلاء الناس دليلا على الهيلينية وكانوا هم بأنفسهم أنوات إبداعها. لم يحدث من قبل، في تاريخ الإنسانية أن تحولت أمم بأسرها بتلك السرعة في أجناسها وفي ثقافتها. وكان الاستعداد للتحول السريع هو خلق فئة متوسطة في المجتمع في المدن الإغريقية. كانت تلك الطبقة تتكون في غالبيتها (ولكن لم تكن كلها) من أصل إغريقي. بواسطة لسانها الإغريقي وثقافتها الإغريقية ربطت المجتمعات معا برباط وثيق وجعلت أي تغيير مستقبلي لها، فيما بعد، من العسير حدوثه. ولكنها أوجدت أيضا مشكلة العلاقة بين الطبقات وأوجدت القلق من استمرار العبيد ومن تكرار الحروب ومن مفاهيم الأديان، مما لم يسبق للمجتمعات المختلفة أن قابلته من قبل. لم تسبب الهيلينية تباعدا بين المدينة والريف ولا بين الطبقات المتعلمة وغير المتعلمة أكثر مما كان موجودا من قبل. ولكن حدث التباعد في الأفكار الدينية والمعتقدات. كان الدين فيما سبق هو الوسيلة التي يربط بها الناس وتوجد بينهم. الآن صار الدين مصدر توتر مستمر وشديد نظرا للتغيرات الجديدة التي جدت على المجتمع. صارت هناك تواترات بين من يحبون الحرب ومن يكرهونها، وبين من يعبدون الأصنام ومن يسترضون ألهتهم بإراقة الدم وتقديم الأضاحي، ومن يرفض الإتيان بهذه الطقوس (كالرواقيين)، كما كان هناك اختلاف بين من يحبون نظام الرقيق ومن يمتقونه ويستهنون به. كانت الأخوة ممكنة بين الفئات المختلفة تحت حكم ملك مستنير مثل أنتيجونس جوناتس وصار التلاقي بين الأجناس المختلفة تاما. صار بالإمكان التعبير المجرد باستخدام اللغة الإغريقية (الذي يختلف تماما عما هو متاح في اللغات السامية القديمة)، وهكذا تحررت أفكار سائر الأمم بعد تعلمها الإغريقية في العالم الهيلينستي ولكن لم يتم التلاقي بين طبقات المجتمع المختلفة التي انقسمت إليها الأجناس. كان لانتشار الهيلينية الأثر في تحرير أفكار البشر من القيود السابقة، ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الجانب الأخلاقي الذي جلس الرواقيون على قمته ومازال يغذي أفكارنا إلى عصرنا الحاضر. كان من أبرز أفكار الرواقيين، أفكار جمهورية زينون، التي تؤمن بأن العدل طبيعي ومن الفطرة التي فطر الإنسان عليها. كذلك نظرة الرواقيين إلى الحرية، وأن الحرية لا تتناقض مع الطاعة، بخضوع كافة الأفراد لحاجة المجتمع. (في الواقع أن التمييز بين التعاون والخضوع هي عملية تكيف مستمر ينميها الانتقاء الطبيعي). لانزعم أن الفروق الوراثية بين مختلف الأجناس وبين الطبقات، بين العبيد والأحرار، بين الرجال والنساء، ستنمحى تماما، ولكن ما ندعيه أن تلك الفروق لا تمنع الأخوة بين البشر. كان هذا هو مبدأ الرواقيين الذين أتوا من طرسوس. لم تظهر تلك الآراء أيام الإسكندر الأكبر في ساحات الحروب العنيفة التي صاحبت هذا العصر، ولكنها ظهرت في عهود أسلافه، حتى أيام

حروبهم. هذه الأفكار، أفكار المثقفين الأنكباء، وليست أفكار الحكام، وترجع إلى طرسوس وتشأت منذ حوالي ثلاثة قرون قبل ظهورها وانتشارها في المذهب الأبيقورى (نسبة لأبيقور، الفيلسوف الإغريقى الذى قال بأن المتعة هى الخير الأسمى والفضلية وحدها هى مصدر المتعة). ليس للألهة أى شأن بشئون البشر وأن مبدأ الرواقيين أن الصلوات وتقديم القرابين للأصنام والمزارات بغير ذى جدوى. تقبل المستنيريون هذا الرأى بالتدريج فى جميع أنحاء العالم الهيلينستى. فى هذا العالم ظهر اليهود، وكان لهم تأثير شديد ضد كافة أنواع الوثنية، وانتشر أثرهم وتعليمهم سريعا، وتحول عدد كبير من المثقفين ومن جماهير الشعب إلى الديانة اليهودية. هكذا، ظهر فى المجتمع الهيلينستى حركات مختلفة، تبغى كلها لتغير فى الأفكار الدينية السائدة منذ القدم، أثارت بالنقاش الذى أثارته بين كافة طبقات المجتمع، وعلى الأخص بين المثقفين من كافة الأجناس، إلى الوحدة بين أفكارهم وسببت تباعدا بينهم وبين غير المثقفين الذين ظلوا على عبادة التصاوير والتماثيل وظلوا على تقديم القرابين والتضحية بالدم لها. منذ قديم الأزل أدرك الناس الفروق الواضحة، فى القدرة العقلية وفى القوة العضلية، بين مختلف البشر، ولكن فى العصر الهيلينستى جاء الإغريق واليهود بالأفكار التى تدعو لقبول تلك الفروق ومحاولة المساواة بين البشر، وجاءت المسيحية ثم الإسلام بعدها لتدعيم مبدأ المساواة، ولكن كانت الهيلينستية هى التربة التى أثمرت تلك المساواة بين البشر.

الباب الثاني عشر

الامبراطورية الرومانية

استعمرت إيطاليا - مثل باقى البلدان الأوروبية - بواسطة موجات متتالية من الناس، لانتشار الزراعة، وانتشار الأعمال المعدنية، وانتشار التجار، وبناء المدن. استعمرتها موجات متتالية جاءت من آسيا ومن بلاد الإغريق. حدث التقدم سريعا، وجاء التنوير عقب عصور ما قبل التاريخ مباشرة، كما يوضح الجدول رقم (٨):

جدول رقم (٨)

استيطان إيطاليا من سنة ٣٠٠٠ - ٣٠٠ ق.م.

قبل نشأة الكتابة		
العصر الباليوليثى	من إفريقيا وأوروبا	حتى عام ٣٠٠٠ ق.م.
العصر النيوليثى	عصر الزراعة والرعى	من ٣٠٠٠ - ٢٠٠ ق.م.
العصر الميجاليثى	من أبوليا ومن الجزر	من ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م.
العصر البرونزى	الإريان، جاءت موجات متتالية منهم من وسط أوروبا كغزاة فاتحين	من ١٨٠٠ ق.م. وما بعدها.
عصر الحديد	١- جاءت مجموعات من التجار الحدادين من البلقان عبر البحر الادرياتيكي	حوالى ٨٠٠ ق.م.
	٢- جاءت قبائل من الكلت من أواسط أوروبا.	حوالى ٤٠٠ ق.م.
	الغال.	

بعد نشأة الكتابة

المتحدثون بالإغريقية	من المدن الساحلية باليونان والأناضول وأنشأوا مدنا ساحلية فى الجنوب ثم تغفلوا فى البلاد.	من ٨٠٠ - ٣٢٠ ق.م.
المتحدثون بالإتروسكية	من داخل ليديا، أنشأوا مدنا فى توسكانيا ثم انتشروا منها.	من ٧٥٠ ق.م.

أدخل السكان فى العصرين النيوليثى والبرونزى الزراعة إلى إيطاليا فى الأراضى الشمالية الخصبة، وكان عدد السكان قليلا فى أخصب الأراضى الخالية من الغابات فى شبه الجزيرة. كان السكان من المزارعين ومن الرعاة. كان المهاجرون، من غير السكان الأصليين، يتحدثون بالسنة مختلفة، اختفت جميعا (ماعدا لغة الباسك التى مازال يتحدث بها الناس فى شمال إسبانيا وعلى حدود فرنسا). جاء الإريان أول ما جاوا فى العصر البرونزى من وسط أوروبا، ونظرا لشراستهم وسرعة تحركهم وانتقالهم من مكان لمكان سعيا وراء الكلاء لمواشيهم لم يستقروا تماما فى البلاد. ربما كان المستعمرون فى العصر الميجاليثى هم أول من جاء من المستنيرين إلى إيطاليا، إذ كانت لهم علاقة بحضارات الشرق القديمة. استقر هؤلاء فى الجزر، استقروا فى مالطا وفى سردينيا، كما استقروا فى أبوليا، وكان لهم تأثير ضعيف على نمو الحضارة فى إيطاليا فى القرن الثامن ق.م. بدأ استعمار القادمون من الشرق فى إيطاليا واستيطانها. حضر الفينيقيون وأنشأوا الموانئ (كما أنشأوها على سواحل إفريقيا وإسبانيا)، كما جاء آخرون من بحر إيجه، من جزر اليونان ومن أرض اليونان الأصلية، وبدأوا فى الاستقرار فى مستعمرات أنشأوها على السواحل الجنوبية والغربية لشبه الجزيرة الإيطالية. ويمكن التعرف على المستعمرات الإغريقية، بالكتابات الإغريقية التى تم العثور عليها فى تلك الأماكن على سبيل المثال عرفنا أن كوما (على الساحل بالقرب من نابولى) أنشئت فى عام ٧٥٧ ق.م.، أنشأها سكان المدينة الأيونية الأصلية كاييم. استمرت المستعمرات الإغريقية الجديدة تتحدث باللسان الإغريقى، وتتبع العادات والتقاليد الإغريقية، وكان اتجاه الإغريق إنشاء موانئهم على سواحل البحار، ولم تكن لديهم الرغبة فى الاختلاط بالهمج الذين يعيشون فى داخل البلاد. تكونت مستعمرات أخرى فى شمال البلاد على الساحل من أناس نوى أصول ترجع لبحر إيجه ولكنهم لا يتحدثون بالإغريقية، وكان لديهم الاستعداد للتغفل إلى داخل البلاد وعدم الاقتصار على المستعمرات الساحلية هؤلاء هم من سيطروا على البلاد بمرور الوقت خلال قرنين من الزمان

وكانت إقامتهم الأولى فى الأراضى بين نهري التيبير والأرنو. هؤلاء هم الإتروسكان (من الاسم اللاتينى إتروسكى أو توسكى)، وكانو معروفين لدى قدماء المصريين فى القرن الثالث عشر ق.م. باسم تورسا.

لما كتب المؤرخون الإغريق والرومان فيما بعد عن أصل الإتروسكان الذين لم يفهموا لغتهم، جاؤا بمعلومات متناقضة وغير واضحة. وصفهم هيرودوت، بعد ٣٠٠ سنة بعد استقرارهم، أنهم جاؤا من ليديا وأنهم رحلوا من سميرنا لإنشاء مستعمرات فى إيطاليا بقيادة ابن الملك، تيريناس، ولكن ديونيساس من هاليكارناسس الذى كتب عنهم بعد ٥٠٠ سنة أخرى رجح أنهم أهل البلاد الأصليين ولم يأتوا من أى مكان آخر. اعتنق المؤرخون الرومان، فيرجيل وهوراس وأوفيد، نظرية هيرودوت وسموا نهر التيبير النهر الليدى. كتب الإتروسكان لغتهم بحروف إغريقية (ومن هنا أمكن حل شفرتها جزئيا)، وقد وجدت نقوش من هذه اللغة فى جزيرة لنموس (قبل احتلال الاثينيين لتلك الجزيرة سنة ٥١٠ ق.م.)، وقد تعتبر لغة هذه الجزيرة أصلا للغة الإتروسكانية. بدأ الإتروسكان كفتات محاربة من داخل الأناضول. أحضروا معهم عمال مناجم وحدادين واستقروا فى جزيرة إلبا (الغنية بالحديد) وفى داخل البلاد (حيث يكثر النحاس). سرعان ما أضفى عمل أولئك الرجال، وتزويدهم المدن بالأسلحة، القوة على المستعمرين الجدد. كان معهم ملاحون وبحارة الأسطول الإغريق فى ماسيليا، وفتحوا جزيرة كورسيكا (بالإضافة لجزيرة إلبا) ورحلوا فى أعقاب الفينيقين المستوطنين فى قرطاجنة وتحالفوا معهم. ولابد أنهم أحضروا معهم البنائين (غالبا من الميسنيين) لأنهم تفوقوا على الإغريق (من البداية) فى بناء القباب والأقواس والقنوات والمصارف. نشر من أعقبهم هذه المخترعات إلى بلاد عديدة. وأخيرا جاء معهم رجال الدين الذين أدخلوا عبادة أرباب الشرق إلى الأراضى الإيطالية (اتبعوا خاصة الطقوس البابلية). يقص لنا تاريخ الإتروسكان فيما تركوه من مقابر أظهرت الخبىء من أسرارهم. كان اهتمامهم شديدا بحفظ الموتى (الأغنياء منهم)، كما كان المصريون، وبقيت لنا مقابر فى المدن الاثنا عشر التى بنوها. توضح تلك المقابر خط السير الذى اتبعوه ونمو طبقتهم الحاكمة من القرن الثامن إلى القرن الثانى ق.م. أول موضع استقر فيه الإتروسكان على الساحل فى تاركينا. وجدوا فى هذا المكان موضعا محصنا طبيعيا يمكن الدفاع عنه بسهولة، فبنوا فيه مدينتهم، بعد دحر رجال القبائل التى كانت تقطن هذا المكان، وأسسوا ولاية تحت حكم أمير من الكهنة. ومن هنا يتبين لنا أن استيطان الإتروسكان كان مخالفا للأسلوب الذى كان يتبعه الإغريق، فقد استوطن الإغريق المستعمرات كتجار بينما استوطن الأتروسكان المستعمرات كغزاة منتصرين ومحاربين أشداء. تحرك الإتروسكان شمالا كلما قويت شوكتهم وكلما زادت أعدادهم وكانوا يختارون الإقامة على التلال (التي يمكن الدفاع عنها) وليس فى الوديان (سكنوا فى فيسول وليس فى فلورنسا). أقاموا ١٢ مدينة كونت اتحادا فيما بينها، وكانوا يقيمون

احتفالا سنويا لهذا الاتحاد، يذكرنا باحتفال الشرقيين من العرب والإسرائيليين. ثم تبعهم فى إقامة اللقاء السنوى الإغريق (ومن بعدهم اللاتين). كان اللقاء السنوى يعقد فى موضع مقدس (بالقرب من أورفيتو الحديثة)، قدمه من قبلهم السكان النيوليثيون والسكان الباليوليثيون الذين سرعان ما تم امتصاصهم تماما من المستعمرين الجدد. كانت تتغير طبائعهم وعاداتهم كلما رحلوا شمالا، أقلعوا عن دفن موتاهم وصاروا يحرقون الجثث. تبدلت الروح الشرقية المميزة فى فنونهم مع استخدام الطرق الحديثة والمواد الجديدة التى وجدوها فى كل مدينة شيوها. كان التغير من عمل المغيرين الجدد والحكام الجدد، الذين سرعان ما تم اختلاطهم بكبار أهالى القبائل التى أخضعوها (وتكرر هذا العمل فى كل التاريخ الرومانى)، ظلت كل مدينة محتفظة بطابعها المحلى (كما كان الحال فى المدن الإغريقية القديمة)، كما استمر على هذه الحال أهالى توسكانيا إلى اليوم. الأهالى يفضلون أن تقسم بلادهم إلى ولايات مستقلة ليسهل الدفاع عن كل ولاية، ويحتفظ الأهالى بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة من بلادهم الأصلية. ولكن تقسيم البلد يعنى صعوبة المواصلات بين أجزائها وتعنى تربية مختلفة لأهاليها (حتى بين الطبقة الحاكمة). ظلت إيطاليا لمدة طويلة مقسمة سياسيا وظلت فنونها ذات طابع محلى لدرجة كبيرة، وتميز كل اقليم بالإستقرار التام. عندما دخلت إيطاليا إلى القرنين السادس والخامس ق.م. كانت توسكانيا تتربع فى الصدارة بين مختلف الأقاليم الإيطالية. كانت أكثرها حضارة، وإذا كانت الروابط بينها وبين اليونان أشد ما قريبا. احتفظ الإتروسكان بمعبد لهم فى دلفى، واستوردوا الفخار من أتيكا بكميات كبيرة (حتى أن الأوانى افخارية ذات الطابع اليونانى عثر عليها بوفرة أكثر فى ذلك الجزء من إيطاليا عنها فى أتيكا). وهكذا جمع الإتروسكان بين تراث الحيثيين - من حيث أتوا، وبين تراث اليونان الذين ارتبطوا بهم. أسد فالشى على سبيل المثال لايشبه الأسود المعاصرة ولكنه قريب الشبه بأسود الحيثيين الذين وجدوا قبل ألف سنة، تمثال الذئبة الذى عمل فى قينى يشابه تماما ذئبة الكابيتول اليونانى، كما لعب المسرح الإغريقى دورا هائلا لدى الإتروسكان. ترعرعت الثقافة الإتروسكانية وازدهرت ازدهارا عميقا فى تلك الفترة التى كانت الأبواب مفتوحة على مصراعها تجاه الشرق. بدأت الإمبراطورية الإتروسكانية فى ذلك العهد وانتشرت، اتجهوا جنوبا واحتلوا روما وأنشأوا كابوا فى القرن السادس قبل الميلاد، وبعد طردهم من روما اتجهوا شمالا واستوطنوا فى حوض نهر النبو فى القرن الخامس ق.م.، وأنشأوا المدن التى تعرف حاليا باسم بولونيا، مانتوا ومودينا. فى نفس الوقت الذى كان المستعمرون يصلون فيه إلى شبه الجزيرة الإيطالية عن طريق البحر جاءت موجات متتالية من الهجرات من الأناضول عن طريق البر، متتبعين طرق التوسع النيوليثى، وأخذين معهم الإنجازات الحضارية الحديثة من طرق الكشف عن خام الحديد واستخراجه وصناعته من خاماته. قابلت هذه الموجات قبائل إيرانية فى حوض الدانوب

الأعلى، القبائل التي رحلت غربا من أقرباء تلك القبائل التي رحلت إلى الشرق. كشفت تلك القبائل عن مزيد من خام الحديد بالنمسا، حديد أشد صلابة يصلح لصنع الأسلحة والآلات، فتكاثر عددهم وتوسعت أراضيهم. كونوا (كما سبق أن ذكرنا) هالستات (أو سالزبرج) وحضارة لاتين (لدى علماء الآثار)، أو الكلت (لدى علماء اللغة والمؤرخين). غزوا البلاد التي أطلقوا عليها اسم الغال (فرتسا) إلى الغرب والولايات التي سميت بغاليسيا (فى إسبانيا، وفى بولندا) ونسبت هذه الولايات إلى جالاتيا بالأناضول. استفاد هؤلاء القوم من أنواع الخيول المحسنة التي أدخلها الفرس إلى أوروبا فى حروبهم، كما اسفانوا من هجرة واستيطان الحرفيين الآتين من العالم المتحضر إلى بلادهم، ومن ضمنهم الإتروسكان أنفسهم. كان للاختلاط فوائد جمة وعاد عليهم بمخترعات جديدة عظيمة الفائدة، لعل من أهمها حداوى الحديد لخيولهم، التي جعلت عرباتهم الحربية أشد سطوة وأفضل أثرا. غزا الغاليون شمال إيطاليا عند نهاية القرن الخامس ق.م. انهمروا عبر جبال الإلب ونهبوا المدن الغنية فى شمال إيطاليا وحاصروا روما وتركوها نظير فدية دفعها أهل روما. لم يهاجر الإتروسكان جنوبا إلى لاتيام فى مقابلة هذا الغزو، وانتقل مركز القوة من الأتروسكان إلى روما.

هناك عدة أسباب تفسر هزيمة الإتروسكان أمام الغزاة من الغال. أولاها أنهم كانوا يؤمنون بالخرافات الدينية (أشد من إيمان البابليين أنفسهم). كانوا يستطلعون المستقبل بفحص أكباد الطيور (ومازال بعض البشر، حتى عصرنا الحاضر، يؤمنون بمثل هذه الخزعبلات). أما الفلسفة الأيونية والإغريقية - التي كانت نتاج التفكير العقلى - فقد بدأت تؤثر على عقول الحكام والجنرالات فى العالم القديم وبدأت هذه الخرافات تزول من أذهانهم. ربما كان لرجال الدين عند الإتروسكان من القوة ما استطاعوا به أن يسيطروا بأفكارهم على الحكام - لىبقى لهم نفوذهم. كذلك عمد رجال الدين الإتروسكانيون على عزلة بلادهم عن العالم وكان من أثر هذه العزلة افتقاد المجتمع الإتروسكاني للتطور وتوقفه على حاله. عملت التلال والجبال الموجودة فى توسكانيا - التي كانت حاميا منيعا للإتروسكان فى مبدأ أمرهم حتى اعتبروا أنفسهم واعتبرهم الآخرون أمة عظيمة - كانت نفس تلك الجبال والتلال عائقا لطرق التجارة وعزلتهم عن الاتصال بالعالم عن طريق البر والبحر. عزلتهم عن الأفكار الجديدة وعزلتهم عن البشر الجدد وقسمتهم أنفسهم إلى شطف معزولة عن بعضها البعض يصعب الاتصال بينها، كما كان حال المدن الإغريقية المتفرقة والمتحاربة التي لم تقم لها قائمة حتى وحدها فيليب المقدونى وجعل منها أمة عظمى. كانت العزلة من الشدة بحيث لم تخدم الخلافات بين طبقاتها المختلفة، بين الحكام ورجال الدين وعامة الجماهير الرقيق. لو وصلت إلى هؤلاء الناس الأفكار التقدمية التي جاء بها فلاسفة الإغريق وأحبار اليهود لانتفتح العالم أمام الإتروسكان. ولكن لغتهم كانت لغة بائدة لا يتحدث أحد بها غيرهم، وكان كهنتهم وجمودهم عائقا

إضافيا لهم، بعد عدة قرون من الإستعمال اختفت لغة الإتروسكان تماما من الوجود، حتى فى روما ذاتها. ذبلت اللغة لأنه لم يوجد المستنيريون من أهلها - كما وجد لدى الإغريق واللاتين - الذين يطورونها كلما تطورت الحضارة وتقدمت الأفكار. تشابه مدن الإتروسكان فى مصيرها مدينة قرطاجنة، ومثل أهل قرطاجنة خضعوا لروما، التى ابتلعت كثيرا من أفرادهم الموهوبين وذوى الكفاءات حتى مسحوا تماما نكرى أمة كانت عظيمة فى يوم من الأيام.

مدينة روما هى أول مدينة عرف أصلها من الحفريات التى تم حفرها ومن الكتابات التى كتبت عنها، كما توضح قرائن دينية وأدبية عن تلك الأصول. اجتذبت المستوطنين الأوائل من الإغريق ومن الإتروسكان، للاستقرار فى المنطقة جنوبى نهر التيبر، ربما لقرها فى المعادن، ربما لكثرة براكينها. ثم سكنها عدد قليل ممن يتحدثون باللاتينية حوالى القرن التاسع ق.م.، وسكن الفلاحون فى السهول والرعاة على التلال، قرى قامت على النظام الأبوى القائم على حكم العشيرة. اتصلت القرى ببعضها البعض وكونت قبائل. كانت تشترك فى احتفالاتها الدينية وفى أماكنها المقدسة. كان الخوف من مهاجمة قرى الإتروسكان لها وفرص التجارة مع المستعمرين الإتروسكان والاستعانة بهم فى بناء المدن، وهم على خبرة بينائها، دافعا للقرى الرومانية للتقارب والاندماج، وتبنى الأسوار، وتنتخب قادة عسكريين، وتنظم احتفالات جماعية، ونظام تجارى مشترك، وتبدأ بتكوين المدن ذاتها. إحدى تلك المدن كانت روما، التى ظهرت فى القرن الثامن ق.م.، كان وضعها منذ البداية مفتاح حياتها بنيت روما على التلال، أولا على تل واحد، ثم الذى يليه، وكانت تحميها فى البداية المستنقعات، أما الأراضى الزراعية التى كانت تكفل الحياة لها فكانت مكشوفة تماما وعرضة للغاصبين. كانت مدن الإتروسكان تقع على بعد ١٢ ميلا شمالى روما، حيث تقع أقرب مدينة لها، مدينة فيس، التى كانت كثيرا ما تتحدى روما حتى استولى عليها كاميلوس أخيرا عام ٢٩٦ ق.م. اكتسب نبلاء روما مراكزهم (مثل كل النبلاء فى العالم القديم) من مقدرتهم على الدفاع عن المدينة ومهاجمة أعدائها. كانت مدينة روما الواقعة على الحدود بين الإتروسكان واللاتين، على تلال منخفضة، فى سهل فسيح مدينة مكشوفة لأعدائها، الذين يمكنهم الإغارة عليها فى أى لحظة (كما فعل أهل الغال فى وقتها)، ولذا كان من العجيب أن تبقى هذه المدينة على مر التاريخ مدينة مستقلة. كانت كل محنة تمر بها المدينة تكسب نبلاءها مزيدا من القوة (عند الانتصار) أو تخزيهم وتضعف من شأنهم (عند الهزيمة). بعد كل محنة كان يحدث تعديل فى حقوق وواجبات الطبقة الحاكمة والمحكومين على السواء، مما أدى تدريجيا إلى نشأة دستور للبلاد وقوانين تنظم حركتها. كانت مدينة روما تقع عند التقاء طريقتين أساسيين، الطريق إلى الجنوب الذى يصل المدينة بالمستوطنات الإغريقية، والطريق الذى يحمل الملح من البحر من مصب نهر التيبر إلى القاطنين على التلال. وهكذا كانت المدينة مكانا لتقاء عدة فئات من البشر: أولا اللاتين والسابين ثم الإتروسكان. كانت القرى هناك تنقسم لتبعيتها تلك الفئات:

قرى اللاتين : أميلي ، كورنيللي ، مانلى .

قرى السابين : كلاودى ، فاليرى ، قابى .

قرى الإتروسكان : ليشينى .

وفيما بعد نشأت قرى لفئة ألبالونجا وهى : جولى، سيرفيلى. كان الحكام يتم انتخابهم بواسطة ممثلى تلك العشائر: اللاتين والسابين والإتروسكان. للتمتع بحماية مدينة روما، اجتذبت المدينة طوائف شتى من الرجال، كان بعضهم تجارا وبعضهم حرفيين وبعضهم عبيدا تم أسرهم من المراكز القديمة الإتروسكانية والإغريقية. تلك الطوائف كونت الطبقة العاملة والمهنيين وجماهير الشعب. كان هؤلاء العاملون يدعمون سادتهم ويحملون أسماءهم ويطيعون أوامرهم وقوانينهم، ويدفعون الضرائب. تعلم هؤلاء التحدث بلسان سادتهم وفى نهاية الأمر سمح لهم بعبادة آلهتهم، ازداد تعداد العبيد بمرور الزمن من الأسر فى الحروب ومن التكاثر لدى سادتهم. كان من يتمكنون من سداد ديونهم يسجنون (ولا يستعبدون)، وكان أسرى الحروب فى البداية يتم الإفراج عنهم بعد أن تضع الحرب أوزارها. كان العبيد يهربون من سادتهم عندما تحيط الكوارث بروما. ولكن منذ عام ٤٢٠ ق.م. صار الرومان يحولون أسرى الحرب إلى رقيق دائمين ولا يفرجون عنهم، عندما قويت شوكتهم وازداد ثراؤهم وصار بإمكانهم الاحتفاظ بأعداد كبيرة من العبيد. أدخل الرومان تحسينات عن نظم البلاد الشرقية لأسواق العبيد. فقد أنشأوا مدارس لتعليمهم الصراع والنزال ليصيروا محاربين أشداء محترفين كما استفادواهم فى أعمال المناجم وفى الحقول، وأنزل أقصى العقوبات على الهاربين، وقد قامت عدة ثورات للعبيد على سادتهم فى العصر الرومانى.

كانت العلاقة بين روما والإتروسكان تختلف من الناحية السياسية عنها فى العلاقات الاجتماعية. استمرت الخلافات السياسية نحو من مائة عام، بينما استمرت فى الناحية الاجتماعية نيفا وألف عام. تُظهر روما بوضوح تاريخ المدن الغربية كلها. فقد بنيت هذه المدن بأيدى رجال جاؤا من الشرق القديم (ومما لا شك فيه أن المستوطنين الإتروسكان قد عاونوا فى بناء مدينة روما فى أول الأمر) فقد بنوا المساكن وأنشأوا المصارف ورسفوا الشوارع وبنوا الأسوار حول روما كما كانوا يفعلون فى مدنهم. وشيد تاركويناس العظيم المعالم الدينية والمدنية الكبرى. فقد أنشأ السرك الكبير ومعبد الآلهة الثلاثة، جوبيتر وجونو ومنرفا على الكابيتول والمزار المقدس الجماعى للرومانيين والسابين والإتروسكان، وبنى المجارى الضخمة لمدينة روما (وقد جمع لهذه الأعمال كلها المهندسين من بلاد الإتروسكان) أما خلفه، سيرفيوس فكان هو باني القوات الحربية الرومانية، فقد أنشأ الجيوش، ودرّب الخيالة، ووضع الخطط، ونسق بين مواضع قوات المشاة الخفيفة والثقيلة. كذلك

وضع نظام التعداد للسكان والممتلكات بهدف حصرها لفرض الضرائب وتجهيزها للخدمة العسكرية. قسم السكان إلى خمس طبقات حسب نوع الأسلحة التي تسمح لهم ثروتهم باقتنائها. ووضع كذلك طرق الانتخاب عن طريق الوحدات الانتخابية المنوية، الذي سمح للطبقتين الثريتين قليلتي العدد بالحصول على غالبية الأصوات. كانت مساحة الولاية الرومانية تبلغ ٥٠٠ ميلا مربعا، ولكنها استطاعت (بنظم الصرف التي أنشأت وبالتحسينات التي أدخلت على الحياة المدنية، والتي كان الفضل الأكبر فيها للإتروسكان) من أن تهيم الحياة الرغدة لعشرات الآلاف وأن تمتلك جيشا كان تعداده ٢٠ ألف رجل. كان هؤلاء الملوك من أصول إغريقية وإيطالية، تزوجوا من عشائر النبلاء الرومانيين واستخدموا أسماء الأسر الإيتروسكانية، وهكذا تداخلت الجنسيات حتى اختفت. لم ينشأ الخلاف بين الإيتروسكان والرومان بسبب اختلافات عرقية ولكن بسبب أن الملوك لم يقدروا النبلاء المحاربين حق قدرهم، إذ كان عامة الشعب أكثر فائدة لهم من النبلاء. كانت النتيجة انتصار النبلاء وطرد الملوك، مما يعنى فقدان الأرض والتجارة والحضارة. وقد أدى هذا أيضا إلى نشأة حكومات القلة من النبلاء، التي تهيم عليها جماعات صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية، حكومات عسكرية، تدافع عن نفسها بكل قوة ضد من يحاول قلبها وترفض التدخل الأجنبي في شئونها. استمرت الجمهورية الرومانية الجديدة في ارتداء كل زخارف الحضارة الإيتروسكانية. استخدموا الموظفين التي تنحصر مهمتهم في إفساح الطريق للحاكم في الاحتفالات العامة، وشعارات القانون والعقاب، والأثواب الفضفاضة التي اشتهر بها الرومان وشعارات السلطة والانتصارات الحربية. كانوا يؤمنون بالرجم بالغياب. اتخذوا لهم آلهة البحر المتوسط وإله الإريان، جوبيتر (بعد تحوير أسمائهم)، واستخدموا لغة الدين ولغة المسرح وغيرها مما يوحى بتراث الإيتروسكان. نزال المصارعين، الذي صار من معالم الحياة الرومانية، هو أيضا من تراث الإيتروسكان. في تاريخ الثقافات الإنسانية نذكر أن الأضحية الإنسانية عرفت أول ما عرفت لدى السومريين، وكانت من طقوس الدفن الملكي. أما لدى الرومان فكانت رياضة يلهون بمشاهدتها (كما هو الحال في الإعدام العلني أمام الجماهير، وفي لعبة مصارعة الثيران في عصرنا الحالي). أسرى الحروب الشجعان والأقوياء الذين لا يتمكنون من فرض الرق عليهم، الجامحون المتطرفون الهائجون الذين لا يمكن السيطرة عليهم وفي نفس الوقت لا يمكن الإفراج عنهم وإطلاق سبيلهم لخطورتهم، كانوا يختارون ويديرون ليكونوا مجالدوروما القديمة، الذين يقاتلون حتى الموت أمام النظارة لامتاع الناس. (كان هذا الفعل، الذي استمر لقرون عديدة من أسباب انهيار الإمبراطورية الرومانية).

وجدت آثار في الدولة الرومانية - بعد أربعة قرون من إنشاء مدينة روما - تؤكد أن الحرفيين من حوض البحر المتوسط، الآتين من الحضارات القديمة كان لهم أكبر الأثر على حرفيي وفناني الدولة

الرومانية. ففي المدينة اللاتينية المسماة باسترينا وجدت أعمال ذات طراز إتروسكاني عليها تصاوير إغريقية ونقوش بالهيريوغليفية المصرية وعليها أسماء فينيقية لأصحابها. هكذا كان فنانون البحر المتوسط وصنّاعه وحرفيوه في ذلك العصر، يتنقلون بين جميع بلدانه، بفنهم وصناعاتهم وحرفتهم. كذلك بدأت اللغة اللاتينية في هضم وتمثل الألفاظ التي جاءت من الثقافة الإغريقية. عبر الفنانون والحرفيون الحدود بين الولايات المتحاربة ولم يعاؤوا بالحرب، وأكدوا بانتقالهم هذه وحدة إيطاليا وارتباط روما الوثيق بالشرق منذ نشأتها. حدث الاندماج بين الأفكار الإتروسكانية وبين الأفكار الرومانية بارتباط رجال الدين من كلتا الحضارتين بالتزاوج مع نبلاء أقوامهم. فقد اتضح لأسلاف الإتروسكان - منذ البداية - أهمية الارتباط برجال الدين - نوى السلطة الطاغية على الجماهير. في أودوك في جيلجاش كان المعبد والقصر متجاورين، وفي مصر كان الفرعون هو الإله، ولكن كان العسكريون ورجال الدين طبقات منفصلة عن بعضها، كذلك كان الحال في إسرائيل. ولكن لدى الإريان ظهرت الفكرة بأن يكون النبلاء هم مصدر السلطة الدينية والسلطة العسكرية معا، وغلبت هذه الفكرة وتحققت على يد الرومان أكثر من كونها فكرة مستحبة في الحضارة الإغريقية. في العصر الروماني كان النبلاء هم من يعينون رجال الدين وكانوا يختارونهم من أسرهم ومن طبقتهم، وهكذا ثبتت السلطة الدينية في جميع أنحاء الأمة بينهم. وصارت السلطة الحاكمة والسلطة الدينية واحدة. أضفى هذا وحدة في الهدف وتحجرا في القلب وقسوة لامثيل لها للسلطة الحاكمة. وقد سبب هذا الإجراء تطور الطبقة الحاكمة ومبادئها الأخلاقية وقواعدها القانونية. سيطر على الرومان مبادئ السلطة العليا في الحرب، والفضيلة العظمى في الشجاعة لدى الجنود، والطاعة الكاملة لدى الزوجات والأبناء والعبيد. كان هذا لازما لأمة تبغى الحياة مع ظروفها الصعبة، وشعب ينشئ إمبراطورية شاسعة عن طريق الفتوحات. كانت تلك الوحدة، بين الحاكم ورجل الدين، مصدر قوة واستمرارية في عصور صعود نجم الإمبراطورية الرومانية، ولكنها عرضت الدولة لأخطار لايمكن الخلاص منها إلا بثورة دينية، حدثت واقتلعت الإمبراطورية من جنورها. كان غياب أي توازن للقوى وانعدام وجود سلطة قضائية عليا يتوجه إليها الناس عند ضياع حقوقهم أو حدوث أي خلاف بين الطبقات أو بين العائلات حقيقة ولكن كان اختلاط الدم الإتروسكاني والدم الإغريقي، ودماء باقي الأجانب مع دم النبلاء والجماهير الرومانية هو مصدر القوة للمجتمع الروماني، والذي أعطاه المقدرة في القرن الخامس ق.م. ليصير مجتمعا عدوانيا، طموحا، وتوصل في النهاية إلى أن يسيطر على العالم.

تذكر لنا الأسطورة أن روميولوس، في البداية، اختار مائة من رؤس الأسر الريفية ويكون منهم مجلس شورى للحاكم من الشيوخ. (وهذا مشابه لما فعلته مجتمعات إيرانية سابقة من تكوين

مجالس تُعين الحاكم وتتصح له. فقد حدث فى إسبرطة وحدث فى أثينا وحدث مع ملوك الإيتروسكان). عندما طُرد الملوك - بعد نزاعهم مع النبلاء - ظلت للملوك السلطة فى مدينة روما وظل النبلاء محتفظين بها فى الأرياف المحيطة بمدينة روما، مصدر الثراء للمجتمع. وهكذا تقلصت تدريجيا سلطة الملك وازدادت سلطة النبلاء. ولكن قابل النبلاء مشكلة صعوبة واستحالة ضبط مختلف الطبقات والطوائف، الذين يتكونون من إغريق وإيتروسكان، ومخلفين، ومن تجار وحرفيين، الذين كانوا يحتاجون للحكام لحمايتهم والدفاع عنهم. توصل النبلاء إلى صيغة استبعاد تلك الطبقات والطوائف من مجلس «السينيت» ومن الطوائف الحكومية، وقصر مجلس الشورى على مائة زعيم من زعماء الريف وشيوخه. استمر الحكام الرومانيون فى فصل تلك الطبقات (ولم يحاولوا دمجها) بتخصيص أماكن مختلفة لسكنى الجماهير عن الحكام. لم يحدث تزواج مشترك بين هاتين الطائفتين، وكانت كل طائفة تقيم احتفالاتها الدينية بمعزل عن الطائفة الأخرى. لم يصرح بتاتا بالزواج المختلط. أمكن تثبيت الحكم بالسلطة المطلقة التى منحت للرجال. فقد كان بيد الرجل حق منح الحياة أو أزهاقها لأفراد عائلته، وكان لرب الأسرة حق الحكم المطلق على أسرته، حتى أن الابن لم يستطع أن يشغل منصبا عاما فى حياة أبيه، المشكلة الثانية التى واجهوها هى كيف لايسمح لفرد واحد أن يحصل على السلطة المطلقة بعيدا عنهم، حتى لايعيد الملكية سابق عهدا ولايسمح للطغيان أن يرتد (كما كان الشأن فى المدن الإغريقية). حلت هذه المشكلة مؤقتا بجعل كل الوظائف العامة مزبوجة، كل قائم على منصب ما ينبغى أن يكون له رقيق. كانت المناصب العامة فى مبدأ الأمر مرتبطة بالعائلات التى نتج عن التقائها الدولة الرومانية. كان الالتقاء فى مبدأ الأمر التقاء عسكريا، لأن العائلة كانت تشكيلا عسكريا نو مهام عسكرية. أول هذه المناصب كان منصب القاضى، ويعد طرد الملك كان هناك قاضيان، سُمى كل منهما «قنصلا» كانت مدة شغلها لهذا المنصب عاما واحدا، يبدأ فى الخامس عشر من شهر مارس. كان يتم الانتخاب للمناصب بالتصويت المفتوح لعامة الناس، من الأحرار، الذين كانوا يجتمعون فى لجان المائة العسكرية. كان المرشحون يختارون من بين النبلاء (أى رؤس العائلات). ثم يختار هؤلاء القناصل أعضاء «السينيت» أو مجلس الشورى، ويكونون جميعا من رؤساء العائلات. كان يشرف على الانتخابات ضباط منتخبين خصيصا لأداء تلك المهمة. كان عملهم يقتضى إجراء التعداد للسكان ولعممتلكاتهم، على نفس النمط الذى وضعه الملك سيرفيوس توليوس، بعد إدخال التحسينات عليه فى عصر الجمهورية. قسم السكان إلى طبقات، حسب تملكهم للأراضى والعقارات وحسب مهاراتهم. كان هناك الخيالة، والحرفيون، والمشاة من الجنود بأسلحتهم الثقيلة أو الخفيفة. كانت هذه الطبقات تعطى أصواتها الانتخابية فى مجتمعات المائة، التى كانت تميل بثقلها نحو النبلاء ونحو الطبقات العليا بوجه عام. وهكذا كان تقسيم الناس

تبعاً لقدراتهم العسكرية وللضرائب التي يدفعونها، عاملاً في ضبط أصواتهم في انتخاب القضاة والقناصل والحكام والمشرعين ورجال الدين. أتاح هذه النظام للناس أن يعارضوا (بالقول) ولكن لم يتح لهم الفرصة لتغيير نظام الحكم (بالفعل). كان النبلاء يسيطرون على مقاليد الأمور، وكانت الثورة (الكلامية) نوعاً من الدواء لبعض العلل. كانت الجماهير تقوم بالمظاهرات وتسير في الطرقات بدون عنف أو قتال. حدثت هذه المظاهرات خمس مرات في الأعوام ٤٩٤، ٤٤٩، ٤٤٥، ٣٤٢، ٢٨٧ ق.م.، وكان «السينيت يستجيب لمطالبهم في كل مرة ويخضع للنبلاء لرغبات الجماهير.

سمح لجماهير الشعب أن تتقدم بالترشيح لمنصب «القنصل» عام ٣٦٧ ق.م. ولمنصب القاضى عام ٣٢٧ ق.م.، ولكن لم يحدث أن انتخب فرد من العامة لأى من هذين المنصبين قبل عام ١٧٢ ق.م. عندما انتخب قنصلان من الجماهير. أنشأ منصب المسئول عن إحصاء السكان في عام ٤٤٣ ق.م. وفى عام ٣١٢ ق.م. عهد لمسئول الإحصاء هذا مسئولية رعاية الوثائق الرسمية «السينيت» وحفظها ومسئولية استدعاء أعضاء مجلس الشيوخ: فتح الباب أمام عامة الشعب لتولى هذا المنصب عام ٣٥١ ق.م. فى عام ٣٢٩ ق.م. كان أحد المسئولين من العامة وفى عام ١٣١ ق.م. كان كلا المسئولين من عامة الشعب. كان مسئولو الإدارة المالية يرشحون من قبل القناصل حتى عام ٤٤٩ ق.م.، ولكن بعد ذلك التاريخ كان يتم انتخابهم من بين رجال القبائل. فتح هذا المنصب للعوام من عام ٤٢١ ق.م. وارتفع عددهم من اثنين إلى أربعة أما المناصب التي كانت متاحة لعامة الشعب من البداية فكانت منصب «التربيون» (المدافع عن حقوق العامة ومصالحها) الذي أنشأ عام ٤٩٠ ق.م. وفى عام ٤٤٩ ق.م. إزداد عددهم إلى عشرة كانوا ينتخبون من عامة الشعب ويدافعون عن حقوق العامة لدى النبلاء، وكان لهم الحق فى نقض أحكام القضاة إذا أجمعوا على رأى واحد. كان لهم دور معترف به، إيجابى وبناءً، فى حكومة المدينة والجمهورية ولكنهم تحولوا تدريجياً إلى المتكلمين باسم «السينيت» إلى الشعب، وليسوا المتحدثين باسم الشعب إلى «السينيت». أحر أعضاء مجلس الشورى من العوام كان عضوان يمثلان ديانة الشعب، الذى كان يدين بالقدسية للإلهة «زيسيس»، إلهة الخصب والحياة فى الأراض. ورثت الجماهير هذه الديانة من الفلاحين، الذين نقلوها بنورهم عن الإغريق، وبدأت فى عام ٤٩٣ ق.م. بمجرد طرد الإيتروسكان. تولى المحتسب هذه الوظيفة (الموظف الرومانى الذى كان مكلفاً بالإشراف على الأشغال العامة والألعاب والشرطة والتموين). فى عام ٣٦٧ ق.م. صار محتسبان ينتخبان سنوياً «السينيت».

وهكذا من القرن الثالث ق.م.، أصبح مجلس الشورى الذى بدأ بالقضاة السابقين ويمثل النبلاء، يتكون نصف أعضائه من عامة الشعب، الذين تحول اهتمامهم تدريجياً من أمور التجارة إلى الأعمال

الحكومية والمدنية والعسكرية. تبني رجال الدين بدهاء، ما سبق أن تبناه القضاة والنبلاء، من الوصول إلى حلول وسط مع العامة. طوال الخمسة قرون التي عاشتها الجمهورية كان رجال الدين يتم انتخابهم بالتصويت الشعبي. كانوا يختارون أولا من أسر النبلاء، لم يتبعوا نظام التعيين في الوظائف المدنية التي كانت مزودة، وظائف المستشارين والقضاة، والقناصل، والمسئولون الماليون، بل كانت وظائف رجال الدين مفردة. كان الموظفون المدنيون يعينون لعام واحد، بينما يتم تعيين رجال الدين لمدى الحياة وكانوا يحملون ألقابا ملكية، وكان رؤسائهم يتوارثون مناصبهم. كان الكاهن الأعظم يلقب باسم «الملك المقدس»، وكان كبيرهم يدعى باسم «البرنس السناتور» كانت أسرة السابين هي التي تتولى المناصب الكهنية، وكانت تلك المناصب تنتقل من الأب إلى الابن في مبدأ الأمر.

في البداية كان العوام يحمون الله أن مكنهم من المعيشة - في ألم وشقاء بلا اعتراض منهم ولكن في سلام. كانت الأرض ملك النبلاء والقانون قانوتهم واللغة لغتهم، كذلك كانت الآلهة آلهتهم، وهم وحدهم القادرون على التكهن بما قررته الآلهة للمدينة وللمجتمع. كان العوام من أجناس شتى، أناس بلا أسلاف ولا قوانين ولا آلهة جديرة بالاحترام. كان هذا القول صحيحا في أصل العوام وزادت صحته بعد خمسة أو عشر أجيال من تواجد المجتمع الروماني. في هذه الأجيال كان مسموحا بتزاوج النبلاء، بعضهم من بعض ولكن لم يكن من المسموح به أن يختلط بهم آخرون. لم يصبح النبلاء جنسا نقيًا ولكنهم صاروا مجتمعا متناسقا. شغلوا أنفسهم بالحرب مع جيرانهم بلا انقطاع. كانت البسالة الحربية هي الفضيلة الوحيدة التي يعتد بها في هذا المجتمع. كان يتم تعريض الأطفال منذ صغرهم للحروب ويستمر هذا طوال مدة حياتهم. كان أرسطقراطي الرومان - شأنهم في هذا شأن أرسطقراط إسبرطة من قبل - يتم انتقاؤهم بصرامة دقيقة - ليُعَدوا ليكونوا حكاما عسكريين (وكان هذا الإعداد أبعد ما يطلب لمن سبقوم بالخدمة في الحقل أو المدينة، وهي الأعمال التي تقوم المجتمعات على أكتافها). ككل الطبقات الحاكمة كان نبلاء روما يحتقرون عامة الناس (كما كان يحدث بين الأرسطقراط في أثينا وفي المجتمع الهنوسي) ولكن كان العوام في نفس الوقت يتطورون. كانوا كثيرى الزواج من الأغراب وهكذا تحسن نسلهم تباعا بعكس الطبقة الأرسطقراطية التي اقتصرت على الاستيلاء الداخلي (وما يحمله من عيوب وراثية). منذ القدم كانوا يتزوجون مع القادمين من الخارج عن طريق البحر من بلاد بعيدة. كان البنائون والمهندسون يقصدون إتروريا، وكان العرافون من إتروسكان (وبعد الحرب معها) من دلفي (كانت روما تتطلع دائما نحو الكاهن الأعظم لدلفي). رغم أن النبلاء لم يكن يسمح لهم بالزواج من العوام، إلا أنهم كانوا كثيرا ما يغتصبون بناتهم (وكان النسل منهن يضاف إلى مجموع العوام). وهكذا إزداد ثراء العوام الجيني بهذا الإنسال

المختلط. بعد حين ابتدأ العوام فى المطالبة بحقوقهم من حمايتهم، وبدأ إنشاء وظائف المدافعين عن حقوق العامة، ثم بدأوا يطالبون بالاعتراف بالزواج المختلط. قاومهم النبلاء كثيرا فى هذا المطلب، واستعانوا برجال الدين، ولكنهم سلموا لهم بهذا الأمر فى النهاية. كان المطلب الثالث للعوام هو أن يصير منهم قناصل، وتم زيادة عدد القناصل وخصص بعضها لطبقة العوام. أخيرا طلب العوام أن يكون لهم نصيب من الأرض التى حاربوا بشانها، وأخيرا تم التسليم بجهد بهذا المطلب الأخير. إزدادت روما حجما وإزدادت الحياة فيها تعقيدا وتزعت أعمال الجماهير وإزدادوا ثراء، وصارت الجماهير وأصبح سادتها يشعرون بالتغيير الذى حدث فى المجتمع. الشئ الوحيد الذى ظل النبلاء يتمتعون به هو تمييزهم بألقابهم وجاههم وطبقتهم الاجتماعية ومقامهم الرفيع فى الذكور من نسلهم. صار النبلاء الفقراء مستعدين لتزويج بناتهم من عامة الشعب الأغنياء، ليتمتع الأولون بالثراء ويكتسب الآخرون المركز الرفيع. ارتفع العوام تدريجيا إلى المراكز العليا فى المجتمع الرومانى. قاوم أصحاب الأملاك طويلا هذا الاتجاه: أصحاب الأملاك المادية وأصحاب الألقاب وذوى الجنس الرفيع - الغزو الطبقي لهم، ولكن بالتدريج، نظرا للقوة المتزايدة للعوام تم لهم تحقيق هذا التسرب للطبقات العليا. بعد حوالى عشرين جيلا تم التسرب الاجتماعى وتكيف المجتمع الرومانى مع الأوضاع الجديدة وظهر شعور بالوحدة القومية، وامتد من روما إلى حلفائها. لم تسلم روما من الصراعات المدمرة ومن الحروب الأهلية وصراع الطبقات، ولكنها - بظهور الوحدة القومية اكتسبت مناعة ضد الغزو الأجنبى لها، ومازال العالم يذكر هذه الوحدة القومية ويعبر عنها باسم الرومانية.

فى نفس الوقت الذى كان يتم فيه التغيير فى المجتمع الرومانى، كانت هناك تغيرات جذرية فى المجتمعات المجاورة وعلاقات روما بجيرانها الذين أخضعتهم روما بالتحالف معهم أو بغزؤهم. أولى هذه العلاقات تشمل العلاقات الحرفية والتجارية مع نول حوض البحر المتوسط. قصد التجار والحرفيون من تلك النول روما، التى إزداد تعدادها ب ورود تلك الأجناس إليها (وتركوا أثارا تدل عليهم)، وثانى هذه العلاقات تتصل بالقوانين والآداب فى المنطقة ومدى تأثيرها بروما. أثرت روما بقوانينها فى جيرانها، تأثرت بجيرانها من الناحية القانونية. صار اتصال الدول المجاورة لروما فى أول الأمر خضوعا لها ثم تطور إلى حماية من روما ودفاعا عن تلك الدول. المدن التى حاربت روما فى البداية طلبا للاستقلال عنها، صارت تحارب للانضمام إليها فى النهاية. بانتهاى حرب اللاتين فى عام ٢٢٠ ق.م.، حدث اتحاد بين روما وحلفائها: اللاتين، الإيتروسكان، كامبانيان، ساميت. سمح لكل من تلك الأقوام بالتزاوج مع الرومان، ولكن لم يسمح لهم بالتزاوج من بعضهم البعض وهكذا وضعت روما نفسها فى المركز أو المحور الذى يلتف الجميع حوله، ويدورون فى فلكه بدأ هذا المبدأ منذ عهد المملكة القديمة فى مصر، مبدأ الزواج من الأسر المالكة الأجنبية، ولكنه الآن بدأ يطبق على

جميع فئات المجتمع وليس على الأسرة المالكة فحسب. حققت تلك الزيجات الملكية أهدافا سياسية للطرفين، وتحسنا جينيا (وراثيا) للعائلتين. كل الأسماء اللامعة فى تاريخ الجمهورية الرومانية أتت من هذه الزيجات، وكل العبقريات التى ظهرت فى التاريخ الرومانى حدثت من هذا التهجين. فى هذا الشأن تختلف الحضارة الرومانية عن الحضارة اليونانية. شجع الرومان على توسيع دائرة الزواج، وحصلوا بذلك على أفضل النسل، بينما حد الإغريق دائرة زواجهم فضعف نسلهم. (ربما كانت سهولة المواصلات فى إيطاليا عاملا مساعدا بينما كانت جغرافية اليونان وصعوبة الاتصال عائقا). بدأ المجتمع فى الاتساع، بعد أن كان قاصرا على المجتمع الرومانى، اتسع فشمّل إيطاليا كلها، ثم زاد اتساعا فصار العالم بأسره. كان الدفع المستمر من الرومان لهذا الاتجاه، وكان التزايد السريع لإعداد الرومان، وتصاعد القوة العسكرية الرومانية والنفوذ السياسى وزيادة الاتصالات التجارية من أسباب تيسير السير فى هذا الطريق. مع اتساع الرقعة الجغرافية للإمبراطورية الرومانية، وتعدد الأجناس المختلفة التى شملها تلك الإمبراطورية صار من السهل الاختلاط والتهجين. كان الجنود السابقون فى الجيش الرومانى يشجعون على الاستقرار فى البلدان الجديدة التى فتحوها، وبقائهم فى مستعمرات زراعية بإعطائهم مميزات تشجعهم على الاستيطان، زادت طرق المواصلات فى الإمبراطورية الرومانية وشقت الطرق لترىط روما بالمدن الأخرى التى تنور فى فلكتها ولتيسير انتقال الجيوش خلالها. ولكن هذه الطرق استخدمت بعد قليل فى نقل البضائع وانتقال الحرفيين وتحقق الشعور بأن الجميع ينتمون للدولة واحدة. امتد التزواج المتبادل واتسع نطاقه بين الجميع: داخل الطبقات وداخل المهن، وامتد التقسيم الطبقي للرومان إلى سائر الأماكن فى الدولة الرومانية. هكذا صار وضع روما داخل إيطاليا فى القرن الثالث ق.م.: كل الطرق تؤدى إلى روما، كل التجارة تصل إلى روما، كل فرص الزواج تحدث فى روما، وضع لم تصل إليه أى مدينة أخرى فى العالم فى ذلك الوقت، مركز لم تصل إليه قرطاجنة ولا كابوا. هكذا تطور حال رجال القبائل المحاربين الأشداء، خلال القرن الرابع ق.م. أخضعوا سائر المدن الإيطالية، ووحّدوا بين أجزاء إيطاليا، وبين أقوام إيطاليا حتى صاروا قوة يحسب حسابها فى السلم والحرب، بالإضافة إلى ثروتهم البشرية والزراعية والخشبية والمعدنية. بالرغم من هذا فإن سيطرة روما على إيطاليا لم تكن بلا صعوبات، فقد كانت هناك ردة كل حين وآخر (ولكن الردة أمر معهود فى الإمبراطوريات، فقد حدثت ردة على الإسكندر الأكبر، وحدثت ردة على دارا العظيم). ولكن فى الدولة الرومانية، استمر الاتساع واستمرت قوة الدولة تتصاعد جيلا بعد جيل. كانت هناك استمرارية وكانت هناك وحدة دمجت كل طبقات المجتمع، وبلغت القمة فى العاصمة وفى الطبقة الحاكمة التى كانت تنتمى من أفضل العناصر ومن أشد الأسر فى جميع أنحاء إيطاليا ومن أوسلها.

بصعود روما إلى قمة المدن الإيطالية وسيطرتها على كافة أجزاء إيطاليا، دخلت في صراع مرير مع قوة صاعدة أخرى في الجهة المقابلة مع البحر الأبيض المتوسط، مع قرطاجنة. بدأت قرطاجنة كمستوطنة فينيقية أنشأها ديدو عام ٨١٤ ق.م. كمستعمرة كنعانية باسم كارت هداشت. تأثرت بالإغريق قليلا في العصر الهلينستي ولم تتأثر باليهود مطلقا، ومعظم ما عرف عن حضارة قرطاجنة - جاء من مصادر لاتينية. عندما سقطت صور تحت حكم البابليين عام ٥٧٣ ق.م. صارت قرطاجنة هي كبرى المدن الفينيقية الباقية، وكان عليها حماية باقى المستعمرات الفينيقية. إزداد ثراء المدينة فى هذا الزمن، حتى صارت أول مدينة فى العالم تخلق إمبراطورية وتقودها، إمبراطورية تتكون من الملاحين من أجناس شتى. إزداد عدد سكان المدينة ووصل إلى نصف مليون نسمة فى القرن الثالث ق.م. يتكون أهالي قرطاجنة من ثلاثة أجناس أساسية يقومون بثلاثة أصناف من العمل وينقسمون إلى ثلاث طبقات. أولا طبقة الأرسوقراط، التجار، الأثرياء وذريتهم فى سائر المستعمرات (أناس من أصل فينيقى ثم تزوجوا مع الإغريق أو المصريين ثم بعد حين مع رؤساء الليبيين والبربر والأيبيريين). وثانيا الأغنياء، من المزارعين فى الولايات المختلفة فى تونس. جاء هؤلاء من بلاد فى شرقى البحر المتوسط وتزوجوا مع الأهالى المحليين من الرعاة، هؤلاء الناس كانوا ينتشرون ببطء تجاه الغرب على الساحل الجزائرى والمغربى وينشرون الزراعة وبيئون المدن. كانوا يتحدثون بلسان فينيقى حديث (واستمرت هذه اللغة فى الوجود حتى القرن الثالث الميلادى) وسميت باللغة الليبية - الفينيقية، ولم ينظر إليهم أرسوقراط قرطاجنة نظرة احترام. ثالثا كان هناك الرعاة من البربر الذين يتكلمون بلغتهم البربرية، كان أولئك قبائل من المحاربين، المهرة فى ركوب الخيل وحلفاء شديدى المراس ولكن غير مضمونين. كانت أسرهم الحاكمة تتزوج من بعضها البعض ومن أهالى قرطاجنة. كانت هناك صلات وثيقة بين كل هؤلاء الأتوام وبين رجال الحكم الفينيقيين. كان القرطاجيون (مثل نبلاء روما) قد أزاحوا ملوكهم. فى قرطاجنة كان الثرايعود من الأعمال التجارية، وكان هناك الكثير منها. كان أهل قرطاجنة يستخدمون أموالهم لإستئجار الجنود المرتزقة، ونظرا لقدراتهم البحرية ومهاراتهم الملاحية كانت لهم الفرصة الكبيرة للترواج مع الأغرار، وكانت الفرص مهيأة بشدة لهم لأنهم كانوا لا يقتصرون على الزواج مع الأسر المالكة (كما كان يفعل نبلاء روما). عرف أن زوجة هانبيال كانت ذات أصول إغريقية إسبانية، ولم يكن وحده فريدا فى هذا الشأن، بل كان يتبع ما يفعله جميع أهل قرطاجنة. كان لأهل قرطاجنة ميزة على الرومانيين من حيث معرفتهم بالعالم، ولكنهم لم يأبهوا بتعاظم قوة الإغريق فى العصر الهلينىستى (كمالم أباه الرومان بتعاظم قوة الإتروسكان)، ورفضوا الثقافة الإغريقية، كما رفضوا لغة وديانات الإغريق واليهود (وهذا مثال يظهر كيف أن رفض الدين يكون عائقا لإختلاط الأجناس). تروى الأساطير اليهودية والإغريقية كيف أن إبراهيم كاد أن

يضحى بولده وجفثاح بابنته، كما تحكى أسطورة افيجينيا أن التضحية بالأبناء طاعة لأوامر الرب كان شيئا مقبولا لدى اليهود والإغريق (لولا أن الأضحية الإنسانية قد استبدلت بأضحية حيوانية مع ظهور حضارة المدن). كان الإغريق والرومان من بعدهم يتركون أطفالهم عرايا فى الخلاء كنوع من ضبط التكاثر وليس إطاعة لطقوس دينية، وعند الفينيقيين صار قتل الأطفال حرقا طقسا دينيا فى ساعات الأزمات، وكان يمارسه الأغنياء بنون حماس، بينما أخذ شكل الجنون لدى العوام. كان رجال الدين يشجعون هذا الفعل للإنسانى وهذه الخرافة البدائية لدعم سلطاتهم وفى وجه عقلانية الأرسطراط ومصالحهم. كان تأثير هذا العمل مدمرا على الناحية الوراثية وكان أسوأ فعل مارسه أى مجتمع. كان الإغريق لا يمانعون فى ذبح سجنائهم عند الضرورة، ولم تأخذهم بهم رحمة أو شفقة. بعد هزيمة الكنعانيين، كان الرومان يدفنون البشر أزواجا (رجل وامرأة) أحياء فى التراب (كما كانت تتطلب منهم كتبهم المقدسة). ولكن لدى الرومان ولدى الإغريق لم يتطلب الكهنة أبدا قتل الأطفال (خاصة أطفال عليه القوم). أثار عمل رجال الدين فى قرطاجنة كبار رجال القوم واكتسبوا عداوتهم. استطاع أهل قرطاجنة التزود من بلادهم الأصلية فى آسيا، بالتجارة عن طريق البحر وعن طريق الطرق الصحراوية. صار الجمل، حديث التواجد فى تلك البلاد، وهو سفينة الصحراء (وقد استفاد منه أسلاف الطوارق). حمل الذهب والعاج والعبيد من الزنوج (كما هو الحال حتى عصرنا الحاضر). كان التزود عن تلك السبل، البحرية والبرية هو الذى أهل القرطاجيون على تكوين جيش من المحاربين المرتزقة من أفريقيا ومن إسبانيا، ثم فيما بعد من بلاد الغال (فرنسا) ومن إيطاليا ذاتها. هيات هذه الجيوش الحماية لقرطاجنة - عندما كانت تتقاضى أجورها، ولكنها صارت خطيرة عليها عندما تنفذ الموارد. المصدر الثانى للخطورة جاء من نقص التسليح لأهل قرطاجنة. كان أسطولهم يتكون من سفن تم بناؤها من أخشاب وافرة فى جبال لبنان. شمال إفريقيا كانت فقيرة فى الأشجار، التى يقل عددها تدريجيا وكان نوع خشبها رديئا. عندما قطع الإسكندر خطوط الاتصال بفريقيا بعد فتوحاته، عوض احتلال جزيرة صقلية هذا النقص فى الخشب، ويعد فقد صقلية فى حربهم الأولى، اتجهوا إلى جنوبي إسبانيا فى الحصول على الأخشاب. ولكن إسبانيا الغنية بالمعادن، لم تعوض فقد الأخشاب اللازمة لبناء السفن. فى نفس الوقت اتجه بناء السفن والبحارة من صقلية وإيطاليا واليونان والإتروسكان لتجهيز أسطول هائل للدولة الرومانية. وفى الحرب الثانية أعارت اليونان موانئها (مثل ميناء ماسيليا) أساطيلها إلى روما. كان جز الأشجار الشديد (فى أيام الحرب) له نفس آثار الرعى الزائد للماشية (ولجمال فى أيام السلم) فى التعجيل بحدوث الكارثة. أعقب تعرية التربة وعدم استعادة الغابات والمراعى، أن امتلأت الأرض بالبرك والمستنقعات، سيئة التصريف فى القرن الثالث ق.م. نمت أعداد هائلة من البعوض على تلك المياه، وانتشرت الملاريا بين الجنود (الذين

نقلوها بدورهم إلى أوروبا عند غزوها). هكذا شاء القدر، بعد خراب وإقفار جزيرة كريت واليونان تبعتهما شمال إفريقيا ثم جزيرة صقلية، بتعرية الأرض ثم بالأوبئة التي أهلكت البشر، وسارعت الحروب بحدوث هذا الدمار، (واستمر فيما بعد لتصاب به إيطاليا).

فى هذه الظروف صار حال حكام قرطاجنة مقلقا وغير مستقر. كانت لهم طموحات حربية واهتمامات بحرية، وكانت هناك اختلافات بين العائلات القديمة فى مجلس الشورى والقرطاجنيون الجدد (كما هو الحال فى الدولة الرومانية)، ولكن كانت هناك خطورة أخرى من الجيش ينبغى أن يحسب حسابها. الجيش فى قرطاجنة كان من المرتزقة والمحترفين وكان يشكل عنصرا ثالثا هاما من عناصر الدولة. كان الجيش يختار قائده، الذى كان فى نفس الوقت قنصلا مدنيا ودبلوماسيا متعدد التوجهات. تمرد الجيش القرطاجنى الذى حدث فى عام ٢٢٧ ق.م. نتج عنه تسليم جزيرة ساردينيا لروما، ولكن نفس هذا الجيش هو الذى اختار هاميلكار، القائد المحنك، ومن بعده ولده هانيبال، العبقرية العسكرية، ليقوده إلى النصر فى حربه الثانية مع روما.

فى عام ٢٢١ ق.م. قُتل هاسنبوال، حاكم إسبانيا القرطاجانية فانتخب الجيش هانيبال، شقيق زوجته وابن القائد هاميلكار ليحل محله، واعتمد المجلس هذا الاختيار. كان هذا يعنى انتصار الحزب العسكرى ويعنى قرار إعلان الحرب على روما. كان هانيبال يبلغ من العمر حينئذ ٢٦ عاما (فقد ولد فى جزيرة مايوركا عام ٢٤٧ ق.م.، (ومن العجب أن نفس تلك الجزيرة كانت أصل عائلة بوناپرت الكورسيكية). كان هانيبال قد قرر - برغبة أبيه ونصحه - شن الحرب على روما. فى حربهما الأولى فقدت قرطاجنة جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا، وكان هدف هانيبال إستردادهما وتحطيم القوة المنافسة لبلده. كانت روما تمثل لهانيبال مدينة فقيرة، فى نصف حجم مدينة قرطاجنة، يقيد حركتها نظام انتخابى للقناصل وكبار الموظفين، وتغيير سنوى لقادة الجيش، وجيشها جيش غير محترف ويعتبر مجرد ميليشيا حربية يتم تجديد أفرادها كل عام، وجنود الجيش من الطبقة الدنيا للمجتمع المتخلفة ثقافيا. لم يتفهم هانيبال أن جنود الجيش الرومانى، ولو أنهم أقل كفاءة من الناحية العسكرية وأسوأ تدريباً، إلا أنهم أكثر تجانسا من جيشه وأشد حماسا من رجاله. كان هانيبال على معرفة بالإغريقية، كان يفهم لغتهم ويعرف تاريخهم وعلى دراية بطرقهم الحربية. كان يعرف كيف استطاع الإسكندر أن يذل مدنه وأن يخضع ولاياتهم لسيطرته. كان معجبا بالإسكندر الأكبر ولكنه لم يدرك أن الرومان أيضا معجبون به ويقواته المقبولة. تماما كما تمكن الإسكندر من استخدام خطط أبيه فيليب لدحر أعداء قومه، واستخدم قواته البرية للسير على شواطئ البحر المتوسط - لضعف قواته البحرية، سار هانيبال على سواحل البحار للالتفاف على عدوه. كانت انتصارات روما

فى حربها الأولى مع قرطاجنة قد حولتها إلى قوة بحرية عظمتى وجرم قرطاجنة من السيطرة على البحار، لذا سار هانيبال بقواته البرية عبر إسبانيا وبلاد الغال (فرنسا) عام ٢١٨ ق.م. صارت قواته من الجنسيات المتعددة الإفريقية، والإسبانية وغيرها، المدربون تدريباً حسناً والذين يقودهم قائد محنك متحمس - هانيبال، جيشاً قوياً يعتد به. زادت قوة هذا الجيش بتسليحه بالأفيال الإفريقية. اخترق هانيبال جبال الألب بجيشه وأخذ الرومان على حين غرة من حيث لا يحتسبون. فى سلسلة متتالية من المعارك، التى استغرقت ١٢ سنة فى كل أنحاء إيطاليا، تم لهانيبال تحطيم الجيوش الإيطالية، الواحد تلو الآخر. كلما تحطم جيش سرعان ما يظهر غيره فيتعقبه هانيبال من مدينة إلى المدينة التى تليها، لم يستطع هانيبال دخول روما، والجيشان اللذان طلبهما هانيبال لمعاونته، وكان يقودهما شقيقاه هزما فى الطريق إليه. بعد استرداد صقلية تم للرومان استعادتها، كما استعاد الرومان إسبانيا. فى النهاية قرر مجلس الأعيان فى قرطاجنة استدعاء هانيبال من ميدان القتال وسلم بالهزيمة. حل السلم أخيراً بعد أن فقدت قرطاجنة مستعمراتها، وأسطولها وأفيالها وحققها فى شن الحرب، حتى للدفاع عن النفس.

صاحب أزمة الحرب فى روما أزمة فى الإيمان. كان هناك صراع - تحت السطح - بين المؤمنين وغير المؤمنين، بين الخرافات والشك، وكان هذا الصراع ذو علاقة بطبقات الناس الاجتماعية وعرقهم الجنسى. فى الأيام العصبية من عام ٢١٢ ق.م. بعد فقد إسبانيا وصقلية، وكشف باقى أنحاء إيطاليا للغزاة، لاحظ أهالى روما أن الأجانب يقومون بطقوس غير معتادة ولا يحاولون إخفاء ما يقومون به. بدأ المهاجرون الأجانب يظهرهم عقائدهم فى العلن ويمارسون طقوسهم أمام الجميع، وخضع الحكام لتلك الظروف الجديدة واعترف بالحقوق الدينية للإغريق من السماح لهم بتقديم القرابين وجمع النقود. بعد ثمان سنوات حدثت أزمة أخرى، فقد جاء ماجو - شقيق هانيبال إلى أتورريا فى وقت كانت فيه روما تعاني من أزمة اقتصادية عنيفة. سببت الحرب الطويلة كساداً اقتصادياً، كما بدأ المحتسبون فى إنفاق - المال القليل - ببذخ على إقامة مقام - الأم الكبرى - إلهة الخصب لدى الشرقيين. كانت هذه تنازلات من الطبقة الحاكمة الرومانية لكسب إخلاص الأجانب الذين وفدوا إلى روما من الشرق. استمر هذا الاتجاه لخمسة قرون بعد ذلك التاريخ، كما استمر الصراع بين الدين والخرافات، وبين التقاليد المحلية والتجديدات الأجنبية لتحديث شرخا فى المجتمع بعد الحرب الثانية. كان هناك ثائر واحد، قام بثورة جذرية ضد النظام الحاكم، القنصل جايش فلامينياس الذى تم انتخابه عام ٢١٧ ق.م. والذى طالب بالحد من النشاط التجارى والاقتصادى لأعضاء مجلس «السينيت». كان هذا الرجل شديد الثورة على الخرافات التى يمارسها أفراد الطبقة العليا، ولم ينتظر حتى تظهر نتائج التحقيقات للشكاوي التى تقدم بها ضدهم وثار على

كافة الطقوس التي يزاؤها هؤلاء السادة. أيده جنود الجيش، بينما ساند الضباط السادة. فى إثر هذا التمرد تم تعيين دكتاتور - كوينتاس فابياس ماكسيماس كونكاتاتور - وتجنب معركة بين طوائف الأمة وطبقاتها المختلفة.

كان لتلك الحرب تأثيرا شديدا على الأجيال التالية، لتعادل القوة العسكرية لكلا الجانبين. تعادل المهارة والعبقرية والثراء، الكلى والفردى بين أكبر قوتين فى العالم الغربى فى ذلك الوقت. أوحى غزو هانيبال لإيطاليا فى البداية أنه صراع عسكرى بين قوتين عظيمتين ولكنه، بالتدريج أخذ شكلا آخر، أكثر اتساعا وأعمق أثرا. القوتان المتصارعتان كانتا كل المجتمعات المتحضرة والهمجية فى غربى البحر الأبيض المتوسط، وكانت إسبانيا وإيطاليا هما المسرح الرئيسى الذى جرت عليه المعارك، ولكن ملك مقونيا وجدها فرصة سانحة ليجر رجل هانيبال فى صراعه من المدن الإغريقية. كانت سيطرة الرومان على البحار وإمساكها بسفنه وبعثاته يعوقه فى السيطرة على أعدائه. كان المدن الإيطالية منقسمة بين الأحزاب الشعبية وحلفاء السادة، وقد حدثت مؤمرات فى روما وفى قرطاجنة بين تلك الفئات المتنافسة، التى كانت تنتهز الفرص للحصول على التأييد من القوتين العسكريتين، وكانت تلك القوى فى نفس الوقت تدبر المؤامرات لتأييد أو لإحباط الأحزاب المختلفة. كان الأسرى من العبيد كثيرا ما يسلحون ويدربون ويبعثون إلى بلدهم لحرب سادتهم طلبا للتحرر من الرق. كان يتم تبادل الأسرى أو الإفراج عنهم نظير فدية. كانت روما تستشير كبير كهان دلفى، وكان الرومان يعرضون (فى خفية عن «السينيت») المواطنة الرومانية على حلفاء روما. كان عامة الناس ينتخبون كقناصل لاستخدام جيوشهم فى الحرب (حتى يفقدوها ويفقدون حياتهم). أخذت الحرب شكل الحرب العالمية، وجمعت الحرب الشق المتواجد فى المجتمعات المختلفة (والتأمت الشقوق فى بعض الأحيان)، وكان هذا اختبارا لتماسك المجتمعات أو انفراطها. كذلك كانت الحرب اختبارا لعبقرية كبار القواد من الجانبين. قادة القرطاجيون ينتمون لأسرة واحدة، أسرة هاميلكار باركا (وكان أبرزهم هانيبال). أما فى الناحية الرومانية، فلم يكن لأى قائد قوة هانيبال وسلطته، ولا يمكن مقارنة أى منهم بهانيبال. بالرغم من هذا حقق سكيبيو النصر على هانيبال فى النهاية، وكان انتصاره هذا هو ذروة تسع سنوات من التدريب والإدارة والسياسة بالإضافة إلى خوض المعارك (يتشابه التاريخ هنا مع ما حدث فى الحرب العالمية الثانية عندما اقتصر مونتهجورى قائد الحلفاء على العبقرية العسكرية الألمانية روميل فى معركة العلمين). لم تضع الطبقة الحاكمة فى قرطاجنة سلطتها فى أيدى العسكرين. كان أهل الريف وأهل المدينة من المسالمين الذين يكرهون الحروب وكانت الدولة كذلك لاتسعى لقيام حرب ثانية بينها وبين روما، ولم تعد مواطنيها على التدريب لخوض الحرب بل كانت تعتمد استئجار الجنود المترتبة للحرب من أجلها. كان الجنود من الإغريق والخيالة من

النوميديين، ولكن القادة كانوا من القرطاجيين، وكان هؤلاء من نوى اليسار والمنشأ الكريم. كل قادتهم كانوا ينتمون لأسرة واحدة، أسر هاميلكار باركا. صار صيته ذاتها بعد الحرب الأولى مع الرومان: تزوج ابنه - القائد العظيم هانيبال - من أميليس - الأميرة الإغريقية - الإسبانية (وكان يعرف اللغة الإغريقية). بعد ست سنوات من هزيمته، ثم انتخابه قنصلا في قرطاجنة - وقد قوبل هذا الانتخاب بحماس شديد من الجماهير. أدخل هانيبال - بعد انتخابه الفكرة الإغريقية بانتخاب القضاة سنويا. بعد نفيه من قرطاجنة لجأ إلى ملك برجامون، وكان هانيبال فريدا بين أقرانه في ذلكائه وفي تعليمه، كانت الحرب الثانية ضد روما من تدبير العصابة العسكرية في قرطاجنة، وترجع في جزء منها أن العسكريين كانوا في غالبيتهم من الأجانب الذين ضاق صدرهم بالسادة التجارة في قرطاجنة والذين يشكلون الطبقة الحاكمة. أما في روما فكانت طبقة السادة الأرستقراط هم الذين يعملون على استمرار الحرب ولا يقبلون بالهزيمة التي حدثت لهم في السنوات الأولى من الحرب، وكانت تساندهم الجماهير في حماستهم هذه. كان امتلاك روما لأسطول عظيم سندنا قويا لهم وكان قاداته هم الشباب من طبقة العوام بينما كان القادة الأوائل هم الأرستقراط قواد الجيش. كادت الهزيمة أن تحل بروما عندما انسلخت عنها المستعمرات الاثنتا عشر القريبة منها في أحلك أيام الأزمة، كذلك كان هانيبال يرى تعاطفا من العوام معه. كان قادة الرومان في موقف أضعف من موقف هانيبال. كان لكل فرقة رومانية قنصلان يتم انتخابهما لمدة عام وكان يضعان الخطة سويا أو يقسمان المسؤولية بينهما في المعركة. وعندما كانت تحل الهزيمة بهما يفضلان الموت في ميدان القتال، وهكذا مات تسعة من قواد روما في الحرب. وهكذا لم يكتسب قواد روما خبرة في المعارك، ولم ينج من القواد إلا من تفادى لقاء هانيبال حتى يكتسب الخبرة. كان قرار سكيبيو الأصغر، الذي انتصر أخيرا، وهكذا تحدد مصير الدولة الرومانية، هو القرار الحكيم. انحدر هذا القائد صغير السن من أسرة عريقة في الخدمة العسكرية في الدولة الرومانية. سبق لهانيبال أن هزم أبيه في المعارك. فكان رد فعله ليس أن يواجه هانيبال في إيطاليا، بل أن يتوجه، وهو في السادسة والعشرين، إلى إسبانيا حيث قتل أبوه. هناك تدرّب على القتال وتعلم من هانيبال حتى تفوق عليه في الاستراتيجية وفي الدبلوماسية. كذلك تعلم من الإسكندر الأكبر العلاقات العامة وإدارة المعارك في الميدان، وبهذا يكون قد اكتسب فنون الحرب والسياسة من كل من القائدين العظيمين. كانت أسرة سكيبيو (مثل أسرة هانيبال) تهتم اهتماما خاصا بالثقافة والفن والأدب. عندما أتت للرومان كنوز سيراكوز بعد احتلالها عام ٢١٢ ق.م. كانت عائلة سكيبيو هي التي احتضنتها ثم زودت الرومان بأدب الإغريق ويعلمانهم ومتفنيهم وهكذا كانت أسرة سكيبيو هي المسئولة عن فتح بلاد الإغريق عسكريا وعن فتح بلاد الرومان للإغريق ثقافيا وفتيا.

بعد خمسين عاما من هزيمتها، ودفعها سنويا للقدية المفروضة عليها تم إفلاسها وضعف شأنتها وصارت نسيا منسيا أمام الرومان، الذين صاروا سادة العالم بعد انتصارهم فى تلك الحرب العظمى. بعد حصار دام ثلاث سنوات تم فتح قرطاجنة وتم تدميرها وأسر أهلها وتحويلهم إلى عبيد للرومان. صارت ولاية «إفريقيا» بأسرها مستعمرة رومانية ويجانبها جارتها وحليفها نوميديا. وهكذا ماتت إمبراطورية عظيمة وتوسعت الإمبراطورية الرومانية إلى ما وراء البحار. انمحت مدينة قرطاجنة كما زالت الدولة من الوجود، ولكن تبقت شراذم من أهلها من قادس (بإسبانيا) إلى قرطاجنة (تونس) وحتى موريتانيا. احتفظوا بلغتهم فى تلك الأماكن كما احتفظوا بدينهم وجنسهم وطبايعهم. استفادت روما - فيما بعد - من هؤلاء الناس فقد نشأ منهم كتاب عظماء وأباطرة وسيناتورز وقديسين. (من أمثال أوجستين من هيبو ودونانوس مؤلف «الشقاق المسيحى»).

هكذا بدأ فتح الرومان للعالم (ضد رغبتهم). بعد هانيبال استمر الرومان - كعهدهم - منشقين على أنفسهم ومختلفين تمام الاختلاف. كانوا منقسمين تبعا لاهتماماتهم الطبقية ولتغير وظائفهم الاجتماعية وحقوقهم تباعا، كما تغير بنيانهم العرقى. فى الطبقة الحاكمة - على سبيل المثال - كانت مقدرتهم العسكرية وقدرتهم على الحكم المدنى ثابتة ومنقاة منذ تكون الجمهورية الرومانية. كانت شجاعتهم ومهارتهم وطلاقة حركتهم هى عوامل استمرار حربهم ضد هانيبال - الحرب التى توجت فى النهاية بانتصارهم. استمرت الحروب بعد ذلك باندفاعهم لهزيمة جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط على التوالى: أفريقيا (تونس) فإسبانيا ثم اليونان فالأناضول، وقعت تحت سيطرتهم. أضيفت الدبوماسية والخداع إلى أسلحتهم فى تلك الفتوحات. كان الرومان يتغيرون وصاروا متكيفين لتحقيق إنجازات كبرى - تفوق ما كان مطلوبا من دولة صغيرة قائمة على مدينة واحدة. تغيرت القوانين وصارت الجماهير - بالتدريج - مؤهلة لشغل وظائف الحكومة وللتزاوج مع علية القوم. أما مجلس «السينيت» فظل باقيا على عهده فى انتقاء الأسماء التى تُعرض للانتخاب. هكذا بقى «السينيت» مجتمعا مغلقا على نفسه يضم مجموعة من النبلاء التى اقتصر التزاوج بينها على أبنائها. فى داخل طبقة الارستقراط نفسها نشأت الطبقة، وصار بعضها يعلو على بعضها الآخر وصار بعضها شديد الثراء بينما كان بعض تلك الطبقة أقل ثراء ونفوذا. بالتدريج قبل الفقراء من طبقة النبلاء أن يزوجوا بناتهم من الأغنياء من عامة الناس، الذين ليس لهم توجهات ولا مراكز سياسية رفيعة. كانت سياسة الطبقة الحاكمة تتأثر كثيرا ليس بكفاءة الشخص وقدراته التى أظهرها فى تناوله للأمور فحسب ولكن كانت تتأثر إلى حد كبير بجاهه وحسبه ونسبه الذى يرجع عادة إلى مركز أسلافه فى المجتمع. كان الاحترام يعود إلى الأسلاف من الأصلاب (أبناء البنين) وليس إلى أبناء البنات.

كثيرا ما كانت تتغير الأسماء بناء على التبنى، مما يزيد الأمر صعوبة ويجعله غير منطقي البتة. استمر مجتمع «السينيت» مغلقا على نفسه ولا يفتتح للتزاوج مع العامة. أدى هذا السلوك مع تعدد الكفاءات فى أبناء العامة، إلى شق عميق فى المجتمع الرومانى. مع توسع الإمبراطورية الرومانية، تفرق الرومان فى أنحاء العالم ولم يستطع أى نظام يوضع فى روما أن يجد له التطبيق السليم فى إيطاليا كلها، ما بالك بالمستعمرات. فى تلك الظروف نشأت طبقة جديدة سميت «الفرسان» الذين صار لهم شأن عظيم. بدأت هذه الطبقة بتكوين ثلاثة فرق، ازدادوا إلى ستة، ثم صاروا اثنتا عشر فرقة، تم اختيارهم من عوام الرومان الأثرياء، من أعرق الأسر وأقدمها. منحهم الملوك منح سنوية للاتفاق على خيولهم وإمدادهم بالسلاح والعتاد. كان يتم إحصاء سنوى لعددهم، كما كانوا يخضعون للتفتيش النورى (لم يكن للفرسان هؤلاء أثر يذكر فى المعارك الحربية حيث أن خيالة القبائل الهمجية كانت أكثر كفاءة وكثيرا ما انتصرت عليهم). سرعان ما اكتسب فرسان روما وضعاً يختلف عن الهدف من إنشائهم فى أول الأمر - لم يصيروا قوة حربية تسهم فى الدفاع عن الدولة، بل صاروا طبقة لها أثرها المحسوس فى إدارة شئون الدولة. سرعان ما تزوج الفرسان مع بنات الطبقة الراقية، واختلطوا بهم حتى صاروا جزءا منهم، وأصبحوا طبقة ثرية، ذات قدرة اقتصادية واجتماعية معترف بها. بالتدريج أزاحوا رجال السياسة المحترفين من صفوفهم وحلوا محلهم فى التجارة وفى «السينيت» وفى إدارة الحكم فى البلاد وسيطروا على الفساد الذى دبت أطنابه فى أوصال الدولة، وأخذوا على عاتقهم أساسا مهام جمع الضرائب والشئون المالية والإدارية. بعد أن صار للرومان إمبراطورية عظمى وجدوا أنفسهم تحت حكم فئتين مختلفتين، فى ظل دستور يرفض النظام الملكى (الذى كان وحده قادرا على جمع هاتين الفئتين تحت مظلة واحدة). كان دستور البلاد قائما على حكم الشعب (الذى لم يوجد قط)، مما كان يحتاج إلى تعديل إثر تعديل لمسايرة المتغيرات من الأمور. حققت التعديلات السابقة نجاحا لعدة قرون، ولكن الآن، بعد تكوين إمبراطورية شاسعة فى مدى جيلين اثنين، صارت الأحوال فى منتهى الصعوبة. إزداد الثراء بسرعة فائقة وتعاضمت القوة بشدة، مما قلب الأمور فى المجتمع. بعد فتح قرطاجنة وكورينث تزايد التنافس بين الأقاليم المختلفة مما أثار الذعر فى عقول الحكماء وفى قلوبهم، الذين رأوا الأخطار الشديدة التى لا حدود لها التى قد تعود على الأمة التى صارت فى منتهى القوة وفى غاية الثراء بينما لم يستعد شعبها بعد لاستيعاب تلك التغيرات. جاء الثراء من الاستيلاء على بلاد غنية، ومن الجزية التى فرضت على الشعوب المهزومة، ومن استعباد البشر ومن بيع بعض الرقيق. فاض الثراء على إيطاليا إذ حصلت على معادن إسبانيا وعلى ضرائب برجامون وعلى رشاي ملك نوميديا. ولكن هذه الثروة الطائلة لم توزع بالتساوى على أبناء الشعب، بل وجدت طريقها إلى جيوب الأقلية. كانت هناك أرصدة للاتفاق على

الانتخابات وعلى الميليشيات والجيش الخاصة (ويأتى كل من هاذين النشاطين بمزيد من الثراء على صاحبها، أو يشتري بها مزيدا من العبيد الذين يزرعون له الأراضى التى استولى عليها غصبا). كل هذا الثراء الفاض والقوة المكتسبة كان يسير فى سبيلين، لا ثالث لهما، كان يسير فى طريق القبلاء، أصحاب الانتصارات والحكام، وفى طريق الفرسان التجار الذين يشترون ويبيعون. بعد انتهاء الحرب مع قرطاجنة وتدميرها وبلوغ الامبراطورية الرومانية إلى ذروتها والاستيلاء على اليونان وبرجامون، بعد ١٢ سنة فحسب، حدث أول تمرد شعبي، تمرد العبيد فى جزيرة صقلية. تمرد كان يهدف إلى العدالة فى توزيع الأراضى وإلى تقليص نفوذ «السينيت» وسلطته، وإلى منع قتل أصحاب الرأى فى الطريق العام بواسطة قوى الأرستقراط المنظمة. كانت ثورة العبيد هى المقدمة إلى الكفاح العدى ونضال الجماهير.

بدأ النزاع بنشاط اثنين من المدافعين عن الحقوق المدنية من العوام. كان «السينيت» قد أخذ الخط بالابتعاد عن النشاط التجارى، لكى يضمن ابتعاد «الفرسان» عن السياسة والتدخل فى شئون الحكم. حدث شق فى صفوف النبلاء بين الأغلبية المحافظة والأقلية المتحررة، واستمر هذا النزاع بينهما لقرن من الزمان. كان الخلاف بين المحافظين والمتحررين منصباً على نقطتين، إحداهما دستورية وتتخلص فى الحقوق النسبية لمجلس «السينيت» ومجلس «الشعب» الذى كان يتكون من الإيطاليين والذين صاروا يقيمون بعيدا عن إيطاليا ولا يتمكنون من الإدلاء بأصواتهم. والنقطة الثانية كانت اقتصادية وهى لمن يكون العائد الوفير من المستعمرات، هل يعود إلى الوطن الأم - إيطاليا - أو ينفق معظمه على امتدادات إيطاليا فى العالم الغربى. كان الحكم فى إيطاليا حكما تسلطيا عنيفا، لم يشهد العالم مثله من قبل ولا من بعد، وإزداد هذا العنف بتدفق الثروة على إيطاليا وامتلاكها لتلك الثروة. وهكذا اختلت ميكانيزمات الحكم، التى قصد بها إدارة مدينة صغيرة بعد أن صارت دولة عظمى. بدأ القتلة المأجورون فى الظهور، وبدأ السرك الذى يصرع فيه الإنسان الوحوش فى الانتشار، وصارت شجاعة الجنود تحت إمرة من يحكم البلاد ويتحكم فيها. فى هذه اللحظة بدأ الصراع بين ماريوس، وسينا، وسولا، وبومبي، ويوليوس قيصر، وأكتافيوس لأخذ ناصية الحكم والسيطرة على الأمور. كان مصير من يخسر فى الصراع هو التصفية الجسدية والقتل ومصادرة أملاكه. كان من آثار الحروب الداخلية تدمير الأراضى الزراعية فى وسط إيطاليا وجرمان الماشية والأغنام وبقية الحيوانات ممن كانوا يتولون رعايتها والعناية بها، ولم يستطع قلب الإمبراطورية من استرجاع سابق عهدا أبدا. نشأ من هذا الصراع دستور جديد يؤهل روما لحكم العالم، وطبقة تقوم على تنفيذ هذا الدستور. جاء التغيير بهذا الشكل، فى السنوات التى امتدت من ٩٠ إلى ٨٠ ق.م. حاولت الطبقات المطحونة أن تثور على سادتها، الجماهير التى كان لقتها

وإخلاصها فضل انتصار روما على هانيبال، حاولت أن تزيج السادة عن الاستمرار في مقاليد السلطة. استفادت الجماهير من تفرق السادة وكانوا أن يصبحوا سادة روما (والإمبراطورية بأسرها)، أنقذ روما من هذا التصدع الطبقة العليا في إتروريا وأمبريا الذين كانت لهم العلاقات الاقتصادية مع السادة والذين ارتبطوا بالزواج معهم. ولكن في إثر تلك الثورة حدث تعديلان جذريان - بقيا على مر الزمن. ففي الناحية السياسية امتدت الحقوق الدستورية (وبخاصة حق الانتخاب) إلى جميع الإيطاليين جنوبي نهر البو وبهذا امتص الغضب وهدأ التمرد في المدن. ومن الناحية الحربية كان لتدمير القادة وانتقال ملكية أراضيهم إلى المواطنين الرومانيين، وزرع مائة ألف من المحاربين القدماء في الأراضي المختلفة، فضل امتصاص مقاومة القبائل الجبلية لسلطان روما. حدثت تلك التغيرات لتقابل الاحتياجات العاجلة، ولكنها أحدثت تغييرا طال انتظاره في شكل المجتمع الإيطالي. صارت الطبقة الحاكمة طبقة متسقة ومتماثلة في كافة أنحاء إيطاليا، تتحدث باللاتينية وتتنظر كلها إلى روما كمركز للفخار القومي. في ذات الوقت صارت روما على مكان الحكومة لكافة أنحاء إيطاليا، واستمرت الحكومة ممثلة للطبقة الإيطالية الحاكمة. إزداد عدد أفراد «السينيت» (الذي تناقص بالإبعاد) بواسطة سولا إلى ٥٠٠ فرد ثم بواسطة يوليوس قيصر إلى ٩٠٠. كانت الزيادة لاترجع في الأساس إلى الحقوق الوراثية للاستقراط ولا إلى محاولة الاستجابة إلى المطالب المحلية فحسب، بل كانت ترجع في المقام الأول للدكتاتور الحاكم وإلى احتواء المخلصين له. وهكذا تغيرت الأصول الوراثية للطبقة واتسعت بسرعة، وكان لهذا التحول آثار مباشرة. ففي كل أزمة لاحقة كانت السلطة تتركز في يد الشخص الذي يستطيع السيطرة العسكرية على الموقف وسيطر على السلطة الإدارية للدولة. (وكان هذا الشخص أحيانا من السياسيين). استمرت الحروب المدنية حتى أتت على كبار ملاك الأراضي السابقين من أعضاء «السينيت» وحل محلهم أفراد تمتعوا بالعبقرية. كان أصل هؤلاء القوم مجهولا أو مختلطا، وكانوا يقعون خارج الدائرة المغلقة للطبقة الحاكمة من غير أفراد الأسر العريقة. لم يحمل من هؤلاء الرجال أسماء شهيرة سوى سولا وقيصر. كان ماريوس (الذي أعاد تشكيل الجيش)، وسيسيرو - الذي أعاد صياغة اللغة وكان له أكبر الأثر في فكر روما الجديد - رجالا جددا من أربينام، بينما جاء بومبي (الذي ساد البحار وفتح الشرق) من بيسينام. هل كان من أصل إتروسكاني أو اليرى؟ لم يعد هذا أمرا يشغل بال أحد. كان أوكتافيوس (ابن شقيقة قيصر وابنه بالتبني) نتاج زواج من بين نبلاء روما الفقراء وبين أحد الأغنياء المحليين - الجنس الجديد المهجن. كان لأصله العريق ولثرائه الجديد، ولمطامعه وعمله النؤوب، الفضل في ارتفاع شأنه، وشأن كل من جمع تلك الصفات.

يوضح الجدول رقم (٩) التتابع الزمني لتطور الدولة الرومانية وتصاعدها من قرية صغيرة إلى دولة عظمى.

جدول رقم (٩)

تطور نشأة وصعود روما والدولة الرومانية

٧٥٣ ق.م. تأسيس المدينة بواسطة رومولي
٥٧٥ - ٥٠٩ ق.م. احتلال الإتروسكان لها

الصراع لامتلاك إيطاليا

٢٦٥ - ٥٠٩ ق.م. التحالف مع اللاتين وإخضاع القبائل الجبيلة
٥٠٠ - ٣٠٠ ق.م. تأسيس رابطة اللاتين
٣٨٠ - ٣٤٠ ق.م. احتلال الغال لروما ثم الانسحاب منها نظير فدية مالية
٣٩٠ ق.م. إخضاع المدن الإتروسكانية
٣٩٦ - ٢٨٠ ق.م. إخضاع ولاية كابو (من السمنيين)
٢٤١ ق.م.

الصراع الاجتماعي الأول

٤٩٠ - ٢٨٧ ق.م. تأسيس المدافعين عن الحقوق المدنية (للدفاع عن الشعب)
٤٩٠ ق.م. كتابة الدستور الروماني (من مادة ١٢) القوانين اللاتينية
٤٥٠ ق.م. حق العوام في الزواج مع النبلاء
٣٦٧ ق.م. إنشاء مجلس للشعب ومنحه حق إصدار القوانين
٢٨٧ ق.م.

الصراع لإنشاء الإمبراطورية

مع قرطاجنة

٢٦٤ - ٢٤١ ق.م. أسر ٧٥ ألف واتخاذهم رقيقا واحتلال صقلية
٢٢٩ ق.م. احتلال جزيرتي كورسيكا وساردينيا
٢١٨ - ٢٠١ ق.م. الحرب القرطاجية الثانية (هانيبال) احتلال إسبانيا
١٤٩ - ١٤٦ ق.م. الحرب القرطاجية الثالثة - تدمير قرطاجنة واحتلال أفريقيا

مع القوى الهلينستية

١٨٩ ق.م. هزيمة السلوسيديين في ماجنيزيا
١٤٨ - ١٤٦ ق.م. احتلال مقدونيا واليونان
١٣٣ ق.م. احتلال برجامون

إتمام الامبراطورية

٦٤ - ٦٢ ق.م.

بومبي يضم سوريا وفلسطين وأرمينيا

٥٨ - ٥٢ ق.م.

يوليوس قيصر يحتل بلاد الغال

٣٠ ق.م.

أكتافيوس يضم مصر

الصراع الاجتماعي الثاني

١٣٥ - ٣٠ ق.م.

ثورة العبيد في صقلية مرتين

١٣٥ - ١٣١ ق.م.

١٠٤ - ١٠٠ ق.م.

١٣١ - ١٢١ ق.م.

محاولة الإصلاح الاجتماعي وتملك الأراضي

٩٥ - ٣٠ ق.م.

الحروب الداخلية وبدء الدكتاتورية

كان أكتافيوس يقضى عطلة الشتاء في اليونان عندما علم باغتيال يوليوس قيصر، فأدرك في الحال، أنه وحده الجدير بالاستيلاء على الحكم. كان مثل الإسكندر الأكبر، وهو في سنه الوريث الشرعي لحاكم عظيم، ولكن الحكم كان عظيما والمتنافسون عليه متعددون وأقوياء. كان هدف قيصر من احتلال بلاد الغال منع تركز مهاجمة القبائل الهمجية للحدود الشمالية لإمبراطوريته الشاسعة، وقد نجح فيما قصد إليه، واستمرت الدولة التي كونها تشع بحضارة الرومان على مدى ألفى عام، وصار اسم قيصر يسمى بعظيم العظماء (وملك الموت مثل لقب الشاهنشاه لدى الفرس) وكان اسم أكتافيوس عند بداية صعوده للسلطة «يوليوس قيصر أكتافيوس»، وبدأ بتوحيد كل المعارضين على اغتيال قيصر والثائرين على تلك الفعلة بدأ بالتحالف مع انطونيو (لتقاسم الإمبراطورية معه ثم للإطاحة به). بدأ أكتافيوس حياته السياسية في سن العشرين - كقنصل - ثم صار حاكما لأعظم إمبراطورية في سن الثالثة والثلاثين. وصل إلى هذا المنصب بدهائه وتنافيه للحرب مع منافسيه (بعكس قيصر الذي كثيرا ما كان يتصارع مع أعدائه)، ورفض في المبدأ أن يتخذ شكل الدكتاتور أو مظهر الملك (الذي حصل عليه قيصر بجهده وانتصاراته). ساعد أكتافيوس في بلوغ مراميه عظمة يوليوس قيصر ومأساة مقتله في أوج عظيمته. كان عدد قتلى قيصر في المعارك التي دامت خمسين عاما حوالي المليون، نصفهم من الإيطاليين. يضاف إلى هذا العدد الرهيب من تم عزلهم بواسطة أوكتافيوس وأنطونيو (وعدد من سجله التاريخ ٣٠٠ سناتور و ٢٠٠٠ من الفرسان، ويقدر من تم ذبحهم بنصف تلك الأعداد). من بين هؤلاء سيسيرو (الذي كان أكتافيوس يدعوه بالأب). تم استبعاد الرؤساء ليخلو الجو للسيطرة على إيطاليا، والاتباع لدفع مستحقات الجيوش من حصيلة مصادر

الممتلكات. كان القتل قد بلغ مداه بين قادة المجتمع الروماني العسكريين حتى ملوا الصراع وصاروا يفضلون السلام، وبدأت تستهويهم المنح التي أُعِدق بها عليهم أكتافايوس (المنح التي لم يقدرها الزعماء السابقون في روما الذين ينتمون حقيقة إلى طبقة الأرستقراط).

شهدت أوروبا مرارا هذا التحول، وكما خمدت الحروب الأهلية في الداخل، هدأت الحروب في خارج البلاد. صارت الجيوش العظمى والقادة العظام (الذين لم يعودوا ينتمون إلى الأسر العريقة)، مهمتها الدفاع عن حدود البلاد وحمايتها ممن يحاول الاقتراب منها للقرون التالية. وهكذا كان الامتداد العظيم للإمبراطورية الرومانية إلى وسط أوروبا صار عبئا ثقيلا عليها. اتجه الرومان لعملية بسيطة - وهي احتلال الجزر البريطانية، بديلا عن الخيار الصعب وهو محاولة فتح ألمانيا (ولم يكن هذا ممكنا في عصر سيطرة الأرستقراط وكبار العائلات على الحكم وعلى الجيش).

هكذا وجد أكتافايوس نفسه على رأس دولة، تريد الحياة، لأول مرة في تاريخها الطويل ولاتريد مزيدا من الحروب، ولكنها لاتريد تغيير شكل الحياة. مافتىء المتعلمون وغير المتعلمين، الأغنياء والفقراء على السواء لا يريدون أى تغيير في شكل الحياة التي نشأوا عليها في تلك الدولة. بعد إخماد الحروب الداخلية بقسوة بواسطة أكتافايوس واستيلائه على السلطة الكاملة بلا منازع (عين ٣٠٠ سناتورا جديدا من أتباعه وألفين فارسا جديدا وتم ذبح نصف هذه الأعداد ممن نازعوه السلطان ومنهم سيسرو الذي كان أكتافايوس يدعوه أباه) بدأت حماية الفتوحات الخارجية في التداعي، وصارت مهمة الجيوش العظيمة والقواد العظام الذين يقودون تلك الجيوش، هي الدفاع عن حدود الدولة الشاسعة في القرن المقبلة، وكما كان العبء عليها عظيما، توقف الزحف لإخضاع أواسط أوروبا واكتفت الإمبراطورية الرومانية بزهو إخضاع الجزر البريطانية ولم تحاول إخضاع ألمانيا. هكذا وجد أكتافايوس على رأس دولة يريد أهلها المعيشة في سلام والتمتع بثمرات الحروب الطويلة والانتصارات المتتالية بدون مزيد من الحروب وينون محاولة تغيير بناء المجتمع الذي نشأوا فيه، أغنياء أو فقراء، وصاروا فيه عظماء. صار أكتافايوس وحده هو الذي يعين القناصل الجدد وهو الذي يشكل لجان مجلس «السينيت» التي تشرع القوانين والمطروبة، وعين نفسه المشرع الأكبر ورجل الدين الأعظم للتصرف في جميع القوانين والتشريعات الدينية، وسرعان ما اتخذ لنفسه لقب أغسطس. ولكن القوة الحقيقية كانت في يد الجنود ومن يملك الأموال لدفع أجورهم، ولرجال الإعلام والدعاية ولرجال الدين. تحكم أغسطس في حرية الحركة لأعضاء «السينيت» ولم يسمح لأى منهم بمغادرة إيطاليا إلا بإذن منه شخصيا. عبده الشعب كابن الإله في معابدهم كما كانوا يدعونه

أباهم. فى مصر اعتبره الشعب خليفة الفرعنة والبطالمة، الملك الأعظم، وإله الذى ليس له منافس. ومازلنا حتى عصرنا الحالى نطلق اسم يوليو وأغسطس على أطول شهور السنة المتتابعين. اكتسب أغسطس هذه القوة والجبروت من مركزه السياسى وموقعه الدينى قوته العسكرية ومركزه الاقتصادى المتين والمشاعر العاطفية التى أتاحتها له اسم عائلته العريقة. أضفى عليه كرم المحتد وتواضع العوام حبا شديدا فى أعين الجماهير. كان أغسطس يعهد لسواه - ممن يفوقونه خبرة ومعرفة بالأمور - بسطات لم تعرفها حكومات روما فيما قبل، وكان هذا شيئا جديدا لم يألّفه الرومان، الذى كان الحكم فيه لا يخرج عن دائرة النبلاء أو عن فردية يوليوس قيصر. بهذا التشكيل الجديد لنظام الحكم تم اختيار أكفأ الناس ليصيروا رؤساء لأنشطة الحكومة المختلفة. لم يكن أغسطس قائدا حربيا محنكا ولهذا فقد عهد بقيادة القوات المسلحة لأجربيا (الذى بنى البانثيون وقناة نيمس). كان أجربيا من عامة الشعب وكان مجهول الأصل ولكن تبين يوليوس قيصر قدراته الفذة أيام الشباب وعهد إليه الأعمال التى نسبت بعد نجاحها لسيدّه. كذلك لم يكن أغسطس من خبراء الفنون، وكان نوقه ومعرفته بها هو نوق ومعرفة العوام، ولكنه وجد فى ماسينا الإتروسكانى، الأرسقراطى، الرجل القدير على تخديم العلم والأدب فى تقدم الأمة، وفى استثمار الدعاية والدبلوماسية فى سبيل رفعتها. كذلك استطاع فيرجيل وهوراس وليفى فيما بينهم إقناع العالم أن حكم أغسطس ضرورة حتمية لتطور التاريخ ونبوة دينية تتحقق على يديه. كان هؤلاء الرجال ألصق الناس بالحاكم. كذلك كان هناك أناس آخرون من بطانته المقربة - من غير أعضاء «السينيت» نوب إبداعات مختلفة وعبقريات متباينة، اختارهم لمعاونة أجربيا لوضع نظم الضرائب وصك النقود واستقلال المناجم وبناء الطرق والقنوات والموانىء، ومساعدة أغسطس فى الإشراف على رجال الدين وتطوير التقويم والقوانين. ووجد أوكتافيوس هؤلاء المعاوين فى كل مكان فى امبراطوريته إلا فى روما نفسها. كان كبار الكتاب فى عهده من أصل إغريقى أو إتروسكانى أو أسبانى أو من شمال أفريقيا ومن غيرها. أما كبار موظفيه فكانوا من أسرى الحرب الذين أتوا إلى روما كعبيد من بلاد الشرق المتحدثين بالإغريقية (كان يقطن روما فى عهده مليون نسمة، نصفهم من العبيد)، نقل إليه هؤلاء الرجال العلم والحضارة وأصول الإدارة الهيلينستية بفضل نشاطهم وتعلمهم وخبرتهم السابقة. وضع هؤلاء الرجال أسس المجتمع الجديد بدون الالتفات إلى مساوىء هذا العهد وتعسفاته المرعبة فى هذه الحقبة من حقب التطور.

فى عهد الجمهورية كان الشخص الذى يطمح أن يكون سنتاورا هو الشخص الذى له ارتباطات بأحد الستتاروز، ولا بد أن يكون من النبلاء أو الأشراف. تحطمت هذه القاعدة أيام الحروب الأهلية،

ولكنها ظهرت من جديد فى عهد أغسطس واتخذت صورة جديدة. أتيح لكل شخص فرصة الترقى ولكن فى حدود النظم التى وضعت للأفراد ولعائلاتهم. كان عدد العبيد الذى يسمح به للعالم أن يعتقهم محدودا. بعد العتق كان يسمح للعبد السابق أن يلتحق بالخدمة فى الشرطة أو فى وظائف الحكومة، ويمكنه بعد حين أن يصير رئيسا، وهكذا يمكن لابنائه أن يصيروا من أعضاء «السينيت». كذلك بإمكان أبناء العبد العتيق أن يلتحقوا بالجيش ومن ثم يمكن لابنائهم أن يصيروا سقناوز. شددت تلك القوانين فى عهد تيبيريوس وكلاوديوس ولم يكن يسمح لابناء العبد العتيق أن يلتحق «بالسينيت» قبل مرور خمسة أجيال على العتق. أما فى عهد أغسطس فقد قيدت تلك القوانين ويسرت. فرض أغسطس الضرائب على العزاب وفرض الغرامات على الخيانة الزوجية - إذا حدث هذا بين أفراد الطبقات العليا. وكان الفرد يرقى ويمنح مكافئات مالية إذا رزق بأبناء شرعيين (عشر قطع ذهبية عن كل مولود شرعى). وفى نفس الوقت قيد العتق من الرق وقيد حقوق المعتقين (منع زواج الجوارى المعتقات من السناتورز). كان هدفه من هذا زيادة تعداد الشعب الإيطالى والحد من تعداد أبناء العبيد، وأعاد فى خطابه «السينيت» ما سبق أن قاله أحد المفكرين عام ١٤٣ ق.م. بوجود جعل الزواج إجباريا لتشجيع زيادة النسل بين الإيطاليين مع ما تحمله زيادة السكان من خير عميم على الأمة. استمرت هذه السياسة الحكيمة طالما بقيت الإمبراطورية، والآن بعد امتداد رقعة الإمبراطورية واتساعها واختلاف المجتمع الرومانى من مكان لآخر سنحت فرصة نادرة لاختلاط الأجناس المختلفة وتبادل الأعراق والجينات. بالرغم من هذا لم تكمل هذه السياسة بالنجاح المأمول ولم توت ثمرتها المرجوة للأسباب التالية:

أولا: كانت الطبقة الحاكمة الرومانية مؤهلة لمعالجة العالم الذى بدعوه بأنفسهم ولكن أحوال ذلك العالم تغيرت تحت سمعهم وبصرهم. حل التعايش السلمى بين الشعوب محل التوسع العسكرى واستبدلت دولة صغيرة باتحاد مترامى الأطراف. كانت الوحدة العرقية والقيم المتماسكة هى عنوان تلك الدولة الصغيرة ولكن حل محلها إختلاف فى الطبع وتباين فى الأهداف وتعدد فى الطموحات، ظل كامنا لفترة ما من أثر الإرهاق ونتيجة التعب وحل محل الاختلافات سلم مؤقت. لم يكن لدى الطبقة الحاكمة الرومانية - بعد بلوغ آمالها - أى تطلعات أخرى، ففقدت هدفها المعلن، أساس تزالوجها من بعضها، ففقدت تماسكها الاجتماعى، واختفت سريعا كطبقة متميزة.

ثانياً: لم تلاحظ الدولة ما حدث من تعارض بين مركز الرومان والإيطاليين فى الإمبراطورية الجديدة المترامية الأطراف. بينما ظل الرومان والإيطاليين هم المثقفون وذوو السلطة السياسية فى الإمبراطورية، كانوا فى الحقيقة الأقلية العددية فيها وكانوا كذلك الأقلية العرقية. وكانت الكثرة والغلبة دافعا للاستقلال بعد عدة أجيال.

كانت حكومة أغسطس غير قادرة على تنظيم دخول الثروات إلى روما. بينما كان الإمبراطور يزهو بالعزة والفقامة والأبهة وبينما كان يتمتع بالقوة والجبروت إلا أن الخوف كان يسيطر عليه ويتحكم في سياساته. كان له حرس من تسع فرق، من إيطاليين مولودين في إيطاليا، يحمونه. وكان حرسه الخصوصيين يتكون من ألمان ولدوا في إيطاليا. كان يرشو الجماهير ليضمن سكوتها وكان يغدق الألقاب على الأثرياء. لم يكن أغسطس قادرا على التحكم في سلوك أفراد عائلته الذين دفعه طموحه إلى تكوينها بهذا الشكل.

كانت طباع أغسطس الشخصية وأعماله العامة يحكمها تاريخ أسلافه وزيجاته المتعددة. كان أول حاكم لروما يجمع بين أسلاف من النبلاء وأسلاف من العوام. كان نقيا، مؤمنا بالخرافات، وكان مؤمنا بأحقيته في تولى الحكم وقد جاء هذا من أصله النبيل، وكان يتفهم رغبات الجماهير ويحرص على أداء أعماله والقيام بواجباته، وكان ماهرا في الأمور المالية ولكن كان ينقصه خلق الفرسان، وقد جاءت كل هذه الصفات من أصله العامي. كان الجمع بين تلك الصفات يناسب احتياجات العصر الحاضر والمستقبل. بدأ حياته ككتفان القنصل وعمره عشرون عاما وتزوج من سيرفيليا. ثم تزوج كلوديا لإرضاء جنوده (كانت كلوديا ابنة زوجه حليفه ومناقسه انطونيوس، الذي تزوج هو نفسه من شقيقته أوكتافيا ورزق منها بعدة أبناء). ثم تزوج أكتافيان للمرة الثالثة من سكريبونيا (وكان هو زوجها الثالث). لم يكن أكتافيان يحب سكريبونيا (كما لم يحبها زوجها السابقان)، وطلقها في نفس يوم ولادتها لابنته جوليا (الطفلة الوحيدة التي أعترف بها أكتافوس)، تزوج للمرة الرابعة من ليفيادروسيليا (وهي حامل في ستة أشهر من زوجها السابق الذي اضطر لتطليقها) واحتضنها أوكافوس مع ولديها دروسوس وتيريوس. كان أوكتافوس قد بلغ من العمر أربعة وعشرين عاما وظل مع حبيبته ليفيا السنوات الثلاثة وخمسين الباقية من حياته ومن حكمه، ولكنه لم ينجب منها، كان هذا الزواج زواجا ناجحا سياسيا واجتماعيا. كان كليهما من نوى الأصل المختلط (فقد كانت أمها من العوام كما كان أبيه) بينما كان أبوها من كبار النبلاء كما كانت أمه. تشير القرائن أن تعدد زيجات أغسطس وخيانتته لزوجاته الثلاثة الأولى وإخلاقه لزوجه الرابعة ليفيا كانت لها كلها أسباب سياسية. كان في مبدأ حياته مترفا منغمسا في الملذات حتى التقى بزوجه الرابعة وصار نقيا، طاهرا فقد كانت له نعم الناصح والمرشد وكانت له فيلسوفة وصديقة. كان انفعاليا، عديم القلب، عديم الذرية من الذكور لكي يرثوا عرشه. توجه إلى مصر، إلى كليوباترة المرأة الجميلة الثرية التي تملك نولة غنية والتي أنجبت من قبل طفلا من يوليوس قيصر وطفلا من انطونيوس. قتل ولديها حتى لا يترك طامعا في عرش الإمبراطورية. أرغم أوكتافوس أجريبا على تطليق زوجته المحبة (وكانا يعيشان في

سعادة) وأرغمه على الزواج من ابنته جوليا، ولما توفى عنها أجربيا طلب من تيبيريوس الزواج منها بعد طلاق زوجته وأم ولده دروسوس (وكانت ابنة لأجربيا من زواج سابق)، وهكذا سلك أغسطس طرقا ملتوية لارحمة فيها لتعويض حرمانه من وريث يرث عرشه ويحافظ على إمبراطوريته العظيمة. كانت ابنته جوليا الأولى وحفيده (ابنتها) جوليا الثانية طليقات وأحرارا من ناحية العلاقات الجنسية (إذ كانتا ترفضان التقيد برجل واحد فرضه عليهما سيدهما)، هل لعدم إنجابه رغم كثرة زيجاته يكون له الحق في نصحهما بالعفة والفضيلة! وهو الذي كان يسخر على رفقائه من اللوطيين وينزلهم أحسن المنازل وأفخرها. كانت سيرته الشخصية وسلوكه الخاص أسوأ مثال لأسرته ولمجلس السينيت ولشعبه. كانت سابق الأسرات الحاكمة في التاريخ تلجأ للارتباط بملك أو ملكة أجنبية وتضعه على عرشها، عندما يحتاج الأمر. فرض المقدونيين شبكتهم على جميع العالم الهيلينستي وارتبطوا عند الضرورة بالأخيمين، أما الرومان فقد كان ينبغي أن يكون الحاكم منهم شخصيا، نبيل، يرث النبل عن طريق الأب وكان أخوف ما يخيف أغسطس قائمة العشاق الذين كانوا يحيطون بابنته جوليا. لذلك لم يكن هناك سوى حل واحد هو أن تتزوج جوليا من أحد ذرية أغسطس نفسه أو أحد ذرية شقيقته أوكتافيا وهكذا تنحصر وراثته العرش داخل روما بالاستيلاء الداخلي. أخيرا أقنع أغسطس نفسه على مضمض أن يتولى العرش بعده تيبيريوس (ابن زوجته). تبعت وراثته العرش لدى الرومان نفس النمط الذي حدث في النهاية لدى الأخيمين ولدى البطالمة ولدى فراعنة الأسرة الثامنة عشر المصرية. بعد بداية عظيمة بدأها رجل عبقرى نشأ عن تزواج بين الأبعاد ثم أعقد على منصبه من موهبته، انتهت أسرة الحاكمة - لخشيته من فقدان ملكها باللجوء إلى التزواج بين الأقارب والمحارم والاستيلاء الداخلي الذي أدى إلى الإخفاق والتخلف وضياع الملك. كان نجاح القياصرة الثلاثة الأوائل يعود إلى موهبتهم، وساعدها في القيصر الثاني والثالث ارتباطهم بالقيصر الأول. دعمت قدرات تيبيريوس أغسطس على مدى عشرين عاما ثم انطفأت في النهاية بانهيار عصبي، حدث لم يكن في حسابان أغسطس ولم تعمل له المؤسسة الحاكمة أى حساب. كان القيصر الخامس - كلاوديوس - شاذًا منغمسا في لذاته مع حريمه. ولكن كان القيصر الرابع كاليجولا والسادس نيرون - نتاج زواج أبناء عمومة - من المجانين الذين قضوا تماما على الأسرة المالكة. بالإضافة إلى الآثار المدمرة للاستيلاء الداخلي هناك المصائب التي تنشأ عند تعدد الزوجات (والأزواج) التي لاقاها الأخيميون والبطالمة، فكل وريث للعرش يسارع بقتل كل منافسيه حالما يرث السلطان. فقد قتل أغسطس أبناء يوليوس قيصر وأنطونيوس، وقتل تيبيريوس ابن جوليا من أجربيا، وتزايد القتل تباعا حتى وصل الحال إلى عدم وجود أى وريث للعرش من سلالة أغسطس بوفاة نيرون. لم يتبق سوى

سلالات جوليا الأولى وجوليا الثانية وأميليا وجوليا كلافينا . بعد انقضاء أربعة أجيال متتالية من وراثة العرش عن طريق خلفاء النساء كان الدم الملكي قد خف إلى درجة كبيرة فلم يعد هناك أى داع للاستمرار فى قتل الرجال فقد ذابوا فى المجتمع الرومانى (أو المجتمع العالمى).

توسعت أسس الحكم أولا فى عهد يوليوس قيصر ثم فى عهد أغسطس ولكن تزايد الاهتمام بسلالة الامبراطور. زعم فى أول الأمر أن الحكام من نسل الملوك ثم زعم أنهم من نسل الله. طالما ظل الحاكم من سلالة يوليوس قيصر كان مقدسا وتقام له الطقوس الدينية، ولكن بزوال هذه السلالة، ذاب الحاكم فى روما وذابت روما فى الامبراطورية. بعد نيرون اتخذ كل حاكم جديد لنفسه لقب قيصر، ليربط نفسه بالأسرة الحاكمة المندثرة (ولكن لم يعد هناك رباط وراثى بها). تولى الفلافيون الحكم (وهم من أسرة سابين، ومثل قيصر من دم يختلط فيه دم النبلاء مع دم العوام) تولى الحاكمان الأولان سلطانهما من كونهما قادة للجيش ولكن دالت نولتهم بفشل الحاكم الثالث. بعد دوميتيان جاءت سلسلة من الأباطرة كانوا من القوة بحيث كان يعهد كل منهم بولاية العهد ويسمى خليفته بنفسه أثناءحياته وكانوا من الحكمة بحيث ينتقى كل امبراطور أنسب الخلفاء وأصلحهم للحكم. حتى تولى ماركوس أوريلياس، الذي تزوج ابنة عمه واختار وريثه من نتاج هذا الزواج، كومودوس، الذى سرعان ما اغتيل. كان الحكام الأربعة تراجان وهارديان وانطونينوس ببيوس وماركس اوريلبيوس من الرومان، الذين عاشواالفترة ما فى الولايات الإسبانية أو الغالية (الفرنسية) وتزوجوا من الفتيات المحليات فى تلك الولايات وكانوا جميعا من أقدر الحكام وأبرعهم بعد أغسطس، وكانوا أول أباطرة يرون الإمبراطورية الرومانية من خارج روما (كما نراها نحن الآن). بعد ماركوس أوريلبيوس تطورت الإمبراطورية لدرجة كان من المستحيل أن يستمر إدارتها بحكم مركزى دائم. كان الجيش وحده هو مصدر السلطة الدائمة، وقد انفرد عقد الجيش وصار جيوشا متعددة، مرتبطة بالأقاليم المختلفة، وتحديث إمرة جنرالات متعددين وكانوا يسعون دائما (فى هذا العهد - القرن الثالث بعدالميلاد) لتولى السلطة، ودخلوا فى حروب أهلية متكررة. فى غياب طبقة حاكمة، تستمد سلطانها من أسرة حاكمة أو من سلطة دينية، تولت فئة عسكرية الحكم وحاولت توريث العرش. هذا هوالحل المتكرر الذى زاولته جميع الشعوب (ومازالت تزاله حتى عصرنا الحاضر)، خاصة تلك الشعوب التى اتسعت رقعتها عن إمكان ضبط النظام والسيادة فيها. بلغ اتساع الإمبراطورية الرومانية حدا بالغا عن إمكانية ضبطه، وظهر الشقاق بين أقاليمه المختلفة، وساءت أحوال المركز فى إيطاليا ولم يعد أكبر الأقاليم ثراء، وهاجمت القبائل الهمجية أطراف الإمبراطورية بلا هوادة وعاودت الإغارة عليها بلا إنقطاع، حتى صار انهيار الإمبراطورية أمرا محتما، أخره إلى حين براعة ديوكليتيان ومهارة قنسطنطين والموارد التى كانت بين أيديهما.

كان يقطن إمبراطورية أغسطس حوالي ٦٠ مليون نسمة، ازدادوا إلى حوالي ١٠٠ مليون عندما حل وباء الطاعون الأول عام ١٦٨ ب.م. تعدد لغات سكان الإمبراطورية واختلفت أعراقهم وأصولهم الجغرافية وتنوعت وظائفهم وطبقاتهم الاجتماعية، واختلفوا في معتقداتهم الدينية وفي علاقاتهم وفي لغة الحديث بينهم. كانت هناك مجموعتان رئيستان من اللغات يتحدث بها السكان في الإمبراطورية الرومانية. اللغة الأولى تتحدث بها الأقوام السابق لها التحضر والمدنية، يتحدث بها المتعلمون واللغات الثانية تتحدث بها القبائل المتخلفة، وهذه تنحون نحو الاندثار، كما يوضح الجدول رقم (١٠).

جدول رقم (١٠)

اللغات الرئيسية في الإمبراطورية الرومانية حسب عدد من يتحدث بها:

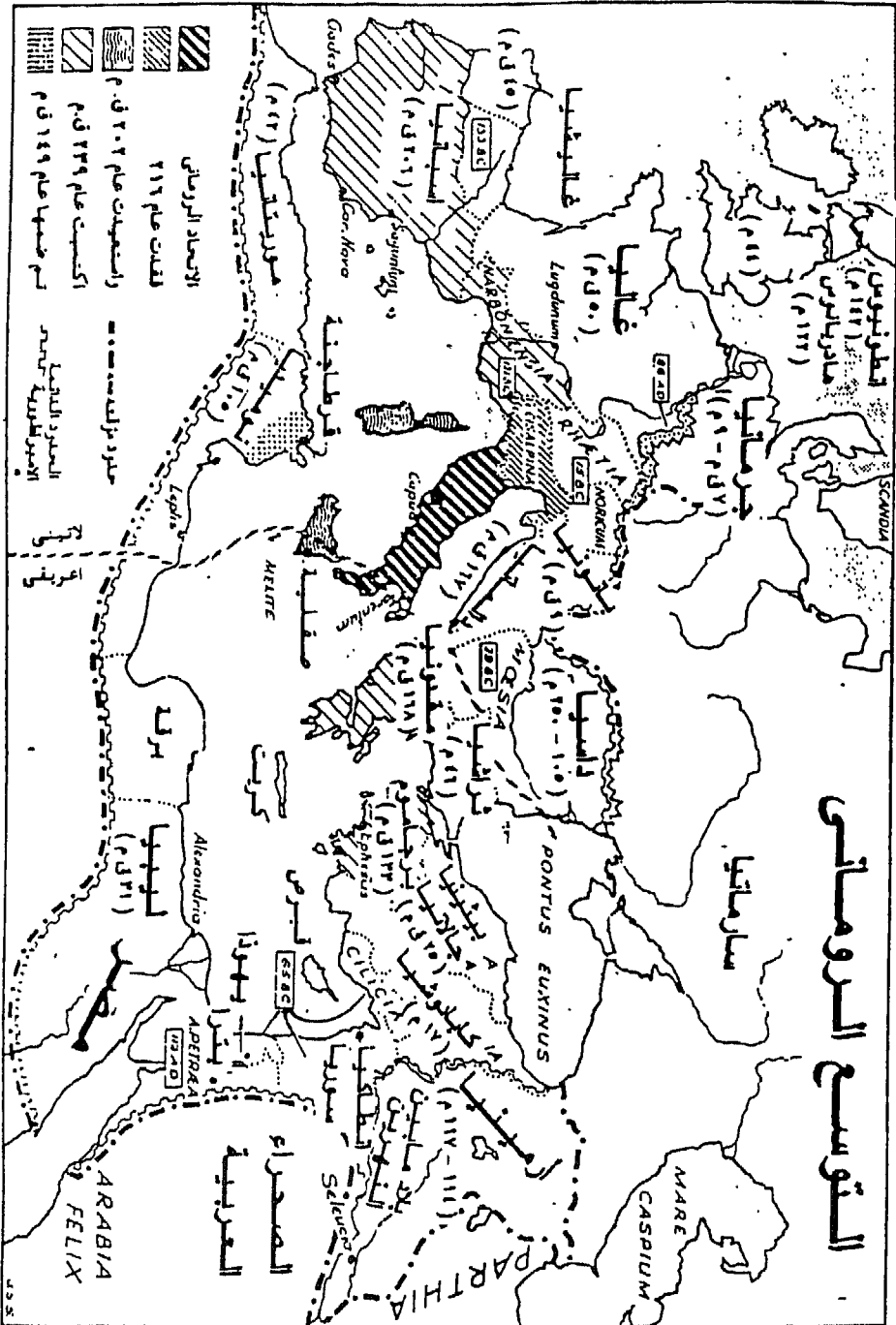
غير المتعلمين	المتعلمون
(الهمج)	(المتحضرين)
الغالية	الإغريقية
الألمانية	اللاتينية
الكيلتية - الأيبيرية ولغة الباسك	المصرية
الليورية	الأرامية
البربرية	العبرية
النوبية	القرطاجية

تحت الإدارة الرومانية، المدنية والدينية والعسكرية، حلت لغة اللاتين محل كافة اللغات في مدن الغرب في القرون الثلاثة الأولى من الحكم الروماني، وفيما تلى من القرون - بعد دخول المسيحية - تغلبت اللغة اللاتينية تماما وانتشرت في الريف (ولكنها لم تتمكن تماما من الرعاة من أهالي بريتاني والباسك والبربر). بينما في الشرق انتشرت اللغة الإغريقية على حساب اللهجات المحلية في الأناضول وعلى حساب اللغة الأرامية، بينما اختلفت اللغة المصرية بكيانها في مدن مصر وفي ريفها في الشكل الذي نعرفه حاليا باللغة القبطية.

تكاثر اليهود عشرين مثلا منذ نفيتهم وتشنتهم على يد البابليين. بلغ تعدادهم في بلاد الفرس وفي بابل وفي شبه الجزيرة العربية وفي الحبشة حوالي مليوني نسمة، وبلغ تعدادهم في بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية حوالي ٤-٦ مليون نسمة. كان ثلاثة أرباع اليهود في ذلك العصر يتحدثون باللغة الإغريقية (في مصر وفي الأناضول)، بينما من قطنوا فلسطين وسوريا فكانوا من المتحدثين بالأرامية. ويعد سحق ثورتى اليهود على يد تيتوس وهارديان، تم تدمير معظم هذا الجمع الأخير من اليهود أو استعبدوا أو تشنتوا في أنحاء المعمورة، في عوالم تتحدث بالإغريقية أو اللاتينية. تعرض اليهود في فترات للاضطهاد أو الطرد. طردت المستعمرة الأولى لهم من روما عام ١٢٩ ق.م.، وأمر تيبيريوس بطرد مجموعة أخرى منهم من إيطاليا. هاجر بعضهم إلى بلاد في غرب إيطاليا (إلى جزيرتى سردينيا ومايوركا وإلى اسبانيا). كون آخرون المستعمرة اليهودية الأولى في كولونيا (التي استمرت لتنتج اليهود في ألمانيا والتي نشأ منها اليهود الذين يتحدثون بلغة اليديش)، ولكن بقى اليهود الآخرون في إيطاليا إلي عصرنا الحالى. فى كل تحركاتهم هذه حمل اليهود معهم حرفهم وتجارتهم وديانتهم وتعليمهم. ظلوا حتى القرن الثالث الميلادى يتحدثون باللغة الإغريقية. توضح الخريطة رقم (٤) الحد الفاصل بين المتحدثين باللغة اللاتنية فى الغرب والمتحدثين بالإغريقية فى الشرق.

كان أهم آثار السلم الذى حققه أغسطس هو إتاحة حرية التنقل للبشر فى إمبراطوريته الشاسعة، وفى استيطانهم فى مجتمعات جديدة. كانت حرية التنقل متاحة فيما قبل فى إيطاليا لمدة قرنين من الزمان، فتوسعت هذه الحرية لمساحة لتعدل مساحة إيطاليا اثنى عشر مثلا فى الإمبراطورية كلها. فى نفس الوقت أمكن للرومان التجارة فى آسيا، فجلبوا الحرير من الصين عبر المحيط الهندى وجلبوا القرفة من الهند، وجلبوا العاج من النيجر عبر أفريقيا وجلبوا العنبر من بحر البلطيق عبر أوروبا. صارت التجارة أكثر يسرا عندما شق الجيش الطرق إلى روما من كافة أنحاء الإمبراطورية لتتصل العاصمة بجميع الحدود، وصارت التجارة أكثر أمانا بعد القضاء على قرصنة بحار العبيد فى جزيرتى كريت وصقلية، الذين صارت لهم الحرية فى البحر المتوسط بعد انهيار صيدا وقرطاجنة وفى اثر فوضى الحروب الأهلية. كذلك كانت الجيوش ذاتها تمثل بشرا فى حركة مستمرة. فى بداية حكمه رأى تيبيريوس أن يحرك كتائب الجيش من الأراضى الجديدة المستعمرة والتي جاء منها أفراد الجيش. كانت الجيوش يجند لها الفلاحون ويضم إليهم مواطنون محليون. فى مبدأ الأمر كان عليهم حماية أراضيه من هجمات القبائل المتبريرة. وبعد قليل صار تلك الجيوش محترفة. وكان تكوينها فى أول الأمر مختلطا، وكانت كل جنسية متخصصة فى شأن من شئون

التوسع الروماني



الحرب. كان هناك القذاهون من باليارى ورماة السهام من كريت والفرسان من نوميديا (الذين ورثوا الفروسية من هانيبال والحروب القرطاجية) ولكن عندما استحدث سكيبيو السيف الإسباني اختفى هذا الاختلاف فى تسليح الجيش وصار كله مسلحا تسليحا واحدا واستقروا كمستعمرين فى الأراضى الجديدة، واستقروا - حسب رغباتهم - فى أراضى يفلحونها واتخذوا لأنفسهم زوجات من القبائل المتبررة أسوة بمليكم هادريان. بعد استقرار الرومان كمستعمرين ابتدعوا طرقا جديدة للصرف واستخدموا وسائل مستحدثة للرعى، مستعينين فى ذلك بمهندسين إيطاليين أو قرطاجيين. أخذت مختلف المحاصيل الجديدة والسلالات المستحدثة من الحيوانات من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البلدان الشمالية لتكفل احتياجات القوات المسلحة الآتية من الجنوب. زرعت الكروم فى شمال بلاد الغال وفى وادى الراين، واستفادت بلادغرىي البحر المتوسط من الفاكهة المستوردة من الشرق العتيق. انتقلت أشجار الزيتون من اليونان كما انتقلت أشجار الجوز والكرز من الأناضول. استفادت تلك البلدان من طرق الزراعة الحديثة (الزراعة بالعقل)، ومكنت هذه الطريقة من انتشار أصناف الفاكهة المحسنة من أشجار قليلة إلى مساحات واسعة تحوى أصنافا برية، وقد أمكن بتلك الوسيلة نشر الزراعة المتطورة إلى كافة أنحاء الإمبراطورية فى سنوات قليلة. نشر الرومان تلك المحاصيل الجديدة والحيوانات وطرق الزراعة المتطورة فى تلك البلاد بعد أن استقر فيها المستعمرون الجدد. أقام الجيش الرومانى مراكز عسكرية، سرعان ما تسرب إليها التجار كما تسربوا إلى العواصم القبلية. بدأ ثراء القوم فى إنشاء فيلاتهم فى الريف وبدأوا يستخدمون العمالة المحلية فى زراعة أراضيتهم وفى التنمية الصناعية. استقر المحاربون القدماء على الأخص فى وادى الدانوب ووادى الراين، حيث مكنت نظم الصرف مع اقتلاع الغابات على جعل زراعة الأراضى ميسرة. كانت المجتمعات الجديدة التى سكنت فى تلك الأماكن من البشر المهجنين. كان بسطاء القوم يقطنون قرب الحدود وكانوا عادة ممن يعملون بالتجارة، ولكن بقى على القمة الإداريون الرومان الذين تزوجوا مع العائلات المحلية، خاصة من بنات رجال الدين. من سلالة هؤلاء نشأ أفراد أفذاذ سرعان ما انتقلوا إلى روما نفسها أو تم تعيينهم كحكام للولايات أو قادة للجيوش أو صاروا من كبار الكتاب، كالكتاب الذين أتوا من إسبانيا أو كالأباطرة من بلاد الغال، ربما كانت تجرى فى دماء هؤلاء جميعا مزيج من الدم القرطاجى أو الإغريقى. ويوضح الجول رقم (١١) تعاقب الأباطرة على عرش الإمبراطورية الرومانية وأهم الأحداث التى صاحبت حكم كل منهم.

جدول رقم (١١)

تعاقب الأباطرة الرومان وأهم الأحداث التي صاحبت حكمهم

أولاً: الأسرة اليولينية الكلاودية:

إغتيال يوليوس قيصر	٤٤ ق.م.
أوكتافوس يعلن نفسه إمبراطوراً	٢٨ ق.م.
أوكتافوس يتخذ لنفسه اسم أغسطس	٢٧ ق.م. - ١٤ ق.م.
تيبيريوس	١٤ ق.م. - ٣٧ ق.م.
كاليجولا (أغتيل)	٣٧ - ٤١ م
كلوديوس (ماتا مسموماً)	٤١ - ٥٤ م
نيرون (انتحر)	٥٤ - ٦٨ م

فوضى

ثانياً: الأسرة الغالطية:

فيسباسيان	٦٩ - ٧٩ م
تيتوس	٧٩ - ٨١ م
نوميتيان (أغتيل)	٨١ - ٩٦ م

ثالثاً: أباطرة من أصل إسباني - غالسي:

نيرقا	٩٦ - ٩٧ م
تراچان (من أسرة رومانية إسبانية)	٩٧ - ١١٧ م
هارديان	١١٧ - ١٣٨ م
أنطونيوس بيوس	١٣٨ - ١٦١ م
(من أسرة رومانية غالية)	
ماركوس أوريليوس	١٦١ - ١٨٠ م
كومونوس (أغتيل)	١٨٠ - ١٩٣ م

فوضى

رابعاً: الحكم العسكري:

سبتيمياس سيفيروس	١٩٣ - ٢١١ م	من أصل قرطاجي - الإضطهاد المسيحي الرابع في إفريقيا وفي سوريا
كاراكلا (أغتيل)	٢١١ - ٢١٧ م	منح المواطنين الشرقية للحرار في كافة الولايات ليزيد من الضرائب

فوضى

إلجا بالوس (سوري)	٢١٨ - ٢٢٢ م	بداية المد المسيحي الثالث
ألكسندر سيفيروس	٢٢٢ - ٢٣٥ م	السماح بالكنائس وإتخاذ الأساقفة كناصحين
ماكسيميناس (من العوام)	٢٣٥ - ٢٣٨ م	الإضطهاد المسيحي الخامس

فوضى

سنة من الطغاة	٢٢٨ - ٢٤٩ م
بداية غزو الإمبراطورية - الغزو الألماني	٢٣٥ - ٢٨٤ م

القوطيون يبدؤون في الاستقرار بالإمبراطورية - الشهداء القبارصة - الفوضى الشاملة وإنفصال بلاد الغال وسوريا - قبائل الفرنك الجرمانية تحتل بلاد الغال وتصل إلى إسبانيا - ثورة البربر - الطاعون - إقامة ٤٠ كنيسة في روما وتعيين حكام من المسيحيين في الولايات - تزايد الغزو الألماني - الواندال (قبيلة جرمانية) يتسربون للداخل ويحتلون مزيداً من البلاد - القوطيون يزعمون اليونان والأناضول بغارات بحرية متكررة - إحاطة روما (ومدن أخرى) بالأسوار.

خامساً: إنقسام الإمبراطورية:

إلى الإمبراطورية الرومانية الغربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية	٢٨٤ - ٣٠٤ م
الإضطهاد المسيحي الأخير. في الغرب وفي الشرق	٣٠٤ - ٣٠٥ م
الحروب الأهلية	٣٠٦ - ٣٢٤ م
قنسطنتين الأكبر	٣٠٦ - ٣٢٤ م
قتل ولاداء اللذان توليا بعده قنسطنتينوس ثم قنسطنتين	٣٢٧ م
جوليان الرسول	٣٦١ - ٣٦٣ م

خلال هذه الأحداث والتغيرات السياسية، حدثت تحولات عميقة فى المجتمع الرومانى. لم يعد أعضاء السينيت من الإيطاليين فحسب، وبدأ الأجانب (خاصة من إسبانيا ومن بلاد الغال) يدخلون السينيت مع تعاضم ثروتهم وزيادة نفوذهم: كان من دخل إلى السينيت هم أبناء الزيجات المختلطة بين رومان وأفراد محليين (كما حدث فى الأباطرة الذين تولوا عرش روما). ثم بدأ يدخل المجلس سناتورز من أفريقيا وآسيا، نوى أصول محلية تماما أو من نتاج تفرق الرومان إلى تلك الأماكن وتوطينهم فيها. ثانى هذه التغيرات الاجتماعية هو رفع مزيد من العبيد إلى مرتبة الأحرار، وهؤلاء هم أساس من عملوا بالتجارة وفى شتى الحرف. أتى معظم هؤلاء الرقيق من البلاد التى تتحدث بالإغريقية: أتوا من الشرق، من بابل ومن بلادالفرس ومن فينيقيا وكان بينهم عدد من اليهود. حمل كل هؤلاء مهارات الشرق القديم وكانوا يصلون إلى روما مرورا بالأسكندرية. أدخل هؤلاء الصناع المهرة صناعة نغخ الزجاج من صيدا إلى كامبانيا، وفيما بعد إلى بلاد الغال، كما أدخلوا صناعة غزل الصوف ونسجه إلى لومبارديا (ومنها انتقل إلى فلاندرز، ويعد عشرين جيلا نشأ من هؤلاء البشر جنس جديد جنس الفلمنك). تحول قسم آخر، منتقى، إلى الزراعة، فى إيطاليا وغيرها من البلدان، بدلا من تعريض العبيد الأسرى إلى الأخصاء، مع توقف حروب التوسع وشح عدد العبيد المأسورين، استفاد الرومان منهم كقوة عاملة، وقد أثرى هؤلاء الأجناس البشرية المتواجدة بعد اتاحة الفرصة أمامهم للتناسل. عمل معظم هؤلاء فى فلاحة الأرض والعناية بها وتحول أغلبهم فيما بعد إلى ملاك للأراضى الزراعية. كانت أربعة أخماس أراضى الإمبراطورية الرومانية أراضى زراعية، وظل من يعمل بالزراعة ملتصقا بأرضه، واستمر من انتقل إلى مكان آخر، يعمل أيضا بالزراعة. كانت المدن تكون خمس مساحة الإمبراطورية، وكان لانتقال بعض السكان من مدن الشرق إلى مدن الغرب أثر عميق فى تغيير بنية تلك المدن وطبيعتها وتبديل خصائصها لحد أصاب الرومان الأصليين بالذعر، وبنى هؤلاء السكان الجدد الآتون من الشرق، فى مبدأ الأمر المدن الإغريقية والإتروسكانية فى الأراضى الإيطالية. جلبوا معهم ثقافة عريقة (تقدمت الآن ٧٠٠ سنة إضافية) لم يعودوا ينتمون إلى الطبقة العسكرية بل صاروا من التجار، والمهنيين ونوى الثقافة والعلم. فقدوا قدرتهم على الحرب (ليس على شن الغارات على أعدائهم فحسب، بل حتى للدفاع عن أنفسهم). جاوا بأعداد كبيرة جالبين معهم طقوسهم الدينية، نوات الأصول المختلفة (الإغريقية، والمصرية، والفارسية واليهودية)، الديانات ذات الأصول الغيبية، كما جلبوا معهم ثقافتهم الراقية. تكرر فى الإمبراطورية الرومانية، نفس ما حدث فى اليونان منذ ٧٠٠ سنة ومند ١٧٠٠ سنة (فى شكله لافى نوعيته)، وتغيرت طبيعة الإمبراطورية وقدرها. تبدلت الخاصية الحربية للأقوام - خاصة فى إيطاليا - كما تحولت النظرية الاجتماعية. هذا بلد فى منتصف البحر الأبيض المتوسط، هزم جميع البلدان

المحيطة به، وتوفيق أهلها في كل تلك البلدان. ولكنه تحول إلى بلد استعمرته حضارات البحر المتوسط وثقافته واستقر فيه شعب لا يريد مزيدا من الانتصارات الحربية والفتوحات العسكرية، وتبدل - بفضل المهاجرين إليه - إلى بلد أشد تعلقا بالحضارة وساعيا لنشرها في كافة البلدان. هذا البلد، الذي يقع في مركز الإمبراطورية، حولته الهجرة المنتقاة وخلقت فيه الثقافات المكتسبة، إلى مجتمع مقسم إلى طبقات اجتماعية متوازنة، ذي أصول عرقية متباينة. صارت كل منطقة مستقلة بنفسها اقتصاديا وتستطيع كفاية نفسها بنفسها، فقلت هجرة السكان وتقصلت حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر. وهكذا تحولت الجمهورية المحارية الصارمة، التي كانت مصدر العدوان على جيرانها إلى أغنى تلك البلاد وأوفرها ثراء وأكثرها تعرضا للغزو في العالم الغربي.

تحولت الإمبراطورية العظمى إلى بوتقة كبرى، ضمت أناسا من أصول عرقية مختلفة ومن أماكن جغرافية متباينة على نطاق لم يحدث قط من قبل في التاريخ. ولكن امتزاج بالناس كان دائما منتقى، في اتجاه حركة البشر، في تخير الأعمال، في اختيار الزوجات، وفي بقاء الذرية على قيد الحياة. استمرت كل هذه التغيرات وأحدثت أثارا بعيدة. تغير البنيان الاقتصادي للإمبراطورية وصار كل إقليم مكتفيا ذاتيا بمنتجاته، وقل التبادل التجاري بين الأقاليم، ومن بينها تجارة الرقيق وازداد الاستيلاء المحلي بنتاج عن ذلك - بعد مرور عشرة أجيال - ظهور صفات مختلفة مميزة للبشر في كل إقليم (أو بالأحرى عادت تلك الصفات للظهور). بتطور المدن، حدثت أزمة جديدة. زادت الفروق العنصرية والعقائدية والسلوكية بين سكان الريف وسكان الحضر، ونشأ عن هذه الاختلافات مشاكل سياسية. سادت الأفكار المتقدمة بين سكان المدن، خاصة الأفكار الإفريقية العقلانية (وساهم في تلك الأفكار ما جاء به الإيتروسكان والفينيقيون والإغريق)، خاصة في تلك المدن - التي عاشت الفئات المختلفة والطبقات المختلفة التي يتكون منها المجتمع - في تعاون وثيق، الجنود والإداريون والتجار والصناع. أما باقى الإمبراطورية فكانت تتطور نحو نظام اجتماعي جديد، نظام الإقطاع، الذي يتكون من أبعاديات شاسعة بدون أى تعامل تجارى ولا حياة ثقافية ولا أفكار عقلانية، مع الأمية المطبقة في صفوف سكان الأبعادية. كان سكان الريف مستقرين في الأراضى ولا يغادرونها إلى المدن، مما أبقى على الفروق بين المجتمع الريفى ومجتمع الحضر. كانت هناك فروق كبيرة في الثقافة وفي اللغة، أكدها اختلاف الدين واختلاف العقيدة، وصلت هذه الاختلافات إلى ذروتها في أزمان الفوضى في القرن الثالث الميلادى، في العصر الذي نهبت فيه المدن الكبرى في أوتون وفي ليون وفي أنطاكيا وفي الإسكندرية وفي بيزنطة، بواسطة جيوش من الفلاحين المتمردين. ساعد على تثبيت تقسيم الإمبراطورية إلى وحدات شبه مستقلة منح الجنود القدماء أراضى يملكونها في المناطق التي كانوا يعسكرون فيها ويدافعون عنها أثناء خدمتهم العسكرية، منذ عهد سفيروس. صار امتلاك الأراضى

يورث بعد وفاة الأب لأبنائه، مع توريث شرط القيام بالخدمة العسكرية للوريث (وهذا هو باكورة النظام الإقطاعي) وهكذا تطورت الإمبراطورية، التي بدأت كنظام إقطاعي، ثم صارت إمبراطورية مترامية الأطراف، وانتهت إلى نظام إقطاعي آخر، فرقتها بعد توحد. تفرق العالم إلى الدول التي كانت موجودة قبل أن يوحد قوروش العظيم ثم الإسكندر الأكبر من بعده. أولى الولايات المتحدة التي انفصلت واستعادت كيانه القديم كانت مصر بإحياء اللغة القبطية. في الغرب بدأت لهجات مختلفة منشقة من اللغة اللاتينية في الانبعاث، فنشأت اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية، وأكدت الاختلافات المحلية بين المناطق والانشقاق الحادث بين مختلف المجتمعات في الإمبراطورية. وهكذا عملت عوامل جيئية واقتصادية وإدارية مختلفة على انقسام الإمبراطورية العظمى وتفرقتها إلى دويلات متناثرة بعد خمسة قرون من الزمان انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى نصفين، انفصلا عن بعضهما البعض. وبعد ذلك تناثرت الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى شظايا متباعدة، واستمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية متماسكة إلى حين. ظلت الإمبراطورية الغربية تستخدم اللغة اللاتينية (بلهجاتها المختلفة)، بينما تمسكت الإمبراطورية الشرقية باللغة الإغريقية. إلى أن انفصلت عنها جزئياتها، الواحدة بعد الأخرى، تعبيرا عن الفروق العرقية لأمم كان اندماجها وقتيا خلال الثلاثة آلاف سنة السابقة.

الباب الثامن

المسيحية - الاسلام - الهندوسية

اولا: المسيحية

لم ينمو الدين ويزداد نشاطه في القرون الثلاثة الأولى بعد ميلاد المسيح ولكن بدأ قادة هذا الدين الجديد في الاهتمام بأموره عندما بدأت الدولة الرومانية في التفسخ، وعندما أحسوا بضرورة أن يكون لهم باع في وراثة الإمبراطورية الرومانية، وعندما بدأت القوى المختلفة في محاولة تغيير المجتمع. لكي نستطع فهم هذا النشاط المتأخر للمسيحيين فلنرجع إلى الوراء ونرى كيف نبعت أصول المسيحية بين اليهود في فلسطين وكيف تحركت تلك الأقوام، وكيف انتقلت الأفكار والمعتقدات والطقوس غربا إلى أوروبا وإلى الجنوب الغربي في أفريقيا.

كانت هناك فورة ونشاط مشددين بين اليهود في القرون التي سبقت ظهور المسيحية في العالم. كان هجوم الملكيات الهلنستية المتداعية وادعاءاتها الدينية، وتسلسلها على الأقوام بدعوى الدين سببا في ثورة المكابي. كانت ولاية يهودية قد أنشأت ويعد تداعيا وضعها الرومان تحت إدارة هيروود العظيم وفي نفس الوقت كانت الديانة اليهودية قد توسعت وانتشرت جموع اليهود - الذين بلغوا في ذلك الوقت أربعة ملايين نسمة - في ربوع القارات الثلاثة بين الوثنيين وصاروا مصدر إزعاج للسلطات. يرجع هذا التوسع جزئيا إلى صفات اليهود وممارستهم: تماسكهم الديني والعرقى، نظافتهم، إخلاصهم وتقانيهم في الأسرة، طاعتهم لربهم واتباعهم لتعاليم التوراة، ونص القانون وروحه، وتمسكهم بالكتاب، وشدة تعصبهم لما يؤمنون به. أضافت كل تلك الخصال والعادات لهم - ما كان مأمولا - أن تجعل منهم جنسا فريدا في نوعه ونجاحا كبيرا. كذلك نجح اليهود في تحويل الناس لاعتماد دينهم كما وفقوا في ضم الأراضي بالفتح. فقد انتصر الأمير المكابي هيركانوس الأول (١٣٤ - ١٠٤ ق.م.) وفتح ساماريا في الشمال وأينوم في الجنوب (وكان يتم ختان من ينتصر عليهم في الحرب). وكان لتعدد الزوجية الفضل في تحسين النسل وفي استيعاب الجماهير المعهورة، وبهذا تكاثر عدد اليهود وتوسعت الديانة. كلما انتشر اليهود في الأرض كلما زادت الهجن، كما يتضح من تتبع الأسر المالكة. اندفع المكابيون في العالم الهيلينستي كيهود متعصبين وأصوليين (مثل ماتياس ويهوذا وسيمون)، ولكنهم بعد جيلين فقط من المزوجة بين الأباعد صار أبناؤهم يدعون

هيركانوس وأريستوبولوس، رجالا أبعد ما يكونون عن تعصب أجدادهم العبريين. كان هيرود العظيم - كبيرهم نصف عربى (من عرب الأنباط) ونصف أيونى. وكما يحدث لدى كل مفتصبى العروش تزوج من الوريثة الأخيرة من أسرة الهازمونيين، ورفع ثم حطم الفقسة الأخيرة التى انهدت الملكية فى إسرائيل. فى ذلك الزمان المتقلب وصل اختلاف الخواص إلى ذروته بين الناس وكذلك بين حكامهم، وصاحبه اختلاف المعتقدات - كما لم يحدث قط فى التاريخ اليهودى. كان اختلافا عبر عن نفسه بفيضان غزير من الأفكار الدينية والاجتماعية والسياسية. بعض هذه الأفكار كان ضحلا ومثيرا للجنون، وبعضه كان عميقا وخلقا. صارت ممارسات اليهود - بعد عودتهم من سنوات الأسر - تشجع على تدفق الأفكار وتدعمها. بدلا من شعيرة التضحية التى يجريها رجال الدين صارت تقرا قطع من الكتاب المقدس فى المعبد اليهودى (أو فى أماكن اللقاء). أصبحت العادة أن يفكر الناس لأنفسهم، فى بلد مفتوح على حرية التفكير وتلقى أفكار الحضارات وأرائها، يحيط بهم أفراد ينتمون إلى تلك الحضارات الراقية خاصة الحضارة الهيلينستية، التى جمعت ثمرات الحضارات الإغريقية والمصرية والآشورية والفينيقية والبابلية، بالإضافة إلى حضارة الفرس - لم يكن العسكريون ورجال الحرب هم الذين يحيطون باليهود - أولئك الرجال الذين بنوا الإمبراطوريات القديمة - بل كان يحيط بهم المهنيون والمثقفون ورجال الإدارة، الذين صاوا أثرياء، وكونوا مجتمعات حضارية تحت السطح البراق للدول الحديثة. تفهمنا جيدا - مما حدث فى الماضى البعيد والماضى القريب - كيف يتم رفض رجال الدين وسيطرتهم على المجتمع عندما يبدأ أناس مختلفى الخواص فى التفكير لأنفسهم. يحدث بعد ذلك انشقاق الطوائف، ليصير بعضها أشد بدائية وبعضها الآخر أكثر تقدما من الشعب الأسمى فى الممارسة المألوفة، تبدأ كل طائفة منشقة فى الدعوة لمبادئها وفى اكتساب المزيد من الناس حتى تصبح مكتفية ذاتيا ولا تعتمد على أحد، وتحتد الخلافات بينها ويتصاعد الجدل. هكذا صار حال اليهود. نشأت طائفة الصلوقيين (التي أنكرت الحشر ووجود الملائكة وخلافه)، ممثلة للطبقات المستغلة من المجتمع ومرتبطة بالكاهن الأعظم وتدعى أنها من نسل زابوك. يقف على طرف النقيض من هؤلاء العزيزيون، طائفة المثقفين الأحرار، الذين يحاولون تبسيط القوانين اليهودية الجامدة، البدائية، الدموية، القاسية التى لا ترحم، وتيسرها إلى قوانين إنسانية عملية يمكن تطبيقها بلا مشقة. بخلاف تلك الانقسامات بين سكان المدن، تفرق سكان الريف إلى فئات شديدة التحمس تطالب بحلول فورية وجذرية. ترجع جنود بعض هؤلاء إلى أصحاب التعاليم النقية والافتكار الطاهرة (فى سفر الملوك الثانى وفى جيرمياها). بعضهم الآخر مثل الأبيونيتيين والناصرين دفعوا دفعا للمعركة بقوى الظلام للصراخ ليكون لهم رأى معارض، كما يحدث فى الحياة الآخرة من وجود الجنة والنار. آخرون كالمانيديين (الذين مازالوا معنا حتى الآن)، صار لديهم

وسواس قهري للنظافة الدائمة وسنوا سنة العباد للتطهر من كل الخطايا والأوزار. فى الخلفية كانت هناك الديانات الغامضة لأهالى الأناضول وأثار الزرادشتية الفارسية، أناس كانوا يعتقدون أن الإله سيموت ثم يبعث، وأن فى بعثه استعادة الحياة لكل الطبيعة فى الربيع من كل عام.

مرت خمسة قرون من العذاب والكرب على اليهود ومعلمهم بعد عودتهم إلى يهوذا، قرون كانوا فيها تحت سيطرة قوى أجنبية، وكان ما فيها من القمع والاضطهاد، قوى من الإغريق ثم من الرومان، من معالمها الصراعات بين الملوك والكهنة الذين كانوا ينتمون إلى جنسهم وعرقهم أو من الذين غيروا ديانتهم الأصلية واعتنقوا اليهودية مثل هيرودس. لم يكن من المستغرب - تحت كل تلك الظروف والملابسات - أن تتسلل الأفكار البابلية والمعتقدات الفارسية وتترك انطباعات - ذات آثار عميقة - على كيان أولئك القوم المعذبين الحالمين. إزدهرت طوائف عدة تحت أمل تقديم مهرب من اليأس والحياة الضنكة إلى عالم يقطن فيه الذئب - حقيقة - مع الحمل. فى ذلك العصر ظهرت كتابات فى فلسطين وفى مصر، بالعبرية والآرامية والإغريقية، مما يمكن تسميتها بالرؤية النبوية. أبرز تلك الكتابات تمتد إلى قرنين من الزمان قبل وإلى القرن التالى بعد ظهور المسيحية. هناك على سبيل المثال «كتاب إينوخ» (الذى كتب جزء منه فى إقليم الجليل الأعلى). تذكر تلك الكتابات أن «شخصاً مكرساً»، «مسيحاً» سوف ينقذ الجنس البشرى أو سوف ينقذ أولئك الذين - يستحقون الإنقاذ من يؤسهم الحاضر. أحياناً تكون المكافأة فى هذه الحياة مكافأة سريعة ومجزية (مثل مكافأة الرجل الصالح المستقيم بفرصة إنجاب ألف من الولدان قبل وفاته). أحياناً يكون الجزاء روحياً فى العالم الآخر، ذلك العالم الذى تقطنه الملائكة والشياطين (من المتعتقدات الفارسية والذى ترك كهنة اليهود هذا المعتقد عند بسطاء العقول ليتفرغوا هم للتبشير بالإله الأوجد). فى هذه الكتابات نرى مفهوم السماوات السبع ورسول الإله الأربعة (ملائكة الطبقات العلى: ميخائيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل). فقدت هذه الأسماء كونها إشارات ذات مدلول معنى لهداية الجنس البشرى منذ وقت طويل، وتوهم الناس أنها حقيقة واقعة واستغلها الشعراء فى نظم قصائدهم والرسامون فى رسم لوحاتهم والمثالثون فى إبداع تماثيلهم وأشبع رجال الدين رغباتهم بالانغماس فى رواية القصص حولها. ابتعدت طائفة الآسينيين، المتمزمتة، المتقشفة، عميقة التفكير عن كل تلك الأفكار، تلك الطائفة التى عرفنا عنها الكثير حديثاً بعد الكشف عن برديات كوموان. استخلصت طائفة الآسينيين تعاليمها من النصوص اليهودية الأصلية غير المحرفة، واعتبروا أنفسهم الطائفة الوحيدة، المخلصة، المختارة من بين المختارين، التى اختصها الإله بحمل الديانة الجديدة كما جاء فى وعده على لسان جيرمياها. كان مقدراً لهم - إذا بلغوا حد الكمال - أن تكتب لهم النجاة فى الوقت المنتظر لأيام المسيح الأخيرة - ذلك الرسول المكرس من قبل الإله. فتح لهم الباب لإخخال الناس جميعاً وهدايتهم - اليهود وغير

اليهود إلى الدين الجديد - وتعميدهم بالماء ثم اختبارهم بالقوانين شديدة الصرامة، مع عقاب المذنبين بالكفارة أو الطرد من ذلك الدين. كان المجتمع شاغلا نفسه دائما وأبدا بالصراع بين الخير والشر، وكانت تتحكم فيه طائفتان من اليهود. الطائفة الأولى هم الكهنة الذين لايتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، أبناء «زادوك» (الحقيقيين أو المدعين)، وأعوانهم من اللاويين. تم اختيار رئيس من الكهنة، معلم الاستقامة، وهو الذي صاغ القوانين للمجتمع، والذي كان يدعو إلى الفضيلة والعمل الطيب بديلا عن التضحية بالحيوان (تبعا للمزمورين الخمسين والحادي والخمسين). هذا المعلم تم اضطهاده ونفيه بالأعيب بقية كبار الكهنة والملوك في ذلك العصر. الطائفة الثانية كانت طائفة الأسينيين، ومنهم تلك التي عثر على بعض كتاباتها في برديات كومران. من بين هؤلاء كانت هناك طائفة فضلت العزوبية والتبتل، ولكن الغالبية كانوا يتزاورجون ويتناسلون ويحملون أفكارا ثورية. أولى هذه الأفكار أنهم كانوا يدعون للاكتفاء بزوجة واحدة وامتناع الأعمام والأخوال عن الزواج من بنات أخواتهم. كان في هذه التعليمات احتراما للنساء مما لم تكن تتبعه المحاربون من اليهود (بل كان مقتصرا على اليهود من الطبقات العليا)، كما لم يكن يتبعه مجتمعات الرعاة من الجنسين السامى الأرى. ثانيا تلك التعليمات، فرض الأسينيون واجبات عليهم اتباعها نحو الفقراء والغرباء والخدم. ثالث هذه التعليمات كانت القوانين التي تزيد الرابطة بين المؤمنين كالتطهر من النجاسة والملئك الشائع بين أفراد المجتمع وتناول الطعام معا ورفض تناول الطعام مع الأغراب (ومن ثم رفض الزواج منهم). ساعدهم على أتباع تلك التعليمات الحرص فى تقويمهم على بيان أيام الأعياد (مما كان يباعد بينهم وبين باقى طوائف اليهود وبقية البشر فى العالم). آمنوا بأن الكلمات التى يدعون بها ربهم أثناء الصلوات ويثنون بها عليه أكثر قربا من الله من الأضحى وترجع إلى الاصحاح الثانى من سفر أشعيا (وتعبر عن الفكر التقدمى لليهود وللإغريق سواء بسواء)، ولكنها كانت تعنى خروجا عما ينادى به الكهنة والعسكريون فى العالم القديم وكانت تعنى إحلال رموز أبسط وأيسر تطبيقا من الممارسات السابقة. أولاها كانت الاجتماعات المقدسة وتناول الطعام معا والاحتفالات الجماعية وما يتلى فيها من كلمات تزيد من وحدة المجتمع مع الله ومع بعضهم البعض، وثانيها الواجبات التى فرضت عليهم تجاه الفقراء منهم واعتبارها تقريبا لله، تحولت إلى ممارسات تدفع لازدهار المجتمع وتزيد من قوته وعافيته.

وُجد جوهر المعتقدات المسيحية فى بدايتها فى عدد من الكتب تزعم أنها سجلت حياة منشىء المجتمع المسيحي. منشىء المسيحية كان معلما يهوديا يدعى عيسى ولقب بالمسيح (يسوع المسيح). تجرى الأحداث التى وردت فى الكتب حوالى سنة ٢٠ ب.م. بين اليهود الذين يتحدثون

بالآرامية فى يهوذا وفى الجليل. كتبت تلك الكتب أولا باللغة الإغريقية بعد ما يزيد عن أربعين عاما بعد حصار بيت المقدس وتدمير معبدها سنة ٧٠ بعد الميلاد. أشهر هذه الكتب أربعة سميت باسم كتب «الإنجيل» وتعنى «كلمات الرب»، تم انتقاؤها من عديد من الكتب التى كتبت فى هذا الموضوع (الكتب التى تتحدث عن حياة المسيح وموته وانبعاثه). وتم استبعاد الكتب الأيوكريفية الأربعة عشر التى لايعترف بها المسيحيون بحجة أنها كتابات مشكوك فى صحتها أو فى صحة نسبتها إلى من تعزى إليهم من المؤلفين، وهكذا تنثر الريبة ويتسرب الشك إلى موضوعية الوثائق التى تكون أساس المسيحية. وتتار هذه التساؤلات:

هل كان هناك شخص أصيل يعرف بيسوع؟

وإذا كان موجودا حقيقة فهل تعكس الأناجيل تسجيلا حقيقيا وصادقا لنشاطاته؟

وإذا كان هذا صحيحا فهل تعليمه أصيل وفريد؟

هناك إجابات متعارضة لكل هذه الأسئلة وسوف يستمر هذا التعارض. يمكننا أن نقترض فى المقام الأول أن عيسى قد وجد فعلا وأنع علم وأنه توفى فى الزمان والمكان المذكور فى الأناجيل، زمن الملك هيرود وبيلاطس البونتى وقيافا كبير الكهنة اليهود، ولكن المعجزات المذكورة فى تلك القصص قد تكون من وضع من روى هذه القصص أو من كتبها، وقد يكون الدافع لها شدة حماس المعتنقين للمسيحية فى أيامها الأولى. قد تدفع تلك القصص الخارقة لإيمان جماهير الناس فى ذلك الزمان ولكنها قد تصد كثير من الناس عن تصديقها فى هذه الأيام، بعد نمو العلم واتساع المعرفة وانتشارها. ومنذ الأيام الأولى كتبت مختلف الأناجيل موجهة لإقناع طوائف مختلفة من الناس. فقد كتب مرقس - كاتب بطرس - قصة مبسطة لتجار روما البسطاء العمليين بأسلوب بسيط قليل الزخارف. وكتب لوقا للإغريق، وزين كتاباته بالشعر العبرى بلغة غير معهودة وراقية. أما يوحنا فقد كتب للأقوام من بعد، فى العصر الهيلينستى فى إفسوس بلغة يكتنفها الغموض وتحكى عن غيبيات كثيرة. ولكنهم جميعا يذكرون معجزتى البرء والإطعام - الذين لايستغنى عنهما قوم أصابتهم الأمراض وخربتهم المجاعات. أما متى فقد كتب ليهود يهوذا العارفين، كتابا تاريخيا يحكى بالتفصيل تاريخ مسيح يهودى، مع البعث والصعود. كان النزول إلى الأرض عن طريق أب من بيت داوود، وتم الحمل لعذراء بدون واسطة من أب من البشر، (الحمل لام عذراء هى خاصية مميزة لكل بطل من أبطال التاريخ السابقين، فقد نسبت للإسكندر الأكبر من قبل، كما نسبت ليسوع). بالإضافة لتلك القرائن التى تشير إلى التلفيق، فإن تعليم يسوع لم يكن أصيلا ولا جديدا أو مبكرا، وهكذا يتضح أن المسيحية كانت ذات بداية سيئة السمعة، لما تحويه من زيف بجانب الحقيقة. بالرغم هذا

فان المبادئ الأخلاقية والأصول الاجتماعية التي حوّاها التعليم المسيحى كانت مصدر القوة فيه ودافعا للوحدة والشجاعة فى تناول الأمور، وهى التى دعت الحواريون والرسل لنشر الدعوة والتعليم أولى الألباب، وهكذا يظهر أنه بالرغم من أن العناصر الأولية والمتفرقة لتلك الدعوة لم يكن بها جديد إلا أن الكل كان شيئا جديدا على الناس. جمعت الدعوة الجديدة جميع الآراء المتحررة لمختلف طوائف اليهود فى ذلك العهد فى اطار عملى وكتبت بلغة شاعرية، وجمعت جميع مصادر القوة فى النبوة اليهودية. لم تكن تاريخا فى البداية ولكنها - بعد الإيمان بها - صارت تاريخا فى النهاية. وقد زاد من تماسك الناس الحالة الدراماتيكية التى صاحبت محاكمة يسوع ثم صليبه، ورأى منها الناس تحقيق نبوءات أشعياه وجيرمياىه وأدت إلى عقيدة الكفارة المسيحية عن خطايا البشر. أرضت هذه القصة أولئك الذين قرأوا وصدقوا وأمنوا بتلك الكتابات التى تبشر أن موتا واحدا سيكفر - لأبد الدهر - عن خطايا كل العصاة، وهكذا ألحقت تلك الكتابات بالعقيدة المسيحية، وتم نشرها على اتساع الإمبراطورية الرومانية، من روما إلى بلاد الإغريق فى ترجمة التوراة السبعونية (وهى ترجمة يونانية للعهد القديم قام بها ٧٢ عالما يهوديا فى ٧٢ يوما). ربما ظن مؤسس المسيحية أن نهاية العالم قد قاربت وأن يوم الحساب قريب، ولكن بولس الرسول تصرف على أن لديه متسع من الوقت لهداية اليهود وجميع البشر فى العالم لهذا الدين الجديد. كان أول من رأى أن المسيح لم يبعث لليهود خاصة، بل للعالم أجمع. وقد وجدها بولس، فرصة سانحة لتعليم غير اليهود، تعاليم عيسى وكذلك كُتّب اليهود كلها، وهذا ما كان يسعى لعمله ملوك اليهود الأقدمين فى نطاق اللغة الآرامية فى الأراضى المحيطة التى كان أهلها يتحدثون بتلك اللغة. ولكن بولس كان يهوديا، يتحدث بالإغريقية وقد تسلم بترجمة التوراة السبعونية ويتعليم عيسى، وقد آمنه السلام المخيم على الإمبراطورية الرومانية فرأى إمكانية توحيد العالم كله فى عقيدة واحدة. بإسقاط حذلقة القانون والتخلى عنها، ويتبنى عقيدة الافتداء بواسطة المخلص، استطاع بولس أن يحول الدين من الدفاع إلى الهجوم. أمكنه توحيد أفكار الإغريق واليهود والفرس، وعبر الفجوة بين الأنبياء والرواقيين وقاد الناس جميعا إلى قبول معتقد واحد. وقد كانت هذه نظرة رؤيوية.

طالما بقيت المدينة اليهودية، بقى الأساقفة المسيحيون يعرفون باليهود فقد كانوا أساقفة تم ختانهم وتم تعميدهم، ولكن بعد الانشقاق الذى أحدثه بولس، انقسم مجتمع اليهود إلى شقين فى جميع أنحاء العالم الرومانى. حتى فى عهد الإمبراطور كلاوديوس - ذلك العهد المبكر - أحدث الشقاق فتنة فى روما بين الجماهير. سرعان ما انقسم الناس فى كل مدينة إلى شقين ينكرون إخلاصهم لليهود، طائفتين يتنافسان ويزداد عدد كل منهما، تتحولان بالهداية أو الدعاية، سرعان ما أدركت الطائفتان أن تنافسهما سوف يؤثر على الجانب المسيحى. كان المسيحيون قوما اتصفوا

بالمرونة، لأن تعاليمهم لم تكن قد استقرت بعد ولم تكن قد كتبت في هذا العهد، ولأنهم كانوا أناسا نوى أصول أكثر اختلاطا، يندمج فيهم تباعا غير اليهود من نوى الأصول المختلفة والعروق المتباينة. كان يتم تحويل غير اليهود للعقيدة الجديدة بمجرد تعميدهم، مما لا يقبله اليهود المتزمتون، الذين كانوا يصرون على ختان الشخص اليهودي وعلى الامتناع عن أصناف محددة من الطعام، وهذا جعل التنافس في غير مصلحة اليهود. وقد زاد مرور الزمن من هذا التباين، ففي ذلك المجتمع الهيلينستي الذي ضم جميع الجنسيات - سوى اليهود - سنحت الفرصة أخيرا بضم اليهود تحت مسمى المهتدين إلى المسيحية من بين صفوف اليهود. بعد هذا الثراء الجيني الذي اكتسبه المسيحيون بدأ يظهر القادة العقلانيون في المسيحية - في نفس الوقت الذي استمر فيه اليهود في التنافس أمام هذا التحدي المسيحي الجديد. وقد استمر يهود الأناضول في استقطاب كبار العقلانيين من العالم الهيلينستي إلى صفوفهم. كما كان النزاع بين اليهود صراعا طويلا يعكس روح الشعب اليهودي في تقسيم الكتابات، كذلك استمر الصراع طويلا بين المسيحيين حول قصة مريم العذراء وولادتها للمسيح التي وضعها متى في إنجيله ليؤكد نبوة أشعيا. بعد دراسات عميقة، تمت فيها مقارنة النصوص وموازنتها، تخير كل من المسيحيين واليهود القراءة التي تناسبه والتفسير الذي يهواه ورفض كل ما عداه. وهكذا تباعدت العقيدتان في القرون الثلاثة الأولى للمسيحية على تلك النقاط اللازمة لإثبات اختلافهما المذهبي.

كانت الخطوات المذهبية التي اتبعتها معلمو المسيحية في تلك السنوات الأولى من التنافس، لها أكثر الأثر على مستقبل المسيحيين واليهود على السواء. كانت هناك قضايا عدة محل خلاف أما مسألة النظافة والزواج والتكاثر، تلك النقاط التي تتعلق بالحفاظ على حياة الإنسان، وكلها مسائل حيوية لضبط أعداد وصفات ونوعيات السكان. كانت آراء المسيحيين تعتبر تخلفا عما يراه السكان المتمدنون، سواء من الوثنيين أو اليهود. عندما وفد جيروم إلى روما كمهاجر ألورى وجد مدينة بها ٩٠٠ حمام عمومي، ولكنه فضل أن يتم تبديل تلك الأمكنة - التي تدنس الفضيلة - إلى أماكن مقدسة بهدف التعميد «فالرجل الذي يغتسل بالمسيح لايحتاج للاغتسال مرة ثانية». استمر رفض المسيحية للاغتسال وتقبلها للقذارة حتى يومنا الحاضر. كان أثر تلك العادات انتشار أوبئة كالتطاعون المميت في المدن المسيحية جيلا بعد جيل. بدأت تلك الأوبئة بصورة بسيطة في روما أيام ماركوس أوريليوس ولكنها عمت القسطنطينية في عهد جوستينيان، واستمر وباء يعقب وباء في أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر. كان الوباء يكتسح المسيحيين - نون اليهود - في المدن الأوروبية، كما ابتعد لحد كبير عن المدن غير المسيحية - مثل المدن الإسلامية. كانت الآثار بعيدة الأثر. فحتى عصر قريب كانت مبادئ الصحة العامة من طقوس الديانات وكانت معارضة المسيحية للعرى

والنظافة إحدى التعليمات الأساسية للكنيسة. النظافة من أساسيات الصحة العامة في البلدان الحارة ذات الكثافة السكانية العالية. ولعل هذا ما يفسر لماذا قل انتشار المسيحية في تلك البلدان التي انتشرت فيها بقية الأديان. ثانياً نقاط الخلاف كانت في مسألة الزواج كنظام اجتماعي. عندما بدأت الكنيسة في الاهتمام بالزواج فعلت ذلك بفرض السيطرة على المجتمع وفرض القيود عليه. جعل الزواج شيئاً مقدساً، وطقساً يضبطه القساوسة، وبدأت الكنيسة في وضع قوانينها التي تحد من إباحته وتنظم احتفالاته وتحدد أهدافه الاجتماعية والتزاماته وتضع الشروط لبطلانه. وجد الأساقفة أن العهد القديم كان مرشداً مفصلاً لهم عن العهد الجديد إلا في نقطتين حيويتين، فقد استرشدوا بتعاليم العهد الجديد. فقد توسعوا في القيود المفروضة على الاستيلاء الداخلي وضيقوا إلى حد بعيد احتمالات تعدد الزوجات. جذبت الكنيسة كلتا النقطتين لأنهما زادتاً من سيطرة الكنيسة على التدخل في المسائل الشخصية لأفراد المجتمع. كان لتلك المسألتين أثر بالغ على المجتمعات المسيحية، فقد تم ضبط وتوجيه التناسل في المجتمع والسيطرة عليه، ضبطاً لم يتبعه الوثنيون (أو الديانات الأخرى) بل يسرته مما أثمر تكاثراً غير محدود لباقي المجتمعات وأدى إلى زيادة أعدادهم زيادة كبيرة عن المسيحيين، وهكذا جنوا ثمرة ما فرضته الكنيسة لتزداد قوة وسيطرة على المجتمع. النقطة الثالثة هي في التكاثر. انقسم آباء المسيحية الأولون وتفرق أتباعهم عن كيفية التوافق بين مطلبى العفة وحاجة الإنسان إلى الحب. انتصرت الكنيسة في قرارها بأن يكون هدف الزواج هو الإنجاب، وزيادة عدد المسيحيين في العالم (وعندما رفض العلامة أوريجين السكندري هذا المبدأ وأخصى نفسه حوالي سنة ٢٠٥ طرده الكنيسة ولم يُرفع لدرجة القديسين) ولهذا رفضت الكنيسة السماح بأي علاقة جنسية خارج الزواج الموثق والمعترف به، تبعاً للقوانين التي وضعتها الكنيسة.

امتد اهتمام الكنيسة بكافة وسائل الإنسال، بعد سيطرته على موضوع الزواج وكان اهتماماً نابعاً من المبدأ أن تكاثر المؤمنين ضرورة لامتداد العقيدة وانتشارها، وهو نفس مبدأ واضعي القوانين من اليهود. إذا كان التكاثر من أسس الكنيسة فإن الاقتصار على زوجة واحدة هو المسموح به فحسب. هذا المبدأ يتعارض من أساسه مع التقاليد اليهودية، التي مارسها على اتساع لملء أوروبا باليهود، التي كانت تمارس الاقتصار على زوجة واحدة. لم يطع ملوك أوروبا المعتنقين حديثاً للمسيحية - مثل شارلمان - تلك التعليمات، ولكنهم فرضوها على شعوبهم، من الناحية الاجتماعية حافظت تلك التعليمات على ثبات تركيب الطبقات الحاكمة التي حافظت على نقائها الجيني وعدم تلويثه بدم الجماهير. وهكذا حدث اختلاف بين النسل الشرعي (النظيف) وبين الذرية غير الشرعية التي تأتي من اختلاط أفراد الطبقة الحاكمة بعامّة الشعب، مما أدى إلى ظهور عيوب وراثية في الأسرات المالكة، لم تظهر في الأبناء غير الشرعيين. أعاد تقليد الاقتصار على زوجة واحدة في

العالم المسيحي ما كان متبعاً في الجمهورية الرومانية قبل تكوين الإمبراطورية، ولكنه حمل تكريماً للنساء، كما كان متبعاً في الحضارات القديمة (لدى ملوك طيبة وحكام كنوسس قبل ظهور عصر الحديد الذي أتى به الإريان المحاربون والرعاة الساميون في الألف سنة الأولى قبل الميلاد). وهكذا ارتفع شأن الأتوم المهزومة وأعيدت التقاليد العتيقة التي كانوا يتبعونها بعد نمو المسيحية وعلى عزوية رجال الكنيسة وعلى عادات اليهود الأوروبيين، مثل الأسينيين. كان المسيحيون الأوائل معززين بين المزايا قصيرة الأمد للعفة وبين الفوائد التي يجنونها من كثرة النسل على الأمد البعيد، ومثل الأسينيين أيضاً اضطرزوا للتسليم بالشق الذي حدث في المجتمع بين أولئك الذين يرغبون في كثرة النسل وهؤلاء الذين يدعون إلى الحد من التكاثر. بدأ الناس يتركون قيمة الرهينة. وقد نشأت هذه العقيدة بعد تحطيم نظام الطبقات في الهند على يد أسوكا الذي دفع العقيدة البوذية دفعا للأمام. يقال أنه أرسل البعثات إلى مصر لتتلمع الرهينة في عهد البطالمة (وقد انتقلت تعاليمهم وممارساتهم فيما بعد إلى المسيحيين والمسلمين). ليس للرهينة أي ذكر في الكتابات اليهودية (وليس هناك داع لوجودها)، فالدافع للرهينة ينشأ عندما تكون هناك جسور للطبقات في المجتمعات الطبقيّة ويحدث كثير من التوالد بين الأغراب، ولكن يتبقى عدد من أفراد المجتمع - أقل من العشر - من الرجال ومن النساء لا يتزوجون أو لا يستطيعون الإنجاب. بينما تظل الغالبية العظمى من أفراد المجتمع قادرة على الإنجاب، تظل أقلية من المجتمعات المسيحية - من الداخلين حديثاً في تلك المجتمعات - مبعدة عن الزواج، وتكون بهذا تدفقاً مستمراً من البشر الذين يتجهون للتبتل والعزوية ويصيرون صالحين للرهينة. وهكذا توحد حياة الرهينة بينهم وتحميمهم وتصونهم وتجعل لحياتهم معنى ويصير لهم نفع وفائدة للمجتمع، بينما يحمي الزواج باقي أفراد المجتمع الذي يودون الإنجاب. وبهنا تصير مريم العذراء - التي اجتمعت فيها العفة مع الإنجاب - مثلاً ظاهراً يعبده المجتمع. حرمت المجتمعات المسيحية منذ نشأتها عن إتيان المحارم وابتعدت عن زواج ذى القربى، باستبعاد الأقربين من المسموح لهم بالزواج، وأدى إلى حرمان البعض من الزواج وبالتالي إلى تشجيع الرهينة. تكونت أديار الرهينة تحت حكم بندكت في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية، وصار كل دير مستكفياً بنفسه اقتصادياً وفكرياً، وصارت هذه الأديار الوسيلة التي حفظت بذور حضارات البحر المتوسط القديمة إلى جميع العالم المسيحي - من أيرلندا إلى إثيوبيا. خارج نطاق المحرمات اتبع المسيحيون - بحماسة شديدة - نظام الزواج الأزلي القاضى بأن الرجال والنساء خلقوا للزواج وأن هدف الزواج هو إنجاب الأطفال. وتعلم المسيحيون أيضاً أن كل روح جديدة مقدسة لأنها وهبت - بالتعميد - إلى يسوع. تحت هذا الشعاع جاءت سلسلة طويلة من المحرمات: الجماع الناقص - بالقذف خارجاً - ممنوع، اللواط ممنوع، غشيان المحارم ممنوع، الإخصاء ممنوع (ولو الإخصاء

الذاتى)، الإجهاض ممنوع، قتل الأطفال ممنوع، الانتحار ممنوع، قتل الآخرين ممنوع، التخلي عن الأطفال بتركهم فى العراء ممنوع. بالإضافة إلى هذا تعدد الزوجات ممنوع. لهذا، لم يكن أمام المسيحيين سوى أن يتكاثروا بطريقة شرعية، وحرمت عليهم جميع الوسائل التى كانت تتبعها المجتمعات الوثنية لضبط النسل، الوسائل التقليدية (وكذلك الوسائل المستحدثة). بهذه الطرائق استمر اليهود والمسيحيون فى التكاثر (بينما قل تكاثر المجتمعات الوثنية المجاورة لهم) وزالت تلك المجتمعات التى كانت تمارس الشنوذ الجنسى (بالانقراض). وهكذا انتصر المسيحيون نهائيا فى مدن الدولة الرومانية الشرقية وعمروا تلك الإمبراطورية - لو أنهم كانوا أقل نظافة من سكانها الأصليين، وأكثر تعرضا لأوبئة الطاعون. هكذا صار العالم أكثر إزدحاما بالناس مما كان عليه العالم (فى الغرب) على مدى التاريخ.

انتشرت الحمية المسيحية غربا بين الطبقات المهنية فى العالم الرومانى، وتحركت شعوب الشرق القديمة أيضا إلى الغرب، وأدى هذا إلى تعديل آراء الشعوب الوثنية، وإلى تهذيب أخلاقيتها، وإلى ارتفاعها إلى مرتبة العقلانية. كان تحرير عقول تلك الشعوب مصاحبا لدخول المسيحية بالرغم من أن محررى العقول كانوا معارضين للمسيحية (والديانات كلها). كان هؤلاء هم الفلاسفة الوثنيون الذين انعكست أفكارهم المتغيرة فى القوانين التى سنها الأباطرة الوثنيون. استمرت حركة التحرر هذه والعقلانية منذ عهد أرسطو والإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عهد قنسطنطين وأوجستين فى القرن الرابع بعد الميلاد. كان أبرز علامات تلك النظرة الإنسانية هو ميناندر الإغريقى ثم تيرنس القرطاجى إلى سيسرو الرومانى وأتباعه من الرواقيين، ثم تسربت إلى المسيحية فى مختلف البلاد من أصولها اليهودية. كُتِمَ التعبير عن تلك الأفكار فى عصور التوسع الرومانى والإمتداد لإنشاء الإمبراطورية الرومانية، حيث لم يسمح بدخول تلك الأفكار الإنسانية فى القوانين الرومانية أو فى أخلاقيات المجتمع، حين كان الرومان يذبحون أنفسهم فى المعارك ويقتلون أبطال أعدائهم، كما لم يكن ممكنا تطبيق هذه الأفكار الإنسانية فى عهد سينيكا الذى مورس فيه «تنقية المجتمع من الضعفاء وفصل الصالحين عن القذرين». جاءت هذه الأفكار الفلسفية من الشرق كما جادت المبادئ التحررية منه، خاصة من قبرص، التى كانت مكان التقاء الإغريق واليهود. جاءت من تعليم زينو الذى أفتى بأن «كل بنى البشر متساوون وأن الفضيلة وحدها هى التى تميز الفرد عن الآخر». دخل هذا المبدأ إلى الرومان على يد سيسيرو الذى قرر فى القانون الرومانى أن «كل البشر ولدوا أحرارا، ما لم يثبت عكس ذلك». نتج عن ذلك امتداد المواطنة الرومانية إلى الجميع بعد أن كانت مقتصرة على الأقلية من النبلاء وكبار رجال القوم. أظهر ما أتى به هذا المبدأ هو تقييد استعباد المالك لعبيده تسريجا، ورفع يد الأب عن أبنائه والزوج عن زوجته. لم تعنى إنسانية الفلاسفة

ولا الحكام شيئا جماهير الشعب الذين كانوا يستعذبون مشاهدة صراع العبيد والأسرى بوحشية، الذين كانوا يقاتلون حتى الموت لامتاع الناس في روما القديمة. كان الهدف من ذلك القتال إثارة الروح العسكرية والحمية الحربية لدى المواطنين، تلك الحمية التي تبخرت بين جماهير الشعب، فتبنى تيتوس الكوايسيوم لإحياء تلك الروح. شاهد ٨٠ ألف متفرج - الذين لم يكونوا مستعدين للقتال بين بعضهم البعض مطلقا - ذبح المساجين اليهود. بعد ثلاثين عاما من هذا الحدث احتفل تراجان بانتصاراته بقتل خمسة آلاف زوج من المصارعين أثناء النزال. يقدر عدد الرجال الذين قتلوا في تلك الصراعات بأكثر من عدد الرجال الذين قتلوا أثناء المعارك الحربية التي أحدثت الامتداد العظيم للإمبراطورية الرومانية في عصر يوليوس قيصر. كان هؤلاء الرجال يموتون لتسليّة الرومان بينما كانت ذريتهم تموت للدفاع عن روما. في هذا التقليد يتضح الفرق ساطعا بين المنتورين من أبناء حضارات الشرق وبين المتوحشين من أهل الغرب، فلم يكن إهدار الدم وسفكك أبدأ مطلبا للشرقيين حتى عهد الإغريق والحضارات الهلينيستية. لم يحاول الرومان - في عهد الوثنية - أن يروضوا أنفسهم على الإقلاع عن تلك الوحشية تبعا لوصايا الفلاسفة وإذعانا لتعاليمهم الأخلاقية. ولكن المسيحيون - الذين تبنا انتقاد اليهود وحماستهم - كانوا يصرون على حمل كل الناس أن يعتقدوا بمعتقداتهم وأن يتصرفوا بتصرفاتهم. أخذوا على أنفسهم أن يضبطوا المجتمع بأخلاقيات منسأة المسيحية (التي كانت نفس الأخلاقيات التي ينادى بها الفلاسفة)، ساعدهم على تحقيق أهدافهم أنهم كانوا يتبعون نفس نظام التناسل الذي اتبعه اليهود، مع استفادتهم من النظام الإداري الذي بدعه الرومان. مكنهم من اتباع هذا النظام مهارة تيرتوليان وآخرين الذين طبقوا النظم الإدارية بكفاءة واقتدار واتخذوا مظاهر أخرى للاحتفالات تنبعث من كتاباتهم المقدسة، وأضيف إليها الكثير بتعاقب الأجيال. كان الخوف من عذاب جهنم والخشية من الحرّم الكنسي أشد ضبطا للناس من طرق التعذيب هذه أحيانا ليغير الناس عقائدهم وبيدوا بعقيدتهم، ولكن متى اعتنق الفرد المسيحية كان عليه اتباع آدابها والسلوك بسلوكها. ورغم أن هذا السلاح كان يدعو أحيانا للنفاق إلا أنه ثبت أنه أكثر الأسلحة التي اخترعها الإنسان لضبط سلوك الجماهير والمحافظة على أخلاقياتها. رغم التعليمات التي فرضت على الزواج المسيحي، لم يتم خضوع الجماهير له تماما، وزاول الأفراد كثير من الأمور المنهى عنها. كانوا يظهرون دائما بمظهر المطيع، الخاضع لتلك النواهي في العلن، ولكنهم في الحقيقة كثيرا ما كانوا ينطلقون على سجيبتهم في السر. ساعدت النظم الموضوعية للزواج على بقاء المسيحية على قيد الحياة والمحافظة عليها من الزوال والانقراض في أول الأمر، وعملت كذلك على تطور المدنية في المجتمعات الأوروبية بعد ذلك. خلال القرن الثالث الميلادي وصلت آراء المثقفين من الجمهورية الوثنية إلى معلمى المسيحية، وهنا وقعت الطامة الكبرى وظهرت الأزمة العظمى وبدأ الاضطهاد الكبير.

فى بداية العصر المسيحى كان ثلثا عدد السكان من الرقيق أو عبيد الأراضى، وبعد ثلاثة قرون - عندما اعتنق الإمبراطور نفسه المسيحية لم يكن عدد المسيحيين فى الإمبراطورية قد تجاوز النصف من عدد السكان. كان أكثر ما يغيظ الحكومة الإمبراطورية أن الأثرياء، الذين باستطاعتهم تقديم القرابين فى المعابد، صاروا - بعد تحولهم للمسيحية - يمتنعون عن أداء هذا الواجب. فى الأيام الأولى للمسيحية فى روما - حيث كان اجتماع المؤمنين للقراءة ولقائهم للنقاش أمرا لاغنى عنه - كانت هذه اللقاءات تتم فى الجبائنة (لأن الرومان كان من عادتهم احترام القبور وتبجيل الموتى). نظم المسيحيون أنفسهم فى جماعات لدفن الموتى، وهكذا لم تناصبهم السلطة العداء فى أيامهم الأولى. بعد زيادة عدد المسيحيين أبتدأوا يكتسبون مزيدا من الثقة فى أنفسهم، وهكذا بدأوا يتعرضون للاضطهاد، الذى أتى عليهم فى شكل موجات، حتى حلول القرن الثالث بعد الميلاد حين تعرضوا لموجة من الاضطهاد العنيف، فى عهد ديكيوس، حين تعرضت مقابرهم للسلب والنهب، وانتهكت قدسيتها للمرة الأولى، رأى الإمبراطور أن المسيحيين يعارضونه فى كثير من الأمور: رفضهم جميعا لتقديم القرابين للإمبراطور (كاليهود)، إيمانهم بالشيطان (وكان هذا أمرا مزعجا للوثنيين ومغضبا لهم)، اندفاعهم المتوهج لهداية باقى الخلق (وقد زاد هذا من عددهم وأكثر من خطرهم، بابتعادهم عن الخضوع للمبادئ الأساسية للإمبراطورية الرومانية). وجد بعض الأباطرة فى المسيحيين عونا لهم أو ضدهم، فقد كان ألكسندر سيرفيريوس وجالينوس يرون أن الأساقفة المسيحيين، قادة جموع الطوائف المسيحية، قد يكونون عونا لهم كناصحين ومرشدين ومدبرين. ولكن رفض غالبية الأباطرة معتقداتهم الخرافية غير المألوفة، مثل ماركوس أورليوس. وهكذا تبددت السياسة بين حاكم وآخر، ولكن ضعفت بالتدرج سلطة الحكومة لضبط الأمور. مع إزدياد عدد المسيحيين إزدادت ثقتهم بأنفسهم وزادت غطرستهم حتى صاروا لايطاقون. سببَ هذا موجات متتالية لاضطهادهم، ووصلت الموجتان الأخيرتان إلى حد الحرب الأهلية (وكان الوثنيون هم المنتصرون فى كل معركة). ولكن كان الاضطهاد نفسه عاملا على تقوية العقيدة، فقد كان دم الشهداء هو الذى يروى الكنيسة.

انتشرت المسيحية فى أوروبا فحسب بين مثقفى المدن، حيث ارتبطت بالراشدين، قويمى الرأى والمعتقد من رجال الكنيسة. كانت النساء المتعلّقات من أشد المعاونين لهم، فأعطاهم الدين الجديد مركزا مرموقا واعتبارا وزادت أهميتهن حتى وصلن إلى تخوم القصر. أما فى الولايات الآسيوية والأفريقية للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت الضرائب عالية والحكم قاسيا، فقد وجدت المسيحية طريقها فى طبقة أخرى من الناس. كان الكتاب فى العهدين القديم والجديد، يبرزون الشفقة والحنو على محنة اليهود والأمهم. صار المسيحيون فى تلك الربوع يمثلون صوت المخلصين للشعب من

جبروت الحكام الوثنيين والمنجزين لوعد إعتاق الجماهير وتحريرها. كانوا بذلك صوت الثورة ضد الحكم الوثني والكهنة الوثنيين الواقعين تحت سيطرة حكام من الأجانب، البعيد كل البعد عن روح الشعب وعواطفه، الذين يخلو نظام حكمهم من أى محتوى اجتماعى أو فكرى. هكذا كان تمزق الإمبراطورية الرومانية بين مختلف الأجناس العرقية، دافعا لنمو التعليم المسيحى الممتلئ بالمعانى الضمنية والفرصة الذهبية التى أتاحت لإشباع الحاجات المحلية وإحياء المعتقدات المحلية. انقسمت الكنيسة إلى فرق تمثل الصفات القديمة للسوريين والمصريين والقرطاجيين، فرق تتحدث باللغات القديمة لهذه الشُعب، الأرامية والقبطية والقرطاجية. انشقت الكنيسة بالهرطقات التى أذلتها تلك الشيع فى المسيحية وقرضتها على جماهيرها (المستمدة من عقائدها القديمة)، إلى مسيحية معارضة لسلطان كنيسة روما على المسيحية، ومعارضة لبعضها البعض. أدخلت المسيحية عدة معتقدات لا يمكن تصديقها، وسمحت بذلك لظهور عدد لا يحصى من التفسيرات - من أظهر تلك الاختلافات ماهية المسيح، هل هو إله أم إنسان؟ أو كليهما معا؟ أو لاشئ من هذا؟ ساعد على نمو تلك الاختلافات الفروق العرقية وبعض الاختلافات الجينية بين مختلف الشعوب. كانت تلك الاختلافات حصينة ومنيعه، منعة لا يمكن اختراقها، وتعلقت تلك الاختلافات بتقاعد الاهتمامات القومية، وكانت لها آثار سياسية طويلة الأمد.

تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأعداء من الخارج وانقسامات من الداخل قبل اختيار إمبراطور ليحكمها، داريا بالخطوات الثورية والأطوار الرجعية لمقاومة القوى التى تسعى لتدميرها. لم يعد المحاربون الأشداء فى إيطاليا ولكنهم تمركزوا فى الولايات على الحدود. من الناحية الاجتماعية، قاوم النبلاء وجماهير الشعب على السواء أن تتولى الحكم حكومة عسكرية. لذلك اتخذ الإمبراطور قراره أن ينشأ - إلى جانب روما - عدة عواصم عسكرية، لكل منها حاكم عسكري (أو امبراطور) ليقاوم هجمات المتبربرين على الحدود الشمالية. أنشأت ميلان وترير فى الغرب، وسيريميوم فى الوسط وميكوميديا فى الشرق كقلاع لحماية الدولة. صار للإمبراطورية أربعة أباطرة: الإثنان الأعلى مقاما يدعوان أغسطس، والإثنان نوى المرتبة الأدنى يدعوان قيصر. بهذه الوسيلة تمكنت الإمبراطورية من صد المهاجمين على مدى ثلاثة أجيال. تم تمكن ديوكليتيان أن يخلق ملكية مطلقة، استبدادية، غير مقيدة بدستور، ولكن شاركه فيها أباطرة آخرون، وعادت روما إلى تقليدها العتيق، مبدأ الحكم الجماعى الذى اعتمد على الطبقات الإدارية والعسكرية، التى تدعمت سلطاتها بالتزاوج - فصارت عنيفة أشد العنف وتوارثت الحكم وحدها. بهذا الشكل الجديد، الحكم المطلق، تبعت الإمبراطورية النظم الشرقية فى الحكم. أدخل ديوكليتيان إصلاحا دينيا ليصاحب نظام الحكم الجديد، فحص الإمبراطور مختلف الأديان الشرقية بنظرة مدققة - كما يفعل رجل العدالة المستنير-

ورأى أولاً أن جيوشه تتكون من خليط من البشر. فضل أن يدعم جماعة الفرس (من طائفة ميثرا) التي تعتبر حامية الحقيقة وعدوة قوى الظلام، المتعطشة للدم والشواذ جنسياً وشديدة التمسك بالعسكرية العنيفة. ورفض تماماً المسالمة المسيحية، المتمسكة بالكتاب والمتخنة، كما كانت تظهر. كان هذا القرار خاطئاً، لأن الطوائف العسكرية الشديدة، التي كانت قريبة من الجيش، كانت بعيدة كل البعد عن عواطف الشعب ورغباته، ولم توحد القوى المدنية، وجماهير الشعب حول نظام الحكم. كان هذا القرار من رأى الشريك الأصغر فى الحكومة - جاليريوس - وقد أدى هذا إلى الاضطهاد الأخير - غير الفعال - للمسيحيين. فى هذه اللحظة دُعى قنسطنطين إلى فراش موت والده فى مدينة يورك - وكان لم يبلغ من العمر إلا ثمانية عشر عاماً - وسلّمه والده الحكم، كالإمبراطور الأكبر، وطلب مبايعة الجيش له كأغسطس عام ٣٠٦م. وكان تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام، الذى فعله ديوكليتيان، وحافظ عليها لثلاثة أجيال، هو سبب انقسامها بعد هذا الترشيح لقنسطنطين، ودخول الأقسام الأربعة فى حرب أهلية بعد هذه الولاية الأولية لقنسطنطين، وانتهت الحروب الأهلية، بعد عدة معارك، إلى انتصار كامل لقنسطنطين، الذى صارت له السلطة المطلقة بعد هزيمة كافة أعدائه وذبحهم، بعد ثمانية عشر عاماً. لم يكن لتلك الحرب الأهلية أى مثال سابق. فى مرحلة سابقة من تلك الحرب - عام ٣١٢ - أعلن قنسطنطين بوضوح نيته فى مساندة رب المسيحيين الذى ساندته فى إحراز الانتصارات، وكان هذا التحول سبباً فى تغيير مسار التاريخ، بمساندته للكنيسة، ساعدته الكنيسة لاعتلاء العرش. توقع الإمبراطور المسيحى أن يكون الدين خادماً له لاسيما. اتخذ شعار الرسول، المسيح، ورفع كراية له بعد تنصره، وتوقع أن تحارب معه الكنيسة، وأن ينصره رب المسيحيين. ولكن لم يكن هذا يعنى - بالنسبة له - أن يتنازل عن عقيدته الوثنية ولا أن يحوّل الشعارات الوثنية عن النقود التى يصكها. كل ما كان يريجه أن يدعم بهذا العمل انتصاراته العسكرية، لم يكن يقبل أن تمنعه الملاينة المسيحية عن عدالته الصارمة. لم يتردد أن يحكم بالموت على ابنه البكرى - كريسبس ولاعلى زوجته فاوستا، أم أطفاله الخمسة الصغار وعلى أبوها ماكسيميان. كما لم يتورع أبناؤه المسيحيون عن أن يقتل الواحد منهم الآخر. هكذا كانت علاقة الحكام المسيحيين مع إله المسيحيين، التحالف معه لا الخضوع له. وكلما زادت قوة الحاكم كلما قل خضوعه. هكذا كانت الحال مع قنسطنطين. كان يوجهه فهمه لتعاليم زعماء المسيحية من خلال المبادئ التى يلقونها لجماهير الشعب، والكتابات التى يعتمدون عليها، والاحتفالات التى بدعواها ونظم الإدارة التى ابتكروها، واستفاد من كل ذلك فى حكم إمبراطوريته. كان هذا هو كل ما يتطلبه الرجال فى ذلك الوقت، لأنهم كانوا قديرين على تعميق الصلات بين مختلف طوائف الشعب وزيادة الروابط بين مختلف الطبقات وبينهم وبين كافة العرقيات التى يتكون منها سكان الإمبراطورية

الرومانية تحت حكم إمبراطور يتخذ المسيحية شعارا له بدلا من حكم إمبراطور وثنى. كان تحوله هذا - الذى أعطى الفرصة سانحة للكنيسة - هو ما جعله قنسطنطين العظيم فى عين الكنيسة وفى نظر الشعب أيضا. بعد أن جمع قنسطنطين خيوط الحكم فى يده وحده، بعد أن صار الإمبراطور الأوحد، بدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة له، روما جديدة. ينبغى أن تكون تلك العاصمة فى مكان مركزى، للتجارة والحكم. يجب أن تكون قلعة يستحيل على الأعداء اختراقها وحصينة ضد هجمات المغيرين، يتعين أن تكون مدينة مقدسة لتأوى القديسين ولتقام فيها الاحتفالات الدينية المسيحية. اختار مكانا فريدا - المستعمرة الإغريقية القديمة، بيزنطة، التى وجدت منذ حوالى ألف عام، لتكون موضعا لهذه العاصمة. كان قرارا خطيرا. كان المكان رائعا، يقع على ملتقى قارات عريقة، وبحار هامة، وكان مجمعا لأجناس عدة. هكذا عاد الإغريق ثانية إلى الشرق، بعد رحيلهم غربا لألف عام التقى - ربما للمرة الأولى - الإغريق، والرومان (المتحولين منهم للمسيحية)، واليهود. اختلطت أعراقهم (بالمسيحية)، كما توحدت سياستهم (تحت قنسطنطين). كان توحد هؤلاء الناس جميعا السبب فى إبداع حضارة جديدة، استمرت فى التاريخ لألف عام آخر.

كان أمام قنسطنطين، للوهلة الأولى، مهمة توحيد الكنيسة، التى رأى أنها ستكون مصدر السلطة على شعبه ومركز الوحدة بين مختلف طوائف هذا الشعب. عندما اقترح أن يتنازل عن ألوهيته (جزئيا) ليقيم ألوهية المسيح كان هناك أمامه مثالا يحتذيه. فى عام ٣١٢ أرسل أسقف كابادوشيا رجلا يدعى جريجورى إلى أرمينيا (وقد دعى فيما بعد باسم المنير). عمّد هذا الرجل تيراداتس - وهو شاب كان صديقا لقنسطنطين - كأول ملك مسيحى. وقد حاول ذلك الملك - مع البعثة التبشيرية التى صاحبتة - أن يحول الأمة جمعا إلى المسيحية، فقاومه رجال الدين المحليون الذين يتوارثون مهنة الكهنوت، خوفا من ضياع نصيبهم من الأضاحى الحيوانية - التى كان لهم منها نصيب وافر - فى العقيدة الوثنية. فطمأنهم الأسقف والملك أنه تحت العقيدة المسيحية الجديدة، سيتم عقد احتفالات الحب، ويقدم فيها مالد وطاب من لحوم الأضاحى وأن نصيبهم من تلك اللحوم محفوظ لهم وسيصير نصيبا مقدسا. بهذه الشروط، قبل الكهنة الوثنيون أن يتحولوا إلى المسيحية، وعلى رأسهم الأسقف جريجورى، وهذا تم تبديل عقيدة المملكة بأسرها بعد سنوات قليلة، تم اختراع أبجدية أرمينية وظهر إنجيل أرمينى، وهكذا صارت اللغة الأرمينية لغة باقية على مر العصور. تكونت كنيسة أرمينية، ولكنها سرعان ما انقسمت إلى عقائد مختلفة وانفصلت عن أصلها. ولكن الكنيسة الأرمينية ظلت باقية إلى عصرنا الحالى، وحفظت الشعب الأرمينى من أن يبيد (كما تكونت فيما بعد مجتمعات مسيحية مختلفة)، وظل التزاوج محصورا بين أبناء هذا الشعب، مما كون جنسا أرمينيا موحدا، ذو صفات محدودة، سرعان ما تفرق فى جميع أنحاء العالم حتى عصرنا الحاضر.

اتبع حكام الأقاليم المختلفة، ورؤساء الشعوب فى كافة أنحاء الإمبراطورية نفس النسق الذى اتبعته أرمينيا. وقع ملوك أيبيريا وجورجيا وإثيوبيا تحت الإغراء الشديد لتسمية أنفسهم بالمسيحيين، وهكذا يصيروا روماناً للتزاوج من الرومانيين. لم يكن تحول الشعوب إلى المسيحية أو التزاوج من الرومان هو المشكلة التى واجهت قنسطنطين، إنما كانت العقبة الحقيقية هى فى توحيد الشعوب التى تم اعتناقها للمسيحية، لأن جنسيات مختلفة بدأت فى الظهور وفى الوحدة بين أفرادها، فى مختلف أنحاء الإمبراطورية. واجه تمرد الأفارقة فى الغرب (كما واجهه قيصر)، وقابل اختلاف العقائد المسيحية فى الشرق (كما لاقاه أغسطس من قبل). نشأت عشرات الميخ، فى العقيدة المسيحية، طوائف فى غالبيتها كانت محلية، اختلفت مع بعضها البعض، ودخلت فى صراعات مشتتة. كانت الطوائف المختلفة عادة ما تنتمى لأعراق مختلفة، وتقودها مدارس فكر مرتبطة برجال دين مختلفين. كان على الإمبراطور - فى وسط هذا الاضطراب العنيف - أن ينحو ناحية، ويميل إلى جانب، فقد كان بحكم وضعه نائب الرئيس، للإله على سطح الأرض.

كان هذا وضعاً شائكاً. فقد بدأت المسيحية كثورة ضد دين اليهود الإقليمى، وتطورت لتصبح ثورة ضد عقيدة الرومان السياسية، وكل من هاتين العقيدتين كان لها مركز قوى ثابت، يعارض تحرد من يثور عليه أو يحاول تغيير نظم المجتمع الثابتة. فى هذا الشأن نافست المسيحية - فى رفضها للتعليمات التقليدية المصارمة - البيانات الهيلينستية الفاضحة التى وعدت بالخلاص لأولئك المؤمنين، ويغفران خطاياهم بتضحية بديل عنهم. انتصرت المسيحية فى هذه المنافسة فى النهاية عندما أصبحت الدين الرسمى للدولة، ولكنها تعرضت فى تلك اللحظة لمشكلاتها الداخلية. كان على المسيحية أن تتحول لتصير مذهباً سياسياً. لهذا السبب كان عليها أن تصير ديناً غامضاً، يخضع لمختلف التفسيرات، إلى الحد الذى يصل إلى درجة النفاق فى المعتقدات. مبدأ رفض اليهودية قد يتحول لتصير المسيحية امتداداً لها. الحماس المبنى والفورة العقائدية من الممكن أن توجه للبعثات التبشيرية. الثورة ضد الإمبراطورية ينبغى أن ترفض تماماً لتصير تحالفاً معها. لضبط هذه الثورة واحتوائها كان من الضرورى ابتداء التنظيمات ونظم الإدارة المختلفة، ومن حسن الطالع أن رؤساء الكنيسة كان لديهم الاستعداد الكامل للقيام بهذا الدور ولتبينى تطور العلاقة مع الدولة. عندما تدخل قنسطنطين فى شؤون الكنيسة وجد منظمة سابقة الإعداد والاستعداد لهذا التدخل. كانت الكنيسة تتكون من أساقفة فى الأقاليم المختلفة. كان اختيار هؤلاء الأساقفة وأرائهم تخضع لقرارات مجمعهم، إلا أنهم زعموا أن اختيارهم تدرج تبعاً من الحواريين، رفاق المسيح. كان من عاداتهم عقد المجالس لمناقشة النقاط الشائكة فى مبادئهم وتنظيماتهم. كان هدف تلك المجالس الحفاظ على وحدتهم وتماسكهم اللفظى والتشريعى. كان تنظيمهم يدعو إلى رفض تاكلهم أو انقسامهم فى تبينى

معتقدات غامضة، لذا صار المتبع عقد مؤتمر عالمي (المجمع المسكوني)، يناسب رغبات الإمبراطورية ويتبنى أهداف الكنيسة (ويضم اللاتين والإغريق) لضمان وحدة الكنيسة والدولة. صار الإمبراطور يدعو ثلاثمائة أسقف، ويدفع نفقات سفرهم، ويرأس اجتماعاتهم، ويعد جدول أعمالهم، ويعد باصدار المراسيم الإمبراطورية اللازمة لوضع قراراتهم موضع التنفيذ، تلك القرارات التي تلبى حاجة الإمبراطور. كان قد اجتمع عدد من الأساقفة المحليين في أنطاكية عام ٢٢٤ وأخذوا مقاليد الأمور بأيديهم وشجعوا الرأي القائل بطبيعة المسيح الغيبية التي عبر عنها القس أريوس من الإسكندرية. أخذ الإمبراطور الأمور بين يديه في الحال ودعا إلى اجتماع المجلس المسكوني العالمي لوضع حد نهائي للخلاف العقائدي بين رؤساء الكنيسة، وعقد هذا الاجتماع في فينيقيا عام ٢٢٤، وهنا بدأ الصراع، الذي استمر حتى هذه اللحظة. هل خلق الابن مع الأب أو خلق منه أم لم يخلق أبدا! كان الأساقفة الذين جاؤا من الغرب أربعة أو خمسة وكان أحدهم صديق شخصي للإمبراطور (هوسيوس أسقف قرطبة). وتحدث هذا الأسقف برأى الإمبراطور، فثار هائجة كل الحضور، قائلًا (هوسيوس أسقف قرطبة). لم لا نقبل بأن دم المسيح وجسده متحدان في طبيعة مشتركة هي الأب والابن معا. أسكتت هذه العبارة الغالبية العظمى من المجادلين، سوى بعض القلة من المعارضين، الذين حرموا من الكنيسة، ووافق الباقون. كانت وحدة الكنيسة خادعة وكان قبولها لهذا الرأي بالإجماع مضللا - لم يمتد قبول هذا الرأي خارج المجتمعات التي تتحدث بالإغريقية، ومن تبعهم من الهمج. بدلا من توحيد الإمبراطورية في رأى واحد، عمقت الكنيسة الانقسامات القومية داخل الإمبراطورية وزادت من اختلاف الطبقات والقوميات وتصعدت كراهية الجميع لبعضهم البعض. ولكن لوقت قصير ظهر أن الشقوق قد التأم وأن الإمبراطور - بصفته رئيسا للكنيسة قد وحد الخلافات العقائدية، وبهذا يستطيع معاودة التزاماته الأخرى الإدارية والتنظيمية، من توزيع العقوبات على المعارضين والجوائز على المطيعين. كانت العقوبات تبدأ بمصادرة الممتلكات والكنوز من الكنائس المعارضة له كما كانت تهدم المعابد الوثنية. كان يهدى تلك الكنوز على الكنائس الأرثوذكسية وعلى القصور الذي بدأ بناؤها في عاصمته الجديدة - القسطنطينية. بهذه المكافآت تمكن من إكساب الكنيسة مزيدا من الثروة والسلطة، التي صارت وقفا على الكنائس والأديرة، واستمرت تلك الثروة في التزايد تباعا (بالرغم من انقطاعها أحيانا) حتى جيلنا الحاضر. زادت قوة الأساقفة بإعطائهم سلطة النظر في الدعاوى والفصل فيها، في القضايا التي تحول لهم من المحاكم المدنية لاستئناف أحكامها (بالرغم من الاعتراض الدائم على تلك السلطة فإنها لم توضع تماما منهم)؛ وأخيرا بدأ قسطنطين بتعديل القوانين ونظم الإدارة تبعا للمبادئ المسيحية الاجتماعية وللتعاليم الدينية كما فهمها. ففي عام ٢٢٠ ألغى الإمبراطور المسيحي القوانين التي فرضها أغسطس على العزاب، وقيد الطلاق واعتبر الزنا عملا غير شرعي يقع تحت طائلة القانون. أوقف قسطنطين ألعاب مصارعة الوحوش ومنح الفقراء

مبالغ من المال لتثبيطهم عن قتل أطفالهم بتركهم فى العراء. من أهم ما فعله الإمبراطور فى ذلك الحين هو منع تحول العبيد لليهودية. كان من عادات اليهود وممارساتهم أنهم يختنون العبيد، ففرض قنسطنين عقوبة الموت على من يزاول تلك الفعلة، وهكذا - لمدة ١٥٠٠ عاما التالية - تناقص عدد اليهود فى أوروبا المسيحية لعدم دخول أفراد جدد إلى ديانتهم، ولاضطهادهم المتكرر فى حين بعد الآخر، وهكذا صار اليهود أقلية منغلقة على نفسها فى العالم. وهكذا بكل تلك التغييرات (باستثناء الأخيرة منها) عمل قنسطنين، كما عمل خليفته - ثيودوسيوس العظيم - على إتمام تحويل الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية وعلى فرض السلوك الإنسانى على ممارساتها بالقوانين التى كانت تسيير حثيثة فى القرون الثلاثة السابقة. ولكن استمر تركيب المجتمع الرومانى قائما على العبودية المتوارثة. أصبح عتق العبيد - كالزواج - فرضا فرضته الديانة المسيحية، ولكن استمرت التجارة فى الرقيق: رجالا ونساء، أطفالا وخصيانا. استمر الحظر على زواج العبيد من الأحرار وأصبحت ممارسة الجنس بين العبد والمرأة التى تمتلكه جرما عقوبته الموت لكليهما. وهكذا لم تؤثر الديانة المسيحية التى انتشرت فى المجتمع فى القضاء على نظام الرق ولا فى تضائل الحروب، ولكنها ساعدت إلى درجة كبيرة على الحد من الإملاق بنشأة الأديرة وانتشارها فى ربوع البلاد. أهم آثار انتشار المسيحية فى البلاد كانت رفض القتل والإجهاض وتعدد الزوجات وإتيان المحارم واللوامة، ولكنها شجعت الحروب والرقيق والإخصاء واتخاذ الخيليات والبغاء.

استمرت الحكومة فى أيدى الأغنياء، وكانت تدار لمصلحة الأغنياء. لم يُعدّل نظام الضرائب للفرقة بين الفقير الذى لايمكن من دفع ضرائبه وبين الغنى الذى يستطيع الالتزام بتلك الواجبات. لم يتواجد ذلك النظام الذى يؤكد على مساندة الغنى للفقير لصالح المجتمع ككل. كان على الصناع فى المدن، وعلى الفلاحين فى الريف، أن يتحملوا عبء الإمبراطورية بأسرها رغم أن ما ينالهم من خيراتها كان أقل القليل. هكذا وجد الكثير منهم أن الهرب والهجرة من ذلك المجتمع هى أفضل السبل له للخلاص بنفسه وبأسرته. لهذا لجأ ثيودوسيوس وجستنيان من بعده إلى فرض بقاء الأفراد فى أماكنهم وتثبيتهم فى المهن التى بدأوها. ارتبط المزارعون بحقولهم (تحت إمرة ملاك الأراضى)، واستمر الصناع فى طوائفهم تحت سيطرة كبير الطائفة (واستمر هذا النظام لقرون طويلة بعد انهيار الإمبراطورية - تحت هجمات القبائل المتبربرة - فى العصور الوسطى فى نظام الاقطاع الذى ساد أوروبا).

بعد مؤتمر نيقيا بمائة عام انهار الجزء الغربى من الإمبراطورية تحت هجمات الهمج من القوطيين والوانداليين (القبائل الجرمانية التى اجتاحت فرنسا وإسبانيا وشمالى أفريقيا فى القرن

الخامس الميلادي واحتلت روما ونهبتها في عام ٤٥٥). تحولت تلك القبائل للمسيحية ولكنها لم تتبع أريوس الذي تمت إدانته في مجمع نيقيا المسكوني. سقطت الإمبراطورية الرومانية في الغرب، ولكن الإمبراطورية الشرقية مازالت محتفظة بكيانها ومازالت مدينة القسطنطينية تتوهج كالمدينة الكبرى التي تزينها كبريات الكنائس والأضرحة المزينة بالفسيفساء برسم المسيح (الذي تحول من شكل الشاب الحليق المضطهد على هيئة الإسكندر إلي الرجل الناصح الكامل الرجولة، الخير، المفكر الذي صار رمزا للأزمنة المقبلة). على الرغم من استمرار انتشار العقيدة المسيحية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا أن التحول لم يكن كاملا، بل بقيت أعداد كبيرة من الجماهير مازالت وثنية، تجتمع في مجموعات صغيرة لتقديم الولاء لالهتها القديمة. أخطر ما كان يهدد الدولة في ذلك الزمان هو حيرة الجماهير بين الانقسام الذي طرأ على مختلف الطوائف والشيع داخل الكنيسة المسيحية ذاتها. بلغ الانقسام أشده بين المقوقس - عظيم القبط في الإسكندرية وبين مناقسه نسطوريوس في القسطنطينية. يؤكد الأول أن مريم العذراء هي أم الإله بينما ينكر الثاني هذا الادعاء. تقرر عقد مجمع مسكوني في مدينة إفسوس (المدينة التي كانت تقديس الإلهة ديانا وصارت الآن تقديس مريم العذراء التي حلت محلها) للوصول إلى حل لهذا الخلاف في المعتقد. دعا الإمبراطور تيودوسيوس الثاني - وكان رجل تقوى وقد شغله هذا الأمر كثيرا - إلى عقد هذا المؤتمر، (هذا الإمبراطور ألغى أحكام الإعدام تماما أيام حكمه). كان الإمبراطور جباناً، رعيدياً، يخضع لأراء زوجته وأخته، فقرر ألا يحضر بنفسه المؤتمر. استعد بطريرك الاسكندرية لحضور هذا المؤتمر وأعد له بكافة الوسائل وسلك مختلف السبل لترجيح وجهة نظره. كان الأعداء يحيطون بالإمبراطورية شرقاً وغرباً، وكانت تقسمها الفرقة والتنافس، وكانت خزائنها خاوية. إلا كنيسة مصر، فقد كانت في غاية الثراء - لم يعتمد بابا الاسكندرية على الإمبراطور في تدبير نفقات سفره، بل تشير الوثائق إلى أنه وزع طناً من الذهب (وغير ذلك من الهدايا والأحمال الثمينة) على رجال القصر نوى السلطة والمهابة والنفوذ. وحصل بهذا على شرف رئاسة المؤتمر ووضع جدول أعماله. انتصرت آراء بطريرك الاسكندرية وأعلنت القرار. رفضت الهرطقة وأدين المهترقون وطردوا من الكنيسة، وحلت الوحدة والسلام في النهاية. نفى البطريرك (السابق) نسطوريوس إلى أطراف الإمبراطورية ومنع تداول تعليمه وما كان يتنادى به، وهرب أتباعه من أنطاكية إلى خارج حدود الإمبراطورية أو إلى الصحارى في أطراف الإمبراطورية، هناك نجحوا في الانتشار وفي نشر آرائهم. مازلنا نلقى إلى الآن، مسيحيين من أتباع النسطوريين، في بلاد فارس وفي الصين وفي الهند من الطائفة المسيحية الآشورية (وهم من معتنقى العقائد النسطورية) يكوّن هؤلاء المسيحيون أقلية في الديانة المسيحية، ويتوالدون بين أنفسهم ويكوّنون جنسا عرقيا خاصا، له لغته الخاصة ويعمل أفراده في مهن متميزة عن بقية مهن المجتمع. كان

لتعليم نسطوريوس ولمعاناته آثار مثمرة لأتباعه. الدروس المستفادة من انشقاق تلك الطائفة من المسيحيين عن تيار المسيحية الأعظم، دروس بالغة الأهمية، وعظيمة الخطر. أثبت هؤلاء المنشقون من المسيحيين في نيقيا وفي إفسوس أنهم إذا اختلفوا عن الحكام عرقيا أو سياسيا يمكنهم أن يكشفوا عن خلافاتهم باعترافهم مذهبيا آخر. عندما أراد الحكام وقسطنطين أن يفرض رأيه وأن يستغل سلطاته ويوحد الأمة في رأى واحد، فإن من لا يقبل هذا التسلسل ويفرض رأى الحاكم (مثل أريوس ومثل نسطوريوس) يمكنهم الفكك باعتراف مذهب ديني مختلف. الدرس الثانى هو الاضطهاد الدينى. ورث المسيحيون الاضطهاد الدينى من أسلافهم اليهود، ثم نشره على اتساع العالم المسيحى بآثاره المدمرة. تصاعد الجدل الذى أثير فى تلك المجامع وتبع الاضطهاد الذى تلاها نفس النمط الذى أثير فى نيقيا وفي إفسوس، واستمر الخلاف مستعرا ولم تتوحد العقائد. ما أحدثه ذلك الجدل هو حرية التعبير التى تمخض عن حاجيات مجتمعات توحدت لغاتها وتوحدت سياساتها. فى الزمن الحديث يعتبر التسامح الدينى فضيلة، ولكن فى ذلك الزمان كان التعصب الدينى - مثله مثل الحرية الشخصية - عنصرا بناء فى التطور الاجتماعى. كان تفرق المجتمعات المختلف فى الإمبراطورية عاملا على نمو حضاراتها ودافعا لبقائها. اختلفت اللغة الغالية، كما اختلفت غيرها من اللغات، لأن المتحدثين بها لم يعتنقوا المسيحية. أما أهالى أرمينيا وسورية ومصر، فقد ساعدتهم اعتناق المسيحية وكتابة الكتاب المقدس بلغاتهم على الاحتفاظ بتلك اللغات وعلى الحفاظ على كياناتهم العرقية وعلى طباعهم، وأدى إلى زيادة تماسكهم. أدى اعتناقهم لدين واحد وتحديثهم بلغة واحدة وتوالدهم إلى ظهور مقومات لجنسية واحدة وتمتعهم بقومية متماسكة. اتخذ كل منهم لنفسه طريقا مستقلا ونقض كل منهم خضوعه لإمبراطور الدولة الرومانية الشرقية، متى سنحت لهم الفرصة لاتخاذ هذا الموقف. نفس تلك العوامل والفروق فى اللغة والأصل العرقى هى التى فرقت بين روما والقسطنطينية. بالإضافة إلى هذه العوامل كان هناك فرق آخر حاسم. وجد أساقفة الدولة الرومانية الغربية أنفسهم فى قلب إمبراطورية غربية تتفسخ وتتآكل وتنهار يوما بعد يوم، فعملت الكنيسة فى روما أن تظل محتفظة بتماسكها وبكيانها حرصا على بقائها، حتى بعد انهيار الكيانات السياسية فى الولايات الغربية المختلفة. تبينت الكنيسة أن عليها أن تصير سلطة فوقية، تنبع من ثقافتها ومن جنسها المرتبط باسم المدينة التى سقطت تحت جحافل الواندال والقوطيين. حاولت الكنيسة جاهدة الحفاظ على استقلاليتها، وبعد حوالى سبعمائة عام نجحت فى الفكك من تبعيتها للدولة، الأمر الذى كان ثابتا فى الكنيسة الرومانية الشرقية. توقع أوجستين (القرطاجى) أن سقوط روما فى أيدي القوطيين، سيتبعه تصاعد نفوذ كنيسة روما لتصير المهيمنة على أقدار الإمبراطورية. لم يحدث هذا التحول فى الحال، ولكنه حدث بعد أجيال عدة من نبوءة أوجستين العجيبة. عملت عوامل عدة على

تحقيق النبوءة: انفضت الكفاءات المهنية المرتبطة بالكنيسة عن خدمة الدولة، تحول الغزاة من البرابرة إلى المسيحية، تطور المجتمع السابق إلى مجتمع جديد يجمع بين الأصول الرومانية والأصول الألمانية. سبق لأوجستين ملاحظة تطور الأحوال واندثار المؤسسة الرومانية. استبدل نبلاء الجمهورية بالإدارات الهيلينية، التي استبدلت نفسها بطبقة العسكريين من جيوش الولايات. لاحظ أيضا انشقاق الحكومتين العسكرية والمدنية في عهد ديوكليتيان. ولاحظ أخيرا نمو النزاع الثالث للدولة في صورة الكنيسة وارتباطاتها، والمخلصين لها، وكفاءاتها، ومقنناتها السلوكية. كان هذا النظام الجديد، المختلف جينيا والمتوازن سياسيا هو أساس كل النظم التالية لحكومات أوروبا الغربية.

هاجم البرابرة أول دفاعات الإمبراطورية الرومانية، وكانوا ينقسمون إلى طائفتين: الكلت والألمان. كانوا قد انتشروا في كل أنحاء أوروبا في انفجارين متتاليين من الانفجارات السكانية التي حدثت في مكان ما إلى الغرب من المركز الإرياني الأول. غمر مد الكلت إسبانيا وإيطاليا واليونان والأناضول في القرنين الرابع والثالث ق.م. وأوقفه انتصار يوليوس قيصر في بلاد الغال وفي إسبانيا، وباحتلاله لبريطانيا ثم ببناء سور هادريان، ثم تم إخماد هجوم مشترك من قبائل الكلت والقبائل الألمانية بين أعوام ١١٣ - ١١٠ ق.م.، وتم وقف هجوم آخر - إلى حين - باحتلال تراجان لداسيا. ثم ببناء هادريان لأجراف شاهقة شديدة التحدر. ترك أورليان داسيا في عام ٢٧٢ وبدأ ببناء سور حول مدينة روما والمدن الأخرى الكبيرة، وسرعان ما حوصرت هذه الأسوار وهوجمت واخرقت.

يرجع علماء التاريخ هذه التحركات البشرية الكبرى للمجاعات. ولكننا سبق أن لاحظنا أن الامتداد النيوليثي والسامي والآري قد تبع زيادة إنتاج الغذاء ولم يعقب نقصانه، وأعقب زيادة المحاصيل الزراعية والإنتاج الحيواني والتحسين في تقنية الأدوات التي يستخدمها الإنسان، ومن المؤكد أن انتشار الكلت والجرمان قد تبع زيادة إنتاجهم. كانت لهم مصادر من الحديد، صنعوا منها فؤسا حديدية وقطعوا بها الأشجار للوقود واستخدموا أخشابها في صنع الأدوات. وكانت لهم محاريث ثقيلة من الحديد فلحوا بها الأرض وهيئوها للزراعة، وقد يكون من أهم آثار الجرمان الحضارية هو إزالة الغابات الأوروبية الشمالية، وهي عملية استمرت بلا انقطاع، حتى عهدنا الحاضر، وقام بها الألمان والصقالية، وخاصة في إنجلترا. سواء تغير الطقس إلى الأحسن أو إلى الأسوأ في شمال أوروبا بعملية إزالة الغابات هذه، فإن السكان تزايدوا. كان حوض البحر المتوسط قد تم استغلاله وتجرده وتاكل، بينما كانت الأخشاب في منطقة القبائل الهمجية في شمال أوروبا مازالت وافرة ومازالت الأراضي بخيرها. كانت مدن الشمال خلوا من الملاريا ومن الطاعون

وانتشرت بين ربوعه الصناعات الريفية، وانتعشت في أراضى صارت تنتج الحنطة وتربى عليها الماشية، كما تنتج فراء الحيوانات والمعادن والخشب للوقود. وهكذا كان الألمان يزيلون الغابات ليزرعوا الأراضي، كما كانوا يزيلونها ليشقوا الطرق في أواسط أوروبا ليهيئوا الطريق لمجموعة عظيمة من الغزاة الجدد، من راكبي الخيل وحملة الأقواس ورماة السهام الذين اخترقوا الأراضي في القرن الرابع بعد الميلاد. تبعت القبائل الجرمانية قبائل أخرى أتت من الشرق، من آسيا، من الهون (وهم شعب مغولي مترحل سيطر على جزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى بقيادة أتيلاً حوالي عام ٤٥٠ م.)، وتبعهم إخوانهم من التتار والمغول، والترك، والكاناك. كان ضغط هذه الأقوام المحاربة على الجرمان هو من أهم الدوافع التي دفعتهم إلى الغرب واستمرت تدفعهم غرباً طوال خمسمائة عام. خلال القرون الطويلة تغيرت طبائع هؤلاء الأقوام على عدة مستويات بالانتصار أو بالأسر في الحروب، فصار ملك إحدى القبائل ملكاً على مجموعة كبيرة منها بينما صار رجال إحدى القبائل أسرى لقبيلة أخرى، ونسأها جوارى لغيرهم. أدى هذا إلى التوسع المفاجيء لقبيلة من الهمج أو إلى تحرك قبيلة أخرى بحاكمها وقومها ومحاربيها من مكان لمكان. من أمثلة هذه التحركات الواسعة أن ملكاً لإحدى تلك القبائل الذي ولد على شواطئ البحر الأسود كانت وفاته في جزيرة صقلية. تكاثرت التزاوج بين القبائل الهمجية الأوروبية وكثر بينهم الاختلاط بنوى الحرف وبالتجار الإفريقي والقرطاجيين والإتروسكان والرومان، وتم امتصاص هؤلاء الأقوام تماماً في الشعوب الشمالية مما كان له الفضل في إدخال فنون الحضارة بينهم، كما تم إدخال بعض الطبقية الاجتماعية فيهم. كانوا كثيراً ما يتبادلون الأسرى والجنود المرتزقة والمغامرين مع الإمبراطورية الرومانية، خاصة في أمور الرياضة مما كان يعود بالفائدة دائماً على الهمج. وهكذا صار قواد الرومان - في العصور المتأخرة - من نوى الأصل الهمجى، كما كان قواد تلك القبائل أيضاً من نوى الأصول الرومانية. كان هذا التبادل يتم غالباً في أعلى طبقات المجتمع. من أهم آثار هذا التهجين هو تجنيد الهمج في الجيش الروماني. أول من استخدمهم كجنود في جيشه كان الإمبراطور ماركوس أوريليوس، ثم صاروا يستخدمون كضباط وأخيراً كقادة أكفاء في جيوش الرومان. ومن الآثار الأخرى لهذا التهجين هو اختلاط الأسماء وانتشارها بين القبائل الهمجية وبين الرومان. في زمان سرعة التحركات للأقوام المختلفة كثر التبادل الجيني وتغيرت ولاءات الرجال المحاربين بسرعة وتوسعت إحدى الممالك - سواء كانت قوطية أو فرانكية - على حساب المملكة الأخرى. يظن العلماء أن الغالين والبلجيك هم أصلاً من الكلت وأن الوندال والقوطيين والألمان والفرنسيين واللومبارديين هم أصلاً من القبائل الجرمانية، والهونيين والالانز ينتمون إلى أصول آسيوية ولكن أسماء الأفراد - التي تتبع من اللغات الأصلية ومن طريقة معيشة تلك الشعوب لاتتسق مع أصول تلك القبائل ولا مع أصول العبيد الذين

ضمتهم هذه القبائل. من أمثلة تلك الحقيقة أن القبائل الجرمانية التي قطنت بلجيكا في القرن الخامس الميلادي كانت ذات أسماء كلتية، كما كان الحال في زعماء القبائل في سكسونيا الغربية الذين غزوا بريطانيا في القرن اللاحق.

أيا كان الحال فيما سبق، فقد تغير نظام الإنسال تماما بعد نجاح الغزو. كان زعيم الهمج يتزوج من شقيقة الإمبراطور أو ابنته، وهكذا يقلده أبناء شعبه، وفي سرعة البرق يحدث التهجين بين الشعب الغازي والشعب المغلوب على أمره. كان تعداد مقاتلي القبائل الغازية يختلف من أفراد قلائل إلى جيوش عظيمة يبلغ تعدادها ٢٠ ألف مقاتل أو مايزيد. كان هدفهم هو الاستيلاء على مزيد من الأرض، بالإضافة إلى النهب والحصول على الزوجات من النساء وعلى العبيد من الرجال. طلب الأريك القوطي مايزيد عن مليون جنيه من الذهب والحريير والفلفل كهدية لمدينة روما، وكان ينوي الاستعمار (كما استعمار جينزيريك الواندالي أفريقيا). ولكنهم كانوا يقصدون أيضا سبي النساء، وما فعلوه في هذا الشأن حدد مستقبلهم. اختفى الواندال تماما من أفريقيا، وكان عددهم حوالي ٨٠ ألفا، بعد ثلاثة أجيال، نتيجة للتزاوج غير المقيد. أما في أوروبا فقد تزوج زعماء القبائل الغازية من نساء الطبقة الحاكمة فحسب (الذين كانوا منتقنين من المجتمعات الرومانية الحاكمة، واقتصر بعض زعماء الغزاة على التزاوج من أسرة الإمبراطور نفسه فحسب). اتبع نمط التزاوج هذا ما عهدناه في السياق التاريخي من قبل. يرجع إلى هذا النمط التوازن الذي حدث بين المركز الاجتماعي والميزة السياسية التي حدثت بين الهمج والرومان وبين روما والقسطنطينية في القرون الحرجة، ويرجع إليه الاحترام الذي تمتع به الإمبراطور في القسطنطينية بينما كانت تتساقط الإمبراطورية الرومانية الغربية وتنهار. كان إمبراطور القسطنطينية يعتبر رأس الكنيسة المسيحية التي انتعى إليها القوطيون والوانداليون (ولكن لم ينتمى إليها الفرنسيون).

كيف اعتنق الهمج الديانة المسيحية؟ تم تحول القوطيون واللومبارديون إلى النمط الأري للمسيحية قبل غزوم للإمبراطورية، ولذا لم يتم اختلاطهم مع النبلاء الكاثوليك ولا مع الجماهير. لم تفلح أميرة بافاريا كاثوليكية مطلقا - الأميرة ثيوديليندا - في تحويل اللومبارديين إلى المعتقدات الكاثوليكية الرومانية. وبعد حين طرد الفرنسيون اللومبارديين من بلادهم. في الشمال لم يتحول الغزاة من الفرنسيين ومن الساكسونيين إلى الديانة المسيحية حتى تمكنت الكنيسة الرومانية من فرض سيطرتها السياسية بنهاية القرن الخامس الميلادي، حين تم دخول ملوكهم في الديانة المسيحية - بجمودها وهرطقتها - بواسطة زوجاتهم من الكاثوليكيات، حيث حدثت موجة عارمة من التزاوج بينهن وبين زعماء الهمج - ناقلات الحضارة الرومانية من روما إلى عالم الهمج. بدأت هذه الموجة بنشاط من رجال الكنيسة وتم تدبيرها في روما. من أشهر الخطوات التي اتخذت في هذا الشأن كانت بعثة أوجستين التي أرسلها جريجوري العظيم إلى إنجلترا، ثم البعثات التي أرسلت من

انجلترا لتحد من تغلغل الأيرلنديين والفرنسيين إلى ألمانيا ولتحض الألمان على اعتناق المسيحية. كانت النساء هي الأداة التي استخدمتها الكنيسة الرومانية واللاتي كن يرحلن مع الكنيسة. ففي عام ٤٩٦ ذهبت كلوتيلدا الكاثوليكية من برجاندى إلى الشمال للزواج ولدعوة الملك كلوفيس ملك الفرنسيين لاعتناق المسيحية، وبعد مائة سنة رحلت ابنة حفيدتهما - برتا الكاثوليكية - إلى الشمال لتتزوج الملك إيثيلبرت ملك كنت وتحوله إلى المسيحية، وبعد حين سنرى أميرة من كنت ترحل شمالا وتتزوج في نورثمبريا. لم يكن هذا زواجا عاطفيا، ولكنه كان زواجا سياسيا، عمد إليه أزواجهن، وكان له أثر بالغ جينيا. كانت المرأة هي التي تدعو القسيس أحيانا ليتم الزواج وكان القسس هم من يرتبون عقد الزيجات في أحيان أخرى. كان لزواج أمير كيف من شقيقة الإمبراطور بازيل الثانى، حاكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية هو الدافع لاعتناق المسيحية هو وكل شعبه. كانت لهذه الزيجات، التي يتبعها اعتناق المسيحية كدين، بين أمراء ونبلاء أوروبا أثر كبير في توجيه المجتمع الأوروبى. تجمع حكام أوروبا في شبكة جينية تكون الطبقات الحاكمة لأوروبا وتطورت تلك الطبقة، بطريقة منتقاه لحوالى ألف عام. كانت علاقة تلك الطبقة بروما وبالقسطنطينية غامضة في أحد وجوها، وتقلبت تلك العلاقة، مثلها مثل نواح عدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية، بين التبعية والحماية، وبين التنافس والتعاون، ولكنها كانت في منتهى الوضوح في نواح أخرى. كان الملك الذى يتخلى عن أسلافه الوثنيين في سبيل أقرباء من المسيحيين، استبدل آلهة ميتين (أو في سبيلهم للموت)، بملوك من الأحياء ومرتبطين بالثروات الوفيرة والسلطات العظيمة، وبأبهة العاصمة الإمبراطورية، في روما القديمة أو روما الحديثة. أثناء تعميدهم تم تسجيل أسمائهم المسيحية بواسطة رجال الكنيسة، وتم توثيق زيجاتهم ومباركتها بواسطة الباباوات، في أثناء احتفالات تتويجهم مسحوا بالزيت المقدس وكرسوا في احتفالات على النمط العبرى القديم المقدس، وبهذا كفلت لهم الوثائق حق حكم أسرة حاكمة. في مقابل كل تلك الخدمات كان على الحاكم أن يخضع لنصائح الكنيسة وأوامرها. من يتزوج؟ من يتوج؟ ومثل هذه الوصايا التي أكسبت كنيسة روما القوة العظيمة التي تمتعت بها.

انقسم الناس بين واجب الزواج المقدس، وبين التبتل والعزوبية الأشد قدسية، وتأثرت أنواع السلوك هذه تبعا للعلاقة المتباعدة للأحوال الاجتماعية والسياسية في الشرق والغرب. كان للقسس سلطة ضبط العلاقات الجنسية بين الناس بواسطة أبروشياتهم ثم بواسطة أساقفتهم. عدد رجال الدين الخطايا العديدة التي ترتكب في هذا المجال وعرفوها ووضعت العقوبات في أيدي رجال الدين، وسرعان ما تبينوا القوة المذهلة التي صارت يحوزتهم، قوة تصاعدت تباعا لألف عام. كانت تلك سلطة على الأفراد وعلى المجتمعات، مكتسبة من رفضهم لآى سلوك بعيد عن الخلق القويم، ورثوه عن أسلافهم اليهود. كان هذا السلوك فرضا من اليهود على أوروبا الوثنية، وكان لازما لنمو سلطة

رجال الكهنة المسيحيين وسيطرتها على الجماهير غير المنضبطة. إزدادت هذه السلطة بزيادة القوانين المفروضة على الخطايا، وبزيادة كسر هذه القوانين. كانت الكنيسة تعدل في تلك القوانين حسب الحاجة. كان الخلاص يتم أولا من العقيدة ثم من الصلاة وأخيرا من دفع الغرامات، وهكذا صارت من سلطة الكنيسة ضمان دخل ظاهر للكنائس والأديرة وأمكنة الخدمة العامة، بخلاف الدخل المختفى غير الظاهر. كانت الكنيسة تسيطر على شئون الزواج. كان ارتكاب الفواحش والخطايا والمعاصي يمكن غفرانه بواسطة قس، بعد مباركته للمذنب، وهو القس الذى رسمه المسيح. وكان هذا شيئا مقبولا ومألوفًا ومستحبا لدى عامة الناس، واعتبروه نصرا لهم.

فى مرحلة مبكرة، كان التبتل والعزوبية يضع بعض رجال الدين خارج النظام الاجتماعى، ولكن غالبيتهم كان يسمح لهم بالزواج. أيام مجمع إفسوس كان الأساقفة متزوجين. كانوا يتمتعون بالسلطة والقوة والثراء التى يضيفها عليهم وضعهم الدينى، بدون أن يضحوا بملذاتهم الحسية ورغباتهم الجنسية. صار المركز الدينى متوارثا. وكلما إزدا ثراء رجال الدين كلما إزداد عدد الكنائس التى يبنونها المسيحيون وكلما صار الأساقفة يسيطرون على أبرشيات تحوى عدد من الكنائس وصاروا بذلك حكاما أقوياء، وأصحاب ثروة شاسعة وثراء، بالإضافة إلى تمتعهم بالثقافة والعلم والمعرفة. كما كان من الضرورى أن يتكاثر الآباء الأوائل للمسيحيون بسرعة كبيرة لينتشر الدين الجديد وتعم الثقافة كافة أنحاء أوروبا. لم يكن نسل الباباوات الأول دائما مصدر دعم للكنيسة، ولكن من نسل البابا فيليكس الرابع جاء جريجورى العظيم، وجلس على مقعد الصدارة على قمة أوروبا المسيحية. كانت هذه المفاهيم أمام مجمع نيقيا عندما رفض فرض العزوبية على رجال الدين المسيحى. رجل الدين الأعزب، الذى ليس لديه أطفال هو وحده الذى يمكنه التفرغ لخدمة الكنيسة من كل قلبه، وهو وحده الذى يمكنه أن يضحى بكل مرتخص وغال ويترك الثروة الباهظة ملكا للكنيسة، ولذا كان الرهبان (وغير المتزوجين من القسس) هم الذين يرشحون للوظائف الأعلى فى السلك الكنسى، وبالتدرج صار الأساقفة كلهم من العزاب (أو لمن يطمح أن يصير أسقفا)، وصار التقليد - بعد قليل - هو منع زواج الأساقفة. تبع هذا قضايا عدة فى التاريخ المسيحى: تأخرت رسامة بعض عظماء الكنيسة المسيحية حتى انقضاء سنوات زواج طويلة وسعيدة لهم، وآخرون كانوا يمارسون الجنس بلا عائق (فى السر) - مثل أسقف لياج الذى تم عزله عام ١٢٧٤ - بعد رفع ٦٥ شكوى فى حقه وثبوتها عليه، وفى الحقيقة أن أفسد رجال الكنيسة من الأسر المالكة وأعظمهم شأنًا، هم من كانوا يرسمون أساقفة، فى العصور الوسطى.

فى الإمبراطورية الشرقية كان الإمبراطور هو الذى يأخذ القرارات للكنيسة، بدون أن يصدر مرسوما بهذا الشأن. كان الإمبراطور يحيط نفسه بمجموعة من الخصيان، الذين كانوا يشغلون

المناصب العليا فى الدولة. فى روما اشتد الجدل طويلا بين أقطاب الكنيسة حتى توصلوا نهائيا - فى عهد هيلديبراند - إلى وجوب عزوبية رجال الكنيسة، وتحريم الزواج ومعاشرة النساء والخيانة، استمر أبناء رجال الدين فى الزيادة، بأعداد كبيرة - تحت مظلة آبائهم - واستمر باباوات روما - فى عصر النهضة - فى اكتساب مزيد من الثروة لكنائسهم بزيادة ثرائها، زادت سلطة الكنيسة وزاد تماسكهم فى وجه أى تجمع أسرى من النبلاء أو العائلات المالكة، واستمر الحال على هذا المنوال لقرون طويلة.

ما هى الفروق بين طبقة رجال الدين العزاب وبين الأسر المالكة؟ طبقة رجال الدين العزاب من الكنيسة الكاثوليكية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ أوروبا الغربية. اختلفت تلك الطبقة عن عامة الناس بكونهم مخلصين تمام الاخلاص للكنيسة من جهة ويكونهم من الشواذ جنسيا أو من ذوى العنة من جهة أخرى، وبعضهم كان مفرطا فى علاقاته الجنسية. هذه الظواهر الجنسية الشاذة تظهر فى كل المجتمعات البشرية، ولكنها تتجمع وتبلغ ثروتها فى مجتمع رجال الدين العزاب المتناسين. الغالبية العظمى من الباباوات خرجوا من بين الطبقة الأرستقراطية الإيطالية، وفى أحيان نادرة صعد شخص من العوام - ممن يتميز بكفاءات نادرة - بمساعدة الكنيسة، إلى مرتبة الأسقف أو البابا. بدعت الكنيسة طرقها لضمان اكتساب المزيد من رجال الدين، من بين من يتطوعون لأداء أعمال الخير مثل: رعاية الأطفال اللقطاء (الذين كان يتم قتلهم أو نبذهم فى العراء أو يتم استبعادهم أو يدفعون للدعارة فى العوالم الوثنية قبل مقدم المسيحية). أدى نظام المسيحية الكاثوليكية إلى نشوء السلوكيين معا: العزوبية والعناية باللقطاء من الأطفال، موازيا للنظام الأسرى القويم الذى يشجع على الزواج وعلى إنجاب الأطفال الشرعيين. كانت الكنيسة تحتضن كلا النظامين. كان من المحتم أن يكون رجال الدين العزاب مجتمعا عديم الإنجاب (حيث أن العزوبية تحدد لهم سلوكا معينيا فى الحياة، كما يحدث فى مجتمعات معينة من عالم الحشرات). فى الحشرات تتميز تلك المجتمعات بوجود غذاء معين، من يتناوله يكتسب خصوبة فائقة، أما فى الإنسان فإن العزوبية سلوك مفروض عليه (ولو أن له أصوله الوراثية)، ولا يورث إلى الجيل التالى. فى أيام الحضارة الطويلة الأولى للدين المسيحى، أمسكت الكنيسة بهذه الخاصية الوراثية واستثمرتها (بالرغم من مخالفتها للعقل ومن سخفها وبالرغم مما صاحبها أحيانا من سوء الاستخدام)، وصارت إحدى القوى الأساسية لتشكيل مجتمع أوروبى متوازن.

صممت الكنيسة تصميميا تاما على تحريم غشيان المحارم (كما كان الحال فى القانون اليهودى). لم يكن اهتمام الكنيسة ينصب على العلاقات الجنسية عامة، من الرجال يضاجع من النساء، ولكنه انصب على الزواج، الذى كان محدودا بامرأة واحدة. وضعت قوانين جستنيان (ولاحته قائمة من ذى القربى والأنساب)، شرحها الفاتيكان بتخطيط مفصل، لمن لا يصرح لهم

بالزواج من الشخص بعينه. امتد هذا التحريم إلى أقرباء الدرجة الخامسة. اشتد الجدل - فى القرون التالية - على تلك القائمة وتعرضت لكثير من المفاوضات وتخللها العنف والحروب. أصدر البابا جريجورى تعليماته أولا على تحريم زواج أبناء العمومة من الدرجة الأولى فحسب، ولكن بمرور السنين امتد التحريم إلى ما سوى هذه الفئة بكثير. من وقائع التاريخ الثابتة أن وليم الفاتح قد خالف تعليمات الكنيسة وتزوج من ابنه عم له من الدرجة الخامسة (ماتليدا)، وأن هنرى الثامن قد تزوج من آن بولين التى أنجبت له إليزابيث الأولى التى توجت ملكة على إنجلترا. صار هذا التحريم سيفا مسلطا من قبل الكنيسة، ومصدرا لجمع المال الوفير. فقد كان من سلطة البابا أن يبيع ما حرمه القانون (نظير ما يطلبه من مكاسب سياسية أو مادية)، كما حدث عندما اتجه بعض الملوك للحصول على السماح من البابا الآخر المنافس، أو ما كان يفعله البابا عندما يختار واحدا من اثنين متنافسين على العرش. لذا حرص جميع الأمراء على توثيق زواجهم وعلى ضمان شرعية أبنائهم باتباع تعليمات الكنيسة والانصياع لأوامرها. كان لتلك التعليمات ما يبررها من الناحية الوراثية - لضمان جودة النسل وخلوه من العيوب والأمراض الوراثية. ولكن بعد استقرار الأسر المالكة فى أوروبا - بداية من القرن العاشر الميلادى - وجد الملوك صعوبات كبرى فى إيجاد الشخص المناسب لإتمام زواج أبنائهم وبناتهم من خارج الدرجة الخامسة من الأقرباء والأنساب، ولذا إزداد توجه العائلات المالكة الأوروبية إلى أبعد فأبعد، وامتدت شبكة الزواج التى تجمعهم من أيرلاندة غربا حتى القسطنطينية وبيت المقدس شرقا، ومن قشتالة حتى نوفجورود (ودخل رغما عنهم فى شبكة زواجهم بعض من لهم صلات بالعرب أو التتار وبعض الرحالة من البندقية). كان هؤلاء المستقطنون للدخول فى زمره العائلات المالكة منتقون لكفاءتهم العسكرية الشديدة أو لبراعتهم الفائقة فى شئون الحكم، مهارت استمروا فى إظهارها هم ومن خلفهم من الوارثين. انتشرت ذرية الملك شرلمان فى كافة أنحاء أوروبا (وفى معظم حقب التاريخ)، وعلى عكس ما حدث فى الأسر الحاكمة العظيمة السالفة (الأخيميون والبطالمة والقيصرية الذين تم اغتيال كثير منهم أو تاكلوا حتى اندثروا بالاستيلاء الداخلي)، استمرت الأسر الأوروبية المالكة فى عنفوانها وظلت قوية منيعة، تتميز بالخصوبة والاختلاف عن بعضها البعض، اتبعت تلك الأسر ما كان يتبعه نبلاء روما من الانتشار والاستيلاء الخارجى، وظلوا مثلهم طبقة فوقية - عن عامة الشعب - أقلية انتشرت فى كافة ربوع أوروبا. تجنبت الأسر الأوروبية المالكة الزواج الشرعى بأكثر من واحدة. من المؤكد أنهم جميعا كانوا يرزقون بأبناء غير شرعيين، ولكن لم يكن لهؤلاء حق وراثة العرش (ولذا لم يمارس الأمراء عادة قتل بعضهم البعض لضمان الوصول إلى العرش كما حدث فى كافة الملكيات السابقة)، وهذا التحسن المستحدث فى العلاقات الأسرية للعائلات المالكة يرجع إلى ضبط الزواج بواسطة الكنيسة المسيحية، وساعد هذا بدوره على طول بقاء الأسرات المالكة فى الحكم (طالما احتفظت الكنيسة بسلطاتها) واستمر هذا الضبط لألف عام بعد إرسال بعثة جريجورى التبشيرية إلى إنجلترا.

ويوضح الجدول رقم (١٢) تاريخ المسيحية في تتابعه منذ نشأتها حتى انتشارها في العالم.

جدول رقم (١٢)

التوسع المسيحي

مصادر غير دينية:

١٩٧ ق.م.	إستيلاء أنتيوكس على يهوذا من بطليموس الخامس
١٦٦ ق.م.	إرتفاع المكابيين
١٤٠-٢٧ ق.م.	الأسرة الحاكمة المكاية للملوك الكهنة
٦٣ ق.م.	ضم يوميى ليهوذا
١٧٥ ق.م - ٦٨ م	طائفة الإسينيين تودع لفانفها في كومران
٢٧-٤ ق.م.	تولى هيروود العظيم لعرش يهوذا (أيومى عربى إقترن بأميرة هازمونية)
٦٦-٧٠ م	حرب اليهود الأولى - تدمير المعبد بواسطة تيتوس
٧٣ م	سقوط الماسادا - القضاء على الإسنيين
١٣٥ م	حرب اليهود الثانية - ثورة سيمون باركوشبا - تدمير أورشلیم - التشتت الرابع والأخير لليهود التقليديين الفلسطينيين (وليس لليهود المسيحيين).

مصادر دينية:

٢٧٠-٥٠ ق.م.	ترجمة الكتاب المقدس إلى الإغريقية فى الإسكندرية (السبعونية)
٥٠ ق.م.	العهد القديم الأخير فى المذهب الكاثوليكي
٤ ق.م.	ولادة المسيح (كما يعتقد)
٢٧-٢٠ م	بعثة عيسى فى يهوذا
٥٠-٦٥ م	بعثة بولس التبشيرية فى الأناضول واليونان وروما
٦٦-٦٨ م	الإضطهاد المسيحى الأول فى روما
حوالى ٧٠ م	كتابة الأنجيل : مرقس فى روما
حوالى ٨٠ م	متى فى أنطاكيا
حوالى ٩٠ م	لوقا
حوالى ١٢٠ م	يوحنا فى إفيسوس
حوالى ٢٠٠ م	كتابة الأنجيل باللغة السوريلية
حوالى ٢٧٠ م	كتابة الكتاب المقدس : باللغة القبطية
حوالى ٣٥٠ م	باللغة الإثيوبية
حوالى ٤٤٠ م	باللغة الأرمينية
حوالى ٤٥٠ م	بالقوطية

حوالي ١٨٠ م
حوالي ٢٨٨ م
٤٠٤ م

كتابة العهد الجديد باللاتينية فى قرطاجنة
كتابة العهد الجديد باللاتينية بواسطة جيروم
ترجمة العهد القديم من العبرية بواسطة فقهاء يهود

مصور النزاع والخلاف:

٢٥٠-٢٦٠ م
٢٠٣-٢١١ م
٢١٢ م
٢٢١ م
٢٣٠ م
٢٢٥ م وماتلما
٤٢١ م

إضطهادات المسيحيين الكبرى : ديقيوس - فاليريان
ديوكليتيان - جاليريوس

قنسطنتين : مراسم التسامح - مرسوم ميلان

يوم الأحد عطلة رسمية

يهب القسطنطينية لمريم العذراء

مجمع نيقيا (يشجب إريانز)

مجمع إيفيسوس (يشجب النسطوريين)

جوليان الحورى : يعيد فتح المعابد الوثنية

ثيودوسيوس العظيم : إمبراطوراً

يحدد العقيدة - يمنع الهرطقة والوثنية - يتسامح مع اليهود

يصادر المعابد - يوقف الالعب الأوليمبية - ينشأ ١٢٠ أسقفية

فى بلاد الغال وفى مقدونيا

أوكاديوس (فى القسطنطينية) يفصل البطريرك

فالنتينيان الثالث (فى رافينا) يعترف بسلطة البابا ليو الأول

جستينيان إمبراطوراً

يطرد الفلاسفة من المدارس بأثينا

يضع القوانين الرومانية المسيحية

يطرد القوطيين الإريان والوندال من إيطاليا وشمال أفريقيا

٢٨٠ م
٢٩٤ م
٤٠٤ م
٤٤٥ م
٥٢٧-٥٦٥ م
٥٢٩ م
٥٢٧-٥٣٤ م
٥٢٣-٥٥٢ م

تماسك المسيحية:

شارل مارتل يهزم المسلمين فى بواتيه

شارلمان

يتوج كامبراطور فى روما بواسطة البابا ليو الثالث

الباباوية فى روما تخضع لسيطرة القوى المحلية

إنشاء مجمع الكاردينالات فى روما

ثبات المسيحية: فى إنجلترا

وفى فرنسا

وفى إيطاليا

وفى روسيا

٧٣٢ م
٧٤٢-٨١٤ م
٨٠٠ م
٨٦٧-١٠٤٨ م
١٠٥٩ م

أشهر أعلام المسيحية:

١٥٥-٢٢٢ م	(منشء المسيحية اللاتينية - ولد بقرطاجنة)	تير تولىان
٢٥٤-٤٢٦ م	(صاحب مبدأ أن الكنيسة فوق الجميع - ولد بنوميديا)	أوجستين
٥٢٥ م	(راهب سكيثى بروما - حسب يوم القيامة المجيد) (فى العهد المسيحى)	ديونيسيوس
حوالى ٥٤٠ م		
٦٣٣-٧٣٥ م	يضع آداب السلوك فى نور الرهبنة	بندكت
٧١٦-٧٥٤ م	مؤرخ الكنيسة الأنجليزية	بيديه
٩٨٨ م	يحول الألمان والفرانك للمسيحية	أسقف بونيفاسى
	أمير كييف يعتنق المسيحية ويتزوج شقيقة الإمبراطور بازيل الثانى (وتدخل المسيحية إلى روسيا)	فلاديمير

ثانياً: الإسلام

تعرف الأيام التي سبقت الإسلام بالجاهلية، وكانت أخبار الأيام السابقة تحفظ في الذاكرة وينشدها الناس شعراً. معرفة العالم بحياة العرب جاءت من أربعة مصادر: الحفريات، اللغة، آداب الأمم المجاورة في الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، ومن حياة العرب حتى عصرنا الحاضر. أحدث العرب الذين تركوا شبه الجزيرة العربية تغييرات هائلة في البشر في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ولكن من ظلوا ببلادهم بقوا على حالهم قرابة ألف وثلاثمائة عام. ظل هذا الجمود على حاله حتى غيره محمد.

في بلاد تقع في وسط مهد الزراعة بين وادي ما بين النهرين ووادي النيل، والتي كان مبدؤها غزوقبائل الرعاة الحاميين والساميين من الجزيرة العربية نشأت الحضارة الأولى في وديان تلك الأنهار. بدأ المزارعون في الألف سنة الرابعة والثالثة ق.م. يشقون طريقهم إلى الأراضي الخصيبة في اليمن، بينما ظل الرعاة يقضون على البقية الباقية من الزرع على مشارف الصحراء، التي زاد امتدادها كلما خف زرعها. بقى أهالي اليمن وحضرموت يتمسكون بمزروعاتهم وبدوا يصنعون الآلات ويخترنون المياه ويحافظون على الأرض الخصبة، واستثمروا محاصيل التوابل وبدوا التجارة فيها. ولكن في الألف عام الأخيرة، بدأت زراعاتهم في التقلص وبدوا يعانون من الهجمات المتكررة من جيرانهم من الرعاة الذين دأبوا على تدمير منشئاتهم. هاجم الرعاة الفقراء المدن الغنية في أرض الجزيرة، كما هاجموا اليمن. نشأت طبقة من المحاربين الحكام وأدخلوا كهنتهم الساميين وألهتهم السامية ولغاتهم السامية وفرضوها على الشعوب التي قهروها، فدخلت في أكسوم وفي الحبشة، ونقشوها على آثارهم بحروف منشقة من الأبجدية الفينيقية. أدت تلك الصراعات إلى تطور الشعوب العربية وإلى نمو الحضارة، كانت عملية التحضر بطيئة، كان أهم معالمها استئناس الجمل، الحيوان السريع الجرى الذي انقرض أسلافه منذ زمن طويل. أول مصدر تاريخي لهذا الحيوان يرجع إلى أهالي مدين حوالي سنة ١١٠٠ ق.م. وكان استئناس الجمل عاملاً على زيادة تصحر الأراضي وإلى اضمحلال حوض حضرموت وعاصمتها مأرب. أما مزايا الجمل فكانت القوافل التي عبرت الصحارى ووصلت البلاد التي كان مستحيلاً بدونه قيام أى اتصال بينها، ونقلت تلك القوافل التجارة خلال الصحراء، وبذا نشأت المستعمرات العربية في الصحارى مترامية الأطراف، متفرقة عن بعضها

البعض، المتحارية مع بعضها، دائمة الحرب والقتال، وبهذا تشكل الاقتصاد فى بلاد العرب. هكذا صار العرب، قبائل رحل من البدو تعيش مع الجمل متعمدة عليه فى لحمها ولبنها وانتقالها وحروبها وتدافع عنه ماوسعت، فهو مصدر الحياة لها، خدم قبائل البدو الرحل، قبائل أخرى استقرت فى أماكن محددة وتخصصت فى أنواع بعينها من صنوف الاقتصاد. عاشت تلك القبائل فى جميع البلاد العربية وفى شمال أفريقيا مع البدو الرحل. تركت هذه القبائل أثارا تدل عليها طوال الخمسة آلاف سنة السابقة مثل قبيلة السلوياء فى شبه الجزيرة العربية وقبيلة التومال فى الصومال. تلك العلاقة بين البدو الرحل والقبائل المستقرة فى أماكنها تتضح على وجه الخصوص فى أرض المستنقعات فى دلتا نهر الفرات. على حافة أرض المستنقعات توجد قبيلتان تتحدثان بلهجات متميزة تعتمدان على لبن الجاموس وروثه وعلى صيد الأسماك بالحربة وعلى صيد الطيور. ليس لهاتين القبيلتين أى دين ولايقومون بالصلوات ولا بأداء أى طقوس دينية، ويأكلون الطعام المعتاد ولهم المحاذير الجنسية المألوفة. ولكن يعيش بينهم أفراد أكثر تحضرا يعتبرون أرقى منهم طبقيًا، بعض أولئك يعملون كنساجين أو باعة متجولين ويعتنون بالحدائق ويصيدون السمك بالشباك، ولكن بعضهم الآخر أكثر رقيًا طبقيًا وهم الصناع الحرفيون أو الرجال المقدسون الذين توارثوا مراكزهم العالية من أسلافهم من الشيوخ الحكام، يحتفظون بالعبيد من الزوج ويتولون تربيتهم، وأخيرا هناك طبقة الراقصات والراقصين (التي عمل أفرادها من الذكور فى اللواط قبل زواجهم). كل هذه الأمور مازالت تجرى فى عصرنا الحاضر ولكنها قديمة قدم الأزل وهى تشير إلى أن أسلاف العرب كانوا يعملون بالصيد والقنص ويرعى الحيوانات وبالزراعة وأنهم تلاقوا مع بعضهم البعض ونشأت منهم مجتمعات ذوات طبقات أكثر تعقيدا من أسلافهم البدائيين.

نشأت قبائل العرب البدو - الذى يقومون بتربية الإبل - من تلاحم قبائل من المزارعين مع قبائل ممن يعتمدون على الصيد والقنص. تسرب بعض هؤلاء إلى المجتمعات المدنية التى استقرت فى أماكن بعينها، بينما بقى عدد كبير من الناس رحلا، يعيشون حياة بدائية فى حرية تامة، بدون أى تقسيم طبقي، وظل الاستيلاء بينهم فى أغلب الأحيان استيلادا داخليا بين بعضهم البعض. كان الاستيلاء الخارجى يحدث فقط عندما يطرد أحد أفراد القبيلة ويضطر للجوء إلى قبيلة أخرى تحتضنه وتأويه. نظرا لتلك العزلة، كان لكل قبيلة عاداتها وتقاليدها وسلوكها وقوانينها الأخلاقية، وكانت تلك العادات ثابتة ولاتتعرض للمغامرات أو التجديد. كان نشاط كل قبيلة ومعتقداتها محليا: كان لكل قبيلة إلهها، يعمل له صنم خاص به ويعبد، وكانت لهم مقدسات قبلية منذ عهود سحيقة فى القدم، وكانت الحروب تقوم بين القبائل نتيجة ضغائن وحزازات مبنية على الثأر والقتل سواء كان مقصودا أو غير مقصود، ولم يكن العقو - لو لمجرد الشك - مقبولا. كان النظام بأسره يقوم على الطقوس والشعائر. بعد المعركة يتم حصر عدد المقتولين ويتم دفع دية القتلى. كانت أشهر الزرع

والحصاد تعتبر أشهرها حرما، يوقف فيها القتال. وكان يتم وأد البنات (ويحدث هذا التوازن المطلوب في أعداد النساء التي تزيد عن أعداد الرجال إثر كل معركة). وإذا قل عدد النساء تشجع المجتمع على اللوامة (في الزمن القديم كما يتم في الأزمان الحالية). بهذا حدث التوازن في أعداد البشر وفي سلوك الأفراد، وظل ثابتا، طالما لم يدخل غرباء إلى تلك المجتمعات المغلقة على نفسها في الفكر وفي الخصائص الجينية. ولكن كانت القبائل العربية تهاجم، كل حين وآخر، جيرانها التي تتاجر معها، وتسترق أهلها، وحدث بهذا اختلاط عرقى وتكونت الهجن بين القبائل البدوية وجيرانهم من الفلاحين والتجار في شمال الجزيرة العربية وفي جنوبها. أما في وسطها - حيث الصحراء العربية المترامية الأطراف فلم يحدث لها اختراق حقيقى - سواء بالزراعة أو التجارة - حتى بداية العصر المسيحي، حينئذ وفد إلى بلاد العرب أناس جدد ووفدت أفكار حديثة.

دخل هؤلاء البشر الجدد ليس عن طريق الحرب، ولا بجيوش الإمبراطوريات الكبرى التي تحيط بشبه الجزيرة العربية - لأن تلك الجيوش لم يكن لها مطمع في صحارى خالية ولأن الجيوش لم تتمكن من اختراق تلك الصحارى - ولكن حدث الاختراق بواسطة أناس لا يحملون سلاحا ولكن يحملون عقيدة، جاؤا فرارا من التعذيب والاضطهاد. جاء اليهود فارين من البابليين أولا ثم فارين فيما بعد من الرومان الذين دمروا بيت المقدس في عهد تيتوس وعهد هادريان. جاء اليهود أساسا كصناع. يصنعون الحلى الذهبية ويصنعون السيوف الحديدية، ولكنهم قدموا أيضا كتجار، وكان يعيش اليهود جميعا في المدن. سرعان ما أثرى أولئك القادمون الجدد واشتروا العبيد ودعوهم لاعتناق دينهم ثم تناسلوا معهم. بهذا التهجين تكاثروا واستولوا على الأراضي وكونوا واحات. في أثناء ذلك تغيرت طباعهم وألوانهم ولغتهم، وصار دينهم وكتابهم المقدس ينقل الآن شفويا باللغة العربية. (ترجم كتاب اليهود إلى اللغة العربية بعد ألف سنة من ترجمته إلى اللغة الإغريقية بواسطة يهودى كان يعيش في مصر بين عامى ٨٩٢ - ٩٤٢م يدعى ابن الفيومى، وكان المقصود بهذه الترجمة اليهود الذين يعيشون في فلسطين الذى استبدلوا اللغة العربية باللغة الآرامية).

بعد اليهود - بدأ المسيحيون في نشر دينهم. لم يأتوا لبلاد العرب كصناع مهرة ولكنهم أتوا في بعثات تبشيرية وكرهبان، من طوائف مضطرة (كالنساطرة). الذين تم اضطهادهم في الجزيرة العربية فيما بعد. قدم إلى الجزيرة أيضا أقباط من مصر (من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة)، وآخرون لنشر دينهم باللغة العربية أيضا، وبهذا انتشرت تلك اللغة. وجد هؤلاء المسيحيون أنصارا لهم من بين المسيحيين الآخرين في الحبشة وعلى ضفاف البحر الأحمر في الجزيرة العربية، وكان نجاشى الحبشة عوننا كبيرا لهم. حدث نزاع بين اليهود والمسيحيين للسيطرة على تجارة التوابل في اليمن في القرن السادس، ووصلت ذروتها في إغارة الأحباش على مكة، في نفس العام الذى ولد فيه محمد. ويوضح الجدول رقم (١٢) تتابع الأحداث في الجزيرة العربية قبل مقدم الإسلام.

جدول رقم (١٣)

العرب قبل الإسلام

مهاجرون من سوريا بدأوا يزرعون القمح والشعير ومحاصيل أخرى على شواطئ البحر.

بدأت زراعة المصاطب والرى في الجنوب الخصيب بالبلح المحلى والتوابل من الخليج الفارسي، والسهم والقطن من أفريقيا. بدأت التجارة البحرية على السواحل - ربما بدأها السومريون - إلى وادي الأندلس وإلى أفريقيا.

تغلغل الساميين من الرعاة إلى الجنوب، ثم عبورهم البحر الأحمر إلى أفريقيا. بدأت أغنامهم وماعزهم، ثم خيلهم وجمالهم في تجريد الأراضي من النباتات وصارت الأراضي بالتدريج أراضي جرداء وصحارى. بدأت اللغات الأمهرية وبدأت الطبقة في المجتمعات التي قسمت إلى الملوك والنبلاء والكهنة والتجار الأجانب والصناع والزراع المتتورين.

قيام الحرب بين مملكة سبأ وسائر الممالك للسيطرة على جنوب شبه الجزيرة بأسره وللتحكم في تجارة التوابل المحلية ومن الهند مع مصر. مأرب (على ارتفاع ٧٠٠ قدم فوق سطح البحر إلى الشرق من الجبال الحاكمة والتي تقسم البلاد وعلى رأس حوض حضرموت) تصير عاصمة اليمن. يبنى سد عظيم لتخزين المياه ولدعم الزراعة ولمقاومة امتداد الصحراء حوالي عام ٧٠٠ ق.م. تدخل الأبجدية الفينيقية وتبنى المعابد من الحجارة.

الألف سنة الرابعة قبل الميلاد

الألف سنة الثالثة قبل الميلاد

الألف سنة الثانية قبل الميلاد

الألف سنة السابقة للميلاد

في منتصف الطريق بين اليمن وسوريا يمر الطريق التي يخترقه البوم من مرعى الشتاء في جدة إلى مرعى الصيف في الطائف الواقعة على المرتفعات، حيث يقع بئر زمزم. في هذا المكان وضع الأقدمون الحجر الأسود. في هذا المكان القاسى وضع حجر أسود، منذ زمن بعيد، ليكون علامة على

لقاء القبائل لتبادل التجارة وإقامة المباريات والألعاب بدون أن يتحاربوا، على نفس النمط الذى سبق، وفعله اليهود والإغريق. فى القرن الثالث (أو الرابع) الميلادى أقيمت خيمة على هذا الحجر الأسود، وسمى الكعبة وصار مقدسا، وأصبح هذا المكان يعرف باسم «مكة». الذى أقام مدينة مكة قوم يعرفون باسم قريش، من النبطيين، الذين جاؤا من حدود أرض الجزيرة. كانوا قوما من الرعاة، ينتمون إلى إبراهيم، أول من عبد الله من البشر. ولكن وجد القرشيون أن مغنمهم من رعاية القادمين لهذا المكان ووفادتهم، وسقايتهم وإطعامهم يفوق كثيرا أى ربح يجنونه من تجارتهم. بدؤا يبيعون الماء للقوافل ويتقاضون المكوس على عبور الطريق، ثم بدؤا يصنعون أصناما يبيعونها لهم، وكانت مواسمهم السنوية والأرياح التى يجنونها فى الاحتفالات مصدرا لثراء القبيلة. صار لهم أتباع وزبائن وعبيد: من اليمنيين ومن الزوج ومن اليهود ومن المسيحيين. كانت لهم زوجات عدة وعشيقات كثيرات، وتكاثر عددهم وانقسموا إلى ستة وثلاثين بطنا. اختلطت الأجناس والطبقات والعداات والأديان ونظم الإرث، تباينت بطون قريش الستة والثلاثين من حيث الثراء والقوة ومن حيث البلاء فى القتال، والإنجاز فى التجارة، والدهاء فى السياسة. وبهذا اختلفوا من حيث المركز والشهرة، فعاش الأكثر عزا والأشد قوة والأغزر مالا فى وسط مدينة مكة، بينما قطن الأتقر والأضعف فى ضواحي المدينة، التى أخذت تزداد حجما جيلا بعد جيل، حتى صارت تضارع كبريات المدن كاثينا وروما كما كانت منذ آلاف السنين. ولكنها اختلفت عن تلك المدن بعدم وجود قوانين مكتوبة ولا قضاة معينون ولا حكم وراثى. كانت تقاليد القبيلة وعادات العائلة وآراء الكبراء هى القانون المتبع. أهم ما يميز مكة كان موقعها. كانت فى وسط شبه الجزيرة العربية، وسكانها يمثلون جميع سكن بلاد العرب، وصارت مكان الحج فى البلاد العربية. بحلول القرن السادس الميلادى صارت الكعبة مكعبا كبيرا من الحجارة (تم بناؤها بواسطة عمال من المصريين المسيحيين)، وكانت تحوى أصنام جميع القبائل العربية، لتجذب الجميع للحج إليها (وربما كانت تحوى من ضمن ما تحوى تمثالا لمريم العذراء). صارت عبادة آلهة الكل تقليدا متبعا فى قبيلة قريش، التى اتخذت لها آلهة عدة، بعد أن صارت مدينة غنية، متسعة وصارت لها صناعة رابحة. اختلف سكان المدينة من البسطاء الذين يؤمنون بسداجة، إلى أولئك الذين اتخذوا من الكهانة مصدر رزق لهم.

فى وسط هذا الخضم تمكن محمد أن يحقق معجزة، وهى تحويل مجتمع قبلى مزقته الحروب إلى مجتمع قومى متماسك، تحول بعد قليل إلى مجتمع عالمى يوحد القانون، هذا هو نفس ما حققته الإمبراطورية الرومانية وتحولها إلى المسيحية، ولكن الفروق أن محمدا تمكن من تحقيق هذا الإنجاز العظيم بمفرده فى حياته، بدون أن تكون له سابق خبرة بالحرب ولا بالتكتيكات العسكرية ولا بالإستراتيجيات الحربية، وهو اليتيم الأمل الذى يحميه عمه فحسب. صار زعيما لقبيلة من كبريات

القبائل العربية وأسس ديناً مكتوباً وقانوناً رقيقاً يتعامل مع كل ما تتطلبه الحياة. حقق محمد هذه المعجزة في نيف وعشرين عاماً. بدأ أولاً ببناء جماعة من المؤمنين من صحابته المخلصين، ثم تمكن من حكم مجتمع كبير بكفاءة نادرة. كانت المرحلة الأولى في مكة وأنت المرحلة الثانية في المدينة. ولد محمد بمكة في عام الفيل، العام الذي تمكن فيه الغزاة الأحباش من اختراق شبه الجزيرة العربية من الجنوب حتى وصلوا إلى مشارف مكة. تزوج للمرة الأولى وهو في سن السادسة والعشرين من أرملة ثرية أسن منه كثيراً وبدأ بالتجارة في أموالها لمدة خمسة عشر عاماً. حملته رحلات التجارة هذه إلى جميع أركان البلاد العربية وربما يكون قد وصل إلى مصر. تعلم الكثير في رحلاته هذه باستفساره اللؤوب عن كل ما يقابله وتعمقه في سبر أغوار ما يسمعه ويراه في مجتمعات كثيرة حتى استقر نهائياً في مكة حوالي عام ٦١٠ م.

أول ما تعرض له محمد هو يوم الحساب (يوم الخلاص في المسيحية ويوم الجبراء لدى الزرادشتيين)، ثم بين للمنصتين إليه كيف يتم خلاصهم في يوم الحساب، وأقنعهم أن السبيل هو اتباع ملة إبراهيم ونبذ الأصنام وعبادة الله الواحد القهار. صار المؤمنون الأولون طائفة منبوذة في بلادهم. عاونته في نشر دعوته أبو بكر الصديق، وبدأ المؤمنون يتكاثرون سرا في الخفاء. كان العبيد من أوائل المؤمنين، وكان يتم عتقهم عندما يعلنون إسلامهم. دأب أبو بكر (التاجر الثرى) على شراء العبيد من ساداتهم ثم عتقهم. اعتبر مجتمع مكة – عبدة الأصنام والمستقيدين منها – دعوة محمد خيانة وحاربوها بكل ما وسعهم من قوة (كما اعتبر الرومان من قبل أن المسيحيين في روما خونة). فرت ثلاثة وثمانين عائلة من المسلمين من ديارهم والتجأوا إلى النجاشي في الحبشة واستقروا في عاصمته أكسوم. استمر باقي المسلمين في مكة يتعرضون لاضطهاد أعدائهم، ويزداد جلداهم وشجاعتهم وإيمانهم، وبعد هجرتهم بدينهم إلى المدينة زاد عددهم وإزادات قوتهم. نزلت بعد ذلك تعليمات الصلاة والتطهر والصيام ووضعت شروط الزواج وحدود لتعدد الزوجات، ووضعت تعاليم الميراث، وحُرِّمَ إتيان المحارم وتعدد الأزواج وقتل الأطفال واستعباد المسلمين. تشابهت تعاليم الإسلام مع تعاليم اليهودية التي تشجع على الإنجاب. باتباع تلك التعليمات تزايد عدد المؤمنين وقويت شوكتهم وزادت هيبتهم وصاوا مصدر احترام الجميع. أصبح المسلمون أمة بعد أن كانوا قبيلة، وأضحوا مملكة الله على الأرض.

في المدينة قابلوا اليهود، الذين التجنوا إلى يثرب بعد تدمير أورشليم وكذلك بعد تدمير مَآرِب في اليمن. كان يهود يثرب خليطاً من العرب واليهود والجنس الهجين. كان هناك أثرياء من اليهود، مثقفون يستخدمون الأبجدية العبرية للتحدث بلغة خاصة بهم. كان الوحي الذي يبشر به النبي

مرفوضا منهم، وكان على الرسول التأثير عليهم وإقناعهم. بعد غزوة بدر – التي انتصر فيها المسلمون – اتجه أهل المدينة – الذين كانوا منقسمين إلى قبيلتين متعاديتين – إلى محمد للتوفيق بينهم فأصلح بينهما كما ينجح رجل السياسة المتمكن. عين محمد رؤساء لإدارة نولته، وبنى مسجدا ليزال تعليمه منه، وأبعد المنافيين. تحول رؤساء القبائل العربية جميعا، الواحد تلو الآخر، ومعهم قبائلهم للإسلام. صار النجاح الذي لاقاه محمد في دعوته الدينية، كرسول الله، هاديا للناس في كل أمور حياتهم. أشاد بقدرة العقل وجعله نبراسا يهتدى به الناس في حياتهم، ووضع لهم قواعد لشئون السياسة والقانون بالإضافة إلى أمور الدين، وكانت هذه القواعد من الصحة والصواب بحيث قادت المسلمين إلى حضارة عالية. نجح محمد في هداية الوثنيين في شبه الجزيرة العربية بأسرها ولكنه لم ينجح في هداية اليهود. آمن محمد بإبراهيم كسلف له واعترف بالوصايا العشرة التي أتى بها موسى وبدأ في أول عهده يتوجه إلى بيت المقدس قبله له وتبع نفس تقسيم اليهود للأسبوع إلى سبعة أيام ولكنه استبدل يوم الجمعة بيوم السبت – كيوم عبادة لأمته. زاول أتباعه الختان لذكور المسلمين وشرع لأمته صيام يوم الكفارة اليهودي، بالرغم من هذا رفضة اليهود فرفض هو بدوره اليهود. استبدل شهر رمضان بيوم الصيام لدى اليهود، وحول قبلته من أورشليم إلى مكة، وبدأ عهد من العداوة مع اليهود – بدلا من هدايتهم فليدبرهم المسلمون ويصادروا ثرواتهم. استمرت هذه السياسة خمس سنوات، وحارب محمد اليهود في ثلاث غزوات متتالية بهدف هدايتهم، ورفض الجميع – باستثناءات قليلة – اعتناق الإسلام. تم طرد اليهود من بلاد العرب في الغزوتين الأولتين وتم قتل ذكور اليهود في الغزوة لثالثة مع استرقاق نساءهم وأطفالهم. إزداد المسلمون قوة بعد تلك الغزوات وإزداد ثراؤهم بالغنائم التي حصلوا عليها. وكان لامتلاكهم لنساء أجنبيات عنهم – من أهل الكتاب – والتهجين معهن أثر هام في مستقبل العرب. هاجم محمد يهود خيبر، التي تقع على مسافة ١٥٠ ميلا شمالي يثرب، استسلم اليهود، وفرض المسلمون عليهم الجزية مقابل الإبقاء على حياتهم. بهذا القانون الجديد استطاع محمد أن يبنى إمبراطورية شاسعة.

أباح هذا القانون الجديد، لأهل الكتاب، من المسيحيين واليهود والصابئين (وفيما بعد للزرادشتيين) أن تُستبقى حياتهم ويبقون أحرارا بدون استعباد – حتى إذا رفضوا أن يدخلوا في دين الله – مقابل دفع الجزية (التي يعفى منها المسلمون). هذا المبدأ يخالف ما اتبعه المسيحيون من وجوب اعتناق الدين الجديد وإلا لاقوا القتل والاضطهاد. انتشرت المسيحية في مجتمعات متخلفة وكانت آتية من مجتمعات أكثر تقدما، أما الإسلام فكان يحاول الانتشار من مجتمع متخلف إلى مجتمعات أكثر تحضرا، وكان هذا عملا شقا صعب التحقيق. جاء في القرآن الكريم «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٢٩ ك الكهف ١٨)»، وبهذا أعلن محمد أنه يعترف بحقوق الأقليات الدينية والعرقية في مجتمعه، وألا إكراه في الدين، وهذا ما انعدم تماما في أوروبا

المسيحية. بهذا تمكن محمد من الحفاظ على المجتمع الإسلامى فى الشرق القديم فى الألف سنة التالية. كان على الإمبراطورية الإسلامية أن تضع الأصول القانونية لحماية حق احترام الأديان وقد وضعت أول تلك الأصول بما فعله محمد مع يهود خيبر: إما اعتناق الإسلام أو دفع الجزية. فى نفس الوقت الذى كان محمد يخضع فيه العشائر اليهودية، كان يستعد لخوض صراع طويل مع أهل مكة، بمراقبة جواسيسهم ومقاومتهم، واعتراض قوافلهم وصد غاراتهم. تم القتال فى الأشهر الحرم ولم يتم احترام التحالفات، وتم إبراز تفرق القيادات بين المشركين. قرر محمد أن يتفاوض مع أهل مكة للسماح للمسلمين بالحج إليها وقام هو وزوجاته وعشيرته الأقرىون وألفين من المحاربين المسلمين مظهرين قوتهم وفى نفس الوقت المركز المقدس لمكة عند المسلمين. فى العام التالى خضعت مكة لنبيها الذى سبق ونفته من أرضها. دخل المدينة منتصرا، وحطم أصنامها فى الكعبة، الذين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم. سلم محمد مفاتيح الكعبة للقوم الذين جبلوا على الحفاظ عليها وكرس المكان كالمكان الأقدس فى الإسلام، موطن الحج ووجهة المصلين، المكان الذى لاموضع فيه لصنم ولا محل فيه لغير المسلمين. وهكذا دارت الدوائر على الوثنيين، عباد الأصنام، وصارت مكة للمسلمين قبلة اقتصادية وسياسية بالإضافة إلى وحدتها العرقية وأيديولوجيتها الإسلامية وارتفعت إلى قمة لم تطاولها فيه أى مدينة أخرى، بعد هذا النصر الحاسم لمحمد، عاد إلى المدينة، وبقي فيها العامين الباقين له فى الحياة، الذين أخضع فيها كل شبه الجزيرة العربية. من الناحية الاقتصادية دأب الإسلام على تحصيل الزكاة من المسلمين وجباية الجزية (وهى أكثر كما) من غير المسلمين، ومن الناحية الاجتماعية عم السلام فى كل ربوع الجزيرة العربية، وبدلا من أن يفكروا فى الماضى، استشرقوا المستقبل وعملوا من أجله، وأغمدت السيوف نحو أنفسهم وأشهرت نحو الآخرين. عم السلام بين الأخوة وأبناء العمومة وصارت القوة المدمرة التى يملكها العرب مجمعة فى يد واحدة، توجها نحو الجيران الأثرياء، الذين لم يقيموا وزنا للعرب على مدى ألفى عام، وكانوا يحتقرون ضعف سكان الصحارى ويعيبون عليهم همجيتهم. هذه هى الحال التى تركها محمد لخلفائه ساعة وفاته.

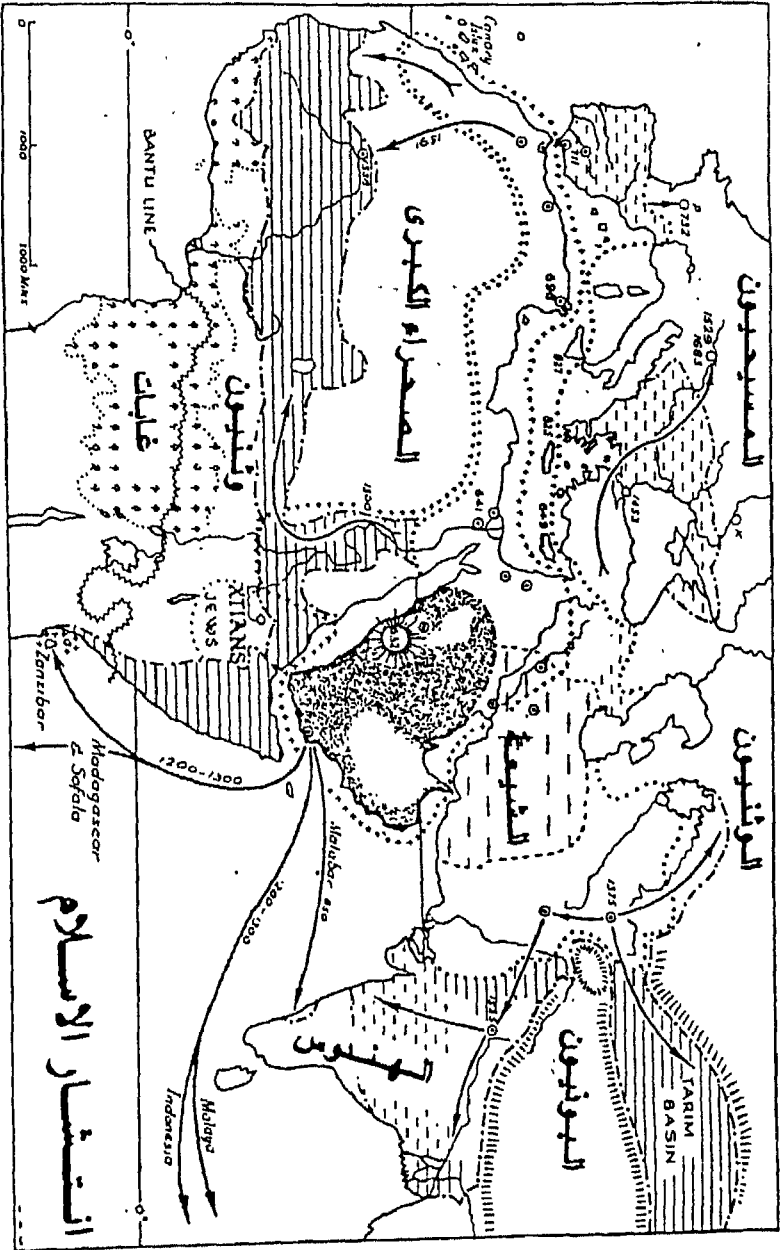
فى مدى ثلاثة أجيال - بعد وفاة الرسول - أى بعد مائة عام بالضبط - تمكنت جيوش الإسلام من إنشاء إمبراطورية كبرى. اقتطع المسلمون الجزء الجنوبى من الإمبراطورية الرومانية وسادوا بلاد العرب وإسبانيا، وضموا الإمبراطورية الفارسية بأسرها، وأنشأوا دولة تمتد من المحيط الأطلنطى حتى حدود الصين. فى هذه الدولة صارت شبه جزيرة العرب إقليما صغيرا قليل السكان، ولكن جميع مواطنى تلك الدولة اعتبروا أنفسهم عربا، لأنهم كانوا يتحدثون باللغة العربية ويتبعون القوانين الإسلامية التى نص عليها القرآن المقدس والأحاديث الشريفة التى قالها الرسول أو عمل


بها. يوضح الشكل (٥) التوسع الإسلامي فى العالم. كان ما تحقق من الناحية العسكرية ومن الناحية السياسية يفوق أى انجاز حققه الإسكندر الأكبر. صاحب هذا انتشار عرقى وامتداد لغوى عظيم، انتشار للساميين يعادل انتشار الأريين، ويعتمد على تكاثر الطبقة الحاكمة وانتشارها فى ربوع البلاد، واستطاعت نشر لغتها ببطء على السكان، أو على معظم سكان البلاد التى ضمها لسلطتهم. كان التوسع سريعا ونشر اللغة سريعا ويرجع هذا إلى عوامل ثلاثة استخدمها العرب.

العامل الأول لهذا النصر السريع هو استخدام الخيل فى الحرب بواسطة قوم نشأوا على الرعى وتعودوا على القتال ومارسوا الحرب لأجيال طويلة. وفى هذا المقام يتشابه العرب مع جميع الأقوام التى نشأت فى المراعى، ولكنهم تفوقوا عليهم بسرعتهم، وكرهم وفرهم فى صحارى شاسعة وسط ظروف شديدة الصعوبة. على مدى خمسين جيل أضاف الحصان العربى والجمل للبدو، إلى أسلحتهم الأخرى، قدرة على العدوان والقتال. تم انتقاؤهم فى القبائل وكأفراد، خاصة كزعماء وسادة فى تلك القبائل، بناء على مقدرتهم فى الكر والفر والإقبال والإدبار، والانتصار فى المعارك والحروب. قاد التوسع الإسلامى قوادا من قبيلة قريش، وهيات لهم قدرتهم تلك فى مكة، وسط الطرق الرئيسية للقوافل فى بلاد العرب، المقدره على قيادة جيش يتألف من ٣٠ ألف مقاتل من البدو والمحاربين تم إعدادهم للمعركة الأولى. كان تكتيكهم هو الإغارة السريعة والقرصنة وتوج هذا الأسلوب بالنصر السريع. ومما يذكر أن نفس هذا التكتيك هو ما أدى إلى انتصار الشعوب الآسيوية من أواسط آسيا من الترك والتتار والمغول فى إغاراتها السريعة غربا وانتصارها فيما بعد.

كان ثانى عوامل انتصار العرب هو دينهم. وحد الدين بينهم وسأوى بينهم، وأشعرهم بفرط القوة وشدة الأهمية. آمنوا بجمية النصر، وأن من يستشهد فى سبيل الله له الجنة. أدى كل هذا إلى اكتساح العرب لكل أعدائهم وإلى تخطى الفرد لكل عوائق الفرقة القائمة على الأصول القبلية أو العائلية التى كانت تحدث انشقاقا بينهم.

وثالث تلك العوامل هو ظهور قادة عظام بينهم. بعد النبى محمد ظهر أبو بكر الذى سيطر على الفتنة ووحده الأمة، وبعده ظهر عمر الذى كان يتمتع بصفات الزعيم والقائد والإدارى الناجح والسياسى الفذ، ثم ظهر معاوية السياسى الداهية. حقق عمر بن الخطاب توسع الدولة الإسلامية وحافظ معاوية بن أبى سفيان على تلك الدول الشاسعة. وأثبتت كل تلك الإنجازات أن قبيلة قريش، المعتدة بنفسها لها أن تفخر بأبنائها نوى المقدره على الحكم، وأخيرا فإن المجتمع الذى خلقه الإسلام صار مجتمعا متغيرا، متطورا ولم يبق مجتمعا ساكنا جامدا، أعمل العقل واستثمر منجزاته.



سنة الإسلام علم ١٣٢ 
 حدود انتشار الإسلام حتى سنة ٧٥٠
 للتحرك الإسلامية أيام الامبراطورية الفارسية
 حدود التعلم باللغة العربية اليوم + + + + +

كان برنامج المسلمين فى فتح البلاد وفى الدعوة إلى الإسلام يختلف من بلد إلى بلد حسب نوعية الشعب المغلوب، وكان يختلف بالنسبة للطبقة فى المجتمع ولجنس الشعب ودينه. بالنسبة لطبقات المجتمع اختلف أسلوب التعامل بين الطبقة الحاكمة إلى طبقة الفلاحين، ومن الصناع إلى المثقفين. كان الحكام يختارون فى أول الأمر من الجيوش المنتصرة، رجال من قریش، بعد أن قتلوا فى المعارك أو نفوا الحكام السابقين والقادة الأقدمين. ضم الأمراء الجدد نساء أعدائهم وبناتهم إلى حريمهم. إذا اعتنق الإسلام تزوجوهن، وإلا أصبحن محظيات لهم. بهذه الطريقة تكون أفراد فى جيل واحد - مسلمى الديانة، يدافعون عن حق العرب فى الحكم، على مقدرة فائقة، وذو مهارات وصفات متعددة، وعباقرة بكل معنى الكلمة. تكاثر عددهم بسرعة فى سنوات قليلة. ربما كان عدد الجيوش العربية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى مائة ألف محارب، تبقى منهم على قيد الحياة - بعد الحروب - عدد أقل من ذلك، ولكن بلغ عدد خلفائهم من المقاتلين بعد جيلين أو ثلاثة عدة ملايين، ملأوا العالم الإسلامى. من أين أتى هؤلاء وما أصلهم الجينى؟ كان لتعدد الزوجات الذى مارسه المنتصرون أثر بالغ فى هذه الزيادة. لم يفعلوا مثل ما فعله مولاى إسماعيل فى المغرب - سلطان مراكش - بعد ألف سنة، والذى أنجب سبعمائة ابن (كان متفرغا للإنجاب! وفاق ما فعله ملك مصر من قبل - رمسيس الثانى) ولكنهم كانوا يستكثرون من النسل بجانب قيامهم بأعمال حضارية أخرى. أدى تكاثرهم السريع هذا إلى ملء العالم الإسلامى بالجين العربى، وهكذا كان تأثيرهم عليه. كان باستطاعتهم - بعد كل عدة أجيال - أن ينجبوا ملايين من الأجناس المهجن. أنشأوا وملأوا المدن الجديدة كالكوفة والبصرة والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وبيداد. هكذا أثمرت سياسة الإسكندر الأكبر - على يد العرب - وصارت الأجناس الهجينة من العرب من غيرهم من الأمم ملء العيون والأبصار، وأثمرت هذه الأجناس الهجينة حضارة شاهقة لم يبلغها الأوائل. انتشرت اللغة العربية، التى كان على المسلمين فى كافة أرجاء العالم تعلمها وأداء صلواتهم وطقوسهم الدينية بها، ومن ثم صارت لغة الحديث اليومية لهم (وما زالت اللغة العربية لغة بلاد كثيرة إلى الآن، يكتبونها بحروف عربية، ووضعوا لها أصول النحو والصرف، وينشدون أشعارهم بها ويتغنون بأغان عربية تنتشر سريعا فى كل العالم العربى). أنشأت المدارس التى تعلم القرآن وأصول الفقه والحديث، والعلوم الحديثة باللغة العربية ونشأت طبقة من المتخصصين فى دراستها وتعليمها للناس. تؤكد استمرار اللغة والدين عن استمرار الحضارة العربية - حتى بعد زوال الإمبراطوريات وانهزام الجيوش واحتلال الأرض وتشردم الدولة وتفرقتها إلى قطع وشظايا. وهكذا نشأت الشبكة التى ربطت المواطنين وحافظت على جنسهم عبر الزمان والمكان.

هذا هو مصير الحكام، أما بالنسبة للفلاحين، فى كل مكان، فقد تحولوا إلى الإسلام بدون زواج من المسلمين. باعتناقهم للإسلام، احتفظوا بأراضيهم التى عشقوها، ولم يدفعوا للحكام المسلمين أكثر مما كانوا يدفعونه للحكام المسيحيين أو للحكام الوثنيين. ظلوا قابعين - كحالهم دائما - فى قاع المجتمع. ظل الفلاح الأجير خاضعا للسلطان فى القاهرة، كما خضع من قبل الفرعون أو لقمبيز فى ممفيس أو لبطليموس أو قيصر فى الإسكندرية. هكذا كان حال الفلاح فى سوريا وفى العراق وفى بلاد الفرس. بالرغم من اعتناق الشعب للإسلام، سرعان ما تمكن من إعلان أى نوع من المسلمين سيصير. الفلاح، الملتصق بالأرض، هو الذى قرر أن الإسلام يينغى أن يتلون بألوان مختلفة فى البلدان المختلفة، التى تختلف فى عرقياتها. سرعان ما انقسم الإسلام إلى طوائف وشيع - كما تفرقت المسيحية من قبل - تبعاً لجنس الشعب المسلم وموقعه من العالم الإسلامى. لعبت البيئة والوراثة دورها فى هذا التشيع، ورأينا أن بلاد الفرس وفى العراق (التي سيطرت عليها فارس لألف عام والتي امتلأت بالمهاجرين من الفرس)، اتخذت مذهب الشيعة، خلافاً لمذهب السنة الذى اتخذته سائر المسلمين.

أما الفئة الثالثة، فئة الصناع المهرة، فقد سلوكوا سلوكاً مغايراً، حسب ما أمّلته الظروف وما أتاحتها الفرص. سلك البحارة الأشداء - الذين ينتمون أصلاً للفينيقيين والإغريق، الذين اختلطت دماؤهم كثيراً بالأجانب - سلوكاً كان له أثر كبير فى الامتداد الإسلامى فقد نحووا منحى آخر. طائفة الملاحين، والتجار نشأت فى صور، وبعد أن احتلها الإسكندر الأكبر سلموا مفاتيح شرقى البحر المتوسط له. بعد ظهور الإسلام، خضعوا له بدون أن يخوضوا أى معركة وانفصلوا على الكنيسة فى القسطنطينية وكرهوها، مع أخوتهم من السوريين وكثير من بحارة الإسكندرية ومن الواضح أن اعتناقهم الإسلام كان عن رغبة صادقة وإيمان. وكان لتمسكهم بالإسلام عائد سريع، فسرعان ما سقطت قبرص فى يد المسلمين عام ٦٤٩م وتبعها جزر صقلية ثم سردينيا وكريت.

تأخر انتشار المسلمين فى بقية بلاد البحر المتوسط حتى القرن الخامس عشر. ضمت بلاد اليونان ثم اندمجت فى العالم الإسلامى. اعتنقت الإسلام (مؤقتاً)، وهكذا صارت اليونان ودالماتيا، بالإضافة لسوريا ومصر، من البلدان الإسلامية، تحت حكم الإمبراطورية العثمانية. حاول المسلمون - وفشلوا - فى احتلال جزيرة مالطة عام ١٥٦٥م. فى خلال أربعمئة عام أنقلب ميزان القوة البحرية فى البحر المتوسط تدريجياً ضد المسلمين. حدث تقدم تقنى فى الغرب المسيحى، وحدثت كشوف بحرية هائلة بواسطة الغرب المسيحى مما أدى إلى هجران كثير من قادة البحار وتخليهم أو إلى هجرتهم الفعلية ثم تغيير دينهم، وأدى هذا إلى تخلى العرب المسلمين عن جزرهم وانسحابهم ثم

انكماشهم فى بلادهم الأصلية، أو تحول بعضهم – مثل أهالى كريت – إلى قرصنة واصوص بحار. اختلف كثيرا مصير الصناع المقيدىن، الحبيسين، المسالمىن، غير المحاربىن. بعد هزيمة بلادهم استقروا فى مستعمرات جديدة أو فى المدن الصغىرة والكبىرة. استمروا يعملون بحرفهم القدىمة، منتمىن إلى طوائفهم، فى الأسواق المغطاة أو فى الشوارع والطرقاات. استمروا يزاوون العمل فى حرفهم التقلدىة أو فى مهمتهم المتوارثة، واستمروا يعتنقون دىاناتهم الأصلية. أولئك هم اليهود والسامرىون، وأولئك هم البونانىون والموارنة والأقباط والأشورىون والأرمن فى مدن البلاد الإسلامىة المختلفة. احتفظ هؤلاء بكىانهم لرفضهم التزاوج مع المسلمىن واحتفاظهم بدياناتهم الأصلية وانعزالهم، ورفضهم كذلك للتزاوج مع الفئات الأخرى من الأقليات المتواجدة فى العالم الإسلامى. بالإستىلاء الداخلى حافظوا على دىنهم عبر الأجيال، وعلى معتقداتهم بدون تساؤل أو شك فى صحتها، وعلى عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ومهاراتهم، وعلى مهن آبائهم وأجدادهم. وهكذا – رغم صغر عددهم – زاد نقائهم العرقى. صاروا طبقات منغلقة (أو متحجرة) بعزلتهم الجىنية (كما صار الفلاحون طبقة منفصلة بعزلتهم البىئة). بسبب رفض تلك الأقليات من الطوائف المختلفة من جمىع الأخرىن، صار تماسكهم مع بعضهم أشد قوة واعتمادهم على بعض أكثر شدة. وهكذا يتضح أن تحت القشرة البراقة التى أحدثها الإسلام فى البلدان المختلفة، مازال الجوهر، الصلب، الحقيقى من جمىوع الفلاحىن والصناع منفصلا عن الممىيزات التى حصل عليها المسلمون. إزداد تماسكهم بالإستىلاء الداخلى، ومازالوا محافظىن لدرجة كبىرة. لم يخلقوا شىئا جديدا ولكنهم لم يفقدوا شىئا قديما، ومازلنا نلاحظهم – حتى الآن – يعملون فى حقولهم وفى ورشهم كما كانوا يعملون منذ ألف سنة. قابل بعضهم المصائب فى فترات من التاريخ. جمع السلطان سليم مهرة الصناع من البلاد ونقلهم إلى اسطنبول عندما قرر أن ىدخل إليها خمسىن حرفة جديدة. جمع كل الحرفىىن من القاهرة، وسبب هذا خرابا للصناعة والفن فى مصر، ولكنه فى الواقع اتبع الخط التاريخى الذى بدأ منذ فجر الحضارات، وهو ضمان امتىياز العواصم على حساب تدهور الأقالىم – الخطأ الذى استمر لثلاثة آلاف عام. تبعثر نظام طبقة الحرفىىن وأقلقت راحة المهنىىن، ولكن استقر النظام بقدم الإسلام، واستمر التقدم فى طريقه، شديد النجاح، طالما استقرت البىئة، وطالما سادت حرية العقل وانطلاق الفكر. كان الاستقرار الداخلى للمجتمع دافعا للتقدم، ولم يفسد إلا بحوث التغيير، هذا التغيير الذى أتى من الخارج. استمر غير المسلمىن فى دفع الجزىة (الضرائب)، وزاد مقدارها كلما تقدم الزمن بالحكام المسلمىن وزاد استقرارهم فى الملك. زادت الغراماات وتصاعد الإذلال وكثرت الرشاوى وقل العدل، وصار هناك قانون للأثرىاء وآخر يطبق على الضعفاء. لم ىنجح – حتى اعتناق الإسلام – فى فتح الأبواب الموصدة أمام غير المسلمىن، وصارت خزائن الحكام تمتلىء من أموالهم، ولكن حرية

الحركة لم تغلق أمام المنشقين، فقد أثبت السامريون أن بإمكانهم الاتصال ببعضهم البعض. بامتداد رقعة الإسلام، المتتالي تحت حكم أجناس مختلفة من المسلمين، استطاع الحرفيون من المسلمين وغير المسلمين، أن ينقلوا صناعاتهم المميزة والدقيقة من دمشق (بسوريا) إلى طليطلة (إسبانيا) أو يمارسوا فنهم في سمرقند (بأواسط آسيا)، وينشروا إلى جميع أنحاء الدنيا، ما نسميه ثمرات الحضارة الإسلامية. وفي النهاية، استطاعت قوى التحمل أن تغتلب من بلاد الإسلام، وشاهدنا مستعمرات من الزرادشت الموهوبين (المعروفين باسم الفارسيين) ينشئون مستعمرات في غرب شبه الجزيرة الهندية، ومستعمرات من اليهود تعبر البحار إلى الصين وإلى أفريقيا الإستوائية، ومجموعات من النسطوريين تحمل رسالة المسيح إلى مونغوليا، ووضعوا أنفسهم في خدمة أمراء التتار في الصين، وأخيرا مجموعات من الأرمن ينتقلون بملامحهم ودينهم وموهبتهم إلى جميع أنحاء الدنيا.

بينما لم يقع فلاحو مصر والرعاة في المغرب وصغار الصناع في المدن الإسلامية المختلفة تحت ريقه التهجين، وقاوموا حدوث التغيير في حيواتهم، كان كل فتح جديد يعقبه اضطراب لدرجة ما في مجتمعات المدن. صار هذا أوضح ما يكون بقدوم العباسيين إلى بغداد. لم يصبح الانتماء الأسرى ولا الصلات العائلية هي جواز المرور للطبقات العليا، بل صارت الكفاءة والعبقرية هي أهلية الارتفاع وهي الجدارة والميزة التي تؤهل صاحبها لبلوغ الدرجات العلى بعيدا عن العواطف والصلوات الشخصية. واستمر الحال على هذا المنوال لعدة أجيال وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى أعلى عُلَيين. كانت الفروق في الإنجازات بين فرد وفرد آخر في المجتمع سببا في اختلال الطبقات القديمة، وصعود بعضها وهبوط بعضها الآخر. تبع ذلك تصنيف جديد وزيجات جديدة، وخرج من هذا كله مجتمع جديد. المظهر الخارجى الذى تبع هذا التغيير هو اختفاء ما كان يسمى بالآثر الإغريقي والفارسي واليهودى المباشر فى الثقافة العربية وظهرت الثقافة الإسلامية العربية الجديدة مختلفة عن جنورها ومستقلة عن أصولها. فى القرنين الأولين لظهور الإسلام كان بناء المساجد من المسيحيين المتحدثين بالإغريقية. كانت لغة الإدارة فى سوريا هى اللغة الإغريقية. بعد قليل تحول بناء المساجد ورجال الإدارة إلى متكلمين باللغة العربية، ولكنهم استمروا فى بنائهم على نفس الطراز المعمارى واستمروا يستخدمون فى حساباتهم الحساب الذى ورثوه وتعلموه من أسلافهم الإغريق أو من أسلافهم البابليين (حيث أن مدينة بابل القديمة تقع على مسافة مائة كيلو متر من بغداد الحديثة). أما الفرس، الذين تجنبوا الاختلاط والتهجن قد استمروا الحديث باللغة الفارسية. صار اليهود – الذين تفرقوا فى جميع أنحاء النوبة الإسلامية – يعرفون بمهارتهم فى شؤون الطب وبثقافتهم العالية. وهكذا كان تأثير هؤلاء الأقوام فى الحضارة الإسلامية مختلفا. أثر الإغريق

والفرس على المسلمين باعتناقهم الإسلام ثم اندماجهم في المجتمع العربي الإسلامي. أما اليهود فقد أحدثوا التغيير رغم احتفاظهم بديانتهم الأصلية.

كان للجو القارص القارى للهضبة الفارسية منذ أيام البابليين وحتى عصرنا الحاضر الأثر في إبعاد الغزاة الضعفاء عن التغلغل في أرض فارس. أما الخيالة العرب، النشيطين، شديدي السرعة (وكذلك الخيالة الذين أتوا من أواسط آسيا فيما بعد) فقد شقوا طريقهم بسهولة ويسر عبر الأراضى الفارسية. (لم يستطع الروس البقاء في أرض فارس واضطروا للانسحاب منها سنة ١٧٢٠). لهذا السبب كانت الطبقة الفارسية، التي نشأت منذ عهد الأخيمين باقية، ولم تتفسخ أو تنحل. لم تستطع الثورة الهيلينية التغلب عليها ولم تكد تمسها التوسعات الرومانية ولا التحولات المسيحية. ظلت بلاد الفرس منعزلة، والديانات ثابتة حتى مقدم المسلمين. أدنى التكيف الأول بعد الفتح الإسلامي إلى التكيف الثانى بعد تولى العباسيين الخلافة ونقلهم العاصمة إلى بغداد، فى العراق، التى طالما خضعت للنفوذ والحكم الفارسى. لسته أجيال (العصر الذهبى للحضارة الإسلامية)، كانت الأسرة المالكة والحكومة والجيش نصف فارسى. تزوج الخلفاء من إمانهم، وكان معظمهم من الأسيرات الفارسيات. صار رئيس الحكومة – الوزير الأول (وهو اللقب الموروث) من الفرس والذي مازال يستعمل إلى الآن فى الحكومات الإسلامية). تسربت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة الفارسية، التى أصبحت تكتب الآن بحروف عربية، ولكن ظل الطابع الفارسى للفرس هو الغالب وهذا ما حافظ على الثقافة الفارسية. هكذا أعاد التاريخ نفسه، عندما تغلب الرومان على الإغريق عسكريا ولكن تغلب الإغريق على الرومان ثقافيا وحضاريا. انتصر المسلمون العرب على الفرس حربيًا، ولكن دهاء الفرس المهزومين ونكاهم تغلب على القوة العسكرية العربية، وتطبع المنتصرون العرب بالركة الفارسية والفن الفارسى. ورقّ التدين العربى وهدأ الحماس الدينى العنيف. ظهر الذكاء الفارسى واضحا جليا فى القرون التالية فى القنون الإسلامية، وفى الاتجاهات الدينية. فقد نشأت الصوفية فى بلاد فارس، ونشأ أعظم الشعراء فيها وظهر أرفع الأدب فيها. كما ظهرت فى بلاد فارس المهرطقات الإسلامية، ووجد سلاطين المسلمين أنفسهم محل غدر وخيانة، بأسرع مما وجد حكام المسيحيين. كانت هذه الحركات مقياسا للتفرق العربى فى كلا النظامين. كان المهرطقون يقتلون بواسطة الولاية المسلمين (قبل أن يحرقهم اليابا). أول صوفى يموت كان الحلاج، الذى مات فى بغداد فى عام ٩٢٢، وبعد خمسمائة عام مات بدر الدين فى قونية فى عام ١٤٢٠. هذا ما حدث فى قمة المجتمع، بين الطبقات العليا الأرستقراطية، شريفة المحتد، عالية الثقافة، اللطيفة، نوات الكياسة، واللامبالاةهمم اكتساح تلك الطبقات عدة مرات فى التاريخ، وسيتم اكتساحهم مرارا فى المستقبل. بالرغم من هذا استمر الطابع القومى الفارسى. أنبثقت هذه الروح من أسفل، من جماهير الشعب، من الصناع

والفلاحين. تكون لدى الفرس مذهب ديني جديد، وتؤكد هذا المذهب تحت الشريعة الإسلامية. تمسك أهالي بلاد الفرس والعراق بهذا الانقسام وشجعوا على تلك الفرقة في الدين الإسلامي تحت مذهب الشيعة. واعتبروه مذهباً لهم. صمموا على أن يتعبد العرب في الكوفة في مسجد منفصل عنهم وأن ينفصل عنهم العرب في خراسان في طوائف وجماعات خاصة بهم. قدسوا علياً ومن بعده الحسين بن علي، الشهيد، حفيد النبي، وضربوا أنفسهم بسلاسل من حديد للاحتفال سنوياً في العاشر من شهر المحرم بذكرى اليوم المشئوم في كربلاء.

في عام ٧٥١م اعتقل الحكام العرب في سمرقند بعض الخبراء الصينيين في صناعة الورق. كان الصينيون يصنعون الورق من ألياف الغاب من قديم الأزل، منذ عام ٩٧م بواسطة موظف اعترف له الإمبراطور الصيني بهذا الفضل. تعلم العرب تلك الصناعة وصنعوا الورق من ألياف أشد صلابة، من الكتان في خراسان، وبدأوا يستخدمونه للكتابة. انتشرت هذه الصناعة العجيبة في بلاد الإسلام وحلت محل أوراق البردي أو جلود الحيوانات، مرتفعة الثمن أو أوراق النخيل الأسوأ صناعة. استخدمها الكتاب في كتابة كتبهم، وبعد قرن من الزمان تمكن العلماء الإغريق من ترجمة الكلاسيكيات الإغريقية إلى اللغة العربية وكتابتها ونسخها ومضاعفة أعدادها. بدأت بعد قليل دراسات تقارن بين المسيحية والإسلام. كان المسيحيون يقتصرون على دراسة الكتاب المقدس لدى اليهود والكتابات المملة للآباء الأولين - لأن الكنيسة حرمت عليهم أي قراءات أخرى. أما المسلمون، لعدم استطاعتهم الحصول على الكتابات اليهودية والمسيحية فقد درسوا - بجانب القرآن وتفسيره - الحكمة التي حصلوا عليها من المصادر الوثنية. استطاعوا دراسة الفلسفة الإغريقية واستمتعوا بها، ودرسوا الحساب والرياضيات والفلك ودرسوا الطب اليهودي. وبعد ثلاثمائة سنة، انتقلت صناعة الورق - بفضل الصليبيين إلى أيدي المسيحيين في اليونان وإيطاليا وإسبانيا ثم استطاع الألمان بعد ٢٠٠ سنة أخرى اختراع الطباعة. وصارت هذه الصناعة هي أم الصناعات للتعليم، ولكن ظل الاعتراض اللبني على دخول الطباعة وصناعة الورق قائماً حتى تم التغلب عليه في سنة ١٧٢٨ عندما دخلت صناعة الورق في تركيا العثمانية. من هنا جاء الفرق الشديد بين المسيحية وجهلها المظلم والإسلام الذي تمتع بضياء نور العلم. عمل الحكام المسلمون ووزرائهم على الاهتمام الشديد بالعلم والمعرفة. تعلموا العلوم ودرسوا الآداب ورسموا الرسوم وصوروا الصور. شجع هؤلاء الحكام والولاة العلماء على ترجمة النصوص الإغريقية إلى لغة الإسلام - اللغة العربية، بدأوا ينشئون الجامعات ومدارس العلم في كل بلاد المسلمين - من بخارى شرقاً إلى قرطبة غرباً، لنشر علوم الأقدمين بين المسلمين. كان هدفهم الحفاظ على المعرفة وزيادتها، وكان من آثار تلك السياسة استقطاب العلماء الإغريق والفرس واليهود إلى بلاد الإسلام والمعاونة في بناء الحضارة الإسلامية.

كان المسلمون الجدد مهجنين، ولذا كانوا مختلفين ومتكيفين - عند القمة. زدوا الجنس البشرى بأفراد ملائمين لمقابلة سرعة التغير. كان كل نشاط في الدولة يتم فحصه بعيون ناقدة من زاوية جديدة، وتشير الشواهد أن المنتصرين قد غيروا كل شيء إلى حد كبير. ويدلنا هذا إلى أن المنتصرين أنفسهم قد تغيروا. أوضح التغييرات التي حدثت لهم هي نظرتهم للبيان الطبقي. في أول الأمر كانت المساواة هي شعار يرفعونه على راياتهم وأن التمييز الطبقي ليس له موضع قدم في الإسلام، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لأفضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. لا يمكن استعباد المسلمين، والمسلمون ينبغي أن ينسوا سلسلة الأنساب السخيفة التي كانت تمارس في عهد الجاهلية وعبادة الأوثان قبل الإسلام. ولكن بمجرد فتح البلدان الجديدة وممارسة حكمها، بدأت أفكار جديدة تظهر في الأفق، وبدأنا نسمع أن المناصب العليا يجب أن يتولاها أبناء قبيلة قريش، وأن العرب أصلح من السوريين، وأن السابقين في الإسلام لهم الفضل عن الداخلين حديثاً في الدين. بعد قليل ضعف الخط الذي ينتسب مباشرة إلى محمد في حين قوى الأمويون، وتعمق الشق في الأمة عندما بدأ العرب والأجانب المسلمين يؤنون صلواتهم في مساجد مختلفة. كان الهدف من ثورة محمد إزالة الفوارق القديمة، الظالمة، القائمة على النسب، ولكن ككل الثورات ظهرت فوارق جديدة قائمة على العرق والأسرة. لتثبيت ملكهم، عمد العباسيون على محو تلك الفوارق الجديدة، ووجدوا أن عليهم أن يكتبوا التاريخ من جديد خاصة التاريخ الحديث وأن يعيدوا تأويل القرآن نفسه. ولكن بعد ثبات حكمهم، سمحوا للشكل الجديد أن ينوى. لم يسمع بتاتا لطبقة «الأسياء» الذين ينتسبون مباشرة إلى النبي، أن يتخلوا عن كونهم طبقة فوقية من النبلاء لهم احترامهم الخاص. ولما كان عددهم كبيراً، كان الولاء لهم ينبع من تقواهم، ولكن كان ادعائهم بأنهم من أحفاد محمد هو الذريعة التي اتخذها الفاطميون للاستيلاء على الحكم في مصر، ولادعاء الأشراف بأحقيتهم في الولاية في الحجاز وفي مراكش.

كانت محاربة الرق من أهم علامات المسلمين، وكان عتق الرقيق - كما قال رسول الله - هو أفضل ما يفعله المؤمن. ولكن العباسيين هم أول من تبين أن عتق الرقيق يسبب خسارة اقتصادية كبيرة لمن يملكون الرقيق، بدأوا يحتفظون بالعبيد والإماء المسلمين الأجانب ويعتقون نوى الأصل العربي فحسب. بالإضافة إلى ذلك بدأوا يتبعون العادة القديمة بالتفرقة بين أجناس العبيد المختلفة، فبدأوا يفرقون بين السود والبيض، وضح أثر ذلك في نشأة الرقيق العسكر. بدأ إطلاق اسم المملوك (جمعها المماليك) منذ عام ٨٢٠م على الأسرى التركمان في عهد العباسيين، وكانوا يستخدمونهم كحراس شخصيين. بدأ هؤلاء يفخرون بإطلاق اسم المماليك عليهم (لأن هذا كان يدل على كونهم من حرس الخليفة الحاكم)، مع ما في هذا من ميزات شخصية لهم. حدث هذا بشكل كبير في بغداد في

القرن الثاني عشر، كما حدث فى دلهى تحت حكم الغزنويين، وحدث فى القاهرة فى القرن الثالث عشر وأخيراً فى إسطنبول - فى الانكشارية - تحت الحكم العثمانى فى القرن السادس عشر. كان المماليك - فى مصر على سبيل المثال - من غير أبناء المسلمين، تم رحيلهم إلى مصر (أو الشام) وبيعهم بواسطة النحاسين إلى سلطان البلاد وهم ما يزالون صبية صفار. بعد حضورهم مباشرة يتم ختانهم ويعلمون الديانة الإسلامية باللغة العربية ثم يوضعون فى مدارس عسكرية ومدارس دينية تحت رعاية الخصيان. بعد انتهاء دراستهم يطلق سراهم ويعتقون من الرق ثم يدخلون فى خدمة السلطان، حسب كفاءتهم وتميزهم. فى أيام عزمهم، فى عصر المماليك الجراكسة، كان يتعين أن يكونوا من قبائل الكباشك فى الاستبس القوقازية، وكان من المحتم ألا يكونوا من أفريقيا أو من الزوج أو من المسلمين. كانت هذه الطبقة من العزاب، الشواذ جنسياً، وكانوا يستقدمون تباعاً من القوقاز من أصول متساوية رقيقة (من الضرورى ملاحظة وجوه الشبه والاختلاف بين المماليك وبين الإنكشارية). فى هذا المقام ينبغى أن ننوه بأن المسيحية كان لها نظام مشابه فى فرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا. كان هؤلاء الفرسان أيضاً من العزاب، الشواذ جنسياً، يمارسون اللواط، متساويين، من أصل نبيل ثابت لأربعة أجيال على الأقل، وكانت عسكريتهم مشهود بها (احتلال رودس ثم احتلال مالطا فيما بعد). أثبت المماليك مقدرتهم على حماية الإسلام من إغارات الصليبيين على مدى مئتى عام (وفى أواخر العصر الفاطمى وفى خلال حكم الأيوبيين). فى هذا الوقت شغل المماليك جميع المناصب الرفيعة فى الدولة، حتى وثبوا إلى الحكم وصاروا سلاطين الدولة. بعد هذا بدأوا يتزاوجون، ويتكاثر نسلهم، وينجبون ذرية لاتصلح للقيادة أو لتولى الحكم.

كان العبيد فى أسواق النخاسة يصنفون تبعا لقوميتهم ولونهم. كان مصير العبيد من الزوج مختلفا عن مصير المماليك، ولم يتم إدماجهم فى مجتمع المسلمين البيض. على مدى ثلاثة عشر قرناً، منذ الفتوح الإسلامية، تولى حكام من العرب أو البربر الحكم فى شمال إفريقيا. فى بعض الأماكن - كالسودان مثلاً - تزوجوا بحرية مع أهل البلد الأصليين من الزوج ونشأ عنهم جنس هجين. فى أماكن أخرى - مثل زنجبار، ولدرجة أقل بين الطوارق - ابتعدوا عن أهل البلاد، واتخذوا لأنفسهم زوجات من العرب (أو من البربر)، ولكن فى كل الحالات كان لهم عشيقات. من الزنجيات ونشأ بذلك جنس مختلط فى كل البلدان الأفريقية المسلمة. هذا وجه من الصورة، فى الوجه الآخر، تم ترحيل عدد هائل من الزوج من أفريقيا الإستوائية إلى شبه الجزيرة العربية ومصر وتركيا وبلاد فارس والمغرب، ولكن أثر هؤلاء فى اختلاط الأجناس كان ضئيلاً للغاية، بعكس ما حدث عندما رحل زوج أفريقيا إلى أمريكا فيما بعد فى زمن قصير. مما لاشك فيه أنه حدث اختلاط لدرجة ما بين العبيد الزوج وبين العرب، ويمكن ملاحظة آثار هذه الاختلاط من الجنس المهجن فى بعض القرى

العربية وفي شمال أفريقيا. ولكن، على العموم، كان يتم إخصاء العبد الزنجي، ولكن كان يتم أيضا، بدرجة أقل قتل الأطفال، والإجهاض، والشذوذ الجنسي (مع مماثل الجنس ومغاير الجنس). يثار التساؤل، كيف يمكن خلق طبقة من الشواذ جنسيا في مجتمع يبيح تعدد الزوجات! أولا تعدد الزوجات لم يكن متاحا في كل الأوقات، كان متاحا فقط عندما كان هناك أسيرات كثيرات من النساء، وثانيا ليس بمقدور أى شخص أن يكون لديه حريم بل اقتصر هذا التقليد على الأثرياء ونوى اليسار فحسب، وأخيرا سرعان ما تخلى المسلمون عن تعليمات القرآن، خاصة بين الطبقات العليا من المجتمع. أخصى العبيد والسود الذين حالما صاروا وزراء الملذات والمتع. عاد قتل إناث الأطفال، وسرعان ما استشرى الشذوذ الجنسي بكافة صورته وانتشر بالأخص بين علية القوم. فى شئون الزواج سادت تقاليد المجتمعات المهنية التى تعيش فى المدن من العالم القديم ووجدت طريقها للقوانين واللوائح الإسلامية. صمم المشرعون على أن المساواة يجب أن تسود عالم الزواج - حتى ولو غرض الطرف عنها فى سائر الأمور، وعلى المانورن الذى يتم عقد الزواج أن يتأكد أن الطرفين متعادلان من الناحية الاجتماعية ومتكافئان فى العرق والحسب والنسب وأن الإثنين من الأحرار أو من الرقيق. بهذا صار زواج الرجل من خارج محيط مجتمعه عسيرا، إذا لم يكن محالا، وظل الحال على هذا المنوال حتى عصرنا الحاضر. وهكذا سلم المجتمع - الذى تم اهتزازه من تأثير الفتوحات الإسلامية المتتالية ومن أثر الثورات المتتابعة - بأن يحافظ على استقراره الموروث بالتعليمات الدينية. هكذا نرى أن المغيرين الأجانب فى المجتمع الإسلامى الحديث قد توجهوا فى جنس واحد، متعدد الطبقات. فى باكستان انقسم المجتمع إلى طبقات تبعا للتقسيم الهندوكى - فى الجزائر وتونس انقسم الشعب إلى المتطرفين التقليديين الذين يتمسكون بالطوقس الدينية فى مقابل المتشبهين بالغربيين الأوروبيين. وينقسم الشعب إلى المالكيين (من القرن الثامن عشر) بينما يتمسك الحكام بالمذهب الحنفى (تبعا للتقليد العثمانى الموروث من القرن السادس عشر). بين هؤلاء، هناك جيوب من المتطرفين الذين دخلوا البلاد فى القرن الحادى عشر، وبعض العرب الوهابيين فى جربة، وأخيرا هناك بضع من السادة، الذين يرثون اللقب من حسبهم ونسبهم - وهم رجال دين يعيشون متطفلين على المجتمع فى الشرق والغرب.

التوسع السريع الذى حدث فى العالم الإسلامى (جنول ١٤) يمكن مقارنته بالبطء الشديد الذى حدث فى التوسع فى العالم المسيحى. إذا كان التوسع السريع فى العالم الإسلامى يعزى أحيانا إلى الفتوحات الحربية والانتصارات العسكرية فإن الحضارة الإسلامية الرفيعة والثقافة الباهرة لا يمكن أن يعزوها أحد للانتصارات الحربية. هذا البريق الذى خطف الأبصار وهز القلوب لاشك قد بنى على حضارات راقية سبقت ظهور الإسلام، وكل فضل الإسلام أنه أتاح لها الفرصة للظهور ومهد لها الجو

للمعان حتى خطف بريقها أولى الألباب. ظهرت الحضارة الإسلامية تباعاً في دمشق وبغداد، وفي قرطبة ومراكش، وفي إصفهان ودهلي، ونتاجت من اختلاط أعراق متعددة وامتزاج أصناف مختلفة من البشر في المجتمع الإسلامي. لم تنتج تلك الحضارات جميعها ممن اعتنقوا الإسلام، بل كان إسهام غير المسلمين ملحوظاً، أثمرته الحرية الدينية والسياسية والعقلية والفكرية التي أتاحتها الحكم الإسلامي. عندما انطفأ نور الحرية وشاع التسلط والكبت بطرد آخر المسمين من الأندلس، من غرناطة، ومنع الأتراك من دخول فينا وسقوط المغول في دهلي، أنطفأت شعلة التحرر الفكرى وعم الظلام على الحياة الفنية والسياسية، وتوقف المد الحضارى الإسلامى. وبدأ الاضمحلال يضرب أطنابه - بلا رجعة - في كل مكان من العالم الإسلامى.

جدول رقم (١٤)

تتابع الأحداث في العالم الإسلامى

<u>الإسـلام:</u>	
حوالى ١٥٠ ق.م.	الحميريون من الشرق يهزمون القبائل ويحكمون اليمن
حوالى ١٠٠ م	اليهود الذين شنتهم تيتوس بيدأون فى استعمار المدن على خط القوافل فى الجزيرة العربية
حوالى ٢٠٠	بداية التحول للمسيحية فى المجتمعات المدنية والبدوية
٣٠٠ - ٥٠٠	الصراع بين اليهود الحميريين والأحباش المسيحيين للسيطرة على اليمن
حوالى ٢٠٠	استيطان قريش فى مكة وتنظيم القوافل بين سوريا واليمن
حوالى ٤٠٠	تصدع سد مأرب ونقل عاصمة الحميريين إلى صنعاء
حوالى ٥٠٠	اليهود يذهبون المسيحيين فى نجران (شمالى اليمن)
٥٢٢	الأحباش يفرضون اليمن ويحتلونها بمساعدة الأسطول البيزنطى
٥٦٩	الأحباش يغيرون على مكة
٥٧٤ - ٥٩٧	الفرس يحررون اليمن ويعينون حاكماً من قبلهم.
<u>ظهور الإسلام:</u>	
٥٦٩	مواد محمد بمكة
٦١٠ - ٦١٢	اسلام أبى بكر والدعوة إلى الإسلام سرا
٦١٧	بعض المسلمين يهاجرون إلى الحبشة المسيحية
٦٢٢	هجرة محمد وصحابته من مكة إلى يثرب (مدينة رسول الله)
٦٢٣ - ٦٣٠	الصراع مع مكة
٦٢٤	غزوة بدر وقطع الطريق على قوافل المكين
٦٢٤	تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة
٦٢٧	غزوة الخندق
٦٢٨	محمد يفرض الجزية على يهود خيبر (ولا يقتلهم)
٦٢٨	يدعو هرقل وكسرى النجاشى للإسلام

٦٣٠	خضوع مكة لمحمد
٦٣٢	وفاة محمد ودفنه بالمدينة المنورة
	<u>الخلفاء الراشدين والتوسع الإسلامى:</u>
٦٣٤ - ٦٣٢	أبو بكر - حرب الردة
٦٤٤ - ٦٣٤	عمر - المصلح الأكبر فى الإسلام، من مركز حكمه بالمدينة ينفذ أحكام القرآن وتسود العدالة المطلقة امبراطوريته، يطرد اليهود من خيبر والمسيحيين من اليمن
٦٣٨ - ٦٣٢	الفتوحات الإسلامية - سوريا
٦٣٩	ويعين معاوية واليا على دمشق
	العراق ٦٣٧ - ٦٣٩، ينشأ الكوفة
	مصر ٦٤٠ - ٦٤١، ينشأ القسطنطينية
٦٤١	الاستيلاء على بابل وپرسبوليس (اصطخر)
٦٤٢	نهاية الإمبراطورية الساسانية
	<u>عثمان</u>
٦٤٩	فتح جزيرة قبرص
	<u>علي</u>
٦٥٨ - ٦٥٦	نقل العاصمة إلى الكوفة
٦٥٧	اشتعال الحروب الأهلية
	<u>الدولة الأموية:</u>
٦٨٠ - ٦٥٨	معاوية ينشأ الدولة الأموية ويتولى الحكم من دمشق
٦٧٤ - ٦٦٩	المسلمون يصلون عن القسطنطينية مرتين
٦٧٠	إنشاء القيروان بتونس
٧٦٣	المسلمون يصلون إلى الأكسس والسند
٧٠٥ - ٦٨٥	<u>عبد الملك</u>
	تصك النقود باللغة العربية وتصير اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة
٦٩٣	محل الإغريقية والفارسية
٧١٥ - ٧٠٥	<u>الوليد</u>
٧١٢ - ٧١٠	فتح إسبانيا بجيش من المسلمين (غالبية من البربر)
	المسلمون يصلون عند بواتيه بواسطة شارل مارتل ولكنهم يحتفظون
٧٣٢	بناربون

بفضل محمد خلق العرب أمما كثيرة، ولكنهم أفسدوا شعبهم. بفضل فتوحاتهم أثرى العالم بالحضارة الإسلامية وعم النور كافة أنحاء الدنيا، ولكن الجزيرة العربية افتقدت خيرة الرجال الذين نشروا الثقافة والحضارة فى ربوع العالم. بعد الهجرة السريعة لرجال العرب، افتقر الحجاز لخيرة الرجال. أفتى الخليفة عمر أن وجود يهود فى خيبر ونصارى فى نجران يعد سبة لذكرى الرسول، وينبغى طردهم جميعا من جزيرة العرب، ويجب ألا يستمر تلوينهم للأرض العربية؛ وبهذا لم يتقيد بروح التسامح النبوى الذى أتى به محمد وأعاد صفة الخشية من الأجانب وتجنبهم للعرب. ولكن استمرت العوانى فى جنوب الجزيرة العربية وفى شرقها ترسل الرجال تباعا ليجوبوا المحيط الهندى للتجارة والاستقرار - كما مازالوا يفعلون إلى الآن - فى شرق أفريقيا وفى غرب شبه الجزيرة الهندية وفى الملايو وفى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) وأنشأوا حضارات فى تلك البلاد التى اعتنقت الإسلام، خارج شبه الجزيرة العربية، أما فى جزيرة العرب نفسها فلم يتبق شىء؛ إلا المسلمين القاطنين المؤمنين الذين بعدوا عن الاختلاط بكافة شعوب الأرض مع الحجاج القاصدين إلى مكة (وإلى المدينة للزيارة)، ولم يبق منهم إلا الذين أتوا ليموتوا فى الأراضى الحجازية وليدفنوا فى ثراها. مع الفقر فى الرجال حدث فقر تديجى فى الموارد الطبيعية: فى الطقس وفى التربة، مما دفع الناس - إلا فى مصر - للهجرة بعيدا عن الشرق الأدنى. ساد الجفاف، وأتت حيوانات الرعى على الأخضر واليابس، ودمرت الحروب - الخارجية والداخلية - البلاد، وسادت الفوضى كل مكان، وعم سوء الإدارة والتنظيم بلاد العرب، واستقر الأقوام فى بلادهم، وامتنع بذلك الاختلاط والتهجين مع ما يحويه من ميزات وراثية جلية. بأمر من الخليفة أغلقت الجزيرة العربية على سكانها وطهرت من الأعراب عنها وبقيت هكذا إلى أبد الأبدين. وبالتدريج، من وفود أقوام آخرين من الشعوب الرعاة، من الترك والمغول، استمرت الأرض عديمة الزراعة وزادت الأرض الجرداء تباعا وامتدت الصحارى والخلاء إلى كل المناطق الجافة المحيطة بالجزيرة العربية. لم يتسبب التوالد الداخلى فى أرض العرب فى الوحدة. تفرقت القبائل بعد حين وعادت لطلباعها القبلية وتمسكت كل قبيلة بوحدتها وعاد الجنس العربى إلى حالته الأولى - أتقى أجناس الأرض. عاد العرب للتمسك بالأنساب والأعراف - التى بددها الإسلام إلى حين، «ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى». حقيقة، ظهرت حركات متبالية، بين حين وآخر، تدعو للعودة إلى دين الحق والتمسك بأقوال الرسول وأفعاله. ظهر الكامارتيون فى القرن التاسع والوهابيون فى القرن الثامن عشر، يدعون إلى الأصولية ونبذ البدع المستجدة. وحدثت تلك الدعاوى بين مختلف القبائل فى جماعات كبيرة، ولكنها بدأت حروبا بين من اعتنق الأصولية ومن رفضها. قامت حروب عدة فى أنحاء الجزيرة العربية واشتعلت كل الجزيرة. فقد بدأ جيش من المتطرفين فى القرن العاشر حربا شعواء واستولى على الحجر الأسود من الكعبة فى

مكة وانقطع سيل الحجاج عن تلك المدينة. استطاع جيش آخر من الخوارج بمعاونة الخليفة الفاطمي من القاهرة تدمير بلاد المغرب في القرن الحادى عشر والسيطرة على المدن الثائرة، التى تحولت تباعا إلى أراضى صحراوية بعد استزراعها. ولكن هؤلاء الأتوام، رغم الدمار الذى تسببوا فيه، امتزجوا بأهل البلاد ونتاج عنهم جنس هجين فريد فى شجاعته وإقدامه ونتاج منهم أصحاب الحوانيت والتجار - خاصة البقالين - فى الجزائر الحالية. لم تظهر علامات النبوغ على أولئك الأتوام الذين ظلوا محبوسين فى الجزيرة العربية، فقد ارتدوا إلى جهالة وتخلف، ولم يخرجوا منها حتى عصرنا الحاضر.

ثالثا : الهندوسية

الهندوسية ليست دينا عالميا، وهي تختلف اختلافا جذريا عن المسيحية والإسلام. الهندوسية دين خلق عالما خاصا به - مثل اليهودية، ولكنه عالم ذو مغزى لكل بنى البشر لأنه جمع الدين والمجتمع فى عالم واحد متطور للأمام دائما. لكى نفهم هذا العالم ينبغي علينا أن نعود للوراء خمسة آلاف عام، إلى بدايته ونخترق غموضه وأسراره لنعرف بداية وتطور وكنه المجتمع الهندى.

فى الألف سنة الرابعة قبل الميلاد لم تكن الثورة الزراعية قد وصلت إلى الهند. فى ذلك الحين قطنت البلاد قبائل باليوليثية من صائدى الحيوانات وجامعى الغذاء. قطن الهند فى ذلك الزمان السحيق مجموعات من البشر، شديدة الاختلاف عن بعضها البعض فى سلوكها وفى لغاتها. أغلبهم كان ذو بشرة داكنة ولكن كانت بينهم أيضا قبائل ذات بشرة فاتحة اللون أتوا من الشمال الغربى، وخاصة قبائل منغولية بلغاتها، ومازال هؤلاء يعيشون حتى عصرنا الحالى فى الشمال الشرقى من البلاد. دخل هذا المجتمع الباليوليثى، فى الألف سة الرابعة قبل الميلاد، قبائل من الزراع دخلوا البلاد من الغرب، وتوسعوا حثيثا فيها. عبروا البلاد بين ممر خيبر وساحل البحر إلى نهر السند، وأحدثوا فى الممرات التى سلكوها، دمارا شديدا، وصارت لاتصلح للزراعة حتى أيامنا هذه. استقر هؤلاء فى الهند وتناسلوا مع أهلها ونشأ بينهم جنس هجين، فقد لسانه الأسمى، ونشأ منهم جنس جديد من زراع الأرض. حمل هؤلاء الأقوام معهم القمح والشعير وزرعوه فى وادى السند، واستأنسوا البقر الوحشى ذو السنام الذى وجدوه هناك، ونشروا الرعى، وفى أثره الزراعة، فى شبه القارة الهندية. بالإضافة إلى هؤلاء الأقوام الذين غزوا الهند، حل فى الساحل مستكشفون وغزاة من سوماريا ومن الشواطىء العربية الشمالية خطوة بعد خطوة، وقرن بعد قرن حتى وصلوا أخيرا إلى مصب نهر السند. تشبه هذه الأقوام أولئك الذين حلوا فيما بعد على شواطىء أوروبا، وجاء فى مقدمتهم التجار والملاحون. أدخل الغزاة الجدد الكهانة والهندسة ومسح الأراضى والبناء والرعى إلى بلاد الهند، كما أدخلوا أيضا القانون والكتابة والطقوس السحرية وعبادة البقر. فى نفس الوقت علموا وأولجوا ومنحوا مزارعى وادى نهر السند مبادئ الحضارة وأصول المدنية. بهذا انتقلت الحضارة السومرية، خلال حوالى خمسمائة عام من الهجرة، إلى ضفاف نهر السند وغيره من أنهار الهند. بهذا انتقل إلى الهند أشهر وأهم محصولين زراعيين: القطن والسمسم من أفريقيا عبر البلاد العربية.

بهذا صار وادى الهند أشهر مكان لتأقلم مزروعات المناطق الحارة فى العالم. بنى هؤلاء القوم عديدا من المدن الهندية خلال آلاف السنين التى عاشتها الحضارة السندية التى تبعت استقرارهم فى ذلك المكان. تم تدمير تلك الأماكن فيما بعد من أثر الغزاة التالين أو من الفيضانات أو من تأثير الزلازل، أو بفعل هذه العوامل جميعها. ولكن الثابت أن تلك الحضارة كانت حضارة مستقرة، تتكون من طبقات من المزارعين والصناع ورجال الدين، كما كانت حضارات الهند التالية القائمة على نظام الطوائف الاجتماعية والمنفصلة على نفسها. وخلال تواجد حضارة الهند هذه كانت محمية من غزو الأجانب ومن الاضطرابات الداخلية. استمرت التجارة مع سومر، وكان النجاح الاقتصادى الأمن لأهالى الهند دافعا لهم لعدم تطوير حضارتهم ذاتها بعد تبعيتهم للإمبراطورية البابلية. دمر أهل الهند - مثلهم مثل السومريين - أساس كيانههم بإزالة الغابات التى كانت العامل فى تلطيف الجو وفى حمايتهم من الفيضانات المدمرة. استمر الرعى الغزير للماشية فى امتداد الصحارى فى الهند وفى الجفاف الموسمى لكثير من الأنهار. كان دخول الغزاة من الجنس الآري إلى أرض الجزيرة فى بلاد سبق لها اعتناق الحضارة عاملا على تخفيف الدمار وعلى امتصاصهم فى المدن التى هاجموا. أما فى وادى الهند فقد دمروا المدن ودمروا طرق رى الأراضى الزراعية، ولم تقم بعد هذا الدمار للبلاد أى قائمة، واضطر الأهالى للهجرة جنوبا وشرقا فى الجزرات وفى وادى نهر الجانج، حيث تقدمت طرق الزراعة البدائية حديثا.

وفد إلى الهند فى ذلك الزمان الغزاة الذين أتوا معهم بالماشية والمحاصيل والأدوات والأسلحة المصنوعة من البرونز. ووفد معهم كهنتهم وألهمهم وشعرهم الملحمى والأساطير الشعرية الآرية. كان معهم الأهالى الذين أزيحوا من أماكنهم ومع صناعاتهم الذين يصنعون مصنوعاتهم بطرز موهلة فى القدم ولايستطيعون إتقانها بعد هجرتهم (كما أصبحوا لا يتقنون الكتابة)، ولكن مصنوعاتهم تقف على قدم المساواة لمصنوعات الغزاة الآريين وتستطيع منافستها، كما كان كهنتهم ينافسون كهنة الآريين، بل ويتفوقون عليهم، لفهم نظام الطوائف الاجتماعية الذى بنى عليه أساس العقيدة الهندية، مما لم يستطع الآريون تفهمه. كان باستطاعتهم قيادة المجتمع المبنى على أساس طائفى طبقى مع استخدام القوانين الاجتماعية والتعليمات الدينية والطقوس السحرية. كان معهم أخيرا باكورة المزارعين المتقدمين والرعاة الموهوبين الذين اخترقوا الغابات خلال طرق بدعوها وسبل سلكوها واختلطوا بأهل الغابات الأصليين. كان هؤلاء قد سبق لهم استئناس الدخن الهندى وزراعته بطريقة بدائية فى دلتا نهر الجانج وتبعوه بزراعة الأرز، الذى صار المحصول الأول لغذاء سكان شرق آسيا. كما سبق لتلك الأقاليم استئناس الجاموس الذى صار يستخدم فيما بعد للقيام بالأعمال الشاقة فى جميع أنحاء المناطق الحارة فى العالم.

نشأ وسط هذا الجمع طائفة كان لها أثر عظيم في تطور الحياة الإنسانية في العالم أجمع، طائفة عبدة اليقر، التي تحرم القتل وتعتمد في غذائها على النباتات فحسب، تلك الطائفة التي أنتجت الهند التي نعرفها حتى عصرنا الحالي. في هذا الخضم أمن الناس يتزواج آلهة الآريين وآلهة الدرافيديين من الذكور والإناث (كما يتم التزاوج بين بنى البشر). من تزواج الآلهة نشأت طبقة البراهميين، أرقى طوائف المجتمع، الذين يحتكرون أعمال الكهنة ومنهم نون غيرهم رجال الدين. من هؤلاء نبعت عقيدة تقمص الأرواح واستغلال الخشية من التلوث والنظرية المقدسة بتفريق الطوائف وقوانين مانو. من البراهمية نشأت اليانية (بين هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك) والبوذية (ديانة في آسيا الشرقية والوسطى تقول بأن الألم جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة وأن باستطاعة المرء الخلاص منه بالتطهر الذاتي العقلي والأخلاقي)، وآخرين من خارج طبقة الكهنة الجديدة. السبب في تقسيم أهل الهند إلى طوائف يعلو بعضها بعضاً قد يعود إلى التفرقة العنصرية، التي تظهر واضحة بين قبائل الهنود البدائيين، وتعود أيضاً إلى لون البشرة، وقد تكون بدايتها قد حدثت في السند عندما لاقت أقلية من البيض أغلبية من السود لأول مرة في المجتمعات المدنية. قد تكون الطبقات المختلفة قد نشأت في الهند من تعدد الزوجات (والأنواع)، فبينما جافقت طبقة على نقائها العرقى، حدثت اختلاطات كبرى، متعددة بين باقى طبقات المجتمع مما نشأ منه تعدد الطوائف. من أهم الفروق التي ظهرت في المجتمع الهندي هو الانفصال شبه التام بين طبقة المحاربين وطبقة رجال الدين. هناك فروق جذرية في طبائعهم واهتماماتهم وأهدافهم، نفس التعارض، نفس القطبية، نفس التناقض الكامل، نفس علاقة المحبة والكراهية، التي سيطرت على تاريخ أوروبا، ولكنها أخذت في الهند مظهر الطائفية التطبيقية.

بعد غزو الآريين نشأ في الهند ما نسميه بالألب السانسكريتى، أدب تناقلته الأفواه لزمان طويل قبل أن تتم كتابته، حيث أن الآريين فضلوا إنشاد شعرهم الملحمى بدلا من كتابته. (أقنع سير وليم جونز بعض البراهميين غير المتدينين في كلكتا حوالى سنة ١٧٩٠ بكتابة الفيدا الهندية «كتب الهندوس الدينية الأربعة» لأول مرة، مع بعض تفسيراتها). تاريخ تلك الكتب الدينية غير معروف بدقة (يعكس الكتاب المقدس العبرى) ولكنه يقع في نفس المرحلة الزمنية، في الألف سنة السابقة لميلاد المسيح، فالعظمت الهندوسية تسبق بلاشك الرفض البوذى لنظام الطبقات الهندوسية الذي جاء في القرن السادس قبل الميلاد، ولكن القوانين التي حكمت النظام الطبقي الهندوسى، المسماة بقوانين مانو جاءت بعد الرفض البوذى، في القرن الثالث قبل الميلاد. نشأت تلك القوانين، مثل البوذية نفسها، من وسط وادى نهر الجانج وكان هدفها قطع الطريق على الجدل الذى أثارته البوذية عن تركيب المجتمع. وضع دستور مانو قواعد للزواج والتوالد في الهند (كما وضع اللاويون والمنايون

بتثنية الاشتراع لدى اليهود فى عهد سابق). وضعت تلك القوانين بدقة متناهية لم يسبق لها مثيل وحدد بذلك نمط تطور المجتمع الهندى. بالاختصار هناك خمسة بنود لتلك القوانين:

- يمنع منعاً باتاً إتيان الأشقاء والأقارب الأقربين (الزواج منهم أو الجماع معهم).
- تحدد بدقة جميع أنواع الحرف وكافة أصناف المهن وتكون وراثية.
- يقسم الناس - تبعاً لمهنتهم إلى طوائف، يعلو بعضها بعضاً.
- توضع قواعد للنظافة تمنع أعضاء طائفة عليا من تناول الطعام مع طائفة أدنى منها.
- وهكذا يتعين التوالد بين أبناء كل طائفة على حدة ويمتنع الزواج بين مختلف الطوائف والطبقات.

وهكذا يحدد البند الأول قانون الامتناع التام عن الإستيلاء الداخلى، وتحدد البنود الأربعة التالية القوانين العادات والتقاليد التى ينبغى على الهنود الالتزام بها ليقبل لدرجة كبيرة الإستيلاء الخارجى الذى ينبغى أن يقتصر على أفراد كل طبقة بعينها. وهكذا يمتنع تماماً غشيان المحارم وسفاح القربى والاتصال الجنىسى بين من تحرم الشريعة الزواج بينهم من نوى القربى التى كان مسموحاً به من قبل فى المجتمع الهندى وتزيد عليها. فالزواج محرم على الزوجين اللذين يتشاركان فى الأسلاف (سبعة من جهة الزوج وخمسة من جهة الزوجة)، أو بالأحرى يمتنع زواج الأقارب كلية. مثل كاثوليك أوروبا لم يمكن الالتزام بهذا المبدأ إلا فى العائلات المالكة، وحتى بين هؤلاء لم يمكن فرض هذا المبدأ عليهم. ولكن ظلت التقاليد الموروثة والأعراف المتبعة تمنع زواج الأقارب. كان تحديد المهن أكثر فاعلية فى الحفاظ على طبقة الشخص لأنه اتبع نفس عادات الشعب وتقاليده وحافظ على ثبات النظام التى ارتضاها غالبية الناس وكان فعالاً لأنه ربط بين الطقوس الأسطورية والمهن المختلفة. كان لكل مهنة (إلا أديانها) أهميتها المقدسة وأصلها العاطفى مما جعلها غزيرة فى الثقافة الهندية وصارت مستمرة بعمل الوراثة. أساس هذا المبدأ أن المجتمع يتكون من مجموعات أربعة أو ألوان أربعة، «الفارنا»، وهى نفس الألوان التى استعملت من قبل منذ ألفى عام فى مصر (وهذه نقطة توحد أخرى بين الثقافات والأعراق المختلفة). المجموعات الأربعة هى:

- براهمين : وهم رجال الدين والمعلمون (ولونهم الأبيض).
- كاشتاريا : وهم الحكام والمحاربون (ولونهم الأحمر).
- فايشيا : وهم العوام من الفلاحين والتجار (ولونهم الأصفر).
- سودرا : وهم الخدم والعبيد (ولونهم الأسود).

وكانت الطبقات العليا تُستهل بالخیوط المقدسة رمزا لأنهم قد ولدوا مرتين. يمكن لأفراد كل مجموعة تناول الطعام مع أفراد من ذات المجموعة ويمكنهم التلاقى والاختلاط والتحدث مع بعضهم البعض. لا يمكن لأفراد من خارج مجتمع الهندوس السليم أن يختلطوا بهم خشية تلويثهم. الأفراد الخارجين عن مجتمع الهندوس كانوا يدعون «بارياه» أو المنبوذين (أو الطبقات الخارجة عن المجتمع الذين يتمتع مسهم أو «الهاريجان»). ينبغي على هؤلاء المعيشة خارج أسوار القرى، مثلهم في هذا مثل المصابين بالبرص (أو الجدام) في أوروبا في العصور الوسطى، ويحملون أجراسا لتحذير الأناث المحترمين من اقترابهم. كان بعضهم يحمل مباحق لتفادي تلويث الطرق. وفي بعض مناطق جنوب الهند كان يتمتع رؤيتهم كما يتمتع على الناس لمسهم، ويخرجون من مساكنهم في الفجر قبل الشروق. من بين قوانين الفارنا وضعت القواعد التي تحكم العلاقات الاجتماعية المختلفة بين مختلف الطوائف. يسمح للبراهمين أن يقتل فردا من طائفة السودرا ثمنا لقطة والعكس ليس صحيحا بل يستوجب العقاب الصارم الأبدى في الحال. أنواع السلوك هذه تشابه ما كان يجري في أوروبا في عصور الإقطاع ولكن الخلاف يكمن في أن الهند يتقبلون هذه القواعد برضا ويخضعون للقوانين المنظمة لحياتهم بقبول (أما الأوروبيون فقد ثاروا عليها حتى تم إلغاؤها تدريجيا). دأب الهند منذ عهد مانو على تشديد تلك القواعد تباعا أما المجتمعات الأوروبية فقد دأبت على رفضها والثورة على حكامها. وقد عمل عاملان على تشديد نظام الطوائف الطبقي وزيادته، أولاها هو التهيب الغريزي والخرافي من تناول الطعام مع من لا تعرفهم ورفض السماح للأجانب عن القبيلة بالدخول فيها ورفع الكلفة والحواجز معها التي تميزت بها القبائل في الهند (وفي كل مكان)، وقد فضل الهندو التجمع في مجموعات محدودة دائمة، فالهند بلد شديد الاتساع في المنطقة شديدة الحرارة من العالم، شديد الازدحام بالبشر، وتنتشر فيه الأمراض المعدية بكل سهولة. في الهند تتاح الفرصة للبقاء على قيد الحياة لمن كان اختلاطهم بالناس قليلا، خاصة في أمور الأكل والشرب (والجماع). السبب الثاني لتعظيم اختلاف الطوائف والطبقات يكمن في الفلسفة الدينية القائمة على تناسخ الأرواح التي بدعها البراهاميون. كان البراهاميون يقعون في قمة المجتمع، وقد بدعوا مبدأ «كارما» الذي يقضى بأن لكل عمل جزاءه، وأنهم حصلوا على هذا المركز الرفيع لأن أرواحهم استحققت ذلك المركز من حسن أفعالهم في حياة سابقة. وعد هذا المبدأ من ينتمى إلى طبقة «سودرا» أن روحه ستعلو حتما وتتقمص جسد «براهاما» إذا حسنت أفعاله وإلا استهبط في السلم الاجتماعي وتسكن في جسد أحد المنبوذين. ربما يكون هذا المبدأ جاء للهند من بلاد فارس، التي بدعت مبدأ الجنة والنار، ذلك المبدأ الذي انتشر غربا وحل في ثقافات الشرق الأوسط وأوروبا، بينما انتشر شرقا إلى الهند في صور الطوائف الطبقية. عمل هذا المبدأ على تفسير عدم المساواة الحالية بين بنى البشر، كما عمل على

الإبقاء على عدم المساواة بينهم في المستقبل؛ فقد وعد الصابرون، خاصة الذين يتحملون الصعاب بصبر شديد، بالمكافأة والثواب في مستقبل أيامهم!

تطور النظام الطائفي الطبقي في الهند بالاستيعاب والقبول، وبالغزو وبالثورة. كان من المحتم فصل النساء من الطبقات العليا عن الاختلاط برجال من طبقة أدنى، وحكمت قوانين مانو بالموت على الاتصال الذي يتم بين امرأة من طبقة عليا ورجل من طبقة أقل. أما إذا حدث اتصال بين رجل من طبقة عليا مع امرأة من طبقة أقل فإن الجرم يمكن غفرانه بالاعتساف. وهكذا تتم التفرقة في المعاملة بين الرجال والنساء حتى عصرنا الحاضر. للاحتفاظ بالنظام الطبقي في الهند تم ابتداء أمرين: الأول هو زواج الأطفال قبل سن البلوغ والثاني يسمى «بوردا»، وهو فصل النساء بعد الزواج. وكلما ارتفعت طبقة النساء في المجتمع كلما إزداد ويتم فصلهن تماما بعد الزواج، وكلما أرادت طائفة رفع طبقتها الاجتماعية، كلما انقصت من سن زواج البنات حتى سن الطفولة. كذلك يمنع بتاتا زواج الأرامل من النساء حتى ولو كن في سن الزهور (بل كان يتم حرق الزوجات بعد موت أزواجهن حتى منع الإستعمار البريطاني هذا التقليد الديني والاجتماعي في الهند). وهكذا تحولت نساء الهند إلى ضحايا للتفرقة الطبقية، وكانت حرية مزاوله الجنس قاصرة على طبقة المنبوذين من النساء، التي لايمكن لهن السقوط إلى طبقة أدنى في المرتبة الاجتماعية. سمحت الأحوال الإقتصادية بتعدد الزوجات للرجال الأثرياء وسمح النظام الذي يقضى بمعاشره النساء من طبقة أدنى بالحرية الجنسية للرجال الفقراء. وقضت التقاليد بين الهنود، الهنوس والمسلمين على السواء، أن الرجل من طبقة دنيا إذا منح أخته لرجل من طبقة أعلى يستظل بحمايته ويتمتع برعايته (وتكون هذه الشقيقة بمثابة المنحة التي يتمتع بها الرجل الرفيع، كما كان لوردات ونبلاء أوروبا الإقطاعيين معتادون عليه في إقطاعياتهم). تمتع بتعدد الزوجات في الهند، كما حدث في بقية أنحاء العالم، الغزاة الفاتحون، وزادت بهذه الوسيلة نريتهم وتضاعف أبنائهم وأحفادهم ونسلهم، على حساب المواطنين الأصليين من أصحاب البلاد.

من ضمن البراهاميين والراجبوتيين توجد جماعات تعرف باسم «جوترا»، يدعى كل منهم أنه ينتسب لرجل واحد، ولكن - بين البراهاميين أنفسهم - تختلف أعمالهم، وبالتالي طبقاتهم، ويعلو بعضهم فوق بعض. يتزوج الرجال من نساء تنقل عنهم في الدرجة، قد يصل عدد الزوجات للرجل الواحد في القمة إلى ستين زوجة، أما النسوة فلايحق لهن الزواج من رجل دون طبقتهن، ولذا تتخلف كثيرات من نسوة الطبقة العليا عن إيجاد زوج يحق له الزواج مها، لولا قبول عدد من الرجال بالزواج من زوجة إضافية نظير ما تدفعه له من أجر. تنقل درجة الراجبوتيين تباعا كلما انتقلنا من الغرب إلى الشرق، وتزداد لون بشرتهم سمرة كلما رحلنا شرقا، لإزدیاد العناصر الوراثية السوداء في دمائهم من اختلاطهم بقبائل شديدة السمرة التي حدثت في الألف سنة الأولى بعد الميلاد، وقد نتج عن هذا

أن الرجال يتجهون شرقا والنساء يتجهن غربا للزواج. وهكذا يتناسل الهنود بالإستيلاذ الخارجى ويزداد هذا الإستيلاذ الخارجى تباعا ويتكاثر عدد الهنود بإطراد. بين الجوترا يباح التزاوج من داخل الجوترا وليس من خارجها، الزواج المحرم الوحيد هو بين الأقارب. أما فى الطبقات الدنيا فلا توجد حدود مطلقا للزواج والتناسل.

حرصت قوانين مانو ورفعه البراهامين على الحفاظ على الإستقرار التام داخل المجتمع، ولكن اهتز هذا الإستقرار بعنف لقرنين من الزمان بغزو المغول، واهتز ثانيا برفق لقرنين آخرين بعد ذلك بالغزو البريطانى. بدخول الكتابة الأوروبية وحلول الثقافة والعلم الغربيين إلى الهند حدث قدر من التنفس للبراهامين، وصار الإنجليز أنفسهم يكونون طبقة أخرى فى هذا النظام المعقد المتسامح. لم تنعم الهند بتاتا بالإستقرار التام فقد تعرضت الجماهير، كما تعرض المجتمع وتعرض الدين لعدوان من الداخل ومن الخارج. كان على المجتمع إدماج القبائل التى تقطن التلال واستيعابها، وقد استمر هذا التمثل على مدى ٣٠٠٠ سنة ببطء، كما حدث فى بلاد الصين - بدون التقسيم إلى طبقات - فى نفس المدة. كلما تمثل المجتمع قبيلة بدائية حولها إلى طبقات، ومازلنا نلاحظ كل خطوات هذه العملية. زادت عملية الإستيعاب هذه من حجم الطبقات الدنيا، خاصة طبقة المنبوذين. بداية تلك الطبقة كانت إضافة للمجتمع الهندى، إما من بقايا الثوار القدامى أو من الداخلين الجدد البدائين على المجتمع. بانضمامهم إلى المجتمع الهندى فى تلك الطبقة يكون نصفه داخل المجتمع ونصف خارجه، وهذه الطبقة حاليا تكون سدس مجموع الهنود. من عوامل عدم استقرار المجتمع الهندى الغزو المتكرر للهند من المحاريين من الشمال. أولا جاءت موجات متتالية من الأريين فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد، ثم وفد الفرس فالإغريق والسكيثيون ثم الهن، وأضاف كل من هؤلاء إلى طبقة المحاريين. أبرز تلك الجماعات كانت جماعة كشاتريا، مع حلفائهم من الهن ومن السكيثيين صابروا فى القرن السابع بعد الميلاد يعرفون باسم «أمراء الراجيوت» وقد كان هؤلاء عامل عدم استقرار فى تاريخ الهند. استمر الخلاف الذى ظهر فى العصر البوذى. كان بوذا من طبقة المحاريين وكان تبشيره هو إزالة الحواجز من طبقات المجتمع المختلفة وعدم اقتصار كل طبقة على مهنة بعينها، وبهذه الدعوة يحرم البراهميين من مركزهم الاجتماعى وامتيازاتهم الإقتصادية. انتصرت البوذية فى الهند لعدة قرون، القرون التى انتشرت فيها بعثاتها التبشيرية لنشر معتقداتها ونشر الحضارة الهندية فى منغوليا وبلاد التبت والصين واليابان وكذلك فى سيلان وبورما وسيام وبقية الهند الصينية، فى كل الأماكن المختلفة حول الهند والتى لم يثبت فيها بعد نظام الطبقات. فى الهند ذاتها تحت حكم أسوكا كاد أن يتحطم النظام الطبقي بالزواج المتبادل. كان أسوكا نفسه حفيد امرأة من الطبقات الدنيا. تحول كثير من الطبقات الدنيا إلى البوذية، لتحسين أحوالهم. ولكن بعد حين استعادت طبقة

البراهمين - طبقة الكهنة ورجال الدين - مركزها الرفيع وأخمدت معتقدات البوذيين - وليس أصنامهم. وتكونت طبقة للبوذيين (على خلاف ما تقضى به المعتقدات الهندية) ونزلت للمراتب الدنيا، وتفرعت إلى عدة طبقات وبقيت إلى عصرنا الحاضر. كان رفض نظام الطبقات الهندى - الذى نادى به البوذيون - مقبولا فى كافة أنحاء آسيا، وكان أبرز حركات الإصلاح التى حدثت. قبل ذلك بألف عام، قبل الغزو الأرى سجل الجينيون عدم رضاهم عن خرافات البراهميين وعن سيطرتهم على المجتمع. كان هؤلاء أقوام من أهل التجارة ومن المتنورين وقد يعودون فى أصلهم إلى بلاد السند وليس إلى غزاة متبربرين؛ بعد حوالى ألفى سنة نشأت طائفة السيخ وقطعوا روابطهم مع الهندوس. وقد فشل كل من هاذين النظامين فى اقتلاع النظام الهندوسى. كون كل نظام منهما أقلية منفصلة عن النظام الهندوسى الذى يتبعه أغلبية الهنود، ولكن كون السيخ تدريجيا - بالإستيلاء الداخلى - مجتمعا جديدا، صار طبقة جديدة، تتميز بمهن متخصصة، داخل المجتمع الهندى الكبير فى النهاية. عندما تغلب المسلمون على الهند، كانت الطبقة أيضا هى محور الصراع. تحرر كثير من أمراء الهنود من قيود البراهميين، واجتذب الدين الذى لايفرق بين الطبقات إليه كثير من الهنود الأذلاء، ولذا استمر الإسلام يعيش إلى عصرنا الحاضر قويا فى جزء كبير من شبه القارة الهندية، واستثمر هذا الشق فى تقسيم البلاد سياسيا بين الهندوس والمسلمين.

متى تم وضع قوانين للاستيلاء وتم تطبيق تلك القوانين بحزم، تمسك بها الجميع وتبدل المجتمع طبقا لتلك القواعد والتزام الجميع وتكيفوا مع وضعهم فى المجتمع وحرفهم والمهن الى امتهنوها وانقسم المجتمع تبعا لتلك التقسيمات وحافظت كل طبقة على وضعها، حتى عندما انعدم السبب الذى من أجله وضعت تلك التقسيمات. تغلغت قوانين الزواج عميقة فى كل عائلة وانتقلت من جيل إلى جيل واكتسبت مزيدا من القوة كلما مضى بها الزمن. من بين طبقة عمال المعادن انقسم الناس إلى صانعو النحاس الأحمر والنحاس الأصفر وعمال الحديد. تخصص الجوحى فى أسام فى تربية بود الحرير وفى غزل الحرير. استمرت طبقة الشحاذين تعتبر من المنبوذين لقدارتم البالغة لأنهم اقتصوا بأكل القمامة وجيف البشر، بينما استمرت طبقة الطوائف تمتهن عزف الموسيقى والقوادة بينما عملت بناتهن كراقصات وغانيات. طائفة البياتى تحرق الجير وتنسج الكلمة وتؤلف الموسيقى، بينما تعمل طائفة الكهار كحمالين وبوابين وخدم فى المنازل كما يعملون فى مهن تتعلق بالماء كصيادى سمك وحافرى آبار ومريين لنمل الماء. استمرت تلك المهن تتوارث على مر الأجيال بالاستيلاء الداخلى الذى طبع المجتمع الهندى. ولكن كل قبيلة أيضا، بعد تحولها إلى طائفة مهنية معينة قلت أمامها فرص العمل فى حرفة أخرى أو امتهان مهنة مغايرة لما نشأت عليه، وتشابهت فى هذا الشأن مع مجتمعات العجر الرحل الذين ارتحلوا عبر أوروبا فيما تلى تلك من العصور.

أثبت التعداد الذى أجرى فى الهند عام ١٩٤١ أن هناك ٢.٢٦٨,٠٠٠ ينتمون إلى ما يعرف «بقبائل الإجرام» وهى تحت عين الشرطة ومراقبتها. تنحدر تلك القبائل من الراجبوت، أى أن لها جد من النبلاء، وبعضهم مسلمون، اعتنقوا الإسلام فى القرن السادس عشر. تشبه قبائل المجرمين هذه قبائل العجر لأنهم رحل ويمارسون أعمالا هامشية، ويتحدثون بلغات عديدة (مما يتيح لهم فرصا واسعة للكسب). كثير منهم يسمحون لنسائهم بالتححرر الخلقى (مما يتسبب فى اختلاط الأنساب وفقدان التميز الجينى).

ما هى آثار النظام الطبقي الذى ساد بلاد الهند (وانتشر حيثما انتشر الهنود - انتشر مع البوذية «التي جاءت لتناقضه» فى جنوب شرق آسيا، وانتشر من بورما إلى اليابان). أول هذه الآثار أنه حل محل نظام الرق، الذى لم يعرف قط فى تلك البلدان، وهو يفوق نظام الرق ويفضله فهو أكثر ثباتا لأنه يضع قيودا على كافة الطبقات، وعلى الجميع الالتزام بتلك القيود. ثانى تلك الآثار، أنه خلق قدرة عجيبة على التسامح وعلى قبول الغير، وقضى على التناقض الإجتماعى بين الطبقات، الشيء الذى لم يحدث فى أوروبا التى عانت من الثورات المدمرة والتناقض العاصف بين طبقاتها. كان الركود هو الثمن الذى دفعته حضارات تلك الشعوب ومنعها من التقدم الذى حدث لباقي الشعوب: الفرس والإغريق والأوروبيين واليهود والمسيحيين والمسلمين.

الباب السابع

نشأة الأمم الحديثة

فى الألف سنة التى تلت سقوط الدولة الرومانية الغربية أحاط الأعداء بأوروبا من جميع الجهات وظهر كأنهم يريدون تحطيم تراثها؛ ذلك التراث وتلك الاستمرارية التى حافظت عليها الكنيسة الرومانية وقوى أخرى كثيرة خلفتها فى السلطة. ظهرت أولا مجتمعات ثلاثة مختلفة: الإغريق والترك فى القسطنطينية ثم ظهر مجتمع آخر كان له التأثير العظيم فى البندقية.

بيزنطة

عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية وفقدت نصفها الغربى فى القرن الخامس الميلادى لم يبق منها إلا دولة تعرف باسم بيزنطة. صارت تلك الدولة الصغيرة هى روما الجديدة وكبرت حتى صارت أعظم من العاصمة القديمة نفسها، ومنذ إنشائها كانت مركزا لإمبراطورية استمرت فى الوجود لمدة تعادل مدة بقاء الإمبراطورية الرومانية ذاتها. لمدة أحد عشر قرنا - من ٣٢٧ حتى ١٤٥٣. كانت القسطنطينية عروس المدائن، وعمد سكانها على إحياء التراث القديم الذى ورثوه من العالم الكلاسيكى. استمر تطبيق قوانين روما - بعد أن جمعها جستينيان ونسقها - ولكن بعد تغيير أسماء الموظفين والإداريين إلى أسماء إغريقية. حرصت الدولة الجديدة على إحياء الإغريقية والأدب الإغريقى والدراما الإغريقية، وصار من يستحوذ على تلك المهارات أهلا للترقى والارتفاع اجتماعيا. دعمت الدولة المدارس والجامعات واستخدمت العلماء والمفكرين. قدم لطلب العلم فى القسطنطينية أبناء الحكام الأجانب، ارتفعت الكنائس فى جميع أنحاء الإمبراطورية شاهدة بفن العمارة الذى ارتقى فى البلاد على مدى أجيال عدة، وبالصناعة الراقية التى بدعها الفنانون والحرفيون. تشرىبت العقيدة المسيحية بأسلافها من الديانات الوثنية، التى أثمرت طقوسها وملابسها وخاصة موسيقاها، فى النولة البيزنطية كان مباحا لرجال الدين بالزواج والتكاثر. كان كل شئ فى الحياة فى العاصمة يدعو للتفاخر لسكانها الذين أخذهم الزهو بكل ما هو إغريقى مع احتقار كل ما بون ذلك، الذى وصفوه

بالبربرية والهمجية. لكن بعد حين، وبعد سلسلة متتالية من الكوارث انهارت تلك الدولة وتفرق المجتمع وخضع الشعب لسيادة قوم آخرين، ثار التساؤل ما هي أسباب احتضار الدولة الرومانية الشرقية، وماذا بقي منها ومن تراثها معنا حتى الآن؟.

عندما نقل قسطنطين عاصمته من روما تخلص من كل العوام ومن غالبية الأرستقراطيين الرومان في نفس اللحظة. قطن المدينة الجديدة تلك الأقوام التي استقطبها وأحب أن تشاركه في بناء الدولة. استقطب الموظفين الرومان، وبقي في روما بيروقراطية دينية ومعارضة شعبية، ظلت تتصارع لقرون عدة وإزداد التناقض بينها حتى نشأت أوروبا الحديثة. أما في الشرق فقد وحد قسطنطين - وتبعه خلفاؤه من بعده - الجميع تحت سيطرته واحتفظ هو نفسه بالسلطان الديني والسلطة الملكية في يد واحدة. وصار البطريرك يعينه الإمبراطور ويفصله حسب رغبته وتبعاً لأهوائه. صارت العاصمة الجديدة مصدر قوة حربية ومنتعة للإمبراطور، وكانت حصينة حربياً، وتختلف عن روما التي كانت كل الطرق تؤدي إليها. كانت روما قاعدة للهجوم أما القسطنطينية فكانت قاعدة للدفاع. كانت بموقعها مركزاً بحرياً تجارياً. اجتذبت السفن، وبناء السفن، كما اجتذبت الملاحين والبحارة، من الإغريق والفينيقيين الذين بدعوا الملاحة واتقوها وبرعوا في فنونها وكانوا رجال الإمبراطورية في السلم والحرب. سيطرت العاصمة الجديدة على البحار وبنيت دفاعها على تلك السيطرة البحرية. كانت لغة الأباطرة حتى جستينيان هي اللاتينية، لغة الطبقة العسكرية، ولكن تعلم الأباطرة اللغة الإغريقية، وكان السكان الجدد للمدينة من الإغريق ومن اليهود ومن البابليين، وهكذا تكون سكان المدينة من أعرق شعوب العالم وأكثرها ثقافة ومعرفة. وكان الإداريون الأكفاء ينتشرون في مدن الأناضول واليونان في انتظار اللحظة التي يُطلبون فيها لإدارة الدولة الجديدة، اعتمدت الإمبراطورية عليهم لتطبيق النظام الروماني للضرائب الذي كان مكتوباً في القانون الثيودوسي. تم تطبيق هذا القانون بعد تحسينه: فرضت الضرائب على الأراضي وعلى الواردات والمبيعات وعلى الإرث وعلى تملك العبيد. وأضيف إلى ذلك الأرباح من الملكية العامة للأراضي الزراعية الشاسعة ومن استخراج المعادن في أنحاء الإمبراطورية. في البداية، كان جزء كبير من تلك الضرائب يأتي من سوريا ومن مصر ومن أفريقيا، ولأول مرة في التاريخ كان الدخل يفيض حتى بعد سداد الضرائب ودفع المبالغ الباهظة للحكام. مكن هذا الدخل الوفير لجستينيان ولقواده العسكريين من إعادة فتح الإمبراطورية الغربية حتى جنوب إسبانيا، كما مكن لخلفائه من بعده أن ينشئوا ميليشيات إقطاعية، جنوداً مرتزقة أشداء للحماية الشخصية، مع قوات نظامية حسنة التدريب من الأقاليم المتطرفة شملت أفراداً من الصقالية والفايكنج والآنجلو ساكسون، في القرن العاشر الميلادي.

سواء كان بدافع من التقوى أو كانت سياسة جستينيان، قرر أن ينال الإنفاق على الكنائس معظم ثروة الإمبراطورية الرومانية الشرقية - أنفق ٣٠٠ ألف جنيه ذهبى على بناء كنيسة سانت صوفيا ووقف عليها ٢٦٥ مبنى بالقرب من العاصمة للإنفاق عليها، وكانت هذه السياسة محل الرضا الكامل من شعبه. أوقف كثيرا من الممتلكات للإنفاق على الكنائس والأديرة وملاجئ الأيتام، وأنشأ أول دار فى التاريخ لإيواء المومسات وهدايتهن/ اهتم الرأى العام فى الإمبراطورية بمناقشة قضايا يعنىة على مدى قرون طويلة. بعد مجمع نيقيا، عكف الرأى العام لعدة قرون على مناقشة طبيعة المسيح. بعد ظهور الإسلام ثار خلاف كبير حول حرمة أو حل الرسوم والتصاوير الدينية وثار اضطرابات كبيرة فى المدينة مما هدد بأنقسام السلطة وتفرقها، وفى نهاية القرن الرابع عشر سارعت معتقدات الأسقف جريجورى بالأراء الخاطئة وأفكاره غير المقبولة بالإسراع بكتابة شهادة الوفاة لإمبراطورية تحتضر. من الناحية السياسية وحدت تلك الأفكار بين الإغريق ولكنها باعدت بينهم وبين شعوب سوريا ومصر الراضين لهم، كما باعدت بينهم وبين منافسيهم فى الغرب فى روما (وهكذا بينما النين واحد إلا أن الفرقة مستتبه بين الشعوب المختلفة، وتفسير الدين يختلف باختلاف الأعراق). اختلف أهل البحر الأبيض المتوسط على تراثهم المسيحى المدون، الذى اعترفوا جميعا به، واختلفوا اختلافنا بينا على تفسيره. ومن الناحية الفنية اهتم المصلحون بالكنائس البيزنطية واستخدموا عددا كبيرا من الفنانين والحرفيين من المدن البيزنطية. وبهذا شيدت كنيسة سانت صوفيا على أحسن وجه وجمعت بين العظمة والأبهة، وجمال الفسيفساء ودقتها، وفخامة موسيقى عيد القيامة الأرثوذكسى. واشتهرت تلك المنجزات بفضل التجار الذين جابوا أنحاء أوروبا، ونظر الملك السكسونى الوثئى الذى دفن فى عام ٦٥٥ والملك النورماندى بعد ذلك بأربعة قرون بكل إعجاب لهذا الفن ولجأوا إلى الحرفيين البيزنطيين واستقدموهم لمحاكاة هذا الفن الرفيع، وتبعهم فى هذا أمراء فارانجيا فى نوفجورود أو فى بسكوف، والملوك النودمانديون فى بالرمو أو فى رافيللو، أو الأسقف أبوت فى مونت كاسينو أو حاكم البندقية عند بنائه كنيسة سان مارك. يسرت الهبة التى أوقفت على الكنائس البيزنطية الثراء لكافة الطبقات التى وظفت بهدف إقامة الكنائس وتزيينها وهاجر الفنانون والحرفيون إلى أطراف العالم المسيحى ومعهم رجال الدين والمعلمون والتجار، وتخطوا تلك الحدود. بعد أن احتل العرب صقلية فى عام ٨٢٧ توقف رحيل أبناء الإمبراطورية الشرقية إلى الغرب وتحركوا للشمال. كان التجار يبحثون عن الرقيق وكان المعلمون ورجال الدين يرغبون فى تحويل أبناء تلك الشعوب إلى المسيحية. شقوا طريقهم للشمال من البحر الأسود على ضفاف الأنهار، وكانوا يتزوجون ويتناسلون ويعمرون ويستعمرون شرق أوروبا تدريجيا. اختلفوا بالصقالبة (ولكنهم لم يمدنوهم)، وقابلوا الفايكنج والفارانجيان القادمين من السويد فاحتوا بكرملين النوفجوراد والبسكوف الأصلية ووضعوا الأصول

المدنية للثقافة الروسية. تحولت المدينة إلى مدينة الأباطرة السلافيين وصارت مصدر إعجاب وتقدير من كل الشعب، وبالنسبة لأهالي الغرب ظلت - لعدة طويلة - عاصمة أوروبا، وكان ثراؤها مصدر غبطة الجميع وصار الكل يحاول تقليدها. في أيام الرخاء كان يقطنها مليون فرد من شتى الجنسيات. كان الأجانب يعيشون في أماكن منفصلة عن بعضهم البعض، كل في حيه. كان هناك الأرمن والمقدونيون في تناقص مستمر، وكانت هناك مستعمرات سورية وأخرى إيطالية، وكان هناك التجار من جنوة ومن البندقية يعيشون مستقلين. كانت القسطنطينية بهذا النظام لا تختلف عن كبريات المدن في كل العصور ولم تتوحد تلك المستعمرات مع الإغريق وظلوا إلى النهاية يحتفظون باستقلاليتهم الخطيرة والمهددة لكيان الدولة. وصلت المدينة إلى أوج عظمتها في القرن الثامن، وبدت كما لو كانت خالقة الإمبراطورية وليست نتيجة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، كما سبق أن بدت روما، ولكن الحقيقة أن العواصم الكبرى تتكون من الأفراد الذين يقطنونها، الأفراد الذين أتوا من كل حذب من أطراف الدولة والذين تجتذبهم تلك العواصم إليها (أو تعاقبهم بالمعيشة في العاصمة). في النهاية سقطت القسطنطينية عندما انفضت عنها مستعمراتها وسقطت في أيدي الآخرين.

خلال الألف سنة التي سادت فيها مدينة القسطنطينية العالم تعرضت لهجمات عدة من أعدائها: الفرس ثم العرب، والفرنجة وأهالي البندقية والصقالبة ثم الترك. تغلغت قوات كل هؤلاء الأعداء في الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وهددت العاصمة. في أعوام ١٢٩٠، ١٣٩٧، ١٤٢٢. وبعد اختراع القذائف الإغريقية المشتعلة (وتتكون من أواني فخارية ممتلئة بالكبروسين، يتم إشعالها ويضاف إليها البارود ثم تلقى باليد. وهي أسلحة سريعة ابتدعها الإغريق في حروبهم ضد المسلمين في القرنين السابع والثامن الميلاديين. ثم صارت أسلحة في يد الساراسيين ضد سان لويس في القرن الثالث عشر ثم في يد فرسان القديس يوحنا ضد الأتراك في حربهم معهم في مالطا) وبلغ المسيحيون من غزوات أعدائهم المسلمين، مما جعلهم يحسنون تحصين عاصمتهم، امتنعت القسطنطينية لزمناً طويلاً عن السقوط في أيدي أعدائها. ولكن استطاع الصليبيون من الفرنجة ومن أهالي البندقية (نتيجة الصراعات بين العائلات المالكة) من الدخول إلى المدينة واحتلالها عام ١٢٠٤. وبعد ذلك تم انتزاع أقاليم الإمبراطورية إقليمياً بعد إقليم حتى لم يتبق منها إلا أقل القليل، من السواحل حول المضائق. كان فقد الأراضي وضياع ثروة الإمبراطورية يعني البطالة في العاصمة. نقص عدد السكان حتى بلغ عشر عدد سكانها في عصورها المزدهرة، وهاجر الصناع والفنانون والدعاة والمعلمون إلى الخارج واستمروا لمدة ٨٥٠ سنة يمولون احتياجات الدول الكاثوليكية الغربية، خاصة إيطاليا والبلدان الشمالية من حاجتها من العقول والأيادي حسنة التدريب، وزودوا الأمم الهمجية التي ارتحلوا إليها بثقافتهم ودمائهم. وكان نتيجة تلك الهجرة وانتقال العقول من بيزنطة هو

انتقال الثقافة والحضارة إلى بلاد اللاتين حتى وصلت في القرن الثالث عشر إلى نهضة بغير رجعة. كان بمقدرة الدولة الإغريقية أن تتحمل نزع العقول وفقد المهارات لو تنبه الإغريق أنفسهم لوسائل التجديد. ولكن الاستقرار الذي حافظت عليه مؤسسات الدولة جميعها، الاجتماعية والدينية، والذي تجسد في الطبقة التي حافظت عليها العاصمة وجميع المدن، كان يناسب إمبراطورية واسعة وثرية. حتى عندما وقعت الأقاليم الجنوبية في يد العرب استمرت الإمبراطورية قوية ومنيعة ولها حدود قابلة للدفاع عنا، واستمرت إغريقية الكيان. ولكن بدأ السوس ينخر فيها من الداخل وحاول الأباطرة أن يحبكوا الثوب على قدر القماش المتاح ولكن لم يكن النجاح حليفهم في كافة الأحوال. استمرت العطايا تتدفق على الكنيسة ببذخ، وامتنتعت الكنيسة والأثرياء عن دفع ضرائب الدولة ومستحققاتها، واستمرت الأديرة في النمو والتضخم والثراء ومعها قوة الكنيسة ونفوذها وسطوتها، وازداد نفوذ نبلاء الدولة وقل تعاونهم، وازداد ضعف الحاكم ومعها قوة الدولة ونفوذها وانهارت منزلة الطبقة الحاكمة مع الضعف المتزايد للدولة.

ظهرت قوى جديدة وأحاطت بالحاكم مهددت العرش. ازدادت ألقاب رجال البلاط الإمبراطوري وتزايدت عظمتهم، وأضيف إلى لقب أغسطس صفة «الحاكم الأوجد» و«الملك الأعظم» وأضيف إلى ألقاب أعضاء مجلس الشعب صفات «المؤيد من الشعب» و«المتحدث باسم الأمة» وإلى ألقاب جنرالات الجيش صفات «الحائز على ثقة أهالي القسطنطينية وعلى تهليلهم وتأييدهم». أضيفت هالة القداسة المسيحية إلى الأذلال الشرقي، وأضيف لمراسم التتويج العبري ارتداء الأثواب الساسانية والأكاليل الإغريقية المرصعة بالجواهر التي يلبسها السلف أو بطريرك متذلل خنوع. في كل تلك المراسم استطاعت القسطنطينية أن تتفوق على روما وتسبقها.

تعاقب الأباطرة على عرش القسطنطينية منذ عهد جستنيان حتى الغزو اللاتيني (من سنة ٥١٨-١٢٠٤)، بالرغم من حدوث ثورات حاولت مرارا قلب نظام الحكم بالقوة وتغيير الأسرة الحاكمة (ونجحت أحيانا في بلوغ هذا الهدف). قفز هؤلاء الرجال في غالبية الأحيان من بين صفوف رجال الجيش (وفي أحيان أخرى من بين المدنيين). وكان هؤلاء المنقلبون عادة من الأثرياء وأحيانا من ملاك الأراضي من النبلاء، وكانوا يستولون على العرش بقتل أسلافهم الشرعيين أو فقح عيونهم وكانوا يتزوجون من نساء الإمبراطور السابق قبل أو بعد الاستيلاء على العرش. وبذا يؤكدون نسبهم الملكي بدون أي معارضة، وهكذا نشأت طبقة – بين العسكريين – تزعم حقها وحدها دون غيرها – للجلوس على أريكة الحكم. كان حكام بيزنطة يفوقون حكام روما في التفاخر بأصلهم وحسبهم ونسبهم وعلو شأنهم وأنهم لم يدخل دم همجي في عروقهم، بل كانوا يتمتعون بالمكانة الإغريقية الرفيعة بكل ما تحويه من ثقافة وحضارة ومدنية. وقد تم الاحتفاظ بهذه المنزلة العالية بانتقال الحكم من روما إلى

القسطنطينية. وهكذا أغلقت الطبقة العليا على نفسها الأبواب والنوافذ وجهلوا الارتفاع المطرد للأمم الأجنبية عنهم، الذين كانوا يدعونهم بالكفرة أو بالهمج. عندما قدم الفرنجة من الصليبيين إلى القسطنطينية عام ١٠٩٦ معتقدين أنهم أتوا لإنقاذها من الترك اعتبرتهم الأسرة الإمبراطورية المالكة من الكلت الأكثر همجية من الأتراك والأشد تخلفا عنهم. وهكذا انفصل الإغريق - على كافة المستويات - عن الجميع واستمروا في عزلتهم ونقائهم العرقي وتفاخرهم بأصلهم الرفيع، فلم يختلطوا بالأرمن ولا بأهل البندقية، الذين كانوا يتعاملون معهم بالتجارة، مما تسبب في انهيارهم في النهاية بدلا من دعمهم وازدياد قوتهم. يوضح الجدول رقم (١٥) حكام الدولة البيزنطية وأصل الأسر المالكة فيها.

جدول رقم (١٥)

حكام الدولة البيزنطية وأصل الأسر المالكة فيها

الأسرة الجستنيانية:	بدأها جوستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧) جنرال من الهمج انتخبه الجيش.
(٥١٨ - ٦١٠)	
الأسرة الهرقلية:	بدأها هرقل (٦١٠ - ٦٤١) ابن حاكم قرطاجنة.
(٦١٠ - ٧١١)	
الأسرة الأزورية:	بدأها ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١) قائد من أصل سوري ثم انتهت بليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠) القائد الأرمني.
(٧١٧ - ٨٠٢)	
الأسرة الفريجيجية (أو الأمورية):	بدأها ميشيل الثاني الفريجيجي (٨٢٠ - ٨٢٩) كبير موظفي القصر الملكي الذي تزوج من ابنة الملك الأزوري قسطنطين السادس.
(٨٢٠ - ٨٦٧)	
الأسرة البازيلية (أو المقنونية):	بدأها بازيل الأول أحد أحفاد قسطنطين العظيم والأساسيد الأرمني (٨٦٧ - ٨٨٧) وزير البلاط لسلفه ميشيل الثالث الذي قتله.
(٨٦٧ - ١٠٥٧)	
الأسرة الكومنينية:	أنشأها اسحاق الأول (١٠٥٧ - ١٠٥٩) نبيل من أصل روماني. (تخلتها الثورة).
(١٠٥٧ - ١١٨٥)	
الأسرة الإنجليزية:	وقد قدم اللاتين إلى القسطنطينية من (١٢٠٤ - ١٢٦١).
(١١٨٥ - ١٢٠٤)	
الأسرة الباليولوجية:	
(١٢٥٩ - ١٤٥٣)	

لم يتزاوج الإغريق بتاتا مع الأجانب ولم يختلط البيت الإمبراطوري البيزنطى مع أسر ملكية أجنبية، بل كانوا يطلبون دائما الارتباط بالبيت المالك الإغريقى. كان إمبراطور بيزنطة يسمح ليعاقته أو أخواته بالزواج من ملوك من الهمج، ولكنه لا يسمح لنفسه أو لأبنائه من الذكور من الزواج من بنات هؤلاء الملوك «الهمج»، حتى نهاية القرن الثانى عشر. وهكذا كانت الأسرة المالكة نفسها تحقو حنو المجتمع الإغريقى كله، خاصة المجتمع الارستقراطى، فلم تكن تجدد أنفسها بالتوالد الخارجى ولم تتح لنفسها فرصة تجديد دمها بالاستيلاء الخارجى مع أسر ملكية أخرى من الغرب، الذى كانوا يدعونهم «بالهمج»، وفى هذا الشأن اختلفوا عن حكام روما.

كان الإمبراطور مطلق السلطة، ولكن كان توليه الحكم وتركه للعرش دمويا، لذا حرصوا أشد الحرص على انتقاء ووزرائهم كما كان يفعل الملوك الإقطاعيون المنتخبون فى الغرب، ولحماية أنفسهم لجأوا إلى نفس الحيلة الخطيرة التى لجأ إليها ملوك الفرس فى الشرق التى انتهت بفنائهم. لجأ الأباطرة - بدأ من ديوكليتيان واستمرارا بخلفائه المسيحيين - إيمانا منهم أنه من الأسلم لهم أن يتخذوا وزراء من الخصيان الذين كانوا غير حريصين على إنشاء أسر مالكة تتوارث العرش. وكانوا يظنون أيضا أنه مستحيل على الخصى أن يصير إمبراطورا. فى البداية كان إخصاء الرومان والرجال الأحرار يعتبر فعلا مشينا ينبغى الابتعاد عنه، ولكن عندما تم تخصيص ثمانية من وظائف الدولة العليا فى الإمبراطورية للخصيان أصبح الآباء الحريصون على ارتفاع شأن أبنائهم يطلبون إخصاء بنينهم اتباعا للمطلب القومى العام. كانوا يبدأون بإخصاء أول أبنائهم، ويتولى هؤلاء يدورهم فتح الأبواب المغلقة وإتاحة الفرص لإخوانهم الأصغر سنا. ثم بدأ الأباطرة أنفسهم بإخصاء أبنائهم العاصين والمتمردين قبل أن يطالبوا بالعرش ويقصون آباءهم عنه. وهكذا، بالإضافة إلى العبيد الذين جاؤوا من أقصاء الدولة الرومانية الشرقية حديثا إلى سوق الرقيق بالقسطنطينية، أضيف عدد كبير من الخصيان من أبناء الأسر الراقية نوى الذكاء والنباهة والمقدرة الفائقة.

وقد كان وجود الخصيان فى قمة الحكم هو السلاح الذى قيدت به الإمبراطورية قوة الأثرياء الذين حطوا فى البلاد من الولايات الإقطاعية فى الغرب، كما كان الثراء الشديد للمدن العظمى، خاصة العاصمة، والقوة التى مارسها على أيدي المثقفين فيها والإداريين الأكفاء الأذكاء، الذين ورثتهم من العالم القديم، من نواحي استقرار الإمبراطورية الرومانية الشرقية واستمرارها لثلاث سنين بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، التى لم تتمكن من إعداد تلك الكوادر المستتيرة، بالرغم من تطورها وهجرة كثير من العقول من الشرق إليها، حتى من بيزنطة ذاتها. استغرق تعليم وتطور الفئات المتعلمة والقابلة للتعليم حوالى ثلاثين جيلا قبل أن ينتور أهالى الغرب ويستطيعون الاستيلاء

على السلطة من الإدارات الإقطاعية بها. وكانت السلطة التي تولتها المدن، وتأرجح الملوك الذين قيدوا قيادات الإقطاع بجيوشهم، هي الفارق الحاسم بين تطور الحضارة في الشرق عن الغرب.

كانت القيمة المباشرة التي استخدم الخصيان من أجلها، هو الإخلاص المطلق للملك نفسه وكلما عظمت هذه الخدمة كلما كان من المتيسر على الخصى أن يفوق سيده في السلطة. ولكن كان من المتعذر على الخصى أن ينقلب على سيده، على العكس كان يزداد إخلاصه له، وبذا كان يصبح هو السيد الذي يعتمد عليه سيده أكثر فأكثر. ويتضح هذا بجلاء لدى ثلاثة من الأباطرة البيزنطيين. الأول كان بازيل (وزير البلاط) الذي قتل سيده ثم انقض على عرشه (وعلى فراشه) وبدأ الأسرة المقدونية. أما ثاني وثالث من فعلا تلك الفعل فكانا من الخصيان، وكان كلاهما من أكفأ الرجال وأعظمهم مقدرة. في كثير من الأحيان كان الأباطرة أنفسهم غير مخلصين لخصيانهم وينقلبون عليهم بلا سابق إنذار، مما جعل الخصيان لا يأمنون جانبهم. وهكذا كانت طائفة الخصيان التي أدارت مقاليد الحكم وسيرت شئون الدولة في الإمبراطورية البيزنطية في غاية الخطورة على الدولة ذاتها لأنهم كانوا غير مطمئنين ومتوجسين خيفة دائما مما يفعله بهم الحكام رغم شدة إخلاصهم لهم. يظن الناس في زماننا هذا أن الخصيان أكثر جبنًا وأقل شدة من البشر الطبيعيين، ولكن هذه نظرية خاطئة كما ثبت من الأحداث التي جرت في الإمبراطورية البيزنطية. كان الخصيان يؤخنون من كافة الطبقات الاجتماعية ويوظفون كوزراء مدنيين وقادة جيش عسكريين ورؤساء دينيين. لم يكن يُعرف تعدادهم على وجه الدقة، وتشير جميع القرائن أنهم في كافة الوظائف والأعمال التي عهدت إليهم لم يكونوا أقل كفاءة من أقرانهم، كانت لهم نفس المقدرة التي لسواهم. أما إذا تحولنا من مقدرة الشخص الفرد إلى صفة جماعة الخصيان كمجموعة تقابل بمشكلة اجتماعية في تطور المجتمع. فعلى مدى ثلاثين جيلا تم بانتظام إخصاء عدد من أبناء كبريات عائلات المجتمع مما أدى إلى عزوية الشباب في الشرق، وإلى حرمان وضع من خيرة شباب المجتمع من الإنجاب. وقد أدى ذلك إلى الإنقاص المتزايد للشباب في الشرق (كما فعلت الثورات المتتالية والحروب الأهلية المستمرة في الغرب لقرن طويلة والتي نَعِم الشرق بتجنبها). الفرق هو أن تلك الحروب في الغرب انتقت أكفأ الشباب وأشجعهم وأمهر الرجال ومنحتهم فرصة الحياة، أما في الشرق فقد حرم من الإنسال بعض أفضل الشباب لأنهم شكلوا خطورة على الحاكم - على كل حاكم، وبذا حرم المجتمع من كل ثائر أو شاب يحتمل أن يقوم بالثورة. وبذا فتح هذا النظام الباب على انتقاء الأفضل - تباعا - في الغرب بينما أقفل الباب في الشرق، الطريق الذي أدى في النهاية إلى تدمير الشرق وإلى قتل كل مجتمع أتبع نفس السبيل. نشأة مجتمع الخصيان بهذا يتعارض تماما مع النظرية الداروينية - التي تقول بأن البقاء للأصلح -، كما يتعارض تماما مع المبادئ المسيحية الحقّة. ولكن في الدولة الرومانية الشرقية، التي كان رجال الدين فيها أتباعا للسلطان، عمل الأباطرة الإغريق على فرض رأيهم على الكنيسة - حتى ولو تعارض هذا

مع الأخلاقيات المسيحية. أما الكنيسة الكاثوليكية في الغرب فكانت سيدة على الحكام وفرضت أخلاقياتها على السياسة والرؤساء، وعلى الملوك والأمراء والنبلاء، وفرضت العزوبية على الرهبان فحسب ولم تفرض الإخصاء على أولاد وشباب العائلات. قد يكون تقليد إخصاء الشبان هو أحد العوامل التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية البيزنطية، بجانب العوامل الأخرى.

الترك

في القرن الخامس عشر - زمن التحركات الكبرى - قطن منطقة شاسعة من أواسط آسيا - المنطقة التي تقع بين بحر آرال وتيان شان قوم يعرفون بالتار. كانوا قوما رحل من الرعاة، يرعون الأغنام ويقومون بصناعة السجاد، ويسكنون الخيام، ويركبون الخيل وعملهم الصيد والقنص ويحاربون بالسهم والقوس. كانوا ينقسمون إلى طائفتين تتحدثان بلغتين مختلفتين. كان أهالي الشرق هجن من الصينيين الذين ارتحلوا إلى التركستان، هؤلاء هم المغول؛ بينما كان أهالي الغرب قد تهجنوا مع القبائل الآرية التي ارتحلت شرقا إلى بلاد الفرس وبلاد الهند، وكان هؤلاء يعرفون بالترك أو التركمان. في القرن السابع كان الغزاة العرب قد وصلوا إلى بلادهم، واعتنقوا الدين الإسلامي وخضعوا للإسلام. وبحلول القرن التاسع كانوا يستخدمون كحرس شخصيين للخلفاء العباسيين في بغداد، وتعلموا من ثمرات الحضارة الإسلامية وتقدموا حضاريا وثقافيا، وقويت شوكتهم حتى استولوا على الحكم وسيطروا على بغداد في القرن الحادي عشر. وبعد عشرين سنة (في سنة ١٠٧٧) هاجموا الإمبراطورية البيزنطية واحتلوا نيقيا واستولوا تدريجيا على هضبة الأناضول بعد أن عبروا جبال طوروس، التي كانت - منذ أيام معاوية حتى ذلك العهد - حدا فاصلا بين تغلغل أهالي الصحراء وبين دخول اللسان العربي. بعد دخول هؤلاء الغزاة الترك الأوائل - السلجوقيين - إلى أراضي الأناضول تناسلوا مع الإغريق ومع الأرمن وتكاثروا كما تناسلوا مع الفرس ومع العرب، صاروا الحكام لتلك البلاد لمدة قرنين من الزمان في نظام إقطاعي غير مستقر تماما. ثم هاجمتهم عصابة من عدة مئات من الخيالة من غرب الأناضول واستولت على الحكم وأنشأت الأسرة العثمانية، ومن ثمَّ الإمبراطورية العثمانية، في نفس الوقت الذي كان المغول يغزون الإمبراطورية العظيمة للعباسيين ويسقطون الحكم العباسي، غير قادرين على ابتلاع وهضم الإمبراطورية الكبيرة. استمر العثمانيون يقضمون الإمبراطورية البيزنطية قطعة قطعة ويحركون حدودها نحو الغرب ومعهم سكانها المسيحيين. كان الأتراك العثمانيون يتقدمون على حساب المسيحيين في الشرق في نفس الوقت الذي كان المسيحيون يتقدمون على حساب المسلمين في الغرب، في إسبانيا، ويتقدمون على حساب الوثنيين من الصقالبة في ألمانيا. كان يعقب تقدم الجيوش وانتصارها العسكري إقامة نظام حكم ونشأة طبقة جديدة من الحكام. ونظرا للتزايد السريع للأتراك المسلمين كان تقدم العثمانيين في الشرق أسرع من تقدم الأوربيين المسيحيين في الغرب في إسبانيا. كلما تقدم المسلمون تزوجوا مع

سكان البلاد من المسيحيين وحولهم للإسلام، وهكذا تحول المجتمع الريفي الذي هُزم في بلاد الأناضول إلى أمة هجينة، تتحدث باللسان التركي ويحكمها باشاوات أقوياء من الخيالة الأكفاء، من جنس هجين من الترك والشعوب المحلية أيضا. كان هؤلاء الحكام، قادة القوات المسلحة، منتقين، ويجيدون الفنون العسكرية وعلى رأسها ركوب الخيل. هذه الأمة الجديدة هي التي قضت نهائيا على بقايا الإمبراطورية المسيحية في النهاية، تمكن محمد الفاتح، عام ١٤٥٣ من مهاجمة شبه جزيرة بيرا، بسفنه السبعين، وقضى على دفاعات القسطنطينية واستولى على المدينة. بعد سقوط العاصمة ولدت الإمبراطورية التي صارت - حسب قوله - في عظمة الإمبراطورية الرومانية.

كانت قوة الإمبراطورية الجديدة تتركز في قوتها العسكرية التي اعتمدت على إنشاء والحفاظ على جيش إسلامي قوى، الذي فاق أى قوة عسكرية عرفت من قبل، سواء في العالم الإسلامي أم العالم المسيحي. تغير اسم العاصمة، وصارت الآن اسطنبول، التي تقع في مكان التقاء عالمين: عالم الإسلام وعالم المسيحية، عالم الشرق وعالم الغرب. حرص محمد الفاتح على الحفاظ على المجتمع الإغريقي نو الثقافة الرفيعة والصلات التجارية البعيدة، بقى غالبية الإغريق في اسطنبول واستمروا في حياتهم غير المقيدة وفي أداء خدمات للإمبراطورية التي استمرت في الحكم لقرون خمسة. استمر مدير بلدية القسطنطينية الإغريقي كمدير لبلدية اسطنبول التركية، واستمر الكتبة الإغريق يعملون في وزارة الخارجية، ولكن في المقام الأول - عاون الإغريق على تنظيم مدارس البلاط. كانت هذه المدارس كلية حيث تضافر - للمرة الأولى في الغرب - تعليم التقنية، الصناعية والعسكرية، بجانب تعليم القانون والدين وتمكنت من منافستها. تخرج من هذه المدارس بعض الوزراء العظماء، خاصة جميع أفراد أسرة كوبرولو الحاكمة، التي حكمت الإمبراطورية في إبان مراحل قوتها الأخيرة. أنجز محمد الفاتح كل هذا مقتفيا المثال المستنير للعرب وباقى القوى السابقة التي سبق وحقق الانتصارات. كان محمد الفاتح حاكما مستنيرا، مثقفا بقدر ما كان محاربا عظيما. سمح بالحرية الدينية للمتحدثين بالإغريقية في نفس الوقت الذي حول كنيستهم - سانت صوفيا - إلى مسجد، ولكنه اعتمد اختيارهم للبطريرك الجديد، وأعاد تعمير المدينة بتسكين مسيحيين من ولاياته بالبلقان، من ألبانيا ومن البوسنة. سرعان ما أنشأ محمد الفاتح علاقات حميمة مع حكام البندقية (واستدعى الرسام الشهير بليني ليرسم صورته، المعلقة الآن في الصالة القومية للفنون بلندن). كانت هناك إحدى نواحي الضعف في نظام حكمه، التي أثرت على تطور المجتمع وتطور الحكومة. كانت تعتمد في إدارة الشؤون المدنية للحكومة على الرقيق - الذين تم تدريبهم في مدارس البلاط، كما اعتمد في إعداد جيشه على مماليك دربوا على فنون القتال. يوضح الجدول (١٦) تركيبة المجتمع العثماني وانتقال السلطة فيه.

جدول (١٢)

تركيبية المجتمع المماني وانتقال السلطة فيه (١٤٥٣ - ١٥١٥)

المسلمون		البيلاط الملكي		المسيحيون		
(من أصل مسيحي اعتنق الإسلام قديما وحديثا)	العلماء الإدارة التشريعية (مفتيا) شيخ الإسلام (مفتي) المفتين المحليين (وعدد ٣٠٠) رؤساء القضاة في أوروبا وآسيا الاعتمادة المحليون المدرسون	أم السلطان حريم السلطان ويشمل زوجاته ومحطاته	السلطان أبناءه	رجال الإدارة الإغريق طبقة التجار والمهنيين بالدن الكبرى	فلاحو الباقان - القبائل الرحل - المتشققون من الغزوة والمسكوبون	أسرى الحرابي من جميع الجهات
الرعية فلاحون منذ عام ٧٠٠٠ ق.م. معتنق الإسلام قديما (بالأناضول وجزيرة قبرص) معتنق الإسلام حديثا في البوسنة في ألبانيا		السلاطون القادمون ويعودون للزنا، وقواد الجيش سأبناء الطبقة العليا الذين يتصلون في مدرسة البلاط	السلطان القادم	رجال الدين الإغريق والأرمن		
النبل وال طبقة العليا الراقدة من الخارج		الاتكشافية (خراب) سوق الرقيق * الخصيون البيض والسود السلطان والوزراء * والذي يعملون كخدم في البيوت		ضريبة الأبلاد (٣-٥ سنوات)		

التعليق على الجدول:

- * كانت كراهية أهل البلقان المسيحيين لحكامهم من الإغريق السبب في إخلاصهم للسلطان العثماني في حرب التحرير الإغريقية (١٨٢١ - ١٨٣٢م). بعد التحرير توجه الإخلاص إلى أثينا.
- * كانت أم السلطان هي المسيطرة على حريم السلطان، وإذا كانت متوفاة فإن مرضعت زوجته أبيه هي التي تقوم بهذه المهمة.
- * كانت من مهام شيخ الإسلام اعتماد أحكام الإعدام أو النفي.
- * الحريم اللواتي يستغنى عنهن السلطان في سن الخامسة والعشرين كان يهديهن إلى ضباط الفرسان. بلغ عدد حريم السلطان في القرن التاسع عشر ٢٠٠٠ امرأة.
- * كانت الأميرات يبقين في العاصمة، بينما يرسل أزواجهن إلى الولايات.
- * كان أبناء السلطان يقتلون بواسطة أبيهم أو إخوانهم غير الأشقاء. قتل سليمان نفسه ولديه الكبيرين عندما دب الشقاق بينهما. بعد محمد الثالث كان يحبس الأبناء الذكور ولكن كان يتم قتل أطفالهم الذكور حتى يتم تولية العرش لخليفة السلطان (إذا لم تنجح الوسائل المتاحة لمنع الحمل من عدم إنجاب هؤلاء الأولاد).
- * أنشأ مراد الثاني مدرسة البلاط في أدرينوبول لتعلم الأمراء ثم نقلها محمد الثاني إلى استنبول وصارت تعلم كافة العلوم والمعارف.
- * استمرت أسواق الرقيق باستنبول حتى قيام ثورة ١٩٠٨م.
- * من الطبقة العليا الوافدة من الخارج عائلة كويرولو، التي أخذت مركزها في البلاد ابتداء من عام ١٥٩٥م.

تبينت معظم الأسر الحاكمة فيما مضى أن الحراس الشخصيين لهم والذين يشكلون أفضل وسيلة لحمايتهم يستحسن أن يكونوا مستوردين من خارج البلاد. اختار خلفاء العباسيين فى بغداد هؤلاء الحراس من أشرس الأقوام التى على حدود بلادهم - من التركمان، وكان أفضل هؤلاء أسرى الحروب. وكذلك كان التركمان وأهالى القوقاز هم أصل المماليك الذين حكموا مصر والذين دافعوا على السلاطين فى أول الأمر ثم استولوا على الحكم حينما استتب لهم الأمر وانقلبوا على السلاطين الأيوبيين. كذلك كان المرتزقة من الرقيق المسيحيين هم المدافعون عن سلاطين اسطنبول فى أول الأمر، ثم المتحكين فى الحكومة التركية والذين هدسوها أخيرا. ظلت المجتمعات المسيحية منفصلة عن بعضها أولا وتعيش حياتها الخاصة بها وتعلم أبناءها فى مدارسهم، وظل تعدادهم ثابتا فى أول الأمر (فى عام ١٥٨٦ كان تعداد المسيحيين يفوق عدد المسلمين)، ولكنهم سرعان ما نزحوا تباعا إلى الغرب، إلى المدن الإيطالية التى كانت لها صلات وثيقة بالإمبراطورية البيزنطية، وهكذا استؤنفت هجرة العقول نحو الغرب. ولكن لم يظهر أثر هجرة العقول فى الحال. اتجه حفيد محمد الفاتح، السلطان سليم نحو الشرق وبدأ مهاجمة جيرانه المسلمين، الذين يحرم عليهم - بحكم معتقداتهم - أن يصيروا أرقاء وعبيد حتى لو تم أسرهم فى الحرب. استولى السلطان سليم على معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، فاستولى على سوريا وعلى مصر، وتنازل له الحاكم الألبانى - خير الدين - عن تونس والجزائر. بعد هذا التوسع فى ممتلكاته تمكن سلطان الأتراك من أن يسمى نفسه خليفة الإسلام وكاد أن يتخذ اللغة العربية اللغة الرسمية للإمبراطورية، وأن يعيد لعاصمته أبهتها القديمة: بنى العديد من المساجد العظيمة والقصور الفخمة التى تركها الخلفاء. جلب السلطان سليم الحرفيين من القاهرة لتزيين المباني الجديدة فى اسطنبول (ويقال أن أعداد الحرفيين المهرة والصناع المتقنين لصناعتهم كان من الكثرة بحيث اختفت خمسين من تلك الحرف من مصر نفسها وكان هذا من أهم أسباب تدهور المدنية فى مصر وارتفاع شأنها فى تركيا). اكتسبت الدولة العثمانية ثراء كبيرا وصارت لها قوة رهيبة بعد فتوحات السلطان سليم واستمرت فى عهد ابنه سليمان الذى عرف باسم سليمان العظيم. فى عهد سليمان تم تحول معظم المسيحيين إلى الإسلام وازداد تعاونهم مع النظام الحاكم. ليست العبرة بالعدد ولكن بالتنوع التى اعتنقت الإسلام، فقد كان ثلاثة من أعظم وزراء الدولة العثمانية والذين رفعوا من شأنها و زادوا من قوتها: إبراهيم ورستم وسكولى قد ولدوا كمسيحيين. صارت الآن الدولة العثمانية فى مواجهة مباشرة مع النظم المسيحية فى أوروبا، مع قوم لم يتعلموا بعد ولا يدرون كثيرا عن منجزات العلم الحديث. احتل سليمان بلجراد فى عام ١٥٢١ ولكنه صد عن فينا بعد ذلك بثمان سنوات، طرد سليمان فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس عام ١٥٢٢ (التى لجأ إليها المسيحيون بناء على أوامر بابا روما بعد أن طردهم المسلمون نهائيا من

الشام وبعد أن تخلوا عن بيت المقدس)، ولكنه لم يستطيع طردهم من جزيرة مالطا عام ١٥٦٥. كان هؤلاء الفرسان السبعمائة في فالييتا ومعهم جيشهم المكون من ٨٠٠٠ فرد هم الذين تمكنوا أخيرا من وقف زحف الأتراك المسلمين على أوروبا ومن إنهاء الانتصارات المتتالية تمهيدا لهزيمتهم في ليبانتو بعد ست سنوات.

لم يستطع الأتراك العثمانيون أبدا بعد ذلك من استعادة تقدمهم الزاحف. تجمع الأعداء المسيحيون بعد ذلك واستمرت الإمبراطورية تجاهد لهم لأكثر من ٢٠٠ سنة. لم يتمكن الحكام المسلمون من عملية التنظيم الاجتماعي للشعوب التي انتصروا عليها بحيث تربط تلك الشعوب بنظام الحكم بعد انتصاراتهم عليهم (كما فعل المسلمون الأوائل). قل تدريجيا تجديد فرق الإنكشارية، المقاتلون الأشداء، الذين عاثوا في الأرض فسادا فصرقوا الشعوب عن حكامهم بدلا من أن يزيدوا ارتباطهم بهم، وهكذا تحولت فرق الإنكشارية إلى خطر يهدد العرش. ثم بدأت الثورات في البلدان التابعة للإمبراطورية، فانسلخت بلاد الفرس أولا ثم النمسا ثم روسيا ثم البلاد العربية، صار جيران تركيا أكثر قوة بينما بقي الأتراك على حالهم.

كان الحكام الأوائل للدولة العثمانية زعماء قبائل، حافظوا على أوضاعهم بقبول المحاربين في جيوشهم لهم، أي كانت السلطة من انتصاراتهم في الحروب. منذ عهد عثمان الأول ضمنت شهرة أسرته لأبنائه حق توارث العرش. ولكن كان الحكام متعددي الزوجات، كثيرى الإنجاب ولذا كان لكل حاكم أبناء عدة يطالبون بوراثة العرش بعد وفاته (أو قبل الموت)، وكان هذا النظام يختلف تماما عن النظام المسيحي الذي يسمح بزوجة واحدة ينحصر في نسلها وراثة العرش. أدى هذا الوضع إلى حدوث الشقاق بين الإخوة، شقاق كان يؤدي إلى معارك حربية تعتمد على الجيش النظامي أو على فرق الإنكشارية، وتغيرت نوعية الصراعات مع تغير الأحوال ومع زيادة الخبرة. صار السلطان الحالي يضع أبناءه كحكام للولايات ويستبقى ابنه المختار لخلافته بجواره في اسطنبول (وكان هذا الاختيار ينبع عادة من المقربة إليه من زوجاته، التي كانت تحرص على أن يخلف ولدها والده)، ولكنه قد يستمع إلى نصيحة وزيره أو إلى نصيحة شيخ الإسلام. ويوضح الشكل رقم (١٦) تركيبة المجتمع العثماني وانتقال السلطة فيه. مكنت هذه الظروف تتابع حكام عظام على العرش. كانت أمهات السلاطين في غالبية الأحوال من المسيحيات الأوروبيات نوات الثقافة العالية. نجح الحكام بمقدرتهم الكبيرة التي اختبرت في المعارك والحروب وفي إدارة البلاد، وقد كان اختبارهم لتلك الأماكن من بين عائلات كثيرة الأفراد. كان نجاحهم في تلك الاختبارات بالإضافة إلى مهارتهم الفاتقة وتوفر المقرة الابتكارية لديهم لتنظيم سلسلة توارث العرش بدون انقطاع سببا في اتساع الإمبراطورية وعظمتها في أيامها الأولى - ولكن حدثت أشياء سببت انهيار الدولة بعد زمن طويل - ولو أنها حمتها في

المستقبل القريب. بدع محمد الثانى تقليد أن يقتل الأخ أخاه لمنعه من وراثة عرش أبيه، وبهذا القانون كان الأخ الأقدر يتولى قتل جميع إخوانه الذكور (كما كان يفعل الأخيميون منذ عهد بعيد). كذلك كانت بنات السلطان - اللاتى يزوجن لكبار نبلاء البلد - يطلقن حتى لا يلدن من قد يطالب بالعرش، أو كان أبناؤهن الذكور يتركون ينزفون حتى الموت بمجرد ولادتهم، بعدم ربط الحبل السرى. وهكذا تقلص حجم الأسرة الحاكمة وتقلص حجم كافة نبلاء البلد وأخصى عدد كبير منهم فى كل جيل. كانت هذه الخسارة الفادحة فى الرجال يتم تعويضها بتجنيد الأكفاء ونوى القدرات العالية من الشعوب المنهزمة. وهكذا - بدون الاستعانة بالدم الأجنبى - كان نظام الانتقاء الذى جرت عليه الولة العثمانية - كفيلا بتدمير القوم الذى كان يهدف لبقائهم، وفى النهاية كان عاملا رئيسيا فى تدمير الإمبراطورية العثمانية والعثمانيين أنفسهم ...

ويوضح الجدول رقم (١٧) تتابع الحكام فى الإمبراطورية العثمانية.

جدول (١٧)

تتابع حكام الإمبراطورية العثمانية

ابن ارطغرول قائد تركي وزعيم قبيلة وقائد الفرسان. أقطعه السلطان السلجوقي سلطان الروم، أرضا لقاء تعهده بتقديم المساعدة العسكرية. مؤسس الأسرة العثمانية.	عثمان الأول	١٣٢٦ - ١٣٢٨
الابن الأصغر (الابن الأكبر وزيره)، يتزوج ابنة الإمبراطور كانتاكوزينوس. يستولي علي نيقيا ١٣٢١، وعلي غاليبولي ١٣٥٧ ويكون فرقة الإنكشارية المشاة من أسري الحرب.	الأمير أورخان	١٣٢٦ - ١٣٥٩
يستولي علي أدرينابول ١٣٦٢ ويتخذها عاصمة له (١٣٦٢ - ١٤٥٣)، يهزم الصرب والبلغار ١٣٧١ ويموت منتصرا في كوسوفو ١٣٨٩.	السلطان مراد الأول	١٣٨٩ - ١٣٥٩
يقتل أخاه غير الشقيق في المعركة في كوسوفو. يأسره تيمور لئلك.	بايزيد الأول (الصاعقة)	١٣٨٩ - ١٤٠٢
	حرب بين الأبناء	١٤٠٢ - ١٤١٣

الابن الأصغر - تدمير الأسطول الوليد بواسطة البنادقة عام ١٤١٦ .	محمد الأول	١٤١٣ - ١٤٢١
يفقع عيون ثلاثة من إخوانه. يهزم السلاجقة ١٤٢٨ . يستولي علي سالونيك ١٤٣٠ . يخدم التمرد الأول للإنكشارية ١٤٤٧ .	مراد الثاني	١٤٢١ - ١٤٥٦
(القاتح - قيصر الروم) يستولي علي القسطنطينية ١٤٥٣ يفتح اليوسنة ١٤٦٤ وألبانيا ١٤٨٠ . ينظم الجيش والأسطول وملكية الأراضي ١٤٧٦ . يقنن أن السلطان يقتل إخوانه .	محمد الثاني	١٤٥١ - ١٤٨١
يشكك أخوه في أحقيته في وراثة العرش - يخلعه ابنه والإنكشارية .	بايزيد الثاني	١٤٨١ - ١٥١٢
(الشرس) يقتل ثمانية رؤساء وزارات . يضم كردستان وأذربيجان ١٥١٤ ، ثم سوريا ومصر ١٥١٦-١٥١٧ . أول من يتخذ لقب خليفة .	سليم الأول	١٥١٢ - ١٥٢٠
(العظيم، القانوني) يتزوج من خوريم، ابنة كاهن روسي، يستولي علي بلغراد ١٥٢١ ، رودس ١٥٢٢ ، بغداد ١٥٣٤ . يفشل في الاستيلاء علي فينا ١٥٢٩ وفي الاستيلاء علي مالطا ١٥٦٥ . تحاول الإنكشارية عزله ١٥٥٣ وعمره ٥٨ سنة .	سليمان	١٥٢٠ - ١٥٦٦
(السكري) ابن خوريم . يبني له سنان مسجدا في أدريانوبول (الذي تصير أرنه) . سنان كان في الإنكشارية ثم صار الوزير الأول ثم قائدا حريبا . يستولي علي ليبانتو ١٥٧١ ثم علي قبرص (من البنادقة) ١٥٧٤ .	سليم الثاني	١٥٦٦ - ١٥٧٤
يقتل خمسة من إخوانه . يرزق بـ ١٠٣ طفلا (يعيش منهم بعده ٤٦) . يسمح لأفراد الإنكشارية بالزواج ويصيرون طبقة تركية متوارثة تقبض مرتبات ويزيد تعدادهم من عشرين ألفا إلي ٤٨ ألف . (يصل تعدادهم إلي ١٣٠ ألف عام ١٨٠٠) .	مراد الثالث	١٥٧٤ - ١٥٩٥

١٦٠٣ - ١٥٩٥	محمد الثالث	يقتل ١٩ من إخواته عند توليه العرش. يفصل جميع المسيحيين من الجيش.
١٦٠٣ - ١٦٨٧	أحمد الأول	تتولي زوجته خوسيم - ابنة كاهن من البوسنة - الحكم من ١٦٢٣-١٦٥٦. يرزق بثلاثة بنات تتزوجن من ١٥ زوجا معظمهم من الوزراء. يبطل تقليد قتل الإخوة ويستبدل بسجنهم.
١٦٤٨ - ١٦٨٧	محمد الرابع	تتنازع أمه وجدته السلطة - تشنق خوسيم وتتولي الانكشارية السلطة عام ١٦٥٦. الحصار الثاني لفينا عام ١٦٨٣. وزراء عظام من أسرة كوبروللو: محمد ١٥٦٦، أحمد ١٦٦١، مصطفى ١٦٩٥، وحسين ١٧٠٠.
١٧٧٣ - ١٧٨٩	عبد الحميد الأول	كان قد سجن من ١٧٤٠ - ١٧٧٣. في عهده تم منع تقليد سجن الأمراء.
١٧٨٩ - ١٨٠٧	سليم الثالث	أول من حاول الإصلاح - حاول تشكيل حكومة منتخبة - خلعت الانكشارية ثم قتلته.
١٨٠٨ - ١٨٣٩	محمود الثاني	(ابن عم سليم) قضى علي الانكشارية بقتلهم عام ١٨٢٦ حرب اليونان للاستقلال ١٨٢١ - ١٨٣٢ معركة نغارين ١٨٢٧.
١٨٣٩ - ١٨٦١	عبد المجيد الأول	وضع «تنظيمات» وهي خطة إصلاحية.
١٨٦١ - ١٩٢٤		تعاقب علي الحكم ستة سلاطين، تم خلع خمسة منهم انتهاء حكم الأسرة العثمانية عام ١٩٢٤.

من تتابع أحداث التاريخ يمكن القول أن انكسار الدولة العثمانية أتى على مرحلتين الأولى فى عهد سليمان القانونى الذى تزوج عشيقته روكسيلانا (التي سماها الأتراك خوريم) ليعطى صفة شرعية لأولاده منها، دب الخلاف بين أقدر ولدين من أولاده - أحدهما ابن لخوريم - وبدأوا حرباً أهلية عام ١٥٥٩ وتم إعدامها هما الاثنان مع جميع أبنائهما الذكور. ولو كان أحد الأولاد قد وصل إلى العرش لكان امتداد الدولة العثمانية قد استمر ولسقطت فينا فى أيدي العثمانيين. بعد موت سليمان القانونى تربع الابن المفضل لروكسيلانا على العرش - المعروف فى التاريخ باسم «سليم السكير». لأول مرة فى تاريخ الدولة العثمانية تولى العرش سلطان هزيل ضعيف لا يساوى شيئاً. لم يحاول احتلال مالطا مرة ثانية بعد الفشل فى احتلالها عام ١٦٦٥، وتبع هذا الفشل هزيمة فى ليبانتو. وكانت هذه المرحلة هى الخطوة الأولى فى انهيار الإمبراطورية العثمانية. جاءت الخطوات الثانية فى الانهيار فى عهد حفيده محمد الثالث عام ١٦٩٥. قتل هذا الرجل ١٩ أخاً له وكذلك ١٥ من محظيات أبيه الحوامل فى نفس اليوم، وقد سببت له تلك الفعلة اهتزازاً عنيفاً، كما سببت قلقاً شديداً لزوجاته وللجمهير. قرر السلطان أن يغير القانون ويفتح صفحة جديدة فى التاريخ، فى المستقبل لن يفعل أى سلطان هذه الفعلة ولن يقتل إخوانه ولكن يحبسهم فى القصر، فى غرفهم الخاصة أو فى أجنحتهم مع حريمهم بعد تعقيمهم (وتعقيم بنات السلطان). كان هذا يعنى أنه سُمح بالإبقاء على حياة الأمراء، ويمكن لأحد أعمام السلطان أن يخلفه على العرش. ولكن هذا قضى على الخبرة والمبادرة لوارثى العرش، وصار الأمر فى الحكم على قدرة الأبناء فى أيدي أمهاتهم المتنافسات أو فى أيدي الخصيان المشرفين على حريم القصر. وبهذا توقفت عملية الانتقاء لأول مرة، وتولى العرش سلاطين مُخَبَّلِينَ أو فاقدي المقدرة على الحكم الصحيح وتقدير الأمور من طول مدة بقائهم فى الحبس. (الرجل الذى حبس فترة طويلة من حياته لا يمكنه التمييز بين من تصلح من النساء للزواج).

صارت الأسرة الحاكمة على وشك الانهيار ولكن ظلت الإمبراطورية فى الوجود، تحكمها أمهات أو جدات الأمراء الألعوبة فى أيديهن. كانت هؤلاء النسوة فى وضع فريد. كانت غالبية عشيقات السلاطين أوروبيات، دخلن فى خية الحريم، وهى مؤسسة شرقية تخضع لأصول وتاريخ وعبادات تفرض على النساء الخضوع للرجال. رفضن الخضوع وتمردن واعتقدن أن بإمكانهن إدارة شئون الدولة خيراً من السلاطين. اختارت بعض تلك النسوة وزراء أول (الصدر الأعظم) فى غاية الكفاءة والمقدرة لإدارة شئون الدولة (مثل الأربعة وزراء العظام من أسرة كوبرولو التركية). ولكن كان اختيار أخريات (أو اختيار أبنائهم) شيئاً. كان الفضل الأعظم لاستمرار المسيرة يرجع إلى مدرسة البلاط، التى أنشأها محمد الفاتح، الذى استمر تأثيره على نجاح الدولة منذ توليه حتى نهاية القرن السابع عشر.

استقر النظام الجديد – مثلما استقر التقليد القديم القاضى بقتل الإخوة. صار حريم وعبيد البلاط الملكى هم مصدر القوة فى الدولة (كما حدث مع معظم الغزاة العظام من قبل)، وصاروا مصدر رعب واضطهاد للسلطين الضعفاء الأواخر فى الدولة، الذين جاؤا بعد السلطين الأوائل العظام والأقوياء. كان هؤلاء السلطين يخشون زوجاتهم وخصيانهم ووزارهم، كما كانوا يخافون من الانكشارية، ومن الولاة التابعين لهم فى مصر وفى الجزائر، ومن رعيّتهم فى روميليا وفى بلاد اليونان. كما كانوا يخافون من تعاضم القوى المسيحية التى عزلتهم وهددت دولتهم. هذا الانهيار المستمر لسلطة سلطين استنبول توقف فى عام ١٧٧٣ حينما تولى العرش سلطان كان قد حبس لمدة ثلاثين عاما، بالرغم من خوفه وطاعته العمياء قرر أن يوقف القانون المرعب وأبطل التقليد المرعب بسجن الأمراء، وبهذا تمكن هو وخلفاؤه من بعده من إيقاف سلسلة عادة التعقيم. ثم تمكنوا من القضاء على الانكشارية الذين تحولوا من مسيحيين عزاب تحولوا إلى الإسلام وخدموا السلطين بإخلاص، إلى طائفة عقيمة عاجزة واهنة تتوارث مراكزها. ولكن كان هذا منتهى ما توصل إليه سلطين آل عثمان منذ عهد محمد الثانى. كان قواد الجيش دائما من المسلمين (أو من الذين تحولوا إلى الإسلام)، ولكنهم الآن اضطروا إلى استخدام قواد مسيحيين لقيادة جيوشهم لتمكين دولة متهالكة أن تستمر فى الوجود. خلال قرون انهيار الإمبراطورية العثمانية استمر اليونانيون فى استنبول وفى سيمرنا واستمر اليهود فى سالونيك، وحتى ١٨٢٧ استمر أهالى جنوة فى السيطرة على أمور التجارة فى الدولة، التى استطاعت تكوين الجيوش ولكنها فشلت فى احتضان المتقين وفى السيطرة على أمور التجارة وهكذا عاشت الدولة العثمانية منقسمة ولم تتوحد وانهارت تدريجيا بسبب انقساماتها.

البندقية

عندما هاجم البرابرة الهمج سكان سهل البندقية الذين كانوا يعيشون فى المدن والقرى، فى القرن الخامس، هرب الجميع، فقراء كانوا أم أغنياء، يطلبون السلامة، فى أماكن لا يمكن الوصول إليها. لجأ بعضهم مع الإمبراطور إلى رافينا، ولجأ آخرون إلى البرك والمستنقعات المحمية بكتبان الرمل التى تمتد حوالى ثمانين ميلا على الساحل. وجدوا هناك منطقة نصفها ميت تملؤها البرك والمستنقعات، ونصفها حى بسواحل البحار التى تمتلئ بجزر غاية فى الصغر حيث يعيش صائدو الأسماك ومربو الدواجن ومستخرجو الملح من قديم الأزل. حط هؤلاء الأقوام واستقروا فى تلك المنطقة كما تحط طيور البحر على الشواطئ الطينية، بعد أن استقر الناس فى هذه المنطقة تبينوا أنهم يمتلكون ميناء طبيعية عظيمة واستفانوا من هذا الكشف. فهى ثغر يواجه بلاد الشرق القديمة، العريقة، ذات الثراء الوافر. وتبينوا كذلك أن تلك الميناء تمتلك ظاهرة نادرة فى موانئ البحر

المتوسط، ظاهرة المد والجزر، الذى يتميز به البحر الأدرياتيكي والذى يصل إلى ثلاثة أقدام، وكان هذا كافيا ليجدد ماء بركة كثيرة السكان. استقر السكان فى عدة جزر (أكويليا، كونكورديا، ألتينام وياوا)، وقادهم وحكمهم ونصح لهم زعماء من الإدارة اليونانية الرومانية القديمة، كما حدث فى راجوزا وأمالفى وسالرنو. ثبت بعد حين أن جزر البندقية فى موقع أفضل من جميع تلك الأماكن لبداية عمل عظيم، وهو ربط أوروبا والشمال ببلاد الشرق الغنية فى الشرق والجنوب.

الربط بين الشرق والغرب (أو المواجهة بينهما) هو الدور الذى قامت به أثينا من قبل، منذ آلاف السنين (كما قامت به أرجوس وكريت). ولكن تحول الآن مكان الالتقاء بين الشرق والغرب ٨٠٠ ميلا إلى الغرب. صار التجار الآن، والملاحون، الذين استقروا على سواحل البحر الأدرياتيكي هم المنوط بهم القيام بهذه المهمة. كان هؤلاء أقواما يقودهم كهنتهم ويعقبهم دائما البناة والصناع ومن بينهم المحاربون. بحلول عام ٤٦٦ كانت قد تكونت اثنتا عشر مدينة، وصار لكل منها تاريخها الخاص بها. كانت مالاموكو هى العاصمة الأولى (وقد اندثرت فى الطين) بنت توشيللو (فى الشمال) كتدراثية فى القرن السابع، ولكن سرعان ما تخلى عنها الناس (كما حدث فى مازوربو)، بسبب الملايا. المدينة الباقية حتى اليوم هى شيوجيا فى الجنوب. بدأ الناس فى تلك المدن الجديدة فى الحال فى اختيار ممثليهم ومجالسهم المنتخبة بطريقة ديمقراطية لإدارة شئونهم الداخلية وللتفاوض مع ملوك القوطيين أو مع قادة البيزنطيين. وفى عام ٦٩٧، - بناء على نصيحة البطريرك - كون البنادقة محكمة واحدة يحتكمون إليها فى خصوماتهم القضائية، وسرعان ما نقلت - فى عام ٨١٠ - مقر بيبين - ابن شارلمان مكان قيادته إلى مكان آخر آمن على نهر ألتو. بعد عدة سنوات ثم شراء عظام الحوارى القديس مرقس المزعومة من المسيحيين أتباع السلطان المسلم فى مدينة الاسكندرية وتم دفنها فى مصلى أقيم خصيصا لها بناء المهندسون البيزنطيون وأسبغت عليه معالم القداسة والتكريم، وبهذا اكتمل للبنادقة شكل الإمارة المستقلة. سعى المكان إمارة البندقية وضرب الأمالى نقودا خاصة بهم وأعلنوا استقلالهم الحذر عن سلطة بابا روما وسلطان الأباطرة - فى الشرق وفى الغرب - على السواء، ويعد قليل بدأوا فى بيع الرقيق من المسيحيين إلى التجار المسلمين ولم ينازعهم أحد فى استقلاليتهم. زعموا أنهم ابتدعوا ذلك المكان وجعلوه أمنا ليستقروا فيه. استمرت مستعمرة البندقية فى اكتساب مزيد من القوة بمرور السنين. أختير حاكم هذا المستقر الجديد من طبقة أصلها روماني إغريقي، ذو كفاءة حربية عالية وخبرة سياسية كبيرة من عائلات المدينة القليلة واستطاع أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته لمدة أربعة قرون. بعد أربعمائة سنة - مع بدء الحملات الصليبية فى القرن الثانى عشر ازدهرت البندقية إزدهارا كبيرا - ومعها مينائى جنوة وبيزا الإيطاليان - وزاد ثراؤها زيادة عظيمة وإزدادت قوة طبقة التجار وارتفع سلطانها. صار لمدينة البندقية أسطول كبير من السفن، وطائفة متنوعة من البحارة والملاحين، وصار للبندقية صناعة متقدمة لبناء السفن التى جابت

شواطئ البحر المتوسط. صار للبندقية محميات فى الموانى المرئية فى كل من العالم العربى وفى الإمبراطورية البيزنطية. واستخدم البنادقة وتعاملوا مع أكفأ التجار من كافة الأجناس ومن مختلف الأديان، وبدأت العائلات الحاكمة فى البندقية - لأول مرة منذ بدء هذا المجتمع - فى التنازع مع بعضها البعض. حاول رئيس كل أسرة اختيار ابنه ليكون حاكما على المدينة، ثم بدأ رئيس كل أسرة فى عقد التحالفات مع الأسر الأخرى القوية فى إيطاليا لترجيح مطلبه، ثم بدأ حكام المدينة فى زواج ابنة مركزى توسكانيا أو ابنة ملك المجر، وبهذا غلبوا مصالحهم الشخصية على احتياجات الدولة ومصالحها. كان أهالى البندقية يعتقدون أنهم مختلفون عن سائر الناس، ولذا كان امتعاضهم عظيما عندما تبينوا انحراف حكام المدينة، وكانوا على وشك الأخذ بقاعدة اغتيال الحكام الذين لا يرضون عن تصرفاتهم، ولكنهم اتخذوا سبيلا أكثر تحضرا لحل تلك الأزمة بعد أن تخوفوا من أن الحاكم فى طريقة لى يصير ملكا.

اشتعلت الأزمة بعد أن صادر إمبراطور القسطنطينية أملاك البندقية فى بلاده وبعد أن فشلت البعثة التى أرسلتها البندقية فى حل الإشكال. قرر المجلس النيابى المشكل بالانتخاب من تجار المدينة أن ينتهز الفرصة فأحجم سلطات الحاكم، وبدوا بتوسيع المجلس النيابى، ثم قرصوا على الحاكم أن يقسم على حفظ حقوق المدينة ومصالحها، عند تولى الحكم، وبالتدرج قلمصوا سلطات الحاكم وقصروها على الشكل، وتولى المجلس النيابى زيادة سلطاته فى الحكم ومسئولياته فى الإدارة تباعا. حدثت هذه الثورة خطوة خطوة بين سنتى ١١٧١ و ١٢٧٥. تكون المجلس الكبير من ٤٨٠ عضوا من كبار العائلات وزادت سلطاتهم وقويت مراكز كبار العائلات. اقتصر التزواج عليهم من بعضهم البعض أو من كبار العائلات خارج إقليم البندقية من أغنى أغنياء البلاد وأصبح حالهم كحال حكام المدينة الذين سبقوهم.

ما حدث فى البندقية كان على خلاف ما حدث من قبل فى أثينا وفى روما. حكام المدن القديمة وسعوا قاعدة طبقتهم واختلطوا تدريجيا بالشعب وتزاجوا منهم وتنازلوا تدريجيا عن امتيازاتهم التى كانوا يتمتعون بها وحدهم من قبل، أما طبقة النبلاء الجديدة فى البندقية فقد زاد انفصالها عن الشعب وقلدت إقطاعى العصر فبنت القصور والقلاع وزادت فى ممتلكاتها إلى الحد الذى لم يكن متصورا أن تستحوذ عليه من قبل. كانت البندقية جمهورية تتكون من جزيرة، وقد حولها أهلها إلى جزيرة جينية داخل الجزيرة، لا يمكن لأحد أن يخترقها. تمكن البنادقة من إحراز هذا التحول المثير من جراء نجاحهم خلال قرنى الحروب الصليبية، بين عامى ١٠٩٦ إلى ١٢٩١. كان نجاحهم بسبب تبينهم للثورة المحمومة التى حدثت للمحاربين من أهل الشمال التى استفلوها بعبود التجار

ولمصلحتهم وجنوا منها الثروات الطائلة. سقطت الدولة الرومانية الشرقية للصليبيين عام ١٢٠٤ وورثت البندقية ربع القسطنطينية كما ورثت السيطرة على سواحل بحر إيجه، فزادهم هذا النجاح غرورا في مقدرتهم وكفافتهم كطبقة حاكمة، وقلل من إيمانهم بالجماهير، التي كانت تبدى امتعاضها - كل حين وآخر - وتحاول التدخل - غير الناجح - فى إدارتهم للأمور. لمدة عشرة أجيال، أثبت نبلاء البندقية أن حكومتهم أنجح حكومات العالم قاطبة، لمصلحتهم الشخصية، ولمصلحة البندقية وللشرف جميعا. كانوا يعرفون خبايا مدينتهم وأنها مدينة حصينة يستحيل اختراقها، وكانوا يعرفون بعضهم البعض أشد المعرفة وكانوا متماسكين أشد التماسك لا يمكن إحداث الوقيعة بينهم. بعد مائة عام - بعد فشل حصار أهل جنوة لهم عام ١٢٨١ - صارت البندقية عروس البحر الأبيض المتوسط. بعد انتصارهم على جنوة، انتقى المجلس الكبير ثلاثين أسرة من عائلات البندقية الذين بذلوا أقصى جهد فى الصراع بدمائهم أو أموالهم ورفعوهم إلى طبقة الحكام وضموهم إلى دائرتهم المغلقة عليهم. صارت الثروة الجديدة فى يد أفراد جدد، وصار النبلاء يستخدمون تلك الثروات ويستمتعون بهذه المنجزات التى صنعها غيرهم، بينما استمروا فى التعالى على المنتجين الحقيقيين واستمر استعبادهم لهم واعتبروهم طفيليات على مجتمعهم. لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عن التجار الجدد، ولكنهم استمروا لا يعملون ولا يستطيعون الحكم واستمروا ممتنعين عن التنازل معهم. كان الواجب إدخال أفراد جدد إلى طبقة الأرستقراط - كما فعلت الملكيات المعاصرة، ولكنهم استغلوا الفرصة، ورأوا أن يصيبوا عصفورين بحجر واحد، فقبلوا انضمام المواطنين الأغنياء إلى طبقتهم مقابل أن يدفع كل فرد مائة ألف لوكات، ليستطيعوا تمويل حروبهم الباهظة التكاليف مع تركيا على جزيرة كريت (١٦٤٥-١٦٦٨) ومع موريا على أراضى أشجار التوت والحريز (١٦٨٥-١٧١٦). بهذه الطريقة اصطنعوا ١٢٧ فردا جديدا من التجار والمحامين وملوك الأراضى. لم تمكنهم هذه الوسيلة من إنقاذ طبقتهم وبولتهم فى النهاية، لأن الأفراد الجدد تم انتقاؤهم عن طريق ثراوتهم وكان اختيارهم خاطئا. استمرت أرباح التجارة تتناقص واستمر البنادقة الأكفاء فى الهجرة إلى الخارج واستمر النبلاء فى التزاوج مع العائلات الأرستقراطية فى إيطاليا الذين لم يكونوا خيرا منهم كفاءة. تبنوا أخيرا أن خطأهم الأكبر هو أنهم حرصوا على نقاء طبقتهم ولم يسمحوا للأفذاذ من البشر فى الدخول إليها وتعصيدها وهكذا ذابت طبقة النبلاء فى البندقية حتى اختفت. بدأ نبلاء البندقية فى امتلاك الأراضى لتوريثها إلى أبنائهم وذريتهم ففقدوا عزمهم وروحهم المغامرة وطبيعتهم كحاربين مستكشفين. لم يظهر أمثال ماركوبولو ولا كابوت. تفتتت أملاكهم بين ذريتهم، ولم يحافظوا عليها ويتوسعوا فيها (كما فعل الإنجليز بتوريث العزب والأبديات كلها للابن الأكبر)، ولجأوا إلى إنقاص عدد ذريتهم بمحاولة تحديدهم للنسل (النسل الشرعى) وذلك باللجوء إلى قاعدة «الزواج المقيد» اتفقت العائلات على

السماح لابن واحد من أبنائها بالزواج، وهكذا لا تتكاثر الأسرة ولا يتفتت الميراث. لم يكن هذا الاتفاق ممكنا لولا اقتصار مجتمع نبلاء البندقية على الاستيلاء الداخلى. بالإضافة إلى هذا فقدت البندقية كثير من أبنائها فى أويئة الطاعون التى اجتاحت البلاد بين ١٥٨٥-١٦٦٣. هكذا تقلص الحكام فى مقدرتهم وكفائتهم، فى مقدرتهم على الحكم وإدارة شئون الدولة وكفائتهم فى العمل والمغامرة والاستكشاف، وقلت أعداد من يتولون هذه الأمور. (تبين نبلاء البلاد الأخرى، التى تعتمد فى ثرائها على زيادة اتساع الرقعة الزراعية التى يملكونها - كانجلترا مثلا- أن من المصلحة البحث عن أغنى الوريثات - أولئك اللواتى ليس لهن أخوة من الذكور ليتزوجوا منهن، وهكذا يكون اختيارهم لقليلات الإنجاب بالوراثة)، وهكذا تتزايد ثرواتهم وتغنى عائلاتهم. وقع البنادقة فى خطئين مدمرين: التناسل المعزول عنصريا والمقصور على أفراد من طبقتهم، والحد من التناسل. كان العاملان معا سببا فى القضاء المبرم على البندقية. كان الإجهاض يمارس فى السر، كما كان قتل الأطفال حديثى الولادة؛ كما بدأ استخدام وسائل منع الحمل بعد القرن السادس عشر. انتشر الشذوذ الجنىسى بين ذكور البندقية (كما كان ينتشر بين البحارة فى السفن وبين ساكنى الصحارى)، حتى صارت البندقية محط أنظار ممارسو هذه المتعة المحرمة حتى عصرنا الحالى. بالرغم من كل هذه القيود استمر التناسل غير الشرعى بين مختلف الطبقات - وتدقت جينات الأرستقراط إلى طبقات المواطنين الأدنى وطبقات الصناع. فى هذا تشابهت البندقية مع سائر البلدان الأوروبية، ولكنها اختلفت عن الدولة العثمانية التى كانت تقتل أبنائها أو تخصيهم، وهكذا عندما اندثر العثمانيون فنوا جميعا معا.

مع الاستيلاء الداخلى الذى أصاب مجتمع البندقية، أغلقت أبوابها عام ١٢٩٧ عن استقدام الأكفاء من الأجانب إليها وإدماجهم فيها، وبهذا انعدم التنافس وانعدم انتقاء الأصلاح. وعند كارثتها الاقتصادية كان مجتمع نبلاء البندقية قد صار مجتمعا متماثلا، متجانسا، تقليديا، يناسب أسلوب الحياة التى اختارها لنفسه ويتفق مع القوانين التى وضعها لنفسه، له امتيازاته التى قبلها وله دستور الذى ارتضاه. كان يعتبر أن الحقوق التى نالها البنادقة أفضل الحقوق التى يتمتع بها أى شعب فى العالم قاطبة، ولذا انغلقت على أنفسهم ولم يكونوا على استعداد لتجريب أى نظام آخر ولا لممارسة أى نشاط مختلف عن أنشطتهم، كما فعلت المجتمعات الأخرى التى تطل على المحيط الأطلنطى والتى جربت أنواعا أخرى من الأنشطة، بكل عزيمة وحماس للتغلب على أزمته. كان تحديدهم لنسبهم يقودهم إلى نجاح قريب ولكن كان يحمل كل المخاطر التى حاولوا تجنبها فى الأمد البعيد.

أدى انعزال أرستقراط البندقية إلى تحطيم أنفسهم ولكنه ترك أثارا باقية معنا إلى الآن. أولها مدينة البندقية ذاتها. كان ثراء المدينة عامل جذب للمجتهدين والأكفاء من كل العالم الغربى، وكان بناء

الكنائس فى البندقية يحتاج إلى مهارة لمهندسين وعمال البناء والفنانين من بيزنطة ومن مصر لیساهموا بفنهم ومهارتهم فى بنائها وتزيینها. قدم الرسامون من قریب ومن بعيد إلى البندقية: تیتان، الجریکو؛ و قدم الموسیقون: ویلیرت وقلمنج الذین أتوا فى عام ١٥١٧ ویدعوا نظاما جدیدا فى فصل الكورس وفى تألیف الموسیقی. حفلت مكاتب البندقية بالمخطوطات التى جُلبت إثر ضم بترارخ عام ١٣٧٤ و قدم الرسامون الألمان والفرنسیون إلى المدینة ورسوموا أروع اللوحات والخطاطون الذین نقلوا أمهات الكتب وصاورا أداة كبرى فى التنویر. كانت مدینة بانوا تحت حكم البنادقة وأنشأت جامعتها العریقة عام ١٤٠٥ واحتفظت بكل تلك المخطوطات والكتب، وقد جذبت منارة العلم هذه فیسالیوس وجالیلیو وسكالینجر وتاسو الذین: قانوا الجمعة. ثم أنشئت أول حديقة نباتات فى أوروبا عام ١٥٤٥. یعود كثیر من هذا الفضل فى التنویر إلى ایهود الذین طرودوا من غرناطة عام ١٤٩٢ واستفادوا من كرم استقبال البنادقة لهم واحتضانهم فى دولتهم (حیث عاشوا فى حارة ایهود فى البندقية). أهدت البندقية إلى العالم الرسام العالمى - نو الأصل الكرىتى - الجریكو، كما أهدت للعالم جون كابوت وماركوبولو المشهور فى كافة أنحاء العالم. لم تقدم البندقية إلى العالم أى تراث أدبى أو مسرحى، نظرا لفقدان ملكة الأدب وفن التمثیل لدى أهالى البندقية. نقل البنادقة كتباً كثیرة وطبعوها، ولكنهم لم یؤلفوا. بعد قرنین من الزمان من قبول المهاجرین ایهود إلى البندقية - لجأ الأرمن إلى ولاية البندقية وصلوا فى جزيرة سان لازارو عام ١٧١٧ ومعهم كنوزهم. لعل الأثر الباقى للبندقية فى تاریخ الحضارات الإنسانية أنها كانت - لمدة ألف عام - معبرا للبشر، حیث قدموا إليها من الشرق القدیم ومن شرقى البحر الأبيض المتوسط، ورحلوا عنها إلى شمال وإلى غرب أوروبا. انصهر هؤلاء الأقوام فى بوتقة النشاط والحیوة التى عاشتها البندقية حوالى ألف عام تحت حكم طبقة ثابتة تقليدية محافظة، وكان لهذا التیار المتدفق عبر البندقية، مثل الروافد الأخرى التى عبرت سائر المدن الإيطالية، أكبر الأثر فى نشأة حضارة أوروبا الحدیثة وفى الحضارة الغربیة على وجه العموم.

غرب أوروبا

عندما انهارت الإمبراطوریة الرومانية الغربیة فى القرن الخامس المیلادى وجد الناس أنفسهم محاطین بظروف غیر مألوفة مع جیران غیر مألوفین فى أحوال من اضطراب السلطة والمواصلات. بدأ ملوك من الهمج وقادة لجیوش المتبربرین وملك الأراضى الرومانية وأعضاء السینیت من الرومان ورجال الكنيسة الكاثولیک (وغالیبتهم من أصل إغریقى أو سورى أو إفریقى)، وملاحون من موانى البحر المتوسط وتجار من ایهود، بدعوا جمیعا یتعلمون اللغة اللاتینیة، ویعرفون لدرجات متفاوتة بسلطة الإمبراطور البیزنطى ویختلفون فى معتقداتهم الدینیة، ولكنهم جمیعا اتفقوا على بناء اقتصاد

حياتهم على الاستقرار فى الأرض واستغلال فلاحين يزرعون لهم تلك الأراضى. فى تلك المرحلة كان هناك نوعان من البشر. الأول قبائل محاربة من الشمال والشرق، يقودها زعماء وحشيون، الفرانك والساكسون واللومبارد والبلغار وياقى الصقالبة، يشقون طريقهم نحو الجنوب والغرب ويشكلون حكومات فى الأراضى التى استولوا عليها، خاصة على الأراضى الزراعية. النوع الثانى من البشر كان هناك إناس قادمون من شرقى البحر المتوسط، هاريون أو مهاجرون من الدولة الرومانية الشرقية المستقرة والمتحضرة وينشئون موانئ ومستعمرات على شواطئ أوروبا الغربية ويقيّمون مدنا حول كندرائيات فى الغرب. كان هؤلاء البشر متنورين متعلمين، متحضرين من الحضارات الهيلينستية القديمة، وكانوا يدينون بالمسيحية، ونوى ذكاء وثقافة وتعليم وخبرة، لا غنى عنهم لإدارة الأقاليم الغربية الجديدة. كانوا يتقنون الكتابة (واستوردوا ورق البردى من مصر)، وأدخلوا القمح والتوابل والأقمشة والأسلحة التى كان يحتاج إليها الأوربيون. جلبوا معهم أيضا الأفكار ونشأ المجتمع اللاتينى الكبير واستمرت التجارة. توحدت أوروبا وأفريقيا وآسيا حول البحر الأبيض المتوسط بالتجانس المهدب الذى جمع بين بابا روما وبين إمبراطور القسطنطينية اللذان لم يدركا تماما الخطورات المحدقة أو الفرص السانحة التى كانت تلوح فى الأفق لكل منهما. تحت سطح التاريخ المكتوب كانت تحدث تغييرات وثيدة تعمل على تشكيل وجه أوروبا الجديدة. كان من عاون الحكام الجدد على حكم ولاياتهم إناس لقبوا بالرومان من أمثال بوثيوس وكاسيودوروس. كانوا يكتبون باللاتينية باقتدار. كانوا فيما سبق موظفين فى الحكومة، وقد اعتزلوا العمل الحكومى واعتزلوا الحياة العائلية ليدخلوا الدير أو يتفرغوا لخدمة الكنيسة، وهنا وجبوا عالما آخر. فقد استطاع تيوبور من طرسوس - وقد لغ من العمر أرذله - أن ينظم الكنيسة الإنجليزية عام ٦٧٥، واستطاع بونيفاس الإنجليزي الذى كان يعمل فى خدمة بابا سورى الأهل، أن يضفى لاتينية - عام ٧٢٢ - على الكنيسة فى ألمانيا وفى فرنسا. فى ذروة ذلك النشاط الكبير كان من الواضح أن الأجناس المختلفة التى جمعت معا كانوا يتكونون من طبقات مختلفة من المجتمع. كانوا وحدة، كثير الاختلاف، من طبقات متعددة، فى مجتمع جديد. كان المهاجرون إلى هذا المجتمع والقادمون الجدد إلى البلدان الشمالية يتناسلون مع الأقباط الجدد وينشأ منهم جنس هجين مع الأفراد الأصليين قاطنى تلك البلاد. كان الاختلاط أوضح ما يكون فى المدن وبين طبقات المجتمع العليا. عندما إزداد نفوذ زعماء القبائل الهمجية من القوطيين ومن الواندال، تزوج هؤلاء الزعماء من بنات الأباطرة الرومانيين. استمر هذا التزاوج حتى اختفت الفروق بين الأسر البربرية والعائلات الرومانية. لم يذكر التاريخ تفاصيل أسلاف الملوك الأوائل من الهمج، ولكن ما نعرفه على وجه اليقين أن أعظم هؤلاء الملوك مثل شارل مارتل ووليام الفاتح كانوا أولاد سفاح. كان أولئك الملوك أكثر ارتباطا بالرومان عن عامة الشعب، وكانوا أول

من تكلم باللاتينية، ومن المؤكد أنهم أول من تزوج بنساء من الرومان المتحضرات. حدث اندماج شديد فى الأجيال السبعة الأولى من حكم القوطيين وحكم الفرنك، وقد وضحت آثار ذلك الاندماج عندما نشبت أزمة الصراع مع المسلمين الغزاة التى هددت العالم المسيحى ثم مجئ شارلمان.

كان غزو المسلمين لسوريا ولشمال أفريقيا يعنى أن نصف سكان البحر الأبيض المتوسط قد تحولوا إلى الإسلام واستطاعوا تحويل المرافق العظيمة فى صور والإسكندرية وقرطاج (التي تحولت إلى تونس) إلى موانئ حربية للبحرية الإسلامية. من تلك الموانئ استطاع المسلمون مهاجمة جزر البحر الأبيض المتوسط واحتلالها تباعاً، ثم مهاجمة السواحل الشمالية لهذا البحر. نجح المسلمون فى احتلال كل ما هاجموا باستثناء مدينة القسطنطينية وأمالقى ونابولى وجيتا على ساحل إيطاليا الغربى، وراجوزا (ديبروفينيك الحالية) والبندقية فى البحر الادرياتيكي. فى الداخل، أوقف شارل مارتل زحفهم فى بواتيه عام ٧٣٢، ولكنهم استطاعوا بعد خمس سنوات - بمعاونة قوات عسكرية بحرية - احتلال أفينيون. واستطاع المسلمون بعد قرن من الزمان - فى عام ٨٢٨ - مهاجمة مرسليليا وفى عام ٨٤٩ حطوا فى أوستيا وتفقدوا تحصينات روما نفسها.

أثبتت هجمات المسلمين المتكررة أن جناحى المسيحية أصبحتا تمران بأزمة: البابا فى روما والإمبراطور فى القسطنطينية، وكانا عليهما مواجهة الأزمة متفرقين. كانت الأزمة التى تواجه الإمبراطور هرقل محنة حربية وأزمة اقتصادية وتهديد مباشر للعقيدة والدين. اضطر أن يسلم للمنادين بوحدانية ذات المسيح، فى سوريا وفى مصر، بدلا من اعتناقه مبدأ ثنائية طبيعة المسيح. سلم بهذا الأمر على خطوتين، فى عامى ٦٣٨ و ٦٤٨. وفى مرحلة لاحقة سلم إمبراطور آخر، ليو الأزورى، - وكان سورى الأصل - للمسلمين، ومنع التصاوير فى الكنائس. بالرغم من تلك التسليمات فقد فشل إمبراطور القسطنطينية فى الاحتفاظ بالولايات الجنوبية، كما فشل فى استردادها من المسلمين. كان العامل الحاسم فى ابتعاد الإغريق عن السوريين وعن المصريين، هو اختلافهم العرقى، وليس الاختلاف الدينى. كان التسليمان اللذان قدمهما إمبراطور القسطنطينية سببا فى ابتعاده عن كنيسة روما وداعيا لهجرة خمسين ألفا من رهبان الكنيسة الشرقية وكهنتها إلى الغرب ولجوتهم إلى روما، وتبع هذا حركة هليينستية (وتنويرية) كبرى فى الغرب، وكان هذا أحد الأمثلة الكبرى لوحدة المسيحية. فى الأيام الخالية كانت قوة إمبراطور بيزنطة تمنع بابا روما من معارضته، أما الآن، فنظرا للضعف الذى حل ببيزنطة فقد تجرأ بابا روما وصادر الكنائس الإغريقية التى تقع فى جنوب إيطاليا وحولّ نخلها إلى خزانة البابا، واتجه بابا روما إلى إعتناق مبدأ أن ملوك الغرب سيكونون أكثر احتراماً له وأشدّ تبيجلاً عن إمبراطور بيزنطة وسيكونون أقوى فى حمايته والحفاظ عليه من الإمبراطور الشرقى.

فى هذه الظروف تمكن بيت بيبين الفرانكى من تكوين أسرة جديدة فى التاريخ الأوروبى. تصاعد أبناء تلك الأسرة إلى القوة الكبرى عبر أجيال ثلاثة. كان الأب - شارل مارتل - أمينا للقصر، للملك الفرانكى خليفة كلوفيس. ثبت شارل مارتل نفسه بين أعوام ٧١٧ و ٧٤١ بانتصاراته الحربية وصار الحاكم الفعلى للبلاد. طلب ابنه من البابا - بعد أن ورث مركز أبيه وقوته - أن يثبته على العرش بدلا من الملك، ووافق البابا على أن يتولى هذا البيبين عرش البلاد وصار ملكا عام ٧٥١، ووافق الملك الجديد - بعد خمس سنوات - أن يصير البابا سييدا على مملكته. وهكذا اعترف البابا، والملك - كل للآخر - بحقوقه واتفقا على أن يكونا مستقلين عن بعضهما ولكنهما متعاونين أشد التعاون. كان حفيد شارل مارتل هو الملك العظيم شارلمان، الذى استولى على شمال إيطاليا من اللومبارد ودفن المسلمين إلى الورا فى إسبانيا وأخرج الوثنيين من الساكسونيين والصقالبة من أواسط أوروبا. صارت روما الآن فى قبضة يد هذا الفاتح العظيم، وتوجه البابا يوم عيد الميلاد فى سنة ٨٠٠ فى روما «الإمبراطور الأعظم أغسطس» أى خليفة للقيصرة الرومان حكام روما، وصار أقوى شخصية فى العالم المسيحى. ولكنه ما زال خاضعا للبابا الذى كرمه وتوجه. اتخذ شارلمان عاصمته فى إكس لاشابل أو آخن الحالية (حيث دفن). صارت تلك البلدة مركز السيطرة والقوة، وتحالف مع بابا روما، ولكن هذا التحالف سرعان ما نوى. انتهت الأسرة المالكة فى القرن العاشر وتناثرت ممتلكاتها إلى شرائم صغيرة. عادت فكرة الإمبراطورية ثانية فى أوروبا على يد أوتو العظيم فى ألمانيا فى عام ٩٦٢، حيث تم إحياء ما يسمى «بالإمبراطورية الرومانية المقدسة». كثرت المنازعات بين خلفائه وبين كنيسة روما، ولكنها ظلت كامنة ومختفية، للفوائد التى جناها الطرفين المتنازعين من صورة التعاون بينهما وبين النظم الحاكمة فى سائر أنحاء أوروبا وبين كنيسة روما: بين الملوك الفرانك والإنجليز، والبعثات التبشيرية، ونظم الإدارة الإغريقية الرومانية خلال القرنين السابع والثامن، ولكن ظلت تلك الخلافات كامنة تحت الرماد يغطيها التعاون بين مختلف أنواع البشر لتطور المجتمع الذى سار حثيثا. تعاون بين الشمال والجنوب، تعاون بين الريف والمدينة، تعاون بين الحاكم ورجل الدين، بين الغاصبين رجال الحرب وبين المسالمين رجال العدل والقانون. نشأ عن هذا كله قوة متضبطة متوازنة وليست قوة استبدادية مطلقة. هكذا كان الإعدام والقتل يتم فى السر والخفاء وليس فى العلن فى وضح النهار. أدى هذا التعاون إلى أن يستخدم شارلمان (الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب) رجال الدين المثقفين كوزراء وناصحين له (من أمثال الإنجليزى الكوين). فى هذا العهد صارت اللاتينية لغة القانون والحكومة، كما كانت لغة الدين والكنيسة. وهكذا فرقت اللغة اللاتينية بين الحكام وبين شعوبهم، كما لم يفرق أى عامل بينهم من قبل. أثبت التحالف أنه مصدر قوة للجميع، فقد أثبتت الأحداث أن كل طرف شديد الفائدة للطرف الآخر. كان التناقض بين شمال أوروبا وجنوبها شاسعا، ولكنهما كانا مكملين لبعض. عاون كل منهما الآخر على تقدم الحضارة وإزدهارها فى أوروبا. فى

الزمن الماضى، فى العالم الهلينستى والرومانى كان انتقال البشر وتبادل الأفكار بين الشرق والغرب هو الذى خلق الحضارة، أما الآن فإن الانتقال والتبادل حدث بين الشمال والجنوب وكان هذا هو الأساس فى خلق أوروبا الحديثة.

كان استقلال الدول التى نشأت حديثاً عن الكنيسة واعتمادها الكبير عليها فى ذات الوقت، طوال خمسمائة عام، ليس له سابق فى تاريخ الحضارات الإنسانية. كان مركز الكنيسة فى روما يتكون من سلطة منظمة فى مراتب متسلسلة، تعطى لأصحابها الحق - طبقاً للقواعد الدينية - للنصح والارشاد والتقويم والتصحيح والتدخل فى شئون الحكومات التى تكونت بالقوة العسكرية. كانت تقوم بهذا طبقاً لقواعد الأخلاق والسلوك التى كثيراً ما كانت تتعارض مع الفرائض الإنسانية والرغبات البشرية، خاصة لدى بعض الطبقات، وبالأخص لدى الحكام. كان دخول الكنيسة المسيحية إلى الإمبراطورية الرومانية ثورة فى حد ذاتها، وما زالت الثورة مستمرة. كان هدف الكنيسة هو خلق نوع من الوحدة وضرب من المساواة. لم تنجح أبداً فى فرض المساواة، ولكن فى الحدود الجغرافية للدولة الرومانية الشرقية حققت الكنيسة نوعاً من الوحدة الثقافية والسياسية.

كان الجديد فى المسيحية فى أوروبا، هو اعتمادها الكامل على الكتاب (كما فعل المسلمون)، وكان ما فرّق بين رجال الدين القدامى وبين عامة الشعوب هو تعلم القراءة والكتابة (لدى رجال الدين) والامية لدى سائر الناس. كانت الامية أو التعلم هو الحائل الأكبر فى المجتمع نحو تساوى البشر تحت دين ينادى بالمساواة. كان على المتعلمين أن يقولوا للاميين ماذا يفعلون، وكيف يتصرفون. كانت اللغات المستخدمة لدى رجال الكنيسة: العبرية والإغريقية واللاتينية (وسرعان ما أضيفت لها اللغة العربية) هى التى تفرق عامة الشعب عن رجال الدين، المثقفين، «العلماء». كان رجال الدين الكاثوليكى يجدون فى اللغة اللاتينية (فى انجلترا على سبيل المثال) ما يجده رجال القانون أو المحامون فى اللغة العربية (فى إسبانيا أو أنونيسيا)، كوسيلة لفرض النفوذ والتحكم التى تتسلط به المنظمة التى ينتمى إليها على سائر البشر. وهكذا صارت الكلمات، الخالية من المعانى، والأقوال عديمة الفكر، هى الأصنام الجديدة للديانات التى تتكرر عبادة الأصنام، وصارت الكتب تحل جزئياً محل الأفعال. بعد حين تقلصت اللغة اللاتينية فى أوروبا كعامل توحيد، وحدثت إستقلالية شعوب الشمال إلى فرض الإصلاح الدينى، وبدأت الكتب المقدسة تكتب بلغات الشعوب، وهكذا ذابت الفروق تدريجياً بين المثقفين وبين الاميين. بالرغم من هذا فإن الألف سنة التى فرضت فيها الكنيسة الكاثوليكية بروما سيطرتها على الشعوب، قد تركت أثراً باقياً على تلك المجتمعات حتى عصرنا الحاضر، وفرضت تطوراً على المجتمعات الأوروبية. كان أهم ما فرّق بين المجتمعات الأوروبية الغربية وبين ما حدث فى القسطنطينية أو بيزنطة أو اسطمبول العثمانية هو استقلالية تلك المجتمعات

المتردة - ولكن التي تتصاعد حثيثا - عن كنيسة روما، وانفصال الحكومات المدنية عن سيطرة رجال الدين.

لم يكن النزاع بين السلطات المدنية والسلطة الدينية جديداً في المجتمعات. كان النزاع بين الملوك في أوروبا وبين رجال الكنيسة في روما الجديدة، لكنه كان مألوفاً في المجتمعات الشرقية القديمة كمصر وبلاد فارس وبين العبريين. ولكن رجال الدين المسيحي في أوروبا في تلك العصر قويت شوكتهم وازداد بأسهم لعاملين اثنين. الأول كان الجهاز المؤثر المثقف المقتن الذي يتقن الطقوس ويستخدمها في إحداث أشد الأثر على الجماهير، الجهاز الذي تكون من تراكم الخبرة التي اكتسبتها الكنيسة من اليهود والإغريق والرومان وورثتها عن هؤلاء جميعاً. وقد سخرت الكنيسة هذا الجهاز الكنسي في خدمتها ولبلوغ أهدافها ولتحقيق مراميها ولتطوير حكومتها وللتبشير واكتساب المزيد من الرعية. العامل الثاني كان اتخاذ العزوبية كمنهاج عمل لرجال الدين وأسلوب حياة لهم. كان هليدبراند، الذي صار بابا الكنيسة الكاثوليكية بين عامي ١٠٧٣-١٠٨٥ باسم البابا جريجوري السابع هو الذي قنن العزوبية كالطريقة الحاسمة لإتمام التطور. كانت العزوبية لديه تعنى ليست الامتناع عن مزاولة العلاقات الجنسية أو التعايش على طريقة الأزواج ولا الامتناع عن الحياة الأسرية ولا عن إنجاب الأطفال، ولكن الاقتصار على إنجاب أطفال شرعيين والحفاظ على حقوقهم الشرعية الموروثة؛ اقتصادية كانت أم اجتماعية.

كانت العزوبية تعتبر الفضيلة الأولى لرجال الدين، الذين كانوا يعتبرون مختلفين عن البشر العاديين، رجالاً كانوا أم نساء. كانت العنة لديهم تعتبر كبجاً للنفس، وكان الفشل الإنساني يعتبر هبة إلهية. وكانت الفضيلة الثانية لهم هم تجنب الإرث (عندما صارت الكنيسة غنية)، تفادي إرث المال والسلطة (وكان هذا ليمتنع ظهور طبقة من رجال الدين الأثرياء الأقوياء، وقد نجحت الكنيسة في هذا إلى حد كبير). لاحظ باباوات روما أن أباطرة القسطنطينية كانوا يثبتون الأخصياء من البطارقة في مراكزهم (لأن المفترض فيهم أن يكونوا بعيدين عن أي طموح عائلي)، كما لاحظ باباوات روما أن نبلاء بيزنطة كانوا يخصصون أبنائهم (ليتيحوا أمامهم الفرص للوصول إلى المراكز العليا، سواء في الكنيسة أو الحكومة). استطاع رجال الدين في روما أن يحصلوا على كل تلك الميزات السياسية باتباع قاعدة (أو قسم) العزوبية خلال العصور الوسطى، وهكذا استطاع رجال الدين أن يحصلوا على تلك السطوة بدون أن تتغير أجسادهم وبأقل قدر من المعاناة. خصت الكنيسة الارتباط بالزواج كالنظام الشرعي الوحيد الذي تعترف به الكنيسة، وهكذا أتاحت نظاماً ثالثاً - الارتباط غير الشرعي - الذي يزدهر مع نظام العزوبية والذي كان له تأثير اجتماعي بالغ في أوروبا، كما يتضح من الاختلاف بين النظام العثماني ونظام البنادقة وبين هذا النظام في تحديد النسل. وقد وضحت ميزة أخرى

لنظام، لم تكن جلية أيام الكنيسة في ذلك العصر (ولا في غيره من العصور)، ظهرت تدريجيا بعد عصر شارلمان، وهي أن الكنيسة صارت صورة مرآة للمجتمعات التي نشأت فيها.

في مجتمع طبقي غير مستقر، سينشأ من التوالد الخارجي عدد قليل من الأفراد - حوالى العشر - لا يرغبون في الزواج ويفضلون حياة العزوبية. ينتشر هؤلاء العزاب بين كافة طبقات المجتمع (إلا بين طبقة العمال التي تتوارث مع الأرض). هكذا نشأت طائفة العزاب في الكنيسة من جميع طبقات المجتمع وصاروا بهذا يمثلون جميع الطبقات فكريا وعقليا واجتماعيا ويمثلون الاختلافات الموجودة بين طبقات المجتمع كما يمثلون الكفاءات والقدرات التي تنتشر في المجتمع. ظهرت عدة آثار بالغة على رجال الكنيسة نتيجة عزوبيتهم. نظرا لتواجد مجتمع طبقي في المجتمع خارج الكنيسة، نشأ مجتمع طبقي مماثل في الكهنوت داخل الكنيسة، متوارث أيضا كالمجتمع الخارجي. ولكن نظرا للثقافة والتعليم الذي تمارسه الكنيسة على أفرادها وتشجيع أبنائها على التحصيل والتميز العلمى والثقافى، ولانضباط نظامها الفوقى ولضعف الصلات الأسرية بين أبنائها وعائلاتهم خارج الكنيسة، صار هناك مزيد من الوحدة بين أبنائها المنتمين لأصول عائلية متفرقة أكثر كثيرا مما هو متواجد في المجتمع الخارجى. وقد فتح هذا الباب للترقى الاجتماعى لأبناء الطبقات الفقيرة، وخاصة لأبناء السفاح بين مختلف الطبقات. كانت الكنيسة دائمة التصميم على أن تضع مصالحها الخاصة فوق كل اعتبار في جميع الأوقات وبذا فرضت التناسق الاجتماعى على طبقاتها، بينما اشتعل المجتمع الخارجى بالصراع الطبقي. وقد أثر هذا وسيطر على تطور نظام الحكم داخل الكنيسة خلال الثلاثين جيلا التي شهدت تطور الحكومات في أوروبا وحتى مجئ عصر الإصلاح الكنسي.

كانت الكنيسة تسعى دائما للحصول على مزيد من الأموال ومزيد من السلطة. كانت تتاجر بالخلاص وتنتشر عبادة الأوثان وتشيع الخرافات إذا كانت في مصلحتها. كانت تتشدد غاية التشدد في فرض الوحدة على أبنائها ورفض كل محاولة للتجديد أو الاستقلالية في التفكير، ولذا أكثر اضطهادها لليهود والزنادقة وصارت لا تبالى بأى مظهر للطغيان سواء أكان تعذيبا أو إعداما علنيا أو استرقاقا أو قضاء على شعوب بأكملها، طالما كانت هذه الإجراءات بعيدة عن مصالحها. ظلت هذه العادات المتخلفة والممارسات غير المستنيرة مستمرة - لدرجة أقل - بعد الإصلاحات الكنسية وبطوائها السياسيين. لقد نشأت أوروبا الحديثة من التوازن الذى حدث بين الكنيسة والدولة من بقايا الإمبراطورية الرومانية الغربية خلال القرون السادس والسابع والثامن، عندما كانت مغلقة عن الحضارة. كانت مغلقة عن هجرات المتحضرين: كانت مغلقة عن مركز الحضارة في القسطنطينية وعن مراكز الحضارات الإسلامية والفتوحات الإسلامية والتوسعات التي حدثت في العالم الإسلامى ، بكل ما حملته من حرية في التفكير واستقلالية في التدبير.

نشأت المجتمعات الإقطاعية عندما لم تتمكن المدن من السيطرة على الأقاليم لنقص النقود وضعف طرق الاتصال ونقص الأمن والأمان وانتشار الأمية ونقص وسائل التعلم والتعليم المتواجدة في المجتمعات المدنية. كانت السلطة المركزية تحتاج في فرضها الالتزام بأداء الخدمات لا يرفع النقود، التزامات تنحدر من أعلى، من الملك، لتصل إلى أدنى مستوى، لمستوى الفلاح الذي يزرع الأرض والذي كان إخلاصه لفلحة الأرض يتوقف عليه كيان المجتمع بأسره.

استبدل شارل مارتل النظام الذي وضعته الدولة الرومانية، الذي كانت تفرض فيه ضرائب مباشرة يحصلها رؤساء رومانيون معينون بنظام آخر جديد. صارت الدولة فقيرة بعد التوسعات الإسلامية، لا تمتلك ذهباً ولا فضة. انهار التعليم في الأقاليم النمساوية وتدهورت المواصلات وطرق الاتصال وضعف الأمن. لهذا قررت الدولة الاعتماد على قوات مسلحة. لم يعد الجيش يعتمد على رجال أحرار في خدمة الملك ولكن على رجال ملتزمين بخدمة الملك. وزع الملك الأراضي على رجال تعهدوا بخدمته، وعهد هؤلاء النبلاء المحليون بدورهم إلى رجال اعتمدوا عليهم في العمل والحرب، اعتمدوا عليهم في تقديم ناتج الأرض وخدمات القتال لأنفسهم وللملك في نظير منحهم للأرض واحتفاظهم بها. كان الأساس هو تعاقد شخص تباركه الكنيسة. ثانياً الأشياء التي تبيينها شارل مارتل هو أن الاستيلاء على مزيد من الأراضي سيهيؤ له الفرصة لمنح تلك الأراضي للرجال المحاربين الذين سيكونون طوع إرادته، ويعدون له مزيداً من القوات لتضيف إلى قوته وتتيح له الفرصة على الاستيلاء على مزيد من الأرض. بالإضافة إلى هذا كانت هناك الأرض التي تتم مصادرتها من أملاك الكنيسة - التي تزايدت ممتلكاتها إلى حد كبير من هبات الأتقياء والمذنبين حتى وصلت إلى أراضي شاسعة. استمرت تلك السياسة على يد ابنه وحفيده، ونظراً لنجاحهم في فتوحاتهم صاروا قادرين على اتخاذ مبدأ أن الملوك هم ملاك الأرض، وأن هذه الأرض يجب أن توضع في عهدة المحاربين والنبلاء والأساقفة، الذين يتعهدون بخدمة مليكهم. كان على كل لورد أن يقوم بتسديد الخدمات إلى الحاكم، وأن الذي يتولى الدفع بتقديم الخدمات لا يقوم بدفع النقود. بدأ النظام الإقطاعي يستقر في البلاد إثر النجاحات العسكرية التي أحرزها شارل مارتل وابنه وحفيده وحنكة إدارتهم لأمر الدولة. توسع النظام الإقطاعي حتى شمل كل العالم المسيحي الغربي، ولكنه لم يكن مستقراً تماماً الإستقرار ولم يكن كاملاً تمام الكمال. ولكنه ساد أوروبا لأربعة قرون (وما زالت آثاره باقية معنا بعد مرور ألف سنة). اتضحت قوة النظام الإقطاعي من الخدمات المتبادلة بين الإقطاعي المستحوذ على الأرض وبين أتباعه: يمنحهم الحماية في مقابل خضوعهم له. كان النظام الإقطاعي مناسباً للظروف البدائية، فقد منح المستوى الطبقي والألقاب لمحاربي الملك - الذين صاروا الطبقة العليا في المجتمع - وصارت لهم حقوق قانونية في الدولة. أما الطبقات النخبة فقد

ضمنت حياتهم ومعيشتهم وأمنهم فى مجتمع غير آمن. قوة هذا النظام تعتمد على أنه نظام شديد التكيف: متكيف مع خصائص الحاكم وخصائص المحارب ومتكيف أيضا مع خصائص عبيد الأرض وخدامها.

نشأ النظام الإقطاعى من محاولات الحكام لفرض قوانين جديدة على الشعوب التى حكموها. كانت أول الشعوب التى شعرت بهذه الأفكار الجديدة هى الشعوب التى تقع فى مركز توسع النظام الإقطاعى، الشعوب التى تقع بين نهري اللوار والراين، الأقوام الخليط ممن جمعوا بين الخصائص الرومانية والخصائص الألمانية، الذين انفرط عقدهم أكثر من أى شعب آخر. حدث امتزاج بين الحكام فى قمة المجتمع ونشأ منهم جنس هجين، حاول تجربة نظام جديد للمجتمع يمزج بين ملكية الأرض وخضوع الأفراد. حدث امتزاج آخر بين الفلاحين فى قاع المجتمع. ظهر مزارعون فى نورماندى وفى داتلو (بانجلترا) اثبتوا أنهم أشد الناس عنادا ولا يقبلون بتاتا الخضوع تحت إمرة أى زعيم (حتى نورمان الفاتح لم يستطع الحصول على قسَم الولاء منهم). عرض هؤلاء المزارعون أن يعملوا كفلاحين محاربين، لهم ممتلكات ولكنهم لا يخضعون للنظام الإقطاعى الذى يتيح لهم الحماية مقابل تقديم الخدمات.

اتبع نظام الإرث فى المجتمعات الإقطاعية نظاما من اثنين:

١- الميراث بالتساوى بين كافة الأبناء أو بين كافة البنين.

٢- يختص بالإرث فرد واحد من الأبناء، يختارونه من بينهم أو يحدده الأب أثناء حياته أو بعد استشارة سيد الأرض أو يختص به الأرشد.

فى النظام الأول تقسم الأرض بين جميع أعضاء قبيلة المزارعين حيث يعمل ويحارب الجميع لحساب سيد الأرض - أما إذا كانت مساحة الأرض محدودة أو إذا كان من الضرورى إنشاء جيش يحدد فيه القيادات تنازليا أو إذا كان من الضرورى وجود منصب حكومى واحد، كان نظام الوارث الوحيد - الابن الأكبر فى المعتاد - هو النظام المفضل. حددت قوانين الإرث هذه تطور الأرستقراطيات وتطور الفلاحين، كما حددت عادات الزواج وطرق تحديد النسل (حتى فى مجتمع تجار البندقية). بالتدريج يصير الابن الأكبر مالكا لأبعدية. فى النظام الإقطاعى يتباعد قلبا المجتمع تباعا عن بعضهما. يصبح فلاحو الأرض، الذين يعملون فيها لسادتهم لكى يبقوا على قيد الحياة، خدام الأرض وعبيد السادة ويفقون حريتهم، ليصيروا مثبتين فى الأرض التى يعملون عليها. بينما المحاربون الذين يقاتلون لسيد الأرض أو لملك البلاد يتمتعون بالحماية الملكية فى محاكم الملك، وكانوا يعتبرون أحرارا وتعتبر ممتلكاتهم أسلحا يمكنهم الاحتفاظ بها. كان هذا التباعد، الذى سبق

وعرفه التاريخ، سببا في الضغط الذي يعانيه رجل المحراث من أصحاب السلاح في القرون التالية. كان المزارعون يتكاثرون على الأرض بدون إتاحة فرصة لهم للهجرة عن طريق الحرب أو عن طريق الانتقال للمدن. وكان هذا أيضا سببا في الاختلاف الاجتماعي وفي التركيب الجيني. كان الأحرار من أفراد المجتمع يستطيعون التحرك والزواج على بقعة كبيرة من الأرض، أما العبيد فلم يكونوا يستطيعون الزواج إلا في حدود مجتمعاتهم المحدودة، وقد أدى هذا التوالد الداخلي إلى ظهور فوارق بين سكان المناطق المختلفة وتشابهه في صفات أبناء كل منطقة. صار أبناء كل منطقة متجانسين ومتشابهين في الصفات يتحدثون بنفس اللهجات ويتطورون بنفس الطريقة.

تطور مجتمع الفلاحين في أوروبا، كما تطور مجتمع العبيد في العالم القديم من قبل بالفرص التي أتاحت لهم للمهروب. خلال ٥٠٠٠ عام من الاستعمار الزراعي لغرب أوروبا تزايدت تدريجيا مساحة الأراضي التي حرثها الإنسان وتناقصت مساحات الغابات التي قطعها الإنسان. تبع هذا المزيد من القيود على انتقال الإنسان من مكان إلى مكان وعلى اختيار كل فرد لنوعية النشاط الذي يزاوله، وقد زاد هذا من التصاق مجتمع الفلاحين بأراضيهم، ولم تزيله إلا الحرية التي أتاحت للمزارعين في الزمن الحديث بظهور المدن وبداية الصناعة والكشف عن قارات جديدة.

بدأ النظام الإقطاعي في الظهور على يد ملوك أقوياء، وبدأ ضعف ذلك النظام عندما سقط التاج في أيدي ملوك ضعاف بعد موت شارلمان. تحت حكم الملك «لويس الطيب» وأبنائه - التي قُسمت الإمبراطورية بينهم - تبين واضعو اليد على الأراضي أن بإمكانهم الاستيلاء على الأراضي التي بحوزتهم، وصارت كل أعبادية قائمة بذاتها، وتبين لهم كذلك أن بإمكانهم توريث تلك الأبعديات لولد أو أكثر من أولادهم. ثم صارت العادة أن يعين الملك فرسانا يتوارث أبنائهم الذكور لقب الفروسية (أو ألقاب النبيل). وهكذا نشأت طبقة جديدة من النبلاء تقطع عبر المجتمع قطاعا. هكذا قسم المجتمع إلى فئات ثلاثة: الغالبية كانوا من خدام المجتمع والأقلية من الأحرار، ومن هؤلاء الأحرار يختار النبلاء نواب الألقاب، مالكو الأراضي الشاسعة، الأرستقراطيون.

كثر النزاع بين الحكام ولكنه لم يعد قتالا حرا كما كان العهد من قبل. تكونت إمبراطورية أخرى تحت حكم عائلة جديدة، بدأها أوتو العظيم، الذي استحق مركزه بإنجازاته، وفي فرنسا نشأت أسرة مالكة أخرى - أسرة كابيت - التي عاصرت أسرة كارولينجي (التي ينتمي لها شارل مارتل وشارلمان) - لمدة قرن ما بين عامي ٨٨٨-٩٨٧ ثم حلت محلها. نشأت أسر مالكة في فرنسا وألمانيا وبولندا بعد أسرة كابيت. وهكذا أتاح النظام الإقطاعي المنافسة وكان النجاح حليف من يثبت مقدرته على الحكم. ثم ثبتت عائلات مختلفة ملكها في قشتالة وليون (بشمال إسبانيا)، وفي فرنسا وفي بورجاند

وفى المجر، وقد ارتبطت هذه الأسر المالكة بالزواج والمصاهرة مع بعضها البعض ومع كبار الإقطاعيين والنبلاء، لتدعيم قوتهم ونفوذهم فى الداخل ولتوسيع ملكهم (بالدولة التى تدفعها العروس لإتمام الزواج). امتدت هذه الشبكة من الزيجات الملكية إلى حدود العالم المسيحى بانتشار المسيحية وانتشار المدنية. بدأت احتفالات التتويج وطقوسه تمارس فى تلك البلدان، وتبعها انجلترا وسكوتلاندا والدنمارك والسويد والنرويج ويوندا ونوفجورود، التى انضمت إلى تلك الشبكة من الأسر المالكة الحاكمة فى أوروبا والمتراپطة مع بعضها البعض بالزواج والمصاهرة، وصار لهم خلفاء متشابهو الأصل.

أسلاف هذه الشبكة من الأسر المالكة الأوروبية كانوا من القبائل الهمجية من ناحية (كلت وتيوتون وصقالبة ومجر) ومن الرومان (النبلاء وكبار رجال الدولة والقادة العسكريين) من الناحية الأخرى. الأقلية الفعلية (فى إيطاليا فقط) استطاعوا أن يصلوا نسلهم لأصول رومانية فحسب. حدث تعاقب لعشرة أو عشرين جيلا بتوالد منتقى على الخطوط المشروعة، وأثناء ذلك حدث فكر عميق فى موضوع الانتقاء الجنىسى على أسس الزواج المتناسب. نشأت مجموعة من الناس ظلوا يحكمون أوروبا خلال العصور الوسطى. ولكن أثرى تلك المجموعة أولاد السفاح الذين غنوها بكثرة - وقد انتهى هذا العهد بسيطرة الكنيسة على عهد هيلدبراند. ساعد على امتداد شبكة الزيجات الملكية تدخل باباوات الكنيسة، خاصة تدخل هيلدبراند نفسه، الذى وضع قوانينا تنظم تلك الزيجات. طالب ألا تحدث زيجات بين من هم أقرب من الدرجة السابعة من القرابة، وهكذا صار مستحيلا أن تتكون عصابة متماسكة من الملوك داخل الإمبراطورية. بدأ الملوك ينظرون بعيدا فى الدولة أو ينظرون إلى النبلاء الأقوياء داخل النظام الإقطاعى. وهكذا استحوذت عائلات المحاربين الأشداء على ممالك (مثل النورماندين والأنجيثيين) وكذلك استطاع أحفاد فلاديمير العظيم واستطاعت أبا ابنة الإمبراطور رومانوس الثانى الزواج من أبناء وبنات الأسر الملكية فى وسط وغرب أوروبا. وهكذا ترابطت بالتدريج الأسر الروسية والبيزنطية من العائلات البولندية والمجرية وحصلوا على عرائس نرويجية، حتى اصطنابوا أخيرا ملك فرنسا نفسه، هنرى الأول (١٠٨٨-١٠٦٠)، الذى ينتمى للأسرة المالكة الجديدة - أسرة كابيت.

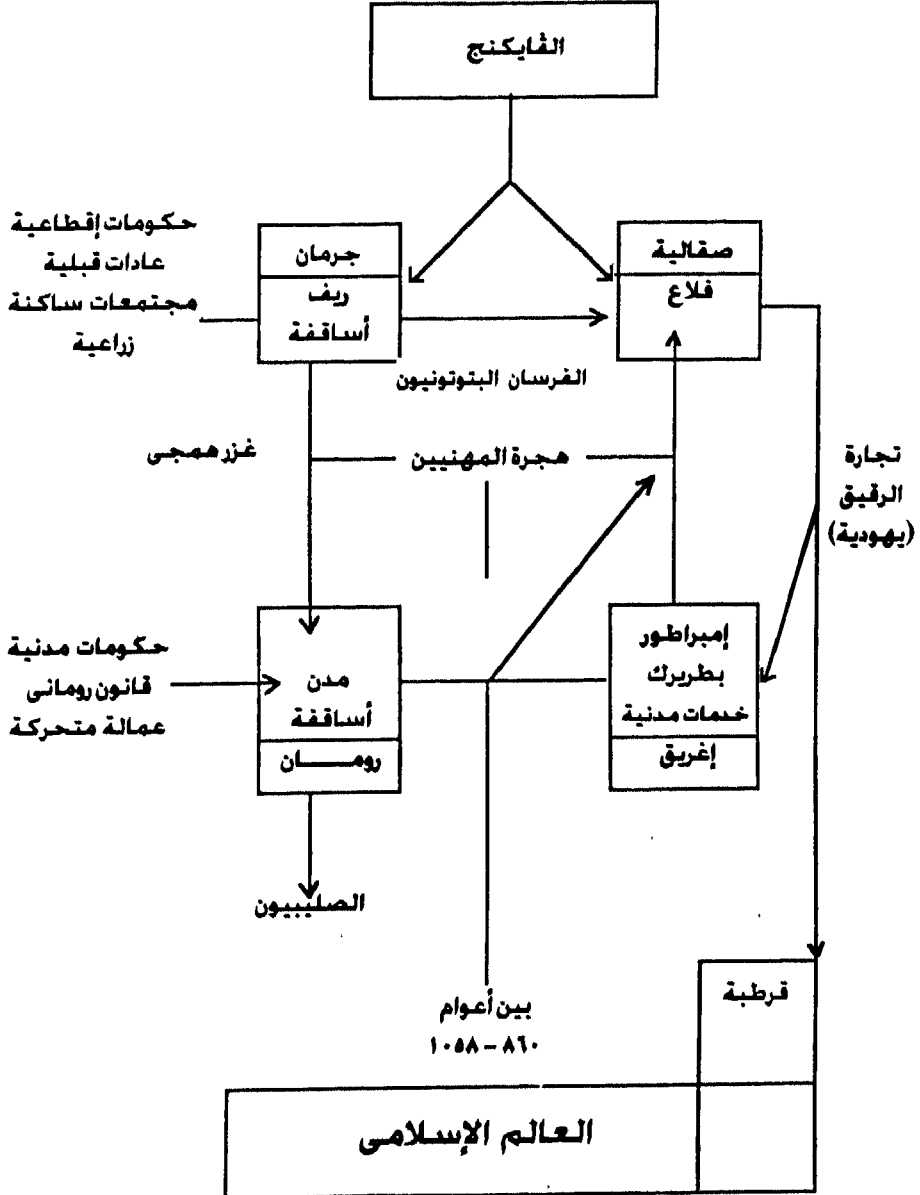
كان تدخل البابا مبنيا على لوائح القانون العبرى، الذى كان مستخرجا من الغريزة الإنسانية التى تدفع الإنسان إلى التطور وإلى التكيف. طور الإمبراطورية جستينيان هذه اللوائح وزاد عليها، وفعل البابوات نفس هذا العمل، خاصة البابا هيلدبراند، بهدف زيادة سيطرة الكنيسة. مثال ذلك، عندما تزوج ولیم النورماندى - ابن السفاح - من ابنة عمه ماتيلدا - فرض الباب عليهما بناء وتجهيز كنائس فى كين تكفيرا عن خطيئتهما، وإلا لكان قد حرم عليهما وراثه عرش انجلترا، ضمننت هذه

الزيجات مصالح الكنيسة وربطتها بمصالح الأسر الحاكمة في أوروبا من الناحية السياسية، أما من الناحية البيولوجية فقد حددت قوانين الزواج هذه نوعية الطبقة المالكة في أوروبا وصفاتها في العصور الوسطى، وتتضح أهمية هذا جليا بعد انكسار تلك البيوتات تحت وطأة الإصلاح الكنسي الذي حدث في القرن السادس.

المدنية هي نوع النشاط الذي خلقته المدن، وقد بقيت المدنية ببقاء مدن الإمبراطورية الرومانية، واستمرت إلى عصرنا الحاضر. افتقرت المدن وقل سكانها بتقطع المواصل وانهارت الحكومة في القرن الخامس، وتوقف التجارة التي عليها اعتمدت. ولكن استمرت الحياة فيها يوقع أشد ببطء حتى تبين ملوك الهمج والنبلاء أهمية النشاط التجاري وحباية الضرائب على هذا النشاط، كما تبين الأساقفة - الذين أخذوا مواقع الحكام -؛ اتجه الملوك والنبلاء الذين يتحولون إلى المسيحية إليهم وأهميتهم في فرض السيطرة على أبرشياتهم المتسعة. استمرت الحال على هذا المنوال لثلاثة قرون حتى تولى شارلمان - والمدن حية بالرغم من الأم تقلص حجمها، صارت المدن - للمرة الثانية - الأماكن التي يستقر فيها الحرفيون والصناع ويحط فيها التجار ورجال الدين، ويتحركون فيها من بلد إلى بلد - كما كانوا يفعلون في العصور الرومانية. لكن تغير الآن وضعهم كثيرا عما كان في تنظيم الدولة. الحكام الجدد لم يتربوا في المدن، بل كانوا محاربين جهلة. كانت نشأتهم خارج نطاق المدن الرومانية القديمة ونظمت حكوماتهم لتكون مستقلة عنها، ومستقلة كذلك عن النقود وعن الكلمات المكتوبة - التي كانت وسائل حياة المدينة. كان هناك دائما الشق بين المدينة والريف، ولكن الحكومة الرومانية القديمة كانت دائما حريصة على إقامة الجسور بينهما، ولكن الآن انهدم الجسر وتباعدت المدن عن حياة الريف.

كانت هناك دائما قطبية بين الدولة والكنيسة في الغرب، كما كانت هناك قطبية بين الشمال والجنوب، تمثلها الفروق بين أعمية مدن الشمال والجنوب، شكل (١٨)، في إيطاليا وفي بروفونس، كانت المدن تسيطر على الريف، وكانت مدن مثل البندقية، وبيزا، وأمالفي ما زالت تغذيها الهجرات من الشرق. وقد جاء بارونات - البارونات من أصل قوطي أو لومباردي - ليعيشوا في مدن إيطاليا ويتزاجوا مع أسر سناتورات الرومان، وبعد تهجينهم صاروا من أهل المدن. أما بارونات الشمال فقد ظلوا مبتعدين، يتزوجون من عشائرتهم ويعيشون حياة ريفية، يتشوقون للحروب ويحنون للمعارك (وصاروا فرسان وجنود الصليبية فيما بعد). كانت مدن الشمال صغيرة وفقيرة وكان بارونات الجنوب يحتقرون أهالي الشمال ولا يقيمون لهم وزنا. كانوا يستهزون بقوانينهم وعاداتهم وتجاريتهم وأموالهم ونشاطهم السلمى الذي كان مخالفا أشد للخلاف لطريقتهم في الحياة. تفرق بارونات الشمال وابتعدوا عن أهالي المدن وعن الكنيسة وعن مولد الملكيات وطبقات الإدارة الجنيينة الذين

شكل رقم (١٨)
التوازنات والتحركات في أوروبا في الأركان
المسيحية الأربعة



كانوا يتدافعون عليها. كان لهؤلاء القوم ارتباطات بالرومان (أحيانا من طريق أبناء السفاح) وبذا كانوا أكثر ثقافة وأشد تعليما ولهم قابلية لمزيد من التعلم عن إخوانهم فى النواحي القانونية والثقافية والفنية وحتى فى الشؤون التقنية. إزدادت المدن الشمالية بمرور الزمن عن مدن الجنوب، التى ظلت تحت حماية أساقفتها وتحيط بالكاتدرائيات. مدن أخرى (مثل جنت وأكسفورد) فى القرن الحادى عشر نمت تحت حماية بارون نو قلعة منيعة. من أمثال تلك المدن مدينة دبلن بقلعتها التى تعود إلى القرن الثانى عشر وموسكو بالكرملين الذى يعود إلى القرن الخامس عشر. فى تلك الأماكن عاش المحاربون مع التجار فى مجتمعات متلاصقة ولكل كنيسة.

حدث الإندماج فى المجتمعات المختلفة التى تقطن المدن الأوروبية فى خطوات متتالية. على سبيل المثال كان يعيش فى مدينة اكستر الرومانية أقوام من الكلت، وعندما صارت مدينة سكسونية استمر هؤلاء القوم يعيشون فى حى مستقل له طرقاته الملتوية والضيقة، التى ما زالت متواجدة فى تلك المدينة إلى عصرنا الحالى رغم أن الكلت قد تم طردهم تماما من مدينة اكستر - لتمردهم وعصاينهم - منذ أكثر من ألف عام. لم يندمج الكلت مع الساكسون ولم يصيروا أرقاء لهم وكانوا شديدى الاختلاف عنهم بحيث لم يتم الزواج منهم. أمر آخر حدث بعد الفتح النورماندى، فقد تبع التجار والصناع الفرنسيون الحكام الجدد (إن لم يسبقوهم بقليل فى الاستقرار فى تلك المدن)، وأقاموا مجتمعاتهم حول نوتنجهام وستامفورد وبقية المدن السكسونية. بعد قليل فقدت تلك المجتمعات شخصيتها المستقلة وقبلت التكلم بلغة الغالبية من السكان الإنجليز واندمجوا معهم وصاروا جنسا مهجنا (الأنجلوساكسون). كان لكل هذا الاستيطان نفس الآثار الجينية الوراثية المنتقاة التى أثرت الجنس. كان الاستيطان فى الحضر أسرع أثرا من الاستيطان فى الريف، وذلك لأن الاستيطان فى الريف يتم فى قرى منفصلة ولا يتم التهجين بين سكان كل قرية والقرى المجاورة إلا فى أضيق الحدود. ولهذا تحتفظ المجتمعات الريفية بخصائصها لمئات السنين (أو لآلاف السنين). من أمثلة هذا: المستعمرات الألبانية فى كالابريا وفى صقلية، المستعمرة اللومباردية على نهر أرنو، المستعمرات الألمانية التى زرعها شارل الخامس فى إسبانيا والمستعمرات المورافية التى غرسها الإنجليز فى أيرلندا.

ينحدر عمال المناجم فى بريطانيا من عمال مناجم حجر الصوان فى أرض الطباشير ومن عمال مناجم القصدير فى كورنويل، وقد هاجروا فى العصر الرومانى إلى دربيشاير وغيرها من الأماكن وفى الأزمنة الحديثة استقروا فى مختلف قارات العالم، وفى عهد الملكة إليزابيث دخلت صناعة مناجم النحاس إلى منطقة البحيرات من بوهيميا ومورافيا (وما زالت أسماؤها الألمانية معنا إلى العصر الحالى). أما بناء السدود والمصارف فقد بدأت فى مصر وفى بابل وتطورت فى شمال إيطاليا

وتقدمت إلى حد كبير في العصور الوسطى في هولندا. وقد استقر رجال السود في الأراضي الواطئة واتخذوا لأنفسهم اللسان الهولندي والصفات الهولندية، وعلى عدة أجيال تكونت منهم الأمة الهولندية، وكوتتهم هولندا وصاروا قوما رحلا، ارتحلوا إلى جميع أنحاء أوروبا وإلى أرجاء العالم. يوضح هذا المثالان: صناعة المناجم وحرفة الصرف أنه بفضل التوالد الداخلي تنشأ الحرف وتبقى على مر العصور. فكلما إزدهرت حرفة من الحرف تكونت مستعمرة تتبناها وتحافظ عليها ويبدأ التوالد الداخلي لاستمرار الحفاظ على تلك الحرفة. عندما تبدأ مستعمرة ما في التدهور والانقراض، يبدأ التوالد الخارجي ويتبع ذلك تطور الحرفة أو التفوق عليها. وهناك فرق بين الاستيطان الاستراتيجي الثابت والاستيطان الديناميكي المتحرك. فقد زرع هنري الأول فلاحين فلمتلك في بمبروك في الريف بينما أدخل إداوارد الثاني واليزابيث نساجين فلمتلك في المدن. كان معدل التهجين في الريف أقل من ١ : ١٠٠٠ بينما ارتفع في المدن إلى أكثر من ١ : ١٠٠. في الريف فشل هذا الاستيطان في إثراء المجتمع الريفي المحافظ الثابت بينما أثرى المجتمع المدني هذا الاستيطان وأخرج نوعيات جديدة من البشر عملت على تقدم المجتمع وتكيفه وسرعة تطوره. وقد حدثت مرحلة أخرى عندما بدأ التجار الجدد يهاجرون إلى أبعد مناطق نفوذ القوى الملكية والإقطاعية، ويدؤا في بناء مدن خاصة بهم، لها قوانين خاصة بها، يدافعون بأنفسهم عنها بدون الاستعانة بالملوك أو اللوردات. نشأت تلك المدن على حافة العالم المسيحي وعلى أطرافه مثل مدن هامبورج وهانزا، متتبعة المثال الإيطالي. أظهرت تلك المدن كراميتها للنظام الإقطاعي ولطبقة اللوردات والبارونات. لم يقبلوا وجود ملك عليهم ولا نشأة طبقة فرسان لديهم. انتخبوا قضاتهم بأنفسهم وكانوا نقاباتهم وجمعياتهم ورئاستهم، وبعد عصر من الحركة والتنقل والارتقاء صارت لهم طبقة عليا متوارثة ووضعوا لأنفسهم سساتير المعالك - ولكن تتميز بقوة سلطان المدينة وبالمساواة.

صارت المدينة حينئذ عنصرا سياسيا في العصور الوسطى. فقد اعترفت لندن بالفتاح واعترف الفاتح بلندن. بعد قليل بدأت العاصمة تطالب بحقوقها من الملك ومن اللوردات ومن الجميع. عندما تزايد النزاع بين فئات المجتمع المختلفة انحازت المدن القوية للجانب الضعيف. ساندت لندن اللوردات الإنجليزي ضد الملك جون وساندت باريس ملك فرنسا الضعيف - فيليب أغسطس - ضد البارونات الفرنسيين.

بدأت قوة المدن تظهر تدريجيا في فرض القانون، ونبذ أهالي المدن لخرافات الهمج والمحاربين. رفض العقلاء من أهالي المدن المحاكمة بالتعذيب أو المبارزة ولجوا إلى القضاء وإثبات التهمة بالدليل والشهود - بالطرق المتحضرة القديمة التي بدعها الرومان. ولكنهم استبدلوا الوسائل المتحضرة القبليّة التي تقضى بالعقاب بالفرامات على المخطئ إلى الحكم بالتعذيب ويتر الأعضاء

والإخضاع على ارتكاب الجرائم - تلك العقوبات الوحشية التي أبطلتها حضارات الشرق القديم من أمد بعيد ولكن أعادتها أوروبا في العصور الوسطى، أضافت إليها الكنيسة الحكم بالحرق على المخالفين منذ عام ١١٦٣. وكان تنفيذ تلك الأحكام علانية أحدى وسائل التسلية للجماهير حتى عهد قريب (كان آخر تلك الأحكام العلنية تنفيذ الحكم بالشتق علنا في إنجلترا على امرأة في قلعة تشستر عام ١٨٥٦).

تعود نشأة المدن إلى الحرية المتاحة للصناع في المدن بالانتقال من مدينة إلى أخرى، خاصة من المدن المسلمة أو من المدن البيزنطية. كانت هناك فرص متاحة للمهرة من الصناع في الانتقال لمدن أوروبا الغربية للعثور على أعمال مناسبة. كان الجميع يبحثون عن أفضل فرصة للعمل لتظهر مواهبهم وتبين كفاءاتهم. كان اتجاه الهجرة دائما من المدن الكبيرة في جنوب أوروبا إلى المدن الصغيرة في الشمال. استقبلت المدن أيضا أعدادا كبيرة من عديد من المجتمعات غير المحمية الصغيرة، فقد دعا تجار جنت النساجين من البلاد ليأتوا إلى المدينة، حيث يجمع لهم الصوف من إنجلترا ثم يصدر القماش بعد تصنيعه. وهكذا اجتذبت المدينة بحفاوتها الصانع المنفرد وشجعت على الاستقرار بها، كما استقطبت اللاجئين الشارد من مجتمع الإقطاع. وكان القن - عبد الأرض - الذي يقطن المدينة لمدة تزيد عن عام يستطيع امتلاك حريته. وهكذا استطاعت المدن فك قيود مجتمع الإقطاع، وكذلك أدمج منشئوها اللاجئين بالسكان المحليين واكتسبت عرقية إقليمية جديدة أو صفة قومية، وزادت من اتساعها بإدماج عناصر ريفية إضافية - عادة تلك العناصر المغامرة.

كانت تلك الحركة - مثل حركات تحرك السكان - منتقاة، وابتدأت بهجرة العقول من الأرياف إلى المدن وزادت في الفروق بين الريف والحضر. صار مواطن المدينة ذلك الشخص اليقظ، النشط، التقدمي بينما مواطن الريف ذلك الفلاح، الرعوى، المحافظ، المحتفظ بذكائه القطري. وهكذا انقسمت المجتمعات إلى مجموعات منفصلة تحولت بالتهجين الشديد البطء إلى جماعات تختلف عن بعضها اجتماعيا، تتناقض مع بعضها البعض كما تتعاون مع بعضها خلال فترة التهجين الطويلة. وكان الخلاف الحاد في بعض الأحيان والتهجين السريع في أحيان أخرى سببا في دمار بعض المجتمعات التي لاقت ذلك المصير.

كانت العاصمة لها وضع خاص في تلك الهجرة المنتقاة. كان ملوك العصور الوسطى يتبعون أعمالهم حولهم، كان شارلمان، كما كان وليام الفاتح دائما في قتال وقلما تواجدا في بلديهما، وكان الملك جون يحمل تاجه معه أينما ذهب. ولكن هؤلاء الملوك جميعا تركوا كبار إداري دولتهم خلفهم في عواصمهم كما هيئوا لثرواتهم أن تتجمع في تلك العواصم. كان مكان لندن - كميناء بحري - يهيئ

لها موضعا خاصا لتتطور عاليا . كان التدفق المستمر للاجئين إليها يترتب عليه تكوين أحياء خاصة لكل مجموعة قومية أو سياسية أو اجتماعية أو تجارية، وظهر هذا واضحا جليا في أسماء الشوارع كما ظهر في السجلات التاريخية الرسمية، ولكن كان هناك ضغط مستمر على الغرباء ليخفوا أصولهم. حضر إلى تلك العاصمة - إلى لندن - رجال يبحثون عن الثروة من الريف القريب ومن جميع أنحاء البلاد. جذبت السلطة والثروة القادرين من الرجال والمغامرين من كافة الأرجاء. حدث نفس الشيء في باريس - كما سبق حدوثه في بابل وأثينا والاسكندرية وروما، وكما حدث فيما بعد في سكوتلاندا وأيرلندا. وعندما انتقلت العواصم من تلك المدن فقدت جاذبيتها للبشر وابتدأ سكانها يهجرونها إلى لندن. حدث نفس الشيء لثينا عندما صارت عاصمة لأسرة الهابسبورج ولبرلين عندما صارت عاصمة لأسرة هوهنزوليرن.

كان لنمو وانتشار المدن في أوروبا عوامل كثيرة - كما كان لهجرة الإغريق والفينيقيين في الأزمنة الماضية وإنشائهم للمدن في حوض البحر المتوسط واستيطانهم بها، كانت تلك العوامل متشابهة: عسكرية وتجارية وصناعية وريفية، وشملت المتشردين والسكران، كما شملت النبلاء والملوك، شملت الهاريين من السيول ومن فتوحات المسلمين ومن اضطهاد المسيحيين، واستمرت بلا انقطاع لما يزيد عن ألف عام. لا يمكن فصل تاريخ المدن الأوروبية عن تاريخ الهجرات إليها، وكان أثرها هو تكوين المجتمعات المختلطة. كانت لندن في القرن الثامن تعتبر مدينة مخطلة، تتكون من أمم عدة، وما زالت إلى الآن. ولكن في كل تلك القرون لم يتعد تعداد الأجانب عشر سكانها. استمر انعزال الطوائف الأجنبية في لندن واستمر التزاوج بين أبناء كل طائفة - رغم تركهم للغاتهم الأصلية - واستمر احتفاظ تلك الطوائف بدياناتها وأعمالها. لم يتم التزاوج بين مختلف الطوائف إلا بعد أن ترك الأفراد صناعاتهم الأصلية ولم يتم التهجين بينهم إلا بتغيير وسائل الإنتاج والتعليم وتغيير الحكومات أو بالتخلي أو الهجران - خاصة في زمن الحروب - للغتهم الأصلية وأسمائهم. لعل أوضح مظاهر تغيير العمل هو الفصل بين الصناعة والبيع. في المدن القديمة كان الحرفي أو الصانع يقوم بنفسه ببيع منتجاته، وكانت كل حرفة أو صنعة تمثل حيا بعينه أو شارعا بذاته يحمل اسم تلك الحرفة أو الصناعة، وكثيرا ما حملت العائلة نفس الاسم. بنمو المدن في العصور الوسطى تعقدت الصناعات وبازدياد المهارات اللازمة لها، انفصلت تدريجيا عن بعضها واختلف العائد المادي لها. انفصل الطحان عن الخباز وصار الطحان أكثر ثراء واستبدلت الفوارق بين مختلف المهن وصارت الفوارق اقتصادية، وتطورت تلك الفوارق لتصير فوارق اجتماعية، تفصل المجتمعات - خاصة في المدن - إلى طبقات يعلو بعضها بعضا. ولكن ظل المجتمع متماسكا ومترابطا رغم كل شيء حتى القرن الخامس عشر عندما انفرط عقده حينما ظهرت أفكار جديدة عصفت بالاستقرار الذي ظل لقرون عديدة طوال العصور الوسطى، عندما حل عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني بأوروبا.

التاريخ القديم

غزاة من الشمال

الفايكنج

شعر المسيحيون في شمال أوروبا في القرن الثامن بعدو رهيب قادم من الشمال، يسقط على سواحلهم حارقا مستوطناتهم وحاملا معه مواطنيهم كسبانيا، الفايكنج الوثنيون الهمج، حطوا عليهم من عالم مجهول لهم، ولكنه عالم ذو تاريخ قديم. كانت سكنديناڤيا مقطونة بقبائل من الصيادين وجامعى الغذاء من أهل اللابلاند رعاة غزال الرنة ومن صيادى السمك الفنلنديين، وكليةما قد جاء أصلا من وسط آسيا. من بين هؤلاء استقر المزارعون الأوائل، ثم جاء القوطيون عبر بحر البلطيق وأعطوا للبلاد لغتهم القوطية ووصل المستكشفون الأوائل إلى بريطانيا جالين معهم ديانتهم وأثارهم. وفي الألف سنة الأولى قبل الميلاد جاء جنس جديد وحط بالقرب من ستالينجراد ووصل بين الشرق القديم وبين جنوب السويد. هؤلاء الأقوام الشجعان كانوا رفقاء أولئك الذين اشتبكوا مع داراوسجل هيرودوت وقائهم ووجدت قبورهم المبطنة بالسجاجيد فى بازيريك فى ألتى. كانوا يستبدلون الخيل بالعنبر والعسل والفراء وجلبوا الحديد إلى الشمال من شمال الأناضول. كان هذا التدفق الحثيث للحياة الإنسانية مستمرا حتى توقف فجأة بانتصار الرومان على الميثرديين عام ٦٤ ق.م. فقد السكيثيون والشاليبيون مصدر الحديد فاتحوا سويا ورحلوا عبر الطريق المالكوف إلى بلاد البلقان خلال عدة قرون، وتزايدوا مع تحسن الطقس فى بلاد الشمال قبيل الميلاد. وصل هؤلاء المهاجرون إلى السويد واتحدوا مع القوطيين ورحلوا سويا واحتلوا جنوب النرويج. كان غالبية سكان الغرب من القوطيين، الفلاحين، المغامرين والمستقلين الأحرار الذين يعيشون فى بيوت من الخشب حول الخلجان البحرية المحمية فى جماعات أسرية صغيرة تنتسب للأمهات، بينما كان غالبية سكان الشرق يعيشون على البحار المفتوحة فى بيوت حجرية من السكيثيين وينتسبون للأباء.

من هذا الخليط من الأجناس من الرعاة السكيثيين ورجال البحر السكنديناڤيين والمزارعين بدأ الاسكندناڤيون يتلقون مهاجرين دفعوهم لمزيد من التقدم. تلقوا أولا عمال الحديد من الرومان عن

طريق بوهيميا ثم وفد إليهم بناء السفن الرومان والملاحون عن طريق موانئ الغال والراين. وجاء إليهم أيضا حملة الفنوس فقطعوا الأشجار وأزالوا الغابات وبدأت الزراعة تتغلغل إلى داخل السويد والنرويج وأخيرا بدأت التجارة مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية وذهب الرجال المحاربون للقتال مع القوات البيزنطية. وعند عودتهم جلبوا معهم كنوزا من الذهب والفضة وصناعا - أحرارا وعبيدا - صنعوا الآلات والأسلحة والمجوهرات لتستعمل في السلم والحرب.

كفلت تلك المهارات للفايكنج تخطيط معسكراتهم في الدانمرك بدقة الرومان باستخدام مقياس القدم. كذلك تمكن الفايكنج من بناء سفن متقدمة باستخدام مهارات تعلموها من الإنجليز والساكسون، وكانت تلك السفن تعتمد على المجاديف فحسب وتمكنوا بها من الإغارة على بعض أجزائها، ولكنهم استوردوا من إنجلترا أيضا الصناعات الانجوساكسونيين إلى السويد.

في نفس الوقت بدأ الفايكنج السويد هجومهم في حقل توسعهم الثاني. حوالى سنة ٨٠٠ استقروا في مستعمرة جديدة تم إنشاؤها بجوار البحيرة الروسية العظمى عند لادوجا القديمة. عرف هؤلاء المستعمرون الجدد لدى سكان البلاد الأصليين من الفنلنديين بأسماء: رولنتى وفاراجير. دخل هؤلاء البلاد كتجار وكمحاربين وأنشأوا مراكز حصينة على الأنهار الروسية. سرعان ما صارت تلك المستوطنات قلاعاً لئلا فيدرالية ساهم في تكوينها أيضا التتار الذين كانوا في ذات الوقت يتوغلون في حوض نهر الفولجا وسميت تلك الدولة باسم مهجن «روساخاجانيت».

كانت حكومات الفايكنج تنشأ أحيانا بالاتفاق وفي أحيان أخرى بالدعوة لتسلم مقاليد الحكم، (مثال الدعوة التي وجهت إلى كوريك وإخوانه «بلادنا فسيحة وغنية ولكن ينقصها النظام، تعالوا لحكمها»). هذا المثال مشابه لما كان يحدث في الهند وفي أفريقيا عندما يفضل أقوام من المزارعين رجالا محاربين - من أصل الرعاة، ودائما غرباء عنهم - ليحكموها. بعد أربعين عاما فقط كانت دولة «روساخاجانيت» ترسل سفراها للإمبراطور ثيوفيلس بالقسطنطينية، وبعد مائة عام بدأت المدن تظهر في تلك الدولة بأسماء: نوفجورود، بسكوف، سمولنسك، بولونسك، وروستوت على مصب نهر الدون، وأشهرها كييف على نهر الدانيير التي سرعان ما صارت عاصمة إمارة مسيحية استقدمت مجندين من بلاد الشمال ومن الإنجليز للخدمة في حرس الإمبراطور. في تلك المدن بدأت الدولة الروسية والمجتمع الروسى من جنس هجين من الفايكنج وسكان البلاد الأصليين.

كان الحقل الثالث لتوسع الفايكنج إلى أيسلندة وجرينلاند وإلى أمريكا. عندما وصل الفايكنج إلى أيسلندة وجنوا أن رهبانا أيرلنديين سبق لهم الاستقرار في تلك الجزيرة (وقد عابوا فيما بعد إلى

أيرلندة). بعد عدة أعوام - فى عام ٨٧٢ - ظهر زعيم عظيم هو هارولد هارفاجر وأخضع جميع زعماء القبائل هناك وتم نفيهم خارج البلاد. بعد خمسين سنة نظم هؤلاء أنفسهم وأعدوا حملات استعمرت الجزيرة ونشأ شعب جديد ومجتمع جديد قوامه ١١٠٠ شخص يرعون الأغنام ويزرعون الحبوب ومعهم حدادون وبناء سفن وصيادو سمك وصيادو حيوانات، مما جعل من الجميع شعبا متوازنا ومجتمعاً مستكفياً، وفى خلال مائة عام تزايد تعداد الشعب حتى بلغ ٤٠ ألف نسمة. كان شعب أيسلندة شعباً نوثاليدى استقلالية وسرعان ما كونوا جمعية برلمانية، اجتمعت لأول مرة عام ٩٣٠. واستمرت أيسلندة مستقلة حتى سيطر عليها ملك النرويج بعد ٢٠٠ سنة. بالإضافة للمزارعين من النورس (أهل الشمال) كان هناك جماعات من الأيرلنديين المستعمرين غير المسيحيين. فى عام ١٠٠٢ استطاع ملك النرويج المسيحى أولاف تريجفاسون أن يقنع البرلمان الأيسلندى باعتراف المسيحية، وكان لهذا التحول الدينى أثر حاسم فى تطور الأمور. كانت أيسلندة مقسمة إلى أحرار وعبيد، إلى مقاتلين وفلاحين، وكانت دولة منعزلة بعيدة عن العالم، يسكنها أهل الشمال والأيرلنديون وكان النزاع كثيراً بين فرقائها. حول اعتناق المسيحية أيسلندة إلى عصر جديد: بدلا من القتال بين فرقائها والحريق المتعمد لممتلكاتهم، صاروا شعباً مسالماً وتغيرت أخلاقهم وتهدت طبائعهم وبدوا فى بناء دولتهم، وكان الأيرلنديون نوى الإسهام الأكبر فى بناء الحضارة. صار أهل أيسلندة - وما زالوا الآن - من أحسن القصاصين فى العالم ولديهم مملكة كبرى لرواية الروايات وحكاية الحكايات، وأهل أيسلندة أكثر أمم العالم قراءة للكتب. قد يعود تاريخ قص مختلف البلدان منذ القرن السابع الميلادى. ثم تمكن الفايكنج من استخدام السفن الشراعية التى تمكنت من الملاحة فى البحار المفتوحة خلال أشهر الصيف واتقنوا صناعة السفن التى تتمكن من اختراق البحار؛ السفن متراكبة الألواح التى تبلغ خمسين طناً ذات الشراع المربع. خلال القرن التالى تبين قادة الفايكنج أنهم لم يسبوا الأنهار والمياه الساحلية فحسب بل سادوا البحار الصغيرة وجزءاً من المحيط نفسه. مكنتهم سفنهم المتطورة من بدء التجارة ثم الاستكشاف ثم الاستعمار، وبدوا القرصنة والإغارة على السفن والإمساك بالرجال والنساء ثم بتجارة الرقيق. مكنتهم من الانطلاق وحرية الحركة كما مكنت الخيل معاصريهم من البنى. وهكذا تمكن الفايكنج من أن يجوبوا سواحل الإمبراطورية الرومانية فى نفس الوقت الذى جاب فيه العرب المسلمون الصحارى على حساب المستوطنات المسيحية المستقرة. كانت تلك أيام استعباد وتعدد زوجات وتهجين.

من هم الفايكنج؟ هم إناس سيطروا على البحار، أبحروا من خلجان صغيرة أو جداول أو روافد أنهار ضيقة أو موانى على الشواطئ الاسكندنافية خلال القرون من الثامن إلى الحادى عشر. كانوا بشراً مخلطين يتكلمون باللهجات الاسكندنافية، يقودهم فلاحو سواحل اسكاندينافيا ورجال من

سواهم من الأمم التي ألفت برجالها على السواحل الاسكنديناقية. وحدت طريقة الحياة بين هؤلاء الرجال جميعا، وهى حياة السفن، فقد صنعتهم سفنهم. سر بقائهم على قيد الحياة هى مقدرتهم على التعامل مع السفن بنجاح. كان بقاؤهم دائما منتقى - لا يبقى منهم إلا الأصلح - كانوا يعبدون آلهتهم القديمة - وخاصة أودين إله الحرب - بالإضافة إلى تقديسهم لسفنهم، التي كانوا يدفنون بها ملوكهم وملكاتهم. سر نجاح الفايكنج خلال أربعة قرون - بالإضافة إلى مهارتهم فى اختراع السفن ومقدرتهم على حسن الملاحة بها - هو تحسن المناخ (الذى يعكسه تحليلات حبوب اللقاح)، تحسنا مكنهم من الانتشار وفتح أمامهم أبواب عالم الشمال فاستقروا فيه - كما استقرت الأقوام النيوليثية منذ ألفى عام. كان انتشارهم منتظما وكانت الحروب بينهم قليلة قبل توسعهم وساد بينهم قانون حق البكر فى الإرث كله (وقد ظهر أثر ذلك القانون فى تنظيماتهم الاجتماعية فيما بعد). وخلال أربعة قرون اكتسحوا فيها البحار تغيرت طباعهم بشكل كبير وتهجنوا مع أقوام عديدة وكونوا أمما مختلفة.

كان التطور سريعا واختلفت طرائقه فى الحقول الأربعة الكبرى لتوسعهم البحرى. أول تلك الحقول كان إلى الجزر الغربية. حوالى سنة ٧٠٠ بدؤوا يستعمرون جزر الفارو وشتلاند والهيرديز - التي كانت تكاد تكون خالية من السكان، ثم تحرك النورس فايكنج عند نهاية القرن واستوطنوا فى سواحل أيرلندة وغربى اسكتلندة. أخذوا معهم فلاحين استقروا فى تلك الأماكن. فى أيرلندة بنوا قلاعما تطورت لتصير مدن دبلن ووكسفورد ووترفورد وكورك وليمريك، التي سرعان ما صارت مراكز عالمية للتجارة وبداية لدول سرعان ما تحولت للمسيحية وتكلم باللغة الجالية. بنهاية القرن التاسع دخلت تلك الدويلات «الأوستمانية» فى حروب عائلية - مع بعضها البعض - حروب ملوك وملكات أيرلندة (من أبرز شخصيات ذلك العصر بريان بورو). بعد قرنين من الزمان - حوالى سنة ١٠٠٠ كان قد تم تهجين الجنسيتين: الأوستمانى والجالى، تماما عند القمة، وجزئيا عند القاعدة. صارت الفروق بين الأوستمانيين وبين الجاليين كالفروق بين سكان المدن وسكان الريف فى باقى أنحاء العالم. تحول الفايكنج خلال القرن التاسع إلى انجلترا واستمرت مهاجرتهم لها قرنين من الزمان حتى استقروا فى الأساطير وحكايتها للوثنيين الأوائل الذين اعترضوا على اعتناق أيسلندة للمسيحية وترجع أصول هؤلاء الوثنيين إلى الشعراء الأوائل من الجنس الأرى الذين استقروا فى أوروبا فى بداية عصر البرونز. تم نظم الأساطير الشعرية خلال قرون، وأشهر أبطال تلك الملاحم نجال (الذى يعرف باللغة الأيرلندية باسم نيول وباللغات النوردية نيلز أو نيلسين وباللغة النورماندية فيتزنييل أو أونيل وبالإنجليزية نلسون وباللاتينية نيجيلس أو نيجل). تظهر تلك الملاحم صفات الشعب الأيسلندى ومميزاته التي لم تتغير لآلاف السنين فى مؤسساته وإبداعاته ولغته. يمتاز الأيسلنديون بكونهم شعبا

محافظة لأشد درجات المحافظة وقد يعود هذا إلى المناخ الشديد الذى لم يسمح لهم بالتكاثر ولا يجذب مزيد من المهاجرين واستمروا شعبا صغيرا، منعزلا، متجانسا، شديد التجانس. أهم محتويات تلك الملاحم هو قصة الكشف الشهيرة عن جرينلاند وعن أمريكا. فى إحدى الرحلات العاصفة وصل إيريك الأحمر بسلام مع أربعة عشر سفينة من الخمس وعشرين إلى جرينلاند، وأسس مستوطنة عام ٩٨٦. وفى عام ١٠٠٠ تمكن ابنه ليف إريكسون من الهبوط على شواطئ كيب كود، ولكنه لم يتمكن من الاستيطان على الشاطئ جنوبا حتى لونغ أيلاند. ولكن استمرت التجارة فى الأخشاب حتى عام ١٣٤٧.

بحلول عام ١١٠٠ بلغ عدد من استوطنوا أيسلندة ٥٠ ألفا ومن استوطنوا جرينلاند ٢٠٠٠ ولكن إزدياد برودة الجو وزيادة خطورة الاتصالات البحرية، التى صارت أشد لزوما كانت العامل فى عدم زيادة عدد السكان، حتى أن حكومة الدانمرك فكرت فى القرن السادس عشر فى إجلاء جميع مستوطنى أيسلندة، خاصة بعد أن اندثرت مستعمرة جرينلاند لقرن من الزمان. حدث آخر اتصال بمستوطنى أيسلندة فى عام ١٤٠٨، ولقرن كامل حرم أهالى تلك المستوطنة من الحبوب ومن الحديد واضطروا لصنع أسلحتهم من العظام، وقد وصل زحف الاسكيمو شرقا قادمين من السواحل الشمالية لكندا إلى جرينلاند فى القرن الخامس عشر وتغلبوا على البقية من الأحياء فى جرينلاند.

بحلول القرن العاشر تحول الفايكنج من غزاة إلى مستعمرين، وبدلا من مهاجمة شواطئ أوروبا الشمالية، البدائية والفقيرة، بدأوا فى الهجوم على الأراضى الغنية التى كانت تتبع الدولة الرومانية أو أراضى فرنسا الغنية التى كانت محتلة من الرومان. وصل الساكسون - عن طريق البحر - واستقروا فى موانئ شمال وغرب بلاد الغال، فى نفس الوقت الذى كان الفرانك يحتلون الأجزاء الداخلية من تلك البلاد الآن - بعد انقضاء أربعة قرون - توجه الفايكنج إلى داخل البلاد، وبعد خمسين عاما من الغزو المستمر تمكنوا من الاستقرار فى روين وبايو وفى مدن وقرى أخرى. وأخيرا - فى عام ٩١٢ - اضطر شارل سميل إلى الاعتراف بالغزاة (كما سبق وأعترف بهم الفريد العظيم فى انجلترا قبل ثلاثين عاما). تقابل مع رولو - قائد الفايكنج - الذى بلغ من العمر ٧٠ سنة بالقرب من باريس وعينه خليفة له وعمده وزوجه ابنته جيزيل. كان هذا الصلح بداية خير. استمرت الهجرة ولكن امتنع الغزو المسلح - وكان رولو نفسه هو الذى يصد الغزاة. سرعان ما اتخذ أهل الشمال فى روين زوجات فرنسيات وتحدثوا بلسان فرنسى. حقيقة أن الفايكنج قد تغلبوا على نورماندى ولكن أهل الشمال أنفسهم تحولوا إلى نورمانديين.

النورمانديون

تحول أهل الشمال إلى نورمانديين لم يكن بسبب اعتناقهم للمسيحية – مثل أهالي أيسلندة – بل بالرغم من تحولهم للمسيحية. لم يمنعهم التعميد من تعدد الزوجات – شأن كل الطبقات الحاكمة. وقد حدث معهم نفس الذى حدث مع الجبهة المتقدمة للإسلام، فقد كثر إنجابهم وتعدّد أبنائهم. فى القرن العاشر تجلّى فى نورماندى اتجاه الهمج غير المتحضرين من تحرك أهل الشمال إلى الجنوب، وتحرك إلى الشمال ذرية أهل الحضارة الرومانية، وتم اختلاط الجنسين معا لأقصى درجة. تزوج أبناء وبنات ملوك النورمان مع بنات وأبناء بيت كابت – ملك فرنسا – وتفرقت ذريتهم فى جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز وبورجاندى، كما تفرقوا فى بلاد الشمال. من هذا الهجين – بين أهل الشمال وأبناء فرنسا – تكون الجنس الجديد الذى يعرف باسم النورمانديين. هذا الجنس الذى احتفظ بمهارته البحرية واكتسب كذلك مهارة الخيالة – راكبي الفرس، وتكونت طائفة جديدة من البشر الذين صاروا فرسان المعارك المسلحين.

لقد زاد الفرس الأوائل – بالانتقاء – من حجم الحصان ليتمطيه راكب، ثم زوّد فى العصر قبل الرومانى بحداوى من الحديد، وزوّد الهنود الفارس عارى القدم بالركاب الذى يتدلى من بردعة الفرس، ثم كساه الرومان بالدروع فى حروبهم الطويلة وأخيرا – فى موطن الحصان الأسمى – فى أواسط آسيا – تمت تغطية الفرس تماما بالدروع الحديدية كما تم تثبيت الحداوى بالمسامير بنعل الفرس. ثم ظهر فرسان العصور الوسطى فى أوروبا – يقودهم رجال أحسن تدريبهم فى نورماندى يركبون خيلا أتقن تغطيتها بدروع من الحديد وبدأ – فى القرن الحادى عشر – استخدام هؤلاء الفرسان فى الحروب الإقطاعية.

الأثر الثانى لتهجين شعوب الشمال مع الفرنسيين هو ظهور رجال نوى مقدره كبيرة على الحكم فى نورماندى، رجال نوى شراسة وعنف، يعتلون برأيهم – بعد حساب كافة الأمور والتوقعات – ولا يتمتعون بأى خلق حسن – شأن الطبقات الحاكمة عند مبدأ ظهورها – باستغلال قدرات الآخرين. بدون أن تكون لديهم أفكار مبتكرة كان هؤلاء الرجال مستعدين لاستخدام كافة الأجناس ومختلف طبقات الرجال الذين يبيون الاستعداد لخدمتهم ضاربين عرض الحائط بأى قيم حضارية أو مبادئ دينية. ساعدهم الزمان ومكنهم المكان من اعتلاء مراكزهم. كان ظهورهم عند التقاء عالمى الجنوب والشمال عاملا حاسما فى نجاحهم. مكنهم اللسان الفرنسى والديانة المسيحية من الاتجاه مباشرة إلى العالم الرومانى – حيث استقطبوا الرجال – رجال العلم والقانون والصناع والفنانين، الذين احتاجوا إليهم لبناء حكوماتهم وإنشاء دولهم.

بدأ النورمانديون بتمكين أنفسهم بالحروب حتى القرن العاشر، ثم تبينوا أن بإمكانهم التوسع في ملكهم بالزواج ولكن هذا لم يمنعهم من استمرار الحروب والتوسع. أصبحوا سادة جنوب إيطاليا عندما تمكن أربعة من أبناء تانكرد - أحد نبلاء نورماندى - بداية من عام ١٠١٥ باستخدام القرسان من هزيمة أعدائهم. ثم احتلوا جزيرة صقلية، التي كانت تسكنها أجناس عدة وتدين بديانات مختلفة. كان بجزيرة صقلية أهلها الأصليون من الفلاحين بالإضافة للبيزنطيين (الذين كانوا يدعونهم بالإغريق)، والإيطاليين (الذين كانوا يسمونهم باللومبارديين)، والعرب، وأهل شمال أفريقيا (وكانوا يدعونهم بالساراسينيين)، وكانوا في صقلية قبل وصول النورمانديين، ولكن وفد إليها آخرون بعد وقوعها في أيديهم (مثل كثير من التونسيين الذين عملوا في خدمتهم كقادة لأساطيلهم). أثناء حكم النورمانديين لصقلية لقرنين من الزمان كان الجميع يعيش في سلام وفي محبة ووثام وكان الحكام يشجعون الجميع بلا تفرقة بينهم، وكان عهدهم منارة أخرى بعد عصر الإسلام الذهبي على تلك الجزيرة، من آثار عصر التنوير هذا كنيسة مونريال والمدرسة الطبية بسالرنو. كان النورمانديون يعملون في نفس الوقت كخدم للبابا أو حلفاء له في صراعاته الداخلية والخارجية لفرض سلطته. ظلت المملكة النورماندية في إيطاليا مملكة متعددة الأجناس - مثل الممالك الإسلامية، عاشت الأجناس الخمسة معا في وثام، ولكن ظل كل جنس مستقلا عن الأجناس الأخرى في حياته ومعيشته وتزاوجه وظل النورمان جنسا سادسا حاكما يعلو على الجميع وينعزل عنهم جميعا. ولكن تعلم النورمان واكتسبوا أفكارا جديدة من الرجال الذين حكموهم والذين عملوا لديهم ومن النساء اللاتي تزوجوهن، وتبادلوا تلك الأفكار مع بقية الأسر الحاكمة في أوروبا، وبخاصة مع بنى جنسهم في نورماندى. كانت دول الشمال حريصة على الحفاوة بمن يقدم إليها من الحرفيين والفنانين والمفكرين، اللتين إليها من أكثر بلاد العالم حضارة في العالم الغربي، من جنوب إيطاليا ومن صقلية. وكانت تلك البلاد أكثر البلاد تقدما لأنها تتلقى نور العلم والمعرفة من العالم الإسلامى وتنقله بدورها للعالم المسيحى بواسطة رجالها نوى المقدرة الفاتقة على التعلم ونقل المعرفة.

حدث هذا خلال قرنين من الحكم النورماندى، ولكن هذا العصر الذهبى سرعان ما انقضى عندما بدأ التعصب يسود صقلية وجنوب إيطاليا وانتقلت المرونة إلى الشمال. إلى عصرنا الحاضر ما زالت صقلية وجنوب إيطاليا تحمل علامات عصور التنوير التي اكتسبوها من المسلمين ومن سماحة الإسلام. أما ملوك النورمان في نورماندى فقد صاروا أشد الملوك طغيانا وصار نبلاؤهم أكثر البارونات قسوة في العصور التالية، وصار عملاؤهم أكثر الأفراد إجراما في العالم. وهكذا انتعش مجتمع وتحضر عندما تغلغت فيه مبادئ ومعتقدات وسلوك القوم الذين أتوا إليه مهاجرين ثم صار مجتمعا عقيما عندما فرضت التغيرات في العالم الخارجى وقف تلك الهجرة.

الجزر البريطانية

الجزر البريطانية تقع بعيدة عن مكان نشأة الحضارة في العالم حيث بدأت الزراعة وبدأ تحضر الإنسان. السكان الأصليون لتلك الجزر عاشوا منفصلين عن أوروبا منذ عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد بدأ غزو الجزر البريطانية بموجات من الغزاة والمهاجرين والمغامرين منذ عام ٣٠٠٠ ق.م.، وجدوا أراضي تختلف عن أراضيهم وأنواعا مختلفة من التربة والصخور والمعادن والقنوات والمناخ والنبات عما تعودوا عليه في أراضيهم. بحثت كل موجة جديدة من المهاجرين عن أفضل أرض تصلح لسكانهم وأنسب ظروف لمعيشتهم، وكان اختيارهم للمكان التي قرروا الاستقرار فيه يعتمد على جنس قبيلة الآتين الجدد. كانت بريطانيا حقلا مفتوحا للاستعمار من مختلف أجناس العالم، ولكن استقر المهاجرون الجدد بجوار بعضهم البعض في جماعات صغيرة غير متجانسة. وصل القادمون الجدد من سواحل أوروبا الغربية من الجزر البريطانية كما وصلوا من البحر المتوسط. حدث من جراء ذلك كله أن تكونت مجموعات مختلفة من البشر، لكل منها أسلوبها في الحياة، ثم تهجنت تلك المجموعات مع بعضها البعض ثم صارت مجتمعا مقسما إلى طبقات اجتماعية يتكون من مجموعات منفصلة عن بعضها. في العصر النيوليثي والعصر البرونزي نشأت مستوطنات الكلت ومعابد الرومان ومقابر الساكسون. عاش الكلت والساكسون بجوار بعضهم البعض في وئام وسلام لعدة قرون بعد غزوات الساكسون. حدثت هجرة كبيرة للكلت إلى بريتانى نتيجة غزو الأيرلنديين (وليس كما كان يعتقد من قبل نتيجة غزو الساكسون). بحلول القرن السادس الميلادي كان التهجين كاملا مع الساكسون - في كل المستويات - وصار الساكسون الطبقة الحاكمة في الأجزاء الشرقية من البلاد وحلوا محل الحكومة الرومانية البريطانية. صارت اللغة السائدة في البلاد الآن لغة إنجليزية ساكسونية. أما في غربي البلاد وشمالها فقد نشأت مدن على مواقع رومانية قديمة. ظلت تلك المدن قائمة - وما زالت تحتفظ بأسماء نصف رومانية لأن مثل: كارلايل وإكستر (التي ما زالت تحتفظ بتنظيم كنسى). فيما عدا ذلك استمرت الكنيسة الكلتية واللغة الكلتية وعادات الكلت وتقاليدهم. وهكذا سكن الجزر البريطانية المستوطنون الأوائل (الأنجلو كلت) ثم المستوطنون التاليين لهم (الأنجلوساكسون) وعندما وصل أوجستين للبلاد عام ٥٩٧ ربط البلاد بالكنيسة الرومانية. ظلت حدود طبيعية في البلاد تقسم البلاد إلى «أبلاند» ذات التربة الخفيفة والمراعى على التلال، و«لولاند» ذات التربة الثقيلة التي أزال الساكسون ما بها ونظفوها وحرثوها. وفي المدن كذلك ظلت هناك أحياء للكلت والساكسون وللتجار الأجانب. كان السكان من عامة الشعب من الإنجليز والكلت نوى تقاليد ريفية والحكام من الساكسون الذين لم يتطبعوا بالأخلاق الرومانية ولم يكتسبوا العادات ولا التقاليد الرومانية المتحفزة كما تطبع الفلاحون. وما اكتسبوه منذ مجئ أوجستين فقدوا معظمه بغارات

الفايكنج. لم تحدث هجرة غزيرة من رجال دين قادمين من البحر المتوسط ولم يدخل البلاد صناع وحرفيون وقد انقطع اتصالهم بأوروبا - هذا الاتصال الذي كان طريق تدفق المهاجرين المتحضرين - الذي أعاد غزو الجزر البريطانية بالفايكنج الجدد الذين تحضروا من تهجنهم - النورمان.

فتح وليام إنجلترا كما فتح روبرت صقلية. كان هاذان الفاتحان يعيشان في نفس العصر ويحاربان بنفس الأسلحة وبنفس الرجال. عندما هزم وليام الفاتح إنجلترا أدعى أنه أتى لأنه الوريث الشرعى للعرش وأحاط نفسه بكل المظاهر التي تؤيد هذا الادعاء. تصالح وليا مع مدن لندن وونشستر وبعد قليل مع إكستر. أعطاهم الأمان وسمحوا له ببناء القلاع داخل أسوار مدنها، تقبل طرائق الساكسون في التقسيمات الإدارية، كما قبل ألقابهم ووظائفهم. خضع الفلاحون - كما يخضعون دائما - لكل فاتح. ارتبط وليام بالطبقة الحاكمة وغير كل المجتمع الإنجليزي. كان النظام الجديد يعتمد على ما حدث في السنوات الخمسة الأولى من حكمه - من عام ١٠٦٦ حتى ١٠٧١. قُتل نصف ملاك الأراضي الإنجليزي في تلك السنوات، إما في المعارك الحربية أو في الثورات. لم يستطع الباقون تحمل طريقة حياة الحكام النورمان الجدد: اللغة الفرنسية والتدريب المستمر ليصبحوا فرسانا. رحل بعضهم ليخدم ملوكا أجانب في المجر وفي السويد وفي اسكتلندا وأيرلندا وفي القسطنطينية. وانزلق بعضهم الآخر للطبقة الدنيا - طبقة الفلاحين، ليعود منهم بعد حين للصعود لطبقة النبلاء. في تلك الفترة كان لتأثير النسوة السكسونيات أثر بالغ الأهمية عن الرجال، فهن لم يقتلن في المعارك ولم يهربن بسهولة من البلاد إلى الخارج. في الشتاء الأول له في إنجلترا جلب وليام زوجته لتتوج ملكة في وستمينستر ولكنه فرض على رجاله البقاء في إنجلترا بدون زوجات نورمانديات - وهذا هو الوضع الذي يعقب جميع فتوحات الغزاة. كانت الأراضي التي تركها القتلى ومن غادر البلاد من الرجال في عهدة الأرمال واليتيمات من النساء. قسم الذكور الفاتحون المحرومون من النساء تلك الأراضي بينهم ونتاج عن معاشرتهم - سواء بعد الزواج أو بدونه - لأولئك النسوة تهجين عظيم للجنسين. كان إخلاص وليم لزوجته مثلا يذكر في التاريخ ولكن ابنه هنرى ربط بزيجاته البيوت المالكة النورماندية والساكسونية والاسكتلندية وربط نفسه - بمعاشراته لجميع الأجناس النورماندية والساكسونية وأهل ويلز - وجميع الطبقات في مملكته، ونشرت ذريته الرابطة بين الطبقات الحاكمة التي استولت على الأراضي وصاروا لوردات، وبين المتعلمين نوى الثقافة والعلم بارتباطاتهم النسائية.

تمكن وليام الفاتح من توزيع جزء كبير من الأراضي في إنجلترا بين أتباعه وصار - بتأييد من وزرائه - حاكما مطلقا للبلاد وفرض سيطرته الكاملة على الجميع، من الحكام حتى الخدام. تمتعت كل طبقة بحقوقها وحاولت الاحتفاظ بالميزات التي حصلت عليها في الماجناكارتا - وفيها حق أن

تحاكم كل طبقة برفقائها، كان النظام - منذ أن منح شارلمان أراضي لأعوانه - أن يرث الأراضي كلها الابن الأكبر - ليحافظ عليها - وأن يقنع الابن الأصغر بمنصب رجل الدين، وقد وافقت العائلات جميعا على اتباع هذا النظام بدون تعويض يمنح لمن لا يرث. بعد الفتح النورماندى استمر نفس النظام ولكن مع دخول تعديلات عليه. استمرت العزب والأبعاديات الصغيرة تورث كلها للابن الأكبر، ولكن تم تشكيل مجلس من لوردات الأبعاديات الكبيرة «مجلس الملك أو البرلمان». سرعان ما وجد الملك أنه بحاجة لمزيد من النقود بدلا من الجيوش ووجد اللوردات أنه من الأفضل لهم حسن إدارة أملاكهم بدلا من إعداد الرجال المحاربين - وكان هذا من آثار إعطاء الأراضي كلها للابن الأكبر - وقد نتج عن هذا مسار جديد للتطور فى المجتمع، خاصة فى إنجلترا. كان على بقية الأبناء - الذين حرما من اللقب فضلا عن حرمانهم من الإرث - أن يشقوا طريقهم بأنفسهم. لو مكثوا فى بلادهم الأصلية فإن طبقات المجتمع ستختلط ببعضها البعض فى كل جيل، ولو هاجروا للخارج فإن الأمم نفسها سيتم اختلاطها. ولعل هذا كان أحد النوافع وراء حروب النورماندين والفرنسيين للتوسع فيما تلى ذلك من قرون: حروب الصليبيين، وغزو أيرلندا، وفيما بعد حرب المائة عام. بالإضافة إلى تشجيع الهجرات وتعزيد الانتشار الاجتماعى فقد حدث الصراع بين الملك وبين البارونات كما حدثت اتفاقيات مختلفة لتغطية تدخل الملك فى زيجاتهم وفى نظام الإرث. وقد كان لهذه الاتفاقيات أثر ثانوى فى تعريف الأوضاع وفى حراك الطبقات الاجتماعية فى إنجلترا خلال العصور الوسطى. لم يكن الملك يمانع فى إلقاء الظل على الفروق بين الطبقات طالما بقى وضعه كما كان بنون تغيير. كذلك نجح البارونات فى الابتعاد عن تلك التغييرات: كانت لهم قوانينهم الخاصة وظلوا يحاكمون بأقرانهم واحتفظوا بأراضيهم وكان لهم نظامهم الخاص فى الزواج واحتفظوا بحرياتهم ومن بينها حقهم فى ضبط أفعال خدامهم والسيطرة عليها. كانت تلك الحقوق التى منحها البارونات لأنفسهم حقوقا وفيرة وكل حين وآخر تدخل الملك من فوقهم وعامة الشعب من تحتهم للحد من تلك الامتيازات. كان يحدث اختلاط فى البيوت المالكة كما يحدث اختلاط فى عامة الشعب - أما مجتمع البارونات فقد اقتصر على التوالد الداخلى وتزايد هذا التوالد الداخلى جيلا بعد جيل، وكان فناء خط الذكور لدى العائلات يدفع لزواج الوراثة للورد طموح وأدى ذلك إلى اتساع متزايد من ملكية الأراضي وإلى انخفاض عند اللوردات بالتدريج، اللوردات الذين لم يتقنوا شيئا سوى فن الحروب. وقد أدى ذلك فى النهاية إلى حرب بعضهم بعضا حتى دمروا أنفسهم ولم تكن البلاد باكية على فنانهم.

كان الأثر المباشر للغزو النورماندى هو هروب عدد كبير من اللاجئين الساكسون إلى بلاط ملك اسكتلندا، تزوجت الأميرة السكسونية مارجريت بالملك وصارت ملكة للبلاد، تدير شئونها وتسيطر عليها. أدخلت اللغة الإنجليزية إلى البلاط الملكى ثم إلى فئة الكهنوت. أنجبت ستة من الأولاد، وصل

ثلاثة منهم إلى العرش، ولكن لم تسمح لأى منهم أن يحمل اسما كلتيا. عندما تولى ابنها ادجار العرش عام ١١٠٧ نقل عاصمته من دمفيرلاين الكلتية إلى إدنبرة الإنجليزية. فى ذلك الوقت كانت أخته ملكة على انجلترا. وهكذا تحولت اسكتلندة بالتدريج إلى العادات والتقاليد والثقافة الإنجليزية. أدخلت إلى اسكتلندة الكنيسة الرومانية واللغة الإنجليزية والنظام الإنجليزي النورماندى فى إدارة البلاد، كما دخل نظام الفرسان النورماندى الإقطاعى، على مبدأ تقديم الخدمات العسكرية للمالك مقابل تملك الأراضى. استطاعت أسر أنجلو نورماندية أن تزرع نفسها وتصير رئيسة لقيائل اسكتلندية فى هايلاندز (مثل أسرة سنكلير) أو فى لولاندز وتصير من نبلاء اسكتلندة وترتبط بالبيت المالك (مثل أسر بروس وباليول وكومين).

بينما كانت هذه التغييرات تجرى فى اسكتلندة كانت الحدود بين انجلترا واسكتلندة تتذبذب جيئة ورواحا مع تغير القوى وتبدل الاهتمامات واختلاف فرص الزواج التى أتاحت للوارثات الإقطاعيات ومع الثورات الداخلية. حدث تغييرات مشابهة فى الحدود بين انجلترا وويلز. فى ويلز انقسم الأفراد إلى أولئك الذين ظلوا مبتعدين وبين هؤلاء الذين تزوجوا مع الساكسون ومع النورمانديين وفيما بعد مع الطبقات الإنجليزية الحاكمة، وبالتدريج تغلغل الإنجليز فى ويلز وبخلت اللغة الإنجليزية للبلاد وتم التزاوج بين الإنجليز وأهل ويلز ودخل أهالى ويلز لانجلترا مع ماشيتهم التى كانت تسعى وراء المراعى وفيما بعد دخلوا قاصدين أماكن دباغة الجلود فى نورثامبتون. من هذا التهجين القوى كثير الإنجاب نشأ عدد كبير من ارستقراطى العصور الوسطى ومن أهالى انجلترا حتى العصر الحديث. بعد مائة سنة - أو ثلاثة أجيال - من فتح انجلترا، قاد نورماندى آخر - ريتشارد دى كلير - جيوشه وغزا أيرلندة وكون مستعمرة صغيرة، بقيت آثارها معنا إلى العصر الحاضر.

الصليبيون

لم يقلل تغلغل الفايكنج وذريتهم فى جميع أنحاء أوروبا بنهاية القرن الحادى عشر من شراستهم ولم تلن قنواتهم وظلوا مقاتلين يسعون للحكم حتى بعد توالدهم مع الأوروبيين. فى هذا الزمن كانوا يستعدون دائما لشن الغارات وإشعال الحروب والقيام بالثورات. فى ذلك العصر بلغت الباباوية أوج سيطرتها فى عهد هيلدبراند. عندما خاطب البابا مجلسه فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ كانت أفكاره تتعدى زمانه وسلطته. كان يفكر كفرنسى. جمع لمجلسه هذا ٢٥٠ أسقفا من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية وجمع أيضا عددا كبيرا من نبلاء فرنسا. دعا البابا المسيحيين ليكفوا عن قتال بعضهم البعض ويحملوا الصليب فى أيديهم ويقسموا أن يحملوا السلاح فى وجه أعدائهم من العرب

والترك، وأن يحرروا الأراضي المقدسة من أيدي أعدائهم ويتيحوها مفتوحة للحجاج المسيحيين. وعد البابا كذلك المقاتلين أنهم إذا فقدوا حياتهم في تلك المهمة المقدسة فسينالهم - ببركته - العفو عن جميع خطاياهم وتطهر قلوبهم، أما أولئك الذين سيخرجون من القتال سالمين فوعدهم بامتلاك الأراضي التي يملكها أمراء المسلمين، وهى أراضى أشد خصوبة من أراضيه وأكثر عائدا من ممتلكاتهم.

تحركت أعداد كبيرة من الإقطاعيين فى أوروبا بعد هذا النداء. تحرك ملوك وملكات وبارونات وزوجاتهم. تحرك فرسان ورجال مقاتلون وأبطال وقطاع طرق. بعض من تحرك كان لا يملك شروى نكير وبعض من تحرك كان ثريا واسع الثراء، من أغنى الوارثين الذين أهلوا الكنيسة عطايا وافرة واكتسبوا رضاها عنهم. تم اختيار هؤلاء بناء على مقدرتهم القتالية أو قدراتهم المادية وإيمانهم بالحرب. كانت سنة ١٠٩٥ هى سنة الذروة للبابوية ولجميع المحاربين الذين سموا بالفرنجة (ولو أن غالبيتهم كانت من جنس هجين من النورمانديين والغايكنج). كانوا رجالا مؤمنين أشد الإيمان بالقتل بعد اعتناقهم الحديث للمسيحية التي اعتبروها ديننا يدعو إلى الحرب. تم تنظيم الرجال فى حملات، أو كانوا مرتبطين بإقطاعيين، أو كانوا شرادم من الهمج بدون أى نظام أو رابط. سار بعضهم برا إلى القسطنطينية وأبحر الآخرون من مرسيليا أو البندقية أو بالرمو. هاجموا أولا العرب والأتراك فى فلسطين وسوريا ومصر، ولكنهم انحرفوا جانبا لسلب أهداف أكثر يسرا وأوفر غنى، وشملت تلك الأهداف مدنا أو قرى مسيحية. كونوا ممالك إقطاعية تحت حكم ملوك أو بارونات وتحالفوا مع فرق من الفرسان التي مولها المسيحيون المؤمنون. من أشهر فرق الفرسان هذه فرقة «الاسبتالية» وفرقة «فرسان المعبد»، التي أقسم فرسانها على العزوبية والخدمة وباركها البابا وخصص لها هبات إجبارية من جميع الكنائس المسيحية فى الغرب. استقطبت الكنيسة الأبناء الأصغر للإقطاعيين وبهذا زادت قوتها وعظم شأنها وصارت سلاحا قويا فى يد الكنيسة وأصبحت العمود الفقري للحملات الصليبية.

أخفت تلك الحركة الكبرى تحت رداها مصالح مجموعات متباينة من القوى. أولها كانت الكنيسة. فمئذ نادى البابا نداه استغلت الكنيسة هذه الحركة لمد نفوذها. صحب كل حملة أبلغ الفصحاء المأخوذيين، كما كان يصحبها الأساقفة والقساوسة الذين كانوا يشجعون الرجال والمقاتلين وينصحونهم ويستولون على نصيبهم من الأراضي والممتلكات.

ثانى تلك الفئات كانت الرجال المقاتلون ومصالحهم، وكان الفرسان هم رأس الحرية للمقاتلين. وكان الفرسان من صميم الطبقات الحاكمة فى فرنسا - من الجيش الهجين من الفرنسيين

والنورمان، ومن ذبوله فى صقلية وإسبانيا وغيرها، رجال وهبوا أنفسهم للقتال بهدف القتال فحسب، معظمهم كانوا من صغار السن، الأبناء الأصغر للإقطاعيين، وكثيرون منهم كانوا بلا أرض يمتلكونها، وكانوا مشاغبين ومثيرين للمتاعب، حققوا بسفرهم هذا السكينة والهدوء لأخواتهم الكبار ولجيرانهم ولمن كانوا يستخدمونهم، ورحبوا بابتعادهم عنهم. رحب الرجال المقاتلون بالذهاب للحصول على أراضي يمتلكونها وأسلاب يفتنمونها، سواء حصلوا على منيتهم بالحرب أو السلب أو الزواج من وريثات من يتوفون. كان هناك أيضا قلائل من الرجال المثقفين والمتحضرين: وبارونات وفرسان نظروا إلى مهمتهم كخدمة لله يؤدونها فى سبيل إخوانهم من البشر.

كان النجاح ساحقا لنداء البابا وتبعه تدفق الرجال من الغرب إلى الشرق لقرنين من الزمان، رجال شديدي الاختلاف ومتباينو المطامع، يسعون للثراء بعد تقلص الأراضي التي يستطيعون تملكها فى غرب أوروبا وتزايد عدد سكانها فيها خاصة فى شمال فرنسا وفى فلاندرز فى القرون الثلاثة السابقة التي أعقبت عصر شارلمان. وضح تماما نجاح رجال الدين المسيحيين وفرسان الشمال، الذين تغلغت نشاطاتهم، وكيف تحالفت هاتان الجماعتان المختلفتان عرقيا وثقافيا، فى المجتمع الإقطاعي.

كلما مضى الزمن ازداد التعاون والتناطح بين هاتين الفئتين وضاع الإخلاص واليعد عن الهدف. زادت القوة والأمان غرورا ورفاهية. فى الحملة الصليبية الرابعة استطاع حاكم البندقية أنريكوداندولو أن يشعل حمية المقاتلين الأتئين من الشمال ويوجهها لأهداف جمهوريته التجارية - رغم كونه رجلا مسنا كفيفا. أوقد هذا الرجل فى نفوس المقاتلين هدف استرداد القسطنطينية - المدينة المسيحية العريقة، وبهذا جمع بين أهداف الكنيسة والمقاتلين والحكام والتجار ومصالح الجميع المختلفة بصيغة تبدو وكأنها صيغة دينية.

تأسست إمارات للفرننج وللأتئين سنة ١٠٩٦ على الساحل الممتد من غزة إلى الخليج ومن بيت المقدس إلى أنطاكية وما وراءها. استمرت هذه الإمارات حتى سقوط عكا فى ١٨ مايو ١٢٩١. أضاف ريتشارد قلب الأسد لتلك الممتلكات جزيرة قبرص - التي استولى عليها من الإغريق عام ١١٩٠. كانت تلك الإمارات تتقلص تدريجيا بعد امتلاكها، وكانت حكوماتها حكومات إقطاعية، وعينوا لهم ملكا - ملك أورشليم - شقيق جود فرى من بويون. طلب البارونات بأن يكون لهم حق انتخاب الملك، ولكن كانت نسبة الوفيات مرتفعة للغاية بين أبناء المحاربيين ولذا كانت من ترث العرش ثمانية مرات فى ثمانية أجيال ابنة الملك وكان من يتولى الملك زوجها. فى إحدى تلك المرات تزوجت ابنة الملك من أربعة أزواج على التوالي، وخلف أحدهم الآخر تباعا بعد موته، وكان من يختارونه للزواج من وريثة الملك واحدا منهم، عالمين بأنه سيصير غالبا ملك المستقبل.

بنى هؤلاء الرجال، ومعهم الفرسان الاسبتالية وفرسان المعبد، على مدى قرنين من الزمان قلاعاً عظيمة في سوريا وفي فلسطين، وما زالت تلك القلاع قائمة إلى عهدنا هذا وتشهد تلك القلاع بقوة المقاتلين، وببراعة المهندسين الذين شيدها، وغالبيتهم من الإيطاليين الذين استخدموا لهذا الغرض. تشير وثائق العصر عن طبيعة حياة مجتمع الفرنجة وإلى العوامل التي حكمت سلوكهم على مدى تلك الأجيال. كان الغزاة المنتصرون على دراية بالتخلص من نظام عسكري حاكم في بلادهم والجلوس مكانه ولكنهم واجهوا في سوريا ظروفًا شديدة الصعوبة عليهم. كان الشعب في معظمه من المتحدثين بالعربية ومن المسلمين ولكن كان هناك قلة من اليهود وقلة من طوائف مسيحية شتى: الأرثوذكس والأرمن واليعقوبيون والموارنة التي كان الصليبيون يظنون أنهم من أصدقائهم. بعد قليل تبين الصليبيون أن نظام الحكم الوحيد الصالح في تلك البلاد هو النظام الإسلامي فاتبعوه، كما تبين الغزاة العرب من قبلهم: كانوا يحتاجون للطعام والفلاحون هم منتجوهم، فتركوا الأراضي في أيدي الفلاحين سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين، تركت الإدارات المحلية في أيدي سكان البلاد، وكانت غالبيتها في أيدي المسلمين. وتمت معاملة كل فرد أو كل مجموعة حسب قيمته أو بحسب أهميته بالنسبة للحكام الجدد بغض النظر عن ديانتهم. كان المترجم من وإلى اللغة العربية لا غناء عنه كما كان وضع الطبيب السوري. كانوا يحترمونهم ويجلونهم ويتقنون فيهم. كانت الأقليات المسيحية غالباً بلا وزن وكانوا يعاملونهم أسوأ من معاملتهم لأقرانهم من المسلمين. حولوا المساجد إلى كنائس ولكن ظل المسلمون يؤمنون فيها صلواتهم. وهكذا اتضح أن الصراع كان بين فئتين من المحاربين وفريقين من الفرسان، الفرنجة والمسلمين. ظل رؤساء الفريقين منفصلين (ولو أن ريتشارد قلب الأسد قدم شقيقته لصلاح الدين) ولم يتزوجا. سرعان ما دبَّت الفرقة في صفوف الفرنجة، كانوا متحدين في الدين ولكنهم كانوا مختلفين عن بعضهم البعض في كل شأن آخر منذ البداية. كانت لغاتهم مختلفة وطبائعهم مختلفة وعاداتهم مختلفة. تزايدت فرقة الفرنجة بمرور الزمن كلما زاد ثراؤهم وكلما ابتعدوا عن الهدف «النبيل» الذي أتوا لتحقيقه في أول الأمر. زاد التفرق بينهم أيضاً مع تصاعد الأخطار حولهم من المغول الزاحفين من الشرق ومن المماليك الآتين لهم من الجنوب. وعندما أتت المصيبة في النهاية بانتصارات المماليك عليهم وعلى المغول كان الوقت قد فات ليتحالفوا مع المغول.

كان المسلمون - على النقيض - متحدين بلسانهم العربي ولكنهم كانوا يختلفون تماماً، وكانوا منقسمين إلى فرق ترعى مصالح أمير حلب وأخرى تحافظ على متطلبات أمير دمشق وثالثة تساند حاكم القاهرة. وكان يفت في عضد المسلمين اغتيالات طائفة الحشاشين الشيعة - الذين كانوا

مستقرين فى القاهرة - منذ الحملة الصليبية الأولى تحت رعاية الفرس ثم وجدوا لهم موطأ قدم فى جبال سوريا الوسطى واغتالوا كثيرا من زعماء المسلمين يفوق فى عددهم من اغتالوا من زعماء المسيحيين. وجد صلاح الدين الأيوبي الفرق المسلمة تحت قيادته وأنهى الحكم الفاطمى الشيعى فى مصر. ومن بعده استمر مسلمو مصر والشام متحدين تحت قيادة المماليك، تلك الفرق المقاتلة التركمانية الأصل الذين استخدمهم خلفاء صلاح الدين فى الحكم. كان انضباطهم الشديد ووحدة جيشهم ما مكنهم بقيادة بيبرس ومع تبعه فى إنهاء فترة الحكم الصليبي بعد ٤٠ عاما وطرد المسيحيين تماما من فلسطين عام ١٢٥٠.

حدث فى القرنين اللذين حكم فيها المسيحيون جزءا من بلاد الإسلام أمرا ثوريا فى البلاد. مخالفا لما كان يحدث طوال الخمسة قرون السابقة بين المسيحية والإسلام بدأ أفراد من المقاتلين المسلمين يعملون لدى الحكام المسيحيين لحاجتهم للعمل، الذى وجده لدى السادة المسيحيين وتحولوا للمسيحية. كان هؤلاء أصلا من المرتزقة الترك - أصل المماليك - الذين دخلوا الإسلام عن طريق الخلفاء العباسيين ويعرفون باسم التوركوبل. عندما أسره صلاح الدين قتلهم كمرتدين عن الإسلام.

حدثت الردة بين مختلف طوائف المسلمين - باستثناء الطبقة الحاكمة. حدثت بين المثقفين والحرفيين والملاحين والفلاحين - وخاصة بين النساء اللواتى تزوجن بالتجار أو بالجنود المسيحيين. تحول هؤلاء إلى المسيحية بمجرد تعميدهم. بعد ذلك تحولوا إلى العالم المسيحي. يتحركون ويهاجرون ويتزوجون من المسيحيين فى أوروبا وأندمجوا تماما فى المجتمعات الأوروبية. هؤلاء هم الأفراد الذين أدخلوا الفنون الشرقية والتعليم الشرقى وثقافة الشرق وعلومه إلى أوروبا والذين أدخلوا الجنس الشرقى إلى أوروبا اللاتينية.

عندما نتحدث عن التوازن فى حركة الأجناس خلال الحملات الصليبية نتبين أن ما يزيد عن نصف مليون مسيحي استقروا فى الشرق - خاصة فى الشام. وتحرك عدد مقارب من هذا من الشرق إلى الغرب، ولكن من تحرك من الشرقيين غربا كان لهم أكبر الأثر فى تحضر أوروبا. معظم المهاجرين للغرب كانوا من تهجنوا مع الأوروبيين، ولكن هاجر آخرون ممن تبينوا أن الفرص المتاحة لهم فى أوروبا أفضل لهم لإظهار مواهبهم من بقائهم فى آسيا. مهما اختلفت الأسباب وتعددت فإن تلك الموجة الجديدة من الهجرة تمثل حلقة فى السلسلة الأزلية - التى امتدت لأربعة آلاف سنة - من إثراء أوروبا بالدم الشرقى المتحضر. أعقب تلك الموجة الأخيرة من الهجرة دخول صناعات حديثة لأوروبا - خاصة إلى إيطاليا، مثل صناعة الزجاج التى ازدهرت فى البندقية، ومثل دخول التعليم

وافتتح المدارس الراقية - خاصة المدارس الطبية - إلى سالرنو وبيزا ويولونيا. بدأ تدفق الفكر إلى أوروبا عن طريق تلك المدارس وعن طريق صقلية. بدأ التنوير يدخل إلى الكنائس المسيحية وإلى الجامعات المسيحية ودخلت مهارة الشرق وتعليمه ودخل فكر المسلمين الراقى من الشرق إلى الغرب. هناك مثل فريد لانتقال تقنية شرقية إلى الغرب. عرف الصليبيون طواحين الهواء لأول مرة عام ١١٩٠ عند حصار عكا، ثم نقل فرسان الاسبتالية تلك التقنية إلى رودوس ثم انتقلت إلى أوروبا، وظلت لمدة ثلاث قرون أساس تقدم المهارات والعلوم الهندسية في أوروبا حتى ازدهرت في عصر الثورة العلمية. ولعل هذا المثل البسيط يؤكد أن للشرق نصيبا هاما في الحضارة الغربية التي ينعم بها العالم الآن.

يعلم حكام العالم الغربي - سواء كانوا قادة الكنيسة أو حكام الدول - كيف استفاد الصليبيون من احتكاكهم بالشرق وكيف تعلموا واستناروا، ثم نقل قادة الغرب ثمره هذا التنوير لمجتمعاتهم، كما استفادوا من الحملات الصليبية لتحقيق أهداف أخرى. أول من استفل الصليبيين كانوا حكام البندقية فقد وجههم نحو الإمبراطورية البيزنطية لبناء إمبراطوريتهم مما تخلف عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية. في نفس الوقت استفل الهونستافن - الذين صاروا أباطرة - مثل الصليبيين وسعوا لتوسيع ملكهم. ففي الحملة الصليبية الثالثة دعمو إنشاء فرقة الفرسان التيوتونيين التي (تقتصر على الحديث باللغة الألمانية). بعد عودة تلك الفرقة من الأراضى المقدسة حولها لقتال الصقالبة الوثنيين على حدودهم. كان الألمان يتقدمون حثيثا إلى الجنوب بعد قطع أشجار الغابات ولم يكونوا بحاجة لخدمات الفرسان، أما في الشمال فقد اخترقوا أراضى الاستبس وسيطروا على المزارعين الواندال واحتلوا المدن البولندية. أنشأوا دولة بروسيا العسكرية ثم احتلوا إمارات بحر البلطيق. نشأت هناك طبقة من الحكام، اليونكر وبارونات البلطيق، الذين امتازوا بالشراسة والعسكرية الشديدة كحكام أيرلندة النورمانديين.

كذلك نشط ملوك الأسبان، الذين شجعهم بابا روما على مهاجمة القوى المسلمة في شبه الجزيرة. نجح أمراء البرتغال سريعا في إنهاء الحكم الإسلامي بمساعدة أسطول بريطاني فلمنكى كان في طريقه إلى الشام حاملا مقاتلين صليبيين، احتل المهاجمون ميناء لشبونة وحرروها من الحكم الإسلامي، وبدأت دولة البرتغال في التاريخ. كانت دولة مسيحية، يحكمها طبقة حاكمة من شمال أوروبا وبها بحارة وتجار من الشمال ويرجع الفضل لهؤلاء - مع طائفة من الإيطاليين وسكان جزيرة مايوركا، بمعاونة ملاحين ورسامى خرائط من المسلمين واليهود - في الإبحار في محيطات العالم وتحقيق الكشوفات الجغرافية العظيمة وفتح العالم الجديد لأوروبا بعد حوالي ثلاثمائة عام.

يوضح الجدول رقم (١٩) تتابع الحملات الصليبية.

جدول (١٩)

الحملة الصليبية واتصال أوروبا بالمسلمين في العصور الوسطى

الحملة الصليبية	السنة	
	١٠٥٨ - ١٠٩٠	استيلاء النورمان على صقلية من المسلمين بعد احتلال دام ٢٠٠ سنة.
	١٠٧٢ - ١١٠٩	استرداد طليطلة وقالينسيا من المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا.
	١٠٧٣ - ١٠٨٥	تربع هيلدبراند على عرش البابوية باسم جريجورى السابع.
	١٠٨٠	أنشأ مستشفى القديس يوحنا ببيت المقدس
	١١١٨	بداية تكوين فرق الفرسان:
	١١٢٨	تكوين فرقة فرسان المعبد.
الحملة الصليبية الأولى	١٠٩٦ - ١٠٩٩	في عهد البابا أوربان الثانى.
	١١٠١ - ١٠٠	جودفرى من بويون يصير ملكا على بيت المقدس وتتكون إمارات صليبية فى طرابلس وأنطاكية وأديسا.
	١١٢٣ - ١١٢٤	يتم صد اسطفان من بولوا فى الأناضول.
	١١٤٤	البنادقة يستقرون فى صور زنكى - أتابك الموصل - يسترد اديسا
الحملة الصليبية الثانية	١١٤٧ - ١١٤٩	فى عهد البابا بوجنيوس الثانى كونراد الثالث ولويس السابع يُصدان عن دمشق أسطول الصليبيين يستولى على لشبونة. القوات الألمانية الشمالية تهاجم الوندال الوثنيين.

صلاح الدين الأيوبي حاكما على الموصل ثم سلطانا على مصر ١١٦٩ - ١١٩٣ يهزم الفرنجة هزيمة نكراء في موقعة حطين ويسترد بيت المقدس.	١١٨٧	
ريتشارد قلب الأسد يستولى على قبرص من الإغريق ومعه فيليب أغسطس وفرديريك الأول يعيدون الاستيلاء على عكا. خلال حصار عكا تتكون فرقة الفرسان النيوتونية ويعرفون طواحين الهواء. يقترح ريتشارد على شقيق صلاح الدين أن يتحول إلى المسيحية ويعرض عليه أن يتزوج شقيقته.	١١٨٩ - ١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة
في عهد البابا الطاهر الثالث تحالف بين الألمان والبنادقة يهاجم القسطنطينية ويستولى عليها، ويصير بولنوين أول إمبراطور لاتيني على بيزنطة. النخاسون يختطفون أطفالا يعنون ليكونوا من المقاتلين الصليبيين بالقرب من مرسيليا ويبيعونهم إلى مصر.	١٢٠٢ - ١٢٠٤ ١٢١٢	الحملة الصليبية الرابعة
الملك يوحنا ملك القدس - بتوجيه من البابا - يستولى على دمياط بمصر ثم يفقدها.	١٢١٨ - ١٢٢١	الحملة الصليبية الخامسة
في عهد البابا جريجوري التاسع فرديريك الثاني الملحد والمطروذ من الكنيسة يصير إمبراطورا ويزواجه من ملكة بيت المقدس يسترد البركة ويعقد معاهدة صلح مع شقيق صلاح الدين.	١٢٢٨ - ١٢٢٩	الحملة الصليبية السادسة

بيبرس - المملوك المصرى - يهزم المسيحيين فى غزة ويستولى على بيت المقدس.	١٢٤٤	
أسر سان لويس الفرنسى أثناء زحفه إلى القاهرة. بيبرس يدمر الإمارات الشمالية.	١٢٤٨ - ١٢٥٤ ١٢٦٠ - ١٢٦٨	الحملة الصليبية السابعة
فى عهد البابا جريجورى العاشر. سان لويس وشارل من أنجو يهاجمان تونس فشل إداورد الإنجليزى فى التقدم من عكا. فشل مشروع حملة مشتركة لمهاجمة البلدان الإسلامية الشرقية والغربية معا. خليل، مملوك السلطان يستولى على عكا، آخر القلع المسيحية فى الشرق.	١٢٧٠ - ١٢٧٢ ١٢٧٤ ١٢٩١	الحملة الصليبية الثامنة
تولى البابا كليمنت الخامس عرش البابوية عام ١٣٠٥ استيلاء الفرسان الاسبتالية على جزيرة رودس واحتلالها.	١٣٠٩	
الانسحاب من رودس واحتلال جزيرة مالطا حتى عام ١٧٩٩.	١٥٢٣	
يتم القضاء على فرسان المعبد عام ١٣١٠ بواسطة فيليب الفرنسى		

يبدأ انتشار الطاعون فى أوروبا منذ عام ١٣٤٨، أتيا بواسطة الفار الأسود من الصين إلى مكة ثم يحمله الحجاج المسلمون إلى فلسطين ومنها تحمله السفن التجارية إلى إيطاليا ثم يستقر لسنوات طويلة فى أوروبا، وينهى الموت الأسود هذا عصر اتصال أوروبا الوثيق ببلدان البحر الأبيض المتوسط.

يتم طرد المسلمين من غرناطة عام ١٤٩٢ وبهذا ينتهى فترة طويلة من حكم المسلمين المزدهر الذى استمر لثمانية قرون لشبه جزيرة أيبيريا.

بعد قرن من الزمان بدعت الكنيسة مبدعا خبيثا جديدا، على نمط الحملات الصليبية، بالتعاون مع نبلاء الفرنجة والنورمان، لتوجيه المقاتلين الصليبيين ضد أعداء الكنيسة فى داخل العالم المسيحى، واستغلوهم لتدمير المنشقين كما سيتضح فى الفصول القادمة.

أيرلندة

بينما كانت غالبية قواد النورمان مشغولة بمغامرات الصليبيين فى الشرق، شغلت جماعة صغيرة من النورمان فى ويلز نفسها بالإعداد لعملية صغيرة بعيدة عن هدف دينى عملت هذه المجموعة الصغيرة على فتح أيرلندة والاستيلاء عليها واستيطانها. تجمعت القوات النورماندية عام ١١٧٠ فى ميبوك لعملية الغزو وكان عددها صغيرا: ١٠٠٠ مقاتل فلمنكى، ٣٠٠ من رماة الرمح والقوس من أهالى ويلز ومائة من الفرسان. كانت القوة صغيرة فى عددها ولكنها قوية فى عدتها، وكانوا رجالا نوى مقدرة وبسالة. استطاعوا هزيمة إخوانهم من الفايكنج وأهالى أيرلندة لابسى قمصان الكتان.

احتل الغزاة دبلن سريعا وهزموا لينتستر. ثم تزوج قائدهم من ابنة الملك المخلوع وتهايا لهم أن بمقدرتهم الآن حكم البلاد. ولكن عاقهم عن تحقيق هدفهم هذا ملك انجلترا، واعترض سبيلهم النظام الجديد فى أوروبا الإقطاعية التى يتحكم فيها البابا. مضى الزمان الذى يستطيع فيه أى صاحب قوة من أن ينتصر ويستولى على البلاد. كان الغزاة يعتقدون أن بإمكانهم احتلال جزيرة أيرلندة كما سبق واحتل إخوان لهم جزيرة صقلية أو كما احتل أسلافهم من قبل جزيرة أيرلندة. كون الفايكنج من الأجناس الأخرى الطبقات الحاكمة فى كثير من بلدان أوروبا. ولكن المجتمعات قد تغيرت وصارت أكثر ثقافة وبدأ رجال القانون والمثقفون فيها يتولون أمور الحكم ويشاركون العسكريين فى إدارة شئون البلاد. فى ذلك الوقت كان ملك انجلترا الحاكم الأقوى فى كل البلدان الأوروبية، ولكن البابا عهد إلى أوريان الرابع الإنجليزى بتنظيم شئون كنيسة أيرلندة. قرر الملك أن يتحمل وحده هذا الأمر بدون أن يعهد لأحد من البارونات بمساعدته أو يوكل لأى منهم معاونته، خوفا من أن يستقل أحدهم بتلك الجزيرة المجاورة لجزيرته، توجه هنرى إلى جزيرة أيرلندة فى أكتوبر ١١٧١ وبقى بها ستة أشهر وضمن أن يعهد لملوك انجلترا بولاية أيرلندة. ولكن هنرى أوقد بهذا نارا ظل أوارها مشتعلا لمدة ٧٥٠ سنة. كان هنرى يدرى بالصراع الذى بدأ ينشب فى انجلترا بين النبلاء واللوردات وبين الملك ورأى أن هذا الصراع سينقل عبر البحر إلى أيرلندة، البعيدة عن مقر الحكم، ولن يستطيع احتواءه كما يحتوى الصراع فى انجلترا فرأى أن يذهب بنفسه إلى أيرلندة. ولكن أضيف إلى عوامل الصراع صراع آخر أشد هما وأعمق أثرا - هو الصراع بين طبيعة الإنجليز والأيرلنديين.

ما زال الخلاف قائما بين أهل البلاد الأصليين المتحدثين باللغة الغالية وبين الغزاة الأنجلوساكسون المتحدثين بالإنجليزية بعد فوات عشرين جيلا من التهجين المحدود. الإنجليز هادئوا الطبع، يعملون بلا كلال، نوى عقول رياضية وقدرات ميكانيكية، جبارون ولديهم خصائص تصلح لمن سيتولى الأمر. أما أهل البلاد الأصليين فهم نوى خيال واسع ولا يمكن التنبؤ ببرد أفعالهم ولا يحملون المسؤولية ولم يتخلصوا من لسانهم القديم من القرن التاسع بعد الميلاد، وما زالوا يحملون غرائزهم العتيقة بدون تهذيب، يعشقون جميعا الصيد والقنص وصيد السمك وضرب النار. يبجل الجميع أيضا أسلافهم من الشعراء والقصاصين ورواة الملاحم ويفضلونها عن أقوال الكنيسة وتعاليمها. وقد ظلت مواهب الأيرلنديين الأدبية تظهر فى شعرائهم وكتابهم وأبحاثهم على مر العصور. هؤلاء هم القوم الذين عشقوا أرضهم حتى ولو كانت درايتهم بزراعتها أقل من دراية الغزاة. إذا أضفنا إلى تلك الفروق الجينية، التناقض بين لغتهما وبين النظام القبلى والنظام الإقطاعى للجميع واختلافهما فى تحمل المسؤولية وفى عاداتهم فى الإرث يتضح أنه لا يجمع بينهما إلا حب القتال. كان هناك حلا واحدا وعلاجا وحيدا وهو التزاوج، وهذا هو الحل الذى اتبعوه. وبالتدريج التحم الجنسان ببطء، ولكن نظرا لغلبة تعداد الأيرلنديين كانت نتيجة تهجين الجنسين هو التقلص المستمر المطرد لأعداد الإنجليز الخُص، واستقروا فى المدن، بينما ازداد تدريجيا عدد الأيرلنديين الخُص، خاصة فى الريف مع زيادة كبيرة للمهجنين - مع غلبة الدم الأيرلندى فيهم - فى كل مكان. فى عام ١٣٦٦ صورت قوانين كيلكنى التى تقضى بوقف الزواج المختلط بين الإنجليز والأيرلنديين، كما - تقضى بوقف العمل بجميع القوانين الأيرلندية ووقف الحفاوة بالشعراء أو القصاصين الأيرلنديين ووقف التحدث باللغة الأيرلندية ومنع التسمى بالأسماء الأيرلندية - حتى الخدم. كذلك منع بيع الأسلحة وخيول الحرب للأيرلنديين. خصصت منطقة خاصة - تبلغ ثلث مساحة الجزيرة للإنجليز. هكذا بدأت الحروب بين الإنجليز والأيرلنديين، رغم إيقاف العمل بتلك القوانين - التى استمرت سارية لمدة قرنين، عندما أوقفتها الملكة اليزابيث الأولى (التي تنحدر من أصول أيرلندية). رغم تلك القوانين استمرت الأخلاق الأيرلندية فى الانتشار كما استمرت اللغة الأيرلندية، وتوسع المجتمع الأيرلندى وتزايد الجنس الأيرلندى. بقى المزارعون - الذين لا غناء عنهم لفلاحة الأرض - أيرلنديون بالكامل ولم يختلطوا بتاتا بنوى الأصل الإنجليزى أو النورماندى (ولم يكتسبوا منهم أى شئ مفيد حتى أسلوبهم فى تصنيع الجبن). لم يستطع المهجنون - وهم غالبية - أن يناقضوا أنفسهم ويتجهوا ضد الأيرلنديين - ونصف دمائهم أيرلندى. كذلك استمر الأرسقراط فى الزواج ممن يرثن الأراضى الشاسعة - لو كن من الأيرلنديات - لأن هدفهم كان زيادة رقعتهم الزراعية بغض النظر أى أمر آخر، والحصول على الألقاب السامية الرفيعة.

لم تبدأ أسرة تيودور - التي كانت تحكم إنجلترا - أن تتجه إلى أيرلندا إلا بعد استقرار أمرها في إنجلترا وتثبيت العرش. وفي النهاية، في عام ١٥٣٦ عندما حاول هنري الثامن أن يتجه إلى أيرلندا وجد في طريقه عقبة كاداء. قرر هنري الثامن الانفصال عن كنيسة روما وأن يجعل نفسه على رأس الكنيسة الإنجليزية. وفي عام ١٥٦٠ كتب كتاب الصلاة باللغة الإنجليزية، وهنا وجد أهالي أيرلندا أن الإنجليز يودون أن يتحدوا دينهم وأن يمحوا لغتهم فقرروا الاستمسك بمذهبهم الديني إلى أبد الأبد. كان ما حدث في أيرلندا على خلاف ما حدث في ويلز في أثناء حكم الملكة اليزابيث قررت الحكومة ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الوالشية فرحب أهالي ويلز بحكم الإنجليز، ولكن لم يحاول أحد مطلقا ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الجالية - لغة الأيرلنديين (ولو أن هذا تم بعد ذلك بقرنين لأجل أهالي أعالى اسكتلندا الذين يتكلمون باللغة الجالية). عندما حاول الإنجليز فرض اللغة الإنجليزية مع الاصلاح الديني فسدت تماما أي محاولة للإنجليز للسيطرة على أيرلندا، كما زالت تماما أي فرصة لإحياء اللغة الجالية.

خلال ١٥٠ عاما من الصراع، استطاعت الحكومات الإنجليزية في النهاية من أن تسيطر على أيرلندا وتثبيت أقدامها فيها. وكان لا بد من اتخاذ هذا الموقف من الإنجليز الذين اشتبكوا مع قوتين من أقوى القوى الكاثوليكية - اسبانيا وفرنسا. لإدراك هذه الغاية، اضطر الإنجليز أن يستبعدوا تماما الطبقات الكاثوليكية الحاكمة من السلطة - إما بتغيرهم لمذهبهم أو باستبعادهم. وهكذا وجد عامة الشعب الأيرلنديون والفلاحون أنفسهم منفصلين عن زعمائهم القوميين ومعلميهم وعن المتحدثين باسمهم، ولم يسمح لهم باتخاذ زعماء من بنى جنسهم أو ممن يعتقدون نفس مذهبهم الديني. كانت القوانين المفروضة على المذهب الكاثوليكي تؤدي مشاعرهم إلى أقصى درجة وكانوا يرفضونها رفضا تاما. وهكذا انفصل الأيرلنديون عن مصادر الحضارة جميعها سواء كانت كاثوليكية أو إنجليزية أو أوروبية وتحول أهالي أيرلندا إلى الأصولية الرجعية - كأقصى ما يكون الجمود.

زرع الإنجليز في هذا المجتمع مجموعات من البروتستانت: مستعمرون من إنجلترا أو اسكتلندا ولاجنون أجنب. استقر هؤلاء الإناس الجدد في المدن - على الأغلب - ودعموا ملاك الأراضي من البروتستانت. شهدت أيرلندا عصرا من الصعود البروتستانت وشهدت البلاد تقدما كبيرا. صارت دبلن عاصمة عظمى، وكانت المدينة نتاج التهجين بين سكان البلاد الأصليين من الأيرلنديين والمستوطنين الجدد من الإنجليز، من الحكام (العسكريين أو السياسيين) والمفكرين والفنانين والمثقفين والتقنيين. وكان التعاون بين الفئتين ضروريا لنمو الاقتصاد وإدارة البلاد، ثم طرأت أحداث عالمية هامة أوقفت هذا الانتعاش: الحرب الداخلية الأمريكية والثورة الفرنسية ثم تصاعد نجم

نابليون وتهديده للعالم. جعلت تلك الأحداث وضع الأقلية البروتستانتية – التي بلغ تعدادها عشر سكان البلاد – مهتزاً. دعى هذا الوضع إلى ضرورة دعم الحكومة من الخارج، إذا أريد للبروتستانت أن يظلوا متريعين على الحكم. انتقلت الحكومة من دبلن وسارح الحكام بالرحيل إلى لندن وتهاوى البناء الاجتماعي والفكرى إلى الحضيض – كذلك رحل ملاك الأراضي إلى إنجلترا وتبعهم المهندسون والكتاب وهكذا فقد المجتمع البرتستانتى فى أيرلندة رأسه فى عام ١٨٠٠ للمرة الثانية (كما سبق وانتزعت رأس المجتمع الكاثوليكي فى عام ١٦٩١).

أنتجت أيرلندة عددا كبيرا من قمم الأدب فى العالم. من بينهم على سبيل المثال: جولد سميث، شريدان، مور، أوسكار ويلد، برناردشو، بيتس، جويس، صمويل بيكيت من الأيرلنديين الصنف. ومن أنصاف الأيرلنديين: الأخوات برونتى الثلاثة وريتشارد بيرتون. ومن أمما فى أيرلندة وعاشوا فيها: سويفت، كونجرىف، سترن، وبورو وكذلك دوجلاس هايد البروتستانتى الذى صار فيما بعد رئيسا لأيرلندة ولورانس. كذلك نشأ من الأيرلنديين بعض كبار القادة العسكريين (من الطبقات البروتستانت الحاكمة) مثل ولينجتون ومونتجمرى. مرت على أيرلندة بعض الأحداث الهامة التى أثرت عليها تأثيرا عظيما، أولها حركة الإصلاح الدينى التى فصلت بين الكاثوليك والبروتستانت – ربما للأبد، وثانيها المجاعة الكبرى التى اجتاحت أيرلندة ١٨٤٥ – ١٨٤٩. كانت زراعة البطاطس قد ازدهرت على مدى مائة عام وتضاعف سكان أيرلندة تبعا لوفرة إنتاج محصول البطاطس – ولكن أصاب المحصول مرض خطير نتج عنه هجرة جماعية إلى خارج الجزيرة قللت من عدد السكان إلى النصف. هاجر معظم من هاجروا إلى إنجلترا وإلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا من الطائفة المنتقاة. تبع هذا زيادة فى درجة الجمود بين من بقى فى أيرلندة، وزاد التوالد الداخلى فى ثبات أيرلندة على التخلف وعدم مسيرتها لجيرانها فى تطور الحضارة، ولن يكسر هذه الحلقة المفرغة إلا التزاوج بين الكاثوليك والبروتستانت.

يوضح تاريخ أيرلندة جميع المبادئ الوراثية فى تطور المجتمعات. يوضح أسس انقسام المجتمعات إلى طبقات وتأثير الهجرة والتهجين والتزاوج المنقى، وكيف يتم تشويه مجتمع ما. جميع الإمبراطوريات فى التاريخ تقطع رؤوس من خرج عن نهجها وفكر بغير فكرها، كما تدمج جميع المجتمعات رؤوس أقاليمها فى رأسها. شاهدنا ذلك فى الأمثلة التركية كما سنشاهد فى المثال الروسى والمثل النمساوى. هكذا تنضج المجتمعات ثم تشيخ. قطع رأس الكاثوليك الفرنسيين فى كندا بعد انتصار الإنجليز البروتستانت الغزاة فى عام ١٧٥٩، كما قطع رأس الفلمنك من بلجيكا بانفصالهم عن هولندا عام ١٨٣٠. أما ما حدث فى أيرلندة فهو تعاقب قطع الرؤوس فى ذلك المجتمع المنعزل على الحافة المحيطية للعالم الغربى.

الباب التاسع

المسألة اليهودية

ببداية العصر المسيحي كانت الإمبراطورية الرومانية قد صارت قوة سائدة تضبط تطور المجتمعات الأوروبية. فى ذلك الوقت كان الأباطرة قد توصلوا إلى المفهوم أنه من الأجدر بهم إنشاء دين عالمى لتنسيق العبادات فى جميع أنحاء الإمبراطورية، ليعبد جميع رعايا الدولة جميع آلهة الدولة ويخضعون لأرباب واحدة (كما يخضعون لحاكم واحد). وهنا قابلتهم عقبة اليهود الذين يعبدون ربا واحدا ولا يقبلون أبدا - أو يظاهرون بقبولهم - تعداد الآلهة.

سقط بيت هيروود فى السنة السادسة بعد ميلاد المسيح فاضطرت الحكومة الإمبراطورية أن تحكم الأقاليم اليهودية حكما مباشرا. وسرعات ما تبينوا أن اليهود - رغم أن ديانتهم وأفكارهم السياسية كانت فى تقليب ثورى مستمر - كانوا متحدين تماما فى الإيمان المطلق بديانتهم ولا يحيون قدر أنملة عن دينهم القومى، ويقدمون أماكن معينة لم يعتد عليها الحكام الجدد ولم يرتاحوا إليها. وظلت الديانة اليهودية تثير سخط جميع الحكومات الأوروبية ومختلف شعوب أوروبا فى الماضى والحاضر (وفى المستقبل). عندما حاول الرومان فرض تلك التعليمات الدينية الجديدة قابلهم اليهود بثورة عارمة فى عام ٦٦م، ولم تنته تلك الثورة بالاستيلاء على بيت المقدس وأسر اليهود كعبيد وحرقت معبدهم سنة ٧٠م، ولكنها انتهت بعد ثلاث سنوات بسقوط قلعة الماسادا اليهودية وانتحار جميع المدافعين عنها. بالرغم من هذا فقد قامت حرب أخرى فى عهد الإمبراطور هادريان بعد ستين سنة وانتهت بتدمير أورشليم وإنشاء مدينة جديدة بدلا منها. باختفاء الثروة وتحطيم المقدسات وتدمير مقر الكاهن الأعظم ثم طرد كافة اليهود الملتزمين من مملكة يهوذا، جاء عصر الشتات اليهودى وتفرقوا فى جميع البلاد من نهر الفرات إلى الراين.

بهذه الأحداث حدثت الفرقة النهائية والدائمة فى الشعب اليهودى فعلى ناحية وقفت الأغلبية، التقليدية متمسكة بالتعاليم الدينية وعلى الناحية الأخرى تزايدت حثيثا الأقلية المسيحية سريعة

التطور. بعد تدمير أورشليم، عين كاهن جديد لإيلياكايبتولانا (الاسم الجديد لأورشليم) عام ١٣٥م. كان هذا الكاهن يهوديا بحكم المولد ولكنه اتخذ المسيحية عقيدة له. صار الانقسام الآن بين اليهود والمسيحيين ظاهرا، وحاول كل فريق أن يجتذب إليه أكبر عدد من الناس وأن ينشر الدعوة لعقيدته بين الوثنيين خارج حدود الدولة الرومانية. نجح كل فريق في تحول أعداد من المثقفين والمهنيين إلى ديانته، وكان نجاح اليهود واضحا في قبائل البربر. استخدم اليهود تعاليمهم الدينية القديمة التي تتبع لآي فرد اعتناق عقيدتهم، لثلاثة أجيال، وبالرغم من هذا لم يتصفوا بالمرونة التي امتاز بها المسيحيون ولم يحققوا نفس مقدار النجاح. أصبح الصراع مريرا بينهم.

تغير شكل المجتمع اليهودي كثيرا عن سابق عهده. كانت الأمة اليهودية فيما مضى مجتمعا كاملا يجتذب الأفراد لموهبتهم في ملء فراغ المجتمع المتوازن ولسد الثغرات فيه. وعندما صاروا أقلية في بلاد غريبة عن الوطن الذي نشأوا فيه كانوا ينتقون لإخلاصهم الديني، وكان من يخرج منهم عن الالتزام الكامل والاحترام الدائم واتباع تعاليم كهنتهم يعتبر شاذا عن المجموع ويستبعد ويترك الجماعة. وهكذا تطهرت الجماعة وحدث فيها انتقاء وتذرية للجنس كما يحدث بالاختيار في التربية الصناعية، وتزايد فيهم النقاء والحيوية. إزداد تماسك اليهود ببعضهم البعض كأغراب في مجتمع غير صديق وكأقلية بين أكثرية معادية، وزادت بينهم الروابط العائلية، وصار مزاجهم واحدا وصفاتهم واحدة. تكاثرت أعداد اليهود لخصوبتهم الزائدة وإنجابهم غير المعقد، تبعا لتعاليمهم وتدريبهم وحياتهم العائلية المستقرة، ولنظافتهم الزائدة التي تعتبر جزءا أساسيا من تعاليمهم وعاداتهم، التي يلقتها لهم رؤسائهم الدينيون ويحرصون كل الحرص على اتباعها.

على النقيض لم تبتغى التعليمات المسيحية تشجيع التماسك والإكثار من الذرية ولم تحرص على نشر مبادئ النظافة العامة ولا على الأصول الصحية التي تُبقي على قيد الحياة وتحافظ عليها. كثر عدد اليهود أساسا بالتوالد وإزداد عدد المسيحيين لاعتناق الناس للديانة المسيحية. اعتناق البشر المسيحية نتج عنه تهجين اليهود (وهم أصل المسيحيين) مع بقية الشعوب وتسرب جينات اليهود إلى المجتمع المسيحي على اتساعه، وهي عملية ما زالت مستمرة إلى الآن. أقيم هناك حائل منيع بين اليهودية وبين الذين اعتنقوا المسيحية، وتباعدت الطائفتان حثيثا ولم تتقارب. ظلت الجماعتان متعديتين في الشئون الدينية وفي الأمور الدنيوية، ووضح هذا العداء تماما وظهر على أشده في مصر. ظهر هذا التباين في اللغة، فقد تكلم اليهود بلسان مثقفي العصر – الإغريقية – بينما تحدث المسيحيون باللغة المصرية الدارجة – التي صارت الآن القبطية. احتفظ يهود الاسكندرية – الذين لم يختلط دمهم بأي دم آخر – بمواهبهم فظلوا صناعا مهرة، يجيدون الكتابة، ويتقنون فنون التجارة،

ولذا كانت مقدراتهم بالغة الرقى وكان لديهم الاستعداد الشديد للحركة الواسعة والتنقل بينما ظل الأقباط المسيحيون قابعين فى ديارهم ولم يهاجروا من بلادهم بتاتا - إلا عندما ذهبوا إلى إثيوبيا ليبشروا بالمسيحية، التى تحولت إليها فى القرن الميلادى الثانى، وكانوا فى هذا أكثر نجاحا من البعثة التبشيرية اليهودية.

مأ الذى أبقى على اليهود متماسكين رغم تشتتهم فى العالم؟ يعود سبب شدة ارتباطهم ببعضهم البعض بالتأكيد إلى كتاباتهم الدينية وإلى تفسير رجال الدين المثقفين لها. وكان لا بد أن تتواجد لرجال الدين سلطة عليا ليتولوا إرشاد الناس وقد اكتسبوا تلك السلطة بعد تقهرهم إلى بابل بعيدا عن الخطر الرومانى، ولكن أعيد تشكيل هذه السلطة بواسطة الرومان أنفسهم. فقد كانوا فى حاجة إلى ممثل يتحدث باسم اليهود وسلموا السلطة إلى بطريك من بيت هليل، وهى أسرة من الفريزيين. استمرت السلطة تتوارث بين أبناء هذا البيت لعشرة أجيال. بدعوا فى مركز فى طبرية ثم تكونت منهم طائفة من المعلمين وعدلوا فى الفلسفة اليهودية لتناسب حاجة اليهود المتبدلة فى عصر متغير، وما زال متغيرا إلى يومنا الحاضر. كانوا فى تلك الأيام الأولى منشغلين بملاحقة تطور الفكر المسيحى، فغيروا شعيرة التضحية بالفكرة الأشد ذكاء، فكرة التصديق والإحسان، التى طورت الديانة بصورة تناسب العصر وجعلته متحررا من سيطرة رجال الدين السالفين. التوراة هى قانون الديانة اليهودية وهى نورها، وتحوى جزءا مكتوبا وجزءا غير مكتوب. أما الجزء المكتوب فهو كتاب اليهود وأما الجزء غير المكتوب فهو معتقدات الشعب اليهودى التقليدى، والتى تختلف حسب تعاليم المعلم، وتشمل اليهود القرائين واليهود الربانيين. ثم تمت كتابة هذه الأفكار بواسطة أحبار اليهود وصارت تعليما تقليديا. واستمر التطور فى هذه التعاليم مع تطور الكنيسة المسيحية. ولعل آخر تطورات الكتابات اليهودية كانت كتابات بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤ م).

أهم ما واجهته اليهودية كان اعتناق الدولة البيزنطية وجعل المسيحية الدين الرسمى للقسطنطينية. كانت الغيرة من اليهود والخوف من فلسفاتهم القديمة - التى اشتقت المسيحية من أهمها - هى التى دفعت المسيحية إلى محاولة تدمير الدين اليهودى. للوصول إلى هذا الهدف كانت الخطوة الأولى هى تحطيم اليهود كجنس مستقل، وإزالة الفكرة بأنه شعب الله المختار، وتحملته كسبب تهمة أنه هو الذى قتل رب المسيحيين وأنه لا سبيل لدفع تلك التهمة الشنيعة سوى بتحول أفرادها إلى اعتناق المسيحية. لم يكن كافيا سبب الشعب اليهودى وكل المؤسسات اليهودية رسميا وشعبيا فى كافة المناسبات المدنية والدينية. كان من الضرورى منع كل محاولات التبشير بالديانة اليهودية ومنع تحول كافة الأوقام لليهودية، سواء كانوا من المسيحيين أو الوثنيين مع إيقاف كافة

المحاولات التي تمنع تحول اليهود إلى مسيحيين. كان الإعدام هو عقوبة كل مرتكب لأي من هاذين الفعلين. كذلك تم منع الزواج بين أبناء الديانتين إذا لم يسبقه اعتناق المسيحية. تحولت الحرب الباردة التي استمرت لقرنين من الزمان بين أبناء العقيدتين إلى حرب ساخنة - واستمر هذا الصراع بينهما إلى عصرنا الحاضر.

تبعث مختلف الطوائف المسيحية نهج قاداتها وحكامها في العلاقات الاجتماعية مع اليهود. كان من بين هؤلاء الزعماء والقادة والحكام بعض المعتدلين غير المتعصبين من أمثال فيودريك القوطي والملك جيمس ملك أرجوان والإمبراطور فردريك الثاني، وحكام هولندا من التجار، كما كان هناك بعض العقلاء من البابوات مثل جريجوري الأعظم. أدرك هؤلاء المنافع التي - يجنيها الناس وتكتسبها الدولة من إشراك اليهود في التجارة، والثقافة والعلم الذي يحصلون عليه من التعليم اليهودي. كان شارلمان لا يستغنى عن اليهود كسفراء له. وكانت حكومته تستعملهم في أمور التجارة وصار اسم اليهودي يعنى أنه يعمل بالتجارة. وفرض ابنه لويس عليهم الحماية وخصص لهم أحياء مناسبة في المدن ليسكنوها. ولكن الحماية تتضمن بعد حين العبودية. بالتدريج وجد اليهود أنفسهم أنهم صاروا خداما. لم يقطن اليهود في الريف بل صاروا أقليات تسكن المدن، ومهزت تلك الأقليات في أعمال بعينها. كانوا المتعلمين في المدن، الذين يقرأون الكتب، وتحلق حولهم المسيحيون، الذين كانوا أقل منهم ثقافة. بعد قليل صاروا ثروة المدن، الذين يحتاج إليهم الحاكم لإقراضه النقود، هؤلاء الحكام الذين كانوا دائما في حاجة للاقتراض في العالم الإسلامي، تبين الوزراء فائدة اليهود في مختلف الظروف حتى القرن الثالث عشر، كان اليهود في أوروبا هم الوحيدون الذين يمكنهم عد النقود وكيف يحسبون الكسور وكيف يقدرن نسب الربح المختلفة، وكانوا هم الوحيدون الذين استطاعوا التعامل مع المعادن النفيسة. لكل هذه الخصائص كان اليهود هم من يعملون في جباية الضرائب من المواطنين (حتى تولت الكنيسة هذه المهمة فيما بعد).

حينما ضاقت الأمور على الكنيسة وأحاطت بها الصعوبات؛ انتصارات المسلمين من جهة وهرطقة المهروطقين في العالم المسيحي من جهة أخرى؛ وجدت الكنيسة مخرجا من تلك الأزمات باضطهاد اليهود. بدأت حملة «صليبية» أخرى ضد اليهود اشتركت فيها الكنيسة والملك والغوغاء، واكتسبت تلك الحملة شعبية كبيرة بين الجماهير كما حفلت بمغانم عدة.

بدأت الحملة بأحد الباباوات التي اشتهر بانه سياسى عظيم، البابا انوسنت الثالث. أمر في عام ١٢١٥ جميع اليهود، الرجال منهم والنساء أن يحملوا شارة مميزة، صفراء اللون في معظم الأحوال، ليعرفوا كخطر على الأمة (وفي نفس الوقت ليسهل التعرف عليهم عند التمثيل بهم) استغرقت تلك

الحملة من اضطهاد اليهود عدة قرون حتى بلغت ذروتها وإلى أن حققت غايتها . كانت مدن أوروبا، في العصور الوسطى شأنها شأن كل العصور، مقسمة إلى أحياء مختلفة، تقطن كل قومية، ويسكن أتباع كل ديانة، ويتجمع أرباب كل حرفة في حي بعينه. صارت أحياء اليهود بالتدريج (والتي عرفت بحارات اليهود) مملوكة ملكية جماعية وأحيطت بالأسوار - في بعض الحالات - لحمايتها وكانت لها أبواب يتم غلقها بالليل. وهكذا صارت حماية اليهود مقترنة بانعزالهم وعزلهم. انتشرت حارات اليهود في جميع الإمارات الإيطالية والألمانية. سبق قدوم اليهود إلى إيطاليا مقدم أقوام عدة: من الكريستيين والأتروسكان والإغريق وأهالي الاسكندرية، ولم يكن نجاحهم المادي ملحوظا ولم يكن شعور الجماهير ضدّهم كريها، ولذا لم يقابل يهود إيطاليا الاضطهاد الذي لاقاه باقي اليهود في أوروبا. كان البابا يدافع عن يهود إيطاليا وكانت الجماهير تحميمهم، وظلوا هكذا لألفى عام، وقد استمتعوا وحدهم، دون بقية يهود أوروبا بتلك الحماية. أما في سائر بلدان أوروبا فقد طبعت عليهم الجماهير شبهة أن اليهود قوم غريباء تحيطهم الأسرار وأن لهم صفات خاصة وتقاليد غريبة، وكلما زاد جهل الجماهير زادت عزلة اليهود. تواجد في غرب أوروبا ملوك أقوياء استثمروا ذلك الموقف لصالحهم. فرض ملوك انجلترا وفرنسا جزية باهظة على اليهود، وبعد أن امتصوا دماهم طردوهم من البلاد شر طردة. فقد طرد إينوارد الأول ١٦ ألف يهودى من البلاط الملكى عام ١٢٩١ (ويبقى بعضهم فى سرية واستخفاء فى أكسفورد). رحب بهم المسلمون فى إسبانيا والبرتغال ولكن انقلب عليهم الملوك المسيحيون بعد طرد المسلمين من بلادهم عام ١٤٩٢، فهرب معظمهم مع المسلمين الهاربين من البلاد.

فى نهاية القرن الثانى عشر قبل أن تبدأ نكسة اليهود فى أوروبا استطاع بنيامين من تيودولا أن يترك موطنه الاصلى فى نافار ويرحل بحرية ويوزر المدن الهامة فى أوروبا وأفريقيا وبلاد فارس والهند. ولكن ذريته لاقت فى ترحالها من بلد مسيحي إلى بلد مسيحي آخر انعدام الحماية، وتعرضوا للسب والإهانة حيثما قدموا، فقد صار هذا هو التقليد الذى اكتسبه المسيحيون فى جميع أنحاء العالم. استقر اليهود على مدى أربعين جيلا، أولا فى بلاد وثنية ثم قطنوا فى الثلاثين جيلا السابقة فى بلاد اعتنقت المسيحية، وتعرضوا خلال تلك المدة لضغوط بالغة ليعتنقوا المسيحية. انخفضت أعداد اليهود تدريجيا لتحول بعضهم إلى المسيحية، ولكن ظل تعدادهم ثابتا فى أوروبا حوالى المليون نسمة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين فى القرن السادس. مع مرور الزمن صارت الأجيال الحديثة أكثر مناعة ضد التحول للمسيحية. كلما إزداد تمسكهم باليهودية، وكان عليهم الاختيار بين التمسك بعقيدتهم وتقاليدهم وعاداتهم وبين الاستمساك بما يؤمنون به والتمسك بمجتمعهم وهكذا ظل اليهود - الذين قاوموا الطريق الأسهل من التخلي عن معتقداتهم ونبذ مجتمعهم والانخراط فى المجتمع المسيحي والديانة المسيحية بما يحمله هذا التحول من فتح آفاق الثروة وإتاحة كافة الفرص

أمامهم - ظلوا أشد استمساكا بدينهم. فى نفس الوقت حدث تهجين مستمر للمجتمع المسيحى مع من تحول إلى المسيحية من اليهود. هكذا إزداد اتساع المجتمع المسيحى كلما إزداد ضيق المجتمع اليهودى. صار اليهود أشد اتباعا لعاليم أحبارهم وقلت طاعة المسيحيين لأساقفهم، فزاد تعلم اليهود واتسعت ثقافتهم وإزادات عمقا، كما زادت مهارتهم الاقتصادية والمالية والتجارية وأورثوا تلك المهارات لنزرتهم، وتحول اليهود ليصيروا الطبقات المهنية لأوروبا المسيحية. وتغلغل اليهود إلى الطبقات الحاكمة، حتى فى إيطاليا نفسها. باندماج الدم اليهودى فى مسيحى أوروبا، اكتسب المسيحيون تدريجيا المهارات التى أهلتهم ليفعلوا ما عمله اليهود من قبل. فحل شارع لومبارد فى لندن محل أحياء اليهود، وحلت الكنيسة محل اليهود فى تحصيل الضرائب، وتحمل الأساقفة البغض والخزى والعار الذى تحمله اليهود من قبلهم. تحول اليهود بهذا الوضع - كما ظن الأمراء واعتقد الأساقفة - من طائفة شائنة شنيعة إلى جنس قابل للتوسع والانتشار فى الأرض.

يشابه اندماج الأصول اليهودية فى المجتمعات المسيحية ما حدث من قبل من انتشار الجينات الوراثية الإغريقية فى مجتمعات غربى البحر الأبيض المتوسط. كان تغلغل الإغريق غربا - مثل تغلغل اليهود إلى الغرب - فى عكس اتجاه الفتوحات العسكرية إلى الشرق. فتح الغرب قديما الشرق المستنير وانتشر التنوير الإغريقى والثقافة اليهودية إلى بلاد الغرب. واختفى الإغريق فى الغرب بمرور الزمن ولكن اليهود ظلوا محافظين على كيانهم ورفضوا الاندماج فى الشعوب الغربية بل ظلوا قيمين وأبناء حافظين لها وبقي أثر من كنوزهم فعلا واستمرت ثقافتهم وذكرى أبائهم وديارهم القديمة فى عقولهم حتى اليوم.

بعد أيرلندة تعتبر إسبانيا أكثر البلاد عزلة فى أوروبا، ولذا فالشعب الإسباني له صفات خاصة تشابه الشعب اليهودى المعزول جينيا. وللإسبان تاريخ طويل حافل بالأحداث والعلاقات مع الشعب اليهودى. عندما تولى عرش إسبانيا الملك ريكارد - ملك القوطيين الغربيين - فى عام ٥٨٦ تصالح مع البابا وتوج صلحه هذا بتزواج المحاربين الأميين من غزاته وحكامه مع العائلات العريقة والشهيرة من القادمين من روما وفينيقيا وبيزنطة - من المستوطنين الأوائل فى شبه جزيرة أيبيريا. وفى عام ٨٥٩ صدرت أوامر الأساقفة بمنع التزواج مع اليهود، لخوفهم من انتشار العقيدة اليهودية بالزواج والإنسال. وبهذا تم وضع اللبنة الأولى للانفصال التام بين العقائد والأجناس فى إسبانيا. وبعد تحرير إسبانيا من المسلمين، شابت العلاقات بين المسيحيين من جهة والمسلمين واليهود من جهة أخرى مخاطر شديدة. بين عامى ١٢٢٠ و١٢٥١ كانت إسبانيا قيد تحررت كلها باستثناء غرناطة وكان الصليبيون من دعاة تحرير البلاد. بعد التحرير انتشرت الدعوة إلى اعتناق المسيحية مرة ثانية

بين المواطنين، وأطلق لفظ «المويسكوس» على المسلمين الذين تحولوا للمسيحية بينما أطلق لفظ «الخنازير» على اليهود. كان الضغط شديدا على الجميع لإعادة اعتناق المسيحية وكانت استجابة اليهود مختلفة باختلاف طبقاتهم فعلى القمة كان الاعتدال مطلوبا، وقد عاون المهندسون اليهود الأتيين من كولونيا على بناء الكاتدرائيات فى القرن الخامس عشر واشترك بعض الملاحين اليهود والصناع المهرة من مايوركا مع الأمير هنرى وكريستوفر كولومبوس وفاسكودى جاما فى رحلاتهم التاريخية. ولكن حدث اضطهاد سريع لليهود فى إسبانيا. بدأت محاكم التفتيش الإسبانية الكاثوليكية أعمالها فى عام ١٤٧٨ وكانت محاكم تعسفية لا تقيم اعتبارا للحقوق الفردية مهمتها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهرطقة. فوضها ملك إسبانيا - النور البايوى - فى تعقب وإعدام الخارجين عن الدين، واستمرت فى هذا العمل لثلاثة قرون حتى قدم الغزو الفرنسى عام ١٨٠٨، فأنهى أعمالها. كان الملك بنفسه يحضر تلك الاحتفالات ويحضر مع أعضاء البلاط الملكى ورجال الدين وعامة الشعب. وهكذا حلت تلك الاحتفالات محل الصراع الوحشى الذى كان فى عهد الرومان أيام الوثنية وتوقف بقوم المسيحية إلى روما. لم يكن هناك من علاج لليهودية سوى بالطرد أو القتل، فالتحول كان ظاهريا ولكن ما بالقلب بالقلب. صدر قانون بطرد كافة المواطنين الذين لم يتحولوا إلى المسيحية عام ١٤٩٢ وظل المواطنون تحت الرقابة الدقيقة ليعاقب من تثبت عليه تهمة عدم اعتناق المسيحية وعندما يتبين أن الشخص لا يمكن طرده (كبار الأثرياء أو الملاحين الذين يستفاد بهم فى الرحلات البحرية)، بغض الطرف عنه. يوضح الجدول (٢٠) مصير اليهود الاسبان بعد عصر محاكم التفتيش.

جدول رقم (٢٠)

أسبان يهود ظلوا مختفين بإسبانيا	يهود طردوا من إسبانيا وصاروا لاجئين فى بلدان أخرى
٥٠ ألف	٤٥ ألف لجأوا إلى تركيا.
	١٥ ألف لجأوا لشمال أفريقيا ولمصر.
	١٠ آلاف لجأوا لفرنسا وهولندا.
	١٠ آلاف لجأوا لإيطاليا.
	١٠ آلاف لجأوا لأمريكا الوسطى والجنوبية.

ولجأت البقية الباقية إلى مراكز عند طرد المسلمون الذين كانوا يتعهدون بحمايتهم أنفسهم من إسبانيا عام ١٦٠٩.

يختلف مصير اليهود الذين اعتنقوا المسيحية حسب طبقاتهم الاجتماعية فقد اعتنق المسيحية أولا فقراء اليهود وتوقفوا تماما عن أداء أى طقوس يهودية ونجح سكان المدن منهم تماما فى الاختفاء بين الطبقات الدنيا من المجتمع الاسبانى. أما فى القرى البعيدة والمعزولة فقد اختفى الكتبة ورحل الأخبار وتعذر على الباقين أداء صلواتهم على الطريقة الصحيحة واشتد الارتباك بينهم، ولكنهم تمسكوا بإحياء أعيادهم وأداء طقوسهم السرية واحتفظوا بطابعهم المختلف عن بقية الناس واستمروا بزاولون تقاليدهم فى الزواج. بطل الختان بينهم (لأنه كان علامة مميزة لهم)، ولكن ما زالت الطائفة اليهودية التى تحولت للمسيحية طائفة عرقية لا يمكن هدمها أو تدميرها إلى الآن فى إسبانيا والبرتغال.

أما المثقفون والأثرياء من اليهود فقد تم طردهم بعد مرسوم عام ١٤٩٢ وكونوا طائفة «السيفارديم» أو «اللاجئين من بعيد»، ولكن بقى عدد منهم فى إسبانيا باعتراف المسيحية بمجرد صدور مرسوم الطرد هذا. وبعد ثلاثين جيلا من التكاثر المنفصل إزدادت الفروق بينهم وبين بقية الاسبان ولم يسمح لهم بالاندماج مع سائر أفراد الشعب. ولهذا فقد صمم فيليب الثانى أن ذرية اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية يجب ألا يسمح لهم بالبقاء كطائفة سرية فى البلاد أو بالنشاط كحركة تحتية. وفرض على هؤلاء اليهود المتخفين ارتداء قبعة صفراء اللون ومنعوا من الالتحاق بأى عمل مكتبى نو شأن أو مركز رفيع وحرم عليهم تماما التزاوج من سائر المسيحيين. (جدير بالذكر أن الصياغ فى بالمايوركا يعيشون فى شارعين اثنين من شوارع تلك الجزيرة وهم من أشد الكاثوليك تدينا ومن أنقى اليهود عرقيا). حاول شارل الثالث مرتين (١٧٧٣ ، ١٧٨٢) أن يقضى على التفرقة ضد اليهود وأن يوقف منع التزاوج معهم، ولكن قوانينه لم يعمل بها - شأن مختلف القوانين - خاصة فى جزيرة بالمايوركا.

كلما شددت القبضة على اليهود كلما زادت هجرتهم إلى خارج البلاد. عدد كبير منهم إلى أنتورب وإلى امستردام وساهموا فى النهضة الثقافية وفى النجاح التجارى الذى حل بتلك البلاد فى القرنين التالين. ولكن غالبية اليهود الذين تمسكوا بالاحتفاظ بدينهم رحب بهم السلطان العثمانى فى تركيا واستقبلتهم مصر بحفاوة. أعلن السلطان بايزيد الثانى أن لجوء اليهود إلى بلاده سوف يساهم باثرائها (بالقدر الذى سوف يضعف به إسبانيا) وقد كان تقديره سليما. استقر اليهود اللاجئيين فى القسطنطينية وفى سالونيك وفى سميرنا، ثم تبعوا الأتراك إلى فلسطين وإلى مصر، وأثبت اليهود أنهم خير خلف للإغريق المسيحيين الذين غاسروا البلاد، وحلوا محلهم فى المهن المختلفة التى كان يشغلها الإغريق.

لم يكن اليهود في بلاد المسلمين بلا متاعب. ففي عام ١٦٤٨ أعلن يهودى فى سميرقا اسمه شابتاى زفى أنه أوحى إليه وأنه المسيح المنتظر وبعد إلقاء القبض عليه انكر ادعائه واعتنق الإسلام. ولكن أتباعه، طائفة «الدومنة» شكوا طائفة صغيرة من المسلمين اليهود، فهم ظاهريا من المسلمن ولكنهم يتلقون تعليما خاصا وهم فى الحقيقة يهود عرقيا، يثيرون الاضطرابات السياسية كل حين وآخر، وقد تم القضاء عليهم نهائيا بعد ثمانية أجيال. بحلول عام ١٩٠٧ كان يهود سالونيك قد تزايدوا حتى وصل تعدادهم إلى ٦٠ ألفا، أو نصف تعداد المدينة، وكانوا يشكلون أكبر تجمع يهودى فى تركيا. ظلوا يحتفظون بتقاليدهم المحافظة ولباسهم اليهودى وبلغتهم الكاستلانية العتيقة التى احتفظوا بها من القرن الخامس عشر عندما كانوا بإسبانيا حتى تم القضاء عليهم عام ١٩٤٣. كان يهودو سالونيكيا يضمون بعض جماعات الدومنة، الذين كانوا الروح المحركة لحركة ثورة «تركيا الفتاة» التى قامت فى عام ١٩٠٨ وانتهت بسقوط الإمبراطورية العثمانية.

كان اليهود الذين غادروا إسبانيا أو بقوا فيها، الذين تحولوا عن اليهودية أو استمسكوا بها، والذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل جنسهم أو دينهم، قليلو العدد ولكن كان أثرهم عظيما. فقدت إسبانيا عنصرا متقفا، لجأوا إلى بلاد المسلمين، وفقدت فيما بعد مزيدا منهم رحلوا إلى الممتلكات الإسبانية فى جزر الهند الغربية وبدأ الانحلال والوهن يسرى فى إسبانيا خطوة بعد خطوة منذ عهد إخماد الهرطقة واصطياد المسلمين واليهود وطردهم من البلاد واضطهادهم المتتابع، ولم تَقم قائمة لتلك البلاد حتى عهدنا الحاضر.

بولندا والأشكاز

استفاد اليهود الذين تم طردهم من انجلترا وفرنسا وسائر بلدان غرب أوروبا من المصائب التى حلت بالمسيحيين فى شرق أوروبا فى القرن الثالث عشر. ففي منتصف هذا القرن أغار القطار على بولندا ونهبوا مدنها وأحرقوا بيوتها فى مستوطناتها وقراها. استطاع الفرسان التيوتونيون صد هذا الغزو ونصبوا مسيحيا ملكا على البلاد ولكن انعدمت الاتصالات بين الحكام الألمان الجهلة والفلاحين الصقالبة الأميين. لم تكن هناك طائفة من المهنيين المثقفين ولا من الحرفيين التقنيين المهرة لينظموا المجتمع ويديروا شئونه. تمت دعوة رجال من مختلف مدن أوروبا ليملاؤا الفراغ الحادث فى المجتمع لبناء المدن من الحجارة بعد أن حرقت المنازل الخشبية. وفد إلى كراكاو سيل من الألمان والهولنديين والفلمنك والوالونيين والغاليين والايطاليين والمجر، كما حضر المورافيون وعدد قليل من الاسكتنديين. ووفد أيضا عدد من اليهود. جاء أولا عدد من اللاجئيين من موانئ البحر الادرياتيكي، وبعد قرن من الزمان وفد كازمير العظيم (الذى أحب الديانة اليهودية واتخذها عقيدة له

وربما ارتبط برفيقة يهودية)، وأعطى عهده لليهود فجاءوا بأعداد كبيرة. عرف هؤلاء اليهود باسم «الاشكنازيم» وهو الاسم العبري للألمان.

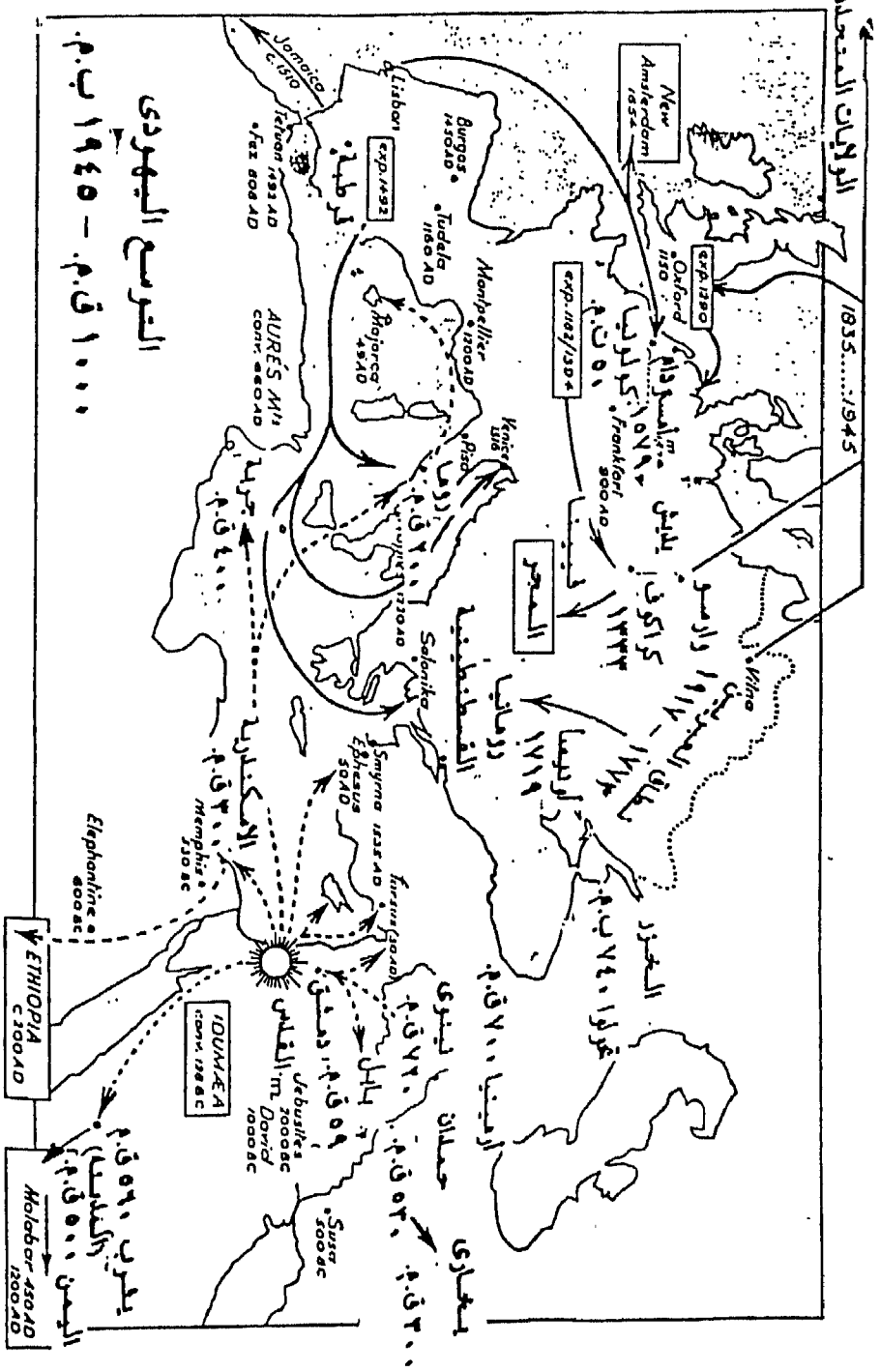
لم يشهد التاريخ، منذ عهد الاسكندر الأكبر، إنشاء مدن يقطنها جنس واحد مزروعة فى بلاد يقطنها جنس آخر وتحكمها فئة عسكرية تنتمى لجنس ثالث. يتحدث كل جنس بلسان مختلف. فى سائر أنحاء العالم تكلم اليهود بلسان حكامهم، ولكنهم فى هذه الحال كان الحكام يتحدثون باللغة الألمانية وكان اليهود يفوقون الحكام فى أعدادهم، ويزيد عنهم جميعا جماهير الشعب من الصقالبة. ولذا ابتدع اليهود لغة جديدة خاصة بهم، لغة اليديش. كانت لغة ألمانية بلهجة أهل الراين، مدعمة باللغة الأرامية المستحدثة من التلمود – لغة أحيار اليهود – وبعض الألفاظ البولندية، كلما دعت الحاجة إليها. كانت اليديش لغة غير مكتوبة، لغة الجماهير غير المتعلمين، أما لغة التعلم والكتابة فكانت اللغة العبرية. وظلت اليديش هكذا حتى عام ١٧٩٢ عندما بدأت الجماهير تكتب بها أديبا. وعندما انقسمت بولندا وتفرق أهلها بين بروسيا والنمسا وروسيا اندثرت لغة اليديش.

كون اليهود غالبية الطبقات المهنية فى بولندا وكانوا أصدقاء حميمين للبولنديين. أحاط بهم ثلاث أنظمة معادية لهم، أولاها الحكومة النمساوية التى كانت تفسخ زواج المسيحيين باليهود وتعتبره زواجا غير شرعى. وثانيها كانت الحكومة الروسية التى تحالفت مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وكان أرضاؤها لشعبها يتمثل فى اضطهاد اليهود: عزلتهم وكانت تسوقهم بالقوة وطردتهم وقتلتهم فى أراضيها التى استولت عليها من بولندا. كانت نتيجة هذه الموجه الجديدة من اضطهاد اليهود هو هجرتهم الجماعية إلى خارج البلاد، أولا إلى المجر ورومانيا وثانيا إلى ألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة، وكانت أخصب تلك الهجرات هى التى قادتهم إلى هولندا.

أعطت هولندا لليهود الذين لجأوا إليها من إسبانيا حقوقا مدنية متساوية بداية من القرن السابع عشر، وقد جذب هذا باقى اليهود المطرودين والمضطهدين من شرق أوروبا. وهكذا وجد فى هولندا الطائفتين اليهوديتين: السفارديم والاشكنازيم. ولدهشة اليهود تبينوا لأول مرة اختلافهم العميق اجتماعيا وحضاريا وطائفيا، حتى ولو كانوا يدينون بديانة واحدة. كان اليهود السفارديم حسنو التعليم حسنو العلبس إذ كانوا ينتمون للطبقات العليا فى المجتمع الاسبانى والبرتغالى، يشابهون أثرياء المسلمين والمسيحيين فى تلك المجتمعات، وكانوا يتحدثون بلغتهم الأصلية «اللادينو»، كما يتحدثون بلغات المثقفين الأخرى. على الناحية الأخرى كان الاشكنازيم المحافظين، الرجعيين، المتمسكين بنظمهم وطقوسهم التقليدية (ولكن المتسيبين فى بقية النواحي)، الذين يعملون كعمال ولا يتحدثون إلا «باليديش». أنتج السفارديم بعض عظماء الرجال مثل سبينوزا بينما لم ينشأ

أى عظيم من الأشكينازيم. ولو أنهم أثمروا فيما بعد بعض كبار الشخصيات اليهودية بعد أن تخلصوا من الفقر والعزلة والتوالد الداخلى وبعد أن هاجروا إلى بلاد أخرى واختلطوا بإناس جدد وتعاشوا مع مجتمعات مفتوحة متسعة فانتجوا هاين ومندلسون وكارل ماركس وعائلة روثنشيولد. لما يزيد عن القرن تباعد السيفارديم عن إخوانهم من الاشكينازيم اليهود السفارديم يشابهون المسيحيين فى عاداتهم ويتصرفون مثلهم. لم يتعبوا مع الاشكينازيم ولم يتناولوا الطعام معهم ورفضوا التزاوج معهم، واستمر هذا حتى بعد هجرتهم لإسرائيل. حتى عام ١٨١٢ عندما بدأ الاختلاط يحدث تدريجيا بين أبنائهم وحفدهم وذريتهم. وهكذا بدأت الطائفتان اللتان ظلتا منفصلتين جغرافيا طوال خمسين جيلا تتصلان ببعضهما البعض بعد أن تطورت كل طائفة بعيدة عن تطور الطائفة الأخرى. توضح الخريطة رقم (٥) التوسع اليهودى من سنة ١٠٠٠ ق.م إلى سنة ١٩٤٥ ب.م. تفرق اليهود فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية وانتموا إلى مختلف الطبقات فى بلدان قسمت أبنائها إلى طبقات بعضها فوق بعض ورضيت كل مجموعة بالطبقة التى انتمت إليها، وتطورت طوائف اليهود مع تطور الطائفة التى أصبحت جزءا منها سواء من البلدان الإسلامية أو المسيحية. تعرض اليهود فى مختلف البلاد إلى ضغوط انتقائية أدت إلى نجاح أو فشل وأدت إلى التحول من الديانة اليهودية أو الاضطهاد لمن استمسك بها ونتج عن كل تلك العوامل سرعة فى التكيف مع مختلف الأحوال. وحدث أيضا قدر ضئيل من التهجين مع الأغلبية المسيحية أو المسلمة الذين تعايشوا معهم (كما يتضح من دراسات فصائل الدم للمجتمعات المختلفة). ولكن حافظ على نقاء العنصر اليهودى لحد ما تعليمات أحبار اليهود أن الشخص لى يعتبر يهوديا ينبغى أن تكون أمه يهودية. بعد التحرر الذى حدث عقب الثورتين الفرنسية والأمريكية اكتسب اليهود كثيرا من الحقوق المدنية ولكن يهود أوروبا لم يتم اختلاطهم بغير اليهود إلا فى أضيق الحدود بعد القرن الثامن عشر. كثير من عظماء العالم نصف يهود، لأنهم أبناء غير شرعيين، أما اليهود الانقياء، الشرعيون فيقل ظهور العباقرة بينهم.

بعد تفرق اليهود فى قارات العالم القديم الثلاثة فى العصر الرومانى لم يتم الالتزام بالقانون اليهودى الذى يقضى باقتصار الزواج من واحدة، وحدث تعدد الزوجات، خاصة بين الأثرياء والأقوياء من نوى السلطان. بعد تحول بلدان الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية توقفت عادة تعدد الزوجات بين اليهود، محاولة منهم للحد من التناقض بينهم وبين المسيحيين أما من استقر منهم فى البلاد الإسلامية فقد شابهوا إخوانهم المسلمين وكان للثرى اليهودى زوجات عديدات (بالإضافة إلى عدة عشيقات) وحدث هذا أيضا مع اليهود الذين استقروا فى اليمن والحبشة ومالايار. نخلت كثيرات من النسوة المسلمات والوثنيات إلى حريم اليهود وهكذا نشأت طوائف من اليهود السمر ومن اليهود السود فى آسيا وأفريقيا نور ملامح وصفات جسمية وثقافية مختلفة عن بقية اليهود فى العالم.



التوسع اليهودي
 ١٠٠٠ ق.م. - ١٩٤٥ م.

كما وصل اليهود إلى الهند على فترات بعد الأسر البابلي، ولذا تواجد يهود كوشين في ثلاث مستعمرات: يهود بيض ويهود سود. يعيش اليهود البيض في شارع اليهود ويتكلمون باللغة المالايامية ويعملون بالتجارة وتبين فصائل الدم لديهم أنهم من أصول يهودية. اليهود السود من التهجين مع المسلمين والهندوس من الأجناس المحلية الذين اعتنقوا اليهودية كعبيد لليهود البيض، وليس لهم رجال دين ولا معلمين من أنفسهم بل يتبعون ويحترمون الطقوس التي يمارسها اليهود البيض وينقسمون إلى فئتين. أما اليهود السمر فهم من نتاج التوالد بين اليهود البيض واليهود السود ولا تقبلهم كلتا الفئتان ويتحول غالبيتهم بالتدريج إلى المسيحية. ويقع يهود اليمن في موقع متوسط بين اليهود البيض والسود في كوشين وهم نتاج تعدد الزوجات بين البعثات التبشيرية اليهودية وبين من اعتنق الدين اليهودي من السكان المحليين قبل مقدم المسيحية والإسلام إلى تلك البلاد ولا توجد فروق قومية أو أصلية جينية بين اليهود اليمنيين أو المسلمين اليمنيين، فكلتا الفئتان نتاج الغزو والفتح وتعدد الزوجات.

هذه أمثلة لكيف تعيش الديانة اليهودية بدون معلمين من اليهود وبدون كتبة ينقلون للناس ما جاء في كتب اليهود ولكن بانتشار الجنس اليهودي في الأقاليم. ويعكس وجود اليهود السود كيف تستمر العقيدة اليهودية في جنس منفصل بواسطة المعلمين، ويوضح تواجد اليهودية في اليمن كيف تعيش الديانة بواسطة تعليم المعلمين من جنس هجين وتختلف تلك النماذج عما حدث في المانديينيين أو لدى السابيين والسامريين واليهود القرائين (المذهب الذي نشأ في بغداد في القرن الثامن وقوامه رفض التمسك بسنة التلمود) والطوائف اليهودية التي نشأت بين التتار في المقاطعة العبرية في روسيا. كل هذه أشكال للانحطاط نظرا لتحطم الاستمرار الوراثي بين اليهود، والتي بلغت أشدها في أفريقيا. كان تغلغل اليهود الأول في أفريقيا نتيجة اعتناق أقوام تتحدث بالأمهرية للدين اليهودي من بين الطبقات الحاكمة في المملكة الأكسومية قبل العصر المسيحي. وصل المبشرون بالعقيدة اليهودية من مصر، وربما من اليمن أو بالسفن على سواحل البحر الأحمر. سميت هذه الفئة من اليهود «بالفلاشا» وتعنى الأجانب. ترجم معلوهم الكتب العبرية إلى اللغة الإثيوبية وأدخلوا الطقوس اليهودية والأعياد والمعابد اليهودية إلى البلاد. استمر صراع أولئك اليهود مع الوثنيين ثم مع المسيحيين والمسلمين من أهل البلاد لما يزيد عن ألفي عام، وتغيرت من الأصول والممارسات خلال تلك الأعوام وانتهى الأمر بالفلاشا باتخاذ إلهة تدعى «سانيات» بدلا من تقديس يوم السبت المعظم لدى اليهود واتبعوا نظام الرهبانية المسيحي وانقسموا إلى ثلاث شيع لكل منها كاهنه الأعظم. ترك للمسيحيين التفرقة بين الحيوانات النظيفة والنجسة وكانوا هم من استولى على السلطة. تقلص عدد الفلاشا بالتدريج بعد أن حرموا من ملوكهم وصاروا خدما لبقية الشعب، ولكنهم رغم هذا ما زالوا

محافظين على تفردهم الجيني وديانتهم المستقلة. أهمية الفلاشا أنهم أدخلوا الكتابات العبرية إلى قلب أفريقيا وحافظوا على تقاليد اليهود، كما حافظوا على بعض الصناعات التي اشتهر بها اليهود في أوروبا: صناعات الخزف والنسيج والبناء وخاصة صناعات المعادن التي اشتهر بها الفلاشا وتميزوا بها عن سائر أقوام أفريقيا الوسطى. يتميز الفلاشا بأنهم البقية الضئيلة من شعب قديم، يختلفون في لونها وفي طباعهم، شعب دعم يوما ما حضارة أكسوم. من أسلاف الفلاشا نشأت قبائل كانت ماهرة في الصناعات المعدنية ووجدت طريقها في جميع أنحاء قارة أفريقيا، برعوا خاصة في صناعات الحديد والذهب في روديسيا، خلال القرون من الثالث عشر إلى السادس عشر. قد يكونوا قد ساهموا في خلق إمبراطورية عظيمة ما زالت آثارها باقية في قلعة زيمبابوي، ويتضح أثرهم هذا أوضح ما يكون في قبيلة بالمبا.

البالمبا هم طائفة منغلقة على نفسها تتواجد ضمن قبائل الفندا والسوتو في الترانسفال وفي روديسيا. يتميز أفراد هذه الطائفة بملامحهم السامية أو الحامية خلافا للملاح الزنجية لدى جيرانهم. ليس لهم رؤساء من أنفسهم بل يخدمون رؤساء قبائل الفندا والسوتو ويصنعون لهم الصناعات الحديدية والفخارية لا يزرعون ولا يربون الماشية ويتكلمون بلغتهم الخاصة بالإضافة إلى لغة الفندا. يتبعون في الذبح الأصول الشرعية المباحة في الشريعة اليهودية ويتبعون تعاليم اليهود في أكل اللحم. ينعون تماما الأساليب اللوطية واشتهاء المماثل المعتادة في معسكرات الاستهلال لدى باقي قبائل البانتو. تشير أساطيرهم إلى العهد الذي وعد الله به شعبه المختار والذي أعطاه لملك عظيم له رموز مقدسة وما زالوا يحتفظون بها لدى الوريث الوصي. تذكر أساطيرهم أيضا هجرتهم من البحيرات الشمالية والغابات ومعيشتهم في إحدى مدن زيمبابوي ويسمون الفندا وبقية الأقوام سوام وثنيون غير مؤمنين. وهكذا يعتبر البالمبا أبعد درجة من اليهود عن الفلاشا، بسبب ضياع كتاباتهم واختفاء معلمهم وكتابهم الذين يستطيعون قراءة هذه الكتابات ولكنهم يشتركون معهم في سائر الاتجاهات: طقوسهم ومهاراتهم اليدوية وملاحمهم وفي أساطيرهم التاريخية، ويرجع هذا إلى رفضهم التزاوج مع غيرهم من خارج مجتمعهم. وقد احترم جيرانهم فيهم هذه وبعجلوها وهكذا احتفظوا بجنسهم نقيا حتى الآن. ومما لا شك فيه أنه توجد أقوام أخرى - لا نعرفها بعد - بها آثار اليهودية متفرقة في أنحاء أفريقيا.

منذ عصر تيتوس في الإمبراطورية الرومانية والصراع دائر بين الاتجاهات الإمبراطورية والانكار القومية، وليس للحلول الوسط أي موضع. ظهور رجال يقبلون الحلول الوسط مثل يوسيفوس نادر الوجود. يمكن اعتبار قبول قسطنطين للمسيحية بعد ٢٥٠ سنة حلا وسطا، وقد أراضى هذا

الحل المسيحيين فحسب. أما اليهود فلن يرضيهم سوى العودة إلى مقامهم المقدس في أورشليم، فهم لن ينسوا جريمة الرومان بتدمير بيت المقدس. من الذى لا يغفر؟ أولئك الذين بدأ أسلافهم الديانة اليهودية، الجنس الذى خلق الثقافة التى ترعرعت فى الأراضى المقدسة. بدأت الحركة الصهيونية بعد ١٨٠٠ سنة عندما بدأ زعمائها سلوك السبيل الذى سلكوه واتباع الطريق الذى قادهم إلى الوضع الحالى والذى نازعوا فيه أقوام آخرين: المسيحيين والمسلمين خاصة الذين لهم حقوق دينية وتاريخية معترف بها فى نفس الأماكن والذين يودون تقاسم الأراضى المقدسة مع اليهود. يعرف الجميع ما قاساه اليهود من ظلم واضطهاد على مدى عصور التاريخ ولكنه نفس الظلم والمعاناة التى لاقاها الفقراء والمستضعفون فى كل أنحاء العالم، أولئك لا يجدون من يدافع عنهم أو يحميهم، تلك التضحية والمعاناة وذلك الظلم والاضطهاد الذين قلما يكتب عنه المؤرخون الذين يمول كتاباتهم الحكام فى كل البلاد. ولكن اليهود جنس مستمر، ذو ثقافة متصلة، خزنوا فيها الصالح والطالح من تاريخهم ومن أفعالهم على مر الأيام واكتسبوا بهذا طابعا عنصريا.

ولدت نولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد جهاد جيلين من البشر وقامت على أساس وضعه مؤسسو الدولة اليهودية أن اليهود ينتمون إلى جنس واحد وينبغى أن يضمهم وطن واحد وأنهم ذرية آباء بعينهم عاشوا فى الأرض منذ نيف وستين جيلا. ولكن ما هى الحقيقة خلال تلك الأجيال العديدة. حكم اليهود أقوام آخرين، احتاجوا لخدماتهم بعد أن تم اقتلاعهم من بلدان أخرى. اضطرت اليهود للتأقلم مع هؤلاء الأقوام وللتكيف للعيش معهم، وإن تم عزلهم عنصريا عن باقى الأقوام ولم يسمح لهم بالاختلاط بهم أو التهجين معهم، سواء كانوا يعيشون فى مجتمعات وثنية أو مسيحية أو مسلمة. كان من حظ السيفارديم الحسن أن قبلتهم أقوام أخرى للعيش معهم أما الأشكنازيم فكانوا قد تفرقوا فى مختلف البلدان وكان إنشاء نولة إسرائيل جنة لهم للتجمع فيها بعد طول فرقة. وجدوا فى إسرائيل أقوام مختلفين عنهم أكثر من اختلافهم الشديد من إخوانهم السيفارديم. وجدوا فى إسرائيل يهودا قدموا من آسيا ومن أفريقيا، كما وجدوا يهودا جاؤا من أوروبا يختلفون عنهم كل الاختلاف. توالد اليهود الاوربيون مع إخوانهم الأوروبيين وتطوروا سريعا، ولكن نتج عن توالدهم بعض أكثر لبشر تقدما وبعض أكثر البشر تخلفا، ويوجد فى بيت المقدس حاليا مجتمع عصرى على أحدث طراز يعيش جنباً إلى جنب مع مجتمع تقليدى، أصولى، جامد أشد الجمود - فى شيريم - ويحاصره كأسوأ ما يكون الحصار فى حارات اليهود. وهكذا وجد سكان الدولة الصهيونية الجديدة أنهم يعيشون فى نولة ذلك أجناس مختلفة العروق والأصول والطبقات والرغبات والاتجاهات كئى نولة حديثة فى هذا العالم. اختلافهم الأساسى بين باقى الأمم أنهم يعرفون تاريخهم جيدا، وهو تاريخ يقارب تاريخ الحضارة نفسها.

السياسة العنصرية

صراع المجتمعات

الإصلاح الكنسى

تشغل العصور الوسطى حوالى ألف عام عاشت فيها أوروبا تحت حكم حكومة مزدوجة: حكومة دينية وحكومة مدنية. فى هذه الحكومة أو بالأحرى الإمبراطورية كانت قوة الأمراء وسلطة الكنيسة تظهر على السطح فى تعارض ولكنها كانت فى الحقيقة فى تصادم. وكلما امتدت حالة الاستقطاب هذه كلما زاد التعارض والتصادم تشابكا. يتضح هذا من علاقتهما بنمو القوى المعارضة لكليهما، استطاعت النظم الوطنية الصغيرة أن تتكيف مع تلك القوى سريعا بعكس السلطة المركزية الموحدة للكنيسة، وقد أدى تجمع تلك القوى فى النهاية إلى حركة الإصلاح الكنسى.

كانت السلطات الحاكمة، كما كانت جماهير الشعب تشعر بتلك القوى. كانت الخطوة الأولى هى المناداة بها على فم المثقفين وتجميعها فى كلمات المتعلمين. كان هؤلاء رجال تلقوا تعليمهم فى الجامعات وكانوا فى مبدأ أمرهم من رجال الدين وعملوا فى صفوف رجال الكنيسة لكى يكسبوا عيشتهم. كان من أوائل هؤلاء الرجال برنجارىوس من تورز (٩٩٩-١٠٨٨) الذى حاول فى المجامع الكنسية علنا لمدة ٤٠ عاما مع لانفرانك ومع البابا جريجورى السابع شخصا نكر أن استحالة خبز القربان وخرمه إلى جسد المسيح ودمه تتعارض مع النصوص، ومع أقوال آباء الكنيسة وكتابها القدامى، ومع العقل. كذلك كان يوحنا فيدانزا الفرنسيسكانى (١٢٢١-١٢٧٤) الذى انتقد بيع صكوك الغفران التى تمنحها الكنيسة الكاثوليكية للمذنبين، ولكنه وصل رغم هذا ليصير أسقفا ثم كاردينالا فقديسا. ومن أشهر المعارضين لفساد الكنيسة توملبس جاسكوين (١٤٠٣-١٤٥٨) الذى كان رئيسا لجامعة أكسفورد ودأب على ملاحقة الهراطقة ومجادلتهم بحرارة ونادى بأن الأساقفة ينبغى عليهم ألا يحيا حياة الترف التى يعيشونها ببيع التراخيص للقسس ليتخنوا لهم عشيقات. كانت كل تلك الأمور إدراك عقلى سليم ولاقت القبول لدى الجماهير التى رفضت استخدام الكنيسة السئ لسلطاتها. ثم

بدأ المثقفون يفحصون القرائن والوثائق التي اعتمدت عليها الكنيسة لممارستها، لسلطاتها وجد العلماء أنه لا يوجد بالإنجيل ما يفيد بأن الله قد منح باباوات الكنيسة ولا الملوك أى سلطات أو حتى أقر بوجودهم، وأن كل القرائن التي اعتمدها عليها كانت مزورة، وأن الكنيسة اعتمدت فى وجودها التاريخى والقانونى على برنامج من الكلام المبتدع والملفوق الذى ليس له أصل. كانت الفرص التي أتاحتها الكنيسة، الأخذ فى الإزدهار والنمو والثراء، لكبار الكتاب ليصيفوا التاريخ على هواهم وليستنبطوا الخلاصات القانونية والاجتماعية والسياسية، كانت لتلك الفرص المادية والسلطوية أبعاد الأثر فى تشكيل الأحداث على هواها. اجتذبت الكنيسة، منذ أيام المبشرين الأوائل بالأناجيل، رجالا متعلمين، مثقفين، تفرّبوا لخدمتها، واحتكرت الكنيسة نتاج عقولهم. وعندما تبين أولئك العلماء المخلصين لعقيدتهم. وجود تعارض بين النصوص التي بين أيديهم أو النقص الموجود بها وبين معتقداتهم التي آمنوا بها، كان من أسير اليسير عليهم اختلاق ما يستكمل تلك النصوص، أو تحريفها حتى لا تكون موضعا لأى نقد قد يوجه إليها. اختلاق خطاب كتبه البابا كليمنت الأول فى روما لجيمس شقيق المسيح فى أورشليم يشرح له فيه كيف أن المسيح قد أوصى بتوريث قيادة الكنيسة للحوارى بطرس (الذى قامت على يديه كنيسة روما الكاثوليكية) من بعده، وتوريثها إلى خلفائه من بعده حتى تقوم الساعة، يكون عملا مقبولا. وعندما تبين عدم وجود هذا الخطاب أصلا، بعد قرن كامل، أعيد تزويره ثانية، وعادت السلطة مرة أخرى لأساقفة روما فى العالم الغربى بأسره (حتى ولو ثبت مرة أخرى أن الخطاب مزور). كلما مرت السنون كلما اتسع نطاق العمل فى تجديد وإصلاح وتوسيع أرشيف البابا، حتى صارت تلك العملية صناعة رابحة فى روما، وصارت لها فروع فى رايمز وفى مينز على اتصال بملوك الشمال، ودارت كتب المراسيم ووسائل توريث العروش المختلفة لعدة قرون بدون أن يعرف مزوروها. ووصلت ذروة هذه العملية فى اللحظة لإحرجة عندما تفاوض الملك بيبين ونجله - ملوك الفرنك - مع الباباوات المتتاليين فى الاعتراف المتبادل لسلطاتهما المدنية والدينية، تلك الفترة التي انتهت بتتويج البابا لشارلمان فى روما يوم عيد الميلاد ٨٠٠ والتي صدرت عنها الوثيقة المسماة «هبة قسطنطين»، والتي سلم فيها الإمبراطور - وكله أسى وندم - كافة سلطاته الإمبراطورية لأسقف روما.

مع تصاعد الجامعات فى بانوا وفى باريس خلال القرن الثانى عشر ظهرت أفكار جديدة عبرت عن نفسها بالشك فى صحة تلك المستندات. بدأ كتاب بعيون عن مكاتب البابا يميلون ناحية الملوك والأباطرة ويعاونون الكنيسة، وبدأ ناقدان عظيمان معاصران، دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) ومارسيجليو (١٢٧٠-١٣٤٢) يقودان حملة لكشف بهتان رجال الكنيسة وتزويرهم للمستندات والتشكيك فى أصول وأسس الشرائع والقوانين الكنسية وفى السلطة البابوية. تبع هذا سيل من إفشاء الأسرار التي ظلت

مختبئة، واستمر هذا البوح منتشرًا للقرون التالية. ظهرت للعيان أمراض كما ظهرت حقائق تثير التهكم والسخرية في التناقضات التي كانت تمارسها الكنيسة، فقد كان البابوات الأوائل فقراء، ضعفاء يحمون أنفسهم بأكاذيب مختلفة ضد أعدائهم الأقوياء، وتبعهم رؤساء أقوياء للكنيسة، صاروا أثرياء، ولكنهم كانوا أشرارًا فاسدين وتعرض الجميع لحملة ضارية لم تكن منتظرة من أعداء مثقفين كشفوا أعيابهم في تزوير المستندات والوثائق (كما تم الكشف أيضًا عن صناعة تزوير آثار القديسين). تزوير الوثائق التاريخية والدينية مثلها مثل تزوير الآثار المختلفة للقديسين كانتا من عدة الكنيسة الكاثوليكية التي أعدتها لحماية نفسها ودعم سلطاتها. وقد بدأت تلك الوثائق المزورة والآثار المختلفة منذ عهد قديم وما زالت حتى عصور متأخرة، ولو أنها اقتصرنا فيما بعد على روما فحسب.

قبل أن تأخذ هذه الانتقادات التي أتت من جهات أكاديمية قوتها الحاسمة، جاءت هجمات أخرى على الكنيسة من جهتين أخريتين. جاءت الهجمة الأولى من المجتمع الغربي وكان من أثر أعمال بيتر والنو، التاجر من مدينة ليون، الذي ادعى الفقر وصار يبشر بالفضائل المسيحية حتى وجد نفسه في عام ١١٧٠ متهمًا بقيادة طائفة من الهرطقة. تتبعت الكنيسة أعضاء تلك الطائفة من مكان لمكان حتى اضطروا للجوء إلى أماكن بعيدة، خاصة في وادي ديورانس حتى تم القضاء عليهم نهائيًا في عام ١٥٤٥ (ولو أن بعضهم هرب ثانية ولجأوا إلى أمكنة أبعد، في وديان بيدمت). استمر رسلهم واستمرت بعثاتهم التبشيرية تذكر الحكومات في شمال أوروبا أن الاحتجاج ضد فساد الكنيسة يمكن أن يحدث، حتى في إيطاليا ذاتها، وأن المحتجين على الكنيسة بإمكانهم البقاء على قيد الحياة في عدة أماكن في أوروبا.

حدثت الهجمة الثانية ضد الكنيسة عندما جاءت بعثات تبشيرية من الشرق واخترقت عدة مدن في غرب أوروبا. جاء هؤلاء القوم من البوسنة بالقرب من سراييفو. ترجع تلك الجماعات إلى الخلاف الذي كان دائرًا في البلقان بين الشرق والغرب وإلى تسامح الغزاة الأتراك. أخذت تلك الجماعات من المسيحية العهد الجديد ولكنها رفضت الاعتراف بالهوية المسيح وسلطان البابوات ووجود القديسين والقديسات وتصاويرهم. قد يكونوا قد آمنوا بتقمص الأرواح أو التناسخ. وصفتهم الكنيسة بأنهم مانويين، ثنويين، يؤمنون بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام واعتبرتهم من الهرطقة الذين يعتقدون بوجود مملكة للشيطان، التي لا يمكن الفكك منها إلا بطرح كافة الملذات الجسدية والتي تشمل أكل اللحم وشن الحرب والتنازل، وهكذا يعيشون في طهارة ونقاء. بالرغم من هذا لم تكن هذه الطائفة من العزاب بل زاد عددهم باجتماع آخرين للإيمان بمبادئهم وبالتكاثر

المشروع. تحول إليهم إناس من مختلف الطبقات واستوعبوا هراطقة آخرين من بلاد الراين وفلاندرز وشمبانيا وبلغ تعدادهم عدد كبيرا في بروفونس، حيث تكثر الاختلافات: اختلافات العرق والثقافة ولغة الحديث والسياسة، بينهم وبين جيرانهم في الشمال. يرجع هذا الاختلاف إلى حياتهم الريفية قبل العصر الرومانى وإلى الاستعمار الرومانى وإلى تغلب الارستقراط القوطيين على أسلوب حياتهم بعد العصر الرومانى. سميت تلك الطائفة باسم «الكاثاريون» واعتبرتهم الكنيسة من الهراطقة وعملت على استئصال شأقتهم. ابتدأت بحملات محلية في ريمس في عام ١١٥٧ ثم في كولونيا عام ١١٦٣ ثم في أكسفورد بآتهاهم علانية ثم بحرق ممتلكاتهم وضريهم بالسياط؛ ثم تجمع النبلاء النورمان والفرنسيون من شمال فرنسا تحت قيادة سيمون دى مونتفورت واحتلوا الولاية الجنوبية وأخمدوا الانتفاضات المتكررة بعد أن أعلن البابا عام ١٢٠٩ أنهم مارقون. أثبتت تلك الحملات فائدتها العظيمة للبابا وللنبلاء، فهم يجمعون الأموال على حسنها ويحتلون الأراضى ويُنشئون الأصولية فى ضربة واحدة، وقد فتحت تلك الحملات للكنيسة الباب واسعا للضرب الثالث من ضروب القمع، فقد تبين البابوات الطريق البديل لقتل الناس كل حين وآخر بلا محاكمة. ابتدعوا نوعا جديدا من القوانين الكنسية والطقوس الدينية تحت السيطرة المباشرة لمكتب الرئيس الأعلى للكنيسة - محاكم التفتيش. بدأت تلك المحاكم أعمالها فى عام ١٢٣١ بتوجيه من الفرع الجديد - الفقير - للكنيسة الذى ضم الشحانون - خاصة طائفة الدومينيكان. دأبت محاكم التفتيش على تعقب أولئك المخالفين للفكر التقليدى للكنيسة، المجددين، واعتمدت على قوى الطغيان المدنية واتهمت المنشقين عنها بالخيانة. كانت تنتزع الاعترافات من الناس عنوة بتعذيبهم وتهدد كل شهود النفى بالويل والثبور وعظائم الأمور، وتلقى عليهم نفس تهم المتهمين، وبعد إصدار الأحكام من المحاكم تتولى سلطات الدولة تنفيذ الأحكام وحرق المحكوم عليهم ومصادرة جميع أملاكهم، وبذا تتوافق مصالح الكنيسة والدولة التى كانت تتعارض فى سائر الأمور. واستمرت محاكم التفتيش هذه تلعب دورها فى إسبانيا حتى عام ١٨٣٤، وقد وصلت إلى قمة بطشها فى القرن السادس عشر، وكان تأثيرها عظيما على تطور المجتمعات الغربية. فى نفس الوقت استمر الصراع مع بقية طوائف المخالفين المتهمين بالهرطقة وتم حرق المئات منهم فى أعوام ١٢١٠ و١٢٤٤. هكذا تم القضاء على الهرطقة وعلى حضارات بروفونس - أو هكذا خيل لهم. الحقيقة أن الهراطقة توزعوا فى البلاد وأن الحضارات تفرقت وانكسر استمرارها الثقافى، ولكنها فى تفرقها فى ثنيات المجتمع الأوروبى احتفظت بالحماية من الزوال - ثقافيا ووراثيا. اختفى الأفراد كرجال دين مؤمنين وبعدوا عن البطش والتدمير كسائر المثقفين واختبؤوا فى أماكن بعيدة عن الأنظار، أكثر أمنا - حتى حان وقت ظهورهم فى زمان غير الزمان السى والبغيض الذى اضطروا فيه للاختباء.

جون وايكليف

كان لا بد من مجيء زمان أفضل من الزمان ومكان أحسن من المكان. كان لا مناص من أن يجمع المتفرقون وأن يتوحد النقد الفردي إلى حركة جامعة من الاعتراض الجماعي في مجتمع أكثر ظليما وأعمق ثقافة وأشد تماسكا. ظهرت هذه الحركة بعد مرور خمسين عاما من ظهور أعمال دانتى ومارسيليو، حدثت في إنجلترا في جامعة أكسفورد بتأثير شخصية رجل الدين الشعبي جون وايكليف، الرجل واسع الثقافة كثير الأتباع. حدث هذا قرب نهاية حكم الملك إدوارد الثالث عندما نجح المتظاهرون كنيسة برى، وكنيسة القديس ألبانز وكنيسة أبينجدون، شارك المتظاهرون المعترضون لفيفا من عليا القوم وكثيرا من المثقفين. كان الإنجليز حاليا يتخون لأنفسهم لسانا غير انلاينية تعلموه من كتابات لانجلاند وأشعار شوسر. ارتفع صوت الإنجليز بالاعتراض وبالقوموية الجديدة التي بدعوا يتخونونها لأنفسهم، خاصة بعد حروبهم مع فرنسا التي استمرت لأربعين سنة واعتبرها الإنجليز تحرير من السيطرة الأجنبية التي كانت الكنيسة عنصرها فيها. في بداية القرن الرابع عشر، في عام ١٣٠٩ أقتنع الملك فيليب، ملك فرنسا البابا - وكان فرنسيا - أن يهجر روما ويقم في أفينيون. ومن هناك، تمكن ملك فرنسا أن يضغط على البابا ويجعله يستخدم محاكم التفتيش ليحطم جماعة فرسان المعبد ويصادر ممتلكاتها واتخذ ممارسة أعضاء تلك الجماعة للواط ذريعة للقضاء عليهم. استمر البابوات الفرنسيون - يحيطهم الكرادلة الفرنسيون - يخدمون مطامع السياسة الفرنسية حتى عام ١٣٧٧ عندما انتقلت البابوية ثانية إلى روما، وهنا حدث انقسام حاد بين الفرنسيين والإيطاليين وتم انتخاب بابوين أحدهما فرنسي وأحدهما إيطالي، تنازعا السلطة لمدة ٤٠ عاما. بينما استمرت البابوية في تحصيل مستحقاتها وامتيازاتها من الإنجليز، واستمرت تغدقها على أتباعها ولم تعن حتى بزيارة إنجلترا. كان الانقسام الذي حدث في البابوية هو الفرصة السانحة لوايكليف للحط من شأن البابوية وطردها أو تدميرها والعودة بالمسيحية إلى الصواب. صادف هذا اعتلاء غلام صغير للعرش وضع تحت رعاية أوصياء اختلفوا في شتى الأمور، مما زاد من فرصته في ضرب ضربته. جمع القرائن الكثيرة الدالة على انحراف الكنيسة وأشار إلى الفوائد التي سوف تجنيها إنجلترا في السياسة القومية وفي المركز الاقتصادي. كان وايكليف يُعرف بالنصائح المعادي للبابوية التي كان يشير بها على عم الملك، فدعا البرلمان للحضور إلى لندن لإظهار مزايا الامتناع عن دفع الضرائب للبابا. كان هذا بداية التمرد ضد كنيسة البابا وسلطانه، وتبع الامتناع عن دفع الضرائب توقف الاعترافات للقسس والامتناع عن تقديس التفاوض وعن الحج إلى بيت المقدس وعن الإسهام في الحملات الصليبية. نادى وايكليف بأن يتوقف المذنبون عن دفع الأموال لرجال الدين للحصول على العفو والمغفرة، وأن البابا نفسه، المخطئ والمعاصي، لا يستحق أن تدفع له الأموال.

كان قلب الموائد بهذا الشكل على رجال الدين وإنهاء سياسات اتباعوها لألف عام يقتضى الرجوع إلى الأصول والعودة إلى الكتاب المقدس واتباع الإرشادات التى جاء بها الإنجيل، وهنا جاءت المشكلة المستعصية. كان كبار رجال الدين وحدهم هم القادرون على قراءة اللغة اللاتينية الفصحى التى كتب بها الكتاب المقدس. كان بعض النبلاء قادرًا على قراءة أجزاء قليلة من الكتاب المقدس الذى ترجم إلى اللغة الفرنسية، ولكن كانت غالبية الشعب من العوام ولم يكونوا يستطيعون قراءة أى شئ، لأن اللغة الإنجليزية التى يتحدثون بها لم تكن قد كتبت بعد. استطاع واكيليف مقابلة تلك الأزمة، بمعاونة اثنين من أخلص تلاميذه: نيكولاس هيرفورد وجون بيرفى، بوضع ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس لضمان نجاح الحركة ضد الكنيسة البابوية. انتهى العمل من هذه الترجمة بعد ١٢ سنة من وفاة واكيليف نفسه، وكان هذا عملاً رائعاً تم فى سرية وكتمان وفى عزلة.

تمت ملاحقة هذا العمل واضطهاد من قاموا به، خوفاً من بناء مجتمع جديد. ولكن تبع تلك الترجمة بدء كتابة النثر المبدع باللغة الجديدة، الإنجليزية، التى اقتصرت حتى ذلك الوقت على بضعة قصائد متناثرة من الشعر. وتبين الناس أنهم يمكنهم التعبير عن أنفسهم وآرائهم باللغة الإنجليزية، وأنه لا محل للفرقة بين لغة المثقفين - اللغة اللاتينية - ولغة عامة الشعب. وهكذا انتشرت الثقافة - فيما لا يزيد عن قرن من الزمان - من أصولها فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البلدان فى أقصى الشمال، وتبع انتشار الثقافة انتشار الحضارة إلى شمال أوروبا، التى مهد لها خلال ألف عام سابقة هجرة التجار والصناع والمثقفين حديثاً إلى تلك البلاد الشمال. وربما تكون لبدء اللغة الإنجليزية - بهذه الترجمة - أعظم الآثار الثقافية فى العالم بأسره خلال مختلف عصور التاريخ.

كان الخط الثانى الذى اتبعه واكيليف فى هجومه هو اعتماده على الطبقة الحاكمة. كان يعتقد فى مبدأ الأمر أنه يستطيع الاعتماد على نجلى الملك إدوارد الثالث وعلى تأييدهم، ولكن أحدهما تولى فى سن صغيرة وأنقض الثانى من حوله ورفض تأييده عندما تبين أنه يعارض الكنيسة. كان الشاعر شوسر قد وضع فى أشعاره المسماة «حكايات كانتربرى» هجوماً على الكنيسة وعلى رجال الدين: القسس والرهبان والراهبات، والذين يعترفون للقسس والذين يمنحونهم الغفران. كان النبلاء سعداء بالاستيلاء على أملاك الأديرة وعائد الممتلكات التى كان يحصل عليها رجال الدين، وكانوا فى انتظار اليوم الذى يتم لهم فيه الاستيلاء على تلك الممتلكات بعد أن منح ملك فرنسا نبلاهما تلك الأراضى. لم يكن للإنجليز أى ولاء سابق أو لاحق للإيطاليين ولا للفرنسيين، الذين كان لهم كاردينالات فى كل بيت عريق من البيوتات الفرنسية أو الإيطالية (ولم يكن هذا هو الحال فى إنجلترا)، الذى كان يستطيع - بعد سن الثانية عشر - أن يرشح لكرسى البابوية.

كانت جميع العروش في أوروبا تعتمد على اعتراف البابا بها، وجميع الملوك يستمدون سلطانهم من سلطان البابا نفسه. كان البابا هو الذي يبارك زيجاتهم ويعترف ببنايتهم وشرعيتها. كانت كافة مدارس القانون تتقاضى نفقاتها من البابا وكانت جميع الجامعات تعتمد في إدارتها على رجال الدين وعلى المنح المتوالية التي تبقياها على قيد الحياة. صارت عادات وتقاليد ومعونات ثلاثين جيلا فجأة فاسدة أشد الفساد! اختلف الإنجليز أيضا - من بقية شعوب أوروبا - في مستواهم الثقافي والحضارى. كان نبلاء سائر البلدان الأوروبية أكثر ذكاء وأكثر تعليما وأشد ثقافة من النبلاء الإنجليز. كانت أوروبا في ذلك الوقت على مشارف عصر النهضة نظرا لتعاظم ثروتها وزيادة قوة تجارها وصناعها في المدن الإيطالية بينما كان نبلاء إنجلترا مقدمين على حروب الورد، في المدن الإيطالية - وعلى رأسها فلورانس والبندقية - استطاع التجار أن يتزاجوا من بنات البيوتات الأرستقراطية الكبيرة: ميديتشي مع كولونا، وحكموا البلاد بمعونة كبار المثقفين. أما في إنجلترا فكان أقصى ما استطاع التجار بلوغه هو التزواج من بنات صغار شرفاء المحتد، أما كبار النبلاء الإنجليز فكانوا لا يتزاجون من بنات التجار الأثرياء وظلوا طبقة صغيرة داخلية التوالد من العسكريين، وكان الجهل يسود طرقتهم في الحكم، وكان أقصى ما تعلموه هي ما تعلمه مدارس الكنيسة، وكان مدرسوهم من رجال الدين الخبثاء. كان الإداريون من رجال الكنيسة، وكذلك كان المحامون وجامعو الضرائب. كانوا في حاجة إلى أموال الكنيسة، فقد كان الملك يتقاضى تسعة أعشار المبالغ التي يجمعها البابا لنفسه وكانت الممتلكات متقاسمة بينهما وكذلك كانت السلطة. كان الملوك والنبلاء يخشون عقوبة الطرد من الكنيسة لأنها كانت تعنى سقوط مركزهم في المجتمع المسيحي وقد حدث هذا في ثورة الفلاحين عام ١٣٨١.

تعاون ثائر خطير - وات تيلور - مع قسيس من أتباع واكيليف - جون بول - في طلب إلغاء نظام عبودية الأرض. أصبحت المعانى المتضمنة في تعليم واكيليف بالسيادة التامة على الأراضى وعلى الفلاحين واضحة وضوحا مميتا. كان البابا صاحب المبدأ أنه وحده، ببركاته، هو الذى يمنح الملوك والنبلاء حق السيادة على الفلاحين والسيطرة على الأراضى، ولكن واكيليف نادى بقرن الابتعاد عن الخطايا وتجنب الرذيلة هو كل ما يلزم الإنسان. كان البابا يمنح بركاته للأقوياء ويبيعها للأغنياء ولكن واكيليف كان يمنح الفقراء والضعفاء تلك البركة. عندما واجه الملك والنبلاء وات تيلور كانوا يضعون أيديهم مع الأساقفة لإخماد الثورة وقمع المصلحين. وهكذا ثبت أن الملاك الكبار فى الكنيسة والملاك الكبار فى الدولة يمشون فى صعيد واحد على نفس الخط. كانت محاكم التفتيش فى أوروبا تتعامل مع الهرطقة والخارجين عن الكنيسة بفاعلية شديدة على مدى ١٥٠ عاما. طالب الأساقفة بدخول محاكم التفتيش هذه إلى إنجلترا عام ١٣٩٧ ووافق البرلمان على هذا عام ١٤٠١،

وقد أحرق الملك هنرى الرابع الشخص الأول فى قبرابر فى سميثفيلد بلندن، حتى قبل أن يصدر القانون بهذا الإجراء. لم يرفع كبار الأغنياء نود الممتلكات الشاسعة أى اعتراض ضد هذا القانون، ولكن أحد صغار النبلاء سير أولد كاسل – لورد كوبهام اتهم بالهرطقة والخيانة وألقى القبض عليه وتم شنقه عام ١٤١٧ بعد أن ظل مختفيا لمدة ثلاث سنوات وبعد تفريق أعوانه.

كانت حركة الإصلاح بتبعاتها السياسية وأثارها الاجتماعية والدينية هى أولى الحركات التى اشترك فيها الشعب الإنجليزى ونفذت إلى أعماقهم. يعنى النقاد على من قاوموا تلك الحركة وقمعوا الثوار، ولكن من يتعمق فى الأمر يرى أن الثورة الإصلاحية لو كانت قد أخذت بمبادئها وإيكليف واتجاهات أولد كاسل وتشكلت حكومة جديدة فى إنجلترا فى ذلك العهد رافضة تماما سلطة البابا والإدارة الكنسية لعمت القوضى فى البلاد، ولذا كان قرار الملك وكبار النبلاء على حق فى موضعه. فالذى أمكن تحقيقه بعد قرن كامل كان من المستبعد أن يتم فى ذلك الحين. كانت الحركة الإصلاحية التى بدأها وإيكليف مقدمة لثورة أتت ثمارها فيما بعد. كان الأساقفة ضعفا وأشرارا وكانوا أغبياءا وضيقى الأفق، ولكنهم كانوا سياسيين حاذقين على دراية تامة بمصلحة طبقتهم، والتى كانت متوافقة – فى تلك اللحظة – مع مصلحة الأمة. كان الأساقفة الذين يتعقبون الهرطقة ويعذبون بكل حماس ويحرقون على استحياء من يتهم بتلك التهمة، إنما كانوا يؤدون واجبهم الذى كلفوا به. وكانت الطبقات الحاكمة تنفذ ما يحافظ على مصالحها الأنانية بدون وعى بالصالح العام، ولكن عاون كلا الجانبين – بدون أن يدروا – على تقدم الطبقات التى جاءت بالحضارة فيما بعد وعلى نمو الفئات التى أتت بالثقافة والمدنية فى العصور التاريخية التالية.

تعاونت الكنيسة والدولة – لمدة مائة وخمسين عاما – فى إنجلترا على حرق الهرطقة. وكان الخوف من العقوبات الأقل عنفا – مثل الاستيلاء على الممتلكات وفقد المناصرة والرعاية – دافعا ليتخلى المثقفون عن حركة وإيكليف سواء كانوا من رجال الدين أو من شرفاء المحتد. ولكن كانت المعاناة من نصيب السواد الأعظم من الشعب من الفقراء وغير المتعلمين الذين بدأوا يفكرون لأنفسهم ولا يفكر لهم أحد. ولكن – فى ذلك الوقت – لم يكن تفكيرهم تفكيرا عميقا ولم يكن إداراتهم بعيدا واستمروا يلقون اللعنات – سرا وعلانية – على ممتلكات الكنيسة وعلى أثريائها. لقب هؤلاء باتباع وإيكليف وكان معظمهم من الصناع نوى المهارة الفائقة. استمرت تلك الفئة فى النمو سريعا بمجهوداتها الخاصة وبازدياد ثراء الدولة التى كانت ترجع أصلا لمجهوداتهم ومبتكراتهم وإبداعهم. وعندما تمت طباعة الكتاب المقدس ووقع فى أيديهم لم يكن هناك ما يحول دون أن يقرأوا دينهم بأنفسهم ويفسرونه بأنفسهم، وجاءت من ذريتهم فئة «المطهرين الأنقياء» وصاروا العمدة التى قام

عليها جيش كروميل وثورة مونمارث وأسس الحركة الراضية للتقليدية وكانوا أيضا أساس الثورات الصناعية والتجارية والعلمية التي تلت تلك الانتفاضات السياسية والاجتماعية. في نفس الوقت انشغل الأساقفة بمطاردة أتباع واكيليف وتدمير كتاباته، ولكنهم كانوا يرتعدون من النظرة الجديدة التي أتت في النهاية على العهد القديم. كانوا يحصلون على نسخ من الكتاب المقدس الجديد ويتدارسونه (الذي كانوا يطلقون عليه الكتاب المقدس الجديد للهراطقة). بعد أن قرعوه بلسانهم لم يملكوا إلا أن يتأثروا به أشد التأثر ووجدوا فيه عنوبة وجمالا بعيدة عن الطقوس والتعليمات الجافة التي كانوا يزاولونها ويبشرون بها. يرجع الفضل إلى منتفو أكسفورد وإلى المنح الدراسية التي أغدقتها جامعة أكسفورد على الدارسين في سرعة انتشار الكتاب والتعليمات التي أتت بها وكانت لها الآثار السريعة في تغيير المجتمع. وسرعان ما انتشر الشرر إلى خارج البلاد وصار حريقا مشتعلا.

يان هوس

لاحظ المثقون التشيك المرافقون لأن أميرة بوهيميا إلى انجلترا لزفافها للملك الصغير ريتشارد عام ١٣٨٣ أن أكسفورد تستعيد مكانتها بعد شجبتها لواكيليف في نوفمبر السابق. استطاعوا الحصول على نسخ من كتاباته وعادوا بها إلى بلدهم. بعد سنوات تمكنوا من العثور على سندهم الأكبر - يان هوس. عثرت الشرارة على بترولها سريع الاشتعال. كانت بوهيميا - البلد الذي يقع في وسط أوروبا مكان التقاء صالح لجميع الظروف. كانت بلدا عتيقا غنيا بالمعادن، مليئا بعمال المناجم، بلدا قويا، صلبا، مستقلا، متحررا ومغامرا. كان يأوي فرقا كثيرة من الهراطقة وطوائف مختلفة من المتشككين الذين لم تتوصل محاكم التفتيش لاستئصال شأفتهم، كما كانت بوهيميا في تلك اللحظة تعاني من مخاض الخلافات الاجتماعية. بلغ الصراع بين الأصول العرقية للمواطنين والطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها ذروته، كما كان الحال في انجلترا منذ ثلاثة قرون، ولم تتوصل البلاد إلى الإخدوعة التي توصلت إليها انجلترا بتوحد أجناسها (ولم تتمكن من الوصول إلى تلك الصورة المضللة فيما بعد نظرا للخلاف الديني الذي ساد البلاد). كانت الطبقة الارستقراطية والنبل ورجال الدين وساكنو المدن من المتحدثين بالألمانية، في حين كان سواد الشعب ورجال الدين في الريف والقرويون من المتحدثين بالتشيكية، وضمت جامعة پراج الصنفين، وفي خضم هذا الصراع جاء الشقاق البابوي وكتابات واكيليف ومواعظ هوس.

كانت الجامعة مركز العاصفة وكانت تضم أربع قوميات. كانت تضم باقلريون وساكسون وبولنديون وتشيك. في عام ١٤٠٩ انصرفت عنها القوميات الثلاثة الأولى وبقي فيها التشيكيون فحسب الذين صمدوا مع قائدهم يان هوس. طرد كبير الأساقفة هوس من الكنيسة وحرمه من بركاته وصاد.

ماثى مجلد من كتابات وايليف وتم إحراقها. ولكن ذلك لم يمنع من استمرار التعليم والوعظ وانتشر الداء. بعد أربع سنوات عقد مؤتمر كنسى فى كونستانس لضم الصفوف وإزالة الشقاق وأغرى هوس لحضوره بعد تقديم الوعود بسلامته وأمنه، ولكنه حوكم على مدار عامين وحكم عليه وتم حرقه.

أضرم هذا الحدث النار فى أتباع هوس ونشأت طائفة معارضة - مثل أتباع وايليف - ضد رجال الدين وضد النبلاء وضد الألمان فى بوهيميا ومورافيا. جمعت هذه الطائفة حولها زعماء الإصلاح الكنسى المتفرقون فى مختلف البلدان وحضر بيترباين (١٣٨٠-١٤٥٥)، رئيس جماعة وايليف فى أكسفورد ومكث أربعين سنة يدعو للثورة، كما وفد إلى بوهيميا لاجئون مثقفون من الجبال ويعثات التبشير تاركين إخوانهم غير المتعلمين ونذروا أنفسهم لتلك العقيدة الجديدة وصاروا أساقفة فى هذا المذهب الجديد. كانت محاكم التفتيش عاجزة عن التصدى لتلك الأنشطة. قاد البابا مارتن الخامس عام ١٤٢٠ حروبا ضد الهوسيين استمرت على مدى ثلاثة عشر عاما وأدت إلى تفرق حركة الإصلاح الدينى. قبل الغالبية إنشاء كنيسة تشيكية خضعت فى النهاية لروما بينما رفضت الأقلية وتحولت فى النهاية إلى «الإخوان المورافيين».

خدمت الشعلة وأنطفأ النور، ولكن فى البلد الذى أضاء فيه فحسب. تفرق القوم، ولكن حمل الإخوان المورافيون تعاليم وايليف وبنوا بأن المعول يتوقف على السلوك، وأن الشئ الهام هو إبقاء موقده. قلوا العبريين فى انتشارهم فى أوروبا أولا ثم فى أمريكا. مثل إخوانهم من أتباع وايليف كانوا صناعا مهرة وقد تعاونوا معهم لاتمام حركة الإصلاح الدينى.

صارتن لـوثر

بنهاية القرن الخامس عشر تواجد فى أوروبا، فى جميع البلدان، إناس مثقفون كانوا على دراية بما فعله وايليف وهوس وكانوا يعملون فى صمت ضد محاكم التفتيش وما ارتكبته فى حق الإنسانية. وكان التذمر يصل ببعضهم، بين الحين والآخر، إلى درجة العلانية مثل الراهب شديد التحمس فلورنتين من سافونارولا. فى كل مرة كان يتم إخعاد التمرد بالبطش باستخدام سلطة الحكومات، فقد تم حرق الراهب سافونارولا فى ميدان القديسين فى وسط فلورنسا عام ١٤٩٧ وتهايا للكنيسة أن النظام قد عام بعد الثورة.

هكذا استطاعت محاكم التفتيش أن ترهب منتقديها، ولكن بإرهابهم قضت على كل محاولات الاحتفاظ بسلطانها المتهاوى (شأنها شأن كل الدكتاتوريات). منذ أن طبع جوتنبرج الكتاب المقدس باللاتينية عام ١٤٥٦ فى مدينة ميونخ بدأ الإنجيل نفسه يتغير حثيثا وبدأت تدخله رياح التغيير بنون

الحاجة إلى اضطراب خارجي. بدأت أجزاء من الكتاب المقدس تطبع باللغات المحلية: الألمانية فى عام ١٤٦٦، الفلمنكية فى ١٤٧٧ ثم بالفرنسية والإسبانية والتشيكية وإيطالية، ولكن ليس باللغة الإنجليزية. فقد عرفت الكنيسة الإنجليزية خطورة ترجمة واكليف ولم تشاهد انجلترا ترجمة مطبوعة للكتاب المقدس إلا بعد ألمانيا بستين سنة.

انتشر النقد حثيثا داخل المجتمعات فى جميع أنحاء أوروبا مما اهتز له التعليم التقليدى وضاع احترامه وهيبته، وتبادل عامة الشعب مع المثقفين الحوار. راجع إرازموس النسخة الإغريقية من العهد الجديد وتبين وجود اختلافات كثيرة وأخطاء بينة مع إنجيل جيروم الذى تعتمد عليه الكنيسة. فى العام التالى تحدى لوثر الكنيسة فى ريتنبرج فتصدع السد ثم انهدم. تحطمت هيئة الكنيسة فى ذاك المكان فى هذا الوقت، رغم أن كل المثالب التى نكرها لوثر كانت معروفة ويتناقلها الناس منذ عهد بعيد. كان كل ما قيل سبق قوله من قبل. الجديد كان فى الوضع السياسى والحالة الاجتماعية. تبين الحاكم المنتخب الساكسونى مع ثلاثمائة من رفاقه أن الوقت قد حان ليرفضوا الولاء لبابا روما مع بلوغ الإمبراطور سنا متقدمة. جاء لوثر أستاذا بالجامعة عام ١٥١٢ واتخذ الرئيس ناصحا له ومرشدا فى الشؤون الدينية، وليستعين به فى مقاومة طلبات البابا. صارت الخطى أسرع كثيرا من الزمن الماضى - بعد اختراع الطباعة. ما كان همسا خافتا صار فرقة مندوية، يصل دويها عاليا إلى أسماع البابا والإمبراطور.

نشب صراع مرير بين الشعب الألمانى خلال الثلاثين عاما التالية وانقسم الناس إلى كاثوليك وبروتستانت (محتجين). انقسم الفلاحون فى الريف والمثقفون فى المدن والأمراء فى إماراتهم والتجار والصناع فى مدنهم المتحررة، انقسموا إلى فرق متناحرة. اعتنق معظم سكان المدن المذهب البروتستانتى، بينما فى الريف تبع السكان مذاهب أمرائهم سواء كانوا كاثوليك أم بروتستانتين. مال الحكام العقلاء لما كانت ترغبه شعوبهم. بقيت أقلييات عنيدة متمسكة بأرائها، وقد اضطرت تلك الأقلييات للهجرة خارج البلاد من إمارات ألمانيا الصغرى، بينما فى البلدان الكبرى - كانجلترا وفرنسا - قاومت الأقلييات وحاربت دقانا عن رأيها وعقيدتها.

كروانمر

قطع ملك انجلترا - هنرى الثامن - صلته بكنيسة روما فى عام ١٥٣٤ ونصب نفسه على رأس الكنيسة الإنجليزية، وكان يعنى حقا ما اتخذه من قرار باستقلاله فى شئون الحكم والزواج والحفاظ على دخل الكنيسة لبلده، والاحتفاظ به بين يديه، وتوزيعه بمعرفته على أتباعه وخدمه كمنح للنبلاء الجدد. ولكنه وضع الكتاب المقدس الإنجليزى فى كل كنيسة وأبروشية. بعد ست سنوات استعان

بالأساقفة لضمان سلطان الملك ولكن الأساقفة خالفوه وبدأوا يتحررون تدريجيا من اتباع تعليماته، وصار بعضهم أكثر شدة وبعضهم أكثر تحررا. بعد وفاته، أدخلت حكومة ابنه - وخليفته على العرش - كتابا للصوات وضعه كبير أساقفة هنرى - توماس كرانمر. حافظ كتاب الصوات هذا على وحدة الكنيسة الإنجليزية، وأكد ما أدخلته الملكة اليزابيث الأولى من مواد، «المواد التسعة والثلاثين للدين» عام ١٥٦١. وضع هذا التنظيم الجديد الكنيسة الإنجليزية فى منتصف الطرق - بين المذهب الكاثوليكي وبين عقائد البروتستانت المختلفة، وبهذا أمكن إزاحة التوتر الذى حدث فى بقية المجتمعات الأوروبية بهدوء وبالتدرج، وأمكن معالجة الشقاق الحاد الذى حدث بعد إعلان هنرى الثامن لسيادته الكاملة على البلاد. انشغلت فرنسا بحروب دينية وانشغلت إسبانيا بفتوحاتها فى العالم الجديد وبإخمادها للعصيان الذى قام به أتباعها من البروتستانت فى هولندا، بينما انسابت الأفكار بهدوء وتؤده، بلا انقطاع فى نسيج المجتمع فى إنجلترا.

كالفرن

فى منتصف القرن السادس عشر كان الزعماء المسيحيون، من الكاثوليك أو من البروتستانت قد أقاموا لأنفسهم مؤسسات معارضة لنظم الحكم وطبقاته فى ألمانيا وفى إنجلترا. أما فى فرنسا وفى سكوثلندا فكانت الكنيسة الكاثوليكية تقاوم بشدة انتشار الثورة. فى هذه الأثناء لجأ جون كالفرن من فرنسا إلى جنيف وتمكن من السيطرة على تيار الفكر المعاصر - كما نجح لوثر فى ألمانيا - ورأى المهمة السياسية التى عليه إنجازها. كان عليه أن يحول الدويلات الكاثوليكية والشعوب الكاثوليكية إلى الإصلاح الدينى البروتستانتى. كان عليه أن يخطط بنفسه لىتم هذا التحويل وليتحول البشر بأنفسهم إلى البروتستانتية. أقنع قومه أنهم شعب الله المختار الذى أوكل إليه أن يتم التحول على يديه، ولكى يتم هذا التحول على ذلك الشعب أن يتبع أوامر الإله وأن يتجنب نواياه فى كل ما يعن له من أمور وأن يرتفع إلى المكانة التى رفعها الله له. برؤيته هذه للعالم استطاع كالفرن أن ينفذ إلى أعماق البلدان الكاثوليكية بدون معونة الطبقات الحاكمة أو مساعدتها. على النقيض ظهرت هذه الدعوة كأنها دعوة لإحلال طبقة الصناع والتجار والمعلمين محل طبقة الحكام القدامى، والتى تمسكت فئات الشعب بها، وأدت إلى تطور مدينة جنيف ذاتها. جاء كالفرن ليقم بجنيف عام ١٥٤١، وكانت مدينة صغيرة بدون تاريخ ولا يتجاوز عدد سكانها ١٢ ألف نسمة، من البروتستانت الذين يتعايشون مع أقلية كبرى من الكاثوليك. قضى كالفرن ٢٢ عاما بجنيف وجعلها مركزا لثورته وغير كل شئ بها. تم تحول (أو طرد) كافة الكاثوليك وكافة المعارضين من البروتستانت وحل محلهم البروتستانت اللاجئيين من فرنسا، وأنشأ كالفرن جامعة بجنيف، زار جون نوكس مدينة جنيف عام

١٥٣٣ وتبعه لجوء أعداد كبيرة من الإنجليز الهاربين من بطش الملكة ماري الكاثوليكية إلى جنيف، وصاروا من أتباع كالفين. هكذا صارت جنيف مدينة كبرى، عمرها اللاجئون - مثل مختلف المدن الكبرى. اختلفت عن بقية المدن الكبرى - مثل أثينا والبندقية - في كون اللاجئين حطوا عليها دفعة واحدة ولم يأتوا إليها تباعا على فترات طويلة. جاء البروتستانت من فرنسا وقد جذبهم كالفين خصيصا، جاؤا متبعين لتعليمه وإرشاداته وفلسفته ونظامه. ولما كان كالفين متشددا عظيم الانضباط كان قومه منتقنين شديدي الانضباط وكانوا من غلاة المثقفين، ذوى المهارة الفائقة وذوى الثقل الحضارى (وما زالت جنيف كعهدها إلى الآن). أدخلوا للمدينة صناعة النسيج الذى أتى لها بالثراء (وبالنقاء). أدخلوا للمدينة أيضا الطباعة وجاء إليها بعض كبار المفكرين (مثل روبرت استين العظيم) وأنشأوا صناعات فريدة (مثل ١٥٠٠ مصنعا لصناعة الساعات السويسرية الدقيقة والعظيمة). تلك بعض مظاهر عبقرية الفرنسيين من البروتستانت الذين تكاثرت أعدادهم وتفرقوا فى أنحاء أوروبا. (جاءت موجة أخرى من اللاجئين الفرنسيين إلى سويسرا عقب عام ١٧٨٩، من الكاثوليك ومن الملكيين هذه المرة. يرجع إلى هؤلاء وإلى جاك نيكير البروتستانتى القادم من يوروسيا (١٧٣٢-١٨٠٤) الفضل فى نشأة صناعة البنوك السويسرية التى اشتهرت بها فى جميع أنحاء العالم. وقد حاول نيكير هذا إصلاح المالية فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية).

انتهت حركة كالفين بالتطرف، كان التطرف فى السابق هو الداعى لمبدأ الطرد من الكنيسة الكاثوليكية، ولكن كالفين استحدث هذا المبدأ وتسبب فى التباعد بين الكنائس اللوثرية والكنائس الكالفينية. واستمر كذلك تقليد إحراق الهراطقة على يد كالفين، فتم إحراق ميغل سيرفيتوس أشد حركة المصلحين نكاء، القادم من إسبانيا، ومن أبرز علامات الثورة العلمية، والذى جذبته جنيف إليها عام ١٥٥٣ كما جذبت من قبله يان هوس منذ مائة وخمسين عاما. حوكم وأدين بتهمة إنكاره لألوهية المسيح وتم إحراقه. الكتاب الذى أحرق بسببه كتاب «إعادة وضع المسيح» الذى كتبه عام ١٥٥٢ الذى ضمنه نورة الدم - قبل وصف وليام هارفى لها بستة وسبعين عاما - (وصف ابن النفيس الطبيب دمشقى العربى الدورة الدموية قبل نحو ثلاثمائة عام). تم إحراق جميع نسخ ذلك الكتاب ولم يبق منها إلا ثلاثة نسخ فحسب ولذا لم يذكر له أحد أنه سبق هارفى فى وصف النورة الدموية.

استقر وضع كنيسة كالفين فى جنيف، ولكن فى وطنه الأسمى، فى فرنسا فقد تم اضطهادها وتفرقتها. وبالرغم من هذا فقد كان لأفكاره أعظم الأثر ونشأت جماعة تدين بأرائه البروتستانتية، واجتمع مجلسها لأول مرة فى باريس عام ١٥٥٩. فى هذا الاجتماع تقرر أن تتساوى جميع الكنائس فى مراتبها وأن يتساوى جميع قسوسها ومن ينتمون من كبارها لإدارتها، وبذا لا يصبح هناك أساقفة. من هذه الآراء - النابعة من تعليم كالفين - نشأت حركة البرسيبيتيريان الكنسية. اشتد الحماس بين

جميع المعترضين وازدادت أعداد المتبعين لآراء كالفين، حتى وصلت أعدادهم - خلال ثلاث عشر سنة - إلى طوفان يكاد يكتسح الأمة والدولة. منذ هذه النقطة وجدت الكنيسة الكاثوليكية أنها مضطرة للرد بكل عنف. كانت الكنيسة الكاثوليكية تسلح نفسها لمقاومة دعاوى المصلحين. اجتمع آباء الكنيسة بعد أن تحطم سلاح محاكم التفتيش في يد البابا، قرر الآباء المجتمعون في ترنت أن يعيدوا إصلاح وجه الكنيسة، وكرروا اجتماعاتهم على فترات خلال عشرين عاما (١٥٤٥-١٥٤٨)، ١٥٥١-١٥٥٢، ١٥٦٢-١٥٦٣)، وخرجت الكنيسة من تلك الاجتماعات أكثر قوة. خرجت الكنيسة بيد أشد قوة وبوجه أقل بشاعة، ولكنها ما زالت حكرا على نبلاء الإيطاليين. خرجت بطائفة الجيزويت التي أنشأت عام ١٥٤٠ مستعدة لرد الهجوم. استردوا بولندا وهاجموا في انجلترا وفي هولندا. ولكنهم في فرنسا استخدموا - بيد ملك كاثوليكي - سلاح القتل، فتم قتل خمسة آلاف من المعترضين في ليلة سان بارثولوميو عام ١٥٧٢. تم قتل جميع زعمائهم في باريس - عدا أولئك الذين تنازلوا عن معتقداتهم مؤقتا - مثل هنرى من نافار. دمرت تلك الحادثة الكالفانية في فرنسا ولكنها أدت إلى انتشار أتباع كالفين خارجها، فقويت شوكتهم في هولندا وفي انجلترا وفي سكوتلاند، من هناك انتشروا إلى أيرلندا ثم إلى المستعمرات الإنجليزية في أمريكا وإلى المستعمرة الهولندية في جنوب أفريقيا. انتشرت الكالفانية على حساب حركة التطهير والنقاء ونشرت حركات من العصيان والتمرد ضد الملكية نفسها.

يوضح جدول (٢١) كبار المصلحين العظام لحركة الإصلاح الديني.

جدول (٢١)

المصلحون العظام

قائمة بأهم المفكرين والدعاة الذين بدأوا كرجال دين كاثوليك وأمكنة عملهم.

الأوائل			
١- مارسيليو	١٢٧٠ - ١٣٤٢	بادوا	هاجم البابوية ١٣٤٢
٢- جون وايليف	١٣٣٠ - ١٣٨٤	أكسفورد	هاجم البابوية ١٣٧٨
٣- يان هوس	١٣٧٠ - ١٤١٥	براغ	هاجم البابوية ١٤٠٢ - تم إحراقه بتهمة الهرطقة
٤- سافونارولا	١٤٥٢ - ١٤٩٧	فلورنسا	مصلح الأخلاقيات ١٤٩٤. تم إحراقه بتهمة الهرطقة.

جدول (٢١)

المصلحون العظام

ابن سفاح - ولد في روتردام أثار الشكوك في أن سفر الرؤيا كتبه يوحنا. راجع العهد الجديد الإغريقي	بازل وغيرها	١٤٦٦ - ١٥٣٦	٥- إرازموس
شجب رادان صكوك الغفران التي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ١٥١٧	ويتنبرج	١٤٨٣ - ١٥٤٦	الألمان ٦- مارتن لوثر
مؤلف اعتراف أوجسبرج	ويتنبرج	١٤٩١ - ١٥٦٠	٧- ميلانكثون
مصلح سياسي ١٥١٨ - قتل في معركة	زيودخ	١٤٨٤ - ١٥٣١	٨- زفنجلي
طائفة تحديد العماد. حرب الفلاحين ١٥٢٤	لاييزج	١٤٨٩ - ١٥٢٥	٩- مونتزر
تم إعدامه ككائن			
مؤسس طائفة المينونيت ١٥٣٧	هولندا	١٤٩٦ - ١٥٦١	١٠- مينو سيمونز
أسقف كانتربري ١٥٣٢ تم إحراقه بتهمة الهرطقة	كامبريدج	١٤٨٩ - ١٥٥٦	الإنجليز ١١- كرانمر
العهد القديم الإنجليزى - تم إحراقه بتهمة الهرطقة	كامبريدج وأنتورب	١٤٩٢ - ١٥٣٦	١٢- وليام تيندال
المتحدثون بلغات رمانسية (إيطالية، إسبانية، فرنسية)			
العهد القديم الفرنسى ١٥٢٤	ايتابل	١٤٥٥ - ١٥٣٧	١٣- جاك ليفيغر
أنشأ طائفة جديدة ١٥٤١	جينيف	١٥٠٩ - ١٥٧٣	١٤- كالفين
معلم للطب في باريس أنكر ألوهية المسيح	أفينيون	١٥١١ - ١٥٥٣	١٥- سيرفيتوس
- تم إحراقه بتهمة الهرطقة	وغیرها		
أنكر ألوهية المسيح مؤسس السوزيتية	بازل - راكو	١٥٢٥ - ١٦٠٤	سوزيني

إصلاح المجتمع

التجريب أو التطور فى ألمانيا

فى ألمانيا مارتن لوتر، وفى انجلترا كرانمر وفى فرنسا كالقين. تشجع المصلحون، بتعاطفهم مع الحكام ويموازتهم لسلطة الأمراء إلى نبذ البابوية ورفض التقاليد الكهنوتية التى ارتبطت بها والجهاز المالى الذى يساندها. بفعلهم هذا كان لا بد من إيجاد نظام آخر ليحل محلها. وجدوا أن عليهم - للحفاظ على المجتمع - أن يفسروا الدين تفسيراً جديداً يتعلق بالملكية ولا يقوم على القدسية فحسب. كانت المدن الثرية تنتشر فى حوض نهر الراين - مستقلة عن نفوذ الحكام العظام، مدن ممثلة برجال أذكىاء متعلمين تعليماً جزئياً، رجال يقرأون الكتاب المقدس، ويفهمون معانيه - بعيداً عن مفاهيم رجال العلم المتعمقين ورجال الدين الدارسين، فهما يناسب الصناع والتاجر ويتماشى مع مفاهيم المزارع الفقير أو المدقع. كانوا يرون الأثرياء وهم يمرحون فى أحضان الكنيسة ويشاهدون المتعلمين فى خدمة الكنيسة، يكتبون لها تعاليمها ويصوغون لها قوانينها. حانت ساعة الخلاص وأذن وقت التحرر.

لهؤلاء القوم كان التحرر يعنى أمرين. أولهما المجتمع الذى يدير شؤونه بنفسه ولا يتلقى الأوامر والنواهي من البابا وكبار رجال الدين. صار المجتمع - أصبح لقرون عدة - هو حقل التدريب لنوع جديد من الحكام، حكام سياسيون يشرفون على مجتمعات صغيرة، عمال يديرون شئون مصانع تزداد حجماً وتمتد اتساعاً. وثانيهما نبع من الإنجيل نفسه، من رسالته الاجتماعية والسياسية، التى كتبت ببساطة تناسب القوم البسطاء. من بين هؤلاء نشأت دعوة جديدة لحياة جديدة بسيطة تتبع أصولاً سهلة فى التعميد وفى الزواج وفى العبادات. كان المجال مفتوحاً على مصراعيه للتجريب، ولو أن أياً من التجارب لم ينكر مبدأ الزواج أو يسمح بتعدد الزوجات أو يبيح الاتصال الجنسى غير الشرعى. كانت تلك أصول حرب الفلاحين التى بدأت فى جنوب ألمانيا عام ١٥٢٤ بالقرب من شافهاوزن عام ١٥٢٧ ثم حرب مملكة صهيون الجديدة فى مونستر عام ١٥٢٢، ثم فى العصيان المسلح الذى حدث فى أمستردام عام ١٥٢٥. ثم بدأت حركات من التمرد من جماعات من المحاربين

تأخذ إشعاراتها وتلميحاتها من العهد القديم وقامت بتصعيد معارضتها في مجتمع إثر مجتمع وتدمر أنفسها. وتبعتها موجات من الحماس تستنير بإشارات من العهد الجديد وحقت نجاحا واستقرت في مهد المعارضين القدامى (البروتستانت) في مورافيا. هنا تم إعدام چاكوب هنز في عام ١٥٣٦ لدعوته للمبادئ الشيعية، ولكن إخوانه أقاموا بعده مجتمعا اشتراكيا مسالما وأصوليا. ثم انتشر أتباع هنز خلال ألمانيا متجهين غربا حتى وصلوا إلى هولندا حيث تزعمهم مينيوسيمونز وحققوا تحت قيادته نجاحا ظهر في شينين. حققوا نجاحا اجتماعيا ونجاحا اقتصاديا. إقبالهم على العمل وإخلاصهم لإخوانهم ومهارتهم خلقت منهم مجتمعا شديدا النجاح، وزاد من هذا النجاح ارتفاع خصوبتهم وتكاثرهم السريع، الذي فاق سائر المجتمعات المسيحية. كان النجاح المادي الذي حققته تلك الطائفة دافعا لها للإيمان أنهم قد وصلوا حقا للخلاص الروحي. انفصلت هذه الجماعة عن باقي المجتمع وتفرقت شيئا وطردت من الكنيسة وتقلصت في عددها ولكنها حافظت على تفريدها بالتوالد الداخلي - احتفظت دائما بتقاليد المحافظين. رفضوا سلطان الحكام على الدوام واستبعدوا عن مجرى الحياة، وانعزلوا كمزارعين، وعن طريق الزراعة زاد ثراؤهم. اضطهدت تلك الطائفة (كما سبق واضطهد اليهود عند مقدم المسيحية)، ولكنهم استمروا في التكاثر. دفعوا دفعا إلى تركيا وإلى روسيا، ثم انقسموا إلى فرق وشيع. عندما طردهم قيصر روسيا عام ١٨٧٢ لجأوا إلى شمال وإلى جنوب أمريكا وجلبوا معهم القمح الروسي الذي هو أساس صناعة الخبز في جميع أنحاء العالم.

الحرب الأهلية في إنجلترا

كان الاستقرار الذي حدث بإنجلترا بحلول العصر الإليزابتي ظاهراً الاستمرار، وقدرت الحكومة أنها قد تصارع الآراء للأبد. ولكن استمر الفوران تحت السطح ونجمت عنه آثار بعيدة، أشد وقعا مما حدث في جميع العالم المسيحي. شجبت المواد ٢٧، ٢٨، ٢٩ جماعة الأنابابتست لفكرتهم البغيضة برفضهم الملكية والحرب. أحرق فردان من تلك الجماعة، ولكن لم تتمكن الحكومة من إخماد أفكار بهذا القدر من العمق وهذه الدرجة من الصدق. كانت الأفكار الأولية التي أدت إلى الإصلاح في إنجلترا من عمل نفر قليل من الرجال ولكن بحل عدد قليل من النظم الرهبانية وإعادة توزيع ممتلكاتها وممتلكات الجامعات، وينمو المدن وازدياد ثراء بعض المواطنين حدثت حركة كبرى بين البشر وتغير في التملك في أنحاء مختلفة من البلاد. حدث اضطراب كبير في البلاد لم تشهده منذ الفتح النورماندي، بين طبقات المجتمع، وبين الريف والحضر. كما حدثت أيضا هجرة واسعة للبروتستانت من فرنسا وهولندا إلى إنجلترا. وهكذا كان القرن السادس عشر عهدا حاسما شهد تهجينا كبيرا للبشر وتوالدا خارجيا عظيما، واختلطت فيه جينات البشر أيما اختلاط. نتيجة لاضطراب نظم الزواج

حدث انهيار فى العائلات وفى تقاليدنا ودخول إناس جدد وممارسات جديدة. وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال حدث اتحاد لمورثات جديدة والتحام لأفكار مستجدة. حدث هذا فى المجتمعات الكنسية، حيث تلاقت الأفكار الدينية والآراء الاجتماعية والنظم السياسية المتشابهة. انقسمت الاتجاهات إلى اتجاه يدعو للمتعة والترف والفن واتجاه يرفض الثلاثة ويدعو للنقاء والطهر.

لم يتفهم تشارلز الأول ولا ناصحه ووزيره الأول كبير الأساقفة لود الاتجاه الجديد الذى حل بالمجتمع. لم يدرك كلاهما أن مجتمعا جديدا قد ظهر، قادرا على تدبير أموره بنفسه بدون معونة الملوك والأساقفة أو رجال الدين، يحمل أفكارا جديدة ويؤمن إيمانا راسخا بمعتقدات جديدة. ما فهمه الملك وكبير أساقفته أنهم لو سمحوا بالتقاء هؤلاء البشر الجدد فى مجتمعاتهم وبرلماناتهم لتفرقت تلك المعتقدات ولحطمت النظام القديم، وهو ما سمعوا لمنع حدوثه بكل وسيلة. كان على الأتقياء الجدد أن يختاروا بين سييلين: الهجرة إلى العالم الجديد، إلى انجلترا الجديدة متبعين مثال مايفلاور التى حملت أفرادا منهم عام ١٦٢٠ وحطت فى بوسطن بأمرىكا الشمالية، أو الحرب لإستقلالهم فى وطنهم هذا، فى انجلترا. كان هذا هو الخيار الذى واجه أوليفر كرومويل نفسه وقت الاعتراض الكبير الذى حدث فى ديسمبر عام ١٦٤١. كان الخلاف أمرا لا محيص عنه، وقد عالجه الملك كأسوأ ما يكون العلاج.

حدث الشقاق بين البرلمان وبين الملك، فحاول الملك استثارة المبادئ القانونية والدينية والاقتصادية لدعم موقفه، وكذلك فعل الآخرون. انقسمت فئات البروتستانت، وحاولت كل فرقة أن تثير حججها بينما اتحدت الكنيسة الكاثوليكية. اشتعلت الحرب الأهلية عام ١٦٤٢ وكان كل فريق على يقين من النصر. كان إلى جانب الملك مجتمع زراعى يقوده النبلاء التقليديون والكنيسة التقليدية التى ما زالت تزاوّل طقوسها التسلطية على الفلاحين الجهلاء وخدمها الذين استقوا تعليماتهم من ساداتهم الإقطاعيين. وإلى جانب البرلمان كان هناك مجتمع جديد يمارس تقنيات جديدة قائمة على تجارة المدن وصناعاتها، وطبقات مطحونة تجاهد لإزالة الذل والمسكنة عن كواهلها ومعها طبقات تسعى للحصول على السلطة لنفسها. انتصر الثوار، وبعد انتصارهم انقسموا إلى فريقين: وتغلب أصحاب السلطة بطبيعة الحال. تسلم كرومويل وجنرالاته الحكم ولم يتمسكوا بالوحدة الدينية التى كان يتطلبها الملك الضعيف. كان البرسبتيريان يتواجون فى الكورس بينما يتواجد المستقلون فى صحن الكنيسة والبابتيست فى السرداب تحت الكنيسة. ظلت قوة الجيش هى أمان الدولة وحصنها لعشر سنوات.

وقد الكثيرون من الخارج إلى إنجلترا يتلمسون حرية الرأي. سُمح لمستعمرة يهودية أن تأتي من امستردام - مستعمرة كانت هاربة من محاكم التفتيش الإسبانية. قدم لاجئون آخرون من قبل هربا من اضطهاد الكاثوليك ولجأوا إلى البلدان الشمالية. إنكار مبدأ الثالث الأقدس، والعودة لمبدأ التوحيد الذي قال به الإسباني سيرفيتوس (والذي اضطهد بسببه ثم أحرق)، وإيطالي سوزيني، دخلا ثانية إلى إنجلترا وإلى بلدان بروتستانتية أخرى. بدأت تلك الأفكار تنتشر في جماعات المصلين البرسبيترية في إنجلترا. وفي القرن الثامن عشر انفصلت جماعة من كبار المتقنين عن أولئك الأقل ثقافة - طائفة الموحدين، تلك الطائفة التي لعبت دورا هاما بعد أربعة أو خمسة أجيال، أثناء الثورة الصناعية. هكذا، ظهرت في فوضى الجدل والنقاش طبيعة الطوائف الاجتماعية والمهنية الجديدة. ظهرت فئة الموحدين الذين يؤمنون بوحداية الإله، وظهرت فئة الذين يرفضون الحروب من أتباع جورج فوكس. حافظ هؤلاء المسالمون على كيانهم بكتبهم وذكائبهم وتماسكهم وبمبادئهم الأخلاقية الرفيعة حتى كونوا «جماعة الأصدقاء» عرف أولئك فيما بعد باسم «الكويكرز» وصاروا مجموعة متجانسة هدفها القضاء على الفقر فيما بينها وفي المجتمع. رفضت طائفة الكويكرز ممارسة أى طقوس لا يؤمنون بها ووضعوا جانبا أى احتفالات لمناسبات لا معنى لها، وكذا احترامهم الزائد للنساء جعلهم يسقطون جميع شعائرهم الغيبة ويرفضون أنصارهم غير المتمسكين بمبادئهم، والتي تعنى الطقوس لهم والتزام الشكليات لديهم الشئ الكثير. ربما كان تمسكهم بتقليد الصرامة المنطقية له أكبر الأثر في نجاحهم في الشؤون الاقتصادية وإلى تطور الطرق الاقتصادية التي انتشرت في كل المجتمعات البروتستانتية. كذلك رفض الكويكرز - ربما لدرجة أكبر من سائر الموحدين - جميع مظاهر الجمال وصنوف الفن. اتخذهم اللون الأسمر الفاتح لملابسهم - سواء أكانوا نساء أم رجالا - أدى إلى تطور اجتماعي. يرجع فهمنا له إلى رجلين من طائفة الكويكرز. أولهما هو جون دالتون الذي كشف عن ماهية عمى الألوان الوراثي (وكان هو نفسه يعاني منه)، وقد بين فرانسيس جالتون أن الجين المورث لعمى الألوان أكثر انتشارا بين أفراد طائفة الكويكرز عنه بين سائر الناس.

ربما عانت طوائف البروتستانت المختلفة من أشد حالات الحرمان الكنسي ومن أكثر نماذج الاستبعاد من الكنيسة الكاثوليكية. شملت تلك الحالات على وجه الخصوص الصناع من المدن ونقابات التجار وكنائسهم المنفصلة - حتى في العصور الوسطى - كما حدث في نوريتش. زادت الفروق بين الكنيسة الإنجليزية وبين الطوائف المنشقة عنها والمعارضة لها، ووصلت ذروتها إبان الحرب الأهلية، وكان سبب الخلاف دائما هو الاستقلالية الدينية لمختلف الكنائس، (والتي استمرت حتى القرن العشرين). كانت تلك الخلافات هي التي أدت إلى الظروف الاجتماعية والجينية التي نتج عنها تطور المجتمع الإنجليزي والتي انتهت بالمرحلة الحرجة - مرحلة الثورة الصناعية.

تساؤل فولتير - في دراسته عن لويس الرابع عشر - عن الأسباب التي أدت إلى قبول الفوارق والخلافات سلميا بين الطوائف الوثنية والكنيسة المسيحية بينما كانت الخلافات بين المسلمين والمسيحيين تؤدي دائما للحروب وإلى سفك الدماء. ربما كان السبب أن الكتب السماوية زعمت أنها توصلت إلى الإجابة عن كافة تساؤلات المؤمنين عن العلاقة بين الفرد والمجتمع في هذا العالم وكذا في العالم الآخر. كانت الطبقات المتعلمة، والتي تزايدت أعدادها في المجتمعات المثقفة، قد وصلت في عصر الإصلاح، إلى صورة عن العالم - ماضيه وحاضره ومستقبله - واضحة ومحددة مبنية على الكتاب المقدس - وكان الشك في أي جزء من تلك الصورة يزلزل السلم والنظام في كل المجتمع. لم تكن الحلول الوسط مقبولة في أية أمور واضحة ومسلم بها طوال الوقت في الكتابات المقدسة. وهكذا صار الدين - الذي كان مصدر وحدة لليهود، (ولدرجة أو أخرى لدى الهنوس)، صار الآن - بعد إعادة تركيبه - مصدر انقسام في المجتمعات الكبيرة، وتفرقها إلى شيع صغيرة.

اتفق المسلمون - من أول الأمر - على نقطة واحدة، قبول أهل الكتاب، من يهود ونصارى، ولكن على أنهم أقل درجة من المسلمين. ولكن في عصور التنوير والحضارة الإسلامية المشرقة - وبعد خمود التعصب - قبل المسلمون المتنورون - في قرطبة وفي دلهي - على مساواة أبناء سائر الأديان بالمسلمين. ولكن كان التفرق والتشيع داخل الدين يظهر كل حين وآخر وكان الزنادقة يقضى عليهم في السلم والحرب.

أما لدى المسيحيين - فبعد قبول المسيحية كالدين الرسمي للإمبراطورية - صار المهترقون والابتداعيون والمنشقون الخارجون عن العقيدة والملحدون غير النصارى هم الأعداء الحقيقيون الواجب خصومتهم. كان المسلمون أعرابا بالإمكان محاربتهم، وكان اليهود هم القوم الذين رفضوا المسيح، وكانوا أقلية لا حول ولا قوة ومن الواجب اضطهادهم حتى يتحولوا إلى المسيحية (وكانت أعداد قليلة منهم يتحولون للمسيحية على مدار القرون). ولكن كانت الفرقة داخل العقيدة المسيحية أشد خطرا عليها من كافة الأعداء خارجها، ولذا عمل بابوات الكنيسة وملوك البلاد على احتوائها بكل الطرق، وعلى فرض نظام ديني موحد. وعندما فشل البابوات في بلوغ هذا الهدف، حاول كل أمير أن يفرض نوعا خاصا من المسيحية داخل حدود إمارته واستعان برجال الدين لمساندة سلطانه داخل بلاده. وهنا ظهر الاتجاه أن النظام الجمهوري قد يكون عاملا مساعدا للاستقلالية ولتفرق الطوائف، مسيحية كانت أم يهودية، (أم غيرها). وحتى الأمراء وجدوا أن التسامح قد يكون حلا مرضيا. ففي أوسبرج عام ١٥٥٣ وفي لندن عام ١٥٦١ وفي نانت عام ١٥٩٨، تبين الأمراء الألمان والإنجليز والفرنسيون، أن هناك صيفا يمكن قبولها تسمح بتعداد المذاهب الدينية دون أن تتسبب في انقسام

الدولة وتفتتها. وافق الأمراء الألمان أن يعيشوا ويسمحوا للآخرين بالحياة، وسمحوا بالهجرة غير المقيدة لأبناء شعبهم، وتفرق مواطنو الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى ٣٠٠ دويلة حسب اختيارهم. وهكذا صارت الهجرة المنتقاة - لأول مرة - مبدأ سياسيا على المستوى القومى. ولكن هذا الحل الوسط انهار بعد خمس وستين سنة عندما نشبت حرب الثلاثين عاما، وكانت أشد الصراعات دمارا على أوروبا. كان مظهر تلك الحرب أنها صراع بين الكاثوليك والبروتستانت ولكنها كانت فى الواقع صراعا بين الدويلات المتجاورة، ذات جنور سياسية تركيبته اجتماعية، واختلافات عرقية بين الأقوام المختلفة. بنهاية الحرب استمرت الخلافات الدينية بين الدويلات وبين الشعوب وتوصل الجميع إلى الحل الوسط التى ما زالت باقية حتى اليوم. وقد أدى هذا الخلاف الدينى إلى تأخير توحيد ألمانيا سياسيا لمدة مئتى عام.

كان أخطر الانقسامات التى حدثت فى المجتمعات المختلفة هو ما حدث فى فرنسا نتيجة لتصاعد التيار الكالفانى. قويت طائفة الهيجونوت من ثلاثة مصادر مختلفة. أولهما فلاحو سيفين، أولئك المحاربون الأشداء الذين قاوموا جيوش لويس الرابع عشر لتسعة سنين (١٧٠٢-١٧١١)، وثانيهما صناعات وتجارة عدة مدن، خاصة المدن الساحلية فى شمال وفى غرب فرنسا (خاصة ديب و لاروشيل)، وثالثهما كان النبلاء الهيجونوت بقيادة هنرى من نافار وكوندى وكولينى الذين اشتبكوا مع العائلات الكاثوليكية شديدة المراس فى اللورين فى صراع للسيطرة على الحكومة. ظلت الأقاليم المتخلفة والبعيدة تؤيد بعنف العقيدة الكاثوليكية (مثل بريتانى وأفرننى) ونشبت حرب أهلية فى البلاد وأظهرت أن البروتستانت مجتمع متكامل لا يقر ثراء عن الكاثوليك. لم تنته تلك الحرب بانتصار فريق على فريق، بل انتهت بالهدنة التى أعلنها هنرى الرابع فى ١٢ أبريل ١٥٩٨. أدت تلك الهدنة إلى تكريس حقوق الهيجونوت وسمحت لهم بكنائسهم ومقابرهم ومحاكمهم، كما سمحت لهم بالدخول لمدارس الدولة وجامعاتها ومستشفياتها، وحتى فى بعض الأحيان بقبولهم فى الوظائف العامة. بهذه الهدنة حاولت الدولة احتواء الخلاف، ولكنه لم ينته. جاء كولبير بالحل. هذا الرجل العظيم - كان وزيرا للويس الرابع عشر - وتبين أن فرنسا فى حاجة إلى كافة الرجال ولا وقت للخلاف والصراع، الرجال المهرة البارعون فى الصناعات الجديدة، وكذا رجال المال والاقتصاد والتجارة من جميع أنحاء العالم. شجع الأثرياء عام ١٦٦٦ على استثمار أموالهم وأموال عائلاتهم فى الصناعة وأدخل التشريعات المختلفة لتشجيعها. استورد صناعات الزجاج والحريز من البندقية ومن ميلانو وشجع على قدوم النساجين البروتستانت من هولندا (وضمن لهم حرية العقيدة)، واستخدم البروتستانت الفرنسيين بدون قيود، وصارت حكومته - كما وصفها فولتير - أعظم حكومات فرنسا فى تاريخها، ازدادت قوة فرنسا بسياسة كولبير وازاد ثراؤها واعتقد الملك لويس الرابع عشر (كما اعتقد أناس)

أن هذا الثراء يرجع إلى جهود هذا الملك الرائع، الذى زاد غروره حتى فاق كل الحدود وانتهى بدماره، الذى بدأ بمعاملته السيئة للهيوجينيوت. بحلول عام ١٦٧٧ كان الإنصاف الذى لاقاه البروتستانت فى فرنسا قد بدأ يخبو وظن لويس الرابع عشر أن بإمكانه أن يخضعهم لطاعته بالرشاوى وبالتهديدات. بعد موت كولبير - فى أكتوبر ١٦٨٥ - طرد جميع القسس البروتستانت من فرنسا خلال خمسة عشر يوما. اضطر هؤلاء أن يتركوا بلادهم وبلاد آبائهم وأجدادهم - حتى فرغت البلاد منهم تبعا لمشورة نصحاءه الغافلين، وعاد هذا بالخراب على فرنسا وتغير مسار التاريخ. بعد اضطهاد للهيوجينيوت بدأ لويس فى قسر البروتستانت على تغيير عقيدتهم بالقوة، ثم حدثت حرب أهلية فى سيفين - وانتهى الأمر باحتفاله بالقضاء التام على البروتستانت فى فرنسا. ولكن البروتستانت لم يقض عليهم، فقد كان لهم نور فى إدانة لويس السادس عشر فيما بعد، كما اضطر الملك للاستعانة بالخبير المالى البروتستانتى - نيكير - القادم من جينييف لضبط ميزانية الدولة وإصلاح شئون الخزانة. ولكن كان اضطهاد البروتستانت من عوامل انتهاء الملكية فى فرنسا.

كان لطرده نصف مليون بروتستانتى من فرنسا أعظم الأثر فى ارتقاء الحضارة فى البلدان التى أوتهم واستقبلتهم، فى نفس الوقت الذى أضعفت هجرتهم من شأن فرنسا. كان الرقى حضاريا وتقنيا وتجاريا وعلميا وكان يفوق أى تقدم عسكري فى فرنسا من جراء استيراد المحاربيين الأيرلنديين الكاثوليك. حدثت تلك الهجرة من جنوب أوروبا الوافر الثراء والمتقدم تقنيا إلى شمالها الأقل ثراء. أحدث الهيوجينيوت تقدما فيما سبق فى سويسرا، والآن يحدثوه فى بروسيا وهولندا وانجلترا. جلبوا صناعات جديدة وأحيوا صناعات قديمة. بحلول عام ١٨٢٠ كان ثلث أهالى برلين من أصل هيوجينيوتى، كما هو الحال حاليا فى معظم المدن الكبرى فى أوروبا البروتستانتية.

فى تلك الموجه من الطرد جاء حوالى ٨٠ ألف من الهيوجينيوت إلى انجلترا، رحل نصفهم إلى أيرلندة وإلى أمريكا وبقي نصفهم الآخر فى انجلترا، وكان رجال الحرب، على القمة، الذين قانوا مع ولبام الثالث حملة على أيرلندة. بقى النساجون المتواضعون على القاع. تهجن أواسط الهيوجينيوت مع الإنجليز وجاء منهم بعض عظماء القوم مثل سيدنى سميث، صموئيل رومبلى، إدوارد بوفرى، پوس والكاردينال نيومان، والممثل العظيم دافيد جاريك وعالم الآثار الكبير هنرى اوستين ليارد وأخيرا السياسى الفذ وينستون تشرشل. وجاء من الهجن مع الألمان ريبى الفن والعلم الكسندر وويلهلم فون هامبولت، كان للتوالد الخارجى - بالتهجين مع الأقوام خارج فرنسا - للهيوجينيوت أثر عظيم فى ظهور الأقدان من الرجال، أما بالتوالد الداخلى - فى فرنسا - فلم يعرف من ذرية الهيوجينيوت سوى رئيس للجمهورية - جاستون نومدج - وأحد عظماء الصناعة - بيجو. أما خارج فرنسا فقد جاء منهم

كثير ممن أضافوا لتقنيات صناعات النسيج والزجاج والمعادن وللعديد من الصناعات الأخرى والعديد من عظماء الرجال في كل حقول النشاط ومجالات الثقافة والفكر.

عصر النهضة

مع استعادة التعليم في إيطاليا، شهد القرن الخامس عشر نموا سريعا في الأفكار والممارسات في أوروبا كلها مما أدى في النهاية إلى الثورة العلمية والثورة الصناعية. من أبرز العلامات التي حدثت في ذلك العصر كان اختراع الطباعة وظهور مستكشفين عظام من أمثال ليونارد دافنشى في فلورنسا، ولكن الدراسة المتأنية والتأمل الفكرى العميق يشير إلى تفاعل عوامل مختلفة بين الميكانيكى والفيلسوف، واجهت الميكانيكى مشكلات عملية كالغزل والنسيج والتعدين وتشكيل المعادن وأعمال الحجارة وبناء السفن واستخدام قوة الرياح والماء للطن ومد المواسير، وفوق كل هذا لصناعة آلة الحرب. يعمل الفرد بيديه ويدير عقله لما تنشغل به يداه. مشكلاته هى نفس المشكلات التى شغلت أسلافه الأقدميين منذ العصر الباليوليثى الذى اخترع الأدوات البدائية لتشكيل الخشب ولنقل الحيوانات (أو الإنسان). كانت أعداد الأفراد كبيرة وما يحصلون عليه قليلا، وكان وضع الإنسان في المجتمع متواضعا. أما الفيلسوف المفكر، فكان قادرا على التصور والخيال والإبداع، يعمم الأحداث ويبنى الفروض ويتعامل بالأرقام، انبثق الفلاسفة من جنود في سومايا وفي مصر (وكذلك مستقلين في الصين). ثم ظهورا بعد ذلك في أوروبا في أيونيا، وفي الاسكندرية. تركز هذا الصنف من البشر بعد ذلك في حوض البحر الأبيض المتوسط وارتفع مركزه في المجتمع وصار من المثقفين المتعلمين المستنيرين. عندما حل القرن الخامس عشر، وزادت ثروات البشر وزادت كذلك حروبهم، تلاقى هذا الصنفان من البشر بعد أن كانا مبتعدين في مجتمعاتهم، وكان لتلاقيهما أبعاد الأثر على نمو الحضارة، حلوا فوق الحركات المدنية للفنانين والمفكرين في بلدان الشمال الهمجية حيث تلاقت التيارات وتصارعت. أثرت الحروب الهوسية في أهالي بوهيميا وجنوب ألمانيا، وكانوا أكثر تقدما من الناحية التقنية، وانتشرت مخترعاتهم إلى فرنسا. وأدى الفتح الفرنسى لإيطاليا في نهاية القرن إلى دهشة الإيطاليين من تقدم المدفعية الفرنسية. سرعان ما غزا رجال الطباعة الألمان هولندا وإنجلترا وأقاموا مطابعهم بالقرب من مكتبات البندقية الحافلة بالتراث العظيم. وكذلك سرعان ما أقام مهندسو السويد الهولنديون سدودهم وحفروا قنواتهم في الأراضي الواطئة واستخلصوها من البحار، واستطاع هؤلاء المهندسون والعمال استثمار إبداعهم في ألمانيا وبولندا وروسيا وإنجلترا. كذلك تمكن الحرفيون والعمال المهرة من العرب واليهود في البرتغال والملاحون الأكفاء من جنوة من قيادة سفن الإسبان ومن البندقية من قيادة السفن الإنجليزية ونقل الجميع خبراتهم وعلمهم إلى تلك البلاد واستطاعوا معا أن يجوبوا البحار والمحيطات. فتحت تلك المخترعات

والتحسينات التي أدخلت عليها طرقا جديدة، وشجعت البشر على مزيد من الهجرة إلى بلاد تبعد من مواطنهم الأصلية وعملت على حدوث مزيد من الاختلاط بين أصناف مختلفين من الناس، وخاصة بين العمال المهرة بالأيدي والفلاسفة المفكرين، وبين الصناع والحرفيين وعلماء الرياضيات المنتمين لأعراق مختلفة وبول متعددة وطبقات اجتماعية متباينة، وقد سمي هذا العصر حقيقة قرن أبناء السفاح والمغامرين (راجع أصل ليونارنو دافنشى نفسه من فلورنسا)، بنهاية القرن الخامس عشر كان لكل بيوت أمراء إيطاليا سلسلة وخطا من الأبناء غير الشرعيين. مثل ليونارنو كان معاصره العظيم إرازموس من روتردام (١٤٦٦-١٥٣٦)، وهما مثالان واضحان لثمرة العلاقة بين طبقات اجتماعية مختلفة. ربما يكون ليونارنو قد اكتسب وضعه الفريد فى التاريخ لأصله هذا، وربما تمكن كذلك أن يعبر بأصله هذا عن نزوة الإبداع فى الثورة العلمية بحيث جمع بين الخصائص الوراثية للنبوغ العقلى والممارسة العملية لمهارة اليد. نتاج مهارة اليد وذكاء الفكر وحصافة الفيلسوف وبعد نظره وحسن تحليله للأمر لا بد أن ينتج عالما، فهى تجمع بين مهارة الحرفى وعقلانية المفكر، كما ظهرت فى التعاون المثمر بين روبرت بويل الفيلسوف المفكر وبين مساعده الحرفى الماهر روبرت هوك، حيث لا ندرى بحق مديونية كل منهما للأخر. هكذا كان حال المجتمعات اللازمة لتعاون أصناف مختلفة من البشر اللازمة لنوع الفلسفة الجديدة التى أثمرت الثورة العلمية. تم إنشاء أكاديمية لينشى فى روما عام ١٦٠٣، والأكاديمية الفرنسية للعلوم - بعد ثلاثين عاما من الممارسة الفعلية عام ١٦٦٦ بواسطة لويس الرابع عشر كفرع من الأكاديمية الفرنسية، وبدأت جماعة تمارس التجارب على نهج باكون ومبادئه فى لندن منذ عام ١٦٤٥ ثم فى أكسفورد بعد ذلك. بعد اقناع الملك تشارلز الثانى أن هذه الجماعة لا تتدخل فى السياسة أو الدين وأن أعمالها قد تكون مفيدة للدولة صدر قرار بإنشاء الجمعية الملكية عام ١٦٦٢. وقد كان لهذه الجماعة المستقلة عن المؤسسة الرسمية السياسية - الفضل فى دعم كشاف إسحاق نيوتن العظيمة، وكذلك كشاف هوك، وإنشاء مرصد جرينتش. كذلك عملت الجماعة - بمراسلاتها الخارجية، ونشرها للأبحاث العلمية فى كافة فروعها - على النهوض بالعلم فى أوروبا كلها فى نهاية القرن السابع عشر.

مرت انجلترا بفترة مؤلمة من التسامح الدينى أو بمرحلة اتزان ديناميكى فى المعتقدات الدينية بعد قوانين اليزابيث عام ١٥٥٩. عاصرت تلك الفترة زمن التراخى الذى حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا. فى هذه الفترة حدث انفجار عظيم فى الفكر والتجريب لم يشهده العالم من قبل. شهد العالم تعليم باكون وتجارب جاليليو فى الطبيعة وتجارب وليام هارفى فى البيولوجيا وإنشاء الأكاديميات العلمية، جنبا مع جنب مع تكوين الكليات البروتستنتية فى فرنسا وفى انجلترا، مع التلاحم بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية فى جامعتى أكسفورد وكامبريدج. كانت الدرجة التى تمنحها تلك

الجامعات هي ماجستير في الفنون وكانت العلوم الطبيعية جزءاً أساسياً وإجبارياً في المقررات الدراسية. كانت نزوة تلك الفترة الساطعة من التساؤل والبحث وثمره هذا العهد في إنجلترا هو التقدم السريع الذي حدث للعلوم. ولكنه انتهى أيضاً بالحرب. بعد إعادة الملكية لانجلترا عام ١٦٦٠ امتطى الملك وفرسانه وكنيسة إنجلترا وأساقفتها صهوات جيادهم، وكانوا جميعاً - باستثناء الملك - لا يعنيه اتساع المعرفة ولا تقدم العلم. كان كل مهمهم كيف يعيدون سلطتهم وكيف يوسعون ممتلكاتهم وثرواتهم وكيف يستعيدون مراكزهم بعد الهزيمة والنفي. لم يكونوا من القوة بحيث يخدمون الطوائف التي أزاحتهم ولكنهم عملوا ما بوسعهم لإحباطهم وتكميم أفواههم، أولئك الذين صاروا الآن أعداء لهم. كان نجاحهم في هذا الشأن أوقع من ملك فرنسا الكاثوليكي وأصدقائه، لأن أعداءهم كانوا منقسمين ولم يقفوا أمام أطماعهم صفاً واحداً. في تلك الظروف صدرت قوانين كلارندون الأربعة التي أثرت خلال منتهى عام على تطور المجتمع الإنجليزي والاسكتلندي والأيرلندي والأمريكي (وما زالت للآن). هذه القوانين هي:

١- قانون التوحيد: على جميع قساوسة الكنيسة الإنجليزية قبول كتاب الصلاة والعمل به خاصة المواد التسع والثلاثين.

٢- قانون التنظيم الإداري: على كافة من يشغلون مناصب عامة في البلديات اتباع قواعد الكنيسة الإنجليزية.

٣- قانون التجمع: ينبغي ألا تعقد أي اجتماعات دينية خارج الكنيسة الإنجليزية.

٤- قانون الأميال الخمسة: يحظر على جميع قساوسة الكنيسة الإنجليزية التدريس في مدارس أو السكنى في منازل تقع في أو بالقرب من أماكن خارج سيطرة الكنيسة.

بعد صدور تلك القوانين لم يكن هناك حل سوى العودة للحرب الأهلية، لما لهذه القوانين من تأثير على الأفراد والمجتمعات وعلى الأمة بأسرها. أدت هذه القوانين للتعصب الديني والأخلاقي وإلى الدكتاتورية والتسلط. حقيقة أبطال الحرق والشنق لأسباب دينية أو أسباب غير سياسية. كان الهدف اقتصادياً في الدرجة الأولى، بدون إزهاق للأرواح. فصل ألفى قسيس معارض أو مناكف أو غير ملتزم بالخضوع للسلطان وفقنوا بهذا مصدر رزقهم ولقمة عيشهم. ومنعوا من وسائل نشر آرائهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وعين مكانهم ألفى شخص من الملتزمين الخاضعين المساييرين ونالوا أرزاقهم. بعد طرد الملك الكاثوليكي وتولى خلف له عام ١٦٨٨، خفت القيود عن القانون الثالث وسمح لجميع الطوائف البروتستانتية (عدا طائفة الموحدين) ببناء مصلاتهم، ولكن

استمرت بقية القوانين لمئتي عام كاملة، وحتى بعد زوالها ثبت أن الثورة المضادة مستمرة على الدوام. قسمت تلك القوانين الناس إلى فئتين، فئة ثرية، ريفية المناصب، مؤيدة «للمؤسسة»؛ وفئة أخرى رقيقة الحال، محرومة من السلطة والسلطان، مستقلة الرأي (لحد مقبول)، يمكن التسامح معها والسماح لها بإيداء هذا القدر المحدود من الاستقلالية. تزداد أعداد كل فئة ذاتيا ولكن - في غالبية الأحوال لا يتحول فرد من فئة إلى الفئة الأخرى (إلا بعد قرن كامل عندما حدثت تغيرات كبرى عصفت بالمجتمع).

كانت «المؤسسة» تقف على طرف وكانت تعتمد على جامعتي أكسفورد وكامبريدج. كانت تلك المعاهد أحادية الرؤية (وقد تخلصت من بقايا أتباع واكيليف والذين يرون رأيه ويدينون بمذهبه، وأرجعت عقارب الساعة للوراء) كان ينبه على الشباب أن يظلوا عزابا ليعملوا مدرسين بالجامعة، ويُعلمون حب الله، واحترام الملك، وتقديس التراث بعلمه وآدابه ومقدساته اللاهوتية والقانونية والطبية، وأحيانا بجماله وعنويته، وأن ينفقوا دخولهم - الذين يتمنون ألا يشقوا في تحصيلها - في الرفاهية الحاضرة بدلا من الخلاص الأبدي. كان أولئك هم البشر الذين توزعوا في إنجلترا في القرن الثامن عشر وأقاموا في مساكنها الريفية وحافظوا على مدنها وقراها، وأحبوها، وخططوا أراضيها على نسب تقليدية أنيقة. ولكنهم كانوا أيضا القوم المحافظين الذين بجلوا المجتمع الطبقي واحترموا نظام الاحتشاد في أيروشيات الكنائس المحلية. كانت جماعات الانقياء، المطهرون قد أزلت صور وتمائيل القديسين من تلك الكنائس فملأوها بآثارهم هم. حلت بها قبور الأسياد الجدد والأفراد نوو الحثيثة والمراكز الريفية في المنطقة الذين كانوا يؤمنون الكنيسة أثناء حياتهم ويفقدون عليها من خيراتهم، والذين كانوا في الحقيقة يأتون للكنيسة لا ليعتبدوا بل لكي يُحترموا ويؤقروا أو حتى ليعبدهم الأماهي، ويعد رحيلهم تحولوا إلى قياصرة في أنحائمهم.

وكان يقف على الطرف الآخر، الخوارج، المنشقون عن الكنيسة الأنجليكانية، إناس على طراز آخر مغايرا تماما لأولئك السابق وصفهم. كان معظمهم من الفقراء، أخذوا على العمل بيديهم واعتادوا عليه، معظمهم من الحرفيين أو المهنيين، النشاط المتقدمون المتحمسون، الفضوليين والمحبين للبحث والتدقيق، نوو الفاعلية والإنجاز والمصممون على تعلم كل جديد مفيد والباحثون على الحقيقة على طريقتهم والساعون إلى أخلص بوسائلهم الخاصة. كانوا حريصين على حكم أنفسهم في مجتمعاتهم ولكن لم تمنحهم الدولة كنائس ولا مدارس، فكانوا يتقابلون سرا ثم - عندما سمح لهم - بنوا أمكنة اجتماعهم بأيديهم. فر بعضهم إلى هولندا أو إلى أمريكا أو إلى أقصى الشمال أو إلى أقصى الغرب. لجأ آخرون إلى المدن الصغيرة الجديدة بدون التسهيلات (أو بالنسبة لهم المعوقات)

التي يصادفها من يلجأ إلى المدن الجديدة. إذا تجولت في انجلترا الحالية يمكنك التعرف على الأماكن المختلفة التي انقسم لها الشعب الإنجليزي. المجتمع الأول يتقلص حثيثا بشوارعه وطرقاته ومساكنه التي تمتد في طرازها إلى المؤسسة الإنجليكانية السطحية البسيطة غير المعقدة أما المجتمع الثانى الشيطسانى بمصانعه الكالحة الذى أنشأه الصناع الأوائل المجتهدون، شديبو الصلابة وشديبو القدرة على التحمل والعمل الجاد المجهد، هؤلاء الرجال باكورة الثورة الصناعية.

بين هذين النوعين الغالبين اللذين يقفان عن طرفى نقيض، كانت هناك مجموعة ثالثة مدمجة فى «المؤسسة» ولكنها تختلف عنها. أولئك هم الحَوْل أو القَلْب، الذين يغيرون سياستهم ومواقفهم وأراهم تبعاً للظروف، المناقون.

أهم من قرارات الملك أو الأساقفة أو الحكومة كانت تلك التي تصدر عن مجموعة من الفلاسفة والعلماء الذين اتخنوا التجريب منهجا لهم والذين تجمعوا فى أكسفورد وفى كامبريدج. لهؤلاء كانت هناك معايير قاسية لمعتقداتهم. بينما كان عامة الشعب يقضون جل وقتهم لمناقشة مشاكلهم الدينية لخالصهم، كان هؤلاء يجفلون من البريرة والكلام المعقد غير المفهوم، الخالى من المعنى الذى ترده السلطات الرسمية بقصد شغل الناس. لم تستطع غالبيتهم أن تهضم القانون نوى التسعة وثلاثين مادة ولم يقبلوا أن يتفاوضوا عن ثلاثة من مواده ولا عن مادة واحدة ولم يناقفوا أو يتظاهروا بالموافقة على ما لا يؤمنون به. صار هؤلاء وتلاميذهم الخوارج واعتبروا منشقين على «المؤسسة». ابتداء هؤلاء العلماء نشاطهم فى لندن ثم اضطروا لنقله إلى أكسفورد، التي تتميز بمزيد من الحرية والهدوء وسهولة الإقامة وكثرة المنح المخصصة للعلماء، اتسعت اهتماماتهم لكل العلوم من الميكانيكا إلى الرياضة ومن الفلك إلى الكيمياء ومن الاقتصاد إلى علم النبات. كان معظمهم أعضاء فى البرلمان ولكن كان أقلهم موالين للملك. يوضح الجنول (٢٢) أهم هؤلاء العلماء الذين عاشوا فى أكسفورد وتخصصاتهم وأهم منجزاتهم. ماذا حدث لأولئك العلماء من أكسفورد؟ فصل جودارد وأبعد بتى، ورحل بويل وهوك إلى لندن. لاقى علماء كامبريدج نفس المعاملة ونفس هذا الإحباط، ففصل ويلكنز بعد انتقاله إليها وتبعه جون راي. سنحت الفرصة فى هذه اللحظة لبيروزا فى لندن على شروطة ألا يتحدثوا فى الدين ويبتعدوا تماما عن السياسة، ويعملوا بدون أجر ولا منح وبدون دخل أو مساعدة. سمح لهم الملك بمزاولة نشاطهم كى يحسن صورته أمام الشعب ولكنه لم يزودهم بالنقود. لم يخف الملك حبه فى دعم العلم ومساندة العلماء ولكن كانت أولويته فى الإنفاق على نسائه، وبهنا انقطع العلم فى انجلترا عن كل مساندة مادية وقطعت كل الوسائل لكى يستمر نموه فى الجامعات. بالرغم

جدول (٢٢)

أهم علماء أكسفورد وكلهم من المؤسسين للجمعية الملكية ١٦٦٢ - ١٦٦٣

(ما عدا سيدنهام)

١٦٧٢ - ١٦١٤	جون ويلكنز
١٧٠٣ - ١٦١٦	جون واليس
١٦٧٥ - ١٦١٧	جوناثان جودارد
١٦٨٩ - ١٦١٧	سيث وارد
١٧٠٤ - ١٦٢٠	رالف باثرست
١٦٧٥ - ١٦٢١	توماس ويليس
١٦٨٧ - ١٦٢٣	وليام بتي
١٦٩١ - ١٦٢٧	روبرت بويل
١٧٠٤ - ١٦٢٨	توماس ميلينجتون
١٦٨٩ - ١٦٢٩	توماس سيدنهام
١٧٢٣ - ١٦٣٢	كرستوفر رن
١٧٠٣ - ١٦٣٥	روبرت هوك
أستاذ في الهندسة	
طبيب كرومويل - اخترع أول تلسكوب إنجليزي	
أستاذ فلك	
عين مستشارا للملك	
كيميائي	
أستاذ تشريح - اقتصادي	
صاحب قانون بويل	
عالم نبات	
من مؤسسي الطب السريري	
أستاذ فلك ومهندس معماري	
عمل مع ويليس ومع بويل	

من هذا فقد شدّ رجل عن هذا الإحباط وبرز في جميع أنحاء العالم وعمل في صمت بعيدا عن الأضواء مخفيا عقيدة التوحيد، وأراه وارتياحه في أحقية الملك في الحكم. هذا الرجل هو إسحاق نيوتن الذي تم تعيينه من القيادات الدينية المقدسة أستاذا للرياضيات بجامعة كامبريدج (ولكنه لم يعين في منصب عميد كلية ترينتي، الذي كان يصبو إليه نظرا لأرائه غير التقليدية). لعل الجامعة التي عمل فيها والبلد الذي أنجبه والعالم على اتساعه يغبط في إسحاق نيوتن تعقله وتدبره وجبته، فقد تمسك رجال كثيرون بمبادئهم فتم فصلهم من أكسفورد وكامبريدج، وبعد فصلهم صادرت الكنيسة كل ممتلكاتهم وازدادت سيطرتها على جميع المدارس والجامعات في كافة أنحاء البلاد، خاصة الغنية منها. بازدياد السيطرة ويمنع دخول الخوارج ونوى الآراء الخارجة عن التقاليد ويمنع استخدام الكاثوليك واليهود تقلص التنوع في الأعراق والأجناس والطبقات والآراء في الجامعات - التي عليها يقوم التطور ويحيى - خاصة التقدم العلمي. في كامبريدج انشغل أستاذ الرياضيات الجديد - بعد نيوتن - بأن يوفق بين علم نيوتن وبين كتاب الخلق كما جاء في الكتاب المقدس، كما كتب أستاذ

النبات الجديد تعليقا مشوقا على كتابات فيرجيل الزراعية. اختفت العلوم التجريبية من المؤسسات التعليمية في الأمة وحل محلها تتابع من نشاطات من يبحثون عن المراكز وينهجون نهج المعلم المكرر. كان بيد الاساقفة سلطة التعيين في المراكز الشاغرة ويدهم «إسقاط المطر وتلطيف الجو وتشكيل أمزجة الناس» في انجلترا في القرن الثامن عشر.

ثم جاءت الثورة الصناعية، حيث وجد الرجال - بعد البحث - طرق تصنيع الآلات التي تقوم بالعمل بدلا عنهم. جمعت تلك الآلات كل ما توصلت إلى الكشوفات العملية والتقنية، وبها استطاع الإنسان أن يضبط بيئته - أو بمعنى آخر - أن يضبط الطبيعة. تعود روافد تلك الثورة إلى العاضى السحيق، فقد بدأت بصنع الآلات الزراعية ثم بالتعدين ثم ببناء الطواحين ودائما بصنع آلة الحرب وأنوات القتال. كان الصناع والحرفيون المنشغلون بتلك المسائل العملية هم البذرة الأولى التي قامت عليها الثورة الصناعية، لقرون عديدة لم يحدث أى تقدم ملحوظ فى مختلف الصناعات. كان المشتغلون بالتعدين وصاهرو المعادن والمهندسون والملاحون والقائمون على الغزل والنسيج يتقدمون حثيثا وببطء ومتفرقين فى صناعاتهم، ولكنهم - فى قرن الاضطراب والقلق والتسامح الدينى - دخلت جميع الأفكار والحرف ومختلف أصناف التعليم إلى الجامعات وتفاعلت معا وتعاونت وتكاثفت لإحداث تقدم علمى لم يسبق له مثيل. عندما كان هاكليوت يحاضر عن الملاحة اخترع هوك المضخات والمجاهر، وكان بتى يعلم التشريح ويناقش فى الاقتصاد - وكل ذلك يتم فى جامعة واحدة فى القرن السابع عشر - جامعة أكسفورد، ولكن لم يسمح لمثل تلك الجامعة المركبة أن تنتضج، وأوقف نموها بقانونو كلارنوتون. ولكن المسار تحول إلى طريق آخر عندما حلت مشكلة الطاقة وتم التغلب عليها فى المناجم بيد رجال كان عملهم الانشغال بالتعدين. حدث تقدم متتابع أفضى فى النهاية إلى الثورة الصناعية. كانت البداية هو اختراع الآلة البخارية وتطويعها للعمل فى المناجم. جاء التطوير فيها فى مبدأ الأمر معتمدا على التجربة العملية وحدها من غير اعتبار للعلم أو الفتنريات وحدث أولا بناء على الملاحظة والاختبار ثم تبعه فيما بعد التطوير القائم على العلم، وقد أدى هذا إلى سيل جارف من التطوير لفت نظر الصناع وأقنعهم بالأهمية القصوى للعلم وللتطوير القائم على أسس علمية سليمة. تغير العالم تماما فى نصف القرن الذى أعقب جيمس وات مخترع الآلة البخارية.

كان الرجال الذين أحدثوا هذا التغير من ضمن الخارجيين على المؤلف فى انجلترا ومن بين التابعين لطائفة البرسبيتييريان فى اسكتلندة ومن المهاجرين الأجانب الذين لجأوا للبلاد هربا من أنواع مختلفة من الاضطهاد الدينى فى بلادهم الأصلية. سلك التطور سبيلين مختلفين أحدهما علمى والآخر صناعى - كانت هناك فروق واضحة بين مختلف العلوم، وكان المستكشفون العظام نوى أصول اجتماعية مختلطة، كما يوضح الجدولان (٢٢)، (٢٤). ولكننا نلاحظ أن اثنين فقط من ستة

جدول (٢٢)

المؤسسون للثورة العلمية في بريطانيا بين ١٦٢٠ - ١٨٠٠

الاسم	مكان المولد والتواريخ	الأب	التعليم والديانة	الأعمال
جون راي	اسكس ١٦٢٧-١٧٠٥	حداد	كامبريدج استبعد	مؤسس التاريخ الطبيعي
روبرت بويل	أيرلندة ١٦٢٧-١٦٩١	أحد بواكير الصناعة	كاأحد الخوارج ايتون، جنيث، فرنسا.	وعلم الأحياء قانون بويل (مع هوك)
روبرت هوك	جزيرة وايت ١٦٣٥-١٧٠٢	تسيس	مدرسة وستمنستر ثم جامعة أكسفورد	مخترع ومهندس معماري
اسحاق نيوتن	لينكونشاير ١٦٤٢-١٧٢٧	من صغار الفلاحين	ترك المدرسة في سن ١٤ سنة من الموحدين(في السر)	أسس رياضية وبصرية وفي الجاذبية الأرضية
جون فلامستيد	دريشاير ١٦٤٦-١٧١٩	تعلم ذاتي	تعلم ذاتي	من علماء الفلك. كتالوج النجوم. واضع أساس علم الفلك الحديث
إيموند هالي	لندن ١٦٥٦-١٧٤٢	مدرسة القديس بول ثم أكسفورد	مدرسة القديس بول ثم أكسفورد	المغناطيسية الأرضية - من علماء اللغة العربية
إبراهام دي موافر	فيتري ١٦٦٧-١٧٥٤	هيوجينوت هاجر إلى انجلترا عام ١٦٨٨	هيوجينوت هاجر إلى انجلترا عام ١٦٨٨	مؤسس العلم الأكتوراى على نظرية الاحتمالات
أدم سميث	كيركالدي ١٧٢٣-١٧٩٠	من رجال القانون	جامعة جلاسجو	مؤلف كتاب «ثروة الأمم» مؤسس علم الاقتصاد الحديث
جيمس هاتون	إدنبرة ١٧٢٦-١٧٩٧	تاجر	إدنبرة وباريس ولايدن	مؤسس علم الجيولوجيا. صاحب نظرية الأرض

تابع جدول (٢٣)

المؤسسون للثورة العلمية في بريطانيا بين ١٦٢٠ - ١٨٠٠

جوزيف بريستلي	يوركشاير ١٧٣٣-١٨٠٤	خياط	من الموحدين	كشف عن الأكسجين ناقد للعقيدة المسيحية هاجر للولايات المتحدة ١٧٩٤
وليام هيرشل	هانوفر ١٧٣٨-١٨٢٢	موسيقى	بروتستانتى مورافى	من علماء الفلك. كشف عن أورانوس
روي مالتوس	جيلدفورد ١٧٦٦-١٨٣٤		الكنيسة الأنجليكانية	صاحب نظرية السكان وقانون العائد المتناقص
جون دالتون	كمبرلاند ١٧٦٦-١٨٤٤	نساج	من الكويكرز	صاحب النظرية الذرية، عمى الاكلوان
توماس يونج	سمرست ١٧٧٣-١٨٢٩		من الكويكرز واسع الترحال	من علماء المصريات - صاحب نظريات الضوء والإبصار والمرونة والمد
همفري دافى	بنزانس ١٧٧٨-١٨٢٩		تعلم على يد الكويكرز	عديد من الكشوفات في الكيمياء والكهرباء
ميكل فاراداي	سرى ١٧٩١-١٨٦٧	حداد	كان مساعدا لدافى	المغنطة الكهربائية

جدول (٢٤)

مؤسسو الثورة الصناعية في بريطانيا بين ١٦٥٠ - ١٨١٠

الاسم	مكان المولد والتاريخ	الأب	الأعمال
توماس سافري	توتن ١٦٥٠-١٧١٥	من أصل الهيوجينوت	مهندس حريرى اخترع أول آلة بخارية عام ١٦٩٨
أبراهام داربى الأول	دلى ١٦٧٧-١٧١٧	فلاح	من الكويكرز صهر الحديد بفحم الكوك
جون لولاند	سييتالفيلد ١٧٠٦-١٧٦١	نساج حرير	من الهيوجينوت - مخترع آلات بصرية
جيمس هارجريفز	بلاكبورن ١٧٢٠-١٧٧٨	نجار ونساج	بدع آلة للغزل
جون ويلكنسون	كمبرلاند ١٧٢٨-١٨٠٨	مخترع آلات حديدية	صب جسرا من الحديد في برزلى
جوشيا ودجوود	بورسليم ١٧٢٠-١٧٩٢	خزاف	من الموحدين - منشئ صناعة الخزف الحديثة
رتشارد أكرات	برستون ١٧٣٢-١٧٩٢		صبى حلاق - نظم صناعة غزل ونسج القطن
جيمس وات	جرينوك ١٧٣٦-١٨١٩	قاص ومخترع ومهندس	اخترع الآلة البخارية عام ١٧٦٩ كشف عن تركيب الماء عام ١٧٨٣
إدموند كارترايت	نوتنجهامشير ١٧٤٣-١٨٢٣		اخترع النول الصناعى واخترع آلة تمشيط الصوف، له تجارب فى الزراعة، شاعر
صمويل كرومبتون	بولتون ١٧٥٣-١٨٢٧	غزال ونساج	اخترع آلة للغزل عام ١٧٧٩
توماس تلفورد	دمفريس ١٧٥٣-١٨٢٤	من الرعاة	مهندس مدنى ومعمارى - كاتب وأديب
رتشارد ترفيثيك	كورنويل ١٧٧١-١٨٢٣	مدير منجم	من طائفة الميثوديست - اخترع أول قاطرة بخارية عام ١٨٠١
جورج ستيفنسون	نيوكاسل ١٧٨١-١٨٤٨	من عمال المناجم - جندى مطافئ	أنشأ أول خط حديد بين ستوكتون ودارلنجتون بين ١٨١٩-١٨٢٥

عشر من العلماء (هالي ومالتوس) استطاعا الالتحاق بالجامعات الإنجليزية بعد عام ١٦٦٢. كذلك يتضح تأثير طائفة الكويكرز فى دالتون ويونج ودافى. وأن أكاديمية وارنجتون (للخارجين على المؤلف) استخدمت بريستلى (١٧٦١-١٧٦٧) وتعلم فيها مالتوس (١٧٧٩-١٧٨٣)، وقد تعزى بعض آراء مالتوس فى الفلسفة الاجتماعية إلى الخبرة التى اكتسبها فى ذلك المعهد، خاصة فى خلافه مع النظرة التقليدية للكنيسة الإنجليزية التى تنادى بأن المجتمع الأمثل يعتمد على جهود «إناس يتلون قصارى جهدهم لتحقيق مطالب أمة مرفهة». وأخيرا فإن الجمعية الملكية بعد عام ١٨٠٠ (نظرا لعدم وجود قيود دينية لديها) هى التى ساندت يونج ودافى وفراى. على الصعيد الصناعى نلاحظ اتجاهات مختلفة، فهناك المخترعون العمليون مثل هارجرىفز وكرومبتون، وهناك المنظمون والمرتبون للعملية مثل ويلكنسون وودجود وأركرايت وهناك العلماء الحالمون مثل وات، الذى كان همزة وصل مع العلماء الأكاديميين واتخذ موضعا وسيطا بينهم وبين رجال الصناعة، أو حتى قَبْلَهُ العلماء بجامعة إنجليزية مثل كارترايت. كان المنظمون ينتمون إلى طائفة الكويكرز أو الموحدين أو من الخارجين على المؤلف وغير التقليديين.

التقت بواكير الصناعة مع بواكير العلم فى تلك اللحظة الحاسمة من القرن الثامن عشر فى الجمعية القمرية (لونا سوسيتى). كانت تلك الجمعية تعقد اجتماعاتها فى برمنجهام وفى ليخفيلد بين ١٧٦٦ و ١٧٩١ بولتون ووات وودجود وبريستلى، لم يتلاقى هؤلاء الرجال معا فى جامعة عظمى ولم تضمهم أكاديمية علمية بل جمعهم سويا رجل عظيم - إرازموس داروين (١٧٣١-١٨٠٢)، الطبيب، المنادى بالتطور والداعى له، والشاعر. من خلال اجتماعات تلك الجماعة حدث الزواج بين أفرادها، هذا الزواج الذى أثمر حفيدين عظيمين له: تشارلز داروين وفرانسيس جالتون. تحول اسكتلندى مندفع فضولى - جيمس بوزويل - من العالم الأكاديمى القديم إلى الحقل الصناعى الحديث. أبداع هذا التزاوج بين العلم والصناعة الآلات الضخمة التى بدعها بولتون ووات. بدعت تلك الحلقة من الأصدقاء فى برمنجهام الثورة الصناعية فى انجلترا بينما كانت فرنسا تعاني من الثورة الفرنسية وتمر الولايات المتحدة الأمريكية بالحرب الأهلية - وكليهما ثورات سياسية. وفى اسكتلندة، ألفت قوانين كلارنغون وطُرد الأساقفة فى ثورة ١٦٨٨. ولهذا السبب حدثت إشعاعة تنوير جديدة فى اسكتلندة أعادت الحياة للعلم والتعليم، ظهر دافيد هيوم وأدم سميث، ومن بعدهما جاء مؤسس الجيولوجيا الحديثة جيمس هوتون والجيل الجديد من المهندسين الاسكتلنديين البارعين: جيمس وات وتوماس تلفورد وجون مكادم، وخلفاؤهم. بعد ذلك بدأت الجامعات الاسكتلندية تهتم بالعلوم الهندسية والعلوم الطبية الحديثة، بينما كانت تلك المعارف تكاد تختنق فى الجامعات الإنجليزية. لهذا بدأت موجة من هجرة النابيين الاسكتلنديين إلى انجلترا، وقد جذبتهم الثورة الصناعية ببريقها.

نشأت الثورة الصناعية من اختراعات إناس معينين في مجتمعات معينة خاصة مجتمعات خارجة عن التقاليد. بعد تطويرها غيرت من وجه تلك المجتمعات، فزاد ثراؤهم وازداد تعدادهم. أو بالأحرى زاد ثراء البعض وازداد تعداد الآخرين. كانت غالبية الخوارج في إنجلترا من الهيوجيينوت الفرنسيين، وفي أيرلندا من الألمان المورافيين. أضيف إليهم فيما بعد الميثوديست من آثار ثورة جون ويزلى - الرجال الصغار الذين أرقهم تسلط الكبار. كان كبار رجال الكنيسة - كما كان كبار الكويكرز - ممن يرتدون الملابس الثمينة، ولكن كان هؤلاء الميثوديست ممن اشتهر عنهم ارتداء الملابس المتواضعة، وقد اتبعوا تعليمات ويزلى بعدم التزواج من خارج الطائفة. كان لهؤلاء جميعا، كما كان للباپتست وغيرهم دور متواضع في نمو الصناعة. تكاثروا ولكن لم يتحقق الثراء لهم (كان هؤلاء جميعا ممن يؤمنون بالثالوث المقدس، العقيدة التقليدية للمجتمع). ولكن كان الآخرون ممن رفضوا الصيغة التقليدية، من الموحدين ومن الكويكرز، هم من تحقق لهم ثراء شديد بدون زيادة في العدد أو تكاثر، وقد كان نكاؤهم الفائق واتجاهاتهم التقدمية هما أساس النجاح العظيم الذى توصلوا إليه.

هكذا صار الخارجون عن المألوف منقصلين عن غالبية المجتمع في نكاؤهم وقدراتهم العقلية، كما كانوا منقصلين اجتماعيا ووراثيا عن سائر الناس. وكانت هذه العوامل من أسباب سعيهم للهجرة المنفصلة إلى مستعمرات أمريكا الشمالية. استوطن المستقلون في نيوانجلند واستقر الباپتست في رود أيلاند واليهوجينوت وأتباع الكنيسة الهولندية المتطورة في نيويورك، واستقر الكويكرز وبعدهم المينونيين في بنسلفانيا والبرسبيتيريان في شرقى نيوجرسى والكاثوليك في مستعمرة بالتيمور، وهكذا في كل مجتمع جديد كان هناك السادة والخدم. اتبع الجميع المثل الذى ضربه لهم الكويكرز، وزاد ثراؤهم بعد تقبلهم الخارجين عنهم وتحملهم للمختلفين معهم، وقبولهم للآتين بعدهم كخدم لهم وإيوائهم المحكوم عليهم، بدون أن يطلبوا منهم اتباع عقيدتهم، كما كان الحال مع المسجونين. وفدت أعدادا كبيرة من المهاجرين للبلاد وتفرقوا في مختلف أنحاء مما أحدث التغيير في التركيبة الأصلية للسكان ولأوضاعهم الجغرافية في المستعمرات الأمريكية وفي الولايات التى تبعتها.

في إنجلترا - في كل مدينة من مدنها - ظهر منشقون عن الكنيسة الإنجليزية - في برمنجهام المدينة التى صارت مدينة صناعية كبرى، وفي مانشستر التى احتضنت غزالو القطن، وفي شيفيلد - مدينة الصناعات المعدنية، وفى غيرها حدث انشقاق بين الناس من جراء اضطهاد الكنيسة القائمة لهم وبدأوا فى اتخاذ سبيل من سبيلين. هاجر بعضهم إلى الخارج ليتمتعوا بالحرية والاستقلالية التى

أتاحتها لهم تلك المجتمعات الجديدة وبدأوا في تكوين صناعاتهم، أو انفصلوا عن الكنيسة الأنجليكانية وكونوا كنائسهم المستقلة. في برمنجهام - على سبيل المثال - انفصلت جماعة وسمت نفسها باسم البرسيبيريان، ولكن بعد خمسين عام - في عام ١٧٤٨ - انشقت عن تلك الجماعة الأخيرة طائفة عرفت بالموحدين. وكانت هناك طائفة الكويكرز قائمة من قبل. ظهرت طائفة البابتست عام ١٧٣٨ وظهرت طائفة الميثودست (أتباع وزلى) عام ١٧٥٢، وبعد أعوام قليلة حلت طائفة من اليهود. بعد قرن كامل من الزمان ظهر النجاح الفائق لمدينة برمنجهام - الذي حققته طوائف المنشقين المختلفة. بعد هذا النجاح لجأ أقوام مختلفون من إناس عاديين إلى برمنجهام وصار التركيب السكاني لتلك المدينة - كما سجله جيل عام ١٨٥١ كما يلي:

المؤسسون:

٦٠٠٠	ميثوديست
٤٢٠٠	بابتست
١٨٥٠	موحدون
٥٤٤	كويكرز

اللاجئون :

٢٠٠٠	من أتباع كنيسة انجلترا
٣٤٠٠	الكاثوليك (أيرلنديون)
٤٦٤	برسيبيريان (اسكتلنديون)
١٨٥	يهود

وبالرغم من هذا استمرت القوة الدافعة لهذا المجتمع في يد أبناء الطبقة العليا من المؤسسين، وكان محافظو المدينة بين عامي ١٨٤٠ و١٨٨٠ من طائفة الموحدين.

خارج برمنجهام وليفربول - لعبت طائفة الكويكرز نورا أشد وضوحا من نور الموحدين في بناء الاقتصاد والصناعة في إنجلترا. كان لهدر - منهم ولذكاينهم الشديد أكبر الأثر لنجاحهم الملحوظ في الشؤون المالية والاقتصادية. فمنهم باركينز وجينزير ولويدز مؤسسو البنوك الكبرى، وهم أصحاب كادبوري وفراي وراوتتري في صناعات الكاكر، وكروسفيك وجوزاج وهدسون في صناعات الصابون. وهكذا نمت طائفة جديدة من الحكام - ليست أشد ثقافة وأكثر علما من رجال الكنيسة الأقدمين ولكنهم يعدلونهم في الثراء وينافسونهم في السلطة السياسية.

كان لاستقلالية الطوائف المنشقة ولمبادراتها أكبر الأثر في التقدم الذي حدث في المجالات الصناعية وكذلك في بدء الاتجاه إلى الاستقلالية السياسية. كانت كل طائفة دينية أرضا للتدريب على الديمقراطية ومجالا للإفساح عن الآراء المسنولة والتصرف السليم، وكان لطبع هؤلاء المنشقين، من الفردية وحب بناء الامبراطوريات، ما دفعهم دفعا لإقامة صناعاتهم وللإستقلال بعقيدتهم والتفرد بآرائهم السياسية. ولكل تلك الصفات - بالإضافة إلى الريح الوفير الذي تحقق حدث التحول - عندما سنحت الفرصة - إلى تطوير الآلة الإنتاجية وإدارة الأعمال بكفاءة والتعامل من العمال بحصافة أعوام ١٧٨٩ و ١٨٢٨ وكذلك في القرن العشرين، بدلا من الاتجاه نحو السياسة. ظلت الطوائف - التي انشغلت بالصناعة - على تماسكها وصارت بنفسها مؤسسة بين المؤسسات تتزاورج من بعضها البعض وتتفصل وراثيا عن بقية الفئات. استمرت هكذا حتى نهاية القرن التاسع عشر عندما بدأت العقائد الدينية - التي كانت من أسباب قيامها وعوامل ازدهارها في الدرجة الأولى - بدأت تتهدم. بدأ التغيير عند القمة حيث تغيرت الظروف أشد تغير، وحيث تغير الحضر كثيرا عن الريف.

كانت المؤسسة الرسمية تسيطر على الدولة، نظرا لامتلاكها للأراضي وللكنيسة وللجامعات والمدارس والسيطرتها، على الألقاب والأوسمة ولارتباطها بالملكية. كان ملاك الأراضي يقاومون كل تقدم في الصناعة، وكانوا يساندون الحكومة في حروبها ضد مستعمراتها التي تجاهد للاستقلال، وكانوا يشجعون الحكومة على احتلال مزيد من الأراضي بينما كان القادة الجدد يعترضون على كافة الأنشطة، القادة الجدد من أمثال داربي وويلكينسون وبتلفولد وجالتون؛ فقد تركوا الإمبراطورية لمؤسسة كانت تظن نفسها قد امتلكت الدولة. كان التناقض حادا بين «المؤسسة» وبين المجتمعات الجديدة التي خرجت عن المألوف وقد ضاقت الفوارق تدريجيا بين الطرفين بترقية أفراد منتقن إلى الطبقة العليا وبالهجرة وبالزواج خلال القرن الماضي. قلت حدة الخوارج وزادوا لطفاء، وازداد ثراؤهم وقل تقشفهم، واجتذب كبارهم إلى «المؤسسة»، وقل تماسكهم بالتهجين مع أفراد الطبقة العليا. حتى بين طبقاتهم الوسطى كان تطلعهم دائما هو للحاق بأكابر الناس. كل ما تبقى من الانقسام الكبير للمجتمع الذي حدث عام ١٦٦١ هو علاماته الشامخة، فعلى أحد الطرفين تقف الأرستقراطيات نوات المملكات الشاسعة، والجامعات العتيقة، والمدارس الخاصة التي يلتحق بها أبناء الأرستقراط، والكنائس، وعلى الطرف الآخر تقف قلاع المعارضة، غلاة الولش والقوميين الاسكتلنديين والمتطرفين من الجماعات السياسية المتمصبة.

وضع قانون الإصلاح - الذي صدر عام ١٨٣٢ - البنية الأنقياء للثورتين العلمية والصناعية، - العنيدون المعارضون دائمي المقاومة لقرنين كاملين، على حافة السلطة السياسية، طالبوا بأن ترحب الجامعات أبوابها لهم، ويعد أربعين عاما، في سنة ١٨٧١ فتحت جامعتي أكسفورد وكامبريدج

أوابها للمعترضين، وكذلك لليهود وللكاثوليك وتراخت الأيادي من الإدارة الدينية عام ١٨٧٨ وسمح لمدرسين بعدم التقيد بالعزوبية. لم يكن لتلك التعديلات الأثار التي رجاها الراجون ولا تلك التي خوف منها المتخوفون. استمر مدرسو هاتين الجامعتين يضعون قواعدهم لأنفسهم ويختارون خلفاءهم. استمرت كليات تلك الجامعات في استبعاد النساء وعدم الترحيب بالمواد العلمية واستمرت تدعمن للكنيسة وتتعبق تلاميذها للحصول منهم على المنح والهبات والأموال والحفاظ على الأوضاع الاجتماعية التي تهيؤها لهم الهبات. ووضع نظام من الحوافز للمدارس الخاصة لهيئة الممتازين من خريجها للالتحاق بهاتين الجامعتين، حفاظا على وضعهما الاجتماعي، هذا الوضع الذي استمرت عليه تلك الجامعتين منذ القرن السابع عشر، الوضع مع ثقافة المجتمع ومقاوما للخارجين عن الخط المألوف مما أدى إلى إفقار تدريجي في الذكاء والثقافة لهما ولخريجيهما. وحتى عندما يسمح بقبول صنف جديد متميز من الطلبة فإن النظام الذي تقوم عليه المؤسسة الثقافية والعلمية يدعون لانخراطه في نفس نوعيات الثقافة المتواجدة بهما وإلى تقليده لمن يعتبرهم أرقى ويعجب بهم ويتملقهم ويسعى لصحبتهم ويتكبر على من يعتبرهم أدنى منه. وهكذا صارت الجامعات هي السبيل للرقى الاجتماعي وللحصول على الوظائف العليا في إمبراطورية كبرى. وهكذا فرضت هاتين الجامعتين الأسلوب القديم للطبقة القديمة على الفئات الجديدة التي تتصاعد من الطبقات الصناعية والطبقات التجارية الجديدة التي رحبت بأن تركت بعيدا عنها سلم العلم ودرج الصناعة الذين كانا السبب في رفعتها وتخلص من القانورات التي كانت تحيط بها عند صعودها من بدايتها الأولى. كانت الثروة التي تجمعت من الجهد والعرق والدخان في شمال البلاد هي التي أنتجت الخضرة والوفرة والرفاهية في جنوب البلاد، واستمرت الثروة طالما استمر التقدم العلمي والمخترعات التقنية، ولكن الرجعية والتقليدية ما زالت تتغلغل في النفس الإنجليزية وما برح الجمود يتعمق حتى النخاع فيها، لدرجة أن الرئاسات الإنجليزية حذرت القيادات - عندما كانت تستعد للأزمة التي نشأت عنها الحرب العالمية الثانية - فوجهت النداءات لها عام ١٩٣٤ «أن تتجنب اللقاء في الاجتماعات مع العلماء كيلا يفسدوا عليهم حسن تقديرهم للأمور»

حدث العكس في فرنسا وفي ألمانيا - فقد شجع نابليون العلم ورعى العلماء، كما شجع النظام القديم لابلان (١٧٤٩-١٨٢٧) ولافوازييه (١٧٤٣-١٧٩٤) على تنظيم المقياس المترى الذي أدخل عام ١٧٩١. وفي ألمانيا نشأت جامعات متعددة، كان يدعمها أمراء متنافسون مختلفون، ويشجعونها على الازدهار والتنافس والإبداع، وكانت لتلك المدارس العلمية استقلالية كبرى مما دعم تقدمها وساعد على تطورها وأتى لها بالثمرة العظمى (وبالنكسة) في القرن التاسع عشر.

الكتاب المقدس المطبوع عديدا من المشاكل فى أذهان قارئيه. ما هى أحقية فرد ما أو طبقة بعينها فى الحصول على السلطة أو تملك الثروة بون غيرها! لقد أجاب أرسطو كما أجاب موسى. فهناك أقوام كالإغريق واليهود أفضل من سواهم كالأقوام المتبريرة والهمجية وكغير اليهود (وخاصة المسيحيين)، وهؤلاء هم الذين ينبغى استعبادهم وجعلهم أرقاء. ولكن هذه الإجابة لا يمكن قبولها فى العصور التالية عندما تحول الجميع - بالتعميد - وصاروا مسيحيين. ولكن لما انقسم الناس إلى أنجليكان ولوثران وبرسيثيريان زاد الارتباك وعمت الفوضى. ظهر هذا التساؤل بوضوح فى ذروة الحرب الأهلية الإنجليزية بين أعوام ١٦٤٦-١٦٤٩، فقد طفت إلى السطح تلك الأفكار التى تم إخمادها منذ كبت حركة لولارد. بدأ رجال يتذمرون فى الجيش وفى المدينة وتساءلوا علام يحاربون وماذا تم تحقيقه من مكاسب بهذا الانتصار؟ هل هو مجرد تنصيب مجموعة أخرى من الجنرالات كطبقة حاكمة جديدة؟ أم هى قواعد جديدة تم وضعها لإقامة دستور جديد دائم يهين لكسب حقوق طبيعية للإنسان، وليس منحة تمنحها السلطة ولكنه اتفاق بنى البشر.

الثورات فى أوروبا

أولا: أوروبا الغربية

أثار الكتاب المقدس المطبوع عديدا من المشاكل فى أذهان قارئيه. ما هى أحقية فرد ما أو طبقة بعينها فى الحصول على السلطة أو تملك الثروة بون غيرها! لقد أجاب أرسطو كما أجاب موسى. فهناك أقوام كالإغريق واليهود أفضل من سواهم كالأقوام المتبريرة والهمجية وكغير اليهود (وخاصة المسيحيين)، وهؤلاء هم الذين ينبغى استعبادهم وجعلهم أرقاء. ولكن هذه الإجابة لا يمكن قبولها فى العصور التالية عندما تحول الجميع - بالتعميد - وصاروا مسيحيين. ولكن لما انقسم الناس إلى أنجليكان ولوثران وبرسيثيريان زاد الارتباك وعمت الفوضى. ظهر هذا التساؤل بوضوح فى ذروة الحرب الأهلية الإنجليزية بين أعوام ١٦٤٦-١٦٤٩، فقد طفت إلى السطح تلك الأفكار التى تم إخمادها منذ كبت حركة لولارد. بدأ رجال يتذمرون فى الجيش وفى المدينة وتساءلوا علام يحاربون وماذا تم تحقيقه من مكاسب بهذا الانتصار؟ هل هو مجرد تنصيب مجموعة أخرى من الجنرالات كطبقة حاكمة جديدة؟ أم هى قواعد جديدة تم وضعها لإقامة دستور جديد دائم يهين لكسب حقوق طبيعية للإنسان، وليس منحة تمنحها السلطة ولكنه اتفاق بنى البشر.

قاد كرومويل مجموعة العسكريين وتكلم ميلتون باسمهم، ولم يكن لمناهضتهم أى قوة عسكرية أو ثقافة وتعليم. كانوا متعصبين ومتحمسين ولم يكن يجمعهم أى رباط اجتماعى أو عقيدة دينية مشتركة. ما كان يجمع بينهم كان إيمانا وتفاؤلا مستمدا من الكتاب المقدس أن الرجال جميعا - ومنهم عامة المحاربين الذين يقاتلونهم - رجال عقلاء قابلين للتعلم ولا يطلبون مجدا ولا سلطة ولا يريدون حكمهم أو التحكم فيهم. كانوا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم ولم يطلبوا من أحد أن يحكمهم، ولهم الحق كل الحق فى رفض أن يتحكم فيهم آخرون. وقد جاء فى الإنجيل أن البشر متساوون منذ ولادتهم ولهم حقوق متساوية فى الملكية والحرية والاستقلال. وعلى هذا طالب ستانلى بأراض لكل الناس وطالب جويس بالحرية الدينية لكافة الخلق.

حوكم الملك فى يناير عام ١٦٤٩ ثم أُعدم وأقيمت الجمهورية فى مايو. تهباً لكرمويل أن الوقت قد حان لغزو أيرلندة ولكن معارضيه رأوا أن الأولوية هى لتنظيم البيت فى انجلترا وأدت دعايتهم إلى حدوث عصيان فى صفوف الجيش، ولكن استطاع كرومويل - خلال أسبوع - الإحاطة بهذا التمرد وقتل خمسة من العصاة فى ١٢ مايو، وأُخمد التمرد. كان خطأ هؤلاء هو أنهم سبقوا عصرهم، وظهر المعارضون قبل استعداد المجتمع للتطور. وبعد جيل كامل كتب جون لوك الأسس التى حارب المظهرون من أجل تحقيقها. وفى كتابه المعنون باسم «كتابات عن الحكومة وخطابات عن التسامح» الذى نشر فى عام ١٦٨٥ بين أن الحكومة تستمد سلطتها من السلطة المستقلة لمواطنيها، وأن الاثنين يرتبطان ببعضهما البعض باتفاق أو عهد يتطلب تعاون كل الرعية وتسامح كافة الحكام، فهذا اتفاق بين الطبقة الوسطى وتعهد من الحكام بحماية ممتلكاتهم وكانت تلك الآراء التى اتبعت لاستقرار الثورة الإنجليزية وتهدئتها بعد ثلاث سنوات، وهى نفس الأسس التى قام عليها الإعلان الأمريكى للاستقلال عام ١٧٧٦ والتأكيد الفرنسى على حقوق الإنسان الذى أعلن عام ١٧٨٩. نشأت تلك الآراء من نمو الطبقة التجارية الثرية فى انجلترا وفى هولندا الذين زادت ثقتهم فى الدولة بقيام الجمهوريات الإنجليزية والهولندية - لم يكن لهم أى علاقة بالمتمردين ولا بالعصاة، ولكن قام هؤلاء بثوراتهم الخاصة. أراح هؤلاء ما تبقى من الإقطاع فى هولندا وغالبية ما تبقى منه فى انجلترا وفى مستعمراتها الأمريكية. أما فى باقى أنحاء أوروبا، بقيت سلطات الملوك مفروضة على مجتمعات إقطاعية بدون منافس، ولم يكن للآراء الحديثة أى تأثير يذكر على المجتمعات الإقطاعية فى أوروبا الكاثوليكية أو البروتستانتية والأرثوذكسية. كان لا بد من سلوك سبيل آخر أكثر إثارة وأشد دموية لمناهضة تلك الأفكار التقليدية فى المجتمعات الإنسانية، وهنا لا بد من التعرض لازمة الملكيات ولمحنة الأسر المالكة فى أوروبا.

بينما انشغلت الشعوب فى أوروبا لعشرة أجيال بالمشاكل الحقيقية التى تهم الجماهير - بعد الانتهاء من الإصلاح الكنسى - وابتدأت تنشغل بما يعود عليها بالنفع والخير وازداد اهتمامها بمستقبل الجنس البشرى، ظلت الأسر المالكة فى أوروبا منشغلة بمستقبلها هى الذى ظهر لها كأهم شئ فى هذا العالم. زيجاتها، والذرية الناتجة من تلك الزيجات (أو التى يقشرون فى الحصول عليها من الزواج)، وغير ذلك من سقائف الأمور، كان لها الأثر فى حياة أولئك القوم وفى جميع خطوات تطور شعوبهم. كان التطور سريعاً - بفضل جهود العلماء واختراعات المخترعين وأفكار الفلاسفة وعمل أيدى الصناع والفنانين، ولكن كانت تؤثر على هذا التطور حكمة (أو جنون) الملوك والحكام وتدفعه دفعها للأمام أو تكبله قيوداً للخلف أو تحيد به عن مساره وتخرج به عن طريقه.

كيف نشأت الأسرات الملكية وكيف تولت الحكم والسلطة؟ نشأت من جراء التنافس الشديد خلال شبكة متوارثة، يتم الانتقاء منها تباعا على أساس التميز والمهارة واتقان الأعمال. وكانت تتم تربيتهم من أجل ولأجل تسلم العمل القيادي واستلام الحكم. كانوا يحبون عملهم (كما يحب الجندي والصانع والمحامي عمله). كانوا يحبون أن يكونوا ملوكا ويستمتعون بالحكم لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أهل له وأنهم يتقنون صناعة الملك والحكم (أو هكذا يعتقدون). توقعوا - وتوقع منهم الآخرون - أن يقودوا الجيوش، ويعينوا الموظفين ورجال الجيش، ويفاوضوا الدول الأخرى ويعقدوا معها التحالفات والمعاهدات، يخططون المدن، ويمنحون المنح، ويديرون الشئون، وعند اللزوم يعدلون القوانين، وأخيرا وليس آخرا أن يرأسوا الاحتفالات الكبرى في الدولة. ولكن واجبهم قبل هذا أن يتزوجوا وينجبوا ورثة للعرش وأن يعدلوا بين أبنائهم ولا يتخذون من أحدهم وليا ولا صفيا ولا خليلا. بمرور الزمن، وبحلول عصر النهضة، بدأ الملوك يتخصصون أكثر فأكثر في بعض تلك المهام الكبرى وبدأوا ليفوضون غيرهم في القيام ببعض تلك الأعمال. وبدأت تقابلهم مشاكل مركبة وبدأوا يتوسعون في محيط زيجاتهم. كانوا ينتمون في سلالاتهم الأبوية (من ناحية الذكور) إلى الهمج، ولكنهم انتموا في سلالاتهم من ناحية الأمهات (من الإناث) إلى أميرات الليننطى (وأحيانا إلى البيوت المالكة الإسلامية). تسرب الذكاء ودخلت النصيحة، كما تشربت بعض تلك العائلات بالمسة الفنية عن طريق الأمهات (كما حدث في بيت ميدنشى الإيطالى). غير عصر النهضة هذه القواعد تغييرا جذريا، بدون أن يثير هذا التغيير رعبهم ومن غير أن يعيروه أى اهتمام. كان حفدة جميع الأسر المالكة في العالم المسيحي يتكاثرون على مدى عشرين جيلا تبعا للقواعد التي بدعها الإمبراطور جوستنيان ونفذها بابوات الكنيسة بكل شدة وحزم. ولكن في خلال جيل واحد - وبدون أن يلحظ أحد - ذاب هذا النظام واختفى. بطل الامتناع عن التوالد الداخلى وظهرت موانع جديدة على الاستيلاء الخارجى. بعد قيام مارتن لوثر عام ١٥١٧، وفى خلال عشرين عاما، انقسم العالم المسيحي إلى عالمين: البروتستانتى والكاثوليكي، وصار الزواج مباحا من داخل كل عالم ومحرم في العالم الآخر - وبعد الاستيلاء على روما والقبض على البابا كليمنت السابع بواسطة الجيش الامبراطورى عام ١٥٢٧، صار الإمبراطور هو الذى يضع قوانين الزواج وقواعده لتوافق هواه. صار زواج المحارم مباحا، خاصة في الجنوب الكاثوليكي.

حدث هذا على نطاق واسع بين أسرة الهابسبورج، حيث تزوج الملك من بنات أخيه أو بنات أخته، وكثر الزواج بين أبناء وبنات العمومة وأبناء وبنات الخنولة. كما سبق وحدث من قبل بين فراعنة مصر وأخاميني فارس وبيطالمة الاسكندرية وقياصرة روما، ونتج عنه زوال تلك الأسر المالكة جميعا واندثار حضاراتها. أثر التوالد الداخلى على أسرة قليلة الإنجاب بعيدة عن فتوة المحاربين وعزيمة المقاتلين (وقد ورثت منهم أسرة البوربون هذا التخازل في القتال فيما بعد).

تحت حكم أسرة البوربون صارت فرنسا - لقرن كامل - أغنى دول أوروبا وأقواها وأكثرها ثقافة وأشدها تقدما. تزوج الملك لويس الثالث عشر من أخته، ودخلت إسبانيا تحت سيطرة أسرة البوربون بزواج نجله لويس الرابع عشر من أميرة من الفرع الإسباني لأسرة الهابسبورج بعد أربعين عاما. وهكذا حطم البوربون أنفسهم وراثيا وازدادوا قوة من الناحية السياسية، في بداية نشأة أسرة البوربون كانت أسرة قوية عسكرية ومحاربة ولكن بعد لويس الثالث عشر ولويس الخامس عشر حانت نهاية تلك العائلة المالكة. أما الأسر المالكة غير الكاثوليكية فكانت أسرا فقيرة وأقل تحضرًا من الأسر المالكة الكاثوليكية كأسرة الهابسبورج في فيينا وأسرة البوربون في باريس، واحتفظت تلك العائلات بعزيمتها وشدها وروحها الحربية غير المتخاذلة ولذا شاهدناهم - في القرنين السابع عشر والثامن عشر يقودون جيوشهم للنصر مثل جوستاف أولفوس وشارل الثاني عشر في السويد، ومثل بطرس الأكبر في روسيا ومثل جورج الثاني وابنه جزار كمبرلاند في إنجلترا، كما نشاهد الكاثوليكي تشارلز إنوارد ستيوارت يقود جيوشه للهزيمة عام ١٧٤٥.

نشأت قواعد الاستيلاء هذه في الأسر المالكة الأوروبية من الحقوق التي اكتسبها الفرسان - والتي حافظ عليها الجميع - ضد الطبقات الأدنى غير المعروفة في المجتمع، وأدى الاستيلاء الداخلي إلى تدمير أسرة بعد أسرة وإلى عقم الأسرات، كما أدى إلى اختفاء نكاح كل الأسرات وإلى غباء كافة الأفراد. تمسكت جميع العائلات المالكة بالتقاليد «الإلهية» وخضعت إلى تعليمات كنيسة متمسكة بالتقاليد والأعراف وانسأقت تحت تأثير القيادات والنبلاء المتزمتين واقتنع الجميع بأن التجديد بدعة غير مستحبة ورجس من عمل الشيطان ينبغي تجنبه. أما ملوك البروتستانت فقد مروا بستة أجيال من التجديد والاستيلاء الخارجي قبل أن تظهر أسرة مالكة واحدة تبدأ مرة ثانية التوالد الداخلي الذي أدى إلى انهيار الأسر المالكة الوثنية والأسر الملكية الكاثوليكية. وقد لعبت الأسر المالكية الأوروبية دورها الأخير في التاريخ عام ١٩١٤ حين ظهر للعيان شذوذهما العاطفي وعيوبها العقلية والجسدية والتي أدت إلى دمارها. حذ مثلا لذلك منشأ مرض الهموفيليا في الملكة فيكتوريا ثم انتقاله لذكور العائلات المالكة في روسيا وفي إسبانيا وانتهائه بقيام الثورات في تلك البلاد، أو حذ المثال الثاني عن علاقة مرض البورفيريا بالتخلف العقلي في الأسر المالكة البريطانية.

حكمت أسرة البوربون - التي جاءت من نسل القديس لويس الصليبي - فرنسا لمدة قرنين، منذ إنشائها عام ١٥٨٩ على يد هنري من نافار حتى تنازلها عن العرش للجمعية الوطنية عام ١٧٨٩. حكمت تلك الأسرة بلا منازع طوال تلك المدة وأتت لفرنسا باستقرار لم تشهده دولة أخرى في ذلك الزمان، كما شهدت طبقات المجتمع الحاكمة والأرستقراطية استقرارا وثباتا مستمرا. أما الشعب - فشأنه شأن الشعب الإنجليزي - فكان يتطور تطورًا حاسما.

فى المجتمع الفرنسى، كانت الطبقة الحاكمة، الصفوة أو النخبة أو «المؤسسة» أو الطبقة العليا – أيا كانت تسميتها لها – ذات علاقات وراثية شهدتها مجتمعات سابقة من قبل – ولكن كانت لها أيضا روابط دستورية ذات طبيعة خاصة لم يسبق لأحد أن درسها. على رأسها كانت العائلة المالكة، تزوجت مع الهابسبورج (فى النمسا) وستيوارت (فى بريطانيا)، وغيرها وكونت طبقة من الأسر الملكية الكاثوليكية، تفرع منها أسرات كوندى وكونتى، وأورليانز، وتزوج الجميع من بعضهم البعض وتطلعوا لعروش خارجية كما نشأ بينهم كثيرون من أبناء السفاح نوى الأوضاع الاجتماعية المختلفة من الأمراء والنبلاء وغيرهم. تحت الأسرة المالكة كان هناك النبلاء من أبناء الإقطاعيين أو المحاربين، وكانت عراقة العائلة تقاس بامتدادها أو باللقب الممنوح لها الذى يبدأ بالأمير ثم اللوق ثم المركز ثم الكونت وأخيرا – فى أسفل مرتبة – البارون (وقد نقل الإنجليز نفس هذه الألقاب). وكان لثراء العائلة أيضا حساب، فكانت العائلات الأفقر – التى لا تستطيع تحمل نفقات البلاط الملكى – تعيش فى الريف البعيد مختفية عن الأنظار. وكانت الثروات تنقل تدريجيا بمرور الأجيال – لأن العائلات الفرنسية لم تكن تتشدد – مثل الأسر الإنجليزية – فى توريث الابن الأكبر فحسب كل الميراث، بل كان سائر الأبناء يناههم جزء من الأرض التى تركها الأب (مع بعض الألقاب). وما زال الإجهاض وقتل الأطفال الرضع ووضع السم للكبار متبعا كما كان أيام البنادقة، (ولم تحل محله الوسائل الحديثة لمنع الحمل وللسيطرة على النسل). كان يدفع بالآبناء الصغار دفعا للالتحاق بالكنيسة التى كان عليها العناية بالعزاب من الأرستقراط (مما جعل عدد الأساقفة من أبناء الطبقة العليا فى فرنسا يزيد كثيرا عن أمثالهم فى إنجلترا). استمرت الطبقة فى الكنيسة الفرنسية (فى حين اختفت الطبقة كما اختفت العزوبية فى الكنائس البروتستنتية). صار أبناء الملوك السفاح والآبناء الصغار اللوقات كاردينالات وأساقفة وهكذا فى السلم الطبقي الكنسى. ولما كانت الكنيسة تمتلك نحو نصف الأراضى الزراعية فى الدولة وتحصل على منح وهبات وفيرة فهكذا صار النبلاء من أفراد الكنيسة يعيشون معيشة رغدة وفى سعة.

منذ عهد قديم – قبل عهد أسرة البوربون – فى روما وفى بيزنطة علم الملك الحاكم أن سلامته تعتمد على إبقاء النبلاء – من غير أمراء العائلة المالكة – خارج نطاق الإدارة الملكية. استمر هذا التقليد كعادة اتبعتها أسرة البوربون المالكة فى فرنسا. كان جميع العسكريون من العائلة المالكة ولم يسمح لأحد غيرهم بحمل السلاح. ولولا السماح للأجانب بالانخراط فى الجيش لقتضى عليه وفى فناء محتما. فانضم إليه نبلاء الكاثوليك فى أوروبا – مثل اليعاقبة اللاجئيين من اسكتلندا ومن أيرلندا، وهكذا استمر جيش لويس السادس عشر قويا وعلى مستوى (وقد ساعد هذا على نجاح الثورة

الفرنسية فيما بعد). كان الملك يشتري أو يرشو موظفيه الأكفاء (كما كان يتحصل على الضباط الأكفاء لجيشه)، وكان يتحصل عليهم من المهنيين ومن كبار التجار الناجحين والأكفاء ومن مراتب الكهنوت الدنيا ومن النبلاء الأجانب أو من نبلاء أتريف البعيد. وصل بعضهم (الذين ارتفعوا من طبقات الكنيسة) إلى رتبة الكاردينال (مثل ريشيليو ١٥٨٥-١٦٤٢ ومثل الإيطالي مازارين ١٦٠٢-١٦٦١). وارتفع الذين جاؤا من عامة الشعب إلى طبقة النبلاء (مثل كولبير ١٦١٩-١٦٨٣ ومثل تورجو ١٧٢٧-١٧٨١). سمح للأثرياء بشراء المنصب (في عصر لويس الرابع عشر) وصار هؤلاء يكونون الطبقة الثالثة في المجتمع (بعد أمراء الأسرة المالكة والنبلاء الذين حصلوا على ألقابهم بالوراثة). زادت الحاجة للحصول على الأكفاء والمهنيين الموهوبين من الأجانب (بعد تكاثر نوى الانقلاب). ظهرت فضائح في كفاءة العسكريين (بعد حرب السنوات السبعة) وفي الحاجة إلى الأكفاء من الموظفين المدنيين (فيتم استيراد قادة مثل مارشال ساكس وكفاءات مالية مثل نيكير) وأظهر هذا أن النظام على وشك الانهيار، لجموده وانعدام مرونته. كانت الطبقات في المجتمع الفرنسي قائمة على النسب الأبوي، فاتجه الناس إلى تبادل العراقة في النساء بالمال أو الجمال في النساء بالجاه (فتزوجت نساء من النبيلات برجال من عامة الشعب الأثرياء أو نساء من الجميلات من عامة الشعب برجال من نوى الجاه والحسب والنسب). ولكن أدى هذا النظام إلى الإقلال من الاختلاط (بعكس ما حدث في إنجلترا) ولم يكرر ما سبق أن حدث في روما القديمة إلا في أقل القليل وفي أضيق الحدود. تكاتف أبناء الطبقة الأرستقراطية ليضيقوا حدود الإختلاط وليحافظوا على ميزاتهم ومصالحهم. ولكن عندما أزفت الأزفة وحلت الكارثة، خرج من بين النبلاء من ضحوا بمصالح طبقتهم وخانوها في سبيل إنقاذ الأمة كلها.

في القرن الأول بعد إصلاح الأمور، اكتسح المصلحون النظام، وأثرت الدولة على حساب انهيار إسبانيا وتحطيم ألمانيا، ولم يتأثر النظام الإقطاعي فيها إلا قليلا (بفضل ريشيليو). وفي القرن بعد الإصلاح، لم تعد تلك الأمور كافية. حلت محل عظمة الشاب لويس الرابع عشر، البذخ الشديد والعناد الفائق والغفلة التي حاقت به في شيخوخته من جراء الأمراض التي أصابت عقله وبدنه، والتي تبعها حكم خلفائه الكسالى، غير الأكفاء والذين لم يكن لديهم هدف معين يودون تحقيقه، أو طموح. في هذا العصر كان المجتمع قد تحول إلى أفراد داخلية التوالد، قليلو الكفاءة، يرفلون في النعيم الذي أحاط بهم. كانوا يعيشون مترفين، في ثراء شديد، لا ينفقون الضرائب، ويفرضون الأموال على من سواهم. يفرضون السخرة على خدامهم وفلاحهم ويكثرون من استخدام المشانق. يضاف إلى ذلك الأموال التي تعود عليهم من أملاك الكنيسة. كل تلك التبعات كانت كفيلة بخنق أمة في حالة السلم، فما بالك ببؤلة في حالة حرب مع نول متحررة من تلك التبعات. في نهاية حكم لويس الخامس عشر

كانت فرنسا ما زالت ثرية كمشعب ولكنها كانت مفلسة كقولة. وقد أحس الملك (وعشيقته) ما كان ينتظرهم.

كان لويس الرابع عشر يتمتع بسلطة مطلقة وكان يستخدمها، فقد كان وحده هو المسئول عن الحكومة كما كان الجميع مدركا لتلك الحقيقة. كان لا يفعل أى شئ سوى لإرضاء نفسه، مهما كانت معلوماته فى هذا الأمر أو ذاك. وإذا بدت أى مظاهر لعدم الرضا بين الجماهير، فإن قوى الشرطة السياسية التى أنشأها مازارين من الإبطاليين - كانت تضع الأمور فى نصابها. كان بمقدوره فى أى لحظة - كما كان بيد المئات من موظفيه - أن يضع الشخص تحت الشمس فلا يعلم بمصيره أحد. خلفه لويس الخامس عشر متمتعا بكل تلك السلطة مع غياب فى التفكير وعدم الإدراك - كما هو الحال فى كل الأسر الملكية الكاثوليكية - فكان يستخدم جبروته وتسلطه على الشعب تبعا لنصيحة صديق أو قريب، كلما جد فى الأمور شئ أو ظهرت مشكلة، لو كان هناك دستور يتبع لصارت الأمور أقل وطأة، ولكن السلطة كانت مطلقة ولم يناقش أحد هذا الأمر حتى نجح ريشيليو ومازارين فى خلق جهاز سرى صار لا غنى عنه لهما وللويس الرابع عشر، ويعملهما هذا قضايا على النصح والمناقشة السوية التى تضع الأمور فى نصابها، وكان لا بد من إعادة إحيائها.

فى الزمن القديم كانت هناك طرق ثلاثة يطلب فيها الحاكم النصيحة. أولهما كان البرلمان، هذا الجهاز الذى كان يستخدم لإقرار المقترحات الملكية أو لمعاونة الموظفين الملكيين. كان عدد الجهات الرسمية المسئولة عن إدارة دفة الحكم ثلاثة عشر جهازا، بين أجهزة قومية على نطاق الدولة، أو أجهزة محلية، يشغلها النبلاء. كانت تلك الأجهزة مستعدة لإقرار أن أبناء السفاح للويس الرابع عشر هم أبناء شرعيين. كما كانت على استعداد للتصرف فى المجاعات المحلية وفى شتى العصاة المحليون. ولكن لم يكونوا على استعداد للحكم على الأمور القومية ولا على شئون فرض الضرائب على المواطنين. أثبتوا أنهم على استعداد للدفاع عن أمورهم الشخصية فى مواجهة الدولة، ولذا سرعان ما حاول الملك استخدام حل آخر. حاول تشكيل جمعية قومية من المرموقين يكونون أكثر فائدة للدولة وأقل ألما للمؤسسة الحاكمة. اجتمعت الجمعية عدة مرات وناقشت آراء متباينة، بعضها كان مفيدا وبعضها مؤلما. وأخيرا حاول الملك الحل الثالث وهو تشكيل مجلس منتخب عام ١٦١٤.

بهذا الحل بدأ الملك ثورة فى البلاد. فى البداية كان الأعضاء المنتخبون لا يمانعون فى إبقاء الحال على ما هو عليه ولا يطالبون بالتغيير. كان الأعضاء المنتخبون مقسمين إلى مجالس ثلاثة: مجلس النبلاء، ومجلس الكنيسة، والمجلس الثالث أو مجلس الشعب، ولكن لم يكن واضحا كيف يمثل الشعب. أزيلت (أو أغفلت) متطلبات الملكية التى تضمنتها التشريعات البريطانية والأمريكية. أعطى

جميع الذكور المقيمين في فرنسا فوق سن الخامسة والعشرين حق الانتخاب - حتى البروتستانت كان يمكنهم الترشيح والانتخاب. كان الانتخاب يتم على عدة مراحل متتالية وكان الذين ينتخبون عادة هم المثقفون، والحكماء، والأغنياء. كان من الطبيعي أن يكبت صوت العنف (ولكن إلى حين). ولكن - بالرغم من كل ذلك - كان نظام الانتخاب هذا أكثر النظم ديمقراطية التي ظهرت في التاريخ. مثل النبلاء (وعددهم ٦٠٠) ورجال الدين الذين شغلا المجلسين العلويين، ٣٪ فقط من السكان الذين بلغ تعدادهم ٢٤ مليوناً، وهذه النسبة تقارب نفس نسبة التمثيل في مجلس العموم البريطاني في ذلك الوقت)، بينما مثل مجلس الشعب - وبلغ عدد أعضائه أيضا ٦٠٠ عضواً الـ ٩٧٪ الباقين من الشعب الفرنسي.

كان قصر فرساي - لقرن من الزمان - هو مقر الحكومة الفرنسية، حيث يعيش الملك ويصطاد، محاطاً بأغني الأغنياء من النبلاء (ولكن ليس ضرورياً بالعقلاء منهم)، فكان لا بد أن يتعقد المجلس الوطني هناك. كان النبلاء ورجال الدين يدخلون من الباب الأمامي محاطين بكل مظاهر الحفاوة والترحيب والتكريم أما أعضاء مجلس الشعب فكان يسمح لهم بالدخول من باب جانبي وسط حرس ملكي مرتدين ملابس سوداء وقورة. اجتمع المجلس الوطني يوم ٥ مايو ١٧٨٩، واتضح منذ اللحظة الأولى أن النبلاء سيتمسكون بكافة حقوقهم وامتيازاتهم رغم أي معارضة من الأعضاء ممثلي الشعب، وأثبتوا بهذا أن الجماعات صاحبة المصلحة سوف تتصرف بمنتهى العناد دفاعاً عن مصالحها، في أي مجلس متجانس التكوين، سواء أكانوا من الجماعات الأرستقراطية القديمة أو من أهل الصناعة الحديثة أو من رجال الجامعة أو الأكاديميات العلمية، ولو كان تجانسهم بسبب نشاطهم وتربيتهم أو اختيارهم أو انتقائهم أو تعيينهم. تبين الأرستقراط في الحال أن الكونت دي ميرابو لا يمثلهم، واعتبروه خائناً، فجلس مع ممثلي الشعب.

بعد عدة أسابيع من الجدل انضم لممثلي الشعب ثائرون من المجالس العليا، فانضم إليهم ٥٠ من النبلاء و٤٤ من الأساقفة و٢٠٠ من القساوسة. قويت شوكة ممثلي الشعب - بانضمام هذا العدد إليهم - واعتبروا أنفسهم - وحدهم - المجلس الوطني. وقد صاروا أقوياء حقاً، فعندما أمر الملك حرسه - بعد أسبوع - بتفريق المجلس رفض الحرس. في تلك اللحظة بدأ أهالي باريس بتسليح أنفسهم وقذفوا سجن الباستيل وهنا بدأ النبلاء المتمردون في مغادرة البلاد واستعانوا بأصدقائهم من النبلاء في بلاط الدول الأجنبية. في الحال بدأت الجمعية الوطنية الفرنسية في العمل لإعلان «حقوق الإنسان»، وصار هذا العمل شغلها الشاغل. لم يكن من الممكن أن تتم الجمعية الوطنية هذا العمل في فرساي ولذا انتقلت إلى باريس ومعها القوات الثورية والملك - العاصمة التي هجرها لويس

الرابع عشر وجرمها من التسليح منذ قرن كامل. عادت للعاصمة هيبتها وعادت إليها القوة العسكرية المركزية.

بعد عامين أتمت الجمعية الوطنية وضع دستورها المكتوب الذى تضمن النقاط الثورية التالية:

١- سيادة الدولة مقابل سيادة الملك.

٢- الإلغاء شبه التام لجميع الامتيازات الإقطاعية لرجل واحد على الآخرين.

٣- الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٤- حق الاقتراع للرجال حسب الملكية.

٥- الحرية الدينية شبه التامة للبروتستانت واليهود، والمساواة فى الحقوق لجميع رجال الدين. وهذه الحقوق كلها سبق أن وافق عليها النظام الإنجليزى. وبالإضافة إليها جاءت النقطة التالية المشابهة لما جاء فى النظام الأمريكى.

٦- السماح لجميع المواطنين بالتساوى بالالتحاق بكافة وظائف الدولة المدنية والعسكرية والمساواة الكاملة بينهم أمام القانون.

ألغيت كافة الألقاب - عدا تلك التى تخص العائلة المالكة - وألغيت النقابات وصودرت معظم ممتلكات الكنيسة. تم وضع النظام المترى تحت إشراف لافوازييه، وتم تقسيم البلاد إلى أقسام. وهكذا اتضح للملك ولأعوانه أن فرنسا لم تعد تلك البلد الذى يرغبون فى العيش فيه. ولكنهم لاحظوا أيضا بداية علامات تفرق فى الجمعية الوطنية. عدم المصادرة الكاملة للأموال الإقطاعية ولأموال الكنيسة أحدثت شقاقا بين أهالى المدن وأهالى الريف، وبين إقليم وإقليم فى البلاد، وبين أعضاء الجمعية الوطنية والمواطنين فى باريس. قرر الملك الهروب واللحاق ببقية النبلاء الذين هربوا إلى ألمانيا ولكن أمسك به وأعيد للبلاد وأرغم على الاعتراف بالدستور الجديد. فقدت الثقة بين الملك وبين الجمعية الوطنية وصارت الملكية الدستورية شئ محال أن يتحقق فى ظل تلك الظروف.

كان الوضع فى فرنسا فى عام ١٧٩١ مشابها للوضع فى بريطانيا قبل ١٤٤ سنة إبان الحرب الأهلية والثورة عام ١٦٤٧. أدت آلاف من السنوات من الهجرات المتبادلة وتبادل الجينات والأفكار بين هذين الشعبين إلى درجة متقاربة من التطور ومن التركيب الاجتماعى فى بريطانيا وفرنسا. ولكن التركيب الجينى شديد الاختلاف بين الطبقات المتماثلة من الشعبين، بين الأفراد وبين الطبقات، مع تفاعلها الدائم، مع الاختلافات التاريخية والجغرافية، لم تنجح بتاتا فى تنويع الاختلافات بين هذين

القطرين، ومن ثم فإن المقارنة بين مراحل التطور الاجتماعى والسياسى فى كلا المجتمعين سيعود حتما بالفائدة على الدارسين، دستور البلدين، وعلى الأخص طرق الانتخاب تختلف عن بعضها تمام الاختلاف. ولكن الإنعمان لمطالب الشعب، وكذلك طرق الانتخاب التى ضمنها الدستور الفرنسى عام ١٧٨٩ وكفلها لأفراد الشعب طبقا لممتلكاتهم هى نفس الحقوق التى ظهرت فى انجلترا عام ١٦٤٢ وتأكدت بعد تعديلات عام ١٨٣٢. الجمعية الوطنية تماثل مجلس العموم، ويضم كليهما الطبقة المثقفة الثرية، من المهنيين أو من التجار الذين تحالفوا مع المجموعة المتنورة من الطبقة الارستقراطية، والتى ساندها - ببعض الشك - مجموعة الصناع المجتهدين. تجمع أولئك الصناع فى مدن بريطانيا الكبرى وفى موانئها البحرية، أماكن التجمع الجماهيرى والاستثمار والتهجين. كانت هذه أماكن تواجد الأطهار الأتقياء فى انجلترا وأماكن تواجد البروتستانت فى فرنسا، ولكن يتضح الخلاف بين المجتمعين بعد حادثة مقتل القديس بارثولوميو. فقد أثار التخلف الفرنسى الدفة وقلب الميزان فى وجه البروتستانت. كانت باريس ما تزال مدينة صغيرة، يقطنها نصف مليون مواطن (أو ما يقارب من ١٠ من سكان فرنسا)، ولكنها اجتذبت الأشخاص الموهوبين فى فرنسا. انتقلت باريس من كونها مدينة تقليدية قديمة وسط البلاد، بعيدة عن البحر، ترفض البروتستانتية، فصارت عاصمة الفكر المتقدم فى جميع أنحاء فرنسا، بل أنحاء أوروبا، وصارت مركزا للبروتستانت وللصناعة والتجارة والنور فى العالم أجمع. كان الانفصال بين البلاط الملكى والعاصمة عاملا فى تحرر البلاط للاغتراف من الملذات، وفى نفس الوقت تحررت العاصمة لتوالد الأفكار وتطويرها؛ وبهذا تمكنت باريس من قيادة الثورة الفرنسية كما تمكنت لندن من قيادة الثورة الإنجليزية، ولكن إلى حد أبعد.

كانت الحكومة فى كل من فرنسا وانجلترا يرأسها ملك مطلق السلطات، تخضت سلطاته حسن تقديره للأمور وحسن استخدامه لتلك السلطات. كان كل ملك متزوجا من امرأة أجنبية وتحيطه عشيقات أجنبيات ولا يتلقى النصح من أى امرأة من بنى جلده ومن بنات وطنه. كان الملكان يختلفان فى سلوكهما وتصرفاتهما بعد ذلك. كان الملك من أسرة ستيوارت (الجالس على العرش الإنجليزى) - على شاكلة أسرته - مقاتلا، وقد خاض الحرب. أما الملك من أسرة البوربون فكان جباناً رعيدياً، وقد حاول الإفلات بجلده من البلاد. فى كلتا الحالتين كان أهالى الريف المتخلفون، غير المثقفين، يساندون الملك ويعارضون الطبقات المثقفة والتجارية والصناعية فى العاصمة والمدن الكبرى. قامت الأقاليم فى شمال غرب فرنسا لمساندة ملكيها، كما قام أهالى الريف فى شمال وغرب انجلترا وحماربا مع تشارلز. توحد الفلاحون وأبناء الطبقة العليا مع رجال الدين فى انجلترا، المعزولون جغرافيا عن الأفراد الجدد والأفكار الحديثة فى تأييدهم لنظام الكنيسة والدولة القديم. وفى فرنسا انعزل هؤلاء الناس عن التزاوج بالفوارق الطبقيّة الشديدة، ظهر البورجوازي الجديد فى المدن

نقري ولكنهم ظلوا متباعدين، يحتقرهم النبلاء، ويحتقرون هم أنفسهم الفلاحين والعمال. كان هناك حارص بين أهل الريف وأهل المدن في فرنسا وأخذ الصراع في الريف منحى مخالفا لطبيعته في المدن وانتهى الأمر بأن خسر عمال الريف ولم يجنوا أى ثمرة من الثورة.

نشأ الخلاف الأكبر بين الثورة الفرنسية والثورة الإنجليزية من تطور الأفكار في السنوات التي مضت بين الثورتين. صار المجتمع على دراية بتركيبته وبمعناه. في كلتا الدولتين كان هناك الفلاح التقليدي الملتزم. في المجتمع الإنجليزي كان هناك عديد من الثوار المتعصبين، لكل منهم معتقداته الدينية المتباينة التي يموت دفاعا عنها، وكان كل معتقد منها مرتبط برؤية سياسية. أما الفرنسيون فقد أرضاهم مصادرة أملاك الكنيسة ولم يكن اعتراضهم كبيرا على رجال الدين. كان اهتمام الفرنسيون بالنظريات الاجتماعية المختلفة وبما بثه فيهم المفكرون الفرنسيون الجدد. لم تتبع تلك الأفكار من دراسة الكتاب المقدس بل من نواتج المعارف ومن الثورة الصناعية ومن العلوم الحديثة ومما استنتجه الفرنسيون من أسس الإصلاح. (بالرغم من أن نشر الكتب المتعارضة مع الدين صار جرما يعاقب عليه بالموت منذ صدور قانون بهذا عام ١٧٥٧، وهي عقوبة رادعة، لم يجسر أحد على تنفيذها).

كان لتطبيق تلك الأسس العقلانية على الثورة أثر شديد البعد على الجميع. عندما حدث الشقاق بين لويس وبين الجمعية الوطنية، وعندما رفع الملوك الأجانب والفلاحين الفرنسيين السلاح دفاعا عن الملك والنظام القديم، ظهرت تحالفات جديدة بين القوى الثائرة. شعرت الحكومة المدنية في باريس بقوتها، لموقعها ولسيطرتها على الأهالي، ولتسليحها لمليشيا دفاعا عن آرائها ومطالبها، ولتصميمها على تحقيق السياسة التي تكفل لها إتمام الثورة الدستورية والاقتصادية. ظهرت معارضة مماثلة في إنجلترا بعد الحرب الأهلية بين البرلمان وبين المدينة في إنجلترا. كان البرلمان وقادة الجيش أقوياء طول ممارستهم للحكم. كانت العائلات - مثل عائلة كرومويل - تدخل كل برلمان لقرن كامل، وتكونت أصغر قروبي قوية بين العائلات بالتزاوج، وكانت شبكة الصلات بينها من القوة بحيث استطاع قائدها أن يفرض إرادته على جميع من انضموا إليه. أما في فرنسا فقد بدأت الجمعية الوطنية والحركة الثورية في تشكيل أحزابها من آراء سياسية لأفراد غير ناشجين تمام النضج السياسي، وغير كاملين التدريب، من بينهم كثير من الانتهازيين مثل ميرابو ولافاييت ودانتون وروبيسير - إناس يجاهدون تحت قوى الغزو الأجنبي والحرب الأهلية والمجاعة والأزمة الاقتصادية. تحت تلك الظروف استولى مواطنو باريس في ١٠ أغسطس ١٧٩٢ على الحكومة في أيديهم.

أهالى باريس هؤلاء كانوا رجالا من ذوى الأملاك، ومفكرين كانوا أعضاء فى المجلس الوطنى، وعدد كبير من الصناع الذين تم إخعاد أصواتهم من قبل ولم يتم تمثيلهم. كانوا عمالا فى الورش، استطاع رفقائهم فى انجلترا العمل فى مصانع كبيرة تدار بالبخار وكانوا يعانون من مشاكل الثورة الصناعية ومتاعبها. بعد سنوات طويلة – تعطلت بسبب الحروب الثورية – كونت هذه الطبقة غالبية طبقة العمال، البروليتاريا الجديدة، ووصلت الأقلية القليلة منها إلى مرتبة المديرين أو ملاك المصانع. كان من بين هؤلاء الأفراد النشطاء، الأنكيا، المقهورين عددا كافيا ليغتنم هذه الفرصة المخفية. عندما حانت تلك الفرصة فى انجلترا بقى أولئك الأفراد فى المراتب الدنيا؛ أما فى فرنسا، فبعد إعلان وثيقة «حقوق الإنسان» صار أولئك الأقسام فخورين بأصلهم المتواضع ونشأتهم الفقيرة واتحدوا سويا وصاروا قوة هائلة. أطلقت قوة العمال من عقالها، نادى «بالحرية والمساواة والإخاء»، النداء الذى صار فيما بعد نداء الثورة الفرنسية ونداء الجمهورية. وهكذا دفع كوميون باريس بتحالفه مع باقى الأندية الراديكالية الثورة إلى ذروتها. (نشأت أندية سياسية مختلفة فى باريس، وكان النادى الذى أطلق صيحة «الحرية والمساواة والإخاء» هو نادى كورديلييه الذى أسسه دانتون ومارات وكاميل دى مولان وأخذ اسمه من مكان لقاء الأخوة الفرانسييسكان، كما أخذ اليعقوبيون اسمهم من ديرهم الدومينيكانى). لم تصل الثورة إلى ذروة واحدة بل تعددت الذرائى. أولها كان استيلاء الجماهير على قصر التويليرى، ثم دُفعت تلك الجماهير الهائجة لقتل الرجال والنساء المسجونين فيه ينتظرون المحاكمة. وثانيها تم عزل الملك ومحاكمته وإعدامه. وثالثها كان انتخاب جمعية وطنية جديدة بالانتخاب المباشر. ورابعها كان تشكيل حكومة مركزية جديدة من اثنا عشر وزيرا وسميت لجنة الأمان القومى. تشكلت الحكومة بتوجيه النادى اليعقوبى، تحت رئاسة روبيسير، الذى أثار الرعب فى جميع أنحاء الدولة بإعداماته التى لم يكن لها حد. حقق بذلك كل الإصلاحات الجذرية التى كانت الجمعية الوطنية قد رفضتها. قررت مبدأ فى النواحي الاقتصادية (والمالية والتجارية). ظلّ الترقى فى ظلّ تلك الحكومة على عهده أيام الملكية ولكن صار الثمن الآن المكاسب التى تحققت مصادرة الأموال والأراضى. كان بيع الأراضى المصادرة من الكنيسة ومن المهاجرين للخارج هو أساس حكم الطبقات الحاكمة الجديدة. صارت الحكومة الجديدة حكومة تعتمد على التملك، وكانت على استعداد للتصالح مع الملكية المنفية فى الخارج (ولكن ليست على استعداد للصلح مع الطبقات العاملة). وهكذا وجدت الدولة الرابعة نفسها وقد هجرها السياسيون الذين صعدوا إلى السلطة على أكتافها. بعد عودته من المنفى – الذى قضى فيه عامين – وجد تاليران – الأسقف النبيل أيام البوربون والدبلوماسى الأمير أيام نابوليون – وجد باريس مدينة للابتهاج والمتعة وقد تحررت من الرعب وسفك الدماء. ولكن بابوف – البروتستانتى السابق والرجل الجاد والاشتراكى الذى حاول أن

يعيد مبادئ روسو وبيديرو – وجد باريس مدينة الفقر والعوز التي حرم أهلها من حق تقرير مستقبلهم، كانت حرية التعبير لممثليها بواسطة حكومة أتقنت تكميم الأفواه وكبت الحريات واكتسبت المهارة في استغلال المواطنين، وخاصة العمال اليدين أكثر مما برعت فيه الملكية السابقة. كان بابوف وأعدائه قد أعدوا «مانيفستو المتساويين» وأدمجوا فيه نظريات روسو وشعارات النوادى المختلفة، واتخوه إنجيلهم. وتأمروا لقلب نظام الحكم فى الوقت الذى لاحت فيه أن آمال المواطنين فى جانبهم – فى حين كانت توقعاتهم تعمل ضدهم. تم القبض على بابوف وأعدائه وحكموا وتم إعدامهم بواسطة الحكام الدكتاتوريين الجدد. منعت خطبهم وضاعت كتاباتهم حتى عام ١٨٨٤ عندما تم الكشف عنها من جديد بعد قرن من الثورات.

بعد هذا القرن الممتلى بالاضطرابات بدأ تحول بريطانيا بعيدا عن أوروبا يأخذ شكلا أكثر حدة. تغير المجتمع فى بريطانيا وتغيرت الحكومة بالإصلاحات المتتالية – التى تمت غالبا تحت تأثير حروب خارجية. أما فى أوروبا فقد تغيرت المجتمعات والحكومات تحت تأثير ثورات وحروب أهلية.

أعطت الثورة الصناعية فى إنجلترا ملاك الصناعات الجديدة – والمتطفلون وراء تلك الصناعات والذين يزداد عددهم يوما بعد يوم – فرصة ذهبية للإثراء السريع من استغلال جهد العمال. تضاعف عدد سكان بريطانيا – للمرة الأولى فى التاريخ – خلال القرن الثامن عشر، فارتفع عدد السكان من ثمانية ملايين إلى خمسة عشر مليونا. ترجع الزيادة فى عدد السكان أولا إلى انعدام الغزو الخارجى الذى أحدث دمارا عظيما فى سائر بلدان أوروبا، وثانيا إلى زيادة إنتاج المزارع البريطانية من جراء زراعة اللقت لتغذية الغنم فى إنجلترا وزراعة البطاطس كغذاء للإنسان فى أيرلندا، ولتحسين تربية الماشية. ترجع كل تلك التحسينات إلى جهود فلاحين مهرة: كوك وتاونشند فى نورفوك، وبيكويل فى ليستر وكولنجز فى درهام. وثالثا وفرت الصناعات الجديدة فرص عمل لكثير من الناس وأخيرا تحسنت الصحة العامة للمواطنين. فابتداء من عام ١٧٦٢ بدأت قوانين الحكومات المحلية تحتم إدخال المياه الصالحة للشرب ونظم الصرف الصحى فى مختلف المدن والأقاليم، ثم توصل جينر إلى لقاح الجدري عام ١٧٩٦ ثم حدث الاضطراب العظيم الذى أثاره سوثود سميث وإدوين تشادويك التى أحدث مستوى جديدا من النظافة ومن مبادئ الصحة العامة فى البلدان المسيحية، مستوى أقرته المبادئ الإسلامية منذ ألف عام، وكان تطبيقه شريعة متبعة فى جميع البلدان المسلمة. بعد عام ١٨٤٠ لم يحدث أى وباء كاسح للكوليرا فى إنجلترا وبدأ السكان يتزايدون بسرعة. وكان هذا التزايد السريع للسكان هو ما أتاح الفرصة لاستغلال العمالة الرخيصة فى البلدان التى كانت الصناعة تنمو فيها وتزدهر.

أتاح وجود حكومة برلمانية فى بريطانيا الفرصة لمزيد من الإصلاح، وتحسين طرق الانتخاب وتمثيل المواطنين التمثيل الأمثل. حدثت الأزمة الكبرى فى بريطانيا بعد فقدان ثقة الطبقات العاملة فى نتائج قوانين الإصلاح فى عام ١٨٣٢. فقد أدت زيادة عدد الناخبين إلى زيادة فى أعداد الطبقات الوسطى وجاء مجلس العموم الجديد الموسع صورة طبق الأصل من مجلس العموم القديم ولا يختلف كثيرا عن مجلس اللوردات الذى أتم بيت توسيعه. أخذ المحتجون فى كتابة العرائض والالتماسات التى تطالب بقانون يفتح الباب لجميع المواطنين بالاقتراع، وقدمت تلك الالتماسات فى اجتماعات عامة أخذت تعقد فى البلاد فى أيام الأزمات الكبرى بين عامى ١٨٣٧ و١٨٤٨. بدأت حركة نقابات العمال الناجحة عام ١٨٤٢، فصدر قانون القمح الأول عام ١٨٤٦، وأول قانون للمصانع عام ١٨٤٧ والذى قضى بتخفيض ساعات العمل إلى عشر ساعات، وكان كل ذلك من أثر الاضطراب الذى أحدثته حركة «تشايسست» والتى ساعدت على إخماد ذلك الاضطراب بتوذه. تبع ذلك صدور قوانين متتالية للإصلاحات فى التعليم والتى مهدت لإدخال الإصلاحات الاجتماعية فى مجالات عدة. انخرفت هذه التغييرات كلها بجهود المصلحين المتعلمين بعيدا عن المسالك الثورية، كما استبعدت من الطبقات العاملة أقدروهم على قيادة الحركات الثورية – وما زالت هذه العملية مستمرة إلى الآن. وهكذا أدى النقاش إلى تجنب الثورة وإقرار الإصلاحات اللازمة خلال قرن كامل من المحاولات التى لم يشبها إلا القليل من الأخطاء.

صاحب تلك الإصلاحات فى بريطانيا إصلاحات مماثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى سويسرا، وفى بلدان أخرى، وكانت هذه الإصلاحات تعتمد على حرية النقاش، التى لم يكن يحدها إلا اعتبارات اقتصادية. وفى البلدان الديمقراطية كانت حرية الاعتراض مكفولة لمن لا يمانعون فى أن يجوعوا. أما فى ألمانيا وروسيا وكافة البلاد الكاثوليكية فى أوروبا فكانت الشرطة – بأجراءاتها – تحرم حتى تلك الحرية. ولهذا كانت إنجلترا، ولندن بالذات محطاً لكافة اللاجئيين من أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وكانوا يعدون فيها مخططاتهم لقيام الثورات فى بلادهم. وقد هؤلاء الرجال من بين الطبقات المثقفة أو من ذوى الأملك أو من المهنيين، وكان غالبيتهم من الفئات التى حرمت من حرية التعبير عن آرائها لاعتبارات قومية أو عنصرية أو دينية: كالأيرلنديين فى بريطانيا أو البولنديين فى روسيا أو اليهود فى ألمانيا ثم فى روسيا أو أبناء السفاح (مثل همزن) فى أى مكان. ناقش المفكرون – فى القرن الثامن عشر – تركيبة المجتمع، بدون دراسة منتظمة للثورات التى أحدثت التغيير. كما تصرف الثوريون من أنفسهم بدون أن يتأملوا فى أفكار المفكرين أو يتعمقوا فى أقوالهم. ربما يكون انشغال توم باين مؤلف كتاب «حقوق الإنسان» بعمله كوزير لخارجية الولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتقاله فيما بعد إلى باريس، أول مظاهر الوحدة بين النظرية والتطبيق العملى. وقد تصاعد هذا الاتحاد بين أفكار المفكرين وثورية الثوريين فى كارل ماركس (١٨١٩-١٨٨٢).

من بين جميع ثوريي القرن التاسع عشر بيرز كارل ماركس كفكر كشف شيئاً جديداً من المجتمع، واستخدم كشفه هذا لتغيير المجتمع. كارل ماركس هو ابن لمثقف يهودى من أسرة من الأحرار، وكانت أمه من طائفة اليهود السفارديم. اعتنق أبوه المسيحية – ككثير من أقرانه ليفر من القيود التي فرضتها حكومة بروسيا على اليهود عام ١٨١٥ – عندما حلت محل الحكم الفرنسى. كان الصبى كارل ماركس يرفض الاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون كما تعرض له اليهود فى هذه الدولة البوليسية الجديدة التى لا يحد تصرفاتها برلمان أو قضاء. هرب أولاً إلى فرنسا ثم إلى إنجلترا، ومكث هناك أربعين عاماً. خلال تلك الأعوام كلها التصق بفردريك إنجلز – الذى يتحدر من أصل هيوغينوتى – وابن أحد ثروة الألمان من أصحاب مصانع القطن ووريثه. وضع كارل ماركس وفردريك إنجلز سوياً البيان الأول المسمى «المانيفستو الشيوعى» والذى بدأ توزيعه سرا فى فبراير ١٨٤٨. يبدأ البيان بعبارة مزللة «إن تاريخ المجتمعات المتواجدة كلها هو تاريخ صراع الطبقات». ثم يستمر ليتنبأ بأن أحوال الطبقة العاملة تسير حثيثاً من سيئ إلى أسوأ، وينتهى البيان بالنداء إلى عمال الدول جميعاً «اتحدوا». كان هذا نداء لبدء معركة وبداية ثورة، واستمر منذ ذلك الحين، يدعو لقيام الثورات، فى كافة البلدان، بقدر محدود أو كبير من النجاح.

افتراض كارل ماركس أولاً أن المجتمع يتغير منذ أن بدأ، وأن التغيير يحمل فى الأمد البعيد التطور والتقدم، وإن هذا التطور مستحب ولا بد من حدوثه. لم يؤخذ هذا الرأى من تتبع التاريخ ولكن من تفسير هيجيل للتاريخ. يتسق هذا التفسير لحد بعيد من مزاج القرن التاسع عشر وقد أطلق هربرت سبنسر لفظ «التطور» عام ١٨٦٣ على كل ما كان يحدث حينئذ. وقد تقبل فى هذا الزمان أن التطور يعنى التغيير – سواء أكان تغيراً إلى الأفضل أم إلى الأسوأ. كان ثانى افتراض لكارل ماركس أن الإقطاعيين (بكل عيوبهم ومساوئهم) سيتم طرحهم وإزالتهم ليحل محلهم طبقة من أتباعهم ليكونوا المجتمع الرأسمالى، وأن هذا المجتمع الرأسمالى بكل شروره ينبغى إزالته ليحل محله مجتمعاً آخر جديداً، هو مجتمع الطبقة العاملة أو مجتمع البروليتاريا. سيبدأ هذا المجتمع الجديد «بنكثاتورية البروليتاريا» ولكنه مجتمع تنوب فيه الفوارق بين الطبقات وتختفى فيه الدولة ونصل إلى المجتمع المثالى بنهاية الألف سنة التى نعيش فيها حالياً.

من الواضح أن النظام الرأسمالى، وأن الثورتين العلمية والصناعية جاءت كلها نتيجة جهد أفراد: من اختراعات المخترعين، ومن كشوف المستكشفين، ومن تجديد المجددين. تزاول هؤلاء الأفراد مع الطبقات الحاكمة ونشأت من هذه الزيجات الطبقات الجديدة فى المجتمع، والتي استفادت من تلك التجديدات. صار أفراد هذه الطبقات الجديدة مالكي الممتلكات وسيطروا على المجتمعات

التي كان الفضل لأجدادهم (أو أجداد بعضهم) فى خلقها. ماذا فعلت البروليتاريا لتطور المجتمع وتجعله أكثر ازدهاراً، وماذا كان فضلها، وأى حق لها أن تطالب بالحكم! لقد فعلت البروليتاريا أقل القليل لتحسين ظروف المجتمع. يسود الاستقرار فى المجتمعات إذا كانت غالبية أفرادها من النوع المسالم الذى لا يطيب له التغيير، وينبثق التغيير من قبل أفراد مثل ماركس وإنجلز نوى الرؤية الثاقبة. يبرز هؤلاء الأفراد من بين كافة طبقات المجتمع، خاصة من تهجن الطبقات أو الأجناس - سواء كان شرعياً أو غير شرعياً. لم تكن البروليتاريا تصغى لتفسير ماركس عن نورهم الذين عليهم أن يلعبوه. كانوا منشغلين بمشاكلهم وبحياتهم اليومية أصغى للكلام كارل ماركس وفردريك إنجلز مجموعة صغيرة من الثوريين، إناس تم نفيهم من نوى الأملك ومن المثقفين، من تلك البلاد التي تسلط فيها الأرستقراطيون وحكموا البلاد بالطغيان والإرهاب ولم يتيحوا لأنفسهم الفرصة لسماع أى قول آخر أو الإصغاء لأى رأى مخالف، أى للإمبراطوريات الألمانية والنمساوية والروسية. فى تلك البلدان ترعرعت البذور التي زرعها كارل ماركس. أدرك هؤلاء الرجال الثوريين أنه لنجاح ثوراتهم ينبغى أن توجه لمصلحة البروليتاريا وبمساعدة البروليتاريا ومعاونتها.

نشأ التساؤل عن تساوى البشر أول ما نشأ فى الكتب المقدسة فقد ذكر العهد القديم بصراحة أن البشر غير متساويين، فى حين أن الإنجيل ذكر أن البشر يتساوون. وفى أقوال الرسول الكريم محمد أن الناس سواسية كأسنان المشط وألا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى وفى القرن الثامن عشر بدأ الإنسان يتفكر بالبدية والعقل، وجاء العلم بالدليل، أو من آثار هذه النقطة كان بروتستانتيا جاء من فرنسا، وأعلن رأيه فى مدينة جنيف الحرة، جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨). فتح روسو هذا الموضوع فى نقاش أثاره عام ١٧٥٣ عن أصل المساواة الإنسانية. كان قوله أن البشر بدأوا من مساواة مبدئية وانتهوا بعدم التساوى فى الحضارات التي وصلوا إليها. جاء عدم التساوى من عدم تساوى الظروف التي مر بها الإنسان بين مجتمع وآخر أو من تحكم الإنسان فى اختيار نسله (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)، عدم التساوى بين البشر من توارث الصفات المكتسبة. حدث هذا فى المجتمعات المختلفة وفى القبائل المختلفة. فى كل قبيلة (أو مجتمع) وجدت فروق، كما وجدت الفروق بين القبائل والمجتمعات، وهذه الفروق هي التي تسببت فى الفروق بين مختلف الحضارات والتي أدت إلى اختلاف تطورها عن بعضها البعض. لم يستطع روسو فى ذلك الوقت (كما لم يستطع بوفون الذى اعتمد عليه روسو فى نظرياته العلمية) أن يدركوا تفسير ما وصلوا إليه فى استنتاجاتهما ولذا عمد روسو إلى فروق فى البيئة أو فى التعليم. وهكذا أرجع روسو الفوارق بين المجتمعات والأجناس لى اختلافات أساسية نشأت بينها منذ بدء الخليقة ولكن أثرت فيها عوامل بيئية وثقافية من أثر لروف خارجية، زادها أو قلل منها استخدامها أو عدم استخدامها تبعاً لإرادة البشر. وهكذا كان اعتقاد السائد الذى آمن به الجميع بدون أى دليل علمى عليه.

منذ عهد روسو تكررت كتابات الفلاسفة وكتاب التاريخ والعلوم الاجتماعية، يؤكدون هذا الرأي ويدافعون عنه ويثبتونه في أذهان الناس. صار هذا معتقدا ثابتا لدى هؤلاء الكتاب، لا يحتاج إلى قرائن أو أدلة علمية. على رأس هؤلاء لامارك - وقد شجعت الثورة الفرنسية - وطبقه في الدراسات البيولوجية، ومن بعده طبقه هربرت سبنسر وبرجسون وآخرون، طبقوه في الدراسات الاجتماعية. حتى تشارلز داروين، الذي أراد أن يبنى نظريته العلمية في التطور والارتقاء، على أسس علمية محض، انزلق إلى الرأي المألوف بجانب نظريته العلمية القائمة على الاختيار الطبيعي. ولذا فقد ترك داروين قراءه لا يدرون أين يقف ولا يعلمون مسار الطبيعة. وعلى هذا فعندما أهدى كارل ماركس كتابه «رأس المال» في عام ١٨٦٧ إلى داروين لم يكن يحتاج أن يكون أكثر دقة أو أشد تحديدا من داروين نفسه.

كان من السهل الاعتقاد بأن الطبقات الاجتماعية تباعدت عن بعضها البعض بسبب تباعد أنشطتها، وأن هذا التباعد يتزايد باستمرار كما كان يتخيل روسو. وعندما اتفق لامارك وداروين وميجيل وسبنسر جميعا على نظرية واحدة تفسر تطور كافة المخلوقات والأجناس والشعوب والطبقات، أن أحدا منها لم يخلق ولكنها تباعدت من أصل واحد بفعل أنشطة داخلية وظروف خارجية، المناخ والتربة، إرادة الإنسان وهدف الطبيعة، تكاثفت جميعا لتحرك العملية إلى الأمام، وكان التطور حتميا ولا يمكن مقاومته وعضويا. لذا كان من الطبيعي أن يدعى ماركس وإنجلز أن العملية فوق القوانين العلمية الطبيعية وأنها صادقة وأن صدقها محتم.

كتب ماركس عام ١٨٦٦ إلى إنجلز بقبول نظرية تريمو قائلا «إن آراء هذا الرجل أكثر تقدما من آراء داروين، فقد قال أن الأبحاث الجيولوجية قد أثبتت أن الصقالبية يعود أصلهم إلى التتار أو المغول، وأن الزنوج انحدروا من أصل أكثر تقدما» بالنسبة لماركس هناك أجناس وضيعة تم تطورها مباشرة بناء على نظرية لامارك ولم يكن تطورها غير مباشر وانتقائيا، طبقا لنظرية داروين. كانت قوانين البيولوجيا التي حددت تطور المجتمعات - في رأي ماركس - بسيطة ومباشرة ومحتمة بحكم التاريخ ولذا فلنكن معها، ولا نعاكسها أو نقف ضدها. فكل ما نستطيع فعله هو أن نسارع بحدوثها أو نعطل تقدمها. ولا يمكن للفرد، مهما كان بسيطا أو عظيما، إلا أن يشارك في هذا الاتجاه الجديد الذي سيكون حتما نهاية للألف سنة التي نعيشها.

قبل أن نفحص الاستخدام السياسي لنظرية كارل ماركس والوعود التي أتت بها للمساواة بين بنى البشر كعلاج لاختلافاتهم الاجتماعية، بدكتاتورية البروليتاريا بديلا عن سيادة الشعوب فلنرجع إلى القرائن العلمية التي توصلنا إليها. أولا الوراثة شئ صلب، جامد، ثابت، له أصول كيميائية وبيولوجية محددة وظاهرة تظهر في الكروموزومات (الصبغيات) التي كشف عنها العلم في المائة سنة

الأخيرة، وأدرك أسرارها، منذ أن كتب كارل ماركس كتابه «رأس المال» ومنذ أن كتب جالتون كتابه «العبقرية الوراثية» ولا بد أن تلعب الوراثة، بقدر ما تلعب الثروة دورها في تفسير أحداث التطور التاريخي. ثانيا فقد شاهدنا مرارا أن الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة، في توأدها الداخلى أو توأدها الخارجى، كثيرا ما نشأت من فروق متوارثة تكيفت أو نشأت وتطورت من الانتقاء الطبيعى أو الهجرة المنتقاة، وهكذا. تعود الفروق الطبقيّة في النهاية إلى فروق متوارثة. وعدم تساوى البشر هو الذى يدفع إلى التقدم فى المجتمع وليس تقدم المجتمعات هو الذى يدفع لعدم المساواة. ثالثا نلاحظ أن تفرد الأفراد يعود إلى اختلاف فى التركيب الجينى (الوراثى)، وهذا التفرد يتفاعل باستمرار مع المتغيرات ليحدث آثارا غير متوقعة تتزايد باستمرار ولا تقل بمرور الزمن. قرار الاسكندر الأكبر ليتجه شرقا، وقرار يوليوس قيصر ليتجه شمالا وقرار كرستوفر كولمبوس ليتجه غربا، مستمر فى أبنائهم وذراريهم وله آثاره العميقة فى العالم من حولنا. لم تغير هذه القرارات سرعة التغير فى التاريخ ولكنها أحدثت تغيرا فى مسار التاريخ واتجاهه كما غير كارل ماركس مسار التاريخ ولكن ليس للاتجاه الذى توقع أن يغيره.

كان كارل ماركس مخطئا فى آرائه الأساسية بنون داع. أشار علماء الاقتصاد الذين سبقوه - مثل آدم سميث - والذين جاؤا بعده - مثل ماينارد كينز، أهمية العامل الفردى والدافعية الفردية للانجاز كتب آدم سميث فى كتابه «ثروة الأمم» عام ١٧٧٦ ما يلى «ادفع بابنك ليكون صبيا لصانع أحذية، فيصير صانعا للأحذية. أما إذا دفعته ليتعلم القانون فلن يصير قانونيا بارعا إلا بنسبة ٢٠:١. غالبية من يتعلمون مهنة ما يصيرون من نوى الكفاة المتوسطة، ولا يبيع منهم ويصير عبقرى إلا أقل القليل». ولكن تحقق شئ مما جاء فى تقدير ماركس، الصراع الطبقي. تعتمد كافة المجتمعات الطبقيّة على الاعتماد المتبادل لكافة الطبقات، والتعاون بينها هو الذى يضمن استمرار تلك المجتمعات. التعاون لازم أيضا فى كافة مرافق الحياة: داخل العائلة وداخل القبيلة وداخل الوطن الواحد. ولكن نشاط الأفراد يثير الخلافات ويثير المنافسة، وجدت الكائنات الحية فى المملكة الحيوانية ولدى البشر حلولا لهذه الخلافات، بديلا عن الصراع حتى الموت. اختلفت الحلول الوسط من تقييد النسل للحد من عدد الأفراد، إلى التهديد والوعيد الذى يقابله الانسحاب والتقهقر بديلا عن الصراع. كل ما يجب أن يفهمه الناس أن الحلول الوسط جاءت لتحل محل الناب والظفر، وأن الصراع بين الطبقات أو الأجناس أو الشعوب لا يحل المشكلات. ينبغى على كل بنى البشر أن يلجأوا إلى حل خلافاتهم بالتسامح والتراضى والتنازل، وأن يغلبوا مصلحة الكل على الاندفاع للاستيلاء على كل شئ، وأن فائدة المجموع هى فى النهاية فائدة لكل الأفراد. أسس المعاملة هذه لازمة للتعامل بين «أفراد العائلة وبين طبقات المجتمع». كلما حدث توأد خارجى بين مختلف

الطبقات كلما حدث تقارب فى الصفات الجسدية والعقلية والوجدانية بين أفراد المجتمع. فيصير الأفراد متشابهون - وإن لم يصبحوا متماثلين، ويصير الاختلاف مستبعدا ومؤقتا. أما إذا توقف التوالد بين مختلف الطبقات فيصير التعالى هو طابع الطبقات المحظوظة، وسيزداد هذا التعالى فى جيل بعد جيل ويتزايد الإجحاف والضرر والتحامل وتتضاعف الخصومة والتنافر بين الطبقات. وحينئذ تبدأ الطبقة المميزة فى الاستغلال. شجبت كل الأديان السماوية هذا الاستغلال ولكنها أيضا طالبت الطبقة التى تم استغلالها بالتحمل والصبر وإعطاء ما نقيصر لقيصر. وقد فشلت كنانيس القرنين الأخيرين، فى ملاقة الأزمة التى نشأت بعد الثورة الصناعية من الاستعباد الصناعى - كما فشلت من قبل فى مقابلة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان وفى محاربة تجارة الرقيق. تم شراء ذمم رجال الدين الرسميين وصاروا مخادعين محتالين. صار الدين الوسيلة لإخفاء أو تبرير أو تنفيذ ظلم واضطهاد الطبقات الحاكمة، وصار الدين - كما وصفه ماركس وإنجلز - أفيون الشعوب، ودعوا لأن يعامل الشعب حكامه - ليس كأخوة فى الدين - بل كأى أعداء فى الحرب يستغلونهم، وليس هناك موضع للصالح معهم، لم يكن لدى العمال - الصناعيون فى أوروبا الغربية والذين يعيشون فى المدن، والزراعيين فى روسيا والذين يعيشون فى الريف - أى فكرة عن الطريقة التى يدمرون بها مستقليهم، ولا كيف سيتصرفون بعد تدميرهم. شعروا بأنهم عالة وتابعين لغيرهم وكانوا فى حاجة إلى قادة من طبقة أخرى، جاء هؤلاء القادة فى أوروبا الغربية - بالاختيار التدريجى من داخل ومن خارج نقابات العمال، وكان يمكنهم المجئ عن نفس هذا الطريق - ببطء أكثر - فى روسيا. ولكنهم فى روسيا أخذوا مسارا مختلفا، نابعا من فلسفة ماركس ومن تعاليمه. وكان الرجال الذين خططوا لقيادة الثورة الروسية ممن ألهموا بهذه الأفكار وألهبوا بها.

ثانيا: شرق أوروبا

ينحدر سكان روسيا من عناصر مختلفة، كاختلاف الأجناس التي انحدر منها سكان أوروبا الغربية. غزا روسيا أقوام من الرحل: الفنلنديون من صائدى السمك ومن المشتغلين بصيد الحيوانات وقتنصها، واللابلانديون من الرعاة من سكان التندرة القاطنين بالقطب الشمالى، والإريان من رعاة البقر، والحرفيون وزارعو الأرض الآتين مع القوافل، ومن عبروا روسيا فى طريقهم إلى السويد، والسكيثيون من راكبي الخيول، والمغول الذين اكتسحوا السهول الجنوبية يبحثون عن مستقر مناسب لهم، وأخيرا أقوام من بناء السفن استعمروا البلاد وتجار استقروا على ضفاف الأنهار، والإغريق الذين أتوا من البحر الأسود ثم أهل الشمال الآتين من بحر البلطيق.

أعطى المستعمرون من الفايكنج والفارانجيون والروتسى - مالكو العبيد وقادة الحرب - الذين تحدثوا باللغة الروسية - اسمهم الأجنبى للغة وللبلد الذى قطنوا فيه. بنوا قلعا حصينة للتجارة - التى سميت بالكرملين فى العصور التالية - فى أنحاء البلاد، حيث صارت أساسا لإماراتهم. نصب روريك نفسه أولا أميرا لنوفجورود (٨٦٢-٨٧٩)، ثم تحرك خلفاؤه جنوبا إلى كييف حيث قابلوا تجارا وصناعا من الإغريق وكهنة منهم. وقع فلاد يعير فى عشق قوة بيزنطة وجمالها. اعتنق المسيحية ٩٨٩ ليتزوج من الأميرة آنا، وخلفه ابنه ياروسلاف (١٠١٩-١٠٥٤)، الذى استطاع أن يزوج بناته من أمراء من البيت المالك النرويجى والفرنسى. بدأ الحرفيون والتجار يشقون طريقهم إلى روسيا من الدول المسيحية فى الغرب وفى الشرق: من موانى بحر البلطيق من الهانزا، ومن موانى البحر الأسود من الإغريق، ولكن الكنيسة المسيحية الشرقية والأبجدية الهيلينستية هى التى فرضت نفسها فى النهاية على روسيا.

كانت هذه هى الفرصة الرائعة للاتصال والتهجين بين الإغريق والهمج على أرض روسيا، واستمرت حوالى مئتى عام، ثم شطرت إريا إريا وإلى الأبد بغزو التتار فى عام ١٢٣٦. غزا التتار روسيا، استمرارا لغزوات جنكيز خان وفتوحاته التى بدأت فى الجيل السابق. انتشر التتار فى أحواض أنهار الفولجا والدون والدينير، ووصلوا باختراقهم إلى بولندا وإلى المجر طاردين التجار من

تلك البلاد. فى نفس الوقت قطع فيه الغزاة عن روسيا الهجرات الإغريقية إليها. اعتنقوا الإسلام وهكذا أضيف الحائل الدينى إلى العائق السياسى.

فى القرون الثلاثة التالية تمكن الأمراء البولنديون والروس من دفع التتار إلى الخلف، وحدث تهجين آخر على الحدود القتالية. نشأت طبقة جديدة من الحكام حول موسكو توالدت مع التتار، كما تهجن معهم الفلاحون. ولكن عندما حصل الروس نهائيا على استقلالهم من التتار عام ١٤٧٢ فإننا نجد أن حاكمهم إيفان الثالث يتزوج من صوفيا باليولوجيا آخر أفراد الأسرة المالكة فى الإمبراطورية البيزنطية. خرجت روسيا الجديدة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد صراعها الطويل مع التتار وقد تغيرت صفاتها من حيث الأجناس وتغيرت تركيبها الاجتماعية. بقيت إمارة موسكو وتزايدت قوتها بزيادة سلطان قادتها وصار أمراؤها يخضعون نبالها ويحومونهم فى نفس الوقت، وصار هؤلاء النبلاء - بيورهم - سادة وحماة فلاحهم. صارت الظروف مشابهة لنظام الإقطاع فى أوروبا الغربية. ولكن كان النظام الإقطاعى فى روسيا أشد منه فى بلدان أوروبا الغربية، فقد كان جيروت الإقطاعى وسلطانه ووحشيته أشد وطنا منه فى الغرب، وكانت المدن الروسية أقل عددا وأكثر تباعدا عن بعضها من مثيلاتها فى الغرب، مما جعل هروب الفلاحين من أرض الإقطاعى إلى المدن أشد استحالة. ظهر الوسطاء فى المجتمع فى فترة متأخرة (الوسطاء بين الإقطاعى مالك كل شئ وبين فلاحه) وكانت غالبيتهم من اليهود (كما وصفهم إسحاق بابل). الوسطاء الوحيدون - قبل هذا العهد - الذين عرفتهم روسيا ظهروا فى القرن السادس عشر تحت حكم إيفان الرهيب والذين كانوا يستدرجون النبلاء ويضطهدونهم، والذين ظهروا فى القرن السابع عشر تحت حكم ألكسيس وهم المستشارون السريون الذين كانوا يخترقون صفوف النبلاء ليكشفوا عن مؤامراتهم وخططهم ولعل هؤلاء كانوا الباكورة الأولى لنظم الشرطة السرية الذين يتكونون من مجموعة من الجواسيس والمبلغين لحماية الحاكم وفرض السيطرة على روسيا فى عهد القيصرية.

استعادت روسيا قوتها الجديدة بعد ارتباطها بالمسيحية الغربية وصارت ملتقى تيارين عظيمين من الهجرة. أولهما كان الهجرة إلى الشرق، حيث تم الاستيطان فى سيبيريا. فقد استوطن فيها جماعة من الصيادين والتجار من أمام حكم إيفان الرهيب. تهجن المستوطنون الأوائل - وهم بعيدون عن أوطانهم وقوتهم - من السكان الأصليين لسيبيريا قبائل الياكوتس، وأعادوا بذلك نفس ما سبق حدوثه فى أوروبا الغربية منذ ٤٠٠٠ عام، ونشأ من هذا التهجين شعب أكثر ذكاء - بالمعايير الحضارية. جاءت الموجة الثانية من الهجرة إلى الشرق من مجموعات من الحرفيين والجنود. ولكن منع الحكام غالبية أهالى موسكو - كما يمنعونهم إلى اليوم - من مغادرة البلاد دون إذن، وإذا أخذوا لهم بالمغادرة احتفظوا بزجاتهم كرهائن حتى عودة أزواجهم. بالتدريج ارتفع شأن الكرملين وتسييد على المدينة خلال ثلاثمائة عام. تم تشييد الكرملين بأيد الأجنب: فجدرائه من تصميم قوراقتى

وماركو روفوا الإيطاليان فى ١٤٨٥-١٤٩١، وبرجه الذى يعلو بوابة سباسكى من عمل كريستوفر جالواى الاسكتلندى عام ١٦٢٥. خارج الكرملين تتكون المدينة من حى أوروبى وحى صينى كانت هجرة الأجانب - كالعهد بها دائما - تقام من الشعب ويشجعها الحاكمون. وفى نفس العام عام ١٦٩٠، لجأ كاثوليك من اسكتلندة وبروتستانت من فرنسا، ولجأ آخرون من بلاد متحاربة كثيرة، وكانوا يجدون الملجأ والملاذ فى موسكو التى رحبت بالجميع، ووصلت الحفاوة إلى ذروتها تحت حكم بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥).

كان القيصر الأول من أسرة رومانوف - القيصر مايكل - أحد أبناء إخوة إيفان الرهيب. وكان يحكم بمشورة والده - بطريك موسكو - ونُصحه. كان القيصر الثانى من أسرة رومانوف هو القيصر ألكسيس، وكان يحكم مع أخذ مشورة نبلائه. كان لهذا القيصر أبناء عدة ليس منهم ذكر، ولكنه رزق من زوجة أحد النبلاء النترين (ناتاليا ناريشكيننا) بولد جمع فى نفسه خصال العديد من أسلافه وتولى حكم الإمبراطورية الروسية بنفسه ولم يكن بحاجة لمشورة من أحد. حكم بطرس روسيا وغيرها وأحدث تغييرا جذريا، بدأت روسيا تصير دولة أوروبية ببطء قبل حكم بطرس، واستمرت تتحول ببطء بعده على مدى بعيد، ولكن بطرس عمل على تحقيق هذا الهدف بكل ما وسعه من قوة وتدابير وحكمة وحنكة، وحول روسيا إلى دولة عظيمة. كرس جهوده لبناء السفن والبحر. لم يكن هناك شئ فى محيطه ولا فى تعليمه ولا فى أسلافه يوحى إليه بأنها هى مستقبل روسيا ولكنه كرس حياته لها، وكان من طبعه أن يتفانى فيما يهدف لتحقيقه. فى سبيلها سافر إلى هولندا وسافر إلى إنجلترا ليتعلم أصول الصنعة، ويعد السيطرة عليها هاجم السويد وهاجم الترك ولم يكتف بالضحايا الأيسر، البولنديين. ولهذا السبب أيضا أنشأ مدينة بطرسبرج فى المستنقعات على مصب نهر النيفا وجعلها عاصمة له، ميناء بحريا يحميها أسطول يقوده فنلنديون من الأراضى الجديدة التى ضمها. كان إنشاء بطرسبرج رمزا أن روسيا قد شابهت بلاد غرب أوروبا فى ثقافتها وفى التقدم التقنى، ولكنها كانت تعنى فى حقيقتها الوسيلة التى تحولت بها روسيا إلى إمبراطورية عظيمة يحكمها قياصرة عظام. تركز المجتمع الروسى الجديد فى أوتوقراطية صارت مثلاً من الانتضباط أو المعارضة التى يبديها النبلاء والإقطاعيون ملاك الأراضى الشاسعة. كانت أوتوقراطية دائمة التزاوج مع الأجانب، خاصة مع العائلات الملكية فى أوروبا البروتستانتية، وقطعت نفسها تماما من الاختلاط بقومها فى روسيا، حتى مع نبلاء البلاد. ظل اتصال الأسرة الإمبراطورية الروسية مع البارونات الألمان فى أقاليم بحر البلطيق التى أدمجها بطرس فى إمبراطوريته وابتلعها، والتى كانت مصالحهم مع الموظفين الألمان. وقد حضر هؤلاء فى القرون التالية إلى البلاد ودخلوا فى خدمة حكومة القيصر. كل ما كانت تفعله إدارة الحكومة كان يتم بطريقة همجية وبوحشية شديدة وإلا لما تمكنت من البقاء فى أمة مضطربة ذات أبعاد متناهية. بهذه الطريقة تمكنت حكومة القيصر من الوصول إلى حدود الهند والصين،

ويعبرها مضيق بيرنج وصلت إلى ألاسكا وإلى كاليفورنيا، وصلت الحكومة الروسية أيضا إلى بلاد
الفرس، ولكنها تبينت بعد عشر سنين (١٧٢٣-١٧٣٢) أن البلد موبوء بالأمراض ولا يمكن لوحشية
نظام الحكم أن يتعايش معها، فتم انسحابه بمنتهى الحكمة. هكذا تكونت إمبراطورية شاسعة،
متعددة الأجناس، لا يربطها جميعا إلا تمحورها تحت حكم القيصر، تسودها طبقة تتحدث باللغة
الروسية. يخضع هؤلاء السادة لأوامر وتعليمات موظفي القيصر الذين وزعهم في مختلف الأقاليم
ليضمنوا له حكومة شديدة تحكم بالحديد والنار. كانت حكومة البلاد حكومة جامدة تتبع الثقافات
الغريبة وتثير الكراهية بين الناس، الذين كانوا - لولا كراهيتهم النظام القاسى المتسلط، سيتبعون
تقاليد الغرب الاجتماعية والسياسية. فى سبيله لتقريب روسيا اتبع بطرس وسيلتان، اتبعهما الحكام
المتسلطون منذ العصر البرونزى: بعث الروس إلى الغرب للتعلم، واستقدام الخبراء الغربيين من
الصناع والحرفيين والمثقفين للتعليم والعمل والمعيشة فى روسيا. لم ينجح تعليم الروس وتقريبهم
خارج البلاد ولكن النجاح الأكبر تبع استقدام الخبراء الأجانب إلى روسيا وتهجيرهم إليها، وكان هذا
هو العامل الأكبر فى حدوث التقدم المستمر والدائم فى المجتمع الروسى. استقدم بطرس
خبراء الطباعة وصهر المعان من هولندا وبناء السفن من إنجلترا ومهندسين من النمسا وجنود
ومفكرين من اسكتلندة ومهندسين معماريين من إيطاليا. حضر هؤلاء جميعا إلى روسيا وتزوجوا من
نساء روسيات ونشأت بذلك طبقة متوسطة أخذت فى النمو باطراد. كذلك رفضت غالبية أسرى
الحرب المائة ألف من السويد العودة إلى وطنهم بعد توقيع معاهدة نيستاد عام ١٧٢١ وقضوا
الإقامة فى روسيا بعد أن تبينوا الفرص العظيمة السانحة التى تقدمها روسيا الجديدة لهم لما
يتمتعوا به من مهارة ومن ثقافة التى يتميز بها الأجانب وحدهم. كان اجتذاب الأسرى الأجانب
يتم بعد كل غزو للقوات الروسية، وعقب كل غزو لروسيا يتم بواسطة القوات الأجنبية. فقد بقى
بعض الفرنسيين بعد انسحاب قوات نابليون من موسكو، وبقي بعض البريطانيين بعد انسحاب
قواتهم من القرم وبقي بعض الألمان بعد انسحاب الألمان من ستالينجراد. بعد كل غزو لتلك القوات
الأجنبية ينضم جيش من الأجانب إلى المجتمع الروسى ويتم ادماجهم بالتزاوج من الطبقات المهنية
والحرفية الجديدة.

بالرغم من هذا فقد استمر التخلف الروسى عن الغرب، بسبب سلطان الأوتوقراطية وجمود
النظام الاجتماعى الذى يفرضه التسلط. ففى بداية القرن التاسع عشر، بالرغم من مقدم ثلاثة أحداث
عظمى كانت كفيلة بإنهاء الدكتاتورية وتغيير النظام، ظل ثابتا كالطود. أول تلك الأحداث كانت الأفكار
السياسية التى جاءت بها الثورة الفرنسية، وثانيها كانت تقنيات الثورة الصناعية فى إنجلترا، وثالثها
- وأهمها - كان تقدم جيوش نابليون ووصولها إلى موسكو. كان هذا الحدث الأخير فجائيا وكان
أكثرها عنفا. ولكن استطاعت الجيوش الروسية وتمكنت حنكة قوادها، مع غياب الغزاة، من إنقاذ

البلاد. كانت الحملة هزيمة لنابوليون ولكن أعطت الشعور بالثقة للنظام الحاكم وكانت المسماة الأخير في نعشه والذي أدى إلى دماره. انفتحت روسيا - للمرة الأولى - على أوروبا، ورأى المثقفون الروس بأعينهم ما لم يره حكامهم. رأوا حقيقة أوروبا الغربية ولم يقبلوا استمرار الحكم في بلادهم على نفس الحال وبقائه على نفس المنوال. بعد حوالي عشر سنوات من التفكير بدأوا يتحركون وانتهت حركتهم بثورة عنيفة.

بدأ المثقفون الروس يطالبون بنفس الحقوق التي سبق ومطالبت بها الثورة الفرنسية. ولكن القيصر نيقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) كان مصمما على إخضاع تلك المطالب، وزاد في العنف النظام ليقابل الوضع الجديد. صار البوليس السياسي - الذي مضى على إنشائه قرنان - الحامى الأول للسلطة في روسيا. كانت أوروبا الغربية قد بدأت بحل الشرطة السياسية ولكن روسيا زادت من قوتها وازدادت نماؤها وصارت قوة سرية خارجة عن الضبط. وبدأ تحول المصلحون ليصبحوا ثوريين وكان سبيلهم الوحيد في ذلك التآمر والاعتقال. فشل سلاحهم هذا مع الاسكندر الأول ومع نيقولا الأول ولكنه نجح مع الاسكندر الثانى (١٨٥٥-١٨٨١) بعد ازدياد خبرتهم وزيادة ذكائهم. عقب نجاح اغتيال الاسكندر الثانى ازداد العنف التبسط والكبت. بدأ التنفى إلى سيبيريا - الذى بدأ عام ١٨٢٥ - يصير هو السلاح الذى تستخدمه السلطة ضد الثوريين ووصل إلى ذروته. كان الجيش هو وسيلة الضبط والربط للفلاحين. كان الفلاحون يستخدمون - بعد تسليحهم وبالاسهم اللباس العسكرى - لقتل إخوانهم الفلاحين من أقاليم أخرى، وهم غير مسلحين ويرتدون اللباس المدني. بعد هزيمة روسيا فى حرب القرم كان القيصر الجديد - الاسكندر الثانى - قد بدأ يستجيب لتصح المصلحين وبدأ بتحرير العبيد من الإقطاعيين، ورأى أن هذه هى الخطوة الأولى لتحديث المجتمع الروسى وتقادى قيام الثورة ولكن هذا كان عملا غاية فى الضخامة، فقد كان ثلاثة أرباع الشعب الروسى من العبيد. عبيد الملك والعائلة المالكة، عبيد للإقطاعيين من كبار ملاك الأراضى، عبيد خصوصيون، عبيد فى البيوت، بالإضافة إلى عبيد المصانع الذين بدأوا منذ عهد بطرس الأكبر. كان تعداد الشعب الروسى فى عام ١٨٦١ يبلغ حوالى ٩٢ مليوناً، كان العبيد منهم ٦٩ مليوناً، أى ما يقرب من ثلاثة أرباع الشعب، على النحو التالى: ٤٧ مليوناً أرقاء خصوصيون و٢٢ مليوناً أرقاء للملك.

كان القيصر لا يملك أموالا بعد الحرب وكانت الخزانة خاوية ومديونة، ولذا كان على العبيد أن يدفعوا لساداتهم. بعد أربع سنوات من الجدل صدر مرسوم ٣ مارس ١٨٦١ الذى يقضى بمنح العبيد مساحات صغيرة من الأراضى يمتلكونها، فى نظير أن يقبض ملاك الأرض من عبيدهم التعويض المناسب من النولة، تمنحه لهم من قرض عمومى. كان على العبيد المحررين أن يسدوا هذا القرض خلال ٤٩ عاما من عائد الأرض التى يزرعونها، ولا يمكنهم تحصيل أى عائد شخصى لهم إلا بعد تسديد مبالغ لتحديث آلاتهم الزراعية. وهكذا وجد ٧٠ مليون فلاحا من الأحرار أنفسهم

فى وضع أسوأ مما كانوا فيه وهم عبید، زادت الاضطرابات عما كانت عليه من قبل فى الريف، وتغيرت المدن تغييرا جذريا من جراء ما حدث فى الريف فقد غادر الريف أعداد متزايدة من الفلاحين - الذين صاروا أحرارا - وعمروا المدن التى اتسعت بسرعة ونمت كما لم تنمو من قبل، وحدث فيها ما سبق وحدث فى انجلترا منذ خمسين عاما.

. بدأت صناعات الحديد، وفتحت آبار البترول فى باكو عام ١٨٧٣، وبدأت المصانع فى بطرسبورج وفى موسكو وفى حوض نهر النون، بمساعدة من رجال الصناعة فى ويلز، وأدخلت صناعة القطن بمعونة رجال الصناعة من لانكشاير. بدأت خطوط السكك الحديدية تمتد عبر سهول روسيا إلى سيبيريا ووصلت عام ١٩٠٤ إلى المحيط الهادى، انتشرت الصناعات بسرعة فى روسيا - كما سبق وانتشرت فى الولايات المتحدة قبل أربعين عاما - بقروض من البلاد الصناعية القديمة فى أوروبا - وهكذا بدأ رأس المال الأجنبى والمهارات التقنية الأجنبية الثورة الصناعية فى روسيا. تضاعف أعداد البروليتاريا الصناعية فى روسيا إلى عشرة أمثالها خلال ثلاثين عاما وزادوا عن ٢ مليون عامل فى الصناعة. كانوا من جنس هجين، وكانوا أكثر ثقافة وأكثر ذكاء وحيوية. وأكثر استعدادا للتفاهم عن إخوانهم الفلاحين. ولكنهم ظلوا يعاملون بمنتهى السوء. كانوا أكثر التصاقا ببعضهم البعض، وكانوا يعانون من الفضائح التى ذكرها إنجلز عند وصفه لما يعانى به العمال فى مانشستر منذ خمسين عاما، ولكنهم كانوا يتمتعون أيضا بتعليم يمتد من المدرسة الابتدائية حتى الجامعة.

شعرت اليابان بتهديد روسيا القيصرية لها بعد مد الخط الحديدى من سيبيريا إلى الشرق ووصله عام ١٩٠٤ إلى شواطئ المحيط الهادى الخالى من الجليد، إلى ميناء آرثر التى أعيد تحصينها، فأعلنت الحرب على روسيا، وهزمت جيوش القيصر واستولت على قلعتة وأغرقت أساطيله. ظهر للعيان ضعف الحكومة الروسية فى ذات الوقت الذى ازداد فيه فقر العمال. بدأ عمال المصانع الضخمة الجديدة - ومعهم إخوانهم من رجال البحرية - بالثورة على النظام والتحموا للمرة الأولى مع رجال مثقفين خارج البلاد لهم نفس الأفكار كانوا منتظرين يخططون ويتآمرون لقيام الثورة.

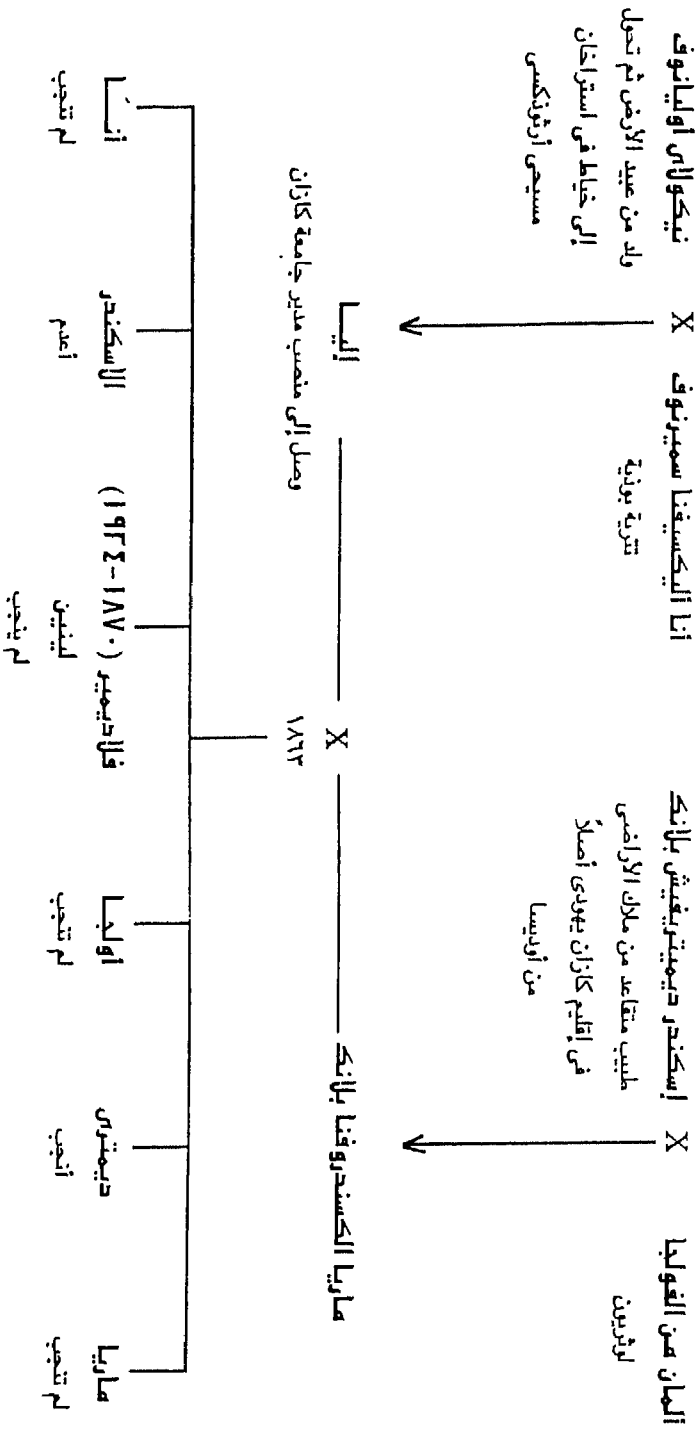
لتحقيق حلم كارل ماركس بقيام ثورة كان لا بد أن يتواجد مجتمع مختلف عن المجتمع الذى عرفه، مجتمع لا تكاد توجد فيه طبقة متوسطة. كان كارل ماركس نفسه ينتمى لطبقة المهنيين المثقفين وعاش لأربعين سنة فى انجلترا حيث كانت تلك الطبقة أخذة فى النمو. لم يكن هناك مكانا لهذه الطبقة لحساباته - فقد تجاهلته تلك الطبقة وحرص هو أن يتجاهلها. كان لا بد للمجتمع الذى تقوم فيه الثورة أن تكون فيه طبقة البروليتاريا وقد وصلت إلى أسفل الحضيض وعانت من منتهى اليأس، كما لم يشاهده ماركس وإنجلز فى شبابهما فى انجلترا. لم يتواجد هذا المجتمع أثناء حياة

كارل ماركس، ولكنه حدث في روسيا القيصرية بعد متاعب ومعاناة الحرب في عام ١٩٠٥ وكذلك في عام ١٩١٧.

كذلك احتاجت خطة كارل ماركس لرجل يختلف عن أستاذه في طباعه وخبرته وأصله العرقى ليستطيع أن يحول الأفكار الاجتماعية التي صاغها ماركس إلى أعمال سياسية. ظهر ذلك الرجل في الوقت المناسب، فلاديمير إيليتش أوليانوف، الذي عرف بين زملائه المتأمرين وعرف لشرطة القيصر وعرف للعالم كله فيما بعد باسم لينين. كان رجلا مهجنا من عدة أجناس، كما يوضح الجدول رقم (٢٥)، من ناحية أبيه كان ثمرة تزواج أحد العبيد من أستراخان مع إحدى التتريات في ميناء أستراخان الواقعة على بحر قزوين. ورث من أبيه ملامح طبقة «العوام الروس» - أى الملاح المغولية المتداخلة مع الملاح الأوروبية، والتي تختلف عن الملاح الأوروبية الصرفة التي يمتاز بها أفراد الطبقة العليا والطبقة المتوسطة التي تعيش في المدن في الجزء الغربي من روسيا. كان أبوه يتحدث باللسان الروسى ويعتقد المسيحية الأرثوذكسية. وكانت مهنته مدرس علوم، وقد أرتقى بسبب ذكائه ومهارته وحسن تحصيله إلى أن يصير مديرا للمدارس، وارتفع من طبقة عبيد الأرض التي أتى منها والده إلى الطبقة المتوسطة، كقرينة على إمكانية الانتقال من طبقة إلى أخرى في عهد روسيا القيصرية. أما والدته فقد جاءت من طبقة مهنية ذات عراقية. جاء أهلها - من ناحية الأم - من ألمانيا واستقروا في حوض نهر الفولجا بواسطة الإمبراطورة كاترين العظمى منذ ثلاثة أجيال، جزء من خطتها لتحسين طرق الزراعة في بلادها. ترعرع المجتمع - رغم فشل الخطة - وقد بنى الألمان كناشهم اللوثرية وظلوا منعزلين عن بقية الفلاحين الأرثوذكس، ولم يحدث تهجين بين المجموعتين وظل الألمان يتحدثون باللغة الألمانية ويستخدمون طرق الزراعة المستخدمة في ألمانيا. انفصلت جدة لينين (الأمه) عن هذا المجتمع وتزوجت من طبيب يهودى ثرى متقاعد. وبذلك نرى أن جلود لينين الأربعة ينتمون لأربعة أعراق جنسية وديانات مختلفة، ولكن جاء أبويه من طبقة المهنيين، كما كان يفخر دائما أن هذه الطبقة هي التي جاء منها جميع معلمى الثورات. نتج عن الزواج ستة أبناء، وهب الكسندر نفسه لتغيير نظام الحكم بالقوة فتم القبض عليه وأعدم لاشتراكه في عصيان وهو في الجامعة في سن الحادى والعشرين. ووهب فلاديمير نفسه أيضا للثورة لتحقيقها بتؤده ومكر وليس بإثارة القلاقل والاعتقالات، وكان هذا هو لينين.

أعجبت حكومة القيصر بمزايا قتل الثوريين فلم تهتم كثيرا بخطورة كتاب الثورة. قرأ لينين إنجيل كارل ماركس وهو في سن الثامنة عشر واستوعبه، وسرعان ما انضم لعصابة من المتأمرين الروس الذين كان هدفهم تطبيق الأسس التي نادى بها كارل ماركس في بلدهم. وكان هناك رأيان: إما أن يتبعوا الطريق الساخن الذى اتبعه ثوار عام ١٨٤٨ ويقوموا بثورة عنيفة وإما أن يتبعوا الطريق المبارد الهادئ الذى نصح به كارل ماركس في سنواته الأخيرة والذي يقضى بالتعاون مع

جدول رقم (٢٥) أصول لبنين



المصلحين والجدل معهم وإجراء التجارب الاجتماعية حتى الوصول إلى الدولة الاشتراكية المثلى. عاد لينين من ثلاث سنوات النفى فى سيبيريا فى يناير عام ١٩٠٠، حيث عمل بمنتهى الرقة نظرا لروابط والدته الاجتماعية. سمح له باختيار الوحدة وقراءة الكتب وكتابة الأدبيات الثورية. فى تلك الفترة أخذ لينين بأفكار اثنين كبار الثوريين الفرنسيين: بانوف وبلاكى. ولاحظ أن خلقهم المتصف بالإنسانية كان سببا فى نجاحهم الفكرى وفشلهم العملى. كان لويس أوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١) هو الملهم للحركة التى أدت إلى قيام كوميون باريس عام ١٨٧١. وكان هذا الرجل صاحب عبارتين خالدين فى الفكر الاشتراكي: «الثورة الصناعية» و«دكتاتورية البروليتاريا». تصف العبارة الأولى أحداثا حقيقية وقعت فى فترة سابقة، وتصف العبارة الثانية شيئا خياليا سوف يقع فى المستقبل. بالنسبة للينين كانتا وصفا ممتازا لما يريد أن يحققه. أدرك لينين أن البروليتاريا لا يمكنها الإمساك بالسلطة أو الحصول عليها. ولذا عليه أن يشكل حزبا سياسيا شديد الانضباط، ملقنا أشد التلقين، يقوده شخص واحد متفرغ لأعباء القيادة والتنظيم مثله شخصيا. هذا الحزب سيقوم بتوجيه البروليتاريا لتقوم بقلب الحكومة القديمة وتولى مكانها حكومة جديدة. وكان هذا أول تعديل لمبادئ كارل ماركس كأسلوب لقيام الثورة الجديدة فى روسيا.

لم يكن لينين واعيا - كما لم يعى زملاؤه المتأخرون عنه - أن هذا الذى يفعله هو غش وتديس وخداع لأنفسهم وعلى من يطالبون بتطبيقه عليهم من عمال وفلاحين. لم يكن أولئك القادة على دراية كافية بالعمال والفلاحين الذين رمزوا لهم بالمطرقة والمنجل. اندفعوا إلى الأمام بقوة مع جهلهم بما تخبئه لهم الأيام - كما سبق واندفع المسيحيون الأوائل. كان هدفهم هو إنجاز مطالبهم بسرعة ولذا غير لينين موقفه عام ١٩٠٢ وقرر أن يتبع الخط الساخن من البرنامج الماركسى. حضر مؤتمرًا للثوريين الماركسيين فى لندن وأقنعهم بالتجايل لتبنى موقفه. تبنت فى اللحظة المناسبة الأغلبية - البولشيفيك - القيام بالثورة وعدم التصالح مع القيصر، بينما عارضت الأقلية - المنشفيك - هذا الرأى وطالبت بالحلول الوسط.

بدأ الزعيم الشاب - وعمره الآن ثلاثة وثلاثين عاما - العمل فى الحال وأخذ يجمع الناس فى لندن وجينيف وكراوف ليصيروا وحدة واحدة متشربة بهذا الفكر - بدلا من تناثرهم إلى قطع وشظايا متفرقة - ليكون منهم حزبه الذى أرتأى أن يشكّله. كانت وجهة الحزب وهدفه واحدا وكان الجدل شديدا - كما كان الانضباط - فى هذا الحزب. فاق لينين سيده ومعلمه فى الحقد والكراهية وفى التحامل على الطبقة العليا واحتقارهم. بدأت صحافة العالم تكتب المقالات المأخوذة عن رسائل لينين. بدأت شتائه العلنية وتصنيفاته لأنواع الخيانة والعمالة والهرطقة والانحراف تجد مكانها فى الصحف والخطب والإعلانات (وحتى فى قواميس اللغة). وقف قليليون من الشجعان أمام عنف قائدهم وزعيمهم ولكنه شغلهم بالتأمر وتدبير المؤامرات والخطط عن محاولة معارضته. كانت تعاليمه

تعاليم أستاذه ماركس غير قابلة للاعتراض وكانت جائزة المتبعين لها والمتحمليين لمشاق الدعوة إليها هو الوصول إلى الدولة التي ينتظرها جميع الناس في روسيا. كان المستقبل يبدو حالكا في ذلك الوقت، في السنوات الأولى من القرن العشرين. ولكن تصاعدت آمال المتأمرين فجأة. ففي سنوات الجوع والهزيمة، في بداية سنة ١٩٠٥ قامت احتجاجات بسيطة في بطرسبرج بعد حادثة اغتيال صغيرة، تبعها سلسلة متتالية من العصيان والاضطراب طوال هذا العام، كانت تقابل بمنتهى الشدة. تعلم لينين من تلك الأحداث التي كانت مقدمة لثورته الكبرى.

حدثت تجربتان نوات دلالة في تلك السنوات. أولاهما كانت عدم قبول القيصر للتنازل في انتخابات مجلس ممثلى الشعب «الدوما»، بشكل لم تشهده البلاد منذ اعتلاء بطرس الأكبر للعرش. كان الانتخاب سيتم بكل مساوى الانتخاب غير المباشر وعيوبها وبكل وسائل التزوير وطرقها التي تتبع انتخاب من يريدهم القيصر أن ينتخبوا. ولكن بعد تشكيل المجلس رُفضت النصائح التي أشار بها المجلس وتم حله وسجن المعارضين نوى الأصوات العالية. نهج القيصر - بفعلته هذه - نهج الملوك السابقين من العائلات المالكة في أسرتى ستيوارت وبوربون ولم يدر بما فعله بهم التاريخ وأتبع نصح زوجته الأجنبية التي أحاط بها المشعوذين من خاصتها، رغم أن الدوما كان قد اتخذ خطوة تقدمية وفتح باب المناقشة مما كان يوحى بأن حكومة ممثلة في طريقها للوجود. كانت التجربة الثانية من الاضطرابات التي أثارها المنشفيك بإضطراباتهم وعصيانهم. كون المنشفيك مجالس وجماعات «سوفييت» لتنظيم نشاطاتهم والإعداد للعنف. ضمت تلك المجالس المثقفين الثوريين لتتبعهم الجماهير غير المتعلمة التي تحتاج لقيادة. في تلك اللحظة ظهر شابان ثوريان يبلغ عمر كل منهما خمسة وعشرين عاما، تروتسكى من بطرسبرج وستالين من تفليس. استثمر لينين تلك الفرصة السانحة - التي لم يعد لها - وطرق الحديد وهو ساخن واستغل الرجلين لإنجاز أهدافه.

أنت التجريتان بثمرتهما عام ١٩١٧، بعد ثلاث سنوات من حرب أسيتت إدارتها. قادت حكومة القيصر الشعب الروسى إلى الهزيمة والمجاعة، وانهارت الروح المعنوية للقوات العسكرية تماما لدرجة أن الحرس الإمبراطورى في بطرسبرج ذاتها عصى أوامر قائده ولم يفتح النار على الجماهير التي أطاحت بالقيصر مطالبة بالخبز في الشوارع. حدث هذا في ١١ مارس عام ١٩١٧ ولاح للحظات أن جماهير الشعب هى صاحبة الأمر والنهى وقد أخذت بيديها بزمام الأمور. ظهر أن خليفة إيفان الرهيب صار فجأة بلا حول ولا قوة. خلع عن العرش بنون متاعب وشكل «الدوما» بالتشاور مع سوفييت - عمال بطرسبرج - حكومة من أعضاء مختلطين: من شرفاء المحتد والمهنيين والأحرار والاشتراكيين. كانت الحكومة التي تم تشكيلها على عجل غير ذات خبرة ومختلفة الرأى عندما قابلتها المشاكل المخيفة التي ووجهت بها. اعتلت تلك الحكومة مهام الحكم بلا سلطة، وفشلت في اكتسابها بالرغم من هذا فقد استطاعت الحكومة الاتفاق في كثير من الموضوعات ولم يستطع سوفييت

بـطرسبرج – الواقع على مقربة من القصر – أن يعارض تلك القرارات، بأنه يجب على الحكومة أن تحذو الثورة الفرنسية وأن تشكل جمعية تأسيسية بالانتخاب المباشر.

بمجرد اتخاذ هذا القرار شاهدت بطرسبرج – فى صيف عام ١٩١٧ النزاع بين القوى المتنافسة، على ناحية كانت الحكومة المؤقتة التى شكلت على عجل تحت قيادة كيرنسكى – من الأحرار – وعضوية مختلف الأعضاء نوى الاتجاهات المتباينة، على الناحية الأخرى وقف لينين – الذى عاد من منفاه فى سويسرا مع أتباعه فى حزبه ينظمون السجناء السياسيين بعد أن حررتهم الحكومة، ومعهم بقية المنفيين والمهاجرين إلى الخارج الذين رحبت البلاد بعودتهم، وأخذوا يرددون الخطب الرنانة بين العمال المترددين فى الانضمام إليهم والجنود الذين لم يقتنعوا بعد فى الالتفاف حولهم وتأييدهم، كان الهدف من كل هذه الأفعال قلب الحكومة والاستيلاء على مقاليد الحكم واستيلاء السوفييت لأنفسهم على السلطة – على الأمل حتى يقع سوفييت موسكو وبترسبرج تحت سيطرتهم، نشاهد فى هذا المشهد تكرر ما سبق وحدث بين كرومويل والليفيلين، وبين أحرار عام ١٧٨٩ ويعاقبه ١٧٩٢ وبين الحكومة الوطنية عام ١٨٧١ فى فرساي وقادة الثورة فى باريس. تبعا لنظرية كارل ماركس يحدث الصراع بين طبقتين مختلفتين من طبقات المجتمع، ولكن ما نشاهده الآن – ما شاهدناه فى الأحداث السابقة – هو صراع بين طريقتين مختلفتين فى تنظيم الطبقات وفى حكم البلاد. اعتمدت الطريقة الأولى على إجراء انتخابات عامة وحررة وتشكيل حكومة ممثلة للشعب. سيكون الممثلون للشعب فى غالبية الأحوال من المثقفين ومن نوى الأملاك وسيحافظون قدر استطاعتهم على امتيازاتهم ويستغلون غير المثقفين من أبناء الشعب. وتعتمد الطريقة الثانية على تحالف قوى الشعب من المطحونين والذين يقبلون – بل ويطالبون – بالطاعة والامتثال لسلطان أفراد من زعماء الدهماء، المهيجون، الخطباء الشعبيون، الذين يستغلون الاستياء الاجتماعى لاكتساب النفوذ السياسى ويصبحون من الطغاة، مستغلين طاعة الجماهير وسذاجتهم وبسرعة تصديقهم لما يقولون، كلتا الطريقتان تتطلبان أن يستخدم الزعماء العبارات الخداعة وتقديم الوعود البعيدة عن التحقيق وأساليب السياسة بما تحمله من دهاء ومكر. كان لينين يؤمن بمصادرة الممتلكات الخاصة للأفراد فى سبيل الصالح العام للمجتمع، ولذا أتبع ذلك الأسلوب للحكم، وقد تطلب هذا من لينين أن يكون زعيما شعبيا مهيجا للجماهير وخطيبا مفوها يثير الدهماء ويكون فى نفس الوقت طاغية مستبدا. عليه أن ينظم حزبه لنقل تعليماته بحذافيرها ويطلب الطاعة العمياء من الجماهير غير المثقفة. تعلم لينين تلك الدروس فى صيف عام ١٩١٧. وما لم يتعلمه لينين أنه لى يحتفظ بطاعة الجماهير لأطول مدة ممكنة، عليه أن يبقيها غير مثقفة لى يستطيع أن يسيرها على رأيه. كان أحد أعوانه يعرف طبيعة الجماهير ويعرف ما يخبئونه، وكان يفهم عقليتهم، ويدرك تصرفاتهم أفضل مما كان ماركس أو لينين يعلمونه عنهم. هذا الرجل هو ستالين.

كانت سياسة لينين هي الاشتراكية العاجلة ومصادرة كل الممتلكات ولذا كان عليه الإسراع بانتخابات الجمعية التأسيسية. كانت تلك الجمعية ستسفر عن مجموعة من ممثلي الشعب - المثقفين والمهنيين ونوى الأملاك - كما أسفرت عنه انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية من قبل. في نفس الوقت كانت مجالس السوفييت قد أبدت ملامح نوايا العمال في باريس عام ١٧٩٣، الملامح المضادة للمهنيين ولنوى الأملاك التي ظهرت في الدولة الرابعة في فرنسا. طالبت الجماهير في المدن بالخبز، لكي يأكلوه وفي الريف بالأراضي لكي يحرثوها ويزرعوها. كان باستطاعة لينين تهدئة الأمور وإقرار السلام وتحقيق الأمان بين مختلف فئات الشعب، وبهذا تكون الثورة في روسيا ثورة هادئة، بل قد يساعد هذا على انتشارها في الأقطار المجاورة في أوروبا التي سئمت الحروب. ولكن لينين اتبع نهجا آخر فقد كان رجال الجيش من الضباط والجنود قد ملوا الحرب، واشعلت الثورة الحمية الوطنية لدى الجيش. بعد هبة مارس استمر الصراع لثمانية شهور واقترب من العاصمة. على ناحية كانت الحكومة واقفة تدعو لاستمرار الصراع ضد الغزاة الأجانب في نفس الوقت التي تحاول فيه السيطرة على العصيان والجوع وعلى الموقف الذي نشأ بهرب ٢ مليون فرد من القوات المسلحة من الجيش وعودتهم إلى البلاد. حاولت الحكومة إباحة حرية الكلام لأعدائها ورفع القيود عن حرية التعبير. وعلى الناحية الأخرى وقف البولشيفيك، المتآمرون تساندهم أموال الألمان يعملون في جماعة صغيرة تحت رئاسة لينين. بدأت تلك الجماعة في إصدار صحيفتها وراحت تغدق الوعود للجنود والعمال والفلاحين وتحول مجالس السوفييت لوجهة نظرها لكي تتبنى آراء بولشيفيك لينين - حدثت الأزمة في ٧ نوفمبر ١٩١٧. كان هذا يوم اجتماع مجلس جميع السوفييت في بطرسبرج، وكان العمال قد سلحتهم الحكومة، فأشار تروتسكي بأن هذه هي الفرصة التي ينبغي استغلالها وتحول السلاح ضد الحكومة واستولى العمال على جميع المراكز الحيوية في العاصمة وقبضوا على جميع أفراد الحكومة في القصر الشتوي وساقوهم تحت الحراسة إلى قلعة بطرس وبولس. صوت المؤتمر - برئاسة أحد البولشيفيك - بعزل الحكومة الحالية وتولية حكومة جديدة من البولشيفيك وتبني سياسة البولشيفيك بمصادرة الأراضي لصالح الفلاحين وبالصالح من ألمانيا وعاد ممثلو الشعب لمدنهم وقراهم لتنفيذ قرارات المجلس في الحال. وهكذا تولى حزب لينين السلطة في روسيا، وبدأت الشيوعية.

كاد الانقلاب أن يكون بدون إراقة للدماء، مثل ما حدث أيام كرومويل وأيام نابوليون. فقد أمسكت بالحكم جماعة صغيرة من الرجال كانت مصممة على الاستيلاء على السلطة، رجال من أجناس مختلفة وطبقات متباينة وطباع متغايرة. نشأوا على الفقر وتمرسوا بالتأمر ولكن لم يكن لديهم خبرة الحكم. كانوا يعلمون أن قوتهم تكمن في المركز فحسب. علموا أن استمرارهم في الحكم رهينة بأن يكون لقائدهم مواهب كرومويل وطبعه أو صفات نابوليون. كانت المهمة الأولى هو تكوين مركز

للسلطة وحمايته، ومن هذا المركز تدمير أى محاولات لإنشاء حكومات بديلة بدون إثارة مشاكل. فى ٨ نوفمبر عام ١٩١٧ كون لينين لجنة من الكوميسار (حسب تسمية تروتسكي) تهدف إلى تحقيق تلك الأشياء. تقرر مناقشة الصلح مع القوة المركزية. منحت الحرية والصدقة لكافة الأعراق التى تتكون منها الدولة التى أدمجتها الإمبراطورية القيصرية فى كيانها: الأوكرانيون، القوقاز، المتحدثون باللغة التركية فى وسط آسيا وسيبيريا. تقرر توزيع الأراضى على الفلاحين كما تقرر الاستيلاء على الصناعات وتأميمها. تقرر دفع كافة الديون الأجنبية، كما تقرر إنشاء إدارة صغيرة عرفت باسم «تشى - كا» مهمتها مراقبة أعداء الشعب والإشراف على أنشطتهم والقبض عليهم وتصفيتهم (أى جميع أعداء الحكومة البولشيفية)، وقد اتضحت أبعاد مهام هذه الإدارة تباعا.

كانت جميع أهداف الانقلاب متيسرة التحقيق - بخلاف المهام التى عهد بها إلى إدارة «تشى - كا». لم يكن هدف تلك الإدارة حماية الوطن بقدر ما كان حماية الحكومة. حطمت دعاية البولشيفيك جميع سلطات الحكومة المؤقتة، فقد تساوت الرؤس فى كل وحدة من وحدات الجيش والبحرية وفى كل إدارة من إدارات الحكومة وفى كل مصنع من المصانع المنتشرة فى أنحاء البلاد. كان لا بد من اتخاذ قرارات فى منتهى القسوة إذا أريد للمجاعة أن تعالج وللعدوان أن يطرد من البلاد، وكان من المجمع عليه أن تعاد الهيئة والاحترام للسلطة. تمت انتخابات الجمعية التأسيسية فى ٢٥ نوفمبر وأشرف «تشى - كا» عليها وحصل البولشيفيك على ١٧٥ مقعدا من مجموع المقاعد البالغ عددها ٧٠٧ بالرغم من ضلالة أعدادهم فى البلاد. عندما جمع لينين المجلس فى ١٨ يناير ١٩١٨ رفض المجلس المقترحات التى قدمها إليه لينين. على الفور تم حل المجلس بالقوة - قوة تشى - كا، وهكذا انعدمت جميع أصناف المعارضة، اتضح أن حزب البولشيفيك حزب لينين، صار الحاكم بأمره - وحده - فى البلاد، وأصبح هو أداة دكتاتورية البروليتاريا، وسقطت جميع القوى الأخرى - مثل المنشيفيك - جميعا فى بحر النسيان. أدركت جميع القوى الأحق لها فى البقاء فى الساحة تلك الحقيقة، واختفت من المسرح. تمتعت تلك القوى بالشرعية فى الوجود خلال فترة فى غاية القصر - من مارس إلى نوفمبر ١٩١٧. أما بعد ٨ مارس ١٩١٨ فقد صار حزب لينين - الذى أعيد تسميته إلى «الحزب الشيوعى الروسى» هو السلطة الوحيدة الباقية فى البلاد، والمكان الوحيد للنقاش والأساس الوحيد لتكوين الحكومة فى روسيا.

اضطر لينين وحكومته إلى التخلي عن بطرسبرج - تحت ضغط الغزو الألمانى، فانسحب من المدينة فى ١٠ مارس ١٩١٨ تاركا وراءه اتحاد نقابات عمال السكك الحديدية نو اتجاهات وآراء المنشيفيك، واختفى بعيدا عن العاصمة المكشوفة لأى عدوان، فى فندق فى موسكو. وفى شهر أغسطس حدث اعتداء فى موسكو جرح فيه لينين وقتل رئيس تشى - كا. تم إعدام ٦٠٠ مسجون وصار الإرهاب بغير حساب. تم تقسيم حكومة البلاد إلى ٢٥ حكومة منفصلة. استمرت جيوش روسيا

البيضاء فى الحرب بمساعدة الجيوش البريطانية واليابانية والتشيكية واستمر الجيش البولندى فى القتال تحت قيادة فرنسية وتم تدمير البقية الباقية من السلطة تحت تأثير أوامر البولشيفيك للضباط والمديرين والأخصائيين وكل من يستطيع إصدار الأوامر لإزالة كل آثار الحكومة المؤقتة. فى الحال شكل لينين «الجيش الأحمر» وأدمج فيه كافة قواد وضباط وأفراد حكومة القيصر وأدخلهم لحظيرة الحزب الشيوعى عام ١٩١٨. ثم اتبع هذا باحتضان الموظفين المدنيين فى الحكومة والجامعات والمدارس، ثم أدمج البوليس السياسى للقيصر فى جهاز تشى - كما بعد تغيير اسمه إلى OGPV ثم NKVD ثم MVD ثم MGB وأخيرا صار اسمه KGB. وبلغ تعداد قوته ٧٥٠.٠٠٠ فردا - كان من الضرورى ضمان سلوك الأفراد (وإن لم يتم ضمان اعتناقهم لمبادئ الشيوعية) - مثل ما حدث فى أيام الثورة الفرنسية وضع قوميسار شيوعى على رأس كل وحدة ليتجسس على كل أفرادها ويشرف عليهم ويضمن ضبط سلوكهم ويقصيهم عن مراكزهم عند الضرورة. يشرف على هؤلاء القوميسار أمين العمال أو أمين الفلاحين (حسب موقع كل وحدة) وكان بيد هذا المشرف العام نقل كل قوميسار من موقعه أو فصله حسب رغبته (أو حسب مقتضيات الحال)، وبهذا صار الجميع موظفين سياسيين خاضعين للاتهام بالخيانة العظمى، وعقوبتها الموت، بهذا الأسلوب - وبعد موت الكثيرين - تركزت السلطة فى أيدي أفراد قلائل من أعضاء الحكومة فى موسكو، وكان كل شئ يتوقف على إخلاصهم للينين والحزب ولبعضهم البعض. صار الجميع فى ترقب وانتظار حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

لم تحل مشكلة العيش والملح بالضبط والربط وبالإخلاص للنظام وللقائد، فقد تداعى اقتصاد الدولة كلها بمصادرة الدولة للأموال الخاصة. حدثت مجاعة فى البلاد تبعتها عصيان البحارة فى كرونستاد. قام بهذا التمرد نفس الرجال الذين كانوا سببا فى تنصيب لينين واستيلائه على الحكم. عكس لينين سياسته وسمح - فى مارس ١٩٢١ - بالرغم من معارضة زملائه فى الحزب لنشاط القطاع الخاص، وقد أتاح هذا الإجراء الحياة للحزب الشيوعى لتستعيد الدولة سيطرتها وتلكها لكل شئ؛ فيما بعد. وفى نفس الوقت تمكنت الحكومة - بتضافر استراتيجيات وجهود العسكريين والسياسيين من أعضائها - من استعادة غالبية الأقاليم التى اضطرت للتخلي عنها مؤقتا. عادت أوكرانيا وروسيا البيضاء والقوقاز لسيطرة موسكو عام ١٩٢٢ واندمجوا فيما صار يعرف بالاتحاد السوفيتى، بينما لم يحدث أى تقدم فى بقية الأقاليم الغربية: فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا. أولا كان يسكن تلك الأقاليم أقوام من الطبقة المتوسطة الذين يتحدثون بغير اللغة الروسية، أقوام من المثقفين المتعلمين وذوى الأملاك الذين قاوموا السيطرة التى يفرضها الموظفون الروس ورفضوا السلوك الذى يتبعه الشيوعيون. كذلك استمرت جورجيا مستقلة لأربعة أعوام ولكن أمكن تحطيم مقاومتها بالقوة عام ١٩٢١، وكذلك بما فعله أعضاء الحزب والبوليس السياسى والجيش الأحمر

الجديد من عزل وإبعاد أى موظف فى حكومة جورجيا يرفض الخضوع لطلب إدماج الإقليم فى الاتحاد السوفيتى.

أصيب لينين بالفالج فى مارس ١٩٢٢ ثم توفى فى يناير ١٩٢٤، بعد أن أثبت نظرية جديدة وأقبح فى وضعها موضع التنفيذ وكون نوعا آخر من الحكومة من ذلك الصنف من الرجال الذين كانوا متوافرين فى ذلك العهد فى روسيا، ولم يكن الكيان يختلف كثيرا عن النظام الذى سبقه. تغيرت الأسماء ولكن بقيت المؤسسات والنظم على ما كانت عليه. شغل بنفسه مكان الحاكم التقليدى الأوتوقراطى الدكتاتورى فى روسيا، التى كان الاستحواذ على السلطة هو غايته الكبرى والتى يعمل على الاحتفاظ بها ما أمكنه، ولذا كان من الطبيعى أن يتمتع خليفته بالسلطان كله، ويسئ استعماله - كما أساء استعماله كل المنفردين بالسلطة من قبله (ومن بعده). منعتة خاصته والمحيطون به الأقرابون - أعضاء المكتب السياسى - من التدخل فى شئون الحكومة أو انتقاد تصرفاتها أو زيادة عدد أعضاء المكتب السياسى - بحجة الحفاظ على صحته - وهكذا وجد الدكتاتور نفسه محاطا بدكتاتورين مثله - من بين رجاله برز رجلان وجدا فى نفسيهما المقدره على استكمال الدور الذى بدأه لينين: تروتسكى وستالين. كانا فى نفس العمر (حيث ولد كليهما عام ١٨٧٩)، ومن المحاربين القدماء الذين انخرطوا فى الدفاع عن أهداف الثورة منذ نعومة أظفارهما، ولكنهما اختلفا كثيرا فى طابعهما.

ليون دافيدوفتش بروتستين أو تروتسكى جاء من أوكرانيا، ابن فلاح يهودى يستأجر عمالا زراعيين. كان رئيسا لسوفيت بطرسبرج فى سنة الحرب، سنة ١٩٠٥. ولكن بعد حلول السلام عمل كصحفى، وسافر كثيرا فى أنحاء أوروبا وفى أمريكا. فى أيام الأزمة تردد فى التحالف مع لينين واستمر - فيما بعد - معتدا برأيه متمسكا بوجهة نظره، ولكن لينين عينه قوميسارا فى حكومته، أولا للشئون الخارجية ثم للشئون الحربية - حيث أنشأ الجيش الأحمر واستطاع قمع الحرب الأهلية. أما الرجل الآخر - جوزيف فيساديونوفتش دجوجا شفيلى - ستالين فكان من جنس آخر ومن طبقة أخرى. كان ابنا لأحد أفراد الجيل الأول من خدام الأرض المعتقدين. كان ثوريا فوضويا مثيرا للجماهير من بدء حياته فى روسيا وكان يعمل دائما لتثقيف العمال سياسيا وتنظيمهم عندما كان يغادر السجن. بدأ حياته فى تفليس ثم غادرها سريعا إلى باكو، حيث بدأت صناعات استخراج النفط وتكريره فى الازدهار. فى تلك الأيام حفلت حقول النفط بالعديد من الأفراد، من مختلف القوميات، الذين احتشدوا لحاجة العمل إليهم. تعرف ستالين عليهم وخالطهم عن قرب. استمع ستالين إلى أقوالهم وأصغى إليها باهتمام، وكتب قليلا ولم ينبس ببنت شفة. اختاره لينين ليصبح قوميسارا للأقوام والجنسيات المختلفة عام ١٩١٧. فى هذا المنصب استطاع أن يخدم قومه فى جورجيا عن المطالبة بالاستقلال - كما شاهدنا - وتمكن من ضم جورجيا إلى اتحاد السوفييت. فى

عام ١٩١٩ اسند إليه - بالإضافة - عمل الاشراف على العمال والفلاحين، وبعد شهر من إصابة لينين بالفالج عينه المكتب السياسى فى المنصب - الذى يحتاج لجهد شديد - منصب الأمين العام للحزب. كان تروتسكى محدثا لبقا، مثقفا، حاضر البديهة، معتدا بنفسه رغم سذاجته وبطلا شعبيا ورجل العالم، بينما كان ستالين المستمع الصامت، المبتعد عن الناس، بطئ التفكير والحركة واتخاذ القرارات، الحذر والحسود، المدير الكفاء والمبتدع فى الخفاء. تحت تلك الصفات الظاهرة كانت هناك اختلافات فى الأسلوب وفى الهدف والسياسة كما كانت هناك اختلافات فى المنصب الذى حصل عليه كل منهما فى الحكومة الجديدة وفى جهاز الحزب الشيوعى، وتوقف على تلك الاختلافات مصير كل منهما ومستقبل الثورة الشيوعية - كانت تلك الاختلافات واضحة فى حياة لينين ولكن بعد وفاته تفاقمت الأمور. كان تروتسكى مسئولاً عما يسمى فى حكومات البلاد الأخرى المناصب الوزارية الرفيعة وكانت إنجازاته واضحة للعيان فى جميع أنحاء العالم. أما ستالين فكان مسئولاً عن الأعمال السرية التى تقدم أفضل الفرص لمن يشغلها من أعضاء المكتب السياسى الخمسة. كقوميسار للعمال والفلاحين ومشرفا عاما عليهم استطاع أن يستخدم كل إمكانيات الحكومة للتحكم فيهما. وكأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعى كان هو الرجل المتحكم فيما يعرض على اللجنة من أمور فى كافة اجتماعاتها خاصة عند النظر فى تعيينات أو فصل أعضاء الحكومة. فى حكومات المجتمعات المغلقة تبين أن منصب سكرتير الحزب الحاكم هو رئيس الجهاز المتحكم فى شؤون الدولة.

عانى رئيس الدولة - لينين - من نوبات متتالية من جلطة الدماغ، وكان يحتضر تدريجيا على مدى عامين ولكن ظلت الحكومة متماسكة طوال هاذين العامين. لم يكن يجمع أفراد الحكومة حب متبادل ولكن كان كل منهم يخشى من زملائه فالذى سيخلف الزعيم سيقتل الآخرين. كما لم يكن يحب أحد منهم الشعب الروسى ولا حتى الزعيم لينين، ولكن كان الجميع يتخوفون من بعضهم البعض، وزاد هذا الخوف كلما ساءت صحة الزعيم وتدهورت حالته. كان القيامرة دوما يتوجسون خيفة من الشعب ولكن الشيوعيين كانوا يخافون من أنفسهم. بالرغم من ذلك ظلوا متماسكين، فقد كان الحزب يجمعهم، ليس بالسلطة التى أضفاها عليهم ولكن بروح التآمر التى كان يتصف بها الحزب الشيوعى. التآمر صفة تصاحب السلطة فى كل الحكومات، ولكن السلطة كانت - فى تلك الحال - سلطة مطلقة وكان يمسك بزمامها رجال صقلوا على احتراف التآمر، ولذا جاءت لتسيطر على كل شئ - كانت تلك الصفة هى التى اختارهم لينين من أجلها والتى من أجلها وهبوا حياتهم المضطربة. استمر كل منهم تآمره على رفقائه، واعترف كل منهم بتفاصيل المؤامرات التى حاكها لزملائه فى اعترافاته العلنية فيما بعد.

لم يكن هذا يعني أن ستالين استطاع أن يقبض على السلطة بمجرد وفاة لينين، ولكن بعد خمس سنوات من الحركات والتآمر استطاع ستالين أن يكون الخليفة الأوحيد للينين. أبعد تورسكى كما أبعد واحدا تلو الآخر من بقية الزعماء المحتملين، وحشد كل أعوانه في المكتب السياسي للحزب وفي البوليس السياسي وتمكن في عام ١٩٢٩ أن يصبح الزعيم الأوحيد للاتحاد السوفيتي والخليفة الوحيد للينين الذي يقبض على كل السلطة بين يديه. صار أولئك الذين عينوا أصلا لخدمة الحكومة وللحفاظ عليها هم الحكومة نفسها والمتحكمين في الدولة. صار العبيد هم السادة وصار المالك هم السلاطين. نشأت دولة بوليسية، كما لم يتوقع كل من كارل ماركس وفلاديمير لينين، المفكر ذو الرؤية المستقبلية والسياسي الداهية. أثبت سكرتير الحزب، الذي لم تبسو عليه مخايل الفطنة طوال شغله لهذا المنصب، أنه الزعيم الذي لا يكل والقائد الذي لا يمل ليخضع المجتمع بأكمله لسيطرته المطلقة.

كان هدف الزعماء الشيوعيين أثناء خلقهم لدولتهم فك أوامر كافة الديانات لتعلو الشيوعية فوقها، سواء كانت مسيحية أو مسلمة أو يهودية. أنشأوا متحفا يبشر بعدم وجود إله في كترائية القديس اسحاق في بطرسبرج التي أعيد تسميتها لتصير لينينجراد، ليتعلم فيه المواطنون. أحيطت قبة الكنيسة بكتابات من حروف الذهب تقول أن الدين هو أفيون الشعوب. ولكن ظل عامة الشعب - الذين يرون أن القيصر هو ظل الله في الأرض - يؤمنون بأن قديسيهم ما زالوا شهداء على حب الله لهم حتى بعد موت هؤلاء القديسين وأن موسيقى الكنائس - التي كانت تبلغ ذروتها في عيد القيامة - هي الدليل على وحدة الأمة بأسرها. كانت كتابات ماركس وانجلر العقلانية - التي كانت ترضى أعضاء المكتب السياسي - وهم في الأصل مفكرون عقلانيون تم استبعادهم - لم تكن كافية لإشباع الحاجات الوجدانية لجماهير الشعب - كان موت لينين مبررا كافيا لخلفائه لإرضاء الشعب بإعطائهم ما يريدون. كان ستالين قد قضى خمس سنوات أيام شبابه في مدرسة دينية يديرها رهبان روس في مدينة تفليس، وتم فصله في مايو عام ١٨٩٩. كان ستالين هو المحرك لتقديس لينين بين أعضاء المكتب السياسي الفوقيين وبين جماهير الشعب السانحة تحته. خطط ونفذ تحنيط جسد لينين ليحافظ عليه إلى الأبد، وبنى له قبرا عظيما ليكون مركزا لاحتفال ضخم يقام سنويا لتخليد الثورة تحت جدران قلعة عظيمة. كانت هذه هي الخطوة الأولى لخلق ديانة شيوعية جديدة. وكانت الخطوة التالية في بدع تلك الديانة هو إعداد نفر للتبشير بهذا الدين الجديد وإعداد الكتابات والشعارات التي أخذوا يكررونها بلا ملل المرة تلو المرة بطريقة عاطفية تثير وجدان الجماهير وبعيدة كل البعد عن الفلسفة الجامدة للشيوعية. وقد قرأ ستالين تلك الوثيقة أمام مؤتمر السوفييت بعد خمسة أيام فقط من وفاة لينين. عارض كثير من الشيوعيون القدامى - ومنهم أرملة لينين نفسها كروسكيا -

استخدام أساليب الدين فى الدعاية للشىوعية فتنازل ستالين عنها جزئيا واتبع طريقا آخر ثبت أنه أكثر فاعلية وأشد تأثيرا، فقد نصب لينين نفسه - كالمصدر الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كأساس للعقيدة الشىوعية، ولم يجرأ أحد من أخلص أتباع لينين على الاعتراض على هذا الأسلوب. أصبحت كتابات لينين وأقواله وأحاديثه هى كتابات الشىوعية المقدس وبذا نشأ دين لينين، الذى أصبح عقيدة الحاكم الحالى - ستالين نفسه. أتم ستالين تخطيط وتنفيذ سياسته فى خمس سنين، فشل المكتب السياسى للحزب واللجنة المركزية والبوليس السياسى الذى يراقب جميع المواطنين - وعلى الأخص الزعماء فى القضاء على تلك السياسات - وهكذا ضمن بدون منازع - مركز خليفة لينين الذى لا يجرؤ أحد على منافسته فيه. كان أى رأى أو عمل يخالف خط الحزب - الذى كان فى حقيقة الأمر خط القائد نفسه وفكره - يعتبر انحرافا عن المسيرة مصير من يقعله الطرد من الحزب وفقدان الوظيفة والإبعاد إلى معسكرات العمل حيث يعاد «تأهيل المجرم» إذا بقى على قيد الحياة. وكانت هذه هى الوسيلة التى ثبت بها ستالين ثورة لينين.

بعد أن تمكن ستالين من حل مشاكله الشخصية على هواه تحول إلى المشاكل الكبرى. تبين أن البرنامج الذى وضعه مع تروتسكى صعب التنفيذ ووضح أن على الحكومة السوفيتية أن تتفرغ لإصلاح الأمور فى دولتها قبل أن تبدأ فى نشر الفكر الشىوعى فى العالم، وأن عليها أن تلتفت لتطوير الزراعة المتخلفة وتحديث الصناعة المتهترئة فى البلاد قبل أن تهرع للتبشير بالشىوعية فى العالم على اتساعه. كان تروتسكى - قبل لينين - مؤمنا بحتمية الحل الشىوعى فى العالم بأسره وكان هذا يتماشى مع شخصيتهما وعبقريتهما وخبرتهما قبل وبعد الثورة. أما ستالين فكان غير مؤهل لفهم أو تنفيذ مثل هذا البرنامج، فلم يكن يدرى عن أى شىء فى العالم خارج روسيا. وبالتدرج تباعد عن ذهنه وعن نظره التفكير فى الأمور خارج بلاده. فرصها وخطورتها، وقربت إلى فكره المشاكل الداخلية ولاحت أمامه الفرص المتاحة وتهددته المخاطر المرتقبة. وفى عام ١٩٢٩، وقد تهددت المجاعة البلاد لم يكن أمام الحكومة سوى استجداء الطعام والنقود من الخارج.

كانت الحكومة قد سلمت الأراضى الزراعية فى البلاد للفلاحين، وبحلول عام ١٩٢٨ صار بيد ٢٥ مليون فلاح إشباع ١٠٠ مليون مواطن بما يحصلونه من حقوقهم، وعلى مجهودهم وعملهم تتوقف حياة كل المواطنين ويعتمد بقاء الدولة. من بين المزارعين كانت هناك طبقة لا تتجاوز ١٠٪ من التاجحين الذين برعوا فى الإدارة وفى استخدام الأدوات الحديثة التى كانوا يستطيعون شراؤها وفى تشغيل العمال الزراعيين بكفاءة، وهؤلاء كانوا «الكولاك». وعلى النقيض كان هناك ٢٥٪ من الفلاحين المتخلفين الذين ما يرحوا يستخدمون الأدوات الزراعية البدائية ويستعملون خمسة ملايين محراث خشبى من صنع أيديهم من الطراز العتيق. وبين أولئك وهؤلاء كانت غالبية الفلاحين. منذ تحرير عبيد

الأرض - قبل جيلين - انقسم المزارعون إلى طبقات لاقت درجات مختلفة من النجاح فى التغلب على مشاكلهم الزراعية عندما يفلحون أراضيهم. وبعد عشر سنوات من طرد السادة غرق غير الأكفاء - بعد زوال الحماية ووقف المساعدة وانقطاع المشورة - فى بحر عميق من الفشل. كان الحل الواضح هو تزويد المزارعين بالآلات الحديثة وإعطائهم النصح والمشورة ممن يفهمون ويجيدون الزراعة. كان الحل الواضح هو تمكين «الكولاك» من إدارة المزارع التعاونية الجماعية والسماح لهم باستخدام أدواتهم وآلاتهم ولكن الحكومة لم تمكنهم من خوض التجربة لخشيتهما على النظام الاشتراكي ولم يثق «الكولاك» بنورهم فى حكومة اشتراكية. صادرت الحكومة أدواتهم الزراعية ووضعت المزارع تحت إدارة أشخاص لا يتمتعون بالخبرة والكفاءة ولكنهم يحظون بثقة الحكام، أى وضعت الدولة تحت إدارة أهل الثقة لا أهل الخبرة. وعانى أهل الثقة هؤلاء من بطش الحكام، ففى خلال خمس سنوات تم إبعادهم ونفيهم أو قتلهم، كذلك صدرت الأوامر بذبح كل الماشية وبقية الحيوانات. قاوم الفلاحون جميعا تلك الاجراءات وعلى رأسهم «الكولاك» فقاموا بذبح نصف عدد الحيوانات فحسب ونتج عن ذلك أن عانت البلاد كلها - باستثناء أعضاء الحزب - من المجاعة.

تم الانتهاء من إنشاء المزارع الجماعية خلال عشر سنوات - بعد هذه التكلفة المهولة - وتحقق من إنشائها هدفان: الملكية العامة ومنع الاتجار الخاص، كما تمت سيطرة الدولة - بواسطة الحزب الشيوعى - على المزارعين. نتج عن هذا تغير جذرى فى طبائع مجتمع الفلاحين: فى خصالهم وقدراتهم وأفعالهم، وحدث لهم تحول فى كل تلك الصفات إلى الأسوأ. دمر هذا التحول الرجال، ولم يتيح لهم فرصة إتقان الطرق الحديثة للزراعة المتسعة بل قتلها قتلا. لم يتبق سوى أولئك الرجال الذين استمروا يعملون بأنفسهم عملا شاقا مضنيا مستمرا - كشأن الألاحين منذ أن نشأت الزراعة - ولكن لم يسمح بالغالبية العظمى من الفلاحين الاستمرار فيما نشأوا عليه. وجد النظام الشيوعى أن فكرة المزارع الجماعية فلسفة خاسرة ولذا سمح للفلاحين بزراعة مساحات صغيرة من الأراضى لأنفسهم وبتربية أعداد قليلة من الحيوانات لهم خاصة. وبعد ثلاثين عاما (أى فى عام ١٩٦٧) - بعد وفاة ستالين وإخوانه من أصحاب فلسفة المزارع الجماعية - صار ثلث الإنتاج الزراعى والإنتاج الحيوانى فى الاتحاد السوفيتى من ثمرة هذه المزارع الخاصة. ولكن نوعية الناتج لم تختلف كثيرا عن نوعيتها أيام الحكم القيصرى. وهكذا نتبين أن الميكنة والزراعة التعاونية والفلاحة الجماعية التى أضافت الكثير من الإنتاج الزراعى فى البلدان التى تؤمن بالتخصص عادت بأفدح الكوارث عندما تم تطبيقها بالقوة وأدارتها الدولة فى الاتحاد السوفيتى، وتركت الاتحاد السوفيتى فقيرا كما كان بعد المعاناة الإنسانية - من الدكتاتوروية والتسلط - التى لم يعانيتها شعب آخر. على سبيل المثال كان إنتاج القمح ٨٦ مليون طن فى روسيا فى عام ١٩١٣ وبلغ ٩٥ مليون طن فى عام ١٩٤٠ وانخفض

إلى ٨٠ مليون طن سنويا فى الأعوام من ١٩٥٠-١٩٥٣. ولكن حدث العكس فى البلدان الرأسمالية فقد أثمرت الأبحاث العلمية والتطبيق التكنولوجى لتلك الأبحاث عن النمو المطرد والسريع للإنتاج الزراعى. ويرجع ذلك إلى الانتقاء المستمر للمزارعين الأكفاء الذى سمح به النظام الرأسمالى واستبعده عن عمد النظام الشيوعى. (بالإضافة للفلسفة الشيوعية التى فرضت عمدا على الشعب، فرضت على الاستيلاء الحيوانى والتكاثر النباتى أساليب تتمشى مع النظرية الماركسية واللاماركية فى الوراثة، حبذا تروفيم ليسنكو الذى اتخذه ستالين رئيسا لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية لمدة خمسة وعشرين عاما وصار بمثابة راسبوتين للعلوم البيولوجية للدكتاتور الجديد). فرض ستالين سياسة زراعتة التى تتمشى مع نظرة لينين بالتخطيط المركزى والملكية العامة للدولة للصناعة. اتخذ ستالين لنفسه نموذجا من الذى شاهده يطبق فى البلاد الرأسمالية الغربية قبل وأثناء الحرب. طبق ستالين تلك النظم على نطاق أشد اتساعا وأكثر طموحا ليتمكن من تطوير الصناعة الروسية لتتساوى مع الصناعة فى الدول الرأسمالية الغربية بدون الاستعانة برأسمال مختزن كما فعلت دول الغرب، ولكن بمعاناة وطموح وجهد العمال أنفسهم. حدثت طفرات هائلة فى الصناعات الثقيلة اللازمة لإدارة الفلاحة وإدارة الحرب بين عامى ١٩٣٩ و١٩٤١ عندما هاجم الألمان الاتحاد السوفييتى، ولكن تم دفع ثمن باهظ لتلك الطفرات، كما حدث فى الصناعة الإنجليزية فى بدايتها، من استغلال جهد العمال وعرقهم وليس من أرباح الصناعة. وكلما كان التطور سريعا كان الاستغلال عظيما أيما كان المستغل: رأس المال الخاص فى الصناعة فى بلاد الغرب أو ستالين نفسه بصفته قائدا للدولة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى. وفى خلال تطويره للصناعة فى روسيا وتحديثه للمجتمع الروسى أدخل ستالين عاملا بارزا فى سيطرته على التطور وهو سيطرة الدولة على التخطيط وعلى الإدارة. كانت سيطرة الدولة منفردة شرطا من شروط تحقيق الشيوعية فى البلاد. بداية من عام ١٩٣٠ قيدت الحكومة مداخل ومخارج الدولة الشيوعية. بدأ الأوتوقراطيون القدامى فى منع دخول وخروج المواطنين وفى منع دخول المعلومات إلى الدولة، ثم زاد الأوتوقراطيون الجدد فى منع دخول الأجانب إلى البلاد وفى منع خروج المعلومات من البلاد. صارت روسيا بهذا منفصلة عن العالم ومقيدة وسجينة. أضفت تلك القيود - التى لا يمكن اختراقها - على روسيا أمانا وحماية على النظام السياسى والعسكرى بها وبهذا صار من غير الممكن تكرار أى نشاط ثورى بها. وقد أدى هذا إلى مكاسب سريعة ومزايا عاجلة ولكنه عاد عليها فى النهاية بخسارة عظيمة وأضرار آجلة أخذت تتراكم عبر السنين.

خلال ألف سنة أدى اكتساب أفراد جدد - حتى فى أقصى فترات الحكم القيصرى قسوة وأشدّها عنفا - إلى خلق مهارات تقنية وإلى تكوين طبقات مهنية داخل المجتمع الروسى. وقد توقف

كل هذا فجأة وجف الينبوع الذي كانت تأتي منه جماهير البشر سهلة التنقل من مكان لآخر وتجدد نفسها ويتجدد نشاطها. أدى هذا الجفاف إلى معاناة نصفى العالم، ولكن كانت المعاناة أساسا من نصيب الجزء الأصغر الذي يحوى سدس سكان العالم. لتخفيف تلك المعاناة كسرت الثورة الحواجز القديمة بين الأجناس والطبقات. أصبح اليهود والأرمن والبولنديون والفنلنديون والجورجيين يملئون المراكز القيادية فى الدولة والحزب وصاروا - لبضع الوقت - جزءا من المؤسسة الروسية السياسية والمهنية والأكاديمية. بعد قليل، بدأت القيود تفرض على اليهود، وعادت الفطرسية الروسية للبروليتاريا هى المتحكمة فى الأمور. صار اليهود يحملون خطورة على الدولة: لبعضهم معتقدات دينية لا يتخلون عنها ولآخرين ارتباطات أجنبية أو عالمية. فى نفس الوقت رفض أعضاء الحزب الشيوعى - بما لهم من وضع متميز فى المجتمع - إطلاق الحرية الاجتماعية على عواهنها بعد أن اكتسبوا تلك الأوضاع المتميزة. وقد لاحظ تروتسكى أولا كما لاحظ دجيلاس فيما بعد أن أعضاء الحزب الشيوعى صاروا طبقة حاكمة جديدة منفصلة عن الشعب ولهم جميعا أفكار شيوعية وينتمون للجنس الروسى ويتحدثون باللغة الروسية ويودون الاحتفاظ بمراكزهم تلك بعيدة عن الانتقاء الطبيعى بآثاره التى قد يفقدون فيها مراكزهم وسلطاتهم والتى يتعرض لها سائر أفراد الشعب.

اكتسبت المؤسسة الشيوعية الجديدة الحاكمة صفات مختلفة عن كافة الطبقات الحاكمة فى التاريخ. كان ماركس - كما كان لينين - يعتقدان أن مسار الثورة الطبيعى هى فى كراهية الجماهير لحكامهم وفى الصراع الذى يتلو انتزاع السلطة منهم ولم يدر بخلد أحد منهم أن الصراع يتلوه التهجين وليس انتزاع كافة السلطات من الطبقات الحاكمة فحسب. بهذه العقيدة الخاطئة تأخرت العودة إلى الوضع السوى لأجيال وتعطل الإبلال من آثار عملها لسنوات طويلة.

فشلت الثورة الروسية فى تحقيق ما كان يتطلع إليه لينين، ويرجع هذا جزئيا من خشية الحكام من التدخل الأجنبى ومن خوفهم من الغزو الخارجى. لجأ ستالين بين الأعوام ١٩٢٥-١٩٣٨ إلى الاستغناء عن عدد كبير من كبار الموظفين ومن كبار ضباط وقادة الجيش - كجزء من هذا الخوف، لجأ القادة الشيوعيون إلى هذا الإجراء الخاطئ للاستعانة بأهل الثقة بعيدا عن أهل الخبرة. حدث كبت للأدب والفنون وقمع للعلم والعلماء كما حدث كبح لكافة أنشطة الطبقات المهنية، وجاء هذا الاضطهاد من احتقار القادة الشيوعيين لهؤلاء الأفراد والطبقة التى ينتمون إليها. ولكن عندما حلت أزمة الحرب العالمية الثانية - عام ١٩٤١ - أدرك الحكام أن عليهم أن يدفعوا ثمنا لهذه السياسات الخاطئة، فاستبدلوا كبار الضباط الشيوعيين بقيادة من الأكفاء - أصحاب الخبرة - لجأوا للاستغناء عن أهل الثقة وأعيد انتصار عام ١٨١٢ بعد كوارث الهزيمة التى أحدثتها القياصرة فى أعوام ١٨٥٥

و١٩٠٤ و١٩١٥. فى سبيل النصر تخلى ستالين عن مبادئ كارل ماركس ولينين أثناء الهجوم على ستالينجراد الذى حدث فى شتاء عامى ١٩٤٢ و١٩٤٣.

تحت حكم لينين حدثت تفرقة مالية ومنحت امتيازات خاصة لأهل الثقة وصارت عرفا. ولكن عندما أكب ستالين على تصنيع البلاد واندفع فى هذا السبيل بأقصى قوته اضطر إلى إحياء التنافس بين نوى المقدره ليضمن كفاءة الصناعة وجودة المصنوعات حتى تتفوق على إنتاج الغرب. وفى الجيش استعيدت الأوسمة والنياشين على السترات العسكرية تمنح للمتميزين من رجال القوات المسلحة وللتفرقة بين سترات الضباط والجنود وأعيد تسمية الكتائب والفرق باسم عظماء القادة مثل سوفوروف أو كوتوزوف من جنرالات العهد البائد، وأعيد تشكيل كتائب الحرس الجمهورى على نظام كتائب الحرس الإمبراطورى السابق واستعاد الجيش الأحمر - الذى بدأه تروتسكى - مهمته فى إعادة إحياء وتنظيم الجيش الروسى. بعد الانتصار على ألمانيا الهتلرية النازية بدأ الجيش فى غزو الأقطار الأرثوذكسية فى البلقان وضمها إلى مجال نفوذ الاتحاد السوفيتى، وكذلك بدأ دكتاتور روسيا فى احتضان الكنيسة الأرثوذكسية الروسية - بعد أن بقيت فى الظل والنسيان والامتهان لمدة خمسة وعشرين عاما.

هكذا عادت القومية واستعادت الوطنية مكانها فى تاريخ روسيا بعد إهمالها لسنين طويلة - بدأ التنافر العرقى بين مختلف القوميات التى يتألف منها الاتحاد السوفيتى فى الظهور بعد كبتها منذ عام ١٩١٧، واعترفت الدولة بها وقبلتها. كما بدأت الدولة فى قبول طبقات فى المجتمع السوفيتى وشجعت الدولة الفروق الطبقيه. بدأت الدولة تقبل الخرافات - إذا ما كان لها مصلحة فى انتشارها - كما بدأت فى التخلّى عن الأفكار الشيوعية وفى طرحها جانبا وفى تبني آراء تجمع بين أفكار البروليتاريا ومعتقدات البورجواز التى تجمع بين المحافظة والتعلّق بكل ما هو قديم من آثار المجتمع الرأسمالى الإمبريالى.

فى سبيل المحافظة على الوطن الأم للدولة الشيوعية طرح قادة الشيوعية الجدد أفكار الآباء الشيوعيين القدامى جانبا وتمت التضحية بتلك المبادئ. كان الآباء الشيوعيون يرفضون مبدأ القتل، فتم قتلهم جميعا. مع التخلّى عن المبادئ تم اعتناق ديانة جديدة بسرعة فائقة فى نفس الوقت الذى تخلى القادة الجدد عن المذهب الجديد. بعد مرور خمسين عاما على الثورة الشيوعية فى روسيا يمكن أن نتعلم منها على طبيعة النفس الإنسانية أكثر مما تعلمنا من سابق فصول تاريخ البشرية كلها. لم يحدث فى السابق محاولة لتغيير صفات مجتمع من المجتمعات بهذه الدرجة. خطت المحاولة على أساس معرفة مسبقة بسابق محاولات التاريخ وجرت بمنتهى المهارة والحذق، ويعقده،

وبحماية وعنق لم يسبق لها مثيل. وبعد مرور كل هذه السنين لم تتغير طبيعة البشر في روسيا ولا معتقداتهم ولم يتم إنجاز أى شئ يذكر، بل كان إنجاز الدول من حولهم أكثر نجاحا فى حين لم يتعرض الإنسان فيها لتلك الدرجة من العنف.

إذا شبَّ المرء فى مجتمع تتجه فيه الطبقات الجديدة إلى التصنيع وحسن الإدارة وجودة التعليم، طبقات جديدة تهجنت مع الطبقات المهنية القديمة، يقف على قمته الحزب الشيوعى المختار بعناية بناء على مقدرة أفرادها على تشغيل جهازه الخاص، ويبقى الفلاحون على حالهم فى قاع المجتمع رغم تواجد المواهب غير المستكشفة بين أفرادها على كثرتها، فإن مصير هذا المجتمع هو الضياع. وبالرغم من محاولات قادة هذا المجتمع على تغيير تركيبته وعلى تغيير سلوك أفرادها فى الاتجاه الذى قادهم فيه أولئك القادة فإنهم لم يفلحوا. حاولت التجربة الماركسية العظمى تحويل مسار التاريخ أو الإسراع به عن تغيير حياة الأفراد وتعديل العلاقات بين مختلف الأجناس والأمم والطبقات. اعتقد لينين أولا أن بإمكانه إزاحة طبقة حاكمة عفا عليها الزمن بالقوة وإحلال مجموعة حاكمة جديدة محلها يجمعهم تفهمهم للنظرية الماركسية. وقد نجح فى هذا الشأن - كما سبق ونجح أسلافه الاشتراكيين المعتدلين. اعتقد لينين ثانيا أن بإمكانه فعل نفس الشئ فى العالم على اتساعه ولكنه نجح فى روسيا فقط لأن الطبقات الحاكمة فى سائر دول العالم لم تكن بالية وكانت تتطور ببطء وتتبدل بتؤده وتتغير بالتدرج بالتهجين وبالتكيف، ولم يعد التركيب الطبقي معتمدا على أصول جينية فحسب كما كان يعتقد ماركس ولينين خطأ. اتبعت الصين نفس المسار - رغم أن التغيير فيها لم يكن متوقعا ولكن سرعان ما تضاربت مصالح الدولتين الشيوعيتين فى العالم. ونجح ستالين فى المقام الثالث فى خلق دولة صناعية - كما حدث فى البلدان الأخرى - معتمدا على التخطيط والضبط المركزى متبعا نفس أساليب أسلافه القياصرة وناقلات تجارب البلدان الغربية بدلا من الابتكار ومستغلا العمال قاهرا لهم كما حدث فى المجتمعات الغربية فيما مضى. وفشل ستالين - رابعا - فى تطوير مجتمع الفلاحين فى الاتحاد السوفيتى - بأفدح مما فشل فيه النظام القيصرى السابق. لم يتمكن ستالين ونظامه من قيادة الفلاحين بأكثر مما أتاحته لهم قدراتهم ولم يمكن تطويرهم بأبعد مما هيأته لهم ملكاتهم، التى لم تتغير بسرعة تغير زملائهم أهالى المدن. ولم تتمكن أى قوة على الأرض أن تسارع بإحداث هذا التغيير. وفى المقام الخامس، تمكن ستالين تحت ضغط الصراع العالمى من التخلي عن الافتراضات الماركسية لتركيبية المجتمع الذى وضعه على قمته. المساواة والعقلانية بديلا عن الدين، والعالمية بديلا عن القومية المحلية ذهبت كلها هباء لظمان مركزه وسلطانه وتربيعه وحيدا بلا منازع على رأس الدولة وللحفاظ على حزبه الشيوعى الحاكم. كان لديهم نظرية للمجتمع وحكومة للاتحاد السوفيتى تضارعان النظم المسيحية القديمة والدول الرأسمالية. وتصارع النظامان فى كافة

أرجاء العالم ولكن كان النظام الشيوعي هو الأكثر انضباطا. وأخيرا بكل ما حوته قوتهم وقدراتهم، أثبت لينين وخلفاؤه أن الرجال العظام هم الذين بيدهم تحريك مسار التاريخ.

للرجال العظام آثار واضحة - كما أن للرجال الصغار فى المراكز العظيمة - نفس تلك الآثار. فبدون نيقولا الثانى - الذى وصفه التاريخ بالرجل التافه الإمعة - لم يكن للينين أن يجد مكانا فى التاريخ. الرجال العظام يحدثون - درجة ما - الآثار التى سعوا لإحداثها ولكن آثارهم لا تجد تحقيقا لها إلا فى المجالات التى يعرفون الكثير عنها ويتوقعون لها النجاح. حدثت تلك التوقعات فى مجالى العلم والتقنية، وفى هاذين المجالين تزداد التوقعات وتزداد الانجازات الناجحة المتوقعة. توهم كل من ماركس و لينين أنهما يدریان الكثير عن دراسة المجتمع وتوقعا توقعات مختلفة وأتت النتائج بغير ما توقعا. تهيأ لهما أن الأفكار هى التى تشكل المجتمعات وأنهما يستطيعان التحكم فيها وضبطها ولكن جاءت النتائج بخلاف ما توقعا. كان كل من ماركس و لينين سابقا للتاريخ، ليس كسابق وياكليف وسرفيتس اللذين كان لديهما أيضا الأفكار الصحيحة التى سبقت زمانهما بقرن كامل، ولكن كان سبقهما لعهدهما قبل أن تتطور المعارف وتعطى الأساس اللازم لتطبيقها أو الإشارة إليها.

العالم القديم

عواالم منفصلة

أولا: أمريكا

دخل أول إنسان إلى أمريكا من شمال شرق اسيا عبر شريط من الأرض يعبر مضيق بيرنج خلال عصر الجليد الأخير (حوالى ١٢ ألف عام قبل مولد المسيح). بدأت موجات من الصيادين تتخلل أمريكا الشمالية وتقتن فى الأماكن غير المغطاة بالجليد. قابل الصيادون جماعات كبيرة من الحيوانات آكلة العشب: الماموث والجمال والفرس والبيزون، وخلال ستة آلاف عام تم القضاء نهائيا على خمسة وثلاثين نوعا من تلك الحيوانات فى أمريكا الشمالية. تكاثر الإنسان بينما انقرضت مجموعات كبيرة من الحيوانات.

تم القضاء على الحيوانات بسرعة فى العالم الجديد بينما بقيت على قيد الحياة فى العالم القديم لصغر مساحة العالم الجديد وسهولة الاتصال بين أرجائه المختلفة. ثانيا نظرا لطول مدة بقاء الإنسان فى العالم القديم فقد وصل إلى نقطة توازن وتكيف مع ضحاياه وأعدائه وأمراضه بينما كان اختراقه للعالم الجديد حربيا على ضحاياه وأمنا له من أعدائه وأمراضه - حتى لاقى الإسبان.

كانت هذه هى بداية حياة الإنسان فى أمريكا. وصل خلال ثلاثة آلاف عام إلى الطرف الجنوبى فى أمريكا الجنوبية ثم بدأ فى احتلال جزر البحر الكاريبى. تتابعت موجات المهاجرين والغزاة من الجنس المغولى، ذو السحنة الصفراء فى خضرة، التى تشابه لون الزيتون الأخضر، وذوى الشعر الأسود الناعم وذوى العيون المطوية. آخر تلك الموجات كان الاسكيمو الذين استوطنوا ألاسكا والسواحل الشمالية لكندا فى الألف سنة التالية لميلاد المسيح. أولئك هم مجموعة البشر الذين استوطنت جماعة منهم جرينلاند فى القرن الرابع عشر الميلادى - اسكيمو القطب الشمالى والذين ظلوا منعزلين تماما من بقية البشر لخمسة عشر جيلا، ويعتبرون من أنقى صنوف البشر عرقيا. كانت غالبية هؤلاء البشر من الجنس المغولى منفصلين عن بقية سكان العالم القديم بانعزالهم فى القطب

الشمالي. ظلوا على مدى خمسمائة جيل محتفظين بسحنتهم المميزة وشعرهم الأسود الناعم وذقنهم الغزيرة وأحياناً بلون جلدهم الداكن. ما زال سكان فنزويلا الأصليين يصبغون وجوههم - مثل عرب حضرموت - وقاية لهم من أشعة الشمس. اختلف الأمريكان كثيراً في كثير من الوجوه بعد زيادة أعدادهم في مساحات شاسعة. اختفى عامل الانتقاء الطبيعي. عدم إصابتهم بأمراض العالم القديم كانت عاملاً آخر. اختلفت بعض فصائل الدم الموجودة في إنسان العالم القديم بالانتشار السريع للإنسان في العالم الجديد. ظهرت تكيفات جديدة من الحياة في أعالي جبال الأنديز ومن المعيشة في الغابات الاستوائية أو في الصحارى الكبرى في الشمال والجنوب. وكان العامل الأساسى في الاختلاف هو البرزخ الضيق التى يصل أمريكا الشمالية بأمريكا الجنوبية الذى كان على جميع من دخل أمريكا الجنوبية أن يعبره.

ظهرت الزراعة في العالم الجديد في نفس وقت ظهورها في العالم القديم، مع بدء تراجع الجليد، وبدأت في الأماكن التى كان على الناس أن يتجمعوا فيها نتيجة نقص مساحات الأرض. انفصلت تلك الأماكن عن بعضها البعض بالجبال العالية والغابات الكثيفة والصحارى الجافة، وبعدت عن بعضها البعض كثيراً. تختلف الأربعة آلاف ميل المتعرجة الممتدة من أريزونا إلى بوليفيا اختلافاً حاداً عن الألف ميل الممتدة بدون عوائق في الهلال الخصيب. ظهرت الزراعة في أمريكا في أمكنة متفرقة يقطنها إنسان مختلفون، اختص كل منهم بزراعة أنواع خاصة من المحاصيل، ثم زاد تنوع تلك المحاصيل حتى تتمكن من الإبقاء على حياة البشر، لأن أياً منها لم يكن له تلك الصفات الغذائية المتكاملة للقمح أو للرز الذين استزرعهما الإنسان في العالم القديم. ظهرت الأذرة والبقول والقرع كنباتات برية أكلها الإنسان في المكسيك حوالي خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وقد حمل الإنسان القرع - ومنه القرع العسلى - جنوباً أثناء ترحاله وتم تهجين ثم اختيار أنواع معينة منه لاستخدامات مختلفة في مرحلة مبكرة. نفس الشيء حدث في البطاطا التى نشأت من تضاعف عدد الكروموزومات من بعض الأنواع البرية المختلفة. توصل الإنسان القديم إلى جمع عدد من النباتات المختلفة التى تحوى التوابل والشراب والسعوم والعقاقير، ثم انتشرت تلك النباتات بين بنى البشر بالسرعة ذاتها التى انتشرت بها نباتات التغذية. وهكذا، بحلول الألف سنة الثالثة والثانية قبل الميلاد هيات تحركات البشر إلى حثوث اختلافات في الأعراق البشرية وفي المحاصيل الزراعية وفي المخترعات التقنية - خاصة صناعة الفخار - التى بنيت عليها فيما بعد حياة القرى والنبين، أظاها أن نباتات المنيهوت والبطاطا والطباق والكاكاو انتقلت في الاتجاه المضاد لتحرك البشر، فقد انتقلت من الجنوب من بيرو شمالاً إلى المكسيك في الألف سنة الأولى قبل الميلاد حينما أنشئت أول دولتان في أمريكا: في بيرو وفي المكسيك. بينما فشلت محاصيل أخرى في الانتقال عبر برزخ بناما - مثل البطاطس - التى لم

تصل إلى أمريكا الشمالية حتى أحضرها الإسبان إلى فلوريدا وأدخلها الإنجليز إلى فيرجينيا. كذلك عادة التدخين – التي نقلها المستوطنون من المكسيك عبر نهر المسيسيبي لم تجد طريقها ثانية إلى بيرو الوطن الأصلي لنبات الطباق حيث ما زال السكان الأصليون يستنشقونه كنشوق. كذلك حيوانات اللاما وخنزير غينيا ظلت حيوانات بأمريكا الجنوبية والديك الرومي بقى بأمريكا الشمالية. تشير القرائن أن تلك التحركات لم تنشأ من انتقال البشر عن طريق الأرض ولكن نتيجة رحلات صيد سمك غرقت فيها السفن وتمكن الأشخاص من بلوغ الشواطئ على سواحل المحيط الهادى. كذلك انتقل الأناناس من البرازيل عبر جزر البحر الكاريبى إلى المكسيك. بخلاف تلك التنقلات بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، حملت تنقلات أخرى نباتات وحيوانات أخرى إلى أماكن بعيدة عبر المحيط – حمل البجارة أصناف البطاطا المحسنة فى الألف سنة السابقة لمولد المسيح إلى جزر البولونيز حيث بدأوا فى زراعتها وفى تكوين مجتمعات بها. كذلك نقل الفخار اليابانى – أثر غرق سفن ووصول الركاب إلى الشواطئ – إلى الاكوادور. قد يكون لمثل تلك الانتقالات – حتى بدون النساء – أثر بالغ فى المجتمعات الصغيرة فى الجزر البدائية ولكن من المستبعد أن يكون لها آثار بعيدة فى المساحات فى القارات. وهكذا يكون الأمريكيون قد نشأوا فى عزلة عن باقى العالم حتى الكشف الأسباني.

كشف الإنسان فى أمريكا – منفردا – خطوات استئناس النباتات، على نفس المنوال الذى انتقل به جامعو الطعام فى العالم القديم إلى زارعين له. وبالتالي تكونت مجتمعات زراعية هاجمها ثم أخضعها ثم حماها ثم حكمها الأقوام التى اشتغلت بالصيد والقنص ثم امتزج المجتمعان وتزاوجا وكونا طبقات فى المجتمع على غرار ما حدث فى العالم القديم. على سبيل المثال تكاثر الغزاة على شعوب المايا حوالى ٨٠٠ سنة بعد الميلاد ثم تمثّلوا الغزاة وصار منهم شعب واحد جديد بنفس الأسلوب التى تمثل به السومريون الأجناس السامية فى بابل قبلهم بثلاثة آلاف عام.

ظلت أقوام العالم الجديد مستقلة عن العالم القديم كما ظلوا مستقلين عن بعضهم البعض. كشفوا منفردين عن فن صناعة الفخار والبناء وزراعة المحاصيل، وتوصلوا إلى طرق الري وإلى تعدين الذهب والفضة. فى أثناء بنائهم لمجتمعاتهم كشفوا عن مزايا الرقيق وفوائد الدين وابتدعوا طقوسا دموية التى تمضخت عن الغذاء بالإنسان فى ديانات الأزتک. ولكنهم فشلوا فى اختراع الكتابة ولم يستنبطوا الحروف والأرقام (ومنها الصفر) إلا بعد ألف سنة حين توصل كهنة المايا إليها ومنهم انتقلت للإمبراطورية فى بيرو. ولكنهم لم يتوصلوا بتاتا إلى سبك البرونز ولم تصل تلك السبيكة إلى شعوب المايا والأزتک قمتا التحضر فى الأمريكتين. ومن هذا يتضح ضعف الصلات الحضارية

التي تهيؤها شعوب صيد الأسماك وغرق السفن ولجوء راكبها إلى الشواطئ، تهي تلك الوسائل انتقال المنتجات والتقنيات الشعبية فحسب. الفتح هو السبيل الوحيد لالتحام مجتمعات كلها ببعضها البعض: انتقال الأسرار الدينية والكتابة والرياضيات واستخدام المعادن والاشتغال بها، فهذه كلها تعتبر من الأسرار التي تحرص المجتمعات على الاحتفاظ بها - في طبقات معينة - وتحرص على عدم انتقالها لمجتمعات أو لطبقات أخرى. وهناك ناحية أخرى لتلك المشكلة وهو الاحتفاظ بلغات منفصلة. تكلم أقوام العالم الجديد ما يقرب من ألفى لغة، أمكن تجميعها في ثلاثين عائلة - كما في العالم القديم اليوم. نشأ هذا الاختلاف على مدى خمسة عشر ألف سنة من جماعة عرقية محدودة من شمال شرق آسيا مما يدل على حداثة تكون اللغات (وليس على حداثة الأصوات المختلفة)، بعيدا عن امتداد اللغات بالعالم القديم: اللغات السامية والارياية والصينية ولغات البانتو. حدث الامتداد في العالم الجديد من التوسع في تملك الحيوانات (التي ساعدت على امتداد إمبراطورية الإنكا) ومن وجود مساحات شاسعة قابلة للزراعة حيث امتد المزارعون بعد استقرارهم وتكاثروا سريعا. لم يوجد هذا العاملان في أمريكا حيث منعت الجبال العالية من توسع البشر وامتدادهم وعاقبتهم الغابات ومنعتهم المحيطات.

نشأت إمبراطورياتان فقط في أمريكا، إمبراطورية الإنكا وإمبراطورية الأزتك ومنعت صحارى شيلى والمكسيك من امتدادهما. قبيلة الإنكا كانت تعيش حول بحيرة تيتيكاكا (وفي جنوب بيرو) في جبال الأنديس على ارتفاع ١٢ قدم من سطح البحر. غزت البلاد المجاورة وفتحتها وأنشأت إمبراطورية عظمى تحكى بناياتها المرتفعة عمارة مصر بعظمتها، واستمرت تمتد بفتوحاتها شمالا حتى (إكوانور الحالية) وبتفوحاتها جنوبا حتى نهر مول في وسط شيلى الخصب. بلغ امتداد إمبراطورية الإنكا ٢٥٠٠ ميل (مما يعادل فتوحات الإسكندر الأكبر). حدثت تطورات مذهلة في تلك الإمبراطورية تعادل ما أحدثه الفرس الأقدمون والإغريق الهيلينستيون والرومان. زرعوا حكاما من الإنكا في كل الأقاليم التي تم فتحها وكونوا فرقا حربية مختلطة من الأهالي وانتقوا زراعا مجيدين ونشروا كهنة للتبشير بالدين الملكي - دين الشمس. نشأت تلك الحضارة من تعاون قبيلة محاربة وطبقة من الكهنة. لم يسترقوا المواطنين ولم يستعبدهم ولكن كخدم تحت إشراف النبلاء المحليين وبمعونتهم في الضياع الإمبراطورية وحرصوا على ألا يعرضوا مواطنيهم لارتفاعات لم يتكيفوا عليها في الجبال العالية بهذا استقر السلام والأمان وازداد توسع الإمبراطورية وصارت إمبراطورية متعددة اللغات. شقوا الطرق وبنوا المصاطب (الزراعية) وشبكات من قنوات الري وأدخلوا منتجاتهم ومحاصيلهم الزراعية الراقية وصناعاتهم المتقدمة إلى الأماكن الخالية من السكان. بهذا امتدت زراعات الأذرة حتى وصلت إلى شواطئ المحيط الأطلنطي وأدخلت محاصيل جديدة من شيلى ومن أحواض نهري الأمازون والبلتيت.

نشأت حضارة أخرى فى المكسيك. نشأت حضارة فى مايا واقتصرت على ياكنان، ونشأت حضارة أخرى بين الأزتك الذين كانوا حريصين على إخضاع جيرانهم لأخذ الجزية منهم - مما مكنهم من جعل عاصمتهم على البحيرة - عظمة الثراء وكثيرة السكان - مثل مدينة البندقية فى حضارات العالم القديم. والهدف الثانى من إخضاع جيرانهم هو أسر أبنائهم ليس لاستخدامهم كخدم أو رقيق وإنما للتضحية بهم كطقس من طقوسهم الدينية - توقفوا فى تطور حضارتهم عند هذه المرحلة الوجدانية والدينية - المرحلة التى سبق أن مرت بها كثير من حضارات العالم القديم حيث كانت التضحية بالبشر وإراقة دماهم أعظم لديهم من استخدامهم كعبيد. ربما كان الكشف عن البرونز واستئناس الأبقار هى التى أخرجت حضارات العالم القديم من تلك المرحلة. شابته حضارة المكسيك فى الألفية سنة قبل وبعد الميلاد نفس الملامح التى حدثت فى حضارات البحر المتوسط ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد واعتمدت على مغامرات المغامرين ونفى المنفيين من بلادهم ورحيل الأفراد والعائلات والجماعات والقبائل إلى حدود العالم المعروف حينئذ ثم إلى البرارى المجهولة فى الشمال. بهذه الوسيلة نشأت مجتمعات جديدة، زراعية فى أغلبها ومكونة دائما من جنس هجين. فقد هؤلاء المهاجرون من المكسيك مهاراتهم فى الفنون المكسيكية وفى الكتابة وفى أعمال التعدين. ظهرت أولى تلك المجتمعات فى الألف سنة السابقة للميلاد فى سهول أريزونا: قبائل البويبلو، وظلوا محتفظين بنقائهم العرقى على مدى ستين جيلا ويعرفون باسم جنس البويبلو. يحفر الرجال ويبنون وتفزل النسوة وينسجون مع التساوى فى الحقوق والواجبات بدون وجود كهنة يتوارثون المهنة بينهم. عبر المهاجرون من المكسيك نهر المسيسيبي ووجدوا سبيلهم إلى أوهايو. علم المهاجرون المكسيك الأهالى الفنون المكسيكية ومنها فنون الحرب والقتال ونشأت مجتمعات حكمها ملوك ورؤساء واسترقوا العبيد وبناوا مقابر ضخمة ومعابد عظيمة فى الألف سنة بعد ميلاد المسيح - تشابه تلك المجتمعات بالنسبة للمكسيك مجتمع الاتروسكان بالنسبة للبابليين. ابتلعت أقوام من غزاة الشمال من تلك المجتمعات حيث عمل النساء بالحفر وعمل الرجال بالصيد والقنص والقتال. استمرت بينهم طقوس الغداء بالدماء البشرية والتعذيب كما بدأت فى المكسيك، بهذا اختلفوا تماما عن البويبلو الذين اختفت بينهم تلك الطقوس. استمرت زراعة الأذرة وانتشرت فى كل ربوع أمريكا الشمالية وجاعوا بها من أصلهم بالمكسيك. كما نشأت أعمال أخرى فى بعض المناطق مثل زراعة الطباق والتجارة، وظل هذا هو حال الهنود الحمر الأمريكيين حتى غزاهم الأوروبيون.

فى عام ١٤٩٢ أتم الأمراء الكاثوليك فى قشتالة وأراجون مهمتهم فى تحرير إسبانيا من العرب بفتح غرناطة. وفى نفس العام وصل مبعوثهم الخاص - كريستوفر كولومبوس - إلى جزر الهند الغربية، وجدوا الجزر كثيفة السكان تقطنها قبائل يتحدثون بلغة أراواكان مما يدل على أنهم دخلوا

خلال الجزر الكثيرة من جهة ترينيداد - أي من أمريكا الجنوبية - ربما قبل ألف عام. كانت تلك القبائل في ذلك الحين تكاد تدفعها للخارج مجموعة من الغزاة - الكاريب - من أكلى لحوم البشر الذي أتوا من نفس الجهة، ولكن لم يثبت أن أيا من الجنسين أقام صلات منتظمة مع السواحل القريبة لأمريكا الشمالية. كان الغزاة الجدد مغامرون أشداء أتى معظمهم من الجزر التي جعلوها قاعدة لهم في هيسبانيولا وكوبا وجامايكا، ومنها رحلوا وتعرفوا على الحضارات التي لم تكن معروفة في أمريكا.

في خلال خمس وعشرين سنة، في عام ١٥١٧ بدأوا في التجول على سواحل المكسيك، وبعد عامين استطاع أشد أولئك المغامرين وأكثرهم فطنة وذكاء - هيرناندو كورتيس - الشاب الذي بلغ من العمر أربعة وثلاثون عاما أن يتحدى ثم ينتصر على دولة المكسيك وحضارتها. استولى على عاصمة الأزتك في الجبال بقوة تعدادها ستمائة من الإسبان. بعد اثنتا عشر عام استطاع تلميذه بيزارو - الذي فاقه في عدوانيته - أن يكرر نفس ما فعله بقوة تعدادها ١٨٢ رجلا. كانت سلسلة العمليات الحربية والسياسية التي أخضعت البلاد مما لم يشهده التاريخ من قبل. لأول مرة في التاريخ تصارعت قوى حضارات العالم القديم مع العالم الجديد بعد فرقة دامت خمسمائة جيل. تصارعا وتحاربا ثم تزاولا وتناسلا مع بعضهما البعض. كانا مختلفان أشد الاختلاف في المزاج والطباع واللغة والألوان. ولكنهما كانا متماثلين في التركيبة الاجتماعية، فلدى كل منهما ملك أو رئيس ورجل دين وعبيد، حتى إجراءات المحاكم المكسيكية وأخلاقياتها، فقد اتضحت للزائرين الجدد كما كانت لأهل البلاد.

حطم كورتيس وبيزارو إلى الأبد التركيبة الاجتماعية والسياسية التي بنيت عليها تلك الإمبراطوريات وحل محلها - في سنوات قليلة - مؤسسات تعتمد على المحاربين ورجال الدين المسيحيين بديلا عن تلك الإمبراطوريات الوثنية. صار الحكام من الإسبان أو من جنس هجين من الإسبان والأهالي. كان الجنود الإسبان يسعون نحو الذهب والفضة والعبيد وكانوا يذبحون بلا رحمة أو شفقة الجنود المحليين - خاصة النبلاء منهم - إذا وقفوا في سبيلهم. وكان هناك القسس ورجال الدين الكاثوليك والرهبان الذين مارسوا القتل والتذبيح أيضا لمن كان يعترض على اعتناق المسيحية الكاثوليكية. ولكن بعد التحول إلى الكاثوليكية وقبول حكم الغزاة تفرغ الجميع للإبقاء على خضوع الجماهير للحكم الجديد والدين الجديد. كان العلم والتنوير والمعدات الحربية والألوان هي أسلحة الغزاة الجدد. بالتدرج بدأ الأهالي يعجبون بمهارة القادة وعلم السادة واقتنع الأهالي شيئا فشيئا أن المستعمرين لم يكن هدفهم الذهب والفضة والعبيد بل سعيهم لتحرير العقيدة وتنوير الأهالي من الوثنية التي كانوا يعتقدونها.

كانت وسائل الحد من التكاثر التي يستخدمها حكام الأزتك فى المكسيك مكروهة أشد الكراهية من الأهالى ورفضها الإسبان - رغم فاعليتها الشديدة، أكل لحوم البشر - الذى كان يمارس كأحد الطقوس الدينية - كان مرفوضا من كافة الديانات، (استبدل القسس المسيحيون العذاب معاشرة الأولاد (الذين كانوا يلبسون ملابس البنات) فى العلن فى أمريكا (بعد أن كان يمارس خفية فى أوروبا). فضح كورتيس ممارسات حكام الأزتك خلال غزوه للمكسيك ونال شهرة وأسعة بين الأهالى لحدته ذكائه فى استخدام الأساليب الاجتماعية والسياسية بالإضافة لمقدرته الحربية، فى انتزاع الملك من حكام الأزتك، كان أول المتحولين إلى المسيحية هن النساء الذين تزوجهن الغزاة بعد أن خمدت الحرب وهدأ القتال. كان لإحدى النسوة «كاسيك» من تباركو - التى تحولت إلى المسيحية وصارت تعرف باسم دونا ماريا - أكبر الأثر فى تحول الجماهير. رافقت ماريا كورتيس إلى المكسيك وأنجبت غلاما - دون مارتن كورتيس. بالمثل أنجبت أخت من الانكا ولدا هجينا - صار المؤرخ جارسيلاسيو إنكا دولافيجا (١٥٤٠-١٦١٦). بمثل هذه الأحداث تأكد الفتح الإسبانى، تم زوال الطبقة الحاكمة القديمة وابتدع جنس من المهجنين التابعين، عمل الدين والآلات والنساء على خلق شعوب جديدة ولكن كان لسلحين آخرين أبلغ الأثر فى القضاء على الهنود الحمر نشنا مع أربعة آلاف سنة من تاريخ تلك الشعوب فى أمريكا.

أولاهما كان الفُرس، الذى جلبه العرب إلى إسبانيا منذ عهد قريب، والبارود الذى بدعه القديسون كعامل سحرى لمساعدة الإسبان. ساعدت الخيل الغزاة على حكم أوروبا لألقى عام ولحماية حكوماتها، أما بالنسبة لأمريكا فقد دمرت الخيول حضارات الهنود الحمر. كما سيق ودمر الهكسوس حضارة مصر القديمة منذ ثلاثة آلاف عام. سحب الغزاة الإسبان الخيول من إسبانيا وقرن ونصف ساد الإسبان أمريكا بخيولهم من سانتافى إلى بامياس، نفس الحيوان الذى قضى عليه الهنود الحمر أيام غزوهم العالم الجديد. كان العامل الثانى فى أيدى الإسبان الذين ساعدهم بتؤده وفى الخفاء هو المرض. منذ الحملة الأولى لكولومبوس بدأ الأوروبيون والهنود الحمر فى تبادل الأمراض. اكتسب الأوروبيون الزهري (البثرات الكبرى) واكتسب الهنود الحمر الجدرى (البثرات الصغرى). أعقب ذلك انتشار الحصبة والدرن والحمى الصفراء والمالاريا، وقد عانى سكان العالم الجديد من أمراض العالم القديم أشد المعاناة، وقد تخلص الجنس الهجين تدريجيا من وطأة الأمراض التى أعقبت لقاء سكان العالمين.

ذبح الإسبان عددا كبيرا من سكان العالم الجديد وقضت أمراض العالم القديم على عدد آخر منهم. تم قتل أعداد كبيرة من الهنود الحمر فى سلسلة متتالية من القتال والمعارك والبطش. وقضت

موجات من الأوبئة والأمراض المعدية على عدد كبير آخر منهم حتى تم تهجينهم مع الغزاة. جاء غزو الإسبان والبرتغاليين لأمريكا اللاتينية أولاً في القرن السادس عشر أما غزو من يتحدثون الإنجليزية فجاء أغلبه في القرن التاسع عشر كجزء من توسع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان شكل الغزو مختلفاً. غزا الإسبان والبرتغاليون أمريكا بالرجال الذين لم يجلبوا نساء معهم (باستثناء الحكام) أما الإنجليز فأحضروا معهم نسوتهم (باستثناء التجار). جاء غزو الإنجليز بعد أن تهجن الهنود الحمر وصارت لديهم مقاومة لأمراض أوروبا وبعد أن تعلموا فنون الحرب الأوروبية واستخدموا أسلحتهم وركبوا الخيل. لكل تلك الظروف المتغيرة تغيرت تركيبة مواطني أمريكا. قضت الأمراض تماماً على الكاريب في القرن السادس عشر وعلى الفيجيون في القرن التاسع عشر وعلى الصيادين في بحيرة تيتيكاكا في القرن العشرين. ولكن ظلت أعداد كبيرة من الهنود الحمر تعيش في الولايات المتحدة حتى اليوم. اختفى المتحدثون باللغات الهندية الأصلية تماماً حالياً من جزر الهند الغربية ومن أروجوأي ومن الأرجنتين وكل المتواجدين في تلك البلاد حالياً قد تهجنوا مع الإسبان أو البرتغاليين أو الزنوج الأفارقة. ماذا حدث للسكان الأصليين؟ ذُبح المقاتلون وطُرد الكهنة وبُمرت المعابد والقصور وانتهت الدولة واختفى الملوك وتولت طبقة جديدة الحكم ووضعت على قمة المجتمع. كانت الطبقة الحاكمة الجديدة لا تدرى شيئاً عن الزراعة والرعى وتربية الحيوانات في بلادها الأصلية وقد اجتذبتهم أمريكا للحصول على الذهب والفضة، وحصلوا على ما وجدوه. وعندما اختفت تلك العناصر الثمينة صاورا في ضياع في بلدهم الجديد واندثرت حقول الخضروات المزدهرة التي كان يملكها الأزلت، ودمرت المصاطب الشاسعة وقنوات الري المتقدمة التي أقامها الإنكا إلى غير رجعة. في بيرو، في عام ١٥٣٥، بعد ثلاث سنوات من الفتح، أنشأ بيزارو عاصمة جديدة له ونقل مقر الحكم من مدينة كوزكو في أعالي الجبال إلى المدينة الساحلية ليما، حيث يتمكن الإسبان من العيش والتنفس، الميناء التي يمكن تجميع خيرات أمريكا الجنوبية فيه ومن ثمَّ يشحنها الموظفون الإداريون إلى مدريد. في كل تلك الظروف التي تعمل على تدمير الحضارات القائمة كان التهجين مع المواطنين الأصليين هو الذي أنقذ البلاد تدريجياً من الدمار الكامل، وكان نسلهم - وليس السكان الأصليون - هم الذين حافظوا على البلاد. وقد شارك في البناء والتقدم كل شعوب العالم القديم.

هناك فروق واضحة بين الجيل الأول والجيل الثاني من المهجنين. القبائل التي حافظت على لغاتها الأصلية هي القبائل التي احتفظت بطريقتها في المعيشة - رغم تهجينها - مع أقوام من أوروبا. كان الرجال يعذبون ويقتلون، أما النساء فكن - يحتضن ويتزوجن. وقد تم نفس هذا الأسلوب مع التجار البيض والذين يتم أسرهم من البيض. حدثت كل صنوف الخلط بين مختلف الأجناس وتبعه خلق أجناس جديدة وطبقات جديدة امتلأت بها أماكن جديدة في مجتمعات جديدة. حدثت أمثلة

مشابهة لما حدث فى أمريكا اللاتينية فى الولايات المتحدة وفى كندا فى القرنين الثامن والتاسع عشر، وكثير من مشاهير زعماء قبائل الهنود الحمر من المهجنين - وقد يعزى إلى هذا إتقانهم لاستخدام الأسلحة الأوروبية ومهاراتهم فى ركوب الخيل عندما كانوا يلاقونهم فى المعارك. ظلت بعض قبائل الهنود الحمر حتى الآن من أصل هندي تماما، لعل أبرزها قبيلة الموهوك ذات المهارة الفائقة فى صنع وفى قيادة القوارب المائية. وهى القبيلة التى تقطن فى الجبال المرتفعة من مونتريال، ويعيش عدد منهم فى ولاية نيويورك وقد تخصصوا فى إقامة التركيبات من الصلب وعن قريب سيتم ابتلاعهم فى المجتمع الأمريكى.

لعل أنجح مجال برع فيه الهنود الحمر المهجنين فى عصرنا الحاضر هو فى تربية الحيوانات (حتى ولو كانوا غير مهجنين) خاصة فى مجال استئناس الخيل (التي هرب بعض منها بعد الحروب مع الإسبان إلى البرارى وصارت متوحشة تحتاج لإعادة الاستئناس) وقد اشتهر فى هذا المجال هنود المافاهو الذين رحلوا جنوبا من كندا وتخصصوا فى استئناس الخيول فى أريزونا بدءا من عام ١٦٦٠. بعد حين - فى عام ١٧٧٠ - وصلت الخيول البرية غير المستأنسة إلى الميسيسبى وإلى كندا ووصل عددهم إلى خمسة ملايين فرس - وبعد استئناسهم وإتقانهم لاستخدام الأسلحة النارية تمكنت قبائل الهنود الحمر إلى حين فى وقف تقدم الأنجلوساكسونيين والمستعمرين الأمريكان الجند إلى غرب الولايات المتحدة حتى القرن التاسع عشر: كذلك تعاون الهنود الحمر مع الكايبوين الأمريكين فى القضاء على حيوان البيزون - أكل العشب الضخم الذى يقطن سهول أمريكا - وكذلك على الماستنج (فرس السهول الأمريكية البرى الصغير) - وحل مكانهما صنف لونهاجوتون من العاشية التى أدخلها الإسبان معهم عند مقدمهم إلى أمريكا وصار هو الحيوان الأساسى الآن فى أبقار تكساس. كذلك أدخل الإسبان الغنم إلى أمريكا، وانتشرت فى جبال روكى، ويرعاها حاليا أقوام من رعاة الغنم من الأوروبيين الباسك ومن قبائل نافاهو من الهنود الحمر. وهكذا صارت رعاة العاشية ورعاة الغنم ومربو الخيول فى أمريكا من كانت مهنتهم سابقا هى الصيد والقنص - كما فى العالم القديم - أما بعد القضاء الكامل على زراعى الأرض فلم يمكن الاستعاضة عنهم فى أمريكا إلا باستيراد فلاحين جدد من أفريقيا.

قابلت حاكم جاميكا الإسبانى عام ١٥١٥ مشكلة من يحل محل قبائل الأراواك المحلية - زارعو الأرض - الذين تم القضاء عليهم - بعد ثلاثة وعشرين عاما فحسب من وصول الإسبان إلى أمريكا. نصحه الناصحون باستيراد العبيد من المستوطنات البرتغالية فى غرب أفريقيا، ووصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى أمريكا بعد عامين. احتل أسطول إنجليزى جاميكا عام ١٦٥٥ وازداد استيراد

الزنج من أفريقيا زيادة كبيرة، حتى منعت الحكومة البريطانية عام ١٨٠٧ أى بعد ٢٩٠ عاما من بدء هذا العمل. جاء العبيد الزنج من أماكن كثيرة من غرب أفريقيا باصطيادهم ثم بيعهم بواسطة تجار عديدين من الذين اتقنوا دراسة خصائص القبائل الأفريقية المختلفة وقدروا أثمانا مختلفة لكل طائفة من أنواع الأسرى الأفارقة. بيع العبيد فى مزارعهم فى أنواع مختلفة من الأعمال. كان الفرنسيون يفضلون الماندينجو وذهب غالبيتهم إلى هايتى. جاء البوبو والويداه من داهومى وعملوا فى الأعمال الشاقة التى تتطلبها زراعة قصب السكر. ثم قدمت مجموعات من أنجولا وكالابار وجامبيا الذى عملت نساؤهم بأعمال أكثر مشقة من أعمال الرجال، وجاء الإيبو من نيجريا، وكان معظمهم يموت من الأعمال الشاقة كعبيد ولم ينجو من الموت سوى من عمل بالخدمة فى البيوت. وأخيرا كان هناك المحاربون الأشداء من الأشانتى - الذين عرفوا باسم المورينو أو السمير - ولم يفلحوا كمزارعين فعهد إليهم بتربية الخنازير والعناية بها.

بعد احتلال الإنجليز لجاميكا حدث خلل مفاجئ فى التوازن الإيبانى - الزنجى فى المجتمع. اتصف خدم البيوت بالإخلاص لساداتهم فهربوا معهم إلى كوبا بينما بقى عبيد المزارع مع الإنجليز الذين حرصوا على بقائهم فى مزارع قصب السكر - تلك المزارع التى عادت على الطبقة الحاكمة الإنجليزية بالريح الوفير (مثل عائلات بكفورد وراسل وجروفز وجلادستون). رفض المورينو ترك تربية الخنازير وإعطائها للسادة الجدد وبعد ثمانين عاما من العصيان والثورات المتتالية انتصر المارون. أما بقية أصناف العبيد الزنج فقد اعتادوا على زراعة الأرض واستعذبوا حياتهم كعبيد لساداتهم. اتخذ ساداتهم البيض نساؤهم كعشيقات وتحررت كثير من ذريتهم من رق العبودية، بينما استمر بعضهم كرقيق. تغير الزنج فى ملامحهم وفى لون بشرتهم وصاروا أكثر اختلافا، كما تغيرت عقلياتهم ونكاؤهم وطباعهم ولم يعودوا نفس القوم الذين أتوا من أفريقيا وخضعوا للرق والعبودية. زالت الفوارق القديمة بين الأسياد والعبيد وبدأ الثوار يظهرون بينهم. حدثت أولى الثورات عام ١٧٧٠ واستمرت بصورة متقطعة لقرن كامل.

بنهاية القرن الثامن عشر لفتت الثورة الفرنسية أنظار الأوروبيين أن نظام الرق وعبودية الإنسان لأخيه الإنسان لم يعد مقبولا ومن الصعب تنفيذه. كذلك بدأ مالكو العبيد - مثل جورج واشنطن - يرون أن تلك التجارة لم تعد رابحة كما كانت فى الأزمان الغابرة. بدأت بريطانيا - بسيادتها على البحار - فى منع التجارة بالرقيق من عام ١٨٠٦ وأوجبت تحريرهم. حدثت صعوبات فى تنفيذ هذا القرار، منها التعويض الواجب دفعه لمالك العبيد المحررين، ومنها أن العبد الذى تحرر يفقد حماية سيده وربما يفقد عمله؛ وهكذا استمرت عملية تحرير الرقيق تجرى ببطئ طوال القرن التاسع عشر كما يوضح الجدول رقم (٢٦). ولكن استمر الرقيق فى الحبشة والبلاد العربية حتى

جدول رقم (٢٦)

تواريخ منع تجارة الرقيق في بعض بلاد أوروبا وأمريكا

	١٨٢٩	المكسيك
(تم عام ١٨٣٨)	١٨٣٣	بريطانيا
	١٨٤٨	فرنسا
(تم عام ١٨٧٨)	١٨٥٨	البرتغال
	١٨٦٣	هولندا
(تم عام ١٨٦٥)	١٨٦٣	الولايات المتحدة الأمريكية
(تم تحرير نصف مليون عبد ويبلغون ثلث تعداد السكان)	١٨٨٦	كوبا
(تم تحرير ٧٠٠ ألف عبد)	١٨٨٨	البرازيل

القرن العشرين. زواج أمريكا ينحدرون من العبيد السابقين بينما ينقسم البيض إلى الفقراء والمتيسرين، وينحدر معظم الفقراء البيض من المجرمين السابقين الذين تم نفيهم من أوروبا إلى أمريكا. تكاثر كل صنف على حدة، ولكن بعض النساء السودكن يفضلن العيش مع رجال بيض كعشيقات (وفيما بعد مع رجال صينيين) بدلا من الزواج من رجال سود. على سبيل المثال يبلغ عدد الأطفال غير الشرعيين في جاميكا ثلثي جميع المواليد وتؤكد هذه النسبة مدى اختلاط العرقين مع بعضهما البعض. وظلت بعض النسوة السود عوانس في كل جيل (وكما تكثر العوانس في الهند) وهكذا ينتشر العرق الأبيض تدريجيا في الأجيال المتلاحقة.

يرتبط المركز المادى وثراء الأفراد بتكاثرهم. كلما زاد ثراء الرجل كلما نزع إلى الارتباط بامرأة بيضاء أو امرأة مخلطة فاتحة اللون وهكذا ظل لون البشرة يعبر عن المركز الاجتماعى ودرجة ثراء الأفراد فى المجتمعات الأمريكية. يتلازم مع لون البشرة درجة تجعد الشعر والملامح الزنجية فى الوجه فى سوق الزواج وينطبق هذا فى كل طبقات المجتمع وفى كافة العلاقات الجنسية.

تشكلت طبقات جديدة فى المجتمعات الأمريكية وزاولت أعمالا مختلفة. هناك طبقة عليا من البيض من ذوى الأملاك والمهنيين ويدرنون بالمذاهب الانجليكانية أو الكاثوليكية. وهناك طبقة وسطى من الملونين أو السود فاتحى البشرة يدرنون بالبابتست ويعملون بالتجارة أو الأعمال الكتابية. وهناك طبقة دنيا منقسمة إلى أقلية من فقراء البيض وأغلبية من الزنوج داكنى البشرة يعملون بالأعمال اليدوية غير الماهرة ويعملون نظير أجر لدى غيرهم أو يعملون بزراعة الأراضى، وينجب من أولئك

بعض الجماعات، وأخيرا هناك مجموعة من المهاجرين بصفاتهم الخاصة وأعمالهم المعينة مثل السوريين والهنودوس، كذلك هناك الصينيون الذين كانوا يعملون بالفلاحة في بلادهم ولكنهم صاروا تجارا عندما قدموا إلى أمريكا، ويرعوا في التجارة.

لتجارة العبيد الأفارقة في أمريكا آثار عميقة وواضحة ومختلفة من مكان لآخر ففي أمريكا اللاتينية والاستوائية، لأن الأوروبيين لم يستقدموا زوجات أوروبيات من البيض معهم، صاروا أقليات في البلاد، عومل الجنس الهجين الذي نشأ منهم بدون تفرقة عنصرية ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى مراكز اجتماعية مرموقة وإلى ثراء عظيم. ولكن في أمريكا الشمالية معتدلة المناخ حظى الأوروبيون من نوى الأصول الأنجلو ساكسونية في أمريكا الشمالية - وكانوا أغلبية عديدة - بقصب السبق، وكانوا يحرصون على العزلة عن المواطنين من الهجين، لاعتقادهم بأن الجنس الأبيض يتفوق على الأجناس الأخرى وكل البيض متساوون.

لجأ البيض إلى استقدام الزوج من أفريقيا في أول الأمر لحاجتهم إليهم في زراعة الأراضي، واستمروا في هذا الأسلوب على مدى ثلاثمائة عام، وبلغ من استقدمهم في تلك الأعوام حوالي ١٥ مليون. لم ينقص هذا العدد - الذي غادر أفريقيا - من أعداد السكان فيها ولم يكن له تأثير على نوعية هؤلاء السكان. ولكن بلغ عدد الزوج في أمريكا حاليا حوالي ٤٠ إلى ٥٠ مليون من الزوج والمختلطين، تكاثر الزوج في أمريكا بعد مقدمهم. بلغ عدد الزوج الذين رحلوا شمالا من أفريقيا إلى البلدان الإسلامية من سنة ٧٠٠ بعد الميلاد حتى عام ١٩٦٠ بعد الميلاد (في مدة تزيد عن أربعة أمثال المدة التي تكاثر فيها الزوج في أمريكا) أكثر قليلا من تعدادهم في أمريكا. ولكن لانتشار تقليد إخصاء العبيد في البلدان الإسلامية كان تأثيرهم على التوالد في تلك البلاد ضعيفا ولم يبلغ الحد الذي حدث في أمريكا.

كانت أول المستعمرات الإنجليزية في أمريكا تلك التي نشأت في ماتسا شوستس عام ١٦٢٠. كان كل المستوطنين من الذين تم نقيهم من إنجلترا والذين لم يقبلوا أوضاعهم الاقتصادية أو لم تتطابق آراؤهم الدينية مع المعتقدات السائدة في وطنهم في ذلك الوقت. استوطن المهاجرون حول النقطتين المركزيتين الأصليتين اللتين تم إنشاؤهما، استقر المليون وأبناء الطبقات العالية والأنجليكان في فرجينيا وتملكوا الأراضي الزراعية الواسعة الصالحة للزراعة في الجنوب، وصاروا إقطاعيين. أما الثوار والخارجون عن المألوف والتجار، الذين رحلوا من بلادهم طلبا للحرية والاستقلالية فقد استقروا في نيو إنجلند في الشمال التي كانت تحيطها الجبال وتقطنها قبائل الهنود الحمر وكان عاندهم الرئيسي من الفراء والأسماك ومنتجات الغابات، ومما هو جدير بالذكر أن الآباء

المهاجرين الأوائل كانوا أيضا يقصدون التوجه إلى فرجينيا ولكن دفعتهم الرياح إلى بليموث، وسعى من جاء بعدهم في عام ١٦٣٠ إلى التوجه إلى مستعمرة الخليج. أعقب أولئك المهاجرون الأوائل موجات متتابعة من المهاجرين من الاضطرابات المتتالية التي حدثت في أكثر القرون اضطرابا في التاريخ الإنجليزي. جاء الكاثوليك هربا من الأطهار في حماية لورد بالتيمور واستقروا في ماريلاند عام ١٦٣٣ واستقرت طائفة الكويكرز برعاية نجل الأميرال بن في بنسلفانيا وكانت الحدود بين ماريلاند جنوبا وبنسلفانيا شمالا هي الحدود الفاصلة بين الجنوب والشمال.

بالإضافة إلى هؤلاء قدم مهاجرون جدد مختطفون من أيرلندا وأفريقيا، وجاء من عملوا كخدم هربا من الفقر، وحضر مغامرون ومستكشفون من بلاد مختلفة، وجاء مجرمون وحضرت غانيات. لم يكن لدى هؤلاء سوى كفايتهم الشخصية ومعهم طاقاتهم ومهاراتهم ومقدرتهم على الحياة بمجهودهم. ازداد تطور البلاد وتقدمها سريعا بنمو طبقة الخدم وانتشار العبيد في الجنوب، كما حدث النقم في الشمال من التنافس ومن الاضطهاد. أثبت مواطنو ماساتشوستس الذين كانوا هم أنفسهم ضحايا للاضطهاد أنهم أشد الناس قسوة وأكثرهم اضطهادا. كانت المعتقدات بالغة الشدة وأدت إلى سياسات في منتهى العنف للمحافظة على طهر المجتمع الجديد. تم القضاء على قبيلة بيكوت تماما - وهم السكان الأصليون للمنطقة بحلول عام ١٦٣٧. لم تفرض الضرائب حتى عام ١٦٨٤. اضطر الرافضون لها إلى الرحيل والاستقرار في الأراضي المجاورة وبذا أقيمت مستوطنات إنجليزية في نيو هامبشير وفي رود أيلاند وكونيكتيكت، وأخذت كل مستوطنة طابعها ودستورها. وكونت تلك المجتمعات انجلترا الجديدة، اختلفت الأحوال في القرن التالي وتكونت مستوطنة جديدة بها كثرة من الفرنسيين في مين ثم تكونت مستوطنة جديدة في جورجيا قامت على أسس رفيعة بقيادة الجنرال أو هيلثروب، في الوسط استقر الهولنديون من البروتستانت مع كثر من الهيجينوت الذين أقاموا في - مانهاتن. بالقرب منهم استوطن الكويكرز في نيوجرسي وبنسلفانيا (وكان هؤلاء أول من تعلم دروس التسامح الديني والقبول الاجتماعي). انتشر القبول والتسامح عبر المستوطنات الجديدة وصارت تدريجيا كلا متماسكا يتكون من إناس نوى أصول واحدة وتاريخ واحد ومصالح واحدة في شئون التجارة والحكم والحرب. إنطفاة حمية الحروب الدينية وفرض بعد المسافة على الموطن الأصلي - الذي كان مسرحا للخلافات الدينية والحروب - على الجميع التعايش السلمى والتعاون في التقدم والنمو للجميع. ولكن ظهرت فروق فردية بين المجتمعات المختلفة. كانت خلافتهم العميقة عن الإله تعكس خلافات عن الإنسان وعن المجتمع وتؤكد خلافات مورثة في الطبع. كانت الهجرة انتقائية وكانت مبنية على خلافات عميقة في المعتقدات والآراء، ووجدت المصالح المشتركة بين المستوطنين

الجدد. انقسم المجتمع الأمريكى إلى فئتين متعارضتين بين من وحدتهم المصالح ومن فرقتهن
المعتقدات والآراء والنظرة للمجتمع، وتمخضت تلك الخلافات عن حدوث حرب أهلية بينهما.

بحلول عام ١٧٧٥ كانت المستوطنات الإنجليزية تكون سلسلة تمتد على طول الساحل الشرقى
لأمريكا الشمالية حتى حدود فلوريدا. بلغ عدد المستوطنين ثلاثة ملايين - حوالى ثلث عدد سكان
بريطانيا. كان نجاحهم البالغ فى تكوين مجتمع أوروبى - يكاد يكون خالصا - إلى حرية الهجرة التى
أتيحت لملاك الأراضى كما أتيحت للفلاحين من إنجلترا، البلد التى تحررت عن جيرانها من التصاق
البشر بأرضهم. كما ترجع الهجرة المتزايدة من إنجلترا أيضا إلى تناوب موجات الاضطهاد بين
البروتستانت والكاثوليك تباعا والتى تعاقبت على فرنسا وهولندا وإنجلترا واسكتلندا وأيرلندا.

فى السنوات الأولى لاستقرارهم كانت القوات الفرنسية والإسبانية تهدد المستوطنين الجدد
على الحدود. كانت آخر المستوطنات الجديدة فى جورجيا وقامت فى أحرش السافانا عام ١٧٣٥
للدفاع عن الحدود الجنوبية ضد الإسبان. أمكن التغلب على تهديد الفرنسيين عام ١٧٥٩ بعد فتح
كندا وظل الهنود الحمر لمسافة ألف ميل على الحدود الغربية وتحالفت معهم حكومة المستوطنين
الإنجليز ضد الأجانب ولم تكن تجد غضاضة فى هذا التحالف ضد مستوطنين آخرين. أخيرا حل
السلام عام ١٧٦٣ وتغير الوضع. فقد أبعد احتلال كندا وجزء من وادى الميسيسيبى التهديد
الفرنسى. وبدأ المستوطنون فى التوسع غربا ومهاجمة الهنود الحمر، وهنا نشأ خلاف حاد بين
أهداف الحكومة البريطانية الحاكمة وبين اهتمامات المستوطنين. أعلنت الحكومة أن نيتها هى تثبيت
الحدود القائمة ومنح الهنود الحمر السلام وإنهاء المشكلة الهندية وفى سبيل ذلك أعلنت الحكومة
قرارها بتثبيت الحدود وترك السهول بين الجبال ونهر الميسيسيبى كاحتياطى للهنود الحمر. طالبت
الحكومة المستوطنين بدفع ضرائب نظير حماية أراضيهم التى تمتد لألف ميل. ولكن المستوطنين
كانوا يرغبون فى امتداد أراضيهم على حساب الهنود من القناصة وتمتد أراضيهم إلى الغرب فى
الأراضى المتسعة وتمتد زراعاتهم إلى كل الأراضى الخالية، وبدأ المستوطنون يحملون بالإمكانات
المتاحة أمامهم. كانت الأرض المحصورة بين البحر (المحيط الأطلنطى) وبين سلسلة الجبال ضيقة
ولم تكن أراضى خصبة، وقد زاد من فقرها التجريف المستمر، أما وراء الجبال فكانت الأرض بكرا،
شديدة الخصوبة وكانت الحياة شديدة الاستقلالية. للمرة الأولى ظهرت الحكومة التى كانت حامية
للمستوطنين تخذلهم وتبوء حامية للهنود الحمر.

لعب مندوب الملك للشئون الهندية - سير وليام جونسون - دورا حاسما فى هذا الشأن. كان
رجلا ذو خبرة واسعة بقبيلة الموهوك فى الشمال، شملت زواجه من عدة نساء من الهنود الحمر.

لاحظ أن الهنود الحمر لم يستقروا فى وادى نهر أوهايو، فجعل هذا النهر هو الحد الفاصل بين المستوطنة الإنجليزية والهنود فى عام ١٧٦٥. بهذا فتح الباب أمام إنشاء مستوطنات جديدة فى كنتكى وفى تينيسى وتقدم المستعمرون من الجبال للاستقرار فيهما عامى ١٧٩٢ و١٧٩٦، ثم فتح الطريق فيما بعد لما صارت إليه ولاية المسيسبى (عام ١٨١٧)، وألاباما (عام ١٨١٩) ودخلتهما واستقرت فيهما مجموعة من الزراعين فى الولايات الجنوبية، فرح الفقراء فى التلال باكتساب تلك الأراضى الجديدة ولكن غضب الأغنياء فى السهول لأنهم كانوا يخشون من الضرائب.

اختلف زعماء نيوانجلند وبنسلفانيا وفرجينيا فى دياناتهم وفى أعمالهم وفى طباعهم ولكنهم اتفقوا فى قرارهم بأنه أن الأوان أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وأن فى هذا القرار فائدة لهم ومكسبا لمواطنيهم أفضل من أن يحكمهم أى شخص يستقر فى انجلترا أو أى مبعوث تبعته انجلترا. (نفس هذا الرأى اتبعته جنوب أفريقيا بعد ستين عاما عندما تم تحرير الرقيق). وضع لهم أن المستقبل سيكون زاها لو استقرت الأمور فى أيديهم. لم يتم اتفاقهم على وسيلة تحقيق هذا الهدف ولكنهم اتفقوا جميعا على نبذ خلافاتهم مؤقتا حتى يتحقق لهم الاستقلال عن انجلترا.

للقيام بالثورة، لا بد من اكتساب تأييد الجماهير. لم يكن الدين حافزا لهم ولكن كان الحافر هو أقوال الأحرار الإنجليز والفلاسفة الفرنسيين. أوضح الثائر الإنجليزي - توم بين - لهم فى كتابه «كومن سنس» فى يناير ١٧٧٦ ما يمكنهم فعله وخط لهم توماس جيفرسون بعد ستة أشهر «إعلان الاستقلال». هكذا أعلنت الطبقات العليا فى أمريكا - أو غالبيتهم - تحديها للمؤسسة البريطانية وصاروا ثورا فى مجتمعهم الخاص. أمكنهم بهذه الدعاية جمع جماهير الشعب حولهم ومواجهة الجيش البريطانى. تكون جيش من المستوطنين الأمريكين، ساعده فرنسا وإسبانيا من دول أوروبا، وعاونته حملة من صغار رجال الجيش من أتباع لافاييت. أثار انتصار هذا الجيش غضب بريطانيا وحنقها. هزم السلاح فى أمريكا العرش البريطانى، ولكن بعد عشرين عاما هزم العرش الفرنسى داخل فرنسا من جراء الديون التى تحملتها الخزانة فى سبيل الحملة فى المستعمرات البعيدة ومن جراء الأفكار الثورية التى تبنتها على الساحل البعيد للمحيط الاطلنطي.

بعد أن خمدت الحرب فى أمريكا بدأت رياح التدمر تهب على الارستقراطيين الأمريكان (كما حدث فى انجلترا عام ١٦٤٩). خلق جميع البشر متساويين؛ وبدأ مالكو العبيد فى ماريلاند وفى فيرجينيا يلاحظون تلك النبرة الجديدة. كانت هناك قوانين فى كل الولايات تحرم زواج البيض من الزنوج. بدأ المستوطنون فى كنتكى يتساعلون متى يتم طرد الهنود الباقين بينهم وبدأ الناس فى كل مكان يتساعلون أى ذنب جناه الفقراء ليظلوا أميين ومشردين، ويستفسرون عما يؤخرهم عن اختيار

رئيس لهم يراعى تطبيق القانون وتشكيل مجلس نيابى يعد لهم التشريعات المناسبة لمجتمعهم. أظهر الدستور الأمريكى الذى تم وضعه عام ١٧٨٧ أن الثورة - كالحرب الأهلية الإنجليزية - كانت صراعا بين فئتين من الحكام: الحكام القدامى الذين استقروا فى مراكزهم والحكام الجدد الذين يتنافسون معهم ويتحنونهم. الفئة الأولى من الملكيين ومن الطبقات العليا والفئة الثانية من الجمهوريين السابقين ولكن كلاهما من الأغنياء نوى الممتلكات ونوى الامتيازات الاجتماعية والأوضاع المرموقة. اضطر كرومويل - فى انجلترا - لاحترام الفروق الوراثية والطبقية أما لدى الأمريكان فلم يكن لتلك الفروق أى وزن. حدث توتر فى الحياة القومية بين النظرية والتطبيق. جمع مبدأ المساواة بين الأمة بأسرها ولكن فرق بينهم التنافس والفروق العرقية. تصاعد التوتر حتى حدثت الحرب الأهلية التى كانت متنفسا للأمة خلصها من حملها. ولكن ظل التوتر قائما بعد أن خمدت الحرب وما زال حتى اليوم (مثل سائر الأمم الغربية).

كان الاطهار من نيوانجلند والكويكرز من بنسلفانيا والكاثوليك فى ماريلاند والإيسكو باليان فى فرجينيا والهيوجينوت فى الشمال وفى الجنوب على رأى رجل واحد جميعا، وقرروا عدم فرض عقيدة واحدة على الأمة بأسرها. الدين الذى وحد بين القبائل والشعوب من قديم الأزل - من أيام السومريين - صار اختياريا ولا يفرض على أحد بالقوة، وهكذا قررت الولايات المتحدة الأمريكية أنه لا مكان للاضطهاد الدينى فى بلادها - حتى ولو كان هو القاعدة فى سائر بلاد العالم. وحد بين الأمريكين تصميمهم على حرية التعليم وطمانيته كما وحد بينهم الهدف الواحد فى حماية هذا المبدأ. استمرت الأمة مقسمة إلى طبقات وإلى دخول اقتصادية متباينة غاية التباين، وزاد هذا الاختلاف بتزايد الهجرة واتساعها على مدى القرون التالية، ولكن ظل مبدأ المساواة يعطى أملا لغير المحظوظين فى صراع الحياة والوجود. زاد عدد الطوائف الدينية وكان عددها يعبر عن اختلاف الأتوام الجدد بأكثر مما تعبر عنه اللغات واللهجات التى انتشرت فى المجتمع الأمريكى. كونت كل جماعة مجتمعا صغيرا داخل الأمة، واختار كل فرد طائفته بكل حرية، وكان ينتقل تباعا بين مختلف الطوائف والعقائد. ظل هذا التفرد فى العقائد حاميا للأفراد من النوبان كلية فى المجتمع. هكذا ظل الدين يقدم خدمة للمجتمع الأمريكى، كما كان اختلاف العقائد مصدر قوة للإمبراطورية الرومانية. كانت هناك حاجة ماسة لوحدة الأمة كما كان خوف زائد من الانفصال عن المجموع وحدث هذا من الوحدة الثقافية بعيدا عن الوحدة العقائدية. وتبين حديثا أن الحفاظ على ثقافة هندية ومكسيكية ورنجية ومحلية مختلفة قد يكون مصدرا لقوة الجمهورية - التى صارت حاليا إمبراطورية عظمى. وهذا هو السبيل نحو التطور الاجتماعى للأمم.

انقسمت الأمة الأمريكية إلى ثلاث مجتمعات مختلفة؛ مجتمع الجنوبيين يسيطر عليه رجال من نسل الفرسان، نوا تقاليد إقطاعية، عسكريون من الريفيين المناهضين للحياة المدنية، محافظون وداخليو التوالد. كان هؤلاء هم السادة. استخدموا لديهم بعض الصناع والحرفيين المهرة وقليل من رجال المهن، كانوا يحتاجون لخدم وعمال رخيصو الأجر يزرعون لهم القطن والطباق والأرز. استوردوا لهذا الغرض ما يكفيهم من الزنوج لخدمتهم ولزيادة رقعة مجتمهم الإقطاعى هذا. أثمرت سياستهم هذه مكاسب اقتصادية هائلة، ولكنهم لبلوغ هذه النتيجة اضطروا لطرده العمال الفقراء من البيض. المجتمع الثانى كان مجتمع الشماليين الذين سيطر عليهم رجال الصناعة الجدد المخترعون والمغامرون والمتحرون من أصل إنجليزى ومن الصناع المهرة من أبناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. جمعوا وطوروا المهنيين والعمال المهرة فى صناعاتهم وتكونت منهم طبقة صناعية ذات خبرة عالية وكفاءة فريدة، ولكنهم كانوا يحتاجون لمساعدين من العمال غير المهرة الذين حرّمهم إلغاء تجارة الرقيق منها. فقدت تجارة العبيد رونقها بين أغنياء الشمال وأثارت شجون فقراء الشمال وغضبهم لأنها تتعارض مع نصوص الدستور ومع مبادئ المساواة. بالإضافة إلى هاذين المجتمعين المتعارضين كان هناك مجتمع ثالث فى أمريكا، لم يحسب حسابه ولم يلق له وزن ولم يعلو صوته، أولئك هم رجال الجبال. جبال الأبالاش تغطيها الغابات إلا حول الأنهار وفى وديانها الضيقة. تفصل تلك الجبال بين المستوطنات كثيفة السكان على الساحل وبين حوض نهر المسيسيبى المتسع وبين أماكن تواجد الهنود الحمر الفسيحة فى الداخل. تخلت الجبال جماعات من المغامرين المزارعين والقناصين آتين من الأجزاء فى أوروبا التى كان الفلاحون القناصون ما زالوا يشغلونها. أول من جاء لتلك البقاع كان المهاجرون اللوثريون والمورافيون وأقوام من سويسرا رحلوا إلى غرب بنسلفانيا عام ١٦٨٢. تبعهم ٣٠ ألف من أقوام من أصل استكتلندى - أيرلندى. حى هؤلاء الألمان من الهنود الحمر حتى تم القضاء عليهم. أضيف إليهم بعد قليل أقوام من الإنجليز والهيوجينوت وتوسعوا إلى الجنوب وملأوا الجبال. كانوا يسمون جميعا بيض الجبال وكان لهم طبعهم الخاص. كان زعيمهم الأول دانييل بون الذى قاد رجاله إلى تينيسى فى عام ١٧٦٨ ثم إلى كنتكى فيما بعد ثلاث سنوات من ترسيم الحدود بواسطة سير وليام جونسون. فى عام ١٧٧٢، فى ثورة ضد التاج البريطانى، وضع لنفسه دستوراً مكتوباً وكان أول من كون جمهورية مستقلة فى أمريكا. كون رجال الجبال هؤلاء أول كتيبة مسلحة ووضعوها تحت قيادة جورج واشنطن - وكانت تلك الكتيبة هى كتيبة المفضلة. ولكن بعد انتهاء الحرب لم تساعدهم مبادرتهم هذه بمساعدة جورج واشنطن على الحصول على أى مميزات خاصة لهم، فقد فرضت عليهم أول ضريبة على شراب القمح المقطر، الذى كان أساس حياة رجال الجبال فى بنسلفانيا. حاربوا الحكومة وهزموا وبدأوا فى التحرك جنوباً خلال أراضي الهنود

الحرر. بحلول عام ١٨٣٠ كان هناك مليون فرد قد استوطنوا نهائيا في الجبال الجنوبية. كانوا طوال القامة، شجعانا وأذكيا ونتاج منهم نسل عظيم: دايفيد كروك وسام هيوستن (من تكساس)، وجون كاهون (من جورجيا) وجاكسون وأبراهام لنكولن. عندما حلت الأزمة عام ١٨٦٠ ظنت حكومات الولايات المتحدة الجنوبية أنه سيساندونهم ولكنهم فعلوا عكس ما كان ينتظره الجميع منهم. رفضوا الخضوع لأوامر الأساقفة وتعليمات كافة السلطات. لم يساندوا العبيد وكانوا يحتقرون ملاك الرقيق على السواء، ولكنهم كانوا يرفضون رفضا مطلقا سياسة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان. انفصلت أقوى جماعة منهم في ولاية فرجينيا الغربية وتجمع حولهم كافة رجال الجبال وهكذا تم انقسام المستوطنين الأوروبيين في أمريكا الشمالية وقامت الحرب الأهلية الأمريكية. بعد أن وضعت الحرب أوزارها كان رجال الجبال - للمرة الثانية في التاريخ الأمريكي الحديث - هم المنتصرون، ولكن هضمت حقوقهم ولم يعترف لهم بالفضل مرة أخرى، كانت حدود الولايات قد تم ترسيمها منذ قرن سابق بناء على توجيهات الفلكيين في إنجلترا متجاهلين طبيعة الأرض وما تحويه من جبال ووديان وهكذا ظل رجال الجبال منقسمين بين ثمان ولايات، ظلوا أقلية في سبعة منها. بعد أربعين عاما، وكان عددهم قد بلغ ثلاثة ملايين نسمة، لم يزد عليهم سوى ١٨ ألف من المهاجرين الأجانب الجدد. هاجر المغامرون الأشداء منهم إلى الغرب وكانوا باكورة تعمير غرب أمريكا، بينما ظل الباقون منهم فقراء، غير متعلمين، محافظين، داخلي التوالد يقطنون في الوديان القريبة من الجبال، أقل مستوى من العبيد الذين ساعدوا على تحريرهم.

لا يشك أحد أن أبراهام لنكولن قد غير من وجه الولايات المتحدة تغييرا جذريا في السنوات الأربعة التي تولى الحكم فيها. كان ماهرا في إدارة الحكومة وكان شديد النجاح سياسيا في الحفاظ على وحدة الدولة وكان موفقا أشد التوفيق في القضاء على العبودية وتحرير العبيد، ولكن نجاحه الأكبر كان في رسم أهداف المجتمع الذي جمعه حوله وحكمه. رسم للأمريكيين صورة ساطعة لأنفسهم وخط لهم نموذجا مثاليا حق عليهم أن يفتخروا به. كانت إنجازاته على المستويين الاجتماعي والفردى وكانت عقلانية وثقافية. أدخل تصورات بدونها لم تكن لامة عظيمة أن توجد. كانت هذه التخيلات هي من آراء رجال الجبال في ذلك العهد ولم يكن من بينها أي من آراء أهل الشمال ولا أهل الجنوب.

الشخص الآخر الذي غير من وجه المجتمع الأمريكي هو إلى ويلي المولود في ماساتشوستس في عام ١٧٦٥ والذي تخرج في جامعة ييل وعمره ٢٧ سنة. عمل في جورجيا، وكان القطن المكسيكي قد دخل من جزر الهند الشرقية إلى ساوث كارولينا قبل ستة أعوام. كانت بذور القطن تفصل عن

شعر القطن لمدة خمسة آلاف عام بأصابع اليد، وكانت مهمة في غاية المشقة إذ كان العبد يستغرق عشرة ساعات متواصلة من العمل ليحصل على رطل واحد من شعر القطن من ثلاثة أرطال من المحصول. استطاع ويتنى باختراعه - في أسبوعين اثنين - اسطوانة ذات أسنان دوارة على شبكة من السلك وفرشاة، أى باختراعه لآلة حلج القطن، أن يصنع آلة أسرع ألف مرة من أصابع الإنسان لتتم هذا العمل في عام ١٧٩٢. بهذه الآلة ارتفع محصول القطن السنوى للولايات المتحدة الجنوبية من أربعة آلاف بالة إلى أربعة ملايين، واستطاع المصدر من القطن من أمريكا إلى إنجلترا من تشغيل نصف مليون عامل في مغازل القطن التى نشأت في شمال إنجلترا. توسعت صناعات القطن وامتدت إلى حوض نهر المسيسيبي وإلى سهول تكساس وتوسعت معها تجارة العبيد واستخدمهم فى حقول القطن وصناعاته، ونشأت حضارة كاملة بنيت على عبقرية ويتنى، وبالرغم من هذا فقد حرم هذا الرجل الفذ من نيل أى جائزة أو تقدير وسرق اختراعه وانتقل إلى نيو إنجلند بدون أن يُدفع فيه قرش واحد.

خطرت الفكرة نفسها لدى رجال آخرين على رأسهم لويلان فى فرنسا وجوزيف براماه برونل فى إنجلترا وهى صنع قطع غيار مقننة وممكن تركيبها فى كثير من الآلات، ولكن الفكرة نجحت نجاحا كبيرا فى يد ويتنى. كان رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت توماس جيفرسون الذى التقى لويلان وفهم منه أساس الفكرة واستوعبها وأدرك آثارها ونتائجها التى أثبتت تفوقها عن كل حد كان يتوقعه الأوروبيون. لم تزح الآلة الإنسان عن موقعه كما فعلت الصناعات فى أوروبا ولكنها حسنت من أحواله وهيات له معيشة رغدة. كان إنسان الولايات الشمالية هو الكفاء، الذى استوعب التقنية الجديدة وهكذا بدأت الصناعة ونمت وترعرعت فى شمالي الولايات المتحدة الأمريكية وتكاثر البشر بعد توفر الخير وزيادة الثراء. هكذا يعود لى ويتنى الفضل فى ثراء الجنوب والشمال معا وكان الجنوب يستخدم الآلات التى ينتجها أهالى الشمال. استمر الشماليون فى اختراعاتهم الواحد تلو الآخر واستمر الجنوبيون يستخدمون نتاج المدينة. وعندما حلت الأزمة وقامت الحرب الأهلية وواجه الجيشان بعضهما البعض، كان ويتنى قد توفاه الله منذ خمس وثلاثين سنة، ولكن إليه يرجع الفضل فى القضاء على نظام العبودية فى الجنوب وفى قيام الصناعة فى الشمال التى يرجع الفضل إليها فى قوة البلاد ومنعتها.

منذ أن خلق الإنسان، وقبل الكشف عن الزراعة بأمد طويل والتفاعل مستمر بين الفرد وبيئته، وقد استمر هذا التفاعل بين الإنسان والبيئة حتى عصر إلى ويتنى. هناك مجتمعات خاصة تساعد على تربية كبار المخترعين وتناسب تطبيق المخترعات الجديدة، ولكن لم يحدث من قبل - حتى عقب الحرب الأهلية الإنجليزية - أن نتجت كل هذه الآثار من تطبيق مبادئ جاء بها رجل واحد.

كان نجاح الإمبراطوريتان الأثينية والرومانية فى عصر الحديد، ثم نجاح الإمبراطوريتان البريطانية والأمريكية فى العصر الصناعى قائما على المنافسة الحادة وعلى الصراع العميق الذى حدث لكل من اكتسب ملكة أو تملك موهبة فى مناخ عاشه المجتمع بكل حرية وبدون أى قيود. كان النجاح فى كل الأحوال ساحقا وكانت القوة بالغة ولذا لم ير المجتمع أى ضرورة لتغيير أسلوبه فى الحياة الذى قاده لكل هذا النجاح. ما زال الوضع على ما هو عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية ولكن مع تغيير فى أوضاع الأمة الوراثة. ظل زنوج الجنوب فى وضع مهين يثير شعور غالبية السكان البيض، وفى نفس الوقت رأى قادة الصناعة فى الشمال أن زيادة عدد العمال السود، غير المهرة قليلا الأجر يبسر عليهم نشر ميكنة الصناعة والسيطرة عليها والحصول على عائدها وحدهم، وكانت انتصار أهل الشمال فى الحرب الأهلية دافعا لهم لمزيد من هذا العمل. صار زنوج الجنوب أحرارا فى الهجرة من حقولهم إلى مدن الشمال للعمل فى المضانع، حيث وجدوا الترحيب بهم وسهولة المعيشة — مما لم يجنوه فى ولايات الجنوب. تدفق الزنوج شمالا، رحلوا بأعداد كبيرة بعد عام ١٨٩٠. بعد عشرين عاما — نظرا لاشتعال الحرب فى أوروبا — زالت الحاجة للصناعة الأمريكية وازدادت فرص الربح وصارت هجرة الزنوج إلى الشمال سيلا متدفقا. تحولت السكنى فى المدن المريحة إلى أحياء فقيرة مكدسة ووجد الزنوج أنفسهم يسكنون تلك الأحياء المعدمة. وصل تعداد الزنوج فى مدن الولايات المتحدة الشمالية إلى عشرة ملايين وتحول الزنجى فى الشمال إلى شخص مغامر ينتهز الفرص ولم يعد خادما مطيعا لسياده البيض، بعكس الزنوج الذين تركوا فى ولايات الجنوب. فقد كانت هجرة الزنوج إلى الشمال انتقاء: هاجر الأنكياء نوح المقدرة والصبر والجلد على العمل الشاق وتخلف الكسالى والأقل مقدرة على العمل. وهكذا تكونت مجموعة جديدة من الملونين فى الشمال وفى الجنوب.

هكذا تكون مجتمع طبقي يعيش داخل مجتمع طبقي آخر. مجتمع تعلق طبقاته، اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، بعضهما فوق بعض (مثل مجتمع هاكا أو مانكوس فى الصين، ومثل النورمان فى انجلترا، ومثل الإنجليز فى أيرلندا أو الهند، ومثل الأفريكان فى جنوب أفريقيا ومثل مئات المجتمعات الأخرى التى تعيش وسط مجتمعات أكبر منها). ظلت تلك المجتمعات منعزلة وسط المجتمع الكبير بناء على رغبتها الخاصة واختيارها. ولكن مجتمع الزنوج فى الولايات المتحدة، والذين يبلغون ثمن تعداد السكان، فقد عزلهم لون بشرتهم وعزلتهم كفاقتهم الضئيلة ومقدرتهم المتدنية التى أتاحتها لهم الفرص أمامهم. فى أعين سبعة أثمان المجتمع الزنوج أقل درجة، لا يصلحون إلا للأعمال التى لا تتطلب مهارة برغم أنهم وصلوا إلى أوضاعهم هذه من الفرص المنتقاة الضائعة من أمامهم، فى كل

مراحل تطور الإنسان، كانوا دائماً في قاع المجتمع ولكنهم صاروا الآن في القرار السحيق (باستثناء الهند) الذي لم يشاهد العالم مجتمعا مثله.

المجتمع الأمريكي يحوى أغنى الأغنياء كما يحوى أفقر الفقراء، وهذا الفارق العميق هو نتيجة تنافس أفضل أنواع الجنس الأبيض على مدى قرون للتفوق والنجاح، وقد أكسبهم هذا ذعرا شديداً من بقية أجناس العالم. نشأ خوف شديد لدى البيض فى الشمال من القتل والاغتيال - كما كان شعورهم فى الولايات الجنوبية. ونشأ اضطهاد للسود من نقابات العمال الشمالية (كما حدث لهم اضطهاد من ملاك الأراضى فى الولايات الجنوبية). هكذا وجد الفرد الأسود نفسه وقد تحرر من سلطة الحماية من الفرد الأبيض ولكنه لم يتحرر من المعاملة السيئة والإهانات المتتالية فى كل مرافق الحياة. قذفته الحياة فى بحر من الحرية لم يعهده أسلافه من قبل فى أفريقيا ولا فى أمريكا، ولكنها حرية البيض صنعها الرجل الأبيض بمصلحة مجتمع البيض. ألقى بالرجل الأسود فى خضم من الأمواج المتلاطمة، حيث لا مجال للعاطفة أو الرحمة، حيث يتصارع فيه الجميع ومجال الفوز للأسود ضئيل للغاية. لكل هذا نشأ العنف من أثر الإحباط (كما حدث عنف مشابه فى المجتمع الإنجليزي بعد هجرة الزوج إلى إنجلترا).

إزالة هذا العنف ولتحقيق العدالة هناك طرق ثلاثة يمكن اتباعها. لأهل القانون، الحل الواضح هو صدور التشريعات التى تلغى التفرقة العنصرية بحكم القانون. حدث تقدم بالغ فى هذه الناحية فى قوانين الانتخاب وفى خدمات المحلفين، ولكن استمرت المقاومة عنيفة فى المجالات الشخصية. هل يسمح للزوج بالمعيشة فى نفس أحياء البيض وهل يقبل أطفالهم فى نفس المدارس؟ قبل الجميع فى الجامعات (لأن بها اختبارات للقبول تتولى هى مسألة التفرقة العنصرية). لم يقبل التعليم العام فى المدارس إلا بمنتهى الصعوبة وحدثت مقاومة شديدة للسكن فى نفس الشوارع، وهذه لا يمكن فرضها عنوة. ففى جميع مراحل التاريخ قامت المدن على أساس الفصل بين الأجناس المختلفة وبين الطبقات - وستظل هكذا فى المستقبل المرئى. التفرقة العنصرية قديمة قدم التاريخ، يهذبها التعليم وتروضها الثقافة ويمحو آثارها المركز الاقتصادى ولكن لا يمكن القضاء عليها بالقانون.

الحل الثانى هو امتداد للحل الأول ففى جميع ولايات الولايات المتحدة الأمريكية صدرت قوانين - عام ١٩٦٧ - تلغى كل القوانين السابقة التى تمنع التزاوج بين البيض والسود. كان مجتمع البيض يرفض تماما فكرة التزاوج بين الأجناس - وقد رفض أبراهام لنكولن نفسه هذا المبدأ. ولكن التهجين بين الأجناس هو الوسيلة المثلى لتقارب الأجناس ولتوحيدهم. ينشأ النسل متدرجا فى لون البشرة وفى ملامح الوجه وفى نوع الشعر على مر الأجيال. عندما تنكسر الحوائل الجنسية يتم

التقارب الاجتماعي وتنعدم التفرقة. يتم اختلاط الأجناس برغبة الفرد أو العائلة ولا يتحقق بقوة القانون، ولما كان الاختلاط يحدث عادة تدريجيا لم تنشأ عنه آثار سلبية.

الحل الثالث هو الحل الاجتماعي: حماية غير المهرة ورعاية المطحونين - سواء كانوا بيضا أو سودا - من الآثار المدمرة للتنافس مطلق الحرية من كل أنواع القيود. تلك الرعاية الاجتماعية حدثت بسهولة ويسر في مجتمعات شمال أوروبا، ولكن في الولايات المتحدة الأمريكية كان لا بد للأثرياء من المساهمة في تكاليف رعاية الفقراء. مما لم يكن مستساغا لهم.

نادى بعض زعماء السود - من أمثال كارمايكل وهاميلتون - أن حل مشكلة السود والحفاظ على وحدتهم الثقافية واهتماماتهم الاجتماعية واعتزازهم بجنسهم لا يمكن تحقيقه إلا بتنميتهم عن مجتمع البيض، وقد أعطوا لمبدئهم هذا اسم «القوة السوداء» يشابه هذا المبدأ ما فعلته جنوب أفريقيا في سياستها للتفرقة العنصرية. ينادى زعماء السود (ولئك أنهم بعزل السود عن البيض سيتجنب تعرض السود للإهانات وحرمانهم من فرص العمل والنمو التي يستحقونها، وسيتفادى السود معيشتهم على هامش مجتمع البيض كخدم لهم أو كأتباع لسيادهم يتحكمون فيهم. عند قراءتنا المتأنية لتاريخ العالم نرى هذا هو ما اتبعه الإنسان منذ الكشف عن الزراعة وأن هذا كان السبيل لأن ينجح الإنسان ما أنجزه ويحقق ما تحقق على يديه ويفكره وإبداعه. احتقر النورمان المنتصرون خدمهم من الساكسون وبنوا سياستهم على السيطرة عليهم، بين اللورد والخدام في إنجلترا. نشأت مجموعة متدرجة من الأجناس الوسيطة التي عبرت الفجوة وكان التهجين بين هاذين الجنسين أكثر كثيرا مما هو حادث الآن بين البيض والسود في الولايات المتحدة الأمريكية. مجتمع السود سريع التكاثر عن مجتمع البيض. السود أكثر بطالة من البيض في أمريكا، وفي أوقات الأزمات يتم التخلص عادة من العمالة السوداء قبل الاستغناء عن العمال البيض. مع كل كشف جديد - علمي كان أم تقني - تعرض مزيد من العمال غير المهرة للاستغناء عنهم وللتفرقة بينهم وبين المهرة. كما حدث خلال الثورة الصناعية في إنجلترا شجعت الفروق في المهارة وسرعة التكاثر والبطالة والاستغلال - بآثارها البعيدة - على انتقاء المهارة وعلى سرعة تطور المجتمعات الإنسانية - منذ أن بدع الإنسان أدواته وآلاته.

يعتبر إنشاء الجمهورية الأمريكية هو رفض الإنسان الذي هرب من العالم القديم للأخطاء والكبت الذي لاقاه هناك. وفي الحال صارت أمريكا هي البلد الذي يدعو البشر الذين يرغبون في احتذاء المثل في القوم إليها. صارت الولايات المتحدة الأمريكية - بعد قليل - هو البوتقة التي تجمع فيها أفراد العالم القديم واختلطوا مع بعضهم البعض وزاد عدد القادمين الأواخر عن عدد المغامرين الأوائل حتى فاقوهم عددا. ويوضح الجدول (٢٧) نمو سكان الولايات المتحدة منذ نشأة الجمهورية.

جدول (٢٧)

نمو تعداد سكان الولايات المتحدة الأمريكية

السنة	التعداد	نسمة
١٧٩٠	٣ر٩ مليون	“
١٨٦٠	٣١ر٤ مليون	“
١٩١٠	٩٢ مليون	“
١٩٢٠	١٠٥ر٧ مليون	“
١٩٦٠	١٧٩ر٣ مليون	“

* مات في الحرب الأهلية الأمريكية ما بين ١٨٦٠ - ١٨٧٠ ٢٥ مليون نسمة.

* حدث ارتفاع شديد في عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة ما بين ١٨٨٠ - ١٩٢٠

* في عام ١٩٦٠ كان عدد المواطنين البيض ١٥٨ر٨ مليون

الزنج ١٨ر٩ مليون

أجناس أخرى ١ر٦ مليون

قدم السكان الجدد من أيرلندا بعد حدوث المجاعة عام ١٨٤٦ ومن ألمانيا بعد قيام الثورة أو التمرد بها عام ١٨٤٨. جاء كثير من اليهود من روسيا عقب مذابح عام ١٨٨١ وقدم المسيحيون إثر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧. قدم من أرض السويد الفقيرة مزارعون بحثا عن أراضي يزرعونها وحضر من مدن إيطاليا المزدهمة ومن قراها، كما جاء من اليونان رجال من كافة الألوان، اتجه الذين يقصون الأرض للزراعة إلى الجو المعتدل والأرض الخصبة التي تلائم مع احتياجاتهم ووجدوا صعوبة في التكيف مع بيئاتهم الجديدة. قسم الإنجليز الأوائل أنفسهم حسب الطبقة التي جاؤا منها والحزب الذي ينتمون إليه والطبع الذي يتطبعون به ودرجة الثراء بين الشمال والجنوب، وذهب الألمان إلى السهول الوسطى، واستقر السويديون والفتلنديون حول بحيرات الشمال، واحتل الإيطاليون مزارع الكروم في كاليفورنيا، تحرك المكسيكيون إلى الشمال في كاليفورنيا ونيومكسيكو وتكساس. أما المهنيون والأخصائيون ومهرة الصناعات فقد اتجهوا - كما يتجهون دائما - إلى حيث يوجد عمل لهم. كون رجال المناجم الآتون من كورنويل مستوطنات لهم في ويسكونسون وكولورادو ونيفادا، ووجد اليونانيون أنفسهم في إقامة المطاعم أو في إنشاء البنوك التجارية. لأول مرة وجد اليهود أنفسهم متحررين من الضغوط التي كانت تفرض عليهم لكي يتحولوا إلى المسيحية. برعوا في الطب وفي الرياضيات - التي كانوا يستغلونها لخدمة الملوك والسلطين في العالم القديم على مدى ألقى عام.

كما برع اليهود أيضا في الموسيقى وفي القانون واستثمروها لمنفعتهم كعهدهم طوال الثلاثة آلاف سنة الماضية.

توافقت موجة الهجرة الكبرى الجديدة - بين عامي ١٨٤٠-١٩٤٠ - مع الاندفاع الشديد لدفع المواطنين الأصليين في أمريكا إلى الغرب تجاه شاطئ المحيط الهادى. كان التميز في هذه الفترة للمغامرين والمجاهدين بعنفوانهم وقدراتهم الجسدية وليس للمفكرين والقارئين الكاتيين (هناك استثناءات جديرة بالإشارة إليها في هذا الصدد مثل مارك توين نو الملكات الثقافية والقدرات العقلانية - الذى لم يستقر في الغرب): حدثت موجات إثر موجات من المستكشفين للحدود الغربية، تبعهم رعاة البقر من كنتكى ثم رجال المناجم من بنسلفانيا ثم المزارعون من نيوانجلند، واحتدم الشجار بين تلك الفئات جميعا ولم يتجاوبوا معا أو يتجانسوا، كما لم يتجانس معهم من تبعهم. بقى البروتستانت والكاثوليك واليهود منفصلين عن بعضهم لعقيدتهم فلم يتزاوجوا، كما بقيت كل طائفة من البروتستانت منعزلة عن طوائف البروتستانت الأخرى، وكانت كل منها تنتمى إلى طبقة اقتصادية مختلفة. قطنت كل فئة في حياها الخاص في المدن المختلفة، وهكذا ظلت المدن منقسمة إلى أحياء منفصلة عن بعضها البعض منذ إنشاء المدن في أول أمرها. الطبقة العليا في كل مدينة كانت من البيض الأيسكوياليين، ولم يكن باستطاعتهم تخطى الشارع الذى يقطنونه بحثا عن مسكن أو زوجة وهكذا استمر نمط الحياة في غرب الولايات المتحدة - مثل شرقها بعيدا عن النمط الأوروبى. أحدثت الحرية الكاملة في الحركة، وحرية العقيدة والتحرر في نوع العمل في الولايات المتحدة تماسكا بين أفراد الشعب الأمريكى واختلاطا بين العروق والأجناس كما لم يحدث من قبل في التاريخ الإنسانى، ولكن هذا الاختلاط كان بعيدا عن أن يكون عشوائيا كما كان ينتظر أن يحدث لو كان التوالد حرا غاية في الحرية. كان الاختلاط دائما مقيدا بالطبقة والمكان والأصل العرقى للفرد أو العائلة وكانت المجتمعات المختلفة حريصة أن تبقى على هذا النحو حتى لا تفقد كل جماعة أصلها ولا هويتها.

لم تكن جميع المجتمعات التى حافظت على هويتها في المجتمع الأمريكى مجتمعات صالحة يود المجتمع الحفاظ عليها وتنميتها. في المجتمعات المتقدمة تأخذ الجرائم أحد شكلين اثنين. هناك الجرائم المتفرقة مثل إطلاق الرصاص العشوائى (الذى قتل ما يقرب من عشرين ألف شخص في الولايات الغربية بين عامي ١٨٧٠-١٨٩٥). كان الرجال يقتلون بعضهم البعض في الأراضى الخالية. الشكل الثانى هو الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة، وعلى رأسهم جماعات المافيا من صقلية. بدأت المافيا كوكلاء لأصحاب الأملاك الغائبين حتى صارت نولة داخل النولة وصارت الحكومة التحتية في صقلية في عهد البوربون. بعد تحرير جاريبالدى في عام ١٨٦٠ استمرت المافيا نولة

داخل الدولة واستمروا فى سلطاتهم بالتهديد والاعتقال والاختلاس التام لجماعتهم ذات التوالد الداخلى الصرّف. على الفرد المنتمى للجماعة كتمان الأسرار وعدم تعقب أخبار أصدقائه وعدم اليوح بأى نيباً للعملاء أو لرجال الشرطة أو لأى جماعة أو منظمة تعلق عليهم. طبقت جماعة المافيا هذا النظام بمنتهى الدقة والحزم على كافة أعضائها. ثم انتقلت الجماعة إلى العالم الجديد وقدمت إلى أمريكا. وصل أول أعضاء المافيا إلى نيو أورليانز عام ١٨٩٠ وكان عددهم أحد عشر فرداً، تم سجنهم فى جريمة قتل، ثم قتلهم أعوان ضحاياهم. دفعت حكومة الولايات المتحدة تعويضاً مقداره ٣٠ ألف دولاراً عن هذا الفعل، وهنا بدأت الجماعة تستقر وتجد لها جنوراً ثم تتوحش فى أمريكا. بدأوا يختارون أعوانهم من المهاجرين الصقليين وتم تدريبهم على استخدام السلاح، ثم تم توالدهم وترقيتهم داخل نظام محكم، شديد الإحكام، حتى صار منهم زعماء وقادة يدين لهم الجميع بالسمع والطاعة فى جماعة منظمة غاية التنظيم، صارت حكومة عالم الإجرام التحتى. تسببوا على سائر الجماعات - من الأيرلنديين واليهود وأخضوعهم لسلطانهم. ازدهر عالم الإجرام وترعرع فى سنوات منع شرب الكحول، بين ١٩٢٠-١٩٣٣ وانتقلت الجماعة من جماعة إجرامية محلية إلى جماعة إجرامية عالمية. كان القتل كثيرين ولكن كان المكسب ضخماً وانتعشت الجماعة تزوجت العائلات البارزة فى جماعات المافيا (كما تزوجت فى الماضى عائلات الكويكرز فى فيلادلفيا والعائلات المالكة فى أوروبا) ولكن لأسباب أخرى. لاصلاح هذه الأقوام ولا تصالح لها مع المجتمع.

حدث تكيف الأفراد مع بيئتهم فى أوروبا على مدى مائة وخمسين جيلاً، ولكن فى الولايات المتحدة الأمريكية، حدث هذا التكيف فى عشرة أجيال فحسب، ولو أنه لاقى بعض الردة. فقد هاجر كثير من الفنانين وبعض الكتاب والأدباء ثانية إلى أوروبا. العامل البيوى، الماهر بيديه والتقنى المبدع يذهب إلى حيث تكون الحاجة ماسة إلى مهارته، بينما يلجأ المفكر الخيالى الحالم إلى صحبة إخوانه الذين يجد نفسه بينهم، وتحلق روحه مع أرواحهم. وقد بدأ - فى العهد الأخير - مع مزيد من الهجرة - من اليهود وأقوام أخرى من بلاد الشرق الأوسط والشرق عموماً - غرس بعض الروحانيات فى المجتمع الأمريكى. وبدأت المادية المطلقة تلتين فى بعض الأماكن. ومع زيادة الروحانيات فى المجتمع الأمريكى خفت حدة الهجرة المرتدة إلى العالم القديم. ويمكننا القول أن المجتمع الأمريكى قد شارف على مرحلة النضج، ونضج أمريكا سينعكس حتماً على العالم أجمع.

بدأت الطبقات الحاكمة فى العالم القديم كجماعات محارية ارتبطت بها فئات من المعاونين المخلصين. بالاختلاط والتوالد مع الطبقات العليا من هؤلاء المساعدين تغيرت العسكرية وصاروا من المدنيين نوى المقدرة والكفاءة. بدأت الولايات المتحدة الأمريكية فى مرحلة متقدمة من هذا التحول،

ولكن نخلنا لسرعة تطورها الاقتصادية ولامتدادها الجغرافي الواسع لم تستطع أن تثبت على حكمها مجموعة واحدة من سكانها. كل ما يمكن أن يلاحظه المرء هو امتداد لخيوط كثير من العائلات. هناك عائلات أرستقراطية من أصول عسكرية في جنوب البلاد مثل الأسرة التي جاء منها جورج واشنطن ذات أصول إنجليزية. وهناك أسر مالية وصناعية في الشمال بدءا بمدن بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا. وقد نشأت مراكز جديدة خرج منها رجال بارزون في قيادة أمور الدولة وتسييرها، ليس من الضروري أن يكونوا بيضا ولا أنجلوساكسونيين ولا ينتمون بالضرورة للمذهب البروتستانتي. ليس من الضرورة - في أمريكا - أن يصل إلى مركز القوة والسلطة والمناصب الإدارية العليا من كان شهيرا أو معروفا ولكن بالإمكان أن يصل كل مجتهد - بكفائه ومقدرته وجهده وعمله إلى أرفع المناصب. هذه هي الجماعة التي تشكل المؤسسة. صار الوضع الحالي - في الولايات المتحدة كما كان في إنجلترا - أن الأغنياء والمقتدرين وواسعي الثراء هم الذين يتلقون أفضل تعليم، في أحسن المدارس وقمة الجامعات وهم من لديهم فرصة النبوغ والظهور والجلوس على قمة المجتمع، أولئك الذين تبلغ عراقتهم ستة أو سبعة أجيال فحسب. العاصمة - وكثير من المدن الكبرى - في حالة تطور مستمر وسريع، وعلى هذا التطور يتوقف مستقبل الأمة بأسرها.

ثانياً: الصين

دخلت الزراعة الصين في الألف سنة الثالثة قبل مولد المسيح، ظهرت أولاً في الأراضي الخصيبة في وادي النهر الأصفر حوالي ٥٠٠ ميل من شاطئ البحر لم يزرع القمح ولا الشعير ولكن زرع الدخن وفي أول الأمر، مع التوسع النيوليثي للمزارعين الأوائل القادمين إلى الشرق من وسط آسيا. أحضر المزارعون الأوائل معهم الغنم والماعز واستؤنس الخنزير المحلي. قدم المهاجرون الأوائل إلى الشمال (وليس إلى جنوب القارة كما حدث في أوروبا)، وتبعهم المهاجرون التاليون لهم والغزاة - باستثناء موجة من الهجرة جاءت في الألف سنة السابقة لمولد المسيح، جاءت من الهند الصينية جالبة معها الأرز وزراعته واستقروا في جنوب الصين ثم تغلغلوا تدريجياً إلى شمال البلاد حتى وصلوا مع محصولهم إلى حوض نهر اليانجتسي، وكان توسعهم في البلاد سلمياً. عندما وصل هؤلاء إلى شمال الصين وجدوا فيها فلاحين محترفين يتقنون الزراعة ويروون محاصيلهم، يغزلون وينسجون الصوف، وقد تعلموا كيف يصنعون الحبال من القنب وكيف ينسجونه ليصير قماشاً. وجدوا رجالاً ونساء لهم خبرة خمسة آلاف عام يعيشون في مجتمعات، قد قسمت إلى طبقات وصلوا إلى أقصى القارة من أصولهم البعيدة. وصلوا إلى تلك الأماكن بعد اجتياز واحات وادي تاريم ووادي كانسو الممتد. بعد حين جف هذا الطريق وصارت الواحات واقعة وسط صحراء تاكلاماكان الرهيبة وبعد أن سكن الاستيس حولها حملة الأسهم والأقواس، راكبو الخيول المرعيين. تحول هذا الطريق فيما بعد إلى طريق الحرير الخطير المؤدى من الشرق إلى الغرب. ولكن في الألف سنة الثالثة قبل الميلاد كان هذا الطريق آمناً، غزير المياه، تقطنه قبائل قليلة العدد. رغم هذا فإن الفلاحين المهاجرين عبر هذا الطريق احتاجوا لآلاف سنة أو ما يزيد ليعبروا مسافة الثلاثة آلاف ميل.

بعد وصول الزراعة إلى الصين، بعد الكشف عن أصولها في الغرب، حدث تطور عجيب في خطوات تطورها، كان الكشف عن الأواني الفخارية التي توضع على النار قد تم بواسطة حارقى الطين في الأفران قبل ألف سنة في الغرب بعد الكشف عن الزراعة، وقد وصل صانعو الأدوات الفخارية إلى الصين وإلى اليابان قبل وصول المزارعين، وهكذا بدأ الصيادون والقناصة في استعمال

الأواني الفخارية فى الصين قبل أن يستخدمها المزارعون. تأخرت زراعة المحاصيل لأنها ينبغى أن تتكيف من المناخ أما صناعة الأواني فتعتمد على مهارة الإنسان، فى إيجاد الطين الصالح للحرق والنار التى يحرق فيها الطين والمهارة اليدوية التى تؤهل لصنع الأدوات. كان الصناع الأوائل لتلك الأواني من المهويين فى تلك الاختراعات والمهرة فى تلك الصناعات، تلك المهارة اليدوية التى ما زالت ذريتهم تتوارثها على مر الأجيال حتى عصرنا الحاضر. بعد حوالى ألف سنة دخلت الصين موجة ثانية من الغزاة عبر وادى كانسو من غرب آسيا. كان لهؤلاء الأقوام - الشانج روعس غريبة وإله إيراني: إله الشمس، وديانات تذكرنا بديانات الجنس الأرى فى الغرب الكلاسيكي. أحضروا معهم القمح والشعير وبقية الغلال وأحضروا معهم البرونز وكذلك العربات الحربية التى تجرها الخيول الصغيرة. من الواضح أنهم أتوا عبر آسيا وقطعوا رحلتهم فى وقت أقصر مما قضاه أسلافهم - الهكسوس - الذين استولوا على مصر قبل عدة قرون بقليل من العربات الحربية. هؤلاء القوم كانوا يصنعون السيوف من البرونز ويربون الخيول ويصنعون العربات الحربية ويستولون على البلاد بسيوفهم وخيولهم وعرباتهم.

استغل هذا المجتمع الجديد الحصان الذى تم استئناسه فى أواسط آسيا والبرونز التى تم سبكه فى بلاد فارس، فى إخضاع القوم الذين كانوا يعيشون فى حوض النهر الأصفر. توسع الحكام من الشانج ومدوا حدودهم فى اتجاه الجنوب حيث تتلاقى مراعى الاستبس مع الغابات والجبال، حتى نهر اليانجستى تقريبا. وهكذا تكونت الأسرة المالكة الأولى فى الصين، وزرعوا القمح فى مملكتهم واتخذوا موطنهم هذا قاعدة للهجوم والاستيلاء على أراضى الشعوب المتخلفة أمامهم وتركوا إخوانهم من ورائهم لقبائل رحل. استغرق هذا العمل قرابة خمسمائة عام من سنين التاريخ.

كان الحصان هو الذى أتى بصناع البرونز بتلك السرعة من بلاد الغرب، ولكنه تخلف طويلا فى إحصار صناع الحديد. كانت القبائل مستقلة ولها طقوس سرية وسحرية وكانت حركتها مقيدة، وكانوا قبائل متفرقة لم تجمعهم وحدة ولا هدف ولم يتحركوا إلا بعد سقوط الإمبراطورية الحيثية، ووصلوا إلى الصين أخيرا حوالى سنة ٧٠٠ ق.م. كان التطور فى صناعات الحديد قد بلغ شأننا عظيما فى ببط شديد للغاية فى الغرب، فقد استغرق عمل الحديد الزهر حوالى ثلاثة آلاف عام (من ١٥٠٠ ق.م. إلى ١٥٠٠ ب.م.) ولكن هذا التطور حدث بسرعة مذهلة فى الصين. فقد بدأ العمل فيه حوالى سن ٣٠٠ ق.م. حين وفق الصينيون لصنع السيوف الحديدية. بهذه السيوف تمكن الإمبراطور تشين من تحقيق وحدة الصين وأسقط المملكة التى نشأت وتورثت بشكل إقطاعى طوال الثمانمئة عام السابقة - مملكة أسرة تشو. كان أهالى الصين مهرة فى صنع الآلات والأدوات والأسلحة. فقد

بنى الإمبراطور تشين سورا عظيما حول الصين امتد لألفى ميل لحماية بلاده من هجمات الفرسان من الهن في القرن الثالث ق.م. لم تستطع الخيول تسلق السور بينما كان الرجال يستطيعون، فتولى أمرهم رماة السهام بالأقواس التي اخترعها الصينيون وصنعوها بمهارتهم اليدوية المعهودة، وحموا البلاد من الغزو لآلاف السنين. وقد تكون تلك الحصانة التي تمتعت بها الصين إحدى العوامل التي وجهت البو ناحية الإمبراطوريتين الرومانية والهندية بعيدا عن الصين.

عمل أباطرة أسرة تشين على توحيد بلاد الصين وامتداد حدودها إلى مانشوريا وفيتنام والقضاء على الإقطاعيات المحلية. وعملوا على اضطهاد المثقفين وحرق الكتب التقليدية - التي كانوا يعتبرونها عائقا للتقدم، وكانت تلك السياسة نفسها سببا في ازدهار حكم أسرة هان التي أعقبت أسرة تشين. يرجع الفضل لأسرة هان في حفر القناة العظمى من تين تسنج إلى نانكنج وإلى بناء غالبية مدن الصين التي ما تزال تحتل نفس أماكنها إلى اليوم - استخدم هؤلاء الحكام المتحمسون جنودا مرتزقة من السكيثيين لمد حدودهم. استطاع هؤلاء الحكام عمل الاتصالات اللازمة مع ملوك البنجاب السكيثيين الذين أوفوا بعثاتهم التبشيرية البوذية الأولى للصين. هؤلاء الرجال الذين يرجع إليهم الفضل في نقل ثمرات الحضارتين الهندية والصينية إلى اليابان. تمكنوا أيضا من الاتصال بروما، وأرسلوا لها الحرير والخوخ واستوردوا منها الذهب والكروم. وأخيرا تمكنوا - لحد كبير - من منافسة الهند وصدروا فنونهم وتقنياتهم إلى جنوب شرق آسيا التي تحولت إلى البوذية الهندية. بهذا التنافس مع الهنود وضعوا الحدود بين فيتنام الشمالية والجنوبية (التي امتدت إلى عصرنا الحاضر) ويوضح الجدول (٢٨) أهم معالم الأسر الحاكمة في الصين.

جدول رقم (٢٨)

الأسر الحاكمة في الصين

ارتبطت بالغزاة الإبريان، أدخلوا البرونز والخيل والعربات الحربية والقمح والشعير.	شانج ١٥٠٠-١٠٢٧ ق.م.
تتوسع الدولة وتنقسم إلى عدة ممالك إقطاعية. بداية بناء سور الصين العظيم في شمال البلاد عام ٤٠٠ ق.م.	تشو ١٠٢٧-٢٤٩ ق.م.
العاصمة لويانج في هونان بعد عام ٧١٠ ق.م.	
تتوحد الإمبراطورية من مانشوريا حتى فيتنام بعد صناعة السيوف الحديدية حرق الكتب - يستمر بناء سور الصين العظيم.	تشين ٢٤٧-٢٠٩ ق.م.
العاصمة هسنيانج في شنسي.	

تابع جدول رقم (٢٨)
الأسر الحاكمة في الصين

يمتد السور لحماية الطريق إلى الغرب من فرسان هن. يتم الاتصال عن طريق البر والبحر بالهند وروما. يخرج الحرير وتدخل البوذية يبدأ حفر القناة العظيمة. يزرع الشاي - يتم اختراع الورق وتبدأ كتابة الأرقام.	هان ٢٠٢ ق.م - ٢٢٠ ق.م.
العاصمة ١- تشانج أن ٢- لويانج يغزو أهل التبت البلاد من الغرب ويغزو الترك والمغول من الشمال ويتم امتصاص حكامهم في الأسر الحاكمة - يستوطن المهاجرون في جنوب البلاد ويعتقون البوذية - يتم تصدير الكتابة والحضارة إلى اليابان.	ممالك ثلاث ٢٢٠-٤٨٩ ب.م.
مؤسس الأسرة الحاكمة يتزوج من تترية ويتم الوحدة - يلجأ إلى البلاد لاجئون زرداشتيون ونسطوريون. يشيد البوذيون أديرة. يغزو المسلمون البلاد.	تانج ٦١٨-٩٠٧.
العاصمة تشانج أن تتقسم البلاد يفصل المسلمون والمغول الصحراء غرب البلاد عنها. نمو العزلة والمحافظة.	خمسة أسر حاكمة سونج
العاصمة كيفنج في هونان يحتل المغول شمالي البلاد في عام ١١٢٦.	٩٦٠-١٢٧٩.
حكومة عسكرية مغولية تضم منغوليا والتبت. مهاجمة بورما وجاوة واليابان. استعادة الاتصال بالغرب (ماركوبولو). ورود القطن إلى شمال البلاد.	١٢٧٩-١٣٦٨
العاصمة بكين أسسها راهب بوذي. بدء الطباعة في كوريا عام ١٤٠٢ - بعثات بحرية إلى الشواطئ العربية ١٤٠٥-١٤٣٣. حركة مقاومة للأجانب وحرق السفن ١٥٢٥.	مينج ١٣٦٨-١٦٤٤
العاصمة كيفنج وبعد عام ١٤٢١ بكين. أسرة مالكة من الغزاة الشماليين، المسيحية ديانة غير شرعية (١٧٢٣) عصيان تاينج (١٨٥١-١٨٦٤).	مانشو ١٦٤٤-١٩١١
العاصمة بكين. ١٩١٢ صن يات صون ماوتسي تونج ١٩٤٩.	ثورة الثورة الصناعية

من هم الأقوام المختلفون الذى تكون منهم الشعب الصيني؟ أول نوع من البشر كان القوم الذين قطنوا فى السهول الزراعية التى كونت وسط الإمبراطورية. هؤلاء الذين سكنوا شالى نهر يانجستى كانوا فلاحين من وسط آسيا وكانوا يزرعون المحاصيل التى تنمو فى البلاد المعتدلة الطقس: الدخن ثم القمح والشعير. أولئك الذين سكنوا فى الجنوب كانوا فلاحين جاوا من دلتا أنهار كمبوديا وفيتنام وتهجنوا من الفلاحين القادمين من الشمال. وزراعتهم الأساسية هى الأرز فى مصاطب بنيت بمهارة لتروى بسهولة ويسر على سفوح التلال الخصيبة. وقد زرعوا بالإضافة إلى الأرز المحاصيل الجديدة التى دخلت البلاد كالقطن والشاي والتوت (لايدان القز). الصنف الثانى من البشر كان الرعاة، الذى يركبون الخيل ويجوبون البلاد والمراعى من مانشوريا إلى كارياتيا. عندما قاد هؤلاء الرجال قادة من الإيريان كانوا يعرفون باسم السكيثيين، وعندما قادهم قادة من المغول أو الهن كانوا يسمون باسم اللغة التى يتحدثون بها فكانوا يعرفون أحيانا بالترك ويعرفون أحيانا أخرى بالتتار. ما زال هؤلاء القوم يعيشون بيننا إلى الآن فى الأراضى الجرداء والاستبس فى منغوليا. لم يتغيروا كثيرا إلا أن استخدام الأقواس صار حاليا رياضة لهم وليس أساسا لحياتهم. ما زالوا يربون الخيل والبقر وثور التبت الضخم كثير الصوف والماعز والغنم وغزلان الرنة، يتعيشون على لحومها وألبانها ولا يتكون سواها (مثل قبائل الرعاة فى شرق أفريقيا). هؤلاء هم الأقوام التى أغار أسلافهم لثلاثة آلاف عام على الإمبراطورية الصينية، وهم الذين اخترعوا القوس والسهم واستأنسوا الخيل واخترعوا الركاب للخيول بعد ألفى عام. كون هؤلاء القوم العائلات الحاكمة: شانج، تشن، تانج، الأسرات المغولية وأخيرا المانشو، وتجرب دماؤهم فى عروق جميع الصينيين الذين يعيشون حاليا فى البلاد. ولكن على وجه الخصوص فى عروق الحكام من المحاربين ومالكي الأراضى والطبقات العليا، وقد تهجنوا جميعا من أهل البلاد الصينيين.

الصنف الثالث هم أبناء القبائل المتخلفة من الصيادين والقناصين الذين أستأنسوا الكلاب فى سابق عهدهم واستخدموه للصيد (أو لأكل لحمه إذا عز الصيد). هم أيضا صيادو السمك ومربو الدواجن وجامعو الأكل، الذين جمعتهم جميعا الدويلات التى قامت حول المدن فى التلال المرتفعة أو فى الأراضى الأقل خصوبة فى أطراف البلاد أو حول المستنقعات. وقد تهجن هؤلاء جميعا مع الفلاحين الذين اقتربوا منهم واحتلوا أراضيتهم أو استعبدوا بواسطة الحكومات الإمبراطورية واستخدموهم كجنود. من لم يتم امتصاصه داخل الإمبراطورية الصينية اضطر للرحيل جنوبا إلى بورما أو تايلاند أو لاوس، كما فعلوا دائما لآلاف السنين. كون الرجال الذين تهجنوا مع الفلاحين القوة الهائلة للعمل بالسخرة لبناء السور العظيم ولشق القناة العظمى. كان يتم طردهم بكثرة من البلاد وكانت الأمراض والأوبئة تحصدتهم حصدا ولذا قل عددهم كثيرا. وهكذا نرى أن أهالى الصين

ينتمون إلى مجموعات عرقية كثيرة ومتباينة ولكنهم تهجنوا مع بعضهم البعض، وساعد في هذا عدم وجود حدود داخلية في بلادهم تعوق حرية الحركة والانتقال من مكان لآخر.

لعبت الصراعات والغزوات والفتوحات التي صاحبت نشأة الجنس الصيني على خلق الطبقة في هذا البلد الشاسع. في البداية قدم الصناع المهرة من أقصى الغرب مع شانج وتشو وتعاونو مع صناع الآلات الفخارية المحليين والنساجين المتواجدين في البلاد لخلق طبقة صناعية متميزة، سرعان ما تكاثرت داخل المدن الصينية. في القرن السابع ب.م. وفد إلى الصين بعثات تبشيرية بوذية ونسطورية، كما وفد لاجئون يهود وزراشتيين، ووفد أيضا للصين في القرن السابع الميلادي تجار مسلمون وبحارة وأقاموا مستوطنات على السواحل الجنوبية. في كانتون وحدها سجلت أسماء مائة ألف عربي. كل هؤلاء الأقوام تم امتصاصهم في السكان الصينيين وتم تمثيلهم في المجتمع الصيني أنشأوا مراكز تجمع حولها طبقات تقنية وتجارية وثقافية مستتيرة ساهمت كلها في ثراء المجتمع الصيني بطرائقها المختلفة وأسهمت في بناء الحضارة الصينية مع اختفاء لغاتها الأصلية وطريقة كتابتها للحروف. بعد كل هذا الإسهام - من الحضارات المختلفة - فإن قلب بلاد الصين - يتكون أساسا من كتلة عظيمة تزعم أنها من «أبناء هان»، يحيطهم جماعات من المسلمين (المتحدثين باللغات الصينية أو التركية)، والمانشو والمغول وأهل التبت. بالرغم من هذا الانصهار للأجناس المختلفة في شعب واحد، فإن الرق لم يمتنع في المجتمع الصيني، أيام حكم أسرة هان دخلت إلى الصين كل أنواع الرق التي كانت معروفة في المجتمعات الغربية: الأسري، المجرمون، المدينون كانوا يشترون ويبيعون في أسواق النخاسة ويشتريهم أفراد وأباطرة والمشرفون على الأديرة. لم يزد عدد العبيد في الصين عن ١٪ من تعداد السكان (بينما وصل إلى ١٠-٢٠٪ من تعداد سكان الغرب). لم يستغل العبيد بناتا في الصناعة أو الزراعة ولكن كانوا يستغلون فقط كخدم. كان الفضل الأكبر في تطور الزراعة في الصين هو اعتماد ملاك الأراضي والفلاحين على عمليات ري مركزية، والمجتمعات التي بقيت على قيد الحياة هي المجتمعات التي خضعت للعمل الإلزامي الذي ينظمه لهم سادتهم. فقد خطط السادة بناء السدود والجسور وحفر القنوات والترع، وبعد ذلك خططوا لبناء الكباري ثم الأسوار. كانت العلاقة الناشئة بينهما هي علاقة السيد بالمسود على مدى ستين جيلا من انتقاء الأصلح خلال عصور الرخاء وعهود المجاعات، وأثبتت صلاحيتها التامة لكلا الطبقتين. جاءت تلك العلاقة من تسديد الرعاة وسكان التلال على المزارعين قاطني السهول. لم يكن أهل السهول قابلين للرق ولحياة العبيد (كما لم يقبل الهنود الحمر في أمريكا واليهود في الإمبراطورية الرومانية، والرعاة من الجنس الحامي في أفريقيا) ولهذا اتخذ الرق شكلا آخر في الصين - غير الرق المعروف في مختلف المجتمعات. في المجتمعات الأخرى يمكن بقاء الذكور كعبيد بإخصائهم، وبالتالي تصير

النساء محظيات لساداتهم. أما فى الصين فقد سمح بالإجهاض وقتل الأطفال ومعاشرة القراء (مما حرمة الديانة اليهودية وبقية الديانات السماوية فى المجتمعات الأخرى).

الكتابة - أينما كان موضع اختراعها - كانت هى وسيلة الرقى الحضارى، ولو أن أفلاطون قد ذكر بعض أوجه مخاطر الكتابة، ورأى فلاسفة الصين بعض أوجه مخاطرها الأخرى، ذكر أفلاطون أن الكتابة تحث على النسيان (وكان يقصد نسيان الفرد ولم يقصد نسيان الجنس أو المجتمع). بنظرة بعيدة يمكننا تأمل تطور الكلام، بالكلام نستغنى عن الأشياء بالكلمات وبنغينا عن التكرار، وبالكتابة نحتاج لحفظ طريقة هجاء الكلمات بدلا من حفظ الأشياء، ولترتيب الأفكار وحسن تقديمها، وبالتالي يصير الكاتب شخصا مثقفا ويدفعنا هذا إلى التقدم والتطور إلى الأحسن وإلى مزيد من الثقافة لمزيد من الفهم، فهم الكلمات والكتب بدلا من مجهود فهم الأشياء. بالتعلم تكونت طبقة مثقفة تتميز عن بقية طبقات المجتمع. نشأت تلك الطبقة بين قداماء المصريين وبين اليهود وبين الإغريق، وعن طريقها تم اختراع الحروف الأبجدية وتم اتقان الكتابة، وعن طريقها حدث التطور العقلى العلمانى لكل مجتمع. أما لدى الصينيين فلم يتم اختراع الكتابة وتطورها، فجاءت الكتابة كحجر عثرة وكنظام غير قابل للتكيف والإصلاح.

بدأت الكتابة فى الصين - كما بدأت فى بقية أنحاء العالم باستخدام صور لتمثيل الأشياء وبدأت نحو ألف سنة بعد الكشف عنها فى الغرب - بطريقة مستقلة وليست منقولة عن مجتمعات أخرى. بدأت الكتابة الصينية برسوم تعبر عن الأشياء، ثم جاءت رسوم أخرى لتعبر عن الأفكار وأخيرا جاءت كلمات مركبة لتعبر عن أشياء وأفكار معا. فى حكم أسرة تشانج كان عدد الحروف ٢٥٠٠، والآن هناك حوالى ٥٠٠٠ حرف معترف بها أكاديميا و٨٠٠٠ حرف تستخدم فعليا فى الكتابة، لكل منها حوالى ٢٠ علامة لتصير فى الواقع ٤٠ ألف حرف. وقد حاول النسطوريون وفئات أخرى من مثقفى المهاجرين - فى عصر تلو الآخر - استبدال تلك الحروف الصينية المزرکشة بأبجدية بسيطة وسهلة، ولكنهم لم يوفقوا (وقد حافظ الترك على استقلاليتهم عن المجتمع الصينى تحت حكم جنكيز خان باحتفاظهم بأبجديتهم النسطورية فى الكتابة). الكتابة الصينية فقيرة فى الحروف الساكنة وثرية أشد الثراء بالحروف المتحركة مثلها فى هذا اللغات البوليفيزية - خاصة فى اللهجة البيكينية، ولهذا يحتاج الكلام باللغة الصينية إلى مزيد من الحركات لتعبر عن نطق كافة الرموز. ثبت الإمبراطور تشن نظام الكتابة هذا وجعله نظاما عاما لجميع أنحاء إمبراطوريته، وعندما جاءت الطباعة فى عهد أسرة تانج الحاكمة كانت الحروف الصينية قد أخذت شكلها الدائم، نقل

الرهبان البوذيين اللغة الصينية إلى اليابان. وهكذا امتدت اللغة الصينية - بلهجاتها المختلفة إلى جميع أنحاء العالم - كما امتدت اللغات الرومانسكية إلى أنحاء أوروبا والتي بدأت باللغة اللاتينية. ثم تفرعت إلى اللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

صارت الكتابة الرسمية الصينية عاملا قويا في المجتمع الصيني وفي إدارة البلاد. سهل التفاهم بين كافة المواطنين مختلفى الأعراق في إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف امتدت في التاريخ منذ عهد أسرة تانج إلى عصرنا الحاضر. وصارت دليل السلطة وظهر السلطان للإمبراطور ولأعوانه من الإداريين الذين ارتفعوا فوق الطبقة العاملة غير المثقفة والفلاحين غير المتعلمين والصناع الذى يجاهدون فى الحياة كل فى عالمه الخاص غير المرتبط بالعوالم الأخرى. كان المثقفون يتفاهمون مع بعضهم البعض فى كافة أنحاء الإمبراطورية بحديثهم وكتاباتهم، ويعملون على وحدة إمبراطورية تانج، وكان لهم وخدمهم، هم وكبار التجار فى الدولة، هذا الأثر. كانوا يخصصون نصف وقتهم للتعلم والاستزادة من العلم والمعرفة وللتمكن من تأويل كل تل الصور والرموز والحركات، ولهذا كان لهم فضل على عامة الناس الذين كان يفهم القليل البسيط مما يفكون به رموز الكتابة الصينية العويصة وكانت الكتابة الصينية مظهرا للطبقية، يستطيع من يقدر على فك رموزها أن يقرأ الأدب الصينى ويتمتع به. وهكذا زادت صعوبة اللغة الصينية وكتابتها من التفرقة بين الطبقات. لم تتغير طريقة كتابة اللغة الصينية على مدى ألفى عام. مع كل أسرة حاكمة جديدة كانت تتغير طرق التعليم ويتغير نظام الامتحانات وتتبدل طبقات المجتمع التى تعتمد على الثقافة والتعليم وتهدد البلاد بقيام الثورة. كانت العاصمة تنتقل فى مساحة مثلث ضلعه سبعمائة ميل بين بيكين وهانجتشوا وتشانجان ولكن بعد استقرار المجتمع نجد أن السلطة تعود ثانية للطبقة المثقفة التى كانت متوارثة منذ قديم الأزل. فى لحظة يأس ونفاد صبر حرق الإمبراطور تشن الكتب وانتقد نظم الامتحانات، ولكن التعلم والثقافة كانت قد استقرت فى المجتمع الصينى مند أمد بعيد وأثبتت أنها نظاما ممتازا لإدارة البلاد وحكمها وصارت هدفا فى حد ذاته يسعى إليه الجميع. كان كل غزاة جدد - بعد فترة من المقاومة - يقع فريسة للنظام الثقافى الصينى ويصير أسيرا لمن تغلب عليهم. كما كان يحدث فى العالم الغربى عندما خضع الرومان المنتصرون للثقافة الإغريقية. هكذا اكتسب الغزاة الفاتحون لبلاد الصين، من التتار والمغول والمانشو، الثقافة الصينية والتعليم الصينى والمخترعات الصينية مثل الكتابة وصناعة الورق وطرق الطباعة، واحدة بعد الأخرى. ولكن الصينيين سجنوا أنفسهم ولم ينفثوا على العالم الفسيح ولم يروا من منجزات باقى الأمم ما يمكنهم أن يقارنوه بمنجزاتهم.

كان نظام الكتابة الصينية المعقد وغير القابل للتطور أو التبسيط يمثل عائقاً أمام انتشار الحضارة الصينية. فقد عاق امتداد الإمبراطورية الصينية فلم تتجاوز الحدود التي وصلت إليها طبقة الماندرين تحت حكم أسرة تانج. خضعت التبت وكوريا وسينكيانج وفيتنام والملايو لسيطرة الصين، ولكن نظراً لأن تلك الشعوب كانت لها طرائقها الخاصة في الكتابة ولكل منها مجموعة من المثقفين - لم يمكن ضم أى منها إلى الصين وإدارتها بالحكومة الصينية (وما زالت الكتابة الصينية تشكل عائقاً حتى اليوم لحكم سينكيانج بواسطة الصين). لم يمكن ضم سوى الأقاليم المتخلفة التي يسكنها الهمج في الجنوب الغربي للبلاد - مقاطعة يونان - وامتصاصها ضمن الصين. دخل الصين مستعمرون عدة وتعايشوا مع أهالي الصين، وبلغ تعدادهم الملايين، ولكن هؤلاء جميعاً جاؤا كتجار وصناع ولم يأت منهم المثقفون.

كان لغزو المغول لبلاد الصين - الذين دام حوالى قرن من الزمان - أثر بالغ في الفكر الصيني، حتى بعد قلب حكومة المغول. ويرجع هذا الأثر لأن كوبلاي خان أحضر معه رجال حكومته الذين أداروا البلاد، كما جلب معه المثقفون والتجار من الغرب (الحكام الساراسينيين الذين تكبرهم ماركوبولو). أدخل هؤلاء القوم الأفكار الغربية والكتابات الغربية وأوقدوا نورا جديداً في بلاد الصين (وبذا أثاروا معارضة شديدة نحو طبقة الماندرين - المديرين الصينيين التقليديين) قامت صراعات حامية بين أهل البلاد الأصليين وبين الغزاة الفاتحين، صراعات تذكرنا بحركات الإصلاح التي حدثت في التاريخ الأوروبي، وكانت تلك الصراعات أشد الصراعات في تاريخ الصين كله. وللأسف فقد تغلب التقليديون في الصراع الصيني على المتنورين المجددين المصلحين. بعد تغلب الماندرين تم حرق السفن، تلك السفن التي اتصل بها الصينيون مع العرب ومع التجار العرب بسواحل أفريقيا. في نفس الوقت الذي بدأ فيه الأوروبيون يصلون إلى المحيط الهندي. أنكمش الصينيون داخل بلادهم وتوقعوا وارتدوا عن العالم المتحضر.

اخترع فلافيو من أمالفي البوصلة المغناطيسية واستخدمت في الملاحة بواسطة الأمير هنري الملاح بمساعدة العلماء العرب واليهود والحرفيون والبحارة بعد قرن من اختراعها واستكشفت السواحل الأفريقية. اخترعت البوصلة في بلاد الصين قبل هذا التاريخ بثلاثة قرون واستخدمها أمراء البحر الصينيون - بمساعدة المهاجرين العرب من أمثال الحضري المسلم تشنج هو - في استكشاف جزيرة سيلان ثم في الوصول إلى الخليج الفارسي وإلى البحر الأحمر، ولكن كل هذه المنجزات لم تثمر عن شئ؛ عندما انتصر التقليديون الرجعيون في الصين وأحرقوا السفن. صارت بكين - تحت حكم أسرة مينج - أكبر مدينة في العالم. ولكن بعد اندحار عصر التنوير بهزيمة حكومة

المغول بدأ سكانها يهاجرون منها. ظلت عشرة أجيال مدينة منعزلة وأعاقت هذه العزلة تطور الشعب الصيني. كانت فترة الظلام في الصين أقصر منها في العصور المظلمة في أوروبا. ولكن بعد عصور الإظلام الأوروبية جاء التنوير، وأبدعت عصور التنوير وما تلاها أكثر كثيرا مما حطمت عصور الإظلام أما في الصين كانت عصور العزلة انفصالا تاما عن العالم ولم تستعد الصين شيئا من الإنجازات الحضارية السابقة. صارت طبقة الماندرين أشد الطبقات بيروقراطية وانعزلت بالوراثة، وبامتلاك الأراضي والمباني والمقتنيات، عن كافة طبقات المجتمع.

حدث نفس تسلسل الأحداث في اليابان. حدثت موجات متتالية من الغزو لتلك الجزر، أحضرت إليها العصر النيوليثي ثم عصر البرونز، ثم دخلت البوذية ثم دخلت الكتابة وحدث نمو متواز لها كما حدث في الصين. دخل اليابان أولا مجموعات من الكوريين ثم من الصينيين مع دخول الديانة البوذية ودخول الكتابة الصينية. ثم حدث انعزال تام عن الأوروبيين في اليابان في حكومة شوجون في عام ١٦٤٧ - (كما حدث في الصين) - بعد محاصرة وقتل اليابانيين الذين تم تحويلهم للمسيحية، تم إحياء هذه العزلة مرة ثانية عام ١٨٥٤ عندما حدث ضغط أمريكي - وكان السبب الحقيقي هو وجود خلافات عميقة بين الشرق والغرب قواه الفرق الجذري بين الكتابة والثقافة والتعليم في الشرق عن الغرب. هناك فروق وراثية في الشعبين الصيني والياباني تجعلهما مختلفين عن باقي الشعوب، وقد أثرت تلك الفروق الجينية في تطور هاذين الشعبين. لهذين الشعبين ملكات فنية وتقنية وتجارية واجتماعية بالإضافة للفروق الكتابية والعقلانية التي تجعلهما مختلفين. كما أثرت ظروف بيئية في تطورهما. فقد قابل المزارع الصيني والياباني صعوبات بالغة في زراعة الأرض وفي ربيها. لم يحدث في تاريخ هاذين الشعبين أن مرا بفترة العصور المظلمة التي ألمت بأوروبا وانتهت بتقسيم الأوروبيين إلى شعوب متفرقة. وقد أثرت كل تلك العوامل في طبيعة الشعب. فقد تعلم الصينيون - من الصعوبات التي لاقوها في زراعة القمح - الصبر والنظام والالتزام الدقيق، مما هيأهم لمقاومة الغزو من الغزاة المهاجمين.

يعتبر مجتمع التبت المثل الأعلى للعزلة ويصور أسباب العزلة واثارها في كافة مجالات النشاط الإنساني. بلاد التبت عبارة عن هضبة عالية ترتفع ١٤٠٠٠-١٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وواد يبلغ ارتفاعه ١٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر. تكيف الناس جميعا على المعيشة في جمل مغلغل، مما لا يتحمله أى أجنبي يقدم إلى البلاد. أهل التبت منعزلون عن كافة جيرانهم، ويمكن الوصول إليهم من سيكيم ومن نيبال ومن كشمير ومن الصين. جاءت من تلك الاتجاهات الأربعة موجات من المهاجرين خلال الثلاثة آلاف سنة السابقة. جاء أول القادمين الرعاة الذين يسكنون التلال - من منغوليا جالبيين

معهم الثور الآسيوى الضخم ذو الشعر الكثيف والأغنام. ثم تبعهم المزارعون واحتلوا الوادي. وجاء معظمهم من الصين. ثم قدم المحاربون الأشداء للذين قهروا التبت وكانوا التتار أو الهن الرعاة. فى القرن السابع بعد الميلاد - فعل ملكهم - نفس فعلة ملوك أوروبا من الهمج - وتزوج من زوجتين من الأعراب، إحداهما من نيبال والأخرى من الصين، اعتنق الملك، وجميع شعبه، الديانة البوذية. اشتدت الهجرة إلى بلاد التبت وحدث تهجين شديد مع السكان الأصليين من ملاك الأراضى والحرقيين، كما أدخلت الديانة البوذية للبلاد نظام الرهبنة، ودخلت الكتابة باستخدام الحروف الهندية. من هذه القاعدة حدث تطور فى بلاد التبت، وكان كله تطوراً داخلياً. سرعان ما تربيع الرهبان على قمة المجتمع وشاركوا فى الثروة وفى حكم البلاد - التى كانت مقصورة فيما سبق على كبار ملاك الأراضى. بعد حين ازداد ثراء الأديرة إلى حد كبير - كما حدث فى البلدان المسيحية - خاصة من الهبات التى قدمها لها من يريدون الخلاص من ذنوبهم. كان لكل قرية فى بلاد التبت الدير الخاص بها (حتى عام ١٩٥١) - الذى يعمل كالطفيل الكبير الذى يمتص كل خيراتها. أدى هذا النظام إلى الإفقار المستمر لبلاد التبت وإلى تناقص عدد السكان حثيثاً. ساعد فى حدوث هذا الفقر النقص المتوالى فى خصوبة الأرض وفى تجريف الأراضى الزراعية بواسطة ملاك الأرض وخدمهم. كانت التبت منعزلة عن بقية أنحاء العالم ولم يحدث فيها تقدم علمى وتقنى وسياسى طوال الألف سنة الماضية. ظلت التبت لآلاف عام منعزلة عن جميع أنحاء الدنيا وكان التوالد فيها داخلياً تماماً مما كان سبباً أساسياً فى وقف التجديد كلية.

فى عصر حكم أسرتى شانج وتشو ظهر تناقض شديد بين معتقدات الطبقات الاجتماعية المختلفة وعاداتها - بأشد مما حدث فى البلدان الغربية التى يقطنها الآريون. كان هناك الطبقات المحاربة الذين يركبون العربات الحربية ويمتطون الخيل ويشنون الحروب، ولهم رجال الدين الخاصين بهم والذين يقدمون القرابين لألهتهم. كان للزواج عندهم احتفالات خاصة وكان يتم دائماً مع القبائل والأسر الأخرى. وكان هناك المزارعون الذين توسعوا فى زراعاتهم حول المدن المسورة - التى بناها المحاربون وتولوا الدفاع عنها. كانت آلهتهم تعبر عن الأرض والمحصول والخصب وكان الزواج يتم فى احتفالات الربيع، يحضرها أولادها فحسب. قرب نهاية عصر أسرة تشو حدث اندماج للآديان المتعارضة وحدث تزواج بين كافة المواطنين، وتوقف تقديم القرابين الآدمية عند دفن العظام.

بدأ النبلاء يحاربون بعضهم البعض فى أقاليم الصين المختلفة لتوسيع إماراتهم. أحس الفلاسفة بخطورة انقسام البلاد وبدعوا فى التجوال فى كافة أرجاء البلاد يبشرون بوجوب الصلح

والخضوع لحاكم واحد، وبدأت الكونفوشيوسية التي سادت أسرة هان وسادتتها تلك الأسرة وبدأت الإمبراطورية. بدأ تقليد الخضوع وطلاعة حاكم واحد - الجالس على عرش الإمبراطورية الوليدة.

وقعت عواصم الصين المتتالية الأربعة في وادي النهر الأصفر على مقربة من بعضها في مسافة ٢٠٠ ميل: لويانج (عاصمة أسرة تشو)، هسينيانج (عاصمة أسرة تشن)، شانجان (عاصمة أسرة هان وتانج) وكفيا فنج (عاصمة أسرة سونج). جاءت تلك العواصم الأربعة في نفس المنطقة - لتركز الثروة الزراعية في هذا المكان - وهكذا انطلق المزارعون والمحاربون والمثقفون والمتنكرون جميعا من وسط بلاد الصين. وقد عكس هذا تماسكا ملا جميع أنحاء الإمبراطورية مما مكن حاكم واحد من الحفاظ على وحدتها. بعد تقسيمها في غرب البلاد كانت هناك دائما عاصمتان (أو أكثر) ولكل منها إمبراطوريتها، ولذا لم يتم اتحاد المنطقة الغربية المختلفة عرقيا وثقافيا ولغويا ودينيا، ولكن في تاريخ الصين كله كانت هناك عاصمة واحدة للبلاد جميعا ومن يحكم تلك العاصمة يصير حاكما للإمبراطورية كلها - بهذا تربع أباطرة أسرة هان على عرش الإمبراطورية جميعها وصاروا وحدهم حمايتها والمدافعين عنها والمحافظين على النظام فيها، وصاروا وحدهم الناقلين لتعليمات السماء إلى الأرض ولذا أصبحوا فيما بعد مختلفين عن أتباعهم في الأرض.

عندما دخلت أديان بلاد الغرب الرئيسية إلى الصين: أولا البوذية من الهند، ثم المسيحية التسطورية والمانيشيسية من بلاد القرس، وبعدها الزراشتية واليهودية والإسلام، لم يجد الأباطرة المتنكرون - خاصة الأوائل من أسرة تانج - أي خطر من دخول تلك العقائد، بل على العكس رأوا فائدة في تعدد المعتقدات التي دخلت إلى الإمبراطورية لأنها جميعا قبلت الخضوع لسلطان الإمبراطور - ابن السماء - رغم عدم اعترافها بالوحيته. بعد حين بدأت تلك الأديان في تحويل السكان المحليين إلى دياناتهم المختلفة، وبذا بدأت تتنافس سلطان المؤسسة المحلية. بدأ الإمبراطور وطيقة المانترين والعقيدة الكونفوشيوسية يجدون أن تلك العقائد الجديدة الدخيلة على بلاد الصين تهدد سلطانتهم وتتقص من هيبتهم وتتحدى جلوسهم على قمة النظام وفي أعلى المجتمع. في نفس الوقت بدأت الخرافات المحلية العميقة في أنهان الشعب تقطع من جنوبها. اقتلعت البوذية - إيمانها بالتوحيد - عادة تقديس الأسلاف وهددت بشريعتها بوجود إله أعظم يخضع له جميع الحكام من البشر ويده أن يعاقب المخطئ منهم بدلا من العقيدة الصينية بأن الإمبراطور هو الحاكم المطلق الذي ليس فوقه أحد. عندما بدأت هذه الأفكار تتسرب بين الصينيين أخذت المؤسسة بينها زمام الأمور وعاقبت من تشر تلك الأفكار بين الناس بكل أنواع العقوبات حتى يتوقف عن نشرها والإطرد من البلاد. عاشت الصين بدون الرجال الذين نالوا بالإصلاح الاجتماعي في بلاد الغرب حتى حققوا

الانقلاب السياسي. هكذا تم التحكم فى تطور المجتمع الصينى بواسطة النظام الدينى والأخلاقى الذى بدعه، وتوقف نمو المجتمع وبقي السادة هم كل شئ والمواطن لا شئ على الإطلاق. وكان الأفراد فى كل جيل يتم انتقاؤهم على هذا الأساس وكانوا جميعا خاضعين لهذا المعتقد ويسلكون السلوك المطابق له. وهكذا تماسك المجتمع الصينى، وتوقف تطوره، بالمعتقدات الكونفوشيسية كما تماسك المجتمع الهيلينستى بالأداب الهوميرية. تماسك المجتمع الصينى وتوقف تطوره ليس لأجيال قليلة - ولكن حتى عصرنا الحالى.

كان لمقاومة الأديان الأخرى وإحباطها تأثير آخر على الطبقات المثقفة فى المجتمع الصينى. كان لاضطهاد الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام، الذى بدأ باضطهاد اليهود فى العام الغربى، ولعدم قبول الأصول العلمية والذى بدأ بالإغريق، أثر واضح وفعال فى تطور المجتمعات الغربية. بالتبشير وبالتعليم وبالاضطهاد المتبادل تكون رأى واحد للطبقات العلمية والمهنية والمثقفة مما طبع الحضارة الغربية بطابع خاص. اضطرت هذه المفاهيم للانتشار - تحت الأرض - فى وجه مقاومة علنية لها، وأزاحت تلك الأفكار - بالتدريج - الخرافات التى كانت سائدة فى كل المجتمعات الوثنية والبدائية فى العالم الغربى، ولم تتبق سوى تلك المعتقدات المتعلقة بكل من تلك الأديان (مهما كانت غير عقلانية فى نظر سيسيرو وجيبون وغير علمية فى تقدير جاليليو وهارفى - فى العقيدة المسيحية على وجه المثال). بالرغم من هذا فإن تلك الأديان كانت العامل الفعال فى إزالة الخرافات التى ورثها الإنسان من العصر البابوليئى. لم تختف تلك الخرافات تماما وما زال الأفراد البدائيون غير المتعلمين يؤمنون بها. ولكن فى الصين فإن الشعب كله ما زال يعتقد فى تلك الخرافات. استمر الفلاح فى عبادة آلهة حقله وما زال يعبد المحاصيل التى ينتجها. أما رجل المدينة فقد ألتجأ إلى المعتقدات السرية للأديان المثبطة وخاصة البوذية - وفى هذا شبه لما لجأ إليه الرجل فى الغرب من اعتناق الماسونية فى السر. وقد اتجهت الحركات السرية فى العصور الحديثة إلى الثورة أو إلى الجريمة. وهناك نوع ثالث من الخرافات التى شجعت عليها المؤسسة الحاكمة وهو الاتجاه إلى التنجيم. كان التنجيم تقليدا متبعا بين أباطرة الصين كما كان مقبولا من البراهميين فى الهند ومن الحكام الوثنيين فى الغرب. كان الحاكم يحسب التواريخ ويقرر - فى ضوء تلك الحسابات - متى يتم حرث الأرض ومتى يتم الرى - حسب ما تقول به النجوم. ثم تطور تقليد التنجيم ليصير هو الوسيلة التى تتقرر بها الاحتفالات الكبرى كما يشاء ابن السماء.

كان الخلاف عميقا بين الصين والغرب فى الأفكار الاجتماعية والمعتقدات الدينية وقد بلغ أشده فى القرن السابع عشر الميلادى. ازداد الخلاف عمقا بمجئ المانكوس فى عام ١٦٤٤. كانت

محاولات الإصلاح تتوقف مرارا تحت حكم الأسر المحلية وقد اندثر الإصلاح الاقتصادي تماما - فى أواخر حكم السونج وتوقفت الاستكشافات والتجارة الخارجية فى أوائل عهد مينج. قرر المانكوس تأييد أشد الأفكار محافظة اجتماعيا واقتصاديا وفكريا وثقافيا والوقوف بجانب المؤسسة القديمة. وقرروا أنفسهم فصل المواطنين فى التوالد وفى الإدارة. أنشئوا مدينة تتارية فى كل مدينة كبيرة فى الصين وقرروا منع الزواج تماما مع الصينيات (ولكن أباحوا أن يكون لهم عشيقات) أما للإمبراطور نفسه فقد حرموا عليه اتخاذ عشيقات من الصينيات، وكانت عشيقات الإمبراطور ينتقين من عائلات المانشو. وهكذا كون المانشو من أنفسهم طبقة (كما كون المغول طبقة قبلهم) واستبقوا لتلك الطبقات نصف عدد المراكز الإدارية (ولم يكونوا ناجحين فيها)، وثلاثة أرباع المناصب العسكرية ووظائف الحرس، واستبقوا الربع الباقى لأولاد السفاح منهم. مثل سناتورات الرومان والطبقة الارستقراطية فى البلدان الغربية. لم يشترك أبناء المانشو فى أى أعمال تجارية أو صناعية فقد كانوا يعتبرونها أقل من مستواهم ولا تليق بهم (والحقيقة أنهم كانوا لا يصلحون لمزاومتها). كانت المشكلة الأخرى لأسرة مانشو هو انقسام امبراطوريتهم وشعبهم إلى شمال وجنوب مع اختلاف فى الجغرافيا والثقافة والعرق بين أهل الشمال وأهل الجنوب. لم يسترد الشمال قوته بعد الدمار الذى حدث له من جراء غزو المغول وامتداد الصحاري، وهكذا صار أهل الجنوب أكثر ثقافة وأوفر ثراء وأكثر عددا، قاوم أهل الجنوب الغزاة الهمج بشراسة ولم يطلبوا رضاهم عنهم بخنوعهم وحسن معاملتهم لهم. كان الأباطرة شديرو التمسك بالأصول الكونفوشيسية كما كانوا يشعرون بمشاعر الشعب. أنفق الأباطرة الأموال الطائلة - حتى القرن التاسع عشر لإصلاح المعابد النابوية والبوذية إرضاء للجماهير (وفى هذه السياسة تساوى الشرق مع الغرب).

أدى الاتجاه الدفاعى لأسرة مانشو مع التوالد الداخلى إلى ضعف الحكومة وإضعاف الجنس والثقافة المحلية، فى نفس الوقت الذى دخلت فيه أوروبا إلى المرحلة الثانية من تقدمها الاجتماعى والثقافى والعلمى ومع قيام الثورة الصناعية. فى ذات الوقت توقفت الطبقة العسكرية للمانشو والطبقة الإدارية المحلية للماندرين، وكانتا طبقتان تساندان بعضهما البعض وتنتقيان بعضهما البعض وتعتمد الواحدة على الأخرى فى الثروة، التى اعتصراها من جماهير الشعب التى ابتعدت عنهما نهائيا.

تجلى تفكك أسرة مانشو للجماهير الصينية وللعالم أجمع فى انهيار الصين أمام بريطانيا فى حرب الأفيون عام ١٨٤٠. ثم توالى القرائن على هذا الضعف بنجاح هجوم الغرب على بكين فى عامى ١٨٦٠ و ١٩٠٠. جاء رد الفعل الوحيد فى الأقاليم الصينية من الجنوب التقدمى بعيدا عن

الشمال المحافظ. أجبر الغزو التتري والمغولى أسرة سونج فى عام ١١٢٦ للإلنسحاب من كايفنج إلى هانجشو، وفى النهاية إلى دمارهما، واضطرت الطبقات المثقفة ونوى المهارات اليدوية وأصحاب القدرات العقلية فى المدن الشمالية إلى الهرب منها. هربوا إلى المستعمرات القديمة وإلى مستوطنات جديدة: هربوا إلى كوريا وإلى اليابان وإلى أتام وجاوة وإلى بلاد أخرى كثيرة، ولكن غالبيتهم هربوا إلى مواطنهم الجديدة فى جنوب البلاد. استقر الهاريون فى منطقة كانتون - بعيدا عن بكين - فى المناطق التى ضمت حديثا تحت حكم أسرة تانج. أصبح القادمون أقرب ما يكون إلى التجار الأوروبيين الذين بدعوا يفنون على البلاد من الموانى الجنوبية. سرعان ما تمثلوا المسلمين المتحدثين باللغة العربية فى مستوطنة فوكين التجارية العظمى وبهذا تهيئوا لإقامة علاقات تجارية حميمة مع الأجانب. انتقل بعض الشماليون إلى كانتون فى عصر السونج وصاروا يعرفون باسم «العائلات من الضيوف» أو «هاكا» وما زالوا يعيشون إلى الآن كمجتمع متميز لأنهم لم يتزاوجوا مع أهل كانتون وما زالوا يحتفظون بلهجتهم الشمالية العتيقة فى الحديث، ويعتبر هؤلاء مجتمعا منزلا تماما. لعب هؤلاء المثقفون، المترابطون، المتناسكون ببعضهم البعض دورا طليعيا فى الأربعين عاما من المقاومة ضد الغزاة من المانشو. قاسوا كثيرا ولكنهم استمتعوا بآثار معارضتهم للفاشين. فصلوا من أعمالهم كمديرين - ولكنهم - نظرا لأنهم - المثقفون المفكرون المستنيرين - لم يقعوا تحت قيود المؤسسة الحاكمة، ومن بين صفوفهم قامت الثورة فى آخر الأمر.

قامت الثورة بطريق غير مباشر - كما حدث فى أوروبا قبلها بثلاثة قرون. لم يكن فى الصين تحد واضح فى الأمور الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية. بدأت الثورة بالرفض - كما كان منتظرا من الهاكا - للمسلمات الاجتماعية والدينية للمؤسسة الصينية القديمة، وظهرت على السطح بإعلان مؤسس الحركة الرفضية، عام ١٨٣٧، بنوع جديد من المسيحية. كان هذا هو أصل عصيان تايينج. بعد أربعة عشر عاما من التبشير، وجد مؤسس الحركة نفسه قائدا للجيش الذى أعلنه ملكا سماويا على البلاد، واستولى الجيش له على كل الأقاليم الوسطى من جنوب الصين. بعد عامين آخرين من القتال استولى قواد تايينج على نانكنج - أكبر المدن المسورة فى الصين (وفى جميع أنحاء العالم) واتخذوها عاصمة لهم. وهكذا بحلول عام ١٨٥٣ أقام قادة تايينج أول حكومة حديثة على النظام الغربى عرفتها الصين، وكانت مقدمة لما فعلته اليابان بعد خمسة عشر عاما بواسطة امبراطور ميچى الياباني. ولكنها زادت عن ذلك بمطالبتها بأن تصير المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة، وعملت على انتشارها. ولكنها كانت مسيحية من نوع جديد، فلم يتم تعميم أى من قادة تايينج ولم يفلحوا فى ترجمة نظرية الثلاث المقدس إلى أهالى الصين - ولكنها كانت مسيحية متطورة - أكثر فهما وأشد قبولا من المسيحية الحالية التى تنتهجها الحكومات الأوروبية. لم يمانع قادة الثورة

الجدد أى نهج للمسيحية سوف يتبعه الجمهور - هل مسيحياتهم التى يبشرون بها أى نوع آخر من المسيحية التقليدية التى تبشر بها مختلف البعثات التبشيرية الغربية. كان من أهداف عصيان تايينج أيضا تحرير المرأة الصينية بدءا بتقليد تقييد الأقدام. كان الهدف الثالث هو فتح بلاد الصين للتجارة الخارجية. بدلا من نظرة الشك العميقة التى اتبعتها الحكومات المتتالية وأهالى الصين نحو ما هو أجنبى والتى باعدت بينها وبين العالم، لجأت الحكومة إلى اتباع نهج الصداقة والاتصال المتبادل بين الصين وبين بلاد العالم كافة، كما كان متبعا فى العالم الغربي. كانت تلك هى أهداف حركة عصيان تايينج وأعلن قادة الحركة هذه الأهداف بكل وضوح. وقد أفاد الأوروبيون الذين كانوا يعيشون فى الصين فى ذلك الوقت أن قادة الحركة هم جنس مختلف عن أهالى الصين، ومختلف تمام الاختلاف عن الحكام الذين أساعوا حكم البلاد لزمان طويل.

بعد سبع سنوات من اتخاذ نانكنج كعاصمة للبلاد فى وسط الصين بواسطة قواد حركة تايينج، استولت القوات البريطانية والقوات الفرنسية على بيكين فى شمالى البلاد ودمروا القصور الصينية للأباطرة وأرغموا امبراطورية المانشو على التسليم بشروطهم. كانت تلك الشروط، أن تسيطر القوى الغربية على التجارة الخارجية للصين وأن تكون الأرباح من تلك التجارة لقوى الغرب - والتى كانت تعنى سقوط الحكومة التى تقبل بتلك الشروط. وفى نظير ذلك يساعدوا الإمبراطور بقوداهم وأسلحتهم على القضاء على حركة العصيان فى البلاد. بعد أربع سنوات من الصراع استطاعت جيوش الإمبراطور - تحت قيادة الجنرال جوردون وياقى الضباط المسيحيين من هزيمة الثورة المسيحية ومن استعادة السلطة للإمبراطور وحكومته - التى كانت أبعد ما تكون عن المسيحية.

مهما أفضنا فى استغلال الأوروبيين لمستعمراتهم فى أفريقيا وفى الهند وفى بقية أنحاء العالم، فلا يمكننا تصور ما فعله الأوروبيون فى الصين من استغلال بشع لثرواتها بعد هذا النصر. كانت ثورة تايينج هى أول عصيان جذرى هز المجتمع الصينى منذ إنشاء الإمبراطورية. مات فى الحرب ثلث عدد سكان الصين - البالغين فى ذلك الوقت ٤٠٠ مليون نسمة وبها وفى نهايتها ضاعت فرصة من أعظم الفرص فى تاريخ الإنسانية البشرية جمعاء. عندما جاءت الثورة بعد خمسين عاما - فى عام ١٩١١ - كان مقدار الدمار الذى حل بالبلاد، وسوء الحكم تحت الإمبراطورية لاوچير، وتعاضم الفساد فى المجتمع، والحطة التى جلبتها السيطرة الأجنبية، لم تبق شيئا يمكن أن تقوم عليه دولة أو حضارة إلا التمهيد للطفان الجديد القادم الذى أتى بعد ٤٠ عاما من المعاناة بانتصار الثورة الشيوعية بقيادة ماوتسى تونج. تعلمت الثورة الشيوعية - بعد عشرين عاما - بعض الدروس التى أمت بالثورة الشيوعية فى روسيا. أعادت حكومة متحدة ومنضبطة القوة واستردت السلطة للدولة

الصينية – أو بالأحرى للإمبراطورية الصينية، واستعاد الصينيون احترامهم لأنفسهم وافتخارهم بالجنس الصيني، ولكنهم – أيضا – استعادوا عزلتهم عن بقية شعوب العالم وازدادت ريبتهم في الحكومات الأجنبية. حدث هذا بدون أن يخضعوا لحكومات شيوعية أخرى ويسيروا في ركابها. بدأ الحزب الشيوعي الصيني – كما حدث في روسيا – في فرض نفسه كطبقة حاكمة عليا فوق جماهير الشعب ولكن الزمن سيجعله يعطى مزيدا من الحريات للطبقات المثقفة – الذين لا غناء عنهم للأمة – وبالتدريج سينفتح الشعب الصيني على باقي الشعوب.

كسر الحواجز الثقافية بين الشرق والغرب حدث في الماضي: تحت حكم أسرة تانج وفي حركة تمرد تايينج ولكن ضاعت الفرصة في كل مرة وسيستمر العالم جيلا كاملا قبل أن تسنح الفرصة مرة أخرى.

الختامة

الإنسان والمجتمع

فى صفحات هذا الكتاب حارنا أن نتبين كيف بدأ الإنسان والمجتمعات المختلفة على سطح الأرض واعتمدنا على حقائق تاريخية وقرائن وافتراسات واستنتاجات واجتهادات الأقدمين والمحدثين. أول ما اعتمدنا عليه هو تشارلز داروين الذى اعتبر الإنسان كحيوان يمكن - بل يجب - دراسته كحيوان مع استخدام كل الطرق العلمية التى نستخدمها فى دراسة أى حيوان آخر، وهذا يعنى أن النواحي الوراثية والاختلافات فى صفاته الطبيعية والانفعالية والعقلية وأن أوصافه كفرد، سواء كانت اجتماعية أو عرقية، وأن أمراضه وحديثه وسلوكه ينبغى أن تخضع للدراسة التجريبية. واعتبر داروين أيضا أن تطور الإنسان يخضع لأسس الانتخاب الطبيعى كما تتضمنه من الاختيار الجنسى والاختيار الاصطناعى والاختيار غير الواعى. وثانى من اعتمدنا عليهم هم أتباع داروين الذين اتبعوا نهجه وحرصوا على التمسك بالأسس التى جاء بها، خاصة جالتون الذى كان أول من درس بعمق الذكاء الإنسانى وقياسه وتوارثه وتطور هذا الذكاء واختلافه، كما كان أول من طبق هذه المعارف الجديدة لمشكلات التاريخ فى المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة. ويمكننا حاليا النظر بطريقة أكثر ذاتية مما افترض دالتون وبذا يزداد اعتقادنا أن الذكاء يتعلق بالقدرات العقلية التى زادت من فرص الحياة للإنسان فى مجتمعه، والتى بدأت فى مكان ما من الشرق الأوسط ثم هيمنت على العالم بأسره، وأن هذا المعيار لا يشترط أن يظل متميزا بالصدق على مدى الدهر، وأنه ذاته معرض للتطور الدائم. وفى المقام الثالث ينبغى أن نذكر بالفضل أولئك الذين بينوا المضاعفات غير المتوقعة لنظرية داروين، وأظهروهم كارساوندز الذى بين أن المجتمعات الإنسانية - مثلها فى هذا مثل المجتمعات الحيوانية - تنظم تكاثرها، وبالتالي أعدادها بضوابط أخلاقية غريزية تقلل من التنافس وتتجنب الصراع. وفى تحليله لتلك الظاهرة بين أن عمليات التوالد هى ذاتها جزء من النظام الوراثى الجينى التى أمكن - حاليا - فهم تطوره فى الحيوانات وفى النباتات. ولكن - فى الإنسان - فإن الإذعان للمعلمين الدينيين قد يشوه أو يثبط الأخلاقيات الفطرية للشعوب البدائية. وفى مجال

آخر ينبغي أن نرجع الفضل إلى الإلهام الذي أتى به فوستل دي كولانج الذي تبين أن تقسيم مجتمعات المدن إلى طبقات يعود إلى تعاون الأجناس المختلفة في المجتمع، وقد شكلت الأسس الوراثية لهذا المفهوم دراسات عالمي الاجتماع جومبلوفينش وسوروكين وعالمي التاريخ أكتون وبيرين، وخاصة عالم الآثار القديمة فليندرييتري، الذي طور الفكرة وحولها إلى فرض أضاء لنا تساؤلات عدة. كتب فليندرييتري لنا «إن صعود حضارة جديدة مرتبط بهجرة جنس جديد.....» وينتج من اختلاط العقائد، وعقبات من اختلاف الأوضاع الاجتماعية، ولكن كل تلك العقبات تذوب مع مرور الزمن ويندمج الجنسان مع بعضهما البعض».

وهكذا ذكر بيتري في عام ١٩١١ كل الأسس: من جماعات الإنسان الدينية، والتزاوج المتجانس، والطبقة الاجتماعية والاختلاف العرقي والاتحاد الجيني الوراثي. أدرك بيتري أهمية هذه الأسس كلها من معرفته الوثيقة بكل من باتيسون وبيرسون، كبيرى علماء الوراثة والقياس الحيوى فى ذلك الزمان. وتدين بالفضل الكثير أيضا للباحثين فى علوم الإنسان - الأنثروبولوجيا. فقد درس ريفرز أصول المجتمعات لدى الشعوب البدائية وبين راجلان مظاهر وأسباب ركود الثقافة وضياها فى تلك الشعوب، ولكن لم يربط أى منهما تلك الدراسات بالعلوم الأخرى، ولم يتبيننا العلاقة بين ما كانا يؤمنان به من وجوب تجنب التوالد الخارجى مع ما كان ينادى به لويس مورجات من ضرورة تجنب التوالد الداخلى. هاذان العاملان هما أهم العوامل التى حكمت على مسيرة التطور الإنسانى عبر التاريخ. وسوف نصاب بالدهشة إذا أدركنا أن جوربون تشايلد - الذى بين فى تحليل مبدع أصول الحضارات الأوروبية - قد أغفل تماما العامل الوراثى والقرائن التى تشير إلى أهمية الثورات الجينية التى جاءت بها دراساته وبقية الدراسات الأخرى. هناك نواح أخرى للدراسات التى يمكن ربطها بالأفكار البيولوجية. هناك فكرة عامة، غامضة، عن المناخ الاجتماعى، مناخ محدد بالطبيعة الجينية الوراثية للمجتمع الذى يعيش فيه الفرد. فى هذا المجال تبرز أفكار باجيهوات عن الإذعان، تحاول طبقة بعينها أن تفرض أسبابها وتفسيراتها على غرائز ومواهب طبقة أخرى وتحاول تبرير هذا الإجبار أنه فى مصلحة كلتا الطبقتين. عندما لا نوافق على شئ ما نصف من يرفضه بالكبر وعندما نوافق على شئ آخر نصف من أتى به بالإخلاص، ويقع كل ذلك السلوك تحت مبدأ الإذعان. وقد أسهب ليكى فى شرح هذا المبدأ فى كتابه «تاريخ الأخلاقيات». فى هذا الكتاب نرى كيف انتشر المسيطرون، من الأفراد والطبقات، فى أوروبا وخلقوا المناخ الأخلاقى الذى أوجد الأفراد الخانعين الذين لا يقاومون الظلم الذى يقع على كواهلهم والطبقات التى تستعذب الخضوع لمن يسيطرون عليها. وهكذا تغيرت معايير أفكار وسلوك المجتمع ككل وصار كالجسد الذى يغطيه الجلد الرقيق، وصار هذا الاتجاه هو الاتجاه الحاكم لكل المجتمعات الطبقة. ولعل آخر التخصصات الكبرى التى

استفدنا منها هو تخصص الزراعة. عندما أعلن فافليوف اعتقاده أن سر التاريخ الإنساني في استئناس النباتات البرية رماه الناس باللغو في الكلام. ولكن بعد أربعين سنة فقط من هذا القول تبين أنه حقيقة لا غناء عنها لفهم ماضى الإنسانية، وفي نفس الوقت تلاحظ الوجه الآخر للعملة: أن انتشار الزراعة قد أدى إلى دمار البيئة الطبيعية للإنسان. أول من أظهر لنا هذا التناقض كان الكساندر فون هو ميولت وجورج بيرونز مارش، وتبعهما علماء آخرون آمنوا برسالتهم، ولكن كانت أصواتهم وتحذيراتهم هباء ضاع في الفراغ. كان مضمون رسالتهم والمبدأ الذى علموه لنا هو أن كل مصدر جديد يزيد من قوة الإنسان على الأرض فى حاضره، يقلل فى ذات الوقت من فرص خلفائه من بعده، وأن كل تقدم حدث للإنسان صاحبه تدمير للبيئة من حوله وهذا الدمار لا رجعة فيه ولا يمكن إصلاحه ورأب صدعه ولا يمكن للإنسان أن يتبينه فى حينه ولا أن يدرك مخاطره فى المستقبل، ولعل هذا هو أهم دروس التاريخ. لم نستطع لأن تقدير كيف أثر تدمير البيئة على سير أحداث التاريخ السابقة ولذا لا نستطيع حتى الآن تبين كيف سيؤثر دمار البيئة على الأحداث المستقبلية ولا مقدار ما سيحدثه هذا الدمار على مستقبل تطور الإنسان والمجتمعات الإنسانية. وأخيرا لا بد لنا من الإشادة بكل أولئك الذين أدركوا أن تطور تاريخ الإنسان والإنسانية - أعقد المسائل التى يمكن للمرء أن يدرسها - يحتاج لاستخدام كل الوسائل المتاحة لنا - وليس الاعتماد على ركن واحد أو جزء صغير من المعرفة الإنسانية - مهما كان هذا الجزء مفصلا ومنظما وعميقا كما قال المؤرخ أكتون «الرجل المثقف لا يمكن أن يصير مثقفا بدراسة فرع واحد من فروع المعرفة. ورحم الله شيخنا ابن خلدون - أول من حاول دراسة التأثير المختلف لجميع أنشطة الحياة على تطورها وعلى سير التاريخ نفسه. وقد حاول ه.ج. ويلز - من أتباع داروين وتلامذته المخلصين - أن يبدأ فى مثل تلك الدراسة معتبرا أن استخدام نظريات داروين - فى النشوء والارتقاء والبقاء للأصلح والانتخاب الطبيعى - لا تصلح وحدها لدراسة تطور الإنسان والإنسانية ولا بد من الاعتماد على علوم أخرى وعلى معارف مختلفة إذا عزم المرء على تناول هذا الموضوع والسباحة فى هذا الخضم الهائج العميق. ولا شك أن ويلز - عند كتابة تاريخ الإنسانية استخدم قرائن عدة - قد لا نتفق مع بعضها بقدر نرفض بعضها الآخر - للوصول إلى الخلاصات التى وصل إليها. ولكننا نوافق على فكرته ونحترم المبدأ الذى جاء به ونجمله من أن تاريخ الإنسان هو تاريخ واحد فى كافة البلدان ومختلف البقاع وهو ما نرمى إليه فى كتابنا هذا، كما نحترم أيضا خليفته كارلتون كون لاستمراره فى هذا المسعى وسيره فى ذات الطريق مع زيادة مراجعه باتساع المعرفة الإنسانية.

فكرة وحدة التاريخ الإنساني قد تعززت فى السنوات الثلاثين الماضية بالإنجازات الرائعة لعلمى الآثار والوراثة. العلمان ليس جديدين، فكل منهما بدأ منذ أكثر من قرن من الزمان، ولكن طرفة

تقنية واحدة قفزت بعلم الآثار قفزة عالية وغيرت من مفاهيمه القديمة، وعدد من النظريات الجديدة والكشوف المتتابعة قد أحدثت انقلاباً في علوم الوراثة.

استطاع الإنسان أن يحدد بدقة تاريخ كل أثر يعثر عليه باستخدام الكربون المشع (ك^{١٤})، وقد هز هذا الكشف علم الآثار من جذوره. استطعنا باستخدام هذه التقنية الجديدة إزالة أى شك فى تاريخ كل ما نعثر عليه وتحقق الإنسان بدقة من كل ما كان يشك فيه. استطعنا أن نحدد اتجاه حركة الإنسان فى العالم وقدرات الشعوب المختلفة ومخترعاتها فى العصور الحجرية قبل بدء التاريخ المكتوب. بهذا استطعنا التأكيد من أن غالبية الاستدلالات التاريخية السابقة عن الزمان والمكان كانت صحيحة ولكن بعضها خاطئاً. استطعنا التأكيد من أن الزراعة والحضارة فى العالم القديم كله قد بدأت من مكان مركزى فى الشرق الأوسط ومنه انتشرت - بهجرة البشر - الرجال والنساء، والشعوب، وبتكاثرهم نشأت جميع الأمم البشرية. كذلك أمكننا التأكيد أن الزراعة نشأت مستقلة بواسطة أناس آخرين فى العالم الجديد، وأن هؤلاء البشر قد زرعوا محاصيل جديدة. عرفنا أن الأفكار الجديدة لا تحدث إلا لماماً بين الشعوب البدائية، ولكن إذا أتيح للأفراد المناسبين فى المكان المناسب الوقت الكافى فإن آراء عظيمة وأفكاراً رائعة سوف تظهر، أكثر من مرة. ويعد ظهر الفكرة الجديدة تتبعها سلسلة متتالية من الأحداث الكبرى. من هذه البدايات النادرة الحوادث سارت الفكرة الأساسية على الأقدام ثم على ظهور الخيل وعبرت البحار على ظهر السفن، بسرعات يمكن قياسها. ولكن - حتى حلول العصر الحاضر - لم يتم انتقال تلك الأفكار بتاتا ولم تنتشر عن طريق الطائرات ولا عن طريق المذياع، وهذا ما يتناساه إنسان العصر الحاضر المتحضر. حتى الآن ظلت الثقافة مرتبطة بالشعوب التى بدعتها أو بأبنائهم وحفدتهم. عندما يتتبع عالم الآثار حضارات الشعوب المختلفة فإنه يتتبع تحركات البشر، والتغيرات التى تحدث فى المجتمع، صعوداً أو هبوطاً، نمواً أو اندثاراً، ومن ذلك التتبع يستطيع فهم الأسباب والروابط بين مختلف العمليات، ويبتدئ أن يركب كل تلك الأنشطة داخل المثبت الذى ينتظر ملء فراغاته، ونأمل أن نؤكد استمراراً فى الحدث أو انتشاراً له أو انتقالاً أو نقلاً، ونربط بين السبب والأثر الذى تعتمده وحدة التاريخ الإنسانى كله.

أما التقدم الذى حدث فى علم الوراثة فهو تقدم مذهل وله آثار بعيدة وسنتبين فى المستقبل مقدار تلك الآثار على تطور الإنسان. فتطور الإنسان والمجتمعات الإنسانية ينشأ مما يمكن للرجل أو المرأة أن يفعلاه والدافع لهذه الأفعال وأهدافها، أى يعتمد على صفات الفرد، المحكوم بعوامل وراثية، وهذه العوامل الوراثية يحكمها نظام التوالد فى المجتمع. تختلف أنظمة التوالد - كما بينا - تماماً ما بين التوالد الداخلى والتوالد الخارجى. مع نظام التوالد الداخلى تزداد قوة العامل الوراثى: يصير التصميم قطعياً وتتماثل المجموعة والجمهور والطبقة والجنس العرقى. بالإمكان تدميرهم أو

إزالتهم، أما لو استمروا فى أماكنهم فلا يمكن التنبؤ بأى حال. مع التوالد الخارجى تتآكل العوامل الوراثية وينشأ من إعادة تجميع المورثات اختلافات عميقة وكثيرة لا يمكن التنبؤ بها وتحدث تجديدات بلا نهاية. ويعم المجهول، المجهول المنظم كيان المجتمع وينتقل ضبط التطور إلى قدرة انتقاء العوامل البيئية. بين هاذان الضدان يحدث التوازن فى كافة أنواع الحيوان والنبات. أما فى الإنسان، فمنذ الثورة النيوليثية، تأرجح التوازن بين طرفى النقيض تبعاً لاختلاف العوامل الاجتماعية وعندما لم يمكن المحافظة على التوازن حدثت الأزمات الكبرى فى التاريخ الإنسانى. تطور الذكاء الإنسانى ببطء مطرد وتأثر بالنظام الاجتماعى الطبقي. اختلف ذكاء البشر وتتنوع، واختلف بالتالى نظام التوالد الذى اتبعه الإنسان. فقد نشأت جميع الطبقات الحاكمة كما تكونت طبقات العبيد – فى البداية من اتجاه الأجناس المختلفة على نشأة الطبقة فى المجتمعات، وكان التقدم دائماً فى مصلحة المجتمعات الطبقة إذا ما قورنت بالمجتمعات التى تساوت فيها رؤوس البشر. كانوا أكثر تنافساً، وتعاونت طبقات المجتمع – المتنوعة وراثياً مع بعضها البعض لإنتاج منتج أكثر تعقيداً وأشد كفاءة عما تنتجه المجتمعات البدائية البسيطة المتجانسة. وكانت هذه المجتمعات الطبقة أكثر تكيفاً لأن التهجين الذى حدث بين الطبقات المختلفة قد أطلق تنوعاً إضافياً فى تلك المجتمعات. بعد تكون المجتمعات الطبقة استقرت ثم جذبت وتمثلت الغريباء ليكونوا طبقات جديدة اتحدت لتبنى المدن والأمم ببطء شديد. بدأت المدن فى المنطقة المعتدلة الطقس ثم انتشرت بصعوبة إلى المناطق الأخرى، شمالاً نحو القطب الشمالى وجنوباً إلى المناطق الاستوائية نتيجة هجرة منتقاة ثم بالتهجين مع سكان تلك البلاد الأصليين ممن يعيشون فى هذا المناخ الشديد. وبهذا تمكنوا من التكيف مع تلك الأحوال الجديدة. وكلما كان المجتمع أشد تعقيداً بمجموعاته الكثيرة، داخلية التوالد كل على حدة، كلما تأخر حدوث التكيف فيه. انتشرت الزراعة ببطء شديد وتكونت المدن أيضاً ببطء شديد ولكن كان انتشار البشر سريعاً، سواء كانوا صناعاً أم محاربين، وخاصة من ركبوا الخيل أو أبحروا بالسفن وارتبطوا بمجتمعات جديدة حلوا فيها. إذا كانوا من الحكام نقلوا لغاتهم إلى الأماكن التى ارتحلوا إليها وتوسعوا فيها سواء كانوا آريين أو ساميين أو صينيين أو عرباً أو أندونيسيين أو ممن يتحدثون البانتو. اعتمد الغزاة الجدد على طبقة حاكمة سابقة، تناسلوا معها وتهجنوا ولكنهم ظلوا بمنأى عن جماهير الشعب. بهذه الطريقة – مع تزايد الفتوحات – انتقلت لغات الحكام وانتقل دمهم إلى جميع أنحاء الأرض. كل المجتمعات بحاجة إلى رجال دين، الذى يضعون التشريعات التى تنظم عمليات التوالد فى شعوبها. إذا تركت تشريعات التوالد فى يد الطبقات الحاكمة فحسب لتحقيق رغباتهم لاندثر الحكام واندثرت معهم الأمة كلها. لفهم هذا يتوجب الإمعان فى أصول الطبقات الجديدة التى تواجدت فى كافة المجتمعات.

كان من ابتدأوا الأسرات الحاكمة الجديدة سواء أكان قورش أو الإمبراطور تشن، أغسطس أو وليام الفاتح، نوى أصول ذات صفات مميزة. جاوا جميعا من توالد خارجي، قد يكون مبالغا فيه لدرجة أن يكونوا أبناء سفاح. بعد تحقيقهم الانتصار وفتح البلاد يسعون ليبقى الحكم داخل أسرتهن. الفراعنة والأخميميون، البطالمة والقيصرية، فى الزمن القديم وفى العصور الحديثة مثل أسرة الهابسبورج، تحولوا من التوالد الخارجى إلى التوالد الداخلى عندما يصلون إلى القمة، وبهذا تسببوا جميعا فى انهيار ملكهم وانتهاء عهد أسرهم الحاكمة. الوحييون الذين امتنعوا عن هذا التقليد كان ملوك أوروبا فى العصور الوسيطة. ذلك لأن عددهم كان كبيرا - يشكلون قبيلة وحدهم - وعملوا بتزويجهم من بعضهم البعض على تماسكهم سياسيا وثبات التوارث الجينى فيهم جميعا. كذلك منعهم البابا منعا باتا من التوالد الداخلى. وعندما فقد بابا الكاثوليك سلطته عليهم ظهر أثر ذلك سريعا عليهم وفقدت أسرتا الهابسبورج والبوربون ملكهما، بعد اتجاهاهما إلى أقصى درجات التوالد الداخلى عندما كان يتزوج الابن من أخته أو عمته ففسد النسل وانهارت النولة. حتى عندما يكون التوالد الداخلى ليس بهذه الدرجة البالغة، يتأثر الحكم ويضعف، ليس بسبب عيوب وراثية تنشأ فى النسل ولكن بسبب ثبات نوعية الحاكم وخصائصه بعد تغير العصر وتبدل الزمان، كما ذكر كبير الوزراء لأقطاي - نجل جنكيز خان - «لقد تكونت إمبراطوريتك الشاسعة والعظيمة بمهارة أسلافك فى ركوب الخيل، وإتقانهم للفروسية ومهارات الكر والفر، ولكنك لا تستطيع حكمها بهذه المهارة وحدها». وتكرر هذا المثال مع أرسطقراطيو أوروبا الذين تمكنوا من الفروسية واتقنوا فنونها - بفضل توالدهم الداخلى - تلك المهارات والفنون التى مكنت لأسلافهم النصر فى الحروب، ولكن فى عهودهم، بعد تغير أساليب الحروب وطرائقها، سبب تمسكهم بالفروسية وحدها واعتمادهم الكلى عليها - كما سبب تمسك المغول من قبلهم عليها - من حلول المصائب لهم. ولم يمكن لذكاء بعض الأفراد وبعد نظرهم من التقلب على غرائز الجماهير ونصحهم باتباع السلوك القويم.

فى الزمن القديم كان المستكشف التقنى غير معروف بالاسم ولكن أدت كشوفه فى كثير من الأحيان إلى فضل بالغ على قومه، وقد رفع بعضهم إلى مرتبة الألوهية والتقدیس. لا نعرف شيئا عن آباءه وأسلافه وعائلته ولكننا نعرف مستبقى سر كشفه لقبيلته، (سواء كان هذا السر هو استئناس الفرس أو ركوب الخيل أو تقنية صهر الحديد)، وفى أول الأمر استبقى هذا السر لعائلته من دون قبيلته. يعود سر هذا الكشف على صاحبه بالقوة والثراء العظيم ويمتد تدريجيا إلى خارج المحيط الضيق الذى يحاول صاحب الكشف أن يستبقه فيه. وبهذا تعود الكشوفات التى يحققها أفراد قلائل من البشر بفتح أفاق العمل لكثرة من الناس وتتكون طبقة من نوى السلطة والسلطان ومن نوى الثراء الواسع فى المجتمع.

لا يختلف عن هذا المثال - في العصر الحديث - سوى المجتمع الهندي - الذي يحافظ على طبقات المجتمع بجمود ولا يسمح لأفراد طبقة أن ينتقلوا إلى طبقة أخرى. أما في المجتمعات الأوروبية فرغم أن النظام الطبقي فيها مرن إلى حد ما ويمكن للذد أن ينتقل من طبقة إلى أخرى إلا أن تغيير الفرد لطبقته محدود لدرجة كبيرة. ولكن الاختلاف بين ثبات المجتمعات أو ديناميكيته واضح لدرجة كبيرة من مجتمعات الريف والحضر، بين المجتمعات الريفية ومجتمعات المدن، ويرجع الفضل في ذلك إلى المدن. ففي المدن قطن سكانها الأرائل في أحياء مختلفة منفصلة عن بعضها البعض. ولكن حدث تهجين بين مختلف الطبقات، وكان سهل الحدوث في المدن - بعكس الريف - حيث يكون الفلاحون بأيديهم الغالبية العظمى من السكان ويكاد يكون الأثرياء ملاك الأراضي الأقلية. كان الفلاحون الفقراء هم وحدهم المتصلون لكل مصاعب الحياة وهم الصابرون الكادحون، وكان ملاك الأراضي هم المرفهون المنعمون الذين يحصلون على ثمرة العاملين المكافحين وعلى كل خيرات الأرض وما تنتجه. بالتدريج اتجه الفلاحون للهجرة إلى المدن وتهجن أولئك من سكان المدن وحدث التقدم الاجتماعي في المدن. أسرع عملية التهجين بنمو المدن وأعقب هذا قيام الثورة الصناعية في مكان بعد آخر والتي شجعت على مزيد من الهجرة من الريف إلى الحضر ومزيد من التهجين ومزيد من التجديد. تلى ذلك نشأة مجتمعات، نشأت بفضل الثورة الصناعية وتبعتها وكانت لها خاصتان تميزانها. تكاثرت طرق اكتساب المعيشة وتنوعت سبل أكل العيش وتعددت المهن والحرف وزاد اختلافها عن سابقتها وصارت مؤقتة وغير ثابتة ولا دائمة عما كان يحدث في أي مجتمع من المجتمعات السابقة. كما تفرق الأفراد إلى طبقات أكثر تعددا من طبقات المجتمعات السابقة حسب قدراتهم واستعداداتهم وحدث تزواج أوسع بين مختلف الطبقات وسهل على كل فرد أن يغير مهنته وعمله وموقعه في المجتمع. أثر هاذان العاملان: طريقة الحياة والفرد وعمله، وزيادة تعدد الأعمال على الإنسان كما لم يحدث في كل مراحل التاريخ السابقة. ولعل هذا هو السبب وهو النتيجة للسرعة المتنامية للتقدم التقني والمخترعات الجديدة.

نظرا لزيادة أقسام المجتمع ولتزايد الوظائف التي يقوم بها الإنسان في هذا العصر. نشأت مصاعب اجتماعية وصعوبات تاريخية كما كمنت الخلول لإصلاحها. أول تلك الصعوبات هي في اختيار العمل الملائم لكل فرد. إذا لم يرغب الابن في سلوك طريق أبيه والعمل في نفس مجال عمله عليه أن يختار أي الأعمال سيعمل فيه. سينتقى عادة ما يعتقد أو يشير به عليه الآخرون ما يناسبه من عمل وما يظنون أنه سينجح فيه وسيكون أفضل الأعمال له. سيتبع الشخص شديد العزم وينتقى لنفسه ما يعتقد هو نفسه أنه الأصلح له، وسيخلق في محيطه كل ما يؤهله لبلوغ قمة النجاح والحصول على الثراء غير المنقطع. أما الفرد ضعيف الشخصية ضعيف الإرادة فسيستبع آراء

الأخرين ويقبل ما يعرض عليه من عمل. بين هاذين المثالين يقع أغلبية الناس ويحدث التفاعل بين الفرد والمجتمع ومع العالم الذى يجد نفسه فيه. كل هذا يتوقف على الخصائص الوراثية للفرد والتركيب الوراثى للمجتمع ومن التأثيرات المختلفة والنتائج المبتأينة تتوقف النماذج المختلفة لأوجه النشاط الإنسانى. هناك نموذج للمجتمع سريع التغيير، فى المدن الكبيرة، فى البلدان التى كفلت حرية التنقل بسهولة ويسر لمواطنيها، التى لا يحدها عامل الفقر أو المميزات الدينية أو الاختلافات اللغوية. فى تلك المجتمعات يبلغ التوالد الخارجى أشده، وفى ظل هذا المستوى الحر من التوالد الخارجى يتنوع الأفراد إلى أقصى درجة ويصل بعضهم إلى الحدود القصوى من العبقرية أو التخلف، من المبدع إلى المعيب. فلنبداً بمناقشة الشخص المعيب تجده كنوباً شديد الكذب وهو سبب المصائب الكبرى فى تلك المجتمعات، يعوزه الانسجام والتكيف مع مجتمعه. هو عبء يجب أن يتحملة المجتمع ككل نتيجة تطبيق أفضل أساليب التوالد على الاطلاق. لحسن الحظ يكثر بين هؤلاء قصر العمر وانخفاض الخصوبة، ويلعب الانتقاء الطبيعى لعبته ويمنع هذا العبء من أن يكون غير محتمل. نناقش ثانياً التركيبة الجينية التى تنتج الشخص المبدع. هو المخترع، الفنان، البطل. هل يغير مثل هذا الشخص وجه التاريخ؟ ربما لا يفعل شيئاً فى الأمد البعيد الذى مصيره الفناء، ولكن فى الأمد القصير، الذى قد يمتد لعدة مئات من السنين، أو مكان محدود، فى أمته والأمم المجاورة لها والشعوب التى تتأثر بها، فإن واقعه سيكون كبيراً. فمن نسميهم بالرجال العظام ينشأون من تركيبة وراثية فريدة ويظهرون فى أوقات استثنائية وفى أماكن معينة. يتأثر بهم جميعاً تابعيهم ويمتد هذا التأثير إلى المكان والزمان. وللأسف فإن احتلال صفار الرجال للامكان العظيمة قد يكون له نفس آثار شغل كبار الرجال لتلك الأماكن، مع الفارق الكبير أن نتائج أعمالهم تكون أبعد مما كانوا يهدفون إليه.

مقدم الرجال العظام شئ لا يمكن التنبؤ به. هناك عاملان يحددان عظمة الشخص: أحدهما وراثى والآخر بيئى، ولا يمكن التأكد من أيهما. المصدر الوراثى فى الفرد المبدع هو فى امتزاج فريد ينشأ من توالد خارجى نشأ من امتزاج منظم للجينات الوراثية إثر توالد خارجى، ونتج عنه تطور الإنسان وتطور العالم. أما المصدر الثانى الذى لا يمكن التنبؤ به فهو البيئة الحيوية حول الإنسان - خاصة بيئة الكائنات الدقيقة. لا يمكن للعلم حتى اليوم التنبؤ بمستقبل الأمراض المعدية ولا بالسبيل الذى ستسلكه فى المستقبل ولكننا نستطيع التنبؤ - بدرجة محدودة - عن الآثار التى ستخلفها على الإنسان. كلما تنوعت أصناف البشر وازداد الاختلاف الجينى الوراثى بين الأفراد كلما اختلف تأثيرها على الإنسان وتباينت آثارها على البشر.

ينبغي لنا أن ننظر إلى الإنسان ككل متكامل يشد بعضه بعضا لا كشعوب متفرقة لا يعنى مصير أحدها مصائر الآخرين، الجنس الإنسانى جنس واحد وهو أئمن الحيوانات وأشدّها رقىا وينبغى علينا أن تحافظ عليه هكذا وأن نحاول دائما الاستزادة من رقيه ودفعه دفعا إلى الأمام وإلى مزيد من الترقى والعلو. لا يكفى لنا الامتناع عن قتله ولكن يجب علينا الحفاظ على بيئاته المختلفة من التدمير والاندثار حيث تعيش شعوب مختلفة تحتاج لتلك البيئات لتظل على قيد الحياة، فإذا ضاعت تلك البيئات فمن المستحيل استعادتها وصدق الله العظيم حين قال فى كتابه الكريم:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.

(سورة الحجرات الآية: ١٣)

محتويات الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	تمهيد
٩	مقدمة : تاريخ الإنسان والمجتمع
١٥	الباب الأول : الأصل والأساس
٢٧	الباب الثاني : العالم القديم
٤٠	حضارات أرض الجزيرة (بلاد ما بين النهرين)
٤٦	الكاهن والكاتب
٤٩	دستور حمورابي
٥٤	الحضارة المصرية القديمة
٦٩	الباب الثالث : انتشار البشر على سطح الأرض
٦٩	بداية أوروبا
٧٨	الحيثيون
٨٠	الكلت
٨٢	الإغريق
٨٦	الغزو الدورياتي
٩٥	وحدة الإغريق
٩٩	الجنس السامي واليهود
١٠٠	الفينيقيون
١٠٣	اليهود

١١٥	الباب الرابع : نشأة الإمبراطوريات
١١٥	الإمبراطورية الفارسية
١٢٦	الإمبراطورية المقدونية
١٤٠	خلفاء الأسكندر الأكبر
١٤٠	الثورة الهيلينية.
١٤٠	السليويون
١٤١	البطالمة
١٥١	الباب الخامس : فى الإمبراطورية الرومانية
١٩٣	الباب السادس : المسيحية - الإسلام - الهندوسية
١٩٣	أولا : المسيحية
٢٢٣	ثانيا : الإسلام
٢٤٦	ثالثا : الهندوسية
٢٥٥	الباب السابع : نشأة الأمم الحديثة
٢٥٥	بيزنطة
٢٦٣	الترك
٢٧٣	البندقية
٢٧٨	غرب أوروبا
٢٩٥	الباب الثامن : غزاة من الشمال
٢٩٥	الفايكنج
٣٠٠	النورمانديون
٣٠٢	الجزر البريطانية
٣٠٥	الصليبيون
٣١٤	أيرلندا

٣١٩	الباب التاسع : المسألة اليهودية
٣٢٧	بولندا والأشكناز
٣٣٥	الباب العاشر : صراع المجتمعات
٣٣٧	الإصلاح الكنسى
٣٣٩	جون وايكليف
٣٤٣	يان هوس
٣٤٤	مارتن لوثر
٣٤٥	كرانمر
٣٤٦	كالفن
٣٥٠	إصلاح المجتمع
٣٥٠	التجريب أو التطور فى انجلترا
٣٥١	الحرب الأهلية فى انجلترا
٣٥٧	عصر النهضة
٣٧٣	الباب الحادى عشر : الثورات فى أوروبا
٣٧٣	أولا : أوروبا الغربية
٣٩٢	ثانيا : شرق أوروبا
٤١٧	الباب الثانى عشر : عوالم منفصلة
٤١٧	أولا : أمريكا
٤٤٣	ثانيا : الصين
٤٦١	الخاتمة : الإنسان والمجتمع

فهرس الخرائط

صفحة	العنوان	رقم الخريطة
الغلاف الأمامى	العالم قبل الزراعة .	
الغلاف الخلفى	العالم بعد الزراعة .	
٥٥	أهم معالم الحضارة المصرية القديمة .	(١)
٧٢	التوسع المتتابع فى أوروبا .	(٢)
١٣٩	أستعمار البحر المتوسط .	(٣)
١٨٥	الأمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية .	(٤)
٣٣٠	التوسع اليهودي وتفرق اليهود .	(٥)

فهرس الجداول

صفحة	العنوان	رقم الجدول
٣٢	استثناس الحيوانات فى العالم القديم .	(١)
٤٥	تتابع نظم الحكم فى بلاد ما بين النهرين	(٢)
٥٠	أهم محتويات دستور حمورابى .	(٣)
٦٠	الأسرات الحاكمة فى مصر القديمة تبعاً لتقسيم مانيتو .	(٤)
٩٨	الفلاسفة اليونانيون والأقدمون .	(٥)
١٠٨	تطور اليهود منذ عام ١٧٢٠ ق.م .	(٦)
١٢١	شجرة عائلة الأخاميين وسنوات حكم الملوك .	(٧)
١٥١	استيطان إيطاليا من سنة ٣٠٠٠ - ٣٠٠ ق.م .	(٨)
١٧٥	تطور نشأة وصعود روما والدولة الرومانية .	(٩)
١٨٣	اللغات الرئيسية فى الإمبراطورية الرومانية .	(١٠)
١٨٧	تعاقب الأباطرة الرومان وأهم الأحداث التى صاحبت حكمهم .	(١١)
٢٢٠	التوسع المسيحى .	(١٢)
٢٢٦	العرب قبل الإسلام .	(١٣)
٢٤٢	تتابع الأحداث فى العالم الإسلامى .	(١٤)
٢٦٠	حكام الدولة البيزنطية وأصل الأسر المالكة فيها .	(١٥)
٢٦٥	تركيبة المجتمع العثمانى وانتقال السلطة فيه .	(١٦)
٢٦٩	تتابع حكام الإمبراطورية العثمانية .	(١٧)
٢٩٠	التحركات والتوازنات فى أوروبا .	(١٨)
٣١١	الحملات الصليبية واتصال أوروبا بالمسلمين فى العصور الوسطى .	(١٩)
٣٢٥	مصير اليهود الإسبان بعد عصر محاكم التفتيش .	(٢٠)
٣٤٨	المصلحون العظام .	(٢١)
٣٦٢	أهم علماء أكسفورد .	(٢٢)
٣٦٤	المؤسسون للثورة العلمية فى بريطانيا .	(٢٣)
٣٦٦	مؤسسو الثورة الصناعية فى بريطانيا .	(٢٤)
٣٩٩	أصول لينين .	(٢٥)
٤٢٧	تواريخ منع تجارة الرقيق فى بعض بلاد أوروبا وأمريكا .	(٢٦)
٤٣٩	نمو تعداد الولايات المتحدة الأمريكية .	(٢٧)
٤٤٥	الأسر الحاكمة فى الصين .	(٢٨)

مكتبة أخرى للمؤلف

اسم الكتاب	دار النشر	سنة النشر
مضادات الحيوية	دار المعارف	١٩٧٨
الأمراض المعدية (باللغة الإنجليزية)	دار المعارف	١٩٧٨
مرض نقص المناعة المكتسب «إيدز»	مركز الأهرام للترجمة والنشر	طبعة أولى ١٩٨٧ طبعة ثانية ١٩٨٧ طبعة ثالثة ١٩٩٣
الأمراض المعدية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها	دار المعارف	١٩٩٠
أمراض الكلى: أسبابها وطرق الوقاية منها وعلاجها	دار الشروق	١٩٩٤
مناطق الصراع فى العالم	دار المعارف	١٩٩٥
البغاء عبر التاريخ	دار الجيل	١٩٩٦
تحديات المستقبل	دار الأمين	١٩٩٧
الاستنساخ: هل بالإمكان تنسيل البشر	دار الأمين	١٩٩٧



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المثنى (الجزيرة) - ت/لاكس : ٢٤٧٣٩٩١

١ ش سوماح من ش الزقاق (عقب ناعة سيد درويش) - المرم - الجزائر
تليفون ولاكس ٥٦٣٤٦٩٩

العالم يطلع الزراعة



- مراكز المستوطنات الزراعية الأولى
- مراكز المدن المتطورة
- ⊕ مركز المستوطنات الزراعية المتطورة
- الزراعة المختلطة
- ↖

تطور الحضارات الإنسانية



■ لاحظ علماء الأنثروبولوجي فروقاً بين قدرات الأجناس المختلفة فقد تبينوا أن البوشمان (وغيره من الأجناس التي اتبعت الصيد والقتل) أكثر ذكاءً ؛ فالصائد عرف خصائص الحيوانات وطرق تربيتها وبدأ في استئناسها وتعلم كيف يجتذبها - ما دل على معرفته الواسعة والدقيقة بأنواع النباتات في بيئته وخصائصها الغذائية ، والتطبيبية والسامة ، (وعرف أيضاً كيميائية استخلاص السموم منها) . لاحظ العلماء أن حامعي الطعام كانوا أقل ذكاءً من اعتمدوا على الصيد والقتل وصائدي الأسماك ، وصائدي الطيور وناصبي الفخاخ ، وكان أكثرهم ذكاءً كانوا من اعتمدوا على الصيد والقتل وجمع الطعام معاً ، وهذه الميزة الجينية تفوق أي ميزة يمكن اكتسابها بالتدريب . ولكنه كان متخلفاً في بعض النواحي ؛ كان متخلفاً في العدد ، سواء كان الأشخاص أو الحبوب أو الأيام . وكان يرى العمل اليدوي الرتيب المتكرر مثيراً للملل ، وهكذا كان لا يتحمل زراعة الأرض . كان الصياد القديم - مثل غجر أوروبا اليوم - دائم التجوال ، ويقاوم الاستقرار في مكان واحد ، ولم تتغير صفاته سوى بالتهجين (وتظهر صفاته الأصلية في بعض أنواع الرياضة الحديثة في بعض طبقات المجتمع مثل صيد الثعالب والحيوانات المفترسة ، ومثل تفاهته ، ومثل شغفه بالترحال) ، أما جامع الطعام فهو أقل كراهية لزراعة الأرض من الصياد . ومتى أتقن الزراعة اتخذها وسيلة لإنتاج الطعام وبدأ في التكاثر السريع (لأن الزراعة تحتاج لقليل من الجهد وقليل من العناية) ، بدأ الإنسان في المقايضة بمنتجاته مع جيرانه ، ثم بدأ يتخذ التجارة وسيلة لكسب العيش ، ثم بدأ في استخراج المعادن من باطن الأرض ، ثم في صناعة السلاح وبيعها ، وعند بدء الأسواق انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمعات الإنسانية .

قال جلال الدين الرومي (كبير صوفية الإسلام الأعظم) مثل مقولة داروين قبله بمئات

السنين :

خُلِقْتُ جَمَادًا فَلَمَّا مِتُّ بَعِثْتُ نَبَاتًا
خُلِقْتُ نَبَاتًا فَلَمَّا مِتُّ بَعِثْتُ حَيَوَانًا
خُلِقْتُ حَيَوَانًا فَلَمَّا مِتُّ بَعِثْتُ إِنْسَانًا
فَلِمَ أَخَافُ الْمَوْتَ ! هَلْ عَمْرِي بَعِثْتُ أَقَلَّ مَا كُنْتُ

من مقدمة المؤلف

DAR AL AMEEN

طباعته • نشر • توزيع

دار الأمل

٨ شارع أبو المعالي (حلف المعهد البريطاني) العجوزة - الحيرة - تليفون / فاكس : ٢٤٧٣٦٩١

١ ش سوماح من ش الرقاريق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - الحيرة - تليفون / فاكس : ٥١٣٤٦٩٩